الأوبئة
بالجزائر
العثمانية

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

اســـــم الكتــــاب: الأوبئة بالجزائر العثمانية

اســـــم المؤلــــف: الدكتور خير الدين سعيدي

موضـــوع الكتـــاب: تاريخ

مقــــاس الكتـــاب: ١٧ × ٢٤ سم

عـــدد الصـــفحات: ١٠٦

رقـــم الإيــــداع: 978 – 605 – 69742 – 6- 3 I.S.B.N

التوزيع والنشر

٦/١١ شارع وحيد أفندي – حي توفيق بك – كوجوك

جكمجه – أسطنبول – تركيا – ت:٠٠٩٠٥٤٥٤٨٨٦٨٧٠

هاتف: ٠٠٢٠١٠٢٧٠١٣٣٢٦ – ٠٠٢٠١٥٥٥٥٦٦١٣٩

E-mail: info@arabhistorypublishing.com

Website: www.arabhisorypublishing.com

الأوبئة بالجزائر العثمانية

خلال القرن الثامن عشر

والثُلث الأول من القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور خير الدين سعيدي

هذا الكتاب كان في الأصل

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه

جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمــة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - قسم التاريخ

الجمهوريــة الجزائريــة

السنة الجامعية ٢٠١٨/ ٢٠١٩

«...إنّ كُلَّ ما يستطيع الإنسان أنْ يربحه في معركة الطاعون والحياة هو المعرفة والتذكُّر...»

La peste "Albert Camus"

الرموز المستخدمة في الهوامش ودلالتها

1. [AF. E] : Affaires étrangères.
2. a.g.e: adı geçen eser.
3. A.I.P.A: Archive de l’institut Pasture d’Algérie.
4. A.N.M: Académie nationale de médecine
5. AE: Ali Emiri
6. B.O.A: Başkanlık Osmanlı Arşivi
7. C. D. A. C. F: correspondance des deys d’Alger avec cour de France.
8. C. C. A: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742).
9. C.AS: Cevdet Askeriye
10. C.C.F: correspondance de la Compagnie d'Afrique
11. C.C.F.A :Correspondance des Consules de France à Alger.
12. C.DH: Cevdet Dahiliye
13. C.EV: Cevdet evkaf
14. C.ML: Cevdet Maliye
15. C.Sh: Cevdet Sıhhiye
16. E: Éditeur.
17. F. MAR: Fonds Marine.
18. G: Gömlek
19. H.V.P.C: Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud.

20. H.C.E.N.A: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique
21. HAT: Hatt-ı Hümayun
22. K.K:Kamil kepeci
23. M.A.D:Maliy defterleri
24. M.C.M: Mémoires de la congrégation de la mission.
25. N: Numara
26. S: sahifa
27. T: Tarih

و.م. و. ج. مج: وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، المجموعة.

د–ط: دون طبعة.

د–س: دون سنة نشر

مقدمة:

على مدى التاريخ برز عدد من الظواهر الطبيعية كانت وما زالت تأتي على الملايين مِن البشر بشكل صامت وتبقى تأثيراتها وتبعاتها على الهامش، أو لا ينصرف له البحث بشكل كبير، بل إنَّها مع عِظم شأنها وكبير آثارها لا تكاد تظهر حتَّى في الهامش المُتحدَّث عنه، ويمكن عد بعضها كإحدى أنماط الحروب الكلاسيكية الصامتة ضد الإنسان منذ وجوده. ولن نخطئ إن قلنا أنّ «الأوبئة» تأتي على رأس مجموعة الحروب الصامتة في التاريخ البشري.

وعدد مِن هذه «الأوبئة» مِن حيث تأثيرها على المجال العام كانت أشدَّ آثاراً مِن بعض الحروب، وظلت انعكاساتها على الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية ومجالِ تطور الحدث في حد ذاته أقوى بكثير مِن الحروب والمواجهات العسكرية التي كانت تحدث داخل أو بين الدول.

كيف لا وبعض هذه الأوبئة قامت بعملية تسرّيَع لعجلة التاريخ، وأسهمت في إحداث تغيرات كبرى في التاريخ الإنساني، كانت تحتاج في الحالة الطبيعية وبعيدا عن تأثيرات هذه الأوبئة إلى قرون عديدة لتحدُث فعلياً، فنجد بعض الأوبئة كوباء جستنيان مثلا، والذي ظهر في حدود سنة (٥٤١مـ) وقضى حسب بعض المراجع على نصف سكان الأرض، ويعد مِن ضمن الأسباب غير المباشرة في سقوط إمبراطوريات كبرى كالإمبراطورية الرومانية والفارسية، كما أنه عُدَّ أحد الأسباب التي أدت إلى ضعف وتراجع القوة الأموية خاصة في الشام لصالح العباسيين، وأمر تأثير الطاعون أو الأوبئة بشكل عام على التاريخ البشري لا يكاد يتوقف؛ إذ نجد أن طاعون الموت الأسود (*black death*) الذي امتد وجوده بين (١٣٤٧-١٣٥٣)

وأتى على أكثر مِن ستين مليون إنسان واعتُبِر حداً للانبعـاث الحضـاري والنهضـة التي ستعرفها أوروبا بعد ذلك. ونفس الأمر أنتجته الأنفلونزا الإسبانية *(Spanish flu)* (١٩١٨مـ) التي قضت على أكثر مِن خمسـين مليـون إنسـان في أوروبـا وكـان تأثيرها على الديمغرافيا الأوروبية لا يختلف كثيرا عن الحرب العالمية الأولى.

فإذا تبين لنا أهمية الأوبئة كظاهرة طبيعية مصاحبة لتطور التاريخ البشري؛ انتقلنا للحديث عنها من حيث كونها ظاهرة تاريخية، انصرفت لها عدد من الأبحاث والدراسات التي تبنت البحث في التاريخ الأنثروبولوجي والديمغرافي وتاريخ الذهنيات وضمن مضامين جديدة وحاولت مقاربة تأثيرات الظواهر الهامشية في شقي الحياة: العامة والخاصة، هذا النَّمط من التاريخ ظل هامشيا إلى حد ما في الدِّراسات التاريخية في الجزائر، وإن كان لا يخلو من بعض المحاولات الجادة مع الأستاذ «ناصرالدين سعيدوني» في تّأريخه للمسألة الاقتصادية في أطروحته للدكتوراه ثمّ تعمقه بشكل أكبر في محاولة سبر تاريخ الريف والزراعة والمِلْكية، ومساعي الدكتورة عائشة غطاس في أطروحتها حول «الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠)» كما نقف على المحاولات الأولى للخوض في تاريخ الأوبئة مع أطروحة الباحثة فلة موساوي حول «الصحة والسكان في الجزائر من العهد العثماني إلى أوائل الاستعمار الفرنسي للجزائر».

وأنا في هذا العمل الذي يسعى إلى التأريخ لإحدى الأزمات الصحية التي كانت تشهدها الجزائر خلال العهد العثماني أحاول أن أسلك نفس المسار الذي سُبقت إليه بالسَّعي إلى الخروج مِن قوقعة التاريخ السياسي إلى فضاء تاريخي يحيط بالأوبئة وآثارها على إيالة الجزائر العثمانية في مختلف مناحي الحياة

وانعكاسات التأثيرات على المجال الاقتصادي والتجاري، وتأثيرها على الكثافة السُّكانية للإيالة الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة، كما أحاول أن أرصد تأثيرات الطُّرق التِّجارية الدَّاخلية والخارجية، البرية منها والبحرية في نقل الأوبئة والطواعين مِن مكان إلى آخر.

ما سبق ذكره سيحملنا على استبعاد التفسيرات الجزئية المباشرة، والعمل لأجل نقل دراسة كلِّ مُؤثِّرٍ أو عاملٍ مِن مستواه النَّظري العام إلى مستوى جامع يربط بين المؤثرات اللامرئية، وهذا لاعتقادنا أنَّ لكلِّ المتغيِّرات مهما صَغُر شأنها آثاراً في الأزمات، وهذا يتجلَّى في عدد مِن التَّشابكات البينية المتواجدة ضمن سياقات مجالية قد تبدو مِن الوهلة الأولى وكأنها مختلفة أو متباينة لا رابط بينها.

أهمية الموضوع:

مع ما ذكر آنفا لا يزال موضوع «التأريخ للأزمات الصحية والغذائية» في مجالنا التداولي الأكاديمي فقيراً، لا يوازي الاهتمام الموجود في حقلنا الحياتي، فالتَّأريخ للأوبئة أو تاريخ الأوبئة (*epidemics history*) والذي نحن بصدده هو عملية قراءة استقصائية للآثار المترتب عن الأوبئة على مدار فترة زمنية محددة. وهو (موضوع الصحة والغذاء) يُعدُّ مِن ضمن أهم المواضيع المستجدة التي تشتغل عليها الصُّحف والمجلات والإذاعات والقنوات التلفزيونية خلال الأزمات الطارئة، لكنه يعود للهامش بمجرد مرور سحابة هذه الأزمات.

وتتجلّى أهمية الموضوع الآن في العودة اللافتة لموضوع «الأوبئة» في العالم بعد ظهور وباء (**كوفيد ١٩**) الذي يشغل الرأي العام العالمي اليوم بوطأته التي لم

تكن لتُتخيل لدى الجمهور من قبل، وإن تتبعنا الأمر قبل ظهور هذا الوباء بفترة زمنية قصيرة فقط سنجد أن الحيز الذي يشغله موضوع تاريخية الأوبئة كبير جدا، لكنه يظل ظرفيا كما سبق الإشارة إليه، فنجد مثلا أنَّ موضوع الأوبئة أضحى موضوع الساعة في الجزائر سنة (٢٠١٨م) فكان لمدة زمنية طويلة إحدى الإشكاليات الرئيسة التي تتناولها الصحف والمجلات والقنوات التلفزيونية، بل ظلت مختلف مكونات المجتمع تترقب تطور الأحداث ومساراتها.

ويكفي لنبيّن درجة أهمية الموضوع أن نشير إلى الاهتمام الكبير الذي عكسته المرآة الصحفية في يومياتها، فنقف على حجم الصدمة التي أحدثها الموضوع مِن خلال عدد العناوين في الجرائد اليومية، إذ نقف على سبيل المثال في إحدى عناوين جريدة الخبر اليومي الصادر في (١٢/ ٠٢/ ٢٠١٨م) يكتب بالبند العريض خبرا مفاده: «**طوارئ بعد انتشار داء الحصبة بالوادي**» تحدّث فيه صاحب المقال عن إصابة ثلاثة وسبعين شخصا بهذا الوباء، ولم يتوقف الأمر هنا بل نجد الموضوع يجد له حيزا أكبر في اليوم الموالي أي في (١٣/ ٠٢/ ٢٠١٨م) فتنشر جريدة الشروق اليومي مقالا بعنوان: «**وفاة طفل بداء الحصبة يثير طوارئ بالوادي**» ويرتفع عدد حالات الإصابة إلى (٢٥٤) إصابة محتملة حسب تصريحات المصالح الطبية المختصة لجريدة الخبر بتاريخ (٢٣/ ٠٢/ ٢٠١٨م) ليتمّ بعدها بيوم واحد أي بتاريخ (٢٤/ ٠٢/ ٢٠١٨م) حسب «وكالة الأنباء الجزائرية» التصريح مِن طرف وزارة الصّحة بسقوط ضحية ثانية، لكن هذه المرة في نطاق ولاية أخرى وهي ولاية بسكرة ليتجاوز الترقب ولاية واحدة إلى ولايات أخرى، ثمّ ثلاثة أيّام بعد ذلك تنشر جريدة الشروق اليومي بتاريخ (٢٧/ ٠٢/ ٢٠١٨م)

خبر بعنوان: «**البوحمرون (الحصبة) يقتل ضحيته السادس بالوادي**» بعد هذا الخبر ظل الجميع يترقب التّطورات الحاصلة، وقد اختزلت جريدة الخبر الصورة العامة التي كان عليها المجتمع مرة أخرى في الثامن من شهر مارس من نفس السنة بعنونتها أحد صفحاتها بـ: «**الحصبة الألمانية هي الخطر الأكبر القادم**» ويتحدّث صاحب المقال عن انتشار الوباء إلى قرابة (١٢٠٠) حالة مؤكدة. حاولت وزارة الصحة بث السكينة في نفوس السكان بحديث وزير الصحة عن «التحكم في الوضع الخاص بداء الحصبة» غير أن بلوغ عدد الإصابات المحتملة (٤٨٠٠) شخص وتفشي الوباء في ٢٤ ولاية جعل بث الطمأنينة أمرا مشكوكاً فيه مِن طرف السُّكان، وأبقى الجميع في حالة خوف وترقب كبيرين.

بعد حوادث داء الحصبة، أو كما يعرف في الثقافة الشعبية (البوحمرون) طيلة شهرين كاملين وبعدما خبا صيته ظهر وباء جديد، كانت آثاره أكثر من الفوضى التي خلفها وباء الحصبة، ألا وهو وباء الكوليرا، والذي أُنزل منزلة الأزمة الصحية الخطيرة والفريدة، إذ ظهرت بعض العناوين في منتصف شهر أوت (أغسطس) من سنة (٢٠١٨مـ) تتحدّث عن الاشتباه في ظهور حالات إصابة بالكوليرا، لكن الأمر ظل مبنيا على الشك وخوفا من كون الأمر إشاعة، ليتم في (أوت/ ١٦/ ٢٠١٨مـ) نشر خبر في صحيفة الخبر مفاده: «**تشكيل خلية أزمة بشأن الكوليرا في البليدة**» ثمَّ يتناول مقال آخر عنوان: «**الكوليرا ترعب الجزائريين مجددا**» في الثالث والعشرين من نفس الشهر أي في (٢٣/ ٠٨/ ٢٠١٨مـ)، وقد أدى ظهور هذه الأزمة الصحية إلى خلق نوع من الاهتزاز والريبة من الوضع العام للبلاد، وقد أثار

خبر تحقُّق إصابة قرابة (٧٠) شخص بوباء الكوليرا هلعا كبيرا في المجتمع الجزائري من جديد، خاصة مع عدم القدرة على الوقوف على المنبع المائي الملوث الذي تسبب في الوباء، ثمَّ نقف على عنوان آخر في جريدة الخبر ظهر يومين بعد ذلك (٢٥/٠٨/٢٠١٨مـ) جاء فيه: «**حالة استنفار بالمدية بسبب الكوليرا**» لتتوسع دائرة الخوف من هذا الوباء إلى الجارتين الشرقيتين تونس وليبيا؛ بحيث أعلنتا اتخاذ بعض الإجراءات التي من شانها الوقوف في وجه تفشي الوباء، بل شحذ هذا الوباء أقلام المثقفين والنخب السياسية فأضحى كلّ طرف يقوم بعملية إسقاط للأزمة على مجال اهتمامه، فحاولت بعض الأطراف تحميل السلطة الحاكمة المسؤولية الأخلاقية حيال تفشي الوباء، كما حاولت جهات أخرى فكرية وثقافية تحليل الظاهرة مِن منظور سوسيوثقافي، وأدى هذا إلى عزل بعض الإطارات الهامة في وزارة الصحة وعزل أحد الولاة، وهي كلها أمور تعكس نوعية التعاطي مع بنية هذا الوباء ومدى تأثيره والإجراءات المتخذة في شأنه وهذا من الناحية الزمنية ليس محل دراستنا هذه لذا سنكتفي بما ذكرنا.

فإن تقرّر ذلك وفُهِم القصد منه، انتقلنا للحديث عن مال لهذا الموضوع مِن أهمية في أحوازه الإنسانية العالمية، وإنّما السبيل لبيان ذلك بالحديث عن الموضوع من خلال ما تستجليه بعض الإحصاءات والتقارير العالمية عن خطورة هذا الموضوع، فنجد الكثير من الكتابات المختلفة تُجمع على أنّ الأوبئة والمجاعات إنما في حقيقتها هي أفظع وأكثر السُبل التي أتت على الإنسان في التاريخ، وهذه الأزمات تتجاوز من الناحية الكمية جلّ الأزمات والحوادث

الأخرى في تاريخ البشر[١].

فنقف مثلا في إحدى التقارير المقدمة لهيئات الصحة العالمية تقريراً يتحدَّث عن قضاء الطَّاعون الأسود في أوربا (١٣٤٧-١٣٥١مـ) على (٥٠) مليونا مِن السُّكان، ويورد أنَّ وباء الإنفلونزا الإسبانية (١٩١٨-١٩١٩) قد حصد (٢٠) مليون ضحية[٢]، وهو ما يفوق ضحايا الحرب العالمية الأولى، فإن عُرف هذا انتقلنا للحديث عن تأثيرات الأوبئة والأزمات الغذائية على الحياة الاقتصادية، فنرى أنّ الأزمات السالف ذكرها عدوٌ واضح للتنمية الاقتصادية، إذ توضِّح التقارير العلمية أنّ وباءً كالملاريا يكلف حكومات الدول العالمية ما يقارب (١٢) بليون دولار سنويا، وعدد المصابين به الآن ما بين (٣٠٠-٥٠٠) مليون شخصا يموت منهم حوالي ١ مليون سنويا[٣]، وهو عدد يقارب عدد ضحايا العمليات العسكرية الأمريكية في العراق في المرحلة الممتدة (٢٠٠٣ -٢٠١٤)، كما قد ورد في التقرير السنوي الذي تُعدُّه «منظمة الصحة العالمية» أنّ عدد الدول التي أُصِيبت بالكوليرا قد ناهز (٤٢) دولة، وتعرّض له أكثر من (١٧٢,٤٥٤) شخص في العالم توفي من بينهم (١٣٠٤) ضحية، بينما تذهب تقارير أخرى إلى أرقام أقل شدة من ذلك، وتتحدّث عن إصابة ما بين (١,٣-٤ مليون) سنويا،

---

(1) - Paul Edwards: Epidemics: past, present and future – what are the risks? Recent medical news, March 2017, Publishing Hannover Re 2, P01.

(2) - Paul Edwards: Epidemics: past, present and future, P01.

(3) - https://www.arageek.com/2014/12/25/the-most-deadly-diseases.html

يسقط منهم ضحايا يتأرجح عددهم ما بين (٠٠٠ ,١٤٣-٠٠٠ ,٢١)[1].

المصادر الخاصة بالموضوع:

وإذا كنا قد عرفنا أسباب أهمية هذا الموضوع فيما سبق كان لزاما أن نصرف القول الآن إلى الحديث عن طبيعة المصادر المعتمدة في هذا البحث، فنقول أنه يمكننا تقسيمها إلى أقسام أوَّلها المصادر الأرشيفية، والتي تأتي على رأسها الأرشيفات العثمانية التابعة لرئاسة الجمهورية التركية، وهي تنقسم بدورها إلى فصول عديدة ليس هذا محل تفصيلها، لذا سنكتفي بذكر أهم ما اعتمدناه منها، ويأتي في مقدمتها» «المراسلات الخارجية» و«الفرمانات السُّلطانية» ضمن الخط الهمايوني [Hatt-ı Hümayun] إضافة إلى العلب والمراسلات المختلفة التي تقع ضمن تصنيف جودت للأرشيف التي تحمل صيغة [C.] للدلالة على أن الوثيقة ضمن تصنيف جودت، تقسم هذه الوثائق إلى أبواب مختلفة. اعتمدنا منها بشكل أساسي الوثائق الخاصة بالأمور الصِّحية داخل الدَّولة العثمانية وإيالاتها المختلفة في المرحلة الزمنية الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) وهي تحمل رمز [C.Sh] اختصارا لاسمها في الأرشيفات [Cevdet Sıhhiye] ولهذه الوثائق أهمية بالغة فيما نحن بصدده إذ نادرا ما تغفل ذكر تفشي الوباء أو الطاعون في منطقة ما، كما أنها ترسم لنا صورة عما كان يتم اعتماده من إجراءات خلال سريان الأوبئة.

كما استخدمنا في هذه الدراسة مجموعة مِن الوثائق الأرشيفية المتعلقة

---

(1) -World health organization Geneva: Weekly epidemiological record, 23 SEPTEMBER 2016, 91th YEAR, No 38, 2016, 91, 433–440.

بالأمور العسكرية مع أن البحث فيها كان صعبا، إذ أنها لا تذكر الوباء إلاَّ عرضا لكن أهميتها في إنَّها تتحدَّث بدقة وتفصيل عن الوباء ومكان ظهوره ومحيطه كما تتكلم عن بعض المعدات العسكرية التي تأخر دخولها بسبب الوباء أو خوفا منه هذه الوثائق تحمل اسم [C.As] دلالة على إنَّها ضمن مجموعة أو تصنيفات جودت للأرشيف العسكري [Cevdet Askeriye]

ونأتي في الأخير على ذكر إحدى أهم المصادر الأرشيفية أيضا التابعة دائما لأرشيف رئاسة الجمهورية التركية في اسطنبول وهي المجموعة المالية [M.A.D] اختصارا لكلمة [defterleri-Maliy] والتي يراد بها الدفاتر المالية، وبتتبع هذه المجموعة نقف على السنوات التي كان تنقص فيها خزينة الدولة بفعل نقص الجباية التي كانت تسقطها الدولة العثمانية على عدد مِن إيالاتها التي يثبت فيها تفشي الأوبئة، وعليه أضحى انخفاض المداخيل المالية الوافدة مِن جهة ما إحدى المؤشرات لإمكانية تفشي الأوبئة أو الغذائية في منطقة ما كما سيأتي بيانه، وبالإضافة إلى الأرشيف العثماني الموجود في أرشيف رئاسة الجمهورية بإسطنبول استعنا أيضا وبشكل كبير بعدد هام من الوثائق الأرشيفية الفرنسية وبالأخص تلك الموجود بأرشيف الخارجية في باريس ومنها بالتحديد الملفات الأرشيفية الموجودة في العلبتين: [AE/B/I] [AE/B/III] والموجودتان ضمن أرشيفات وزارة الخارجية الفرنسية، خاصة بالنسبة للعلبة الثانية [AE/B/III] تلك المراسلات الموجودة ضمن ملف المراسلات الواردة من القنصلية الفرنسية في الجزائر وهي محصورة زمنية ما بين (١٦٤٢-١٧٩٢مـ) ضمن الملفات (AE/B/III/115-AE/B/III/145) تحت عنوان [Correspondences recue du

consulate d'Alger (١٦٤٢١٧٩٢)] مثل ما نقف أيضا على مجموعة هامة من الوثائق الموجودة في حيز غرفة التجارية في مرسيليا [la Chamber de commerce de Marseille] وبالتحديد ضمن ماورد من ملفات في العلبة [AE/B/III/125] تحت عنوان [Correspondance de l'inspecteur du commerce de Marseille] والمجموعتين المذكورتين غنيتين بكم هائل مِن المعلومات تخص ظهور الأوبئة وكيفية انتقالها من مكان لآخر، إضافة لهذا يوجد عدد هام مِن المراسلات التي أشارت عرضيا إلى ظهور المجاعات أو تفشي الأوبئة في إيالة الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة، كما هو الحال على سبيل المثال في وثيقة مؤرخة في الثلاثين من شهر جوان سنة (١٧٥٢مـ) تشير إلى كيفية دخول الوباء عبر الميناء إلى الجزائر ضمن العلبة [AE/B/I والملف 125/Cotes: F°46-50] وأخرى ضمن نفس العلبة لكن تحت ملف آخر عدده 124/ Cotes: F°294-296] تتحدّث عن القحط في الجزائر سنة (١٧٠٣مـ) كما سنقف على عدد كبير استخدم في ثنايا هذه الدراسة.

يوجد إضافة للوثائق الأرشيفية التي سبق ذكرها ركن آخر لا يقل أهمية عن المصادر الأرشيفية، وهي الوثائق الأرشيفية المنشورة ضمن مجموعات مختلفة، وهي أساسا ضمن كتابين رئيسيين في هذه الدراسة: أولهما: ذلك العمل الجليل الذي قام به (Eugène Plantet) والمُتمثّل في جمع وترتيب مميز للمراسلات الهامة التي كانت بين دايات الجزائر ونظرائهم الفرنسيين، وقد قام أوجان بلانيت بتصنيفها ونشرها ضمن عنوان [correspondance des deys d'Alger avec cour de France (1579-1833)] وهنا نستجلي الكم المهم من المراسلات

ضمن الجزء الثاني لهذا المجموع والتي تنحصر في المرحلة الزمنية ما بين (١٧٠٠-١٨٣٣م).

كما نقف على مُصنف آخر سلك نفس المسلك الذي سلكه «أوجان بلانيت» فاهتم صاحبه بجمع وترتيب ونشر المراسلات الرسمية -لكن هذه المرة- بين الفرنسيين في الجزائر وسلطات بلدهم الرسمية في فرنسا أي تلك الصادرة من القناصل الفرنسيين في مدينة الجزائر باتجاه فرنسا أو العكس، قام بهذا العمل باستحقاق ودقة (De Grammont) وجاء بعنوان: (Correspondance des consuls D'Alger) ونقف في هذه المراسلات أيضا على عدد مهم مِن الإشارات التي استخدمناها في سياقها لنقارنها بما وقفنا عليه من معلومات حيال تأكيد وجود ظاهرة تفشي الطاعون أو الوباء مِن عدمه وإن لم يكن في بعض الأحيان حكما قطعيًّا.

كما يمكن أن نَعدّ أحد أهم الكتابات التاريخية والمصادر الأرشيفية التي كنا نعتمدها بشكل أساسي للتأكد مِن المعلومات المختلفة حول ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة في مكان ما أو انحصاره عنها إلى مجال آخر، وهذا ضمن سياق الأعداد المختلفة مِن المجلة الفرنسية (Gazette)، وبالأخص تلك الأعداد التي كانت تصدر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأوهم ما يميز هذه الأعداد ما نقف عليه بها من معلومات حول ترابط الأوبئة ببعضها في الحيز المتوسطي، وما سمح بذلك هو تلك العمليات المسحية التي كانت يجريها المراسلون الخاصون بالمجلة، وقد كانت غنية فعلا بالعديد من التفاصيل عن لقاء عدد مِن السُّفن في حوض المتوسط بالقراصنة أو بسفن دول أخرى، كما أشارت أو حذرت من إمكانية انتقال الطاعون مِن سفينة ما التي كانت موجودة ضمن البحر

المتوسط إلى موانئ الدول في هذا المحيط، وما زاد مِن تميّز هذه المجلة عن غيرها هو اقتصارها على أمور رسمية ودقيقة في كل بلد، فنجد في كل ّعدد مِن أعدادها مختصرات عن أهم الأحداث في مدينة الجزائر أو مدينة تونس أو الإمارات الإيطالية وإسبانيا ومصر وسوريا، لذا أضحت أعداد الجريدة بمثابة التقارير الرسمية الصادرة عما يشبه هيئة قانونية فرنسية. وأصبح اعتمادنا عليه أمرا أساسيا للبت في الخلافات حول وجود أزمة صحية أو غذائية ما مِن عدمها. وهو ما يرد في بعض الأحيان في شكل حكم متيقن في المجلة.

ثمّ تأتي -من حيث الأهمية- بعد المصادر الأرشيفية بنوعيها -والتي سبق الحديث عنها- المصادر الكتابية التي عايش أصحابها تلك المرحلة أو كانوا شهودا على وجود الأوبئة، أو كان سبب إقامتهم في الجزائر متعلقا بهذه الأزمات أو في بعض الحالات النادرة نتيجةً لها، فنجد ممَّا يتصدر هذه المصادر سلسة تأريخية فرنسية تحت عنوان (*Mémoires de la Congrégation de la mission*) تضم هذه المجموعة كتابات عديدة موزعة بين مذكرات والتقارير وأبحاث علمية لمن اهتم بالحيز الجغرافي خارج المجال الفرنسي، لكن ما يهمُّنا ضمن هذه السلسلة بشكل خاص هو مذكرات الرهبان ورجال الدّين النّصارى الذي اشتغلوا أو مروا بإيالة الجزائر خلال تلك المرحلة الزمنية (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)؛ لذا اعتمدنا بشكل خاص على المجلد الثالث من هذه السلسلة.

فإذا عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من ذكرها فنقول: يأتي على رأس أهم الكتابات التي قامت بالتّأريخ للطّاعون مذكرة الأب فيشرا (*Vicherat*) وهي تشغل الفصل الخامس والعشرين ضمن الكتاب الثاني، وأسهب فيها الأب

فيشرا بالحديث عن الطّاعون الذي ألمّ بالجزائر على مرتين سنوات (١٧٨٦مـ) و(١٧٨٧مـ) واصفا فيها بعض ما اتخذ من إجراءات على مستوى المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر والذي كان هو أحد عماله، في حين أورد بعض الأعراض التي لاحظها بنفسها على جثث المرضى بشكل غير مباشر، وهو ما ساعدنا كثيرا في استجلاء نوع الوباء ومدى خطورته، مثل ما رسمت لنا تصورات الأب فيشرا مسارات التي يلج بها الوباء إلى الجزائر، ثمّ العلاقة البينية بين ظهور الوباء في إحدى الإيالات وانتشاره في المجال الجغرافي لإيالة أخرى، مثل ما نقف في نفس المجموع وضمن نفس المجلد على تقرير عن المهمة التي كان يقوم بها الأب بويسن (*Poissant*) في الجزائر في أربعينات القرن الثامن عشر، وتحدث بدوره عن مشاهداته في الجزائر، وأورد العديد من الملاحظات عن الأعراض التي تلازم المرضى أثناء الوباء الذي أصاب الجزائر سنة (١٧٤٠مـ) كما تحدث عن الجثث وبعض الأسباب التي اعتقدها مساهمة في تفشي الأوبئة في إيالة الجزائر، الأوبئة التكرارية في الجزائر خلال إقامته بها، كما نقف في نفس المصدر على مذكرة أخرى كانت من إنجاز الأب بواغي (*Poirier*) أخذ ناصية الحديث فيها إلى مُساءلة أسباب انتشار الأوبئة وظهور المجاعات بشكل عام في إيالة الجزائر وعلاقاته مع تفشي الأوبئة في المحيط القريب، إضافة إلى الأب بواغي (*Poirier*) نقف على مذكرة رابعة من نفس النمط وضمن نفس المجموع يتحدث فيها السيد بوسو (*Bossu*) عن ظهور وامتداد ثلاثة أوبئة في إيالة الجزائر سنوات (١٧٥٢مـ) و(١٧٥٣مـ) و(١٧٥٦مـ) مُشرِّحاً مظاهرها، ومُشيرا -بشكل غير مباشر- إلى انعكاساتها الحياتية سياسيا واقتصاديا.

كما نقف إضافة إلى المصادر السالف ذكرها على بعض المصادر الجزائرية التي ذكرت بعض الأوبئة أو المجاعات واعتنت بالتصنيف في هذا الباب، ويأتي في صدر هذه الكتابات ما خلفه «حمدان بن عثمان خوجة» في كتابه «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء» وإن كان الكتاب في حقيقته ليس في التأريخ للوباء والتحذير مِن خطره كما يتوهَّم الكثير مِن الباحثين، بقدر ما هو مناقشة لمسألة فقهية في جوهرها فلسفية في عرضها، ألا وهي مسألة الأخذ عن الغربيين نُظمهم وما ابتدعوه مِن ترتيباتهم. لذا فإنّ «حمدان بن عثمان خوجة» كان يناقش مسألة على غاية كبيرة من الأهمية وهي ضرورة الأخذ بالسبل التي انتهجها النّصارى في حفظ النفس ومواجهة ما يعتريها من الأذى، وقد دلّل على ذلك بالأحاديث والاجتهادات العلمية المختلفة في ضرورة اعتماد سُبل الغرب في نُظم «الحجر الصحي» والنظافة والابتعاد عن التجمعات أيام تفشي الوباء، وعليه فالمصدر الذي خلّفه «حمدان بن عثمان خوجة» يعد أوّل مصدر واعي بضرورة الانتقال إلى التأسي بالنظم الطبية الغربية بما يحفظ أنفس الناس، وهو بطريقة غير مباشرة يسرد ما كان يحدث في المجتمع الجزائري من سُبل لا علمية من أجل اتقاء شر الوباء، وسلوكهم مسالك كثيرا ما كانت تؤدي إلى نتائج عكسية. لذا فالمصدر يتطرق إلى جوانب لا يناقشها مصدر آخر مزامن خلال تلك المرحلة، وهو يصور في غير تكلّف الأسباب التي تقف وراء استحكام الوباء في بعض المجالات الجغرافية وتدخل ضمنها طبعا إيالة الجزائر.

كما نقف على مُصنَّف آخر للعنتري حاول فيه رصد المجاعات التي ألمّت ببيلك قسنطينة خلال العهد العثماني وفي بداية الاحتلال الفرنسي، ولعل ما يُميّز

كتاب «مجاعات قسنطينة» هو محاولة صاحبه رصد تأثير الأزمات الغذائية في المجتمع وجعلها أحد ركائز المناهضة للوجود العثماني في أكثر مِن مرّة، كما انتبه العنتري دونا عن غيره إلى أهمية العلاقة بين الأمن والإنتاج الغذائي، إذ نجده أكثر من مرّة يثير هذه النقطة في ثورة ابن الأحرش والدرقاوي وغيرهما، بل نجد تصويرا للانعكاس العام للأزمات الغذائية على الذهنية الاجتماعية والفكرية داخل المنظومة الاجتماعية وهو الأمر الذي تفرَّد به هذا المصدر عن غيره من المصادر، وهو ما منحه أهمية خاصة عند حديثنا على الانعكاسات التي صاحبت المجاعات في الحياة العامة.

هكذا نكون قد استوفينا الحديث عن المصادر الأساسية التي اعتمدناها في صياغة واستنباط المعلومات التي أغنت هذه الدراسة، غير أن هذا لا يعني استفاء كل ما رصدناه من منابع للعمل في إطار هذه الدراسة ولعل ما يميز النوع الذي سنذكره الآن من مصادر هو أنها من خارج النسق التاريخي البحت إذ هي في جوهرها ذات نمط تخصصي مفاهيمي، ولعل من أهم هذه المصادر القاموسي التعريفي للأوبئة باللغة الإنجليزية [*dictionary of epidemiology*] لصاحبه (*Miquel Porta*) مايكل بورتال وهو أحد أهم منشورات أكسفورد، والقاموس يقوم بتدقيق التعريفات الخاصة بالأوبئة المختلفة ومميزاتها واشتقاقاتها وكل ما تعلق بموضوعها، مثل: العدوى، انتقالها، مناهج دراستها، أنماط التعامل معها ضمن السياق التاريخي، راهنيتها حياتيا ضمن الأنساق الاجتماعية والاقتصادية المختلفة.

ويأتي تبعا لهذا القاموس العديد من التقارير والخبرات المختلفة في نفس النسق تقريبا، وهي تشكل نمطا آخر من المصادر المعتمدة بشكل أساسي في

الضبط الزمني والمفاهيمي للخصائص الوبائية والطبية والتي ضُمِّنت في مجموعة مِن التقارير الطّبية والملتقيات العلمية التي كانت تضم نخبة المختصين بعلم الأوبئة سواء منها التقارير التاريخية القديمة مثل تلك التي كانت تصدر عن الأكاديمية الوطنية الفرنسية [*Académie nationale de médecine*] بأعدادها المختلفة والتحقيقات الطبية المختصة المنشورة ضمن المجلة الطبية [*Gazette médicale de l'Algérie*] وتكمن أهمية هذه التقارير في كونها فسيفساء علمية تغطي مناطق عدة، كان يشرف على هذه المجلة الدكتور (*Bertherand*) وهو أحد أهم المختصين بالأوبئة والوبائية في تلك المرحلة ، ركزت التقارير والخبرات التي كانت ترد هذه المجلات على انتقال الأوبئة بين المجالات المختلفة وسرعة وكيفية ذلك، مع مقارنة بين العوامل المؤثرة في كل وباء، وقد خصصت العديد من الأبحاث تقاريرها عن الهواء و الماء والمناخ وعلاقتهم ببعضهم وتأثيراتهم في النفسية العامة للمجتمعات ما جعلنا لا نستطيع بأي حال إهمالها وحاولنا مناقشة ما أوردته التقارير والأبحاث من آراء بإسقاطها على المجال التداولي الخاص بالجزائر. كما نقف في شق ثاني على التقارير الأممية والدراسات الجامعية الحديثة الصادرة عن مراكز الأبحاث الطبية المختلفة وعلى رأسها [*World health organization*] منظمة الصحة العالمية خاصة فيما تعلق بتقارير تحسم الخلافات الطبية التي كانت عالقة خلال المراحل الزمنية المتقدمة من التاريخ.

وإذ قد أتينا على ذكر مجُملٍ لما استخدمناه في هذه الدِّراسة فقد بقي أن نشير إلى نقطة مهمة، وهي أن معظم الدراسات الأكاديمية التي استخدمنها بشكل كبير

سنوردها لاحقا ضمن مبحث خاص بها عند الحديث عن الكتابات حول الأوبئة في الاسطوريوغرافيا الغربية.

أسباب اختيار الموضوع:

أحد الأسباب الرئيسة التي حملتني على الخوض في مجال تاريخ الأزمات الصحية والغذائية رغم صعوبته وقلة مصادره منذ سنة (٢٠١٥مـ) هو محاولتي تتبع آثار الأمور التي ظلت هامشية ولها تأثير كبير وبالغ الأهمية في تاريخ الجزائر خلال المرحلة العثمانية، كما أني تلمست مدى تأثير هذه الأزمات على الفئات المختلفة داخل المجتمع الجزائري بصورة غير مباشرة لكنها كبيرة ومؤثرة، وهذا الأمر يندرج ضمن جهود التعرف على الجوانب الخفية في تاريخنا، والتي لها أهمية كبيرة كما ظهر اليوم في حاضرنا ومستقبلنا تجلياتها كذلك، إذ أنَّ هذه الأزمات هي أزمات مُتجدِّدة وأسبابها وتجليتها تكاد تكون واحدة كلَّ مرَّة، إضافة إلى أنَّ الموضوع لم يُطرق بالشكل الذي يستحقه، وإن كانت بعض الدراسات قد فتحت الباب لمثل هذه مواضيع كما سيأتي تفصيله لاحقا.

الإشكالية:

ظلت ردود الأفعال في الكثير من المواقف والعوارض في التاريخ ترسم صورة عامة لنمط التَّصور والتَّفكير والتَّعامل في مجالات شتى، وكثيرا ما كانت الأنماط والصور التاريخية شكلا مِن أشكال عمق التَّعامل والتفكير المجتمعي مع المحيط العام والخاص، لذا تحاول هذه الدراسة في جوهرها رصد وتتبع الأوبئة مِن حيث مسببات تفشيها وتجلياتها وانعكاساتها على مجتمع إيالة الجزائر خلال

مرحلة زمنية ممتدة على مسار قرن وثلث قرن؛ محاولين في نفس الوقت الإشارة إلى تفاعل الفئات الاجتماعية المختلفة مع ظهور الأوبئة.

ولأجل حل إشكالية المسار الأزماتي والتفاعل المجتمعي قمنا بوضع مجموعة مِن التساؤلات نسعى مِن خلالها إجابة على الإشكالية الرئيسة في الدراسة وهذا لا يتأَتَّى حقيقة إلاَّ بوضع تصور عام عن الحالة التي كانت تعيشها إيالة الجزائر في جانبها الاجتماعي والاقتصادي خلال الأزمات أثناء العهد العثماني، ومن أهم هذه التساؤلات: ما هي أهم الأوبئة التي ألمَّت بالجزائر خلال القرن الثامن عشر والثُلث الأول مِن القرن التاسع عشر؟ ثمّ هل اتَّصفت الأوبئة التي ظهرت في الجزائر خلال تلك المدة بميزات خاصة؟ ثم ما هي العوامل الأساسية المحفزة على عمليتي ظهور وتفشي الأوبئة؟ فما هي المنابع الأساسية التي كانت تفد منها الأوبئة إلى إيالة الجزائر؟ ثمَّ ما هي طبيعة العلاقة بين الأوبئة وغيرها من الأزمات؟ هل تأثرت الأوبئة أو أثرت في الأزمات الأخرى؟ بعد ذلك نولي وجوهنا إلى سؤال مهم مرتبط بما قامت به السُّلطة السياسية من إجراءات وقائية للحد مِن دخول الأوبئة وتوسعها في الجزائر؟ هل نجحت السلطة فعليا في التَّصدي لخطر الأوبئة؟ وما هي التأثيرات التي حملتها الأوبئة على المجتمع الجزائري؟ وفي أي مجال؟ إلام آل إليه الوضع اقتصاديا واجتماعيا في المناطق التي مستها هذه الأوبئة؟ ثمَّ كيف كان رد فعل وتعامل المؤسسة الدينية مع الوضع القائم؟ وأخيراً ما هي العلاقة الرابطة بين الكثافة السكانية وانتشار الأوبئة أو انحصارها؟ ثمَّ في الأخير بقي سؤالا أساسيا ماثلاً هنا حول مدى تأثير الأوبئة والخسائر التي خلفتها على مُستقبل الإيالة؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه مِن خلال خطة مكونة مِن: مدخل وخمسة فصول، أمَّا المدخل فتناولنا فيه المفاهيم الأساسية الخاصة بالأوبئة في نطاقها الطبي التَّخصصي وهو ما سيعيننا لاحقا على ضبط الاختلافات داخل الأوبئة وتصنيف الأوبئة في المرحلة محل الدراسة.

لكن قبل أن نخوض في تفاصيل ما نريد وجب الإشارة إلى شيء مهم، وهو أننا في تصورنا العام لهذه الدراسة انتقلنا ما بين أنماط مختلفة في الكتابة والتحليل، بين الكتابة بنمط يعتمد التاريخ السردي فيما يتعلق بالسرد الكرونولوجي لمسارات الأوبئة وبين أسلوب نحاول فيه استجماع الممكن والمتاح لأجل دراسة البُنى الأساسية التي ارتكزت عليها الأحداث التي سوف نتناولها في الموضوع قيد البحث، وبهذا سيلاحظ القارئ تدرج في مستويات الحديث بين مناقشة الظروف والبنى والتي سنحاول العمل بها خاصة في الفصلين الأول والثاني عند الحديث عن معالم الحياة الصحية وأسباب الأوبئة كما سنجدها مبثوثة مرة أخرى في الفصل الخامس عندما نأتي للحديث عن التداعيات المختلفة للأوبئة على مختلف جوانب الحياة، وهي بعض التداعيات التي تبقى تلامس واقعنا الحالي اليوم مثل ما يقول فرناند بروديل «...بعض البنى بفعل استمراريتها أزمنة طويلة، تصبح ثابتة على مدى لا نهائي من الأجيال؛ فتربك التاريخ وتحكم انسيابه...» فيما اعتمدنا في الفصل الثالث على الواقع الإخباري السَّردي للتاريخ، محاولين لملمة الشتات الموجود مِن معلومات في مظان مختلفة وربطها بالتَّغيرات الدَّائرة والمُتجدِّدة بسرعة في الأحداث.

فكانت الدِّراسة مُشتملة كما ذكرنا على مدخل وخمسة فصول، تناولنا في المدخل الحقل المفاهيمي الخاص بموضوع الدراسة، معرجين على جدل التَّداخل بين الأوبئة والأزمات الغذائية، إضافة إلى رصد لبعض ما ألف في موضوع دراستنا في تراثنا العربي الإسلامي.

لننتقل في الفصل الأوَّل مِن الدِّراسة للحديث عن معالم الحياة الصحية للجزائر خلال المرحلة الزمنية محل الدِّراسة، والتي ستكون امتدادا للمسار الزمني للدراسة ككل، مشيرا في الفصل عينه إلى ما كُتب في شأن الموضوع في الاسطوريوغرافيا الغربية، لننتقل بعد ذلك للحديث عن الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة وهو ما يمكن أن نعده بمثابة التَّوطئة لما نروم إيضاحه في الفصول القادمة وقد وردا هذا الفصل بعنوان: «**معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر**».

ثمَّ إذا تحقَّق لنا المراد مِن الفصل الأوَّل انتقلنا في الفصل الثاني إلى لب المرحلة الزَّمنية مجال الدراسة والممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) وخصصنَّا هذا الفصل مِن الدراسة لمناقشة الأسباب المباشرة وغير المباشرة المؤدية -أو المساعدة- في عمليتي ظهور وتفشي الأوبئة وجاء الفصل بعنوان «**أسباب الأوبئة وبيئتها بالجزائر العثمانية**»، تناولنا فيه كما سبق الأسباب المباشرة وغير المباشرة للأوبئة وحركة انتقالها من مكان لآخر، ومِن مدينة إلى أخرى وطريقة ذلك.

فإذا عرفت الأسباب المختلفة المؤدية إلى ظهور الأوبئة والمجاعات وتعرفنا على مناطق نشاطها وبروزها المستمر كان مِن واجبنا في الفصل الثالث أن نخوض في غرضنا مِن العنوان الرئيس للدراسة، ونشرع مباشرة في الحديث عن التطور الكرونولوجي لانتشار الأوبئة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني في المرحلة

الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) عنونَّا الفصل الثالث بـ: «**حوليات الأوبئة بالجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)**» وتناولنا فيه مبحثين حول تطور ظهور الأوبئة زمنيا في الجزائر خلال المرحلة المعنية بالدراسة.

ثمَّ إذا فرغنا ممَّا سبق في الفصول الأولى ورأينا إنَّه ممَّا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدق ما فيه؛ رأينا أنّه من اللازم علينا أن ننتقل في الفصل الرابع للحديث عن: «**موقف السلطة والفئات الاجتماعية من الأوبئة**» ومقصدنا مِن هذا الفصل هو رصد تعامل السلطة السياسية والسُّلطة الدينية في إيالة الجزائر خلال المرحلة ⌈ة ةئى– ة ءؤىم⌉ مع بروز الأوبئة والأزمات الغذائية، وإبراز مدى التباين في هذا التعامل بين الجهات المختلفة، وفق الزمان والمكان والجهات المسؤولة، كما أشرنا في هذا الفصل إلى الإجراءات الوقائية التي طبقتها كل فئة في حيزها وِفق خلفيتها الثقافية والسياسية كما سيأتي وأشرنا في الفصل نفسه إلى الأزمات الغذائية التي كانت تظهر في الإيالة وتُؤثِّر بدورها في الأوبئة.

ولما تحقّق لنا الغرض ممَّا سبق ذكره مِن الفصول الأربعة الأولى انتقلنا في الفصل الخامس للحديث عن « **انعكاسات الأوبئة على أوضاع الجزائر العثمانية**» أي ما نجم مِن ظهور وتفاقم للأوبئة على مختلف جوانب الحياة، فأشرنا إلى دقائق الانعكاسات على الحياة في بنياتها المختلفة (سياسيا-اقتصاديا-دينيا) محاولين في ذلك التَّطرق إلى الجوانب المختلفة التي شغلت الحيز العام للمجتمع الجزائري، فتحدَّثنا عما نجم عن ذلك؛ من انعكاسات على الجوانب الاقتصادية والسياسية وحتى على طريقة ممارسة الطقوس الدينية.

لننتقل بعد الفراغ من ذلك إلى محاولة حصر ما توصلنا إليه من نتائج في الخاتمة، فكانت بمثابة الملخص لنتائج هذا البحث، ووضعنا فيها التَّصور العام لأهم النقاط المتعلقة بالأوبئة والمجاعات خلال المرحلة الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ).

المناهج المعتمدة في الدراسة:

ولأجل الاقتراب بهذه الدِّراسة لأن تكون دراسة علمية تلقَّى عند الدَّارس المُتخصِّص القبول، ومن أجل الوقوف على صدق وواقعية النتائج المتوصل إليها في الخاتمة، وجب أن نضيف الأركان التي عليها مدار هذه الدِّراسة، والمقصود بها أساساً تلك المناهج العلمية التي اعتُمدت في تحقيق هذه الدراسة.

فاعتمدنا بشكل أساسي في الفصل الأول والثاني على المنهج الوصفي الاسترجاعي، أو ما يعرف في علم الأوبئة بـ (*Epidémiologie description*) وهذا النوع من المناهج في التأريخ للأوبئة يتَّخذ من المكونات الوصفية للأنشطة الوبائية مرتكزا أساسيا للوصف، بحيث تصبح هذه المكونات (في صورة الأهداف والعوامل والمظاهر) أقوى بكثير من المكونات التحليلية، وهي نفسها التي يذكرها بعض الباحثين باسم علم أوبئة الفرصة (*Epidémiologie of Opportunity*) واعتمادنا على هذا المنهج في هذا الفصل أساسا هو محاولة لاستحضار الصورة العامة لانتشار الأوبئة وتأثيراتها المُتعدِّدة على مختلف جوانب الحياة من خلال تتبع انتشارها وتطوراها من مكان لآخر، يطلق على هذا النمط مِن الأبحاث اسم الدِّراسة الاسترجاعية للأوبئة (*Rétrospective épidémiologie*)

ونحن من خلال ما مضى ذكره سنحاول رسم تلك العلاقة بين الخصائص الوبائية والموجودات الاجتماعية والجغرافية وغيرها.

أمَّا في الفصل الثالث فقد انتقلنا فيه مِن استخدام المنهج السردي، أو بالأحرى اعتمدنا فيه على تداخل المنهج «الوصفي» مع منهجي «التحليل والمقارنة» كأرضية أساسية لهذا الفصل، وهذا لأجل الخروج من قوقعة التاريخ الوصفي الساكن إلى فضاءات أوسع تحيط بالتأثيرات المصاحبة لظهور واندثار الأزمات الصحية في المجتمع.

أمّا في الفصل الرابع فقد حاولنا تركيب الصور المختلفة والمشتتة لأجل الوصول في الأخير إلى فسيفساء تاريخية تضم طريقة تفاعل الفئات المختلفة داخل المجتمع مع ظهور الأوبئة وتراجعها، لذا ارتأيت أنَّ الاعتماد على المنهج الاستقرائي سيكون أفضل شيء؛ يساهم في فهم تفاعل البُنى المختلفة داخل الإيالة، ورسم صيغة عن الصورة العامة لتعامل السلطة والمجتمع مع الأوبئة، محاولا في هذا الشأن رصد الملامح المختلفة التي كانت تحسب لفئة أو على فئة ما داخل مجتمع الإيالة. وقد حاولنا في نفس الوقت الذي نعرض فيه وصف عام لتعامل الفئات المختلفة مِن جهات رسمية وغير رسمية مع الأوبئة إلى تحليل هذه المواقف وفق المجال التَّداولي الخاص بتلك المرحلة الزَّمنية مِن التاريخ، دائما وفق المعطيات والإمكانيات الموجودة آنذاك.

فإن تحقق ذلك عدنا لنقول إننا في الفصل الخامس آثارنا الاعتماد على المنهج التحليلي المقارن، وهذا بالحديث عن «**انعكاسات الأوبئة على أوضاع الجزائر**»

وقد حاولنا في هذا الفصل استبعاد كلّ التفسيرات الجزئية أحادية الجانب بل سعينا إلى دراسة كلَّ نقطة جزئية ضمن مستواها النظري ثمَّ تأثيراتها ضمن النظام البنيوي العام على الظروف ثمَّ الأحداث العامة في الحياة في الإيالة بمختلف حيثياتها وتفصيلاتها.

لنأتي في الخاتمة لمحاولة عرض النقاط الأساسية التي توصلنا إليها بعد دراسة الموضوع ومحاولة الإلمام بحيثياته، والإجابة عن بعض ما كنا قد طرحنا الاستفسار بشأنه في المقدمة والإشكالية كما حاولنا فيها أن نخرج بعدد من الاقتراحات البحثية المستقبلية.

وفي ختام هذه المقدمة لابد لي أوّلاً أن أوضح أن هذا الجهد هو اجتهاد لأجل المساهمة في التَّأريخ لشق هام من الحياة الاجتماعية الاقتصادية والديمغرافية لإيالة الجزائر خلال العهد العثماني وتأثير بعض العوامل التي قد تبدو مِن الوهلة الأولى أنّها ليست ذات تأثير كبير، لكن بعد الاطلاع على بعض التفاصيل الواردة في هذا العمل قد تتغير نظرتنا لما نراه مهم أو غير مهم في تاريخ الإيالة، كما أنّه لا بد لي أن أتقدّم بالشكر والتقدير والامتنان للأستاذ «شايب قدادرة» على تفضله بقبول الإشراف على هذا الموضوع في مرحلة الدكتوراه، كما لا يفوتني أن أتقدَّم بالشكر الجزيل للأساتذة الأفاضل: «رمضان بورغدة» «يوسف قاسمي» «محمَّد شرقي» على قبولهم مناقشة هذا العمل واقتراحاتهم المختلفة لتجويده، ولكلّ مِن البروفيسور: «فارس كعوان» والبروفيسور «لوصيف سفيان» اللذان كانا منذ عرفتهما نعم الإخوة النّاصحين المشجعين لي للاجتهاد والصبر على العمل الجاد واقتراحاتهم لإثراء العمل، كما يجب علي أن أتقدَّم بالشكر الجزيل لشيخي «أبو

وائل سامي غرمول» الذي لم يبخل علي طيلة عشر سنوات كاملة بالنّصائح والتوجيهات، وشكر خاص على مُراجعاته الدائمة ونصائحه المتكررة بخصوص هذا العمل، كما أشكر أيضا السَّادة الخبراء في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» على ملاحظاتهم العميقة والجادة لأجل إثراء هذا الموضوع، كما لا يفوتني التنويه بحرص الأخوة في «مركز التاريخ العربي للنشر» على أن يرى هذا العمل النور، وإخراجه في حلة أكاديمية تليق بالمركز وقارئيه.

فُرِغ مِن مراجعته فجر اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٤١هـ الموافق ليوم الاثنين الثامن عشر مِن شهر مايو/ أيار سنة ٢٠٢٠مـ في ضاحية هلكلي بإسطنبول.

❁❁❁

مدخل: الحقل المفاهيمي

ضبط ورصد المفاهيم بحدودها ورسومها أحد أهم المفاتيح التي ترسم الأطر الكبرى لأي إشكالية وُجِدت، فبضبط المفاهيم والمصطلحات نصل بالبحث لأن يكون وحدة متجانسة ومتسقة، لذا فالركيزة الأساسية التي يمكن مِن خلالها الانطلاق إلى استنطاق المصادر والمراجع المتعلقة بهذا البحث تتمثل في: «تحديد المدلول اللفظي والمصطلحي لكل مفردة تتعلق بالبناء الرئيسي للبحث» أو بالأحرى «كل مُفردة تستخدم بشكل متكرر في هذه الدراسة» لذا ما نحاوله هنا هو مناقشة المفاهيم الكبرى للمصطلحات الأساسية في البحث.

ولعلنا لن نحيد عن الصواب إذا انطلقنا مِن تحديد مفاهيم «للمجاعة» و«الوباء» باعتبارهما مفاتيح هذه الدراسة. ولا يكون ذلك حسب رأينا إلاَّ بطرح تساؤل عن المقصود بالمجاعة لغة واصطلاحا؟ ثمّ نجيب عمّا إن كان هناك شروط بعينها يجب توافرها في سنة ما حتى نطلق عليها لفظ المجاعة؟ بعد ذلك ننتقل إلى تحديد ماهية الأوبئة. ولماذا استخدمنا صيغة الجمع في هذه الكلمة تحديدا؟ هل لأنها لا تقتصر على وباء واحد فقط؟ وإن كانت فعلا كذلك فما هي الفروق التي تحكمها؟ ثمّ بعد ذلك هل مِن علاقة بين الطَّاعون والوباء؟ وهل تتطور يا ترى هذه العلاقة مرة أخرى لتضم إليه علاقة أكبر وأكثر تأثيرا تجمع ما بين طرفي الدراسة أي بين المجاعة والوباء؟ هذه التساؤلات وغيرها هي المدار الأساسي الذي ستدور حوله مضامين هذا المدخل.

الأوبئة بين المفاهيم الطبية والمسارات التاريخية:

يعود الفضل في تحديد الأطر الكبرى لعلم الأوبئة لتلك النظريات التي أوجدها العالم اليوناني (Hippocrate) (أبقراط) الذي عاش في المرحلة ما بين (٤٦٠-٣٧٧ ق.م) والتي تحدث فيها ابتداءًا عن تأثير: الهواء، والماء، والأتربة في إيجاد الأمراض وتطويرها ونقالها مِن شخص لآخر، وهو أوّل مَن استعمل مُصْطَلَحي (Endemic) و(Epidemice) للدَّلالة على الأمراض الناجمة عن انتقال العدوى مِن فئة بشرية إلى فئة أخرى خلال فترة زمنية محددة، ويكون تأثيرها على عدد كبير من الضحايا[1].

لكن قبل أن نلج إلى التعريف الاصطلاحي بموضوعي البحث، لابد من تعريفهما لغويا، وهو ما نقف عليه بنفس النمط في معظم الكتب التراثية العربية، إذ كثيرا ما عُدَّ الوباء هو نفسه الطَّاعون عند بعض اللغويين، ولم يفرقوا بينهما البتة، كما هو الحال لدى كل مِن «الجوهري» في «الصِحاح» و«ابن منظور الإفريقي» في «لسان العرب»[٢]، و«الفيروزآبادي» في «القاموس المحيط»[٣].

---

(1) -Kenrad E.Nelson & Carolyn F.Williams: Early history of infectionus discas, Jones and Bartieti, England, 1976, P3.

(٢) – ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د–ط، د–س، ج١، مادة (وبأ) ص ١٨٩.

(٣) – مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط الثامنة، ٢٠٠٥، مادة (وبأ)، ص ٥٦.

فيُعرِّفه صاحب الصِحّاح بقوله: «الوباء يُمد ويُقصر، وهو مرضٌ عامٌ، وجمع المقصور أوباءٌ، وجمع الممدود أوبئةٌ، وقد وبأت الأرض تَوْبَأُ وَبَأً فهي مَوبُوءَةٌ إذا كثُر مرضها»[1]، هذا التعريف نفسه نجده عند كل مِن «ابن منظور» و«الفيروزآبادي» بقولهما: «الوباء: الطَّاعون، بالقصر والمد. وقيل هو كلُّ مرضٍ عام»[2] أمَّا المجاعة فقد عُرِّفت لغة بإنَّها: مِن الجوع أي المّخمصة، وهو نقيض الشبع. والفعل جاعَ جَوْعاً ومَجَاعةً، والمجاعةُ والمجُوعة والمجْوَعةُ، بتسكين الجيم، عام الجوع[3] وقيل سغَب بمعنى جاع[4]، ولا يكون السغب إلاَّ بالجوع مع التَّعب، وقيل مسغبةٌ بمعنى: مجاعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴾ أي مجاعة[5]، وقد اتَّخذت المجاعة العديد مِن الأسماء فقيل الغبراء والقحط والجدب والغبراء والعديد مِن الأسماء ذات دلالات مُتَّحدّة[6] كما اشتهرت السنوات التي تقع فيها بالعديد مِن الأوصاف كما سيأتي.

فإن عُلِم ذاك وتقرَّر ما في التعاريف اللغوية انتقلنا للكلام عن تعريف ما سبق اصطلاحا، وحفاظا على منهجية استعراض التعاريف آثارنا أن نستوفي الموجود في

---

(١) – إسماعيل بن حماد الجوهري: الصِحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربيـة، المحقـق أحمـد عبـد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، د–س، مادة (وبأ)، ص ٧٩.

(٢) – ابن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (وبأ) ص ١٨٩.

(٣) – نفسه: مادة (جوع) ص ٦١.

(٤) – مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: المرجع السابق، مادة (سغب) ص٩٦.

(٥) – ابن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (سغب) ص ٤٦٨.

(٦) – مـزدور سـمية: المجاعـات والأوبئـة في المغـرب الأوسـط (١١٩٢مـ–١٥٢٠مـ)، مـذكرة ماجيستير، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٩، غير منشورة، ص١٥.

مجالنا التداولي أولا لننتقل بعدها إلا التعاريف الغربية الحديثة منها والمعاصرة.

لعل مِن أشهر التعريفات الاصطلاحية ما ذكره صاحب كتاب «غريب الحديث» بقوله: «...المرض العامِ والوباء الذي يَفْسدُ له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان..»[1] وذكر ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» تعريفه فيما نراه أصلح ما يمكنه التعبير به عن ماهية الوباء والطاعون معا، ما نصُّه: «...والحاصل أنّ حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم أو انصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأنَّ غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء يسمى طاعونا بطريق المجاز؛ لاشتراكهما في عموم المرض وكثرة الموت،...ومَن أطلق على كل وباء طاعونا فبطريق المجاز..»[2] ولعل المجاز الذي تحدَّث عنه «ابن حجر العسقلاني» هو ما جعل «العربي المشرفي» عند تعريفه للوباء يقول: «...الوباء: هو الطّاعون. وهو مرضٌ يعمُّ الكثير من النَّاس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد مِن أمراض النَّاس»[3]

بعد استعراض التعاريف المختلفة لكلّ من الوباء والطاعون في التراث العربي والإسلامي أو ضمن مجالنا التداولي، رأينا أنَّ الأمر لا يُستوفى ولسنا حقيقين بالحديث عن ماهية الموضوع الأصلية دون الإشارة إلى الكتابات الغربية

---

(1) - مجد الدين أبي السعادات: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي الحلبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ص ٥٦٤.

(2) - أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أبو قتيبة ناظر محمد الفيريابي، دار طيبة، الرياض، ط الأولى، ٢٠٠٥، ج١٣، كتاب الطب، الباب ٣٠، ص ١٣١.

(3) - العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، تحقيق ودراسة حسن الفرقان، الطبعة الأولى، منشورات التوحيدي، الرباط ٢٠١٤، ص ٢٤٤.

عن موضوع «الأوبئة» وما سنورده مِن مصطلحات؛ لذا ارتأينا أن نُفصِّل أكثر في التعاريف الاصطلاحية للوباء والطاعون من زوايا الدراسات المعاصرة المتخصصة، فنجد معجم «أكسفورد الطبي» ينطلق من وضع تعريف عام لكل ما له علاقة بالأمراض المتنقلة والأوبئة بإشارته إلى أنّ ظاهرة تفشي وانتقال الأمراض بين الناس تدرس ضمن نطاق ما يعرف حديثا بـ (علم الأوبئة) *(épidémiologie)* وهو علم لم يُعرف بشكله الحالي -المنفصل بذاته- وفق نظرياته ومنهاجه المحددة إلاّ في المدَّة المتأخرة[1]. وعلم الأوبئة (*epidemiology*) حسب القاموس نفسه هو عبارة عن دراسة لتوزيع الأحداث المتعلقة بتفشي الأمراض المعدية مِن فئة محددة مِن النَّاس إلى جميع السكان، أو تفشي المرض بين فئات محددة مِن السكان، مع دراسة تأثيراتها وكيفية الوقاية منها[2]، وهذا التعريف متوافق مع ما أوردته المنظمة العالمية للصحة (*WHO*) في تعريف «علم الأوبئة» في موقع المنظمة الرسمي الصّحة بإنَّه «..دراسة توزيع أو المحددات ذات الصلة بالصحة، وتطبيق هذه الدراسة للسيطرة على الأمراض والمشاكل

---

(1) -Miquel Porta: A dictionary of epidemiology, Edited for the International Epidemiological Association, by Miquel Porta Associate Editors Sander Greenland Miguel Hernan Isabel dos Santos Silva John M. Last, **Oxford University Press is a department of the University of Oxford**, Sixth Edition, Printed in the United States of America, 2001, P94.

(2) -Ibid: P95.

الصحية يمكن استخدام أساليب مختلفة لإجراء التحقيقات الوبائية..»[١].

ولهذا فإنَّ «علم الأوبئة» هو علم يعتني بدراسة الحالات الجماعية للعدوى وليس بالحالات الفردية، وعليه فالأمراض الوبائية هي أمراض متفشية بين البشر، فإن عرف هذا وجب علينا التنبيه إلى أنّ الأمراض المعدية ليست بالمجمل أمراضا وبائية[٢].

يركز «علم الأوبئة» اهتمامه على شقين اثنين في دراساته: الأول: دراسة انتشار المرض في الأماكن المحددة وبين الفئات المختلفة. والثاني: دراسة العوامل المؤدية لانتشار مثل هذه الأوبئة. وعليه «فعلم الأوبئة» لا يعتني بأعراض هذه الأمراض وطرق الشفاء منها بقدر ما يولي اهتمامه لانتشار المرض[٣].

وقد أنشأت الدول الحديثة ما يشبه تنظيما عالميا صحيا لرصد كل ما له علاقة بالأوبئة وظهورها ومواجهتها، يعرف هذا التنظيم باسم *The Global Public Health Intelligence Network* (GPHIN) الشبكة العالمية للأبحاث (الاستخبارات) الصحية، لأجل محاولة استخدام المعرفة التي توفرها هذه الهيئة للسيطرة على الأمراض المعدية والتقليل من آثارها[٤].

---

(1) -World Health organization: Epidemiology, January 11.2019.
http://www.who.int/topics/epidemiology/en

(٢) – شلدون واتس: الأوبئة والتاريخ (المرض والقوة الإمبريالية)، ترجمة أحمد محمود عبد الجـواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ٨.

(٣) – نفسه.

(4) -Miquel Porta: op.cit., P94.

فإن تقرَّر ما سبق وفُهِم المراد مِن «علم الأوبئة» انطلقنا في إعطاء تصور عام للأوبئة بقولنا إنَّها أمراض شديدة تصيب البشر والثدييات ناجمة أساسا عن انتقال بكتيريا أو فيروسات (اليرسينا) في الكثير مِن الأحيان من طرف -غالبا ما يكون حيا- إلى طرف آخر، تنتقل الأمراض الوبائية بطرق عدَّة أهمها ما يكون بواسطة لدغة البراغيث المصابة بهذا الوباء، أو ما يكون عن طريق التعامل مع الحيوانات المصابة، أو ما يكون عن طريق التواصل مع البشر المصابين بهذا المرض[1]، لذا كثيرا ما نرى الدول تسعى لاتخاذ إجراءات صارمة لعزل من اشتُبه في إصابته بهذا المرض، وتُميّز الدراسات الفرنسية خاصة أنواعا معينة مِن الطَّاعون أو الوباء وتحصرها بالأساس في الأقسام التالية:

أولا: النوع الرئوي أو الدملي(*Bubo*): وهو الذي ينجم بشكل أساسي عن استنشاق هواء ملوث ببكتيريا خبيثة تنتقل غالبا عن طريق البلع أو عن طريق اللمس والاحتكاك بالحيوانات المصابة بالوباء، لتتطور البكتيريا داخل جسم الإنسان وتصبح قادرة على الانتقال مِن شخص إلى آخر[2]، تنتقل إلى أن تصبح خرجات ناتئة[3] عُرفت أعراض هذا المرض في بعض الأماكن بالطَّاعون الآسيوي

(1) - Department of Health: Plague, December 2016
https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/plague/fact_sheet.htm

(2) - Violle Henri Jules: La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921, P4.

(٣) - راجع الملاحق: الملحق الأول.

-في آسيا- أو بالموت الأسود -في أوروبا-(١)، تشير العديد من المصادر إلى أنَّ هذا الطاعون أو الوباء كان سببا في القضاء على ثُلث سكان أوروبا في ثلاثينات القرن الرابع عشر(٢).

فتكون غالبا مسببة لتضخم الغدد اللمفاوية، وقد وقفنا على عددٍ من الأعراض المشابهة لأعراض الطاعون الرئوي أو الموت الأسود في الجزائر خلال المرحلة الزمنية المعنية بالدراسة، فيتجسّد مثلا في وباء سنة (١٧٨٦مـ/ ١٧٨٧مـ)(٣)، إذ ينقل لنا الأب فيشرا -عند وصفه لجثة أحد الرهبان الذين توفوا في الجزائر خلال الطاعون الذي أصاب المدينة سنة (١٧٨٧مـ)- حالتها بقوله:»...وعند وصولي إلى المسجد وجدت جثة أخينا جاك ...وكان قد تورد وجهه فيما بقي جسمه أسود...»(٤) كما لا ينفي هذا وجود بعض الأعراض الأخرى مثل تغير لون الميت أو ظهور بعض الأماكن في الجثة تميل إلى السواد أو الزرقة الداكنة، وهي أعراض لا تختلف كثيرا عن أعراض الطاعون الأسيوي أو ما يعرف بـ«الموت الأسود» في أوروبا(٥). والذي غالبا ما كانت أعراضه لا تظهر

(1) -Laumonier Jean: La peste: histoire et traitement, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897, P02.

(2) - Chabrand, Jean-Armand: Les grandes épidémies dans le Briançonnais, Grenoble imp., France, 1886, P02.

(3) -Jena Claude Vichert: Pestes de 1786 et 178 .Dans: M.C. P560.

(4) -Ibid.

(٥)- والمقصود به أساسا الطاعون الدبلي (Bubonique) وسمي بالموت الأسود في أوروبا؛ لأنه كان يجعل بقع الدم الموجود في جسم الإنسان تتحول إلى اللون الأسود، تنتقل فيه العدوى غالبا عن طريق البراغيث والقوارض.

بسرعة ولا ينتبه لها إذ يصاب المريض بالحمى دون أن ينتبه لها لكنها لا ترتفع بشكل مباشر بل تأخذ الوقت اللازم لذلك، وتظهر البثور في أماكن مختلفة مِن الجسم وبالتحديد تحت الإبط وفي البطن وفي بعض الأحيان تصعد هذه البثور إلى خلف الأذنين وتنزل إلى الفخذين، في المرحلة المتأخرة من إصابة الضحية بهذا الوباء يصبح يعاني من الهذيان والهلوسات ويسقط مُستسلما لهذا المرض(١)، لكن الجسم لا يستثنى بدوره في هذه الحالة مِن ظهور بعض الندب السوداء نتيجة تجمع الدماء وتصلبها في أماكن مُحدَّدة وقد يتحول في بعض الأحيان هذا الطاعون إلى طاعون رئوي إذا أصاب الرئتين.

ثانيا: النوع الدموي (اللمفاوي): وهو الذي ينجم بشكل أساسي عن لدغة حشرة مصابة بجرثومة يرسينا ما ينجم عنه ظهور بثور على جلد الإنسان وهو الأكثر شيوعا في المناطق التي تكثر فيها البراغيث(٢).

فيما يرى بعض الباحثين أنّ الطَّاعون ينشأ أساسا عن جرثومة هوائية تحيا في حرارة قصوى تصل إلى (٢٥°) ويكون الانتقال السريع مِن الجسم الحامل لها إلى الجسم المحمولة إليه مِن خلال الأرومات الأكثر نشاطا عن طريق اللدغ أو اللمس، بحيث يمكن للعصية أن تخترق الغشاء المخاطي بسهولة، إلاَّ إنَّها لا تستطيع اختراق الجلد إلاَّ إن لحقه خدشٌ ما، ولو كان نتيجة بعوضة(٣).

---

(1) -Laumonier Jean: op.cit. P02.

(2) - Violle Henri Jules: op.cit., P4.

(٣) – برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين ١٦ و١٧م، ترجمة عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، ط الثانية، ص ١٨٣،١٨٤.

وهو ما يُوجِد فرضيات متعِدّدَة عن طُرق انتقال الوباء خلال تلك المرحلة الزمنية، وهذا الأمر أوجد مناقشة بين المختصين والمؤرخين حول السبل التي يسلكها الوباء أثناء عملية انتقاله مِن شخص إلى آخر وتمثُّلاتها المختلفة، بين مَن يُرجِّح فرضية الاحتكاك المباشر كآلية رئيسة لانتقال الأوبئة خلال المرحلة محل الدراسة، ومَن يرى أنّ الأصل الغالب على الأوبئة التي ألمَّت بالحيز الجغرافي محل الدِّراسة ترجع إلى الانتقال غير المباشر والذي مثّله بشكل رئيس «الانتقال الهوائي للأوبئة» وإن كانت بعض الدِّراسات استبعدت تأثير فرضية عدم انتقال العدوى على تفشي الأوبئة بالشكل الذي سنذكره[١]، وهو ما يتنافى والدلائل التاريخية المتنوعة التي سنوردها لاحقًا.

فالفريق الأوّل مِن العلماء يذهب إلى أنّ الهواء لا يُؤثِّر بشكل مباشر[٢]، وقُدرته على نقل الأرومة المصابة بالبكتيريا محدودة جداً، ولا يمكن أن تكون السبب الرئيس في تفشي الأوبئة؛ لأنّ الملاحظة تُؤكِّد أنّ الاتصال الفوري لآلاف الضحايا في الأماكن الوبائية ظلَّ دون خطر مع وجود نفس «الهواء» وأكدوا أنَّ الاتصال الوحيد عن طريق الهواء لا يؤدي لأي أعراض وبائية[٣]، بل منهم مَن

(1) - Fritsch dit long: ce que Valent les lazarets et les quarantaines, dans **Gazette Médical**, dixième Année, Directeur Dr E.L Bertherand, Alger 1865, N°7, P90.

(2) - Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, Anne 36. N°05, 1891, P36.

(3) - Clot Antoine-Barthélémy: Coup d'œil sur la peste et les quarantaines, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique, P18.

تعصب إلى درجة اعتبار أنّ الإجراءات الاحترازية مِن حِجر صحي وتطويق للمصابين لم يكن له أيُّ معنى[1]، بينما ذهب فريقٌ آخر مِن العلماء إلى أنّ السّبب الرئيس في انتقال الداء مِن شخص إلى آخر مرده الاحتكاك والالتماس المباشر، إضافة إلى حركة الهواء في المناطق الموبوءة. وعليه فالهواء يُعدُّ عُنصراً مُهماً في هذه العملية[2]، وقد حمل هذا الأمر بعض الباحثين على القول: «إنّ الجسم يستهلك كمية كبيرة من الهواء وهذا هو طعامه الأول...ولم نعثر إلى اليوم على أفراد تم حرمانهم من الهواء لمدة يوم؛ لذا فالهواء هو خبز الجسم وإذا كان الهواء يحوي على جراثيم معدية فهو بدون شك يصبح فرصة لنقل العدوى...لكن لسوء الحظ فالإنسان لا يفرق بين الهواء النظيف والهواء الملوث ما يساهم في الإضرار به..»[3]

أمّا نحن فنعتقد أنّ سبب هذا الاختلاف بين طرق انتقال الأوبئة هو اختلاف تاريخي فقط؛ لأن العلم اليوم يوضح أن هذا الاختلاف موجود فعلا ولكل طرف الحق فيما ذهب إليه بناء على نوعية الوباء الذي كان يتحدث عنه، فمكمن الخلاف أساسا يرجع إلى تركيبة الفيروسات في حد ذاتها أو لنقل يرجع إلى التركيبة النووية لكل وباء، وهو الأمر الذي لم يُشتغل عليه كثيرا في المرحلة المدروسة (١٧٠٠-

(1) - Boucher Hubert: La peste en Europe et en Asie: empoisonnement de la race humaine par les vaccins et les sérums, éditeur Libraire général et Zoophile, Paris, 1910, P59.

(2) - Fritsch dit long: op.cit., P90.

(3) - Baillière Georges Jean-Baptiste: Les Maladies évitables, Éditeur, J.-B. Baillière, Paris, 1898, P53.

١٨٣٠م)، فإن تقرَّر هذا وسلكنا المسلك المعاصر في تحري هذا الأمر تبيَّن لنا أن بعض الأوبئة كانت تنتقل فقط عن طريق الاحتكاك أو اللدغ كما هو الحال بالنسبة للطاعون الدملي وكان لا ينتقل ذاتيا من شخص إلى آخر إلاَّ في حالات نادرة، بينما انتقلت أوبئة أخرى عن طريق المياه أو الأجسام الأخرى كما هو شأن بالنسبة (للكوليرا)[١] أو تنتقل عن طريق الهواء[٢] كما هو الحال في (الطاعون الرئوي) نتيجة البكتيريا المختلفة. ونفس الأمر نجده مثلا في وباء (الجدري) إذ يُعدُّ الهواء عاملا أساسيا في نقل عصية (الفارسيلا زوستر) المسؤولة عن إحداث مرض (الجدري) كما سيأتي بيانه[٣].

مثل ما يوجد عددٌ مِن الطَّواعين ظلت منطوية على نفسها، ولم تنتقل بشكل مباشر أو سريع، وهذا مرتبط دائما بنوعية الوباء -كما سبق تقريره- وهو ما سنعيد الحديث عنه في المبحث المتعلق بانتقال وانتشار الوباء- مثل ما ينتقل المرض أو الوباء من خلال الناقل ممثلا في الفئران إلى الحاضن والذي يتمثَّل في الإنسان[٤]. خاصة إذا علمنا أنَّ الفئران حتَّى في حالة موتها فإن باستطاعة البراغيث لدغها ونقل الجرثومة أو اليرسينا الموجودة بدم الفأر إلى الإنسان لاحقا[٥].

(1) - Daremberg Georges: Le choléra, ses causes, moyens de s'en préserver, Éditeur Rueff, Paris, 1892, P07.

(٢) - انظر الملاحق، الملحق رقم: ٠٢.

(3) - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand: La variole, Éditeur Rueff, Paris, 1894, P16.

(٤) - انظر الملحق رقم:٠٢.

(5) - Violle, Henri Jules op.cit., P17.

لذا ترى الأكاديمية الوطنية الفرنسية للطب– على سبيل المثال–في نشرتها الدورية أنّ الأوبئة لها نفس التأثيرات المادية على الكائنات ذات النظام العصبي الواحد(١)، كما هو الحال في المثال الذي سقناه سابقا، وعليه فإنّه وعن طريق الحامل (الذي يتمثل في البراغيث والحشرات) ينتقل من فئة إلى أخرى(٢)، كما هو معلومٌ كما أنّ موت الفئران لا يوقف حركة الأرومة أو اليرسين التي توجد بدم الفئران(٣)، بل يتيح لها الانتقال من الجسم الساكن للفأر إلى مُتلقٍ آخر والذي غالبا ما يكون الإنسان. كما مِن الصَّعب على السَاكنة خلال تلك المرحلة ربط العلاقة بين إصابتهم بالمرض ووجود الفئران إذ أنّ موت الفئران يكون قبل إصابة الحاضن النهائي (الإنسان) بمدة تتراوح ما بين يومين وستة أيام(٤)، مع أن تفاعل الفيروسات الوبائية في جسم الفأر لا يختلف كثيرا عن تفاعل جسم الإنسان(٥) ما جعل نهاية وجود الطفيليات واحدة في الأخير.

في الأخير يجب أن نقف أيضا على التّعريفات التي وضعها أو نقلها مَن عايش المرحلة محلَّ الدراسة خلال العهد العثماني، ولا تكاد هذه التعريفات تختلف في بنيتها كثيرا عما أوردناه في الأعلى، وإن كانت مبنية على الملاحظات البصرية

---

(1) -Bulletin de l'Académie nationale de médecine: Publié par soins de la commission de publication, Tome XI, première partie, Bibliothèque académique royale de médecine, Paris, 1846,P555.

(2) - Violle, Henri Jules: op.cit., P4.

(3) - ibid.: P17.

(٤) – شلدون واتس: المرجع السابق، ص٧٠.

(5) -A.I.P.A: (1924-P347)

العامة، فنجد «العربي المشرفي» ينقل عن «الباجي» تعريفه للوباء بقوله: «...الوباء هو الطّاعون وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحداً بخلاف سائر الأوقات...»[1] مثل ما تحدّث عن أعراضه وما يصيب الضّحية بعد وفاته قائلا: «...هو دُمَّل ظاهر في مراق الجسد، يموت به سخونا ولا تغور عينا المريض به، ويشخص بصره إلى السماء عند الموت إلى أن تخرج روحه كمريض الحمى وغيرها، وصاحب هذا المرض يموت مخمورا لا يتكلم ويطول سكره...»[2]

غير أنّ هذا ممَّا قد يُوهم المتلقي أنَّ جميع أعراض الأوبئة والطواعين واحدة لكن الحقيقة والملاحظة العلمية تثبت غير ذلك[3]، إذ أنّ تجليات الوباء لم تكن نفسها في جميع حالات الإصابة بالوباء، بل كان يختلف شكل المرض عند المصابين به حسب نوعية الوباء الموجود.

فنقف مثلا عند المصابين بوباء التيفوس (le typhus) على اعتباره عدوى ناجمة أساساً من انتقال بكتيريا تدعى (السالمونيلا التيفية) (Salmonella Typhi) بين البشر[4]، وتنتشر بشكل كبير في الأماكن المغلقة المتَّسخة، وهو ما يفسر

(١) – العربي المشرفي: المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٢) – نفسه: ص ١٨٠.

(3) - Crouzet Stanislas: Dissertation sur la peste, Éditeur Camoin Dutertre, Marseille, 1822, P05.

(4) - Clot Antoine-Barthélémy: Coup d'oeil sur la peste et les quarantaines, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique.P22.

وجوده فيها بقوَّة مثلا في: السجون والأماكن المزدحمة التي يتواجد بها الفقراء والمعوزين(١)، ويذهب عدد كبير مِن المختصين إلى أنّ الجراثيم المختصة بهذا الوباء تنتجها الحيوانات لكنها لا تتأثر بها(٢)، تظهر عدد مِن العوارض على المصاب بهذا الوباء، أولها: الارتفاع الشديد والمفاجئ لدرجة الحرارة لتصل إلى (٤٠°) في بعض الحالات(٣) تصل بصاحبها حدّ الهذيان، بالأخصّ في بعض الحالات التي لا يستطيع الجسم فيها مقاومة الفيروسات(٤).

يكون التَّعرض لهذا المرض موجزا ومتزامنا؛ ما يُسبب عدوى جماعية تنتقل بين السُّكان غالبا ما يكون انتقال العدوى إمّا عبر الجلد أو عبر العوائل الناقلة كالحشرات والطفيليات والبراغيث(٥)، كما تحوز الجرذان على سمعة سيئة في هذا الشأن يرجع صداها إلى العصور الوسطى(٦).

---

(1) - Baillière Georges Jean-Baptiste: op.cit., P113.

(2) - Department of Health: Typhoid Fever, September 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/typhoid_fever/fact_sheet.htm

(3) - Bolio Antonin: Grippe et typhoïde, (thèse de doctorat) président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris -Thèse Doctorat- Éditeur C. Naud, Paris, 1904, P11.

(4) - Boucher Hubert: op.cit., P16.

(5) - Violle, Henri Jules: La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921, P09.

(6) -Kenrad E. Nelson & Carolyn F. Williams: op.cit., P3.

أما وباء الكوليرا (le choléra) فهو ناجم عن بكتيريا وعصيات تهاجم الجهاز العصبي مباشرة لدى الإنسان، لذا يلاحظ على المصابين بها نوعا من الإسهال أو الإمساك المتعفن وكثرة التعرق والغثيان[1]، كما يكثر الاستفراغ والألم الحاد في البطن، إضافة إلى إمكانية تعرّض المصاب إلى نوبات مِن العطش والجفاف الشديدين[2]، ولعلَّ هذا الجفاف والعطش مردُّه كثرة الاستفراغ والتبرُّز[3]، إضافة إلى تشنجات في الأطراف وضعف في النبض[4]. وفي بعض الأحيان تصاب مقلة العين بالشلل إلى أعلى أو إلى أسفل[5].

ولعلّ ممَّا يميز (الكوليرا) ضمن الأمراض الوبائية صفتها التكرارية[6]، مع تميّزها عن باقي الأوبئة بمحدودية انتقالها مِن شخص لآخر عن طريق

---

(1) - Millet Auguste: Du choléra-morbus épidémique, Éditeur Labé Paris, 1851, P8.

(2) - Department of Health: Plague, August 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/cholera/fact_sheet.htm

(3) - Dubar Léon: Quelques notes et souvenirs personnels concernant le choléra, Éditeur imprimerie E. Ramon, Armentières, 1909, P10.

(4) - Millet Auguste: op.cit., P2.

(5) - Caffe Paul-Louis-Balthasar: Considérations sur l'histoire médicale et statistique du choléra-morbus de Paris, Éditeur: imp. de H. Tilliard, Paris, 1832, P15.

(6) - Chrestien André-Thérèse: Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde, Éditeur L. Castel Montpellier, 1835, P22.

الاحتكاك[1]، لكن وبمجرد أن تأتي على عدد كبير من السُّكان أو تقسو على تجمعات سكنية واسعة يطلق عليها لفظ الوباء[2]، وقد ورد في إحدى التقارير المرفوعة إلى الأكاديمية الطبية إنَّه كثيرا ما عرفت أوبئة الكوليرا خلال القرن الثامن عشر تزامنا وتكرارا مستفيدة من العوامل المتوفرة خاصة منها الماء والهواء[3]. فإن تقرَّر هذا فعلا كنا جُدراء بالقول أنّ الكوليرا كانت -وماتزال مع الأسف- أحد أهم الأوبئة التي رسمت ملامحها بقوَّة في الجزائر خلال تلك المُدَّة.

وإذا أتينا للحديث عن إحدى الأوبئة المؤثرة أيضا في الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة نجد وباء الجدري (Variole) مثلاً لم يكن معروفا بشكل واضح لدى العوام مِن النَّاس، مثل ما لم يُتبين أصله ولا منبعه إلاَّ في حالات نادرة، وظل لحيز زمني معتبر مجهولا تماما، وبقي التساؤل خلال تلك المرحلة الزمنية هل ينشأ نتيجة لعلاقة ما بين الإنسان والحيوان أو عن طريق نمط آخر، كما لم تستطع في بداية الأمر تحديد نمط انتقال الجراثيم من طرف إلى آخر[4]، ولا طريقة انتقاله

---

(1) - Barbier Émile Julien Nicolas: Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale: Vichy et ses eaux minérales comme médication préventive et effective, Éditeur Vichy, 1866, P12.

(2) - Chrestien André-Thérèse: op.cit., P23.

(3) - Edouard Robin: Prophylaxie sur l'art de prévenir le choléra, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°24, 1883, P50.

(4) - Levasseur Paul: De la variole et de la vaccine rapport présenté à l'Académie, imp.. de C.-F. Lapierre Rouen, France, 1876, P04.

خلال المرحلة الزمنية التي نتدارسها، واشتهر أنّه كان يأخذ جميع وقته قبل أن يتحكم في حيز جغرافي ما[١]. كانت تظهر على المريض بعض الأعراض مثل الحمى والارتعاش والصداع الشديد والتقيؤ لكن هذه الأعراض ظلت متفاوتة بين المرضى[٢].

كما لا تقتصر الاختلافات بين الأوبئة على الأعراض المُصاحبة لها، بل تتعدَّاها إلى التمايز الزمني، إذ أنّ المُدّة الزمنية التي يستغرقها الوباء للقضاء على المصاب أو المُدَّة التي يحتاجها الجسم لتأسيس مناعته وحماية نفسه تختلف بحسب: نوعية الوباء، والحالة الصّحية للمصاب، والطريقة التي وصل بها الوباء إلى المصاب.

ولو جُعل الأمر كذلك لكان مِن غير الدَّقيق الحديث عن كوْن مدّة الحضانة المُقررة بما بين ثلاثة وثمانية أيام، بناءً على تتبع الطَّاعون لمدّة عشرين سنة كاملة كما يَرد في أحد التقارير الواردة إلى الأكاديمية الوطنية للطب بفرنسا[٣]، وهو أمر ذهب إليه العديد مِن المُختصين في تلك المرحلة[٤] لا مكن عدُّها معيارا ثابتا،

(1) - Du Mesnil, Octave: Nécessité de la revaccination des ouvriers venant prendre du travail à Paris, Éditeur imp. de E. Martinet, Paris, N°4, 15 Avril 1879, P01.

(2) - Legée, Émile: Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur: imp. de Briez, Abbeville, 1872, P04.

(3) - A.N.M: Anné1847, P43.

(4) - Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P19.

للانتقال إلى الحديث عن دخول المريض بعدها (أي: بعد ثمانية أيام) فترة النقاهة أو تجاوزه لفترة الخطر، وذلك أنَّنا نقف على الكثير مِن الأوبئة التي كانت تقضي على المريض في غضون ساعات قليلة قد لا تتجاوز الست ساعات[1] أو خلال يوم واحد كما هو الشأن في طاعون تعفن الدم، كما قد يكون بطريقة مفاجئة وهو ما أورده (*Paul-Louis*) بول لويس عند حديثه عن كيفية قضاء (الكوليرا) على شاب في الثلاثينات لم يكن مُصابا بأي مرض من قبل[2].

بينما قد يستمر نفس هذا الوباء (الكوليرا) مع مريض آخر لمدة خمسة عشر يوما أو أكثر من ذلك للقضاء عليه[3]، وهذا ما وقفنا عليه بالفعل في أنواع عديدة مِن الأوبئة، إذ وجدنا في بعض الحالات أنّ المريض في حالة إصابته بوباء (الجدري) قد لا يُنتبه لذلك إلاَّ بعد مرور ستة أيام كاملة، وحينها فقط تبدأ الأعراض في الظهور على المصاب، وعلى رأسها التوعك والقشعريرة والتقيؤ ويتزامن كلُّ هذا مع ارتفاع درجة حرارة المريض[4]، ولا تبدأ البثور المصاحبة لوباء الجدري بالظهور مثلا إلاَّ بعد تطور هذه الأعراض، بينما نجد نفس الوباء أي: (الجدري) قد يقضي على مريض آخر في مدة زمنية وجيزة لا تتجاوز (٤) الأربعة أيام[5]. ما

(1) - Caffe Paul-Louis-Balthasar: Considérations sur l'histoire médicale et statistique du choléra-morbus de Paris, P18.

(2) - ibid, P09.

(3) - Millet Auguste: op.cit., P11.

(4) - Levasseur Paul: De la variole et de la vaccine rapport présenté à l'Académie, P05.

(5) - Bourgin Pierre: Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole, Éditeur Impér. nouvelle Lyon, 1885, P12.

يؤكد وجود عوامل مختلفة هي التي تأخذ بناصية المرض للتّطور والتّقدم أو الاندثار والتراجع. لذا نحن جدراء بأن نقول إنَّ الجزم بتاريخ مُحدَّد للتعافي أو الوفاة كان أمرٌ مستعصٍ[1] والأصل مرتبط بشكل أساسي بالمناعة التي كانت لدى كل فرد، لذا نجد أن الأوبئة مثلا كانت تشكل خطرا كبيرا على الكبار في السن ممن تقل لديهم المناعة كما سيُوضح لاحقا في ثنايا البحث.

فإذا عُرف ما سبق قلنا أنَّ أمر التوقيت الزمني الذي قد يستهلكه وباء ما للقضاء على الضحية لم يكن ثابتا سواء لدى الكوليرا أو الجدري، إذ في حالة يممنا وجوهنا اتجاه وباء (التيفوئيد) وجدنا أنَّ العصية الوبائية قد تبقى في جسم المصاب دونما ظهور لأعراض بعينها وتظل خفية لمدّة تتراوح ما بين أسبوع أو أسبوعين كاملين، وفي بعض الحالات -النادرة- قد لا تظهر هذه الأعراض إلاَّ بعد أسابيع عِدّة وحينها يكون تأثيرها فعّالاً جدا وقد يكون مميتا[2].

فإن تقرّر ما سبق كنا جديرين بأنّ نقرَّ أن المدّة الزمنية غير مُحدّدة بعددٍ مُعيّنٍ مِن الأيام أو الأسابيع، وإنَّما تستلزمها العصية أو الأرومة للقضاء على المصابة وتأقلمه معها مرتبطٌ بشكل أساسي بالاستعدادات الجسمية والصِّحية لدى كل مصاب، وهذه الاستعدادات هي التي مِن شأنها أن تُساهم في إطالة أمد المرض أو

---

(1) - Arnaud Léonard: Essai sur la peste de Benghazi d'Afrique, imp. de F. Pichon, Paris, 1888, P42.

(2) - Bolio Antonin: Grippe et typhoïde, (thèse de doctorat) président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris, Éditeur C. Naud, Paris, 1904, P11.

القضاء عليه تماما، وهي بدورها التي تحكم على العصيات لاحقا سواء بالانهزام أمامها أو الانتصار عليها، إضافة إلى أنَّ طريقة نفاذ الأوبئة إلى المصاب تبقى ذات أهمية كبيرة في تحديد أمد استمرار الوباء وما يترتب عنه.

فإنْ حدث وانتقل الوباء عبر الجلد عن طريق الوخز وظهرت بعد ستة أيام مِن الحضانة بثور ثمَّ أدت إلى تكوَّن بقع سوداء فاحمة حصلنا على ما يعرف (بالتفحم الطَّاعوني) وهو ما نجد آثاره على الجثث التّي تحدّثت عنها بعض المصادر حيال وباء سنة (١٧٨٦مـ/ ١٧٨٧مـ)[1] على سبيل المثال لا الحصر، وهذا غالبا ما يكون تأثيره قويّاً وحاسماً، وكثيرا ما يظهر نتيجة لها على جثث الضحايا تفحمات في الفخذ وتحت الإبطين وعلى العنق وتظهر عُقد صلبة تصير للتقيُّح، تعرف بـ(الخرجات)[2] كما تستولي على المريض حمى شديدة ترافقها اضطرابات عصبية ونفسية حادة كما صوّرتها بعض المصادر خلال تلك المرحلة[3]، كثيرا ما يعقبها استفراغ أصفر اللون[4] وتعفُّن في الدّم وغيبوبة تنتهي بالوفاة خلال ستة أيام أو عشرة أيّام على الأكثر. مثل ما يمكن أن يتعافى المريض

---

(1) -Jena Claude Vichert; op.cit., Dans: M.C, P560.

(٢) – انظر الملحق رقم: ٠١.

(3) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu’à a nos jours, Imprimerie du gouvernement Alger,1855, P316.

(4) - Chrestien André-Thérèse: Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde, P23.

منها فعلى سبيل المثال في حالة كان المريض مصاب بالكوليرا إذ تنخفض الأوعية الدموية وتعود الحرارة التدريجية إلى متوسطها العادي، ويصبح التنفس أوسع وأعمق[١]، وهو ما حدث فعلا مع عدد من الحالات التي سنذكرها لاحقا، أمّا إن كان نفاذ الأرومة عبر الغشاء المخاطي فإن تطوره يكون أسرع وتكون نسبة الوفاة كبيرة جدا في هذه الحالات ولا يستغرق غالبا وقتا طويلا يصحبها رعاف واضطرابات عصبية[٢] قد تنتهي في الغالب بالوفاة.

فإذا جُعل الأمر كما سبق وجب علينا أن ننتقل للحديث عن شق آخر لا يقل أهمية عما سبق ويتعلَّق بالأعراض المختلفة للأوبئة على المرضى أو المصابين بالأوبئة التي كانت تلم بإيالة الجزائر، ولعلَّ مِن أهمها: شعور المريض الأولي بنوع مِن الارتفاع في درجة الحرارة قد يمتد لفترة زمنية طويلة، أمّا في بعض الحالات فيكون ارتفاع درجة الحرارة بشكل سلس وبطيء، وهو ما يُصعِّب معه ملاحظة المرض، إضافة إلى هذا نقف على ظهور بعض البثور في أماكن مختلفة من جسم المريض[٣]، في حالات معينة يخرج في جسم الإنسان (خاصة تحت الإبط) ما

(1) - Millet Auguste: op.cit., P10.

(٢) – برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص ١٨٣،١٨٤.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Voyage en Barbarie, ou Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786, sur la religion, les coutumes & les moeurs des Maures & des Arabes-Bédouins ; avec un essai sur l'histoire naturelle de ce pays. Lettre N°5, Éditeur chez J. B. F. Née de la Rochelle, 1789, Lettre N°27, P 196.

يشبه دملا مُتفحِّما صلبا؛ يشعر معه المصاب بهذا النوع من الأوبئة بالعطش الكبير[١]، وهو نفس المظهر الذي وصفه «العربي المشرفي» بقوله: «...خروج شيء في مغابن الإنسان كإبطيه يشبه الجوزة، يَسْوَدُّ ما حولها أو يحمرُّ مثلا، يمرض به الإنسان أياما عديدة وربما يعيش...»[٢] وهو الطَّاعون الدبلي الذي سبق الحديث عنه[٣] وقد أشار إلى نفس الأمر الأب «بواغي» فذكر أنّ تنتُّق هذه البثور أو الخرجات قد يؤدي إلى نتيجة سعيدة تقضي برجوع الحياة للفرد المصاب بهذا الوباء، لكن هذا الأمر نادر الحدوث[٤]. وقد يقتصر على فئة دون فئة أخرى مِن المرضى فليس أمرا استطراديا يشترك فيه جميع المرضى[٥]، كما قد تمتدّ الأعراض إلى ظهور الصُّداع بشكل كبير وبروز صعوبة في التنفس وشعور بالغثيان والكسل وألم الغُدد، كما قد يلازم المريض اللون الشاحب والذي ينقلب إلى السواد بعد موت المصاب[٦].

وهو ما نقف عليه في عَددٍ مِن الأوبئة التي أصابت إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، وهو ما صوَّره الأب (بواغي) سنة (١٧٨٥مـ) بقوله: «...أنّ المريض بهذا الوباء تظهر عليه صعوبة كبيرة في التنفس يصاحبها

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P401.

(٢) – العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، ص ١٨٠.

(٣) – انظر الملحقين رقمي: ١، ٢.

(4) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 19٦.

(5) - Arnaud Léonard: op.cit., P42.

(6) - Crouzet Stanislas: op.cit., P09.

آلام حادة في القلب وصداع عنيف في الرأس وكثيرا ما تكون هذه الأعراض مصحوبة بالحمى التي تصاحبه إلى غاية القبر، وفي الكثير مِن الأحيان تظهر خرجات مختلفة في جسم الإنسان..»[١] وقد أشار (*Joussouy*) إلى الأمر من ناحية أخرى فتحدَّث عن صُداع كبير في رأس المريض بالإضافة إلى رعشة تلازم جسده ويدوم ذلك في بعض الأحيان لفترة طويلة[٢]، تنم هذه الخرجات التي تظهر كالتفحمات في جثث الموتى عن المعاناة التي كان يعانيها المصاب بهذا الداء ولا ينطفئ آثارها في الجسم حتى بعد وفاة صاحبها. كما تحدث السيد جون ألازيا (*Jean Alasia*) عن بعض الحالات التي وقف عليها للمصابين بالطاعون الذي ألمَّ بالجزائر سنة (١٧٨٦مـ) وافداً إليها مِن تونس بقوله «إنَّ المرضى غالبا ما كانوا يعانون مِن حالات ألم شديد على مستوى البطن؛ قد يكون نتيجة تسممات ما، كما يتحدَّث عن ظهور تشنجات وبروز بعض الندبات على جسم الإنسان تتطور بعضها إلى ما يشبه خرجات تنتهي حسب ما أورد غالبا بموت المريض»[٣].

إضافة لما سبق تحدّث الدكتور (*Ducoux*) عن بروز ألم وصداع كبيرين يشكلان معا العارض المهيمن على المريض خلال هذا الوباء، تصبح شدّة هذا

---

(1) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 196.

(2) -Jean André Joussouy: M.C.T 3, P618.

(3) -Jean Alasia: Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne .Dans M.C, PP (444-448).

الألم لا تطاق، وتكون مصحوبة بالغثيان والقيء المتكرر في الكثير مِن الأحيان[١]، ونفس هذه الأعراض تقريبا تحدّثت عنها الكثير من الدراسات استنادا على الملاحظات العينية لمجموعة من أطباء القناصل الموجودين في مدينة الجزائر خلال سنوات (١٧٨٧-١٧٨٦مـ) فتُذكَر ملاحظة نفس الأعراض على المرضى الذين سقطوا نتيجة لضربات الطاعون، فنجد مثلا طبيب القنصل الإنجليزي في المدينة يكتب أنّه بعدما تفحّص ثلاث جثث مِن جثث المرضى، وجد أن لديهم نفس الأعراض، فالجميع قبل إعلان موته كان يعاني مِن الصداع الشديد في الرأس، والحمى، وكثرة القيء، وكلهم بعد موتهم ظهرت على أجسادهم بثور وخرجات متفحمة أسفل الإبط، وفي الفخذ، وأماكن أخرى[٢].

لذا فإنه يتعين علينا في الأخير أن نُقرِّر بأنّ للأوبئة تمايزاً عن بعضها البعض مِن حيث أشكالها المختلفة وتأثيراتها المتباينة، لكنها تشترك في مهاجمتها للكائن الحي وتفشيها إلى أعداد كبيرة، وتتمايز عن بعضها البعض مِن حيث قوة انتشارها وسرعة انتقالها مِن حيز إلى آخر[٣]. وعليه فالاختلاف الحقيقي بين الأوبئة يكمن في مدى تأثيرها وانتشارها وقدرتها التدميرية، ومِن الناحية التدميرية يأتي الطاعون

(1) - Ducoux François-Joseph: Esquisse des maladies épidémiques du nord de l'Afrique examen des causes qui les ont occasionnées et entretenues, Paris, aux librairies médicales et militaires, 1837, P2.

(2) - Marthe Conor: Une épidémie peste en Afrique mineure (1784-1788) dans (A.I.P.T) P٢٢٧-.

(3) - Boucher Hubert:op.cit., P17.

(الرئوي) (*bubonicplague*) أو باللغة الفرنسية (*peste bubonique*) أو ما اشتُهر باسم «الطاعون الأسود» في أوروبا ضمن الطواعين الأكثر تدميرا التي عرفتها المنطقة.

بقي أن نشير إلى نقطتين هامتين قبل الشروع في الفصل الأوَّل هما: علاقة المجاعات بالأوبئة، والتَّفريق ما بين الأوبئة والطَّواعين. ونبدأ بالعلاقة الأولى التي تضم طرفي بحثنا أي: المجاعات والأوبئة. إذ قد تقرَّر لدى علماء الصّحة أنّ المجاعة أو نقص التغذية عموما يُؤثر بشكل مباشر وأحيانا بشكل غير مباشر في انتشار وتفشي الأمراض والأوبئة[١]؛ إذ أنّ نقص التغذية المنتظمة كثيرا ما كان يُؤدي إلى نقص في البروتينات والدهون والسُّكريات والفيتامينات والتي تدخل ضِمنا في تركيب كل الخلايا الجسمية وتوفر الهرمونات التي يحتاجها الجسم، وبالأخص تلك التي تعمل على تنشيط النخاع العظمي، هذا الأخير الذي يُعدُّ مصنع الخلايا البيضاء. والنشاط الطبيعي لهذه الخلايا ضروري جدا لكي يتمكَّن الكائن مِن مواجهة العُصيات المعدية التي تَنتُج عن أمراض جرثومية المختلفة[٢]، وفقدان أو نقص الخلايا يعني بشكل مباشر ضعف الجسم وعدم قدرته على مواجهة الفيروسات التي تحملها الأمراض والأوبئة، وعليه سهولة عملية توطُّن الفيروس الوبائي في جسم المريض، وهو ما كان يؤدي في الأخير إلى انهيار الخلايا الجسمية وسقوط المُصاب ضحية لسطوة هذه الجراثيم والفيروسات.

---

(1) - Kelsch Achille: Considérations sur l'étiologie du typhus exanthématique, Éditeur G. Masson, Paris, 1872, P02.

(2) - Baillière Georges Jean-Baptiste: op.cit., P33.

فإن تقرّر ما سبق وتبين آثاره في تسريع عملية تفشي الأوبئة شرعنا في تقرير مسألة على قدر كبير من الأهمية تكمن في التّفريق بين الوباء والطَّاعون، إذ نجد عددا مِن الكتابات خاصة منها في تراثنا التاريخي لا تضع حدوداً بيِّنة بين الطَّاعون والوباء كما مرَّ سابقاً فنجد ابن منظور في «اللسان» مثلا والفيروز آبادي في «القاموس» وقبلَهما الجوهري في «الصِحاح» يرون أن». الوباء هو الطّاعون وكل مرض عام»[١]، أي كلُّ مرض انتشر بين النّاس، ونجد «العربي المشرفي» ينقل تعريفاً عن «الباجي» للوباء بقوله: «...الوباء هو الطّاعون وهو مرض يعمُّ الكثير من الناس في جهة من الجهات بخلاف المعتاد مِن أمراض الناس، ويكون مرضهم واحدٌ بخلاف سائر الأوقات...»[٢]، وهذا مبنيٌّ على تصريح العديد ممّن اشتغل في أمر الوباء أو الطّاعون أنّه يصعب تحديد طبيعة الوباء إذ ليس كل وباء طاعون كما قد يُتوهم[٣].

فالأوبئة مع ما فيها مِن صفة التّفشي قد تكتفي بأحواز جغرافية معينة ولا تتعداها إلى غيرها، بعكس الطَّاعون الذي غالبا ما يكون تأثيره أشدَّ وقدرته أعم على الانتشار والتفشي، ويمكننا الحديث عن كون الطّاعون يأتي في أعلى الهرم الوبائي مِن حيث الانتشار والتّفشي وفي قاعدة نفس الهرم من ناحية التأثير والقوّة، بمعنى أن الطاعون جزء من الأوبئة لكن ليس كل الأوبئة طواعين، وتبقى بعض

(١) - مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: المرجع السابق، مادة (وبأ)، ص ٥٦.
(٢) - العربي المشرفي: المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٣) - برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص ١٨٣.

الأوبئة بسبب انحصار مجالها الجغرافي أقل مِن أن تكون طاعونا؛ لذا فإنّ أحسن ما يقال هنا للتّمييز بين الأوبئة والطواعين هو ما نقف عليه في رسم الحد في التراث الإسلامي بقولهم:«أنّ كلّ طاعون وباءاً وليس كل وباء طاعونا»[١].

لذا فالحقيقة التي يمكن أن نقف عليها هي أنّ الأوبئة الأخرى مثل: الكوليرا، والجدري، والحصبة، والتيفوئيد وغيرها لابد أن تتوفر فيها ميزة شمولية أكثر مِن حيز جغرافي واحد حتّى يمكننا أن نصنفها في صنف يقارب صفة الطَّواعين.

ولهذا فنحن جدراء بأن نقول أنَّ الطَّاعون هو وحدة جزئية ضمن الأوبئة، لكنه مِن ناحية التأثير والقوَّة يأتي في أعلى الهرم الوبائي كما مرّ، ولكي ينتقل وباء ما إلى مستوى يكون طاعونا عليه أن تتوفر فيه بعض الصفات أهمها الانتقال السريع مِن شخص إلى آخر، تفشيَّه إلى أكثر مِن حيز جغرافي واحد، وقدرته على الحفاظ على نشاطه لأكبر مدَّة زمنية تتجاوز السنة على الأقل. ويضاف لذلك تميز جثث موتى الطواعين بالخرجات التي قد لا توجد لدى غيرهم من المصابين بالأوبئة الأخرى، فإن أخذنا على سبيل المثال (الكوليرا) رأينا أنه يدخل في حيِّز الأوبئة، لكنَّه ظل بعيدا عن أن يكون طاعونا؛ بسبب قدرته الانتقالية المحدودة أو المنعدمة تماما بشكل أدقَّ بين النَّاس، كما ذهب إلى ذلك نيكولس (Nicolas)[٢] وهو نفس ما تُقرُّه الوكالة الصِّحية الأمريكية بولاية نيويورك.

---

(١) - أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(2) - Barbier Émile Julien Nicolas: Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale, P17.

الكتابات التاريخية حول الأوبئة في التراث الإسلامي.

قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول: أن المسلمين قد اعتنوا في قرون متقدِّمة بالتأريخ للأمراض والتداوي ونوازل القحط والمجاعات، واختلفت الاتجاهات في هذا الباب بين مَن أسَّس عمله على نطاق واسع يشمل أبوب متعددة ضمَّنها ما وصله من أخبار عن أزمات غذائية وما اشتهر مِن اجتهادات للحد من هذا الأمور سواء في الثقافة الإغريقية أو تلك المستمدة مِن الثقافة الطبية للحضارة الرومانية أو الفارسية أو غيرها من الحضارات، وبين مَن اقتصر على ذكر سُبل التَّداوي في نطاقه النَّبوي والتعريف الديني للأمراض وطُرق التَّعافي منها، على أننا نكاد نقف على ما يشبه الإجماع الغربي على فضل التراث الإسلامي -خاصة منه المتقدِّم- في التأريخ للأمراض والأعراض المختلفة وطرق الشفاء منها وبالأخص فيما خلَّفه «ابن سينا» و«الرازي» وغيرهما[1]، وقد جمع شتات ما تفرَّق مِن اجتهادات وكتابات في هذا الباب وغيره ممَّا خلَّفه المسلمون مِن كتبٍ ومخطوطاتٍ في الأمراض والأدوية وغيرها من علوم «عبد الله محمد الحبشي» في كتابه «معجم الموضوعات المطروقة»[2] وكتابه الثاني «جامع الشروح والحواشي» ففيهما ما

(1) - Berthet Louis: Vaccine et variole contribution à l'étude de leurs rapports, président de thèse professeur Chauveau, laboratoire de médecine et comparcé a la faculté de Lyon J.-B. Baillière, Paris, 1884 ‹P07.

(٢) - عبد الله محمد الحبشي: معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما ألف فيها، الدار اليمينة للنشر والتوزيع، د-س، د-ط.

يغني عن تتبع كل ما ألَّفه المسلمون في هذا الشأن، وسنستغني بهما عن ذكر كل ما كُتب وإنَّما سنشير إلى ما رأيناه أهم ما كُتب في هذا الشأن أو ما تخلَّف ذكره في المصنفين السالف الذكر.

فإن تقرَّر ما سبق صرفنا البيان إلى ذكر أوَّل ما صُنف في التراث الإسلامي في شأن الأوبئة والطواعين، فنقول: يكاد يجمع مُعظم المؤرخين على أن مُصنَّف «ابن أبي الدنيا» (توفي سنة ٢٨١هـ) «الطّواعين» هو أوَّل ما كتب في هذا الشأن، إذ جمع فيه الأحاديث النبوية الخاصة بالطَّاعون وما ذكر منها في الآثار، كما نقف في القرن الرابع الهجري على كتاب تراثي هام لمحمد بن أحمد التميمي أحد رجال القرن الرابع الهجري، تناول فيه موضوعا قد يُعد مُستجداً في عالمنا اليوم يجمع بين موضوعي فساد الهواء (التلوث) والوباء[١]، كما أنَّنا نقف على عددٍ مِن الكتب لم تتناول الأوبئة بشكل مباشر، لكنها بحثت أشكالها وأنواعها والتفريق بينها كما هو الحال مع «أحمد بن أبي الأشعث» المتوفى سنة (٣٦٥هـ) الذي ذكر له محمَّد البار رسالة في التفريق بين «**الجدري والحصبة والحميقاء**»

كما نجد من بحث سبل وكيفية التحرز من الأمراض المعدية والأوبئة مثل ما هو الحال عند «هبة الله البغدادي» الفيلسوف والطبيبُ العربيٌ المتوفى سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١مـ) الذي صنَّف كتابا سمَّاه «**المغني في تدبير الأمراض ومعرفة**

(١) - محمد بن أحمد التميمي: مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، يحيى الشعار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٩مـ.

العلل والأعراض» وقد قام بتحقيقه ونشره الدكتور «محمد ياسر زكور»[1]، والكتاب مِن أبدع ما صُنِّف في هذا الباب؛ إذ يجمع بين دفتيه أشهر وأدق الأمراض التي كانت منتشرة أو معروفة خلال تلك المدُة، ونجد نمط تصنيف الكتاب منتظما في إطار واحد ينطلق دائما مِن التَّعريف بالمرض ثمَّ الحديث عن مُسبباته لينتقل بعد ذلك إلى الأعراض الناجمة عنه، فنجده مثلا يتحدَّث عن «البرص» وعن «الجرب» وعن «الحصبة» و«الجدري» وغيرها مِن الأمراض الوبائية بشكل دقيق جدا، ثمَّ يصف بعد تعريفها ما لها مِن علاج وكيفيته وتفاصيل إنشائه واستخدامه، لذا أضحى الكتاب أشبه ما يكون بوصفة طبية شاملة لكل الأمراض، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أنَّ الكتاب بحق موسوعة طبية في زمنه، أو مثل ما قال محقق الكتاب:«..إن الكتاب أشبه ما يكون بما نسميه في العصر الحديث *(handbook)*»[2].

ومما نقف عليه أيضا من مصادر اعتنت بالحديث عن (الأمراض والأعراض) المختلفة في التراث الإسلامي مخطوط عنوانه «**الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة**» لعبد الرحمن بن محمد البسطيمي[3] ومثَّل رؤية عامة الناس

---

(١) – أبي الحسن بن هبة الله البغدادي: المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض، تحقيق ودراسة وتعليق محمد ياسر زكور، راجعه عمر فاروق محمد غصن، دار المناهج، جدة، السعودية، ط الأولى، ٢٠١١مـ

(٢) – المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣) – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (٢٦٩١) [و/٨].

لطريق مواجهة الطواعين والأوبئة، فنجد أنّ المؤلف قام بتقسيم مُصنَّفه إلى ستة أبواب، جعل أولها في ذكر ما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[١] وشرحه وما ورد فيه أو ما جاء متعلقا به، ثمَّ خصَّص الباب الثاني لقوله ﷺ: «**إذا كان الوباء في أرض فلا تخرجوا فرارا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه**»[٢] فيما كان الباب الثالث قد خُصِّص فيما ورد في التراث الإسلامي من أدعية تتعلق بالوباء وأدرج فيه ما اشتهر من أحاديث وآثار، وما وجد من رُؤى الصَّالحين في ذلك، وهو في هذا الفصل يورد بإسهال الأدعية التي من شأنها حسبه أن تقي الناس الوباء، إذ يتحدَّث عن ما قبل إصابة المريض بالوباء، كما عدد في هذا الباب الطواعين في التاريخ الإسلامي وجعل منها خمس هي الأكبر والأشد آثارا[٣]. ينتقل بعد ذلك صاحب المخطوط للحديث في الباب الرابع عن الأعشاب والأدوية التي من شانها أن تعين المصاب على دفع الوباء لكنه أغدق في الكلام عن أنماط الأدعية المختلفة وكيفية قراءتها والتحري في عدِّها وما ثبت منها ليعود للحديث عن منافع الأغذية كـ: قشور الرمان، والقثاء، والخيار، وقد استعملت فعلا بعض هذه المواد كأدوية أثناء الطواعين في الجزائر خلال تلك المرحلة ومن يطلع على كشف الرموز سيقف على الكثير منها[٤]. مثل ما تحدَّث عن التَّداوي

(١) - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/ ٢]

(٢) - نفسه، [و/ ٦]

(٣) – نفسه، [و/ ٩]

(4) - Iben hamadush: kachef errmouz, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°01, 1873, P44.

بالخل والماء في أوقات الطاعون[١]، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنَّ الماء في حد ذاته قد يكون سببا في تفشي الأوبئة والطّواعين[٢].

ثُمَّ خُصَّ الباب الخامس للحديث عن الحمى وكيفية علاجها، وإن كان حقيقة أسهب في الحديث كما هي عادته عما يجري على الألسنة من ذكر يذهب الحمى والمرض من أذكار، وقد شرع في هذا الباب من الورقة الخامسة والعشرين تقريبا إلى آخر المخطوط[٣].

وفي الحاصل فصاحب المخطوط لم يخرج عن ثقافة عصره وأدوات من قبله، فنجده يعتمد على الكتب الحديثية وأمهات الكتب الطبية كالقانون لابن سينا الجامع لمفردات الأغذية والأدوية لبن البيطار[٤] ويركز على إيراد الأحاديث التي تبين طريقة الدعاء عند المرض.

وعلى العكس مِن الآثار السابق الذي شغلت الأحاديث والمنامات الجزء الأكبر منه، نقف على كتاب آخر في التراث الإسلامي مهم جدا مِن حيث اختصاصه، ومِن حيث رؤيته وتفسيره للأوبئة وإن كان صاحبه قد خصَّه بنوع مِن الأوبئة دون أخرى وهو الطَّاعون، لذا كان عنوان الكتاب «كتاب الطَّاعون وأحكامه» لمحمَّد بن محمّد المنبجي» وقد زاد مِن قيمة هذا التأليف أنَّ صاحبه كان ممَّن عايش أحد الطّواعين في عصره، ورأى ما حصل بين النَّاس مِن تفشٍّ

---

(١) – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/ ١٣]

(2) - Bolio Antonin:op.cit., P09.

(٣) – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، مخطوط، [و/ ١٣]

(٤) – نفسه، [و/ ١٥]

للاضطراب وكثرة الخرفات، لذا كان الهدف الأصيل لوضعه دحض هذه الخرافات وتبيين المنهج الشرعي الحقيقي، مُعتمداً على ما في الآثار والأحاديث النبوية[1] وفي هذا الشأن يقول:»...وكان سبب تأليف هذا الكتاب في الطاعون وأحواله وأحكامه لما رأيت ما أحدث الناس من البدع في طاعون سنة(٧٦٤هـ) ختمها الله بخير...»[2] وقد تحدث في كتابه عن شقين أوَّلها طبي يحمل في ثناياه تحقيقا حول مفهوم الطاعون ومنشئه وأسبابه وأعراضه، والقسم الآخر في الجانب العقدي وما يتعلَّق به من تفرعات، كالدعاء، والرضى، والأحاديث الواردة فيه، وما يجب على المسلم إذا علم بوقوعه أو ارتفاعه من مكان ما، وقد ذكر « المنبجي » وقوع الطَّاعون في أماكن مختلفة مِن أرض الإسلام وغيرها فذكر تكرره بمصر والعراق والشام والقسطنطينية وغيرها. وهذا المصنف بحق يوضح رؤية فئة كبيرة من علماء الإسلام للطاعون بعيدا عن الهروب إلى التسليم بوقوعه والنكوص إلى الأدعية بدون عمل يأزرها.

كما نقف في تلك المرحلة الزمنية متقدمة أيضًا على مؤلف هام في شأن الطاعون لابن حجر العسقلاني عنوانه «**بذل الماعون في فضل الطاعون**» جاء نتيجة فقدان ابن حجر العسقلاني لثلاثة من بناته في هذا الطاعون، وقد رتبه على خمسة أبواب وخاتمة وفصل، فذكر في الباب الأول مبدأ الطاعون، ثمَّ عرَّف بالطَّاعون

(١) - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: كتاب الطاعون وأحكامه، تحقيق أحمد بن محمد بن غانم آل ثاني، روايا للدراسات والبحوث، دار ابن حزم، ط الأولى، ٢٠١٧، ص ٣٧.

(٢) - المصدر نفسه، ص ٦٩.

وخصص الباب الثالث للأدلة التي تثبت أنّه شهادة للمسلمين ثمَّ تحدَّث في الفصل الرابع عما يتعلَّق بالطَّاعون من أحكام، ثمَّ ذكر في الباب الخامس ما يجب على النَّاس أيام الطَّاعون، وقد عدَّد مُحقق كتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون» أكثرَ مِن ثلاثة وثلاثين مُصنَّفاً في الطَّاعون[1] ليس هذا محل ذكرها جميعا، كما أن ابن حجر نفسه ذكر عددا كبيرا من المؤلفات في شأن الأوبئة والطواعين نحن في غنى عن إعادة ذكرها هنا.

مثل ما نقف في القرن العاشر الهجري على عدد مِن المؤلفات في شأن الأوبئة والطواعين لعلَّ مِن أشهرها «**ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**» للسِّيوطي[2]، وهو أقرب ما يكون إلى اختصار للكتاب السابق ذكره «لابن حجر العسقلاني». على أني لن أفصِّل أكثر في ذكر ما نسب للتراث الإسلامي في شأن التأريخ للأوبئة والطواعين لأن خبرها مبثوث في الكتب التي سبق أن أشرت لها[3]، وسيكون من المفيد أن انتقل مباشرة إلى ذكر بعض النماذج المغاربية لمناقشة مسألة الوباء

---

(١) - ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة الرياض، ص ٤٠.

(٢) - جلال الدين السيوطي: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد علي البار، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.

(٣) - للتفصل أكثر في هذا الموضوع، انظر:

- مقدمة تحقيق: بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة الرياض.
- مقدمة تحقيق: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد علي البار، دار القلم، ص ٧٥ وما يليها.

والطاعون وما تعلَّق بهما في المرحلة محل الدراسة. خاصة إذا علمنا أنه بداية من القرن التاسع عشر سيظهر نموذج جديد للتعاطي مع الطواعين والأوبئة يبتعد تدريجيا عن نمط المتقدمين في جمع الأحاديث في شأن الوباء وعرضها، ويتمثل النمط الجديد في ظهور مناقشات فقهية في شأن مشروعية تقليد الغرب في التنظيمات التي أحدثوها في شأن الوباء، وانتقل معها النقاش إلى طور الحديث عن أنماط ضرورية لمواجهة الوباء والطاعون. علما أنه حتى هذه المناقشات والتنظيرات كان لها ما يدعمها في النوازل والاجتهادات الفقهية السابقة لهذه المرحلة[١].

وقد أفضى النقاش الدائر حول الموضوع بالفعل إلى إنتاج عدد مِن المُصنَّفات في موضوع بحثنا انقسمت بين فريقين، فريق رأى أن من الدين الأخذ بأسباب التحوط والتحرز من الوباء، فيما رأى فريق آخر من العلماء أن ذلك مما يكون فيه اعتراض على ما قدره الله، لذا وجب الاستسلام إلى قدره وعدم فعل ما يدل على اعتراض أمره، ولعلنا لن نخطئ إن استهللناها في هذا المقام بما ظهر في الجارة الشرقية تونس من مؤلفات في شأن هذه المسألة، حيث اشتهر عددٌ مِن العلماء الذين اهتموا بأمر الأوبئة وناقشوا مشروعية التَّحرز منه، فكتب في شأن ذلك العلامة التونسي الشيخ «محمد بيرم الثاني» (توفي سنة ١٨٣١مـ) رسالة اختلف في

---

(١) – حسين بوجرة: **الطاعون وبدع الطاعون**، الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير(١٣٥٠–١٨٠٠مـ)،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠١١، ص ١٩٧ وما يليها.

تاريخ تحريرها بين من يرى أنها ألفت في أواخر القرن الثامن عشر بعيد فقدان الشيخ زوجته وأبنائه الخمسة وأحفاده في الطاعون الذي ضرب تونس سنة (١٧٨٤م) وبين مَن يرى أنَّ الشَّيخ بيرم الثاني قد أَلَّفها في الثُّلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر، وتحديداً بعد الوباء الذي ضرب إيالة تونس سنة (١٨١٨م)[١]، على أنَّ الأمر يبقى نسبيا وغير قطعي الدلالة، وحتى الإشارة التي أشار بها «ابن أبي الضياف» لا تحسم هذه المسألة[٢]، وإن كان ما ورد في نص المخطوط عضدها، بحيث أنَّ الشيخ بيرم صرَّح بإنَّه ما وضعها إلاَّ في الردّ على منكري ضرورة التَّحرز مِن الوباء وفي رفع الملام عمن آثار الاعتكاف في مكان ما[٣]، ما يجعل من وضع الرسالة بعد الوباء الذي ضرب تونس سنة (١٨١٨م) أقرب لصواب، خاصة وأنَّ العديد مِن الدلائل تقول أنَّ «الشيخ المناعي» لما صنَّف رسالته صنفها لأجل الحاكم «حسين باي» كان تصنيفها غالبا خلال نفس السنة المذكورة كما يفهم من صاحب «إتحاف أهل الزمان».

على كل حال نعود لمرادنا من ذكر هذه الرسالة التي سمَّاها الشيخ بيرم الثاني «**حسن النبأ في جواز التحفظ من الوباء**» كما هو عندنا في نسخة المخطوط التي بين

(١)- أحمد بن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من وزارة الثقافة، تنفيذ الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١، المجلد الثاني، ج٣، ص ١٢٩،١٢٨.

(٢) - حسين بوجرة: الطاعون وبدع الطاعون، ص ٢٠٥.

(٣)- محمَّد بيرم الثاني: **حسن النبأ في جاوز التحفظ من الوباء**، مخطوط، [و/ ١] وقد طبعت في مصر سنة ١٨٨٤مـ وأعيد طباعتها في المطبعة الرسمية التونسية بعد ذلك.

يدينا[1]، وذكر لها اسم آخر ذكره بعضهم «**الدر المصون واللؤلؤ المكنون في جواز التحفظ من الطاعون**»، مرتبة كما ذكر الشيخ بيرم على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة[2]، ناقشت فكرة مشروعية بل وجوب التحرز من الوباء بما هو مشروع، ومن المشروعات هذه الحجر الصحي أو الكرونتينه التي تعمل بها بلاد الغرب، ويرفض تبنيها بعض حكام العالم الإسلامي «حسين باي» حاكم إيالة تونس والذي كتب له الشيخ «سليمان المناعي» سنة (١٨١٨مـ) بعد الوباء الذ ضرب تونس رسالة في دعم حججه في ضرورة المصابرة والتسليم للقدر[3] والتي سماها «الشيخ المناعي» «**تحفة المؤمنين ومرشدة الضالين**» وقد فضَّل حسب حسين بوجرة الدخول مباشرة في صلب الموضوع والحديث مباشرة عن الطاعون وما يتعلَّق به من أحكام وقد أتت في بابين وخاتمة، وقد تجنب الشيخ الباب النظري للموضوع وهذا الأمر راجع حسب «حسين بوجرة» إلى طبيعة التكوين لدى الفريقين مِن العلماء[4].

وفي نفس سياق المناقشات حول مشروعية التأسي بالغرب في أعمال الحياة وخاصة منها نظام الحجر الصحي ظهرت رسالة أخرى عالجت موضوع الاحتراز من الوباء بالحجر لأحد علماء الجزائر «حمدان بن عثمان خوجه» سمَّاها «**إتحاف**

---

(١) – انظر الصورة الأولى من المخطوط في الملاحق، وقد طبعت قديما في مصر غير أني لم أقف على المطبوع منها؛ لذا اعتمدت على النسخة المخطوطة.

(٢) – محمَّد بيرم الثاني: حسن النبأ في جاوز التحفظ من الوباء، **مخطوط**، [و/ ١]

(٣) – أحمد بن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، ص ١٢٩-١٢٨.

(٤)– حسين بوجرة: **الطاعون وبدع الطاعون**، ص ٢١٢.

المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء» والذي يرى «علي رضا باشا» أنّها تعدُّ أوَّل تأليف في هذا الباب، وقد صُنِّفت في الحقيقة لأجل توضيح موقف الشرع من اقتفاء آثار النّصارى في اتخاذ بعض الترتيبات لمواجهة الوباء كالحجر الصحي (الكرنتينة) ولتبيان السُبل المعينة على ذلك[1]؛ لذا عُدَّ الكتاب مِن أهم ما أُلِّفَ في هذا الباب، إذا هو زيادة على احتوائه على مباحث فقهية فلم يخل مِن إرشادات للوقاية من الوباء أو في حالة أخرى العلاج منه[2]. وقد تناول فيها «حمدان خوجة» أبوابا مختلفة تناقش في غالبها مشروعية الأخذ من الغرب سبل الوقاية الصحية بل وضرورة ذلك، وقد قدَّمها للسلطان محمود الثاني سنة (١٨٣٨مـ) واعتمدت بالفعل الأمور التي أشار إليها حمدان بن عثمان لاحقا[3]، وقد ساعد على العمل بها رؤية السلطان «محمود الثاني» للنهضة الأوروبية وإعجابه بالترتيب الذي كانت تأخذ به[4]. احتوت الرسالة على فصول غاية في الأهمية وإن كانت قد ناقشت أمر أعمق من الدلالة اللفظية للأوبئة بل ناقش مشكل فقهية ذات أعماق فلسفية تتعلق

---

(1) - Ali Rıza Paşa: Mir ’atü-Cezayir el veda Cezayir çevirmen: Ali Şevki, Günümüz Türkçesine uyarlayan Cahit Kayra, 1. Baskı, Tarihçi kitap evi, İstanbul, Haziran 2014, s81.

(٢)- شخوم سعدى: قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد الأول، العدد الأول، جوان ٢٠١٥، يصدرها مخبر الجزائر والحوض الغربي للبحر المتوسط، ص ٢٨١.

(3) Birsen Bulmuş; Birsen Bulmuş; Plague, Quarantines and Geopolitics in the Ottoman Empire , Edinburgh: Edinburgh University Press, 2012. P -97

(4) Ibid.

بالنظرة إلى الآخر وجواز تقليده فما أثبتت التجربة فعاليته.

جاءت الرسالة في تسعة مقالات، تناولت المقالة الأولى **خلق الله لكل شيء** ثمَّ ف المقالة الثانية تناولت **أن الفاعل الحقيقي هو الله**، وهاتن المقالتان إنَّما وردتا لإبعاد أي تهمة عن المؤلف في أمور الاعتقاد من جهة ومن جهة ثانية ليكون البناء النظري والتقعيد المنهجي في الرسالة مكتمل الجوانب ولا يعترض عليه بعارض واه، وهذا ما يبدو جلا في حديث «حمدان خوجه» في المقالة الثالثة عن ضرورة الأخذ بالأسباب في المقالة الثالثة التي جاءت بعنوان «**مع كون الفاعل هو الله لزم الأخذ بالأسباب**» أما المقالة الرابعة فكانت في بيان بعض ما قد يختلط على الناس مِن شبهة التَّخلي عن الأثار السابقة للسلف، لذا تحدَّث في المقالة الرابعة بعنوان: «**بيان مقام الأكابر**» عن تنبيهين الأوَّل يتعلَّق «**بالتوكل**» والثاني يتعلَّق «**بحقيقة الرقية**» وجاءت المقالة الخامسة في «**سببية الأسباب**» ثمَّ في نفس المقام يواصل في المقالة السادسة «حمدان خوجه» الحديث عن الأسباب فتأتي بعنوان: «**وجود السبب والعلة**» ليأتي في المقالة السابعة للحديث عن صنعة الغرب في العلوم أو كما سمَّاه صاحبها: «**تمهر الفرج في بعض العلوم الفلسفية**» أما المقالة الثامنة فكانت فيما يتوجب على الحكام من المسلمين اتجاه رعاهم أثناء الأوبئة وخصص الحديث عن أهمية أن لا يسمح للجهال بأن يجرون رأيهم في شأن الأمور الهامة[1]، والتي يقصد بها على وجه الخصوص أن قطع فيما هو نافع ولو كان عند الغرب عمله أو سبق به الغرب، ليأتي في المقالة التاسعة ليتكلم عن

---

(١) – حمدان بن عثمان خوجه: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء، ص ١٤.

مشاهدته الشخصية ومعارفه عن نظام الكرنتينه وكيف تطبقه دول الغربية[١]. لينتقل بعد ذلك «حمدان خوجة» إلى نظام الأبواب فيجعل ما بقي مِن الرسالة في ثلاثة أبواب كان أولها كان «في النصوص الواردة في التحرز من الوباء»[٢] لينتقل في الباب الثاني للحدث عن أقوال مختلف المذاهب في شأن الاحتراز من الوباء وهنا يرد «حمدان خوجة» على الاعتراضات المختلفة التي يوردها من لا يرى بالاحتراز، لينتهي في الباب الثالث مِن الرسالة إلى العودة للحديث عن كيفية عمل الكرنتينه وفصَّل في كيفية تعيين المسؤولين عن هذا الأمر واختيارهم وصلاحياتهم والمطلوب منهم[٣].

ولعل عرضنا المقتضب لهذه الرسالة يوضح ما لها من أهمية خلال المرحلة محل الدراسة، ولعل ما أورده «حمدان خوجه» مِن تفصيلات هي ما جعلت «علي رضا باشا» ابن «حمدان خوجه» يجعل ما صنفه والده هو أوَّل ما أُلِّف في شأن الاحتراز مِن الوباء في التاريخ العثماني، وهي ما حملت بيرسَن بولمش *(Birsen Bulmuş)* على تخصيص جزء ضمن رسالته للدكتوراه عن الأوبئة في التاريخ العثماني لحمدان بن عثمان خوجه[٤].

---

(١) – نفسه، ص١٥ .

(٢) – نفسه، ص١٦-٣٠.

(٣) – نفسه، ص٣٠-٥٤.

(4) Birsen Bulmuş; Birsen Bulmuş; Plague, Quarantines and Geopolitics in the Ottoman Empire , Edinburgh: Edinburgh University Press, 2012. P 108-97.

وممَّا كُتب في شأن الأوبئة ما خلَّفه «محمد ابن العربي»، وهو رسالة في الطب والمداوة قدمت إلى المدرسة الطبية بباريس من أجل الحصول على شهادة حكيم، عنوانها"*la médecine arabe en Algérie*"[1] طبعت باللغة الفرنسية أول الأمر سنة (١٨٨٤مـ)، وقام بنقلها إلى اللغة العربية «علي بوشوشه» فطُبِعت مرة ثانية باللغة العربية سنة (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢مـ) في المطبعة الرسمية التونسية[2].

وقد صرحَّ «محمَّد بن العربي» أنَّ غرضه من هذا العمل إظهار ما كان مُعتمدا لدى الجزائريين خصوصا والمسلمين عموما من خبرات في هذا الفن[3]؛ لذا نجده قد شرع في تبيان ما للمسلمين من فضل وسبق في علم الطب والرياضيات والفلك والآداب والفنون المختلفة في القرون الأولى من حكمهم، فذكر عدد من العلماء في الطب خلال تلك المدة الزمنية من أمثال « عثمان بن سويد الإخميمي» و«أبو علي خالف» طبيب أحمد بن طولون و«موسى بن غسان» وغيرهم من أعيان الطب العربي الإسلامي إلى غاية القرن الخامس عشر الذي يرى فيه المؤلف أن نجم المسلمين بعده قد أفل[4]، لينتقل بعدها إلى للحديث عن واقع الطب في زمانه،

---

(1) - Mohamed ben Larbey Seguir: la médecine arabe en Algérie, thèse pour le doctorat en médecine présente et soutenue le 16 juillet 1884, président M. Béclard, Faculté de médecine de Paris, Année 1884, N°291.

(٢) – محمد بن العربي: الطب العربي بعمالة الجزائر، تر، علي بوشوشه، المطبعة الرسـمية التونسـية، ١٣٠٩هـ.

(3) - Mohamed ben Larbey Seguir: op.cit., P10.

(4) - Ibid. PP 14-18.

ويسهب في التكلم عن الأعراض التي تظهر، وكيف يتعامل معها الأهالي في الجزائر خلال تلك المدّة، وهو بهذا يعطي لمحة عمَّا كان مُعتمداً خلال تلك المرحلة، وهو لم يقدم فيها الشيء الجديد، إذ اكتفى باستعراض ما كان موجودا مِن الأمراض وطرق التداوي منها، فذكر مثلا: الجذام، والرمدة. وتحدَّث عن الكي كأحد طرق العلاج النافعة والمنتشرة بين الأهالي، لينتقل بعد ذلك إلى الطرق الوقائية لحفظ الصِّحة في عمالة الجزائر، والتي كانت امتدادا للعادة السابقة، ثمَّ يذكر بعد ذلك ما لداء الجدري مِن سطوة في البلاد وكيف كان الأهالي ولايزالون مستمرين في رفض التطعيم الذي حاولت فرنسا فرضه للحد مِن انتشار الجدري[1].

لينتقل بعدها «محمَّد بن العربي» إلى الحديث عن الطب مِن المنظور الشرعي الإسلامي لما يترتب عليه من أحكام في المواريث وغيرها ليس هذا محل بحثها[2]. لكن لا بد لنا هنا أن نشير إشارة خفيفة إلى ما كتب في الموضوع في الجانب الأكاديمي فنجد أن أوَّل مِن اشتغل على الموضوع في كلياته الأستاذة فلة موساوي القشاعي في موضوعها عن «الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاستعمار الفرنسي» تحصّلت به صاحبته على شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر سنة (٢٠٠٤مـ) وبحث آخر في نفس الحيز المفاهيمي وإن كان أكثر دقة من ناحية البنية المقاربة لموضوع

(1) - Ibid. PP 36-37.

(2) - Ibid. PP 50-53.

بحثنا قد قُدِّم لنيل شهادة ماجيستير تاريخ وسيط نُوقش مِن طرف الطالبة «مزدور سمية» سنة (٢٠٠٩مـ) وكان تحت عنوان «المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (١١٩٢-١٥١٠م) فجاءت الدراسة وصفية استرجاعية غطت جزءاً هاماً مِن المرحلة التاريخية للمغرب الأوسط.

ويمكن القول إذا بأنَّ الأوبئة قد أخذت حيزا هاما في الفكر الإسلامي والتراث العربي قديما، ويمكننا أن نتحدث عن تصنيف الكتب في هذا الشأن إلى صنفين: كتب اعتنت بالطاعون والوباء في شقه الديني وكُتب اهتمت بالشق الحاضر لظهور الأوبئة مُتعلِّقة إما بالجانب الطبي أو بالتأريخ للطواعين الواقعة. لذا يمكننا القول أنَّ الكتابة في الموضوع كان باعتناء المحدثين، وإن ظلَّت مكتفية بجمع الأحاديث والتعليق عليها، وفي مراحل متقدِّمة بعد ذلك شرحها وسرد ما تعلَّق منها بالواقع التاريخي في جزئيات تكون غالبا في مقدِّمات هذه الكُتب، إلاَّ إنَّها حملت أيضا عدداً مِن التوجيهات في الاحتراز مِن الوباء كانت مفقودة تماماً في حضارات أخرى أو على الأقل نادرة الظهور، أمَّا الجزء الثاني المتعلق بالجانب الطبي أو التاريخي فظل في غالبه يتَّجه إلى التَّداوي مِن الطَّواعين والأوبئة إلى الاقتصار -في مرحلة ما- على تصور عام للتداوي بالأعشاب بحيث كان الطب العملي يأتي في المرحلة الثانية.

كما يمكننا أن نتحدَّث عن كون الأوبئة والطَّواعين قد خلقت نوعا مِن التَّفاعل الإيجابي والفقهي بين العلماء حول قضايا عميقة تتمثل في النظرة لتجارب الآخر ومحاولة الاستفادة منها وإن لم تكن محل نقاش مستفيض قبل

القرن التاسع عشر، لكن التعاطي مع مشكلة كالأوبئة سرَّعت قبول جزء من العلماء لتجارب الآخر وحاولت إقناع الخواص مِن الحكام وعامة الناس بجدوى ذلك.

❁❁❁

الفصل الأول:
معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر

- أولا: الأوبئة وآثارها في الإسطوريوغرافيا الغربية.
- ثانيا: الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة بالجزائر أثناء العهد العثماني

الكتابات التاريخية حول الأزمات الغذائية والصحية في الاسطوريوغرافيا[1] الغربية:

أخذ موضوع الحياة الصحية والأوبئة بشكل خاص حيزا هاما في الثقافة التدوينية والتقييدية لدى الطرف الغربي منذ القدم ممَّا لا يسعنا الإحاطة به في مقامنا هذا، لهذا رأينا أن ننتقل مباشرة للحديث عن الإنتاج العلمي في موضوع بحثنا للمرحلة القريبة زمنيا منه أي خلال مرحلة التاريخ الحديث والمعاصر، فنقول إنَّ الكتابة في هذا الفن قد تجددت في الثقافة الغربية بداية مِن القرن الثامن عشر، لذا نقف على عدد معتبر مِن الباحثين أو المقيمين في الجزائر أو المشتغلين على مواضيع تخصّ إيالة الجزائر خلال العهد العثماني قد أفردوا جزءا مهما مِن مؤلفاتهم للحديث عمَّا لاحظوه من هذه الظواهر التي ظلت منسية في الثقافة التدوينية المحلية. بل نجد العديد من الكتابات -خاصة منها كتابة الرحالة والرهبان والأسرى- قليلا ما يفوتها الإشارة إلى وجود الطَّاعون أو الوباء.

كما نجد عددا قليل مِن الباحثين أو الهواة قد أفرد هذا الموضوع بتصنيف أو أكثر. عكس موضوع المجاعات والأزمات الغذائية إذ نجد التأليف خلال المرحلة محل الدراسة نادرة وقليلة، خاصة إذا ما تعلَّق بإيالة الجزائر على وجه التحديد، فلا نقف إلاَّ على نزر يسير مِن الدِّراسات الغربية في هذا الجانب، لعل

(١) – الكثير من الكتابات العربية تكتبها "الاسطوغرافيا" (Histographie) وهو خطأ لا يخفى، إذ أنَّ الاسطوغرافيا يقصد بها "علم دراسة الأنسجة الحيوية لجسم الكائن الحي" أمَّا الاسطوريوغرافيا (Historiographie) فيقصد به "علم التأريخ" أو "منهج العمل على المعرفة التاريخية". مِن ملاحظة للأستاذ "سفيان عبد اللطيف".

أهمها: محاولة التأريخ للمجاعة التي ضربت الجزائر في بدايات الاحتلال الفرنسي وكانت تحت مُسمَّى: « *La famine en Algérie et les discours officiels*» لكنها عالجت بشكل خاص تلك المجاعة التي ألمَّت بالجزائر (١٨٤٨مـ)[1] مثل ما نقف في دراسة لـ(*Dauban*) دوبان عن تاريخ مدينة باريس وتخصيصه لحيز هام أورد فيه المجاعات التي أصابت المدينة وآثارها المُدمِّرة عليها وتسببها في هجرة العديد مِن سكان المدينة، وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان: « *Paris en 1794 et en 1795: histoire de la rue, du club, de la famine*» والدراسة كاملة وردت في حوالي ستة مائة صفحة (٦٠٠) ضمن بنية واحدة لم تفرق بين الجزئيات المتناولة بالدراسة[2]

وإذ قد ظهر لنا قلة من جنح للكتابة في موضوع المجاعات ضمن الاسطوريوغرافيا الغربية فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا من هذا المبحث لنتحدث عما كتب عن الأوبئة والطواعين خلال المدة الزمنية محل الدراسة، ويمكننا تصنيف ما خُلِّف مِن كتبٌ في موضوع «الطَّاعون والأوبئة» أو «الأمراض المعدية وما تعلَّق بها وما كان على شاكلتها» مِن حيث التسلسل الزمني لهذه

---

(1) - La famine en Algérie et les discours officiels. Erreurs et contradictions. (12 Avril 1868), Éditeur **Marle**, Constantine, 1868.

(2) - Dauban, Charles-Aimé: Paris en 1794 et en 1795: histoire de la rue, du club, de la famine, composée d'après des documents inédits, particulièrement les rapports de police et les registres du Comité de salut public, Éditeur Plon, Paris, 1869.

الدراسات على الشكل التالي:

لكن قبل أن نشرع فيما وعدنا من ذكر للكتب المختصة في هذا الشأن والدراسات المتعلقة بـ«الأوبئة» رأينا مِن الأهمية بما كان ذكر أحد المصادر الأساسية الغنية بالمعلومات المتعلقة بالأوبئة والمجاعات، التي أوردت الحديث عنه بطريقة غير مباشرة، وهي ضمن مجموع يحمل عنوان « *Mémoires de la congrégation de la mission*» جاء هذا العمل ضمن كتاب جامع مِن ستة مجلدات شُرع في نشره في فرنسا سنة (١٨٦٥مـ) ثُمَّ أُلحِق بهذه المجلدات مجلدات أخرى وصل عددها سنة (١٨٦٧مـ) إلى تسع مجلدات.

الأمر الذي يعنينا نحن ضمن هذا المجموع هو ماورد في المجلد الثالث والذي خُصّصَ لتناول مهام المُبشرين والرُّهبان الذين كُلِّفُوا بأمور معينة في كامل أرجاء منطقة شمال إفريقيا، تضمَّن هذا المجموع العديد مِن الشهادات المختلفة لمن عايش القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في إفريقيا عموما وفي شمالها على وجه التحديد.

نقف في ثنايا هذا المجموع على العديد من التقارير والمذكرات التي كان يرسل بها المبعوثون من الآباء والرهبان إلى السلطات الرسمية ممثلة في الخارجية الفرنسية أو القنصلية الفرنسية في الجزائر أو كان يرسلها بعض المبعوثين إلى أصدقاءهم، كما وجد ضمن نفس المجموع ما ظل مسوداتٌ لمذكرات خاصة بأصحابها ثمّ نشرت ضمن هذا المجموع، وهنا تجدر الإشارة إلى الكيفية التي كان يتعاطى بها كُتَّاب هذا المجموع مع موضوع الأزمات الغذائية والصحية في الجزائر خلال المرحلة المعنية بالدراسة (١٨٣٠-١٧٠٠مـ)، كما هو معلوم أنَّ الأزمات

لدى ظهورها لم تكن تستثني فئة بعينها حتَّى هؤلاء الرهبان فإنَّهم كانوا معنيين بشكل ما، وفي الكثير مِن الأحيان يصبح الأمر مرتبطا بهم بشكل مباشر، فالكثير منهم كان عملهم ضمن مجموعة العناية بالأسرى الأوربيين في الجزائر، أو كانوا ضمن المتطوعين في المستشفى الأوربي ما يجعلهم في الكثير من الأحيان ضمن الطاقم المعرض للأزمة، ويصبحون حينها شهودا على ما جرى خلال الأزمة الوبائية، وقد تتطور حالتهم ليضحوا ضحايا لهذه الأوبئة؛ فكثيراً ما كانت المستشفيات سبباً في تفاقم ونقل العدوى الوبائية أكثر مِن الأماكن المفتوحة[١].

ثمَّ هذه المذكرات ذات أهمية بالغة مِن جهة أخرى تتعلَّق بالتفاصيل المهمة التي كان يوردها الرهبان، إذ أنَّ العديد مِنهم ذكر في يومياته تفاصيل ما كان يحدث أثناء الأوبئة التي عايشوها، مِن ظهور الوباء إلى دخوله إلى توطُّنه إلى تفشيه، ومنهم من ذكرها عرضا في الحديث عن أحد الرهبان أو حالة الأسرى أو وضعية الساكنة. فنقف على سبيل المثال ضمن إحدى المخطوطات التي قيَّدها الأب فيشرا على حيز هام خُصّص لمعلومات عن الوباء الذي ألمَّ بالجزائر في المرحلة الممتدة ما بين (١٧٨٦مـ-١٧٨٧مـ)[٢]. وقد وفد الأب (فيشرا) إلى الجزائر على ما يُذكر في مصنفه يوم الخامس من شهر جانفي سنة (١٧٨٢مـ) وظل بها إلى غاية شهر مارس

---

(1) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur: V. Rozier (Paris), 1867, P23.

(2) -Jean Claude Vichert: Pestes de 1786 et 1787. Dans: M.C.M, Tome 3, PP (559-568).

من سنة (١٧٩٨مـ)[1]، استطاع بدون شك خلال هذه المدّة الطويلة مِن إقامته التّعرف على تفاصيل الحياة بشكل عام، وبالأخص ما تعلَّق بالحياة الطبية خاصة منها المتعلقة بفئة الأسرى والساكنة المحلية، وهو ما أتاح له وضع تقييّد كان في جوهره مميزا بشكل كبير من حيث الكم والكيف والمعلومات التي أوردها.

تكمن أهمية المصدر في كونه تناول العديد مِن الحيثيات الخاصة بالوباء، إذ تحدّث عن: ظهور الوباء في الجزائر، وانتشاره من مكان إلى آخر، كما استرسل بعد ذلك في ذكر ما أصاب الأسرى المسيحيين فيه، وعدَّد الضحايا منهم، ومدى تأثير هذه الأوبئة على الحياة العامة لسكان المدينة. فنجده يضرب الأمثلة عن الحالة التي اضطرّ معها العديد مِن التُّجار إلى الهروب إلى منازلهم وغلق محلاتهم؛ خوفاً مِن وطئت هذا الوباء، كما تحدّث عن الآثار البارز لهذا الوباء في النمو الديمغرافي، ومدى تأثر الفئات المختلفة به، إضافة إلى إشارته المختلفة إلى الاحتياطات التي كان يتّخذها بعض الآباء والرهبان، إلاَّ إنَّه لم يشر إلى مدى نجاعة ما اعتمده الآباء والرهبان في التخفيف مِن حدة وآثار الوباء -على الأقل- بين الأسرى المسيحيين خاصة في ظل وجود مَن يعتقد أنَّ المستشفيات في حد ذاتها كانت حاضنا وناقلا جيد للوباء[2]، لكنه استدرك ذلك وأشار إلى أهمية وجود المستشفى الأوروبي في مدينة والكيفية التي تعامل بها مع هذه الأزمة، مُضيفا إلى

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T P220.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P23.

ذلك عدد الضحايا ومدى تأثرهم بالأحداث الجارية[1].

فإن تقرَّر هذا فعلا كان جديرا بنا أن نَعدَّ هذا الفصل -الذي أفرده الأب (فيشرا) في مذكراته- من ضمن أحد أهم المصادر الغربية (الفرنسية) الأساسية التي تناولت الطاعون في الجزائر خلال تلك المدة الزمنية، وعلينا أن نصرف القول إلى أنّ الاطلاع على المصدر الذي خلفه الأب (فيشرا) على صغر حجمه عند التّأريخ للأزمات الصحية التي مرَّت بها الجزائر خلال العهد العثماني أمرٌ واجبٌ وفرض عين؛ لما يورده مِن معلومات ومعطيات جعلت الكثير مِن الدِّراسات الغربية ترجع إليه وتعتمد عليه، مثل ما نقف عليه عند كل من « مارث كونر « و» مارشيكا « وغيرهما.

على أنّ مَن تأمَّل ما ورد في هذا المصدر عليه أن يدرك أنّه لا يخلو من بعض النقائص التي تعتريه، إذ كثيرا ما نقف على أحكام قاسية تصدر من «فيشرا» باتجاه السُّكان كما سيأتي ذكره والتعليق عليه في موضعه.

كما لم تخل تفسيراته بدورها من النظرة الدينية التفسيرية للأحداث؛ إذ كثيرا ما اعتبر ضربات الأوبئة أو ما انجر عنها أو ما وقع في الجزائر من شُحٍّ للأمطار وقحط للأرض؛ إنَّما هو في الأصل عقابٌ ربانيٌّ سُلِّط على سكان هذا البلد بسبب ظلمهم وجبروتهم؛ وإذا عُرف هذا فمن الواجب على من اطلع على هذا المصدر التاريخي أن يُفرِّق: بين ما هو معطيات عددية تاريخية، وبين ما هو أحكام ونتائج تقريرية دينية، وإذا تحقَّق لنا فهم هذا فعلينا أنّ نقول أنَّ الكثير مِن النتائج التي

---

(1) -Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568).

وصل إليها «فيشرا» واستعرضها مع كونها على قدر كبير مِن الأهمية تحتاج إلى تنقية وتنقيح.

ويقع في نفس المجموع الذي نحن بصدده أي: « *Mémoires de la congrégation de la mission*» مجموعة مِن التَّقارير الهامة جدا مِنها: التقرير الذي بعث به السيد «بوسو» (*Aarnolt Bossu*)[١]، ويورد فيه معلومات مهمة عن الأوبئة والطواعين وظهورها سنوات (١٧٥٦،١٧٥٣،١٧٥٢مـ) [٢] كما لم يخل التقرير مِن معلومات إحصائية عن الكيفية التي كانت تنتقل بها الأوبئة مِن مكان إلى آخر وطريقة انتقالها، كما تحدّث عن الاحتياطات التي اتَّخذتها الكنيسة، والمستشفى الأوربي في مدينة الجزائر لمواجهة خطر الوباء كل مرَّة، مثل ما تكلَّم عن قلعة «الباسيتيون» وكيف كانت تتَّخذ الإجراءات المختلفة للوقوف في وجه انتشار الوباء، وعلى هوامش التقرير كان يشير إلى التأثيرات المختلفة للأوبئة في مدينة القالة، وأسلوب تعامل وكيل الشركة الإفريقية في المدينة مع ذلك[٣]، بل ونقف بطريقة غير مباشرة على الاهتمام البالغ بإعطاء تقارير دورية عن الحالة الصحية في مدينة الجزائر مِن خلال ما أورده الأب في الرسائل المتبادلة مع

---

(١) – Aarnolt Bossu: أحد الرهبان الفرنسيين الذين أقاموا بين إيالتي تونس والجزائر، وقد وفد إلى الأخيرة في السابع من شهر ماي سنة (١٧٣٣مـ) وعاد إلى موطنه في بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

(2) - Arnoult Bossu: Rapport de M. Bossu sur l'Église d'Alger 1749 M.C.M, Tome 3, P190.

(3) -Ibid.

القنصل الفرنسي العام في مدينة الجزائر، والإشارات المختلفة إلى مدى التأثير البارز الذي أحدثه انتقال الأوباء وتفشيها بين السكان على الحياة التجارية والعلاقات الاقتصادية للإيالة مع الدول المجاورة والممالك الأوروبية، كما تكلَّم عن مدى تأثر الأسرى المسيحين بوجود الوباء من عدمه في الإيالة.

أما فيما يتعلَّق مِن هذه الكتابات بموضوع الأوبئة بالجزائر، فنقف أيضا على تلك المذكرات الخاصة التي وضعها الأطباء في أمراض وبائية بعينها، فمنها ما وضعه غراندميسون (*Grandmaison*) و(*Emmanuel Gabriel*)حول وباء الجدري(*La variole*)[1]، فجاء البحث بشكل مُفصَّل حول ظهور هذا الوباء، ومكانته في التاريخ، والطُرق التي عُرف بها في الثقافات القديمة، ثمَّ تحدَّث عن أعراضه ومحاولات الثقافات المختلفة التَّصدي له، وقبل ذلك تحدَّث عن اللقاحات والتَّطور السريري لهذا الوباء، والفئات التي يستهدفها، وانتقال العدوى فيه من شخص إلى آخر، ذاكرا أنماط الجدري وأنواعه المختلفة، ومدى تأثيره على الفئات المتباينة وأسباب تطوره المستمر[2]، فإن تقرَّر فعلا وجود كل هذه المعطيات كان جديراً بنا اعتبار هذا العمل أحد الأعمال الأساسية التي تُؤرِّخ لأحد الأوبئة المهمة التي نحن بصددها، إلاَّ أنَّ هذه الدِّراسة تبقى بالنسبة لما نحن فيه دراسة مُتخصِّصة لكن خارج الحيز الزماني والمكاني الذي ننشده، إذ أنّنا نسعى هنا إلى الحديث عن تلك الدراسات الجامعة التي تجاوزت الحديث عن وباء

(1) - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand: op.cit.

(2) - Ibid. P82-114.

بعينه إلى الحديث عن تأثيرات الأوبئة بشكل عام على الحياة الإنسانية، وإن كان مجال بحثنا مخصص بحيز جغرافي معلوم هو إيالة الجزائر وحيز زماني بين هو القرن الثامن عشر والثُلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر.

ولا يمكن الحديث عن الإسهامات الغربية في التَّأريخ للأزمات الصحية التي حلت بالجزائر دون الحديث عن الدكتور بيرتران (*Bertherand*) الذي كان يشرف على المجلة الطبية الجزائرية[1]، وله عدد كبير مِن المساهمات الكتابية خارجها، لعل مِن أهمها «*Médecine et hygiène des Arabes*» وترجمتها «الطب والنظافة عند العرب »، وقد تناول في البحث العديد مِن الأمور الهامة التي لها علاقة وطيدة بالطب والأمراض الوبائية، وصدرت هذه الدِّراسة في خمسينات القرن التاسع عشر[2]، ركّزت بشكل خاص مثلها مثل باقي الدراسات التي أعدها *Bertherand* على المُسلمين الجزائريين، مُتحدِّثا عن التراجع العميق في المعارف الطبية ضمن المدن ناهيك عن القرى والأماكن الداخلية[3].

ولعل ما أعطى لأبحاث الدكتور *Bertherand* الزخم المعرفي هو كون الرجل طبيبا مُختصّاً ومهتما بالتاريخ، فنجده اشتغل بجدية في إدارة المجلة الطبية

(1) - E.L Bertherand: Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893.

(2) - Bertherand Émile: Médecine et hygiène des Arabes: études sur l'exercice de la médecine et de la chirurgie chez les musulmans de l'Algérie, Éditeur G. Baillière, Paris, 1855.

(3) - Bertherand Émile: op.cit., P38.

الجزائرية، وله عدد محترم جدا مِن الأبحاث المنشور في تلك المجلة وغيرها، اعتنى غالبا بموضوع الأوبئة والعدوى والأمراض والطب في الجزائر.

وإن كانت معظم جهوده تنصب على الجانب العملي أكثر منه تأريخي، وهذا يتجلّى في تركيزه في أعماله على توجيه النَّصائح والبدائل، ورصد الأمراض والأوبئة في الجزائر خلال الخمسين سنة الأولى مِن الاحتلال الفرنسي للجزائر. وعليه فهو لم يكن يسعى إلى التأريخ بشكل مباشر لهذه الأوبئة، وهو ما يعطي أعماله نوعا آخر مِن الأهمية، فاهتمامه بهذا الجانب جعل دراساته وحتى المجلة التي أشرف عليها تزخر بالإحصائيات والتقارير الرسمية المختلفة في هذا الشأن.

وإن قد أظهرنا جوانب جنحت لها بعض الدراسات العامة مثل مجموع «*Mémoires de la congrégation de la mission*» وبعض الأعمال المتخصصة كأعمال *Bertherand* في المجلة الطبية لكنها ظلت بُعيد المرحلة الزمنية التي نتدارسها (١٧٠٠-١٨٣٠م) لذا وجب أن نعود الآن إلى غرضنا وهو الكتابات والدِّراسات الغربية المهتمة بشأن الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال المرحلة الزمنية الممتدة خلال القرن الثامن عشر كلّه والثُلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر(١٧٠٠-١٨٣٠م) ، ولعل مِن بين أهم الدِّراسات في هذا الباب:

تلك المذكرة التي وضعها بير بروجر وهي بعنوان « *Mémoire sur la peste en Algérie*» وتكمن أهميتها في شقين أساسيين، أوَّلاً: مِن حيث كونها أوَّل ما صُنِّف في شأن الأوبئة والطواعين في الجزائر خلال العهد العثماني. ثانيا: من حيث أهمية ونوعية المصادر المحلية والأرشيفية التي استعان بها بير بروجر.

وقد جاءت هذه المذكرة ضمن كتاب « *exploration scientifique de*

L'Algérie"الاستكشاف العلمي للجزائر» وكانت المذكرة بنفس عنوان المخطوط الأصلي الموجود ضمن المكتبة الوطنية الجزائرية وهو كما مرَّ ذكره «*Mémoire sur la peste en Algérie*».

تتبع بير بروجر «الأوبئة» خلال هذه المذكرة بشكل زمنيّ دقيق، مُعتمداً في ذلك على النسق الحولي ، فشرع أولا في الحديث عن الأوبئة منذ بداية الوجود العثماني في الجزائر والإعلان عن الإلحاق بالدولة العثمانية، فكان أوّل الأوبئة الذي أشار إليه في دراسته هو وباء سنة (١٥٥٢مـ) واكتفي حينها بالقول أنّه أقدم وباء ضرب المنطقة خلال العهد العثماني، وكان في عهد « صالح ريس باشا »[1]، كما لم يترك سنة اشتبه في وجود الوباء بها إلاّ أشار إلى ما يدُلّ على آثاره، فلم يُغفل إلاَّ القليل مِن السنوات التي فاتته الإشارة إليها. ونجده يشير إلى الوباء بذكر مَن مات فيه مِن الأعلام أو يكتفي بذكر أنه قد ظهرت وفيات في منطقة ما بعينها خلال هذه المدَّة.

ذكر خلال النصف الثاني مِن القرن السَّادس عشر حوالي خمسة أوبئة في الجزائر مُقتصراً في ذلك على الاكتفاء فقط بذكر السَّنة ومَن مات أو مَن كان حاكما خلالها في إيالة الجزائر[2]، ولعلَّ هذا راجع بشكل كبير إلى شُحِّ المادة التاريخية التي تُؤرِّخ للأزمات الصِّحية خلال تلك المرحلة.

---

(1) - Adrien Berbrugger: Mémoire sur la peste en Algérie, dans exploration scientifique de L'Algérie, sciences médicales, imprimerie Royale, Paris, T2.P 206.

(2) - Ibid. P 205.

ثمَّ نجده يوسع بعض الشيء الأمر خلال القرن السابع عشر فيتناول بالحديث ذكر قرابة تسعة عشر وباء أو طاعونا مس الإيالة بشكل مِن الأشكال، وقد اكتفى بذكر ستة عشر وباء دون أن يبرز أي شيء مُتعلِّقٍ به، سواءً مِن الناحية الديموغرافية أو النواحي الأخرى، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنّ هذه المذكرة تظهر وكأنها قُيِّدت على عجل لغرض شخصي أكثر منها لغرض النشر، ولا يمكننا القول إنَّها كانت مُسودَّة؛ إذ أن معظم ما ورد فيه جاء مبيضا لا نجد فيه التداخل وعدم التنظيم وإن كان هذا يفتح باب النقاش حول إمكانية أن يكون (بير بروجر) وضع هذه المذكرة تمهيدا للكتابة فيها لاحقا بشكل مُفصَّلٍ.

يواصل بير بروجر انتهاج نفس السبيل في القرن الثامن عشر على ذكر قرابة العشرين وباء ضرب مدينة الجزائر أو إحدى مُدن الإيالة، فيُفصِّل الكلام في بعض هذه الأوبئة، بينما يجمل الحديث في الأخرى، فنجده يفصل الحديث في الوباء الذي ضرب تونس سنة (١٧٨٤مـ) وانتقل منها إلى الجزائر في السنة الموالية أي سنة (١٧٨٥مـ)، وكان الغرض من عرض الوباء ومساره وآثاره في تونس سنة (١٧٨٤مـ) في سياق الحديث تتبَعَ الآثار الذي سيلحقه ومقارنة شدَّته مع شدة نفس هذا الوباء لما يظهر في الإيالة وهو ما حدث فعلا.

فنقف على مناقشة «بير بروجر» لفكرة انتقال الوباء من تونس أو وفوده من مكان آخر غير تونس، خاصة إذا علمنا إنَّه انتشر في كل المناطق المحاذية للجزائر، فيتحدَّث عن ظهوره وامتداده ومدى تفاعله مع العناصر السكنية في الإيالة، وشدَّته في كلٍّ مِن مدينتي «الجزائر» و«بونة»، ومدى قدرته على القضاء على الساكنة في المدينتين، وأشار إلى نتائج عدم الاهتمام بالضوابط الصحية على الحياة العامة

للناس، كما صوَّر المحاولات اليائسة التي بادر بها «صالح باي» حاكم بيلك قسنطينة من أجل تخفيف أضرار هذا الوباء الذي اشتدَّ بالفعل آثاره.

وقد اعتمد «بير بروجر» في هذا الشق مِن المذكرة -عند كلامه بالتفصيل على الوباء الذي ضرب إيالة الجزائر سنة (١٧٨٥مـ)- على المراسلات الرسمية بين وكيل الشركة الإفريقية بمدينة «بونة» والقنصل الفرنسي العام بمدينة «الجزائر» بشكل أساسي للاستدلال بها على ما يراه صواب.

أما ما يُعاب على «بير بروجر» في هذا الأمر أنّه جعل ما ورد في هذه الرسائل حُججا تكاد تكون قطيعة، في حين أنَّ بعض هذه المراسلات كانت تتحدَّث بشكل عام وتستعرض الوباء بشكل هامشي فقط؛ لا يرقى معها الأمر لتُؤَسَّسَ عليه آراء قطعية بالشكل الذي يوردها «بير بروجر» وقد اطَّلعنا على بعض المراسلات الموجودة ضمن الأرشيف الوطني الفرنسي ضمن مجموع وثائق الشؤون الخارجية داخل علبتين أساسيتين هما [/AE/B/III] .Compagnie d'Afrique 1745-1791 والعلبة الثانية هي [AE/B/I] وهي مجموع المراسلات التي وصلت أرشيف رئاسة الوزراء الفرنسي من القناصل الفرنسيين في الجزائر Correspondance reçue du consulat d'Alger وقد حاولنا التنبيه على بعض ماورد فيها من شبه أخطاء أثناء مناقشتنا للآراء المختلفة وترجيحنا لأحدها في المتعلقات الأساسية لرسم صورة ظهور الوباء وتفشيه أو انحصاره وأثاره في المطلب المتعلق بكرونولوجيا ظهور الأوبئة لذا ضربنا عنها الذكر صفحا؛ منعا للتكرار غير المجدي.

يستمر «بير بروجر» في نفس السياق وبنفس النمط عند حديثه عن الأوبئة التكرارية التي تلت هذا الوباء، فيتحدّث بإطناب عن تجدُّد الوباء في الجزائر سنة (١٧٨٦مـ) ويشير إلى السعي الدؤوب الذي سلكه «صالح باي» لمنع دخول الوباء إلى بيلك قسنطينة وفشله في ذلك، ثمّ يعود للحديث عن الضحايا وأعدادهم وانكماش آثار الوباء نتيجة ارتفاع درجة الحرارة، لكنّه يمر عليها سريعا فلا يدرس تأثير ارتفاع درجة الحرارة فعليا على النشاط الوبائي، مثل ما لا يحاول أن يسوق الأمثلة المختلفة عن تأثير ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها في النشاط الوبائي، كما إنَّه يعطي أرقاماً عامة وتعابير أدبية عن الحالة السائدة في الإيالة خلال تلك المرحلة، وإن حاول في بعض الأحيان تدارك ذلك بالاستئناس بالوثائق المهمة التي وقعت تحت يديه. وهو ما يحملنا على أن نجد له عذرا في ذلك، إذ أنّ الرجل لم يسع إلى التحليل والتفكيك بقدر ما هدف إلى التوصيف وتقريب الحالة التي كانت سائدة خلال مرحلة زمنية ما.

وبنفس الكيفية يواصل «بير بروجر» التعاطي مع الأوبئة خلال الخمس سنوات الأولى من تسعينات القرن الثامن عشر(١٧٩٠-١٧٩٥مـ)[1] وكأنَّه يريد التركيز على هذه المرحلة دون غيرها، إذ نجده يلجم البحث في المرحلة الأخيرة من الوجود العثماني في الجزائر أي الربع الأول مِن بداية القرن التاسع عشرّ، ولعل الأمر منطقي مِن حيث كون الآثار الكبير والبارز الذي تركته المرحلة الممتدة مِن سنة (١٧٨٤مـ) إلى غاية (١٧٩٥مـ) من حيث كونها شهدت عدد من الأوبئة

(1) - Ibid. P ٢٢٨--222.

القوية والتي انعكست بشكل كبير على مختلف المجالات الحياتية لدى الفئات المختلفة ضمن الإيالة.

على أن حجم هذه المذكرة التي وضعها بير بروجر ألزمه ذلك إذ نجدها لا تتجاوز سبعا وعشرون صفحة لا غير، وهذا غالبا بسبب طبيعة الموضوع المتناول في هذه المذكرة أي الأوبئة إضافة إلى ندرة المادة العلمية المتعلقة بيها وتوزعها بين مجالات شتى، جعلت ما قدمه بير بروجر على صغر حجمه متنا أصيلا في بابه ومعظم ما أتى بعدها من محاولات في هذا المجال أي في البحث في موضوع الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني كان عيالا عليه.

وإذ قد أتينا على ذكر مجمل ما يتصل بمحاسن هذه الدِّراسة وجب الحديث عن بعض ما يشوبها من نقائص، ولعلَّ أهمها حسب اعتقادنا هو اقتصار بير بروجر في الشق المتعلِّق بظهور الأوبئة وكيفية دخولها الإيالة الجزائرية على الأوصاف وإيراد المعلومات المستقاة مِن المصادر المختلفة دونما الإشارة إلى ذلك التعارض والتناقض الذي كثيراً ما وُجِد بين المصادر والمراجع، بل عدم وجود أي إشارات لما كان يراه «بير بروجر» أنسب أو أصحَّ، لذا كثيرا ما يتلبس بلبُوس الناقل، لا المؤرخ المُحلِّل للوثائق والمعطيات التي يملكها.

لكن ما ذُكِر لا ينقص مِن قيمة العمل الذي قدَّمه بير بروجر شيئا، إذ تبقى هذه المذكرة التي بعنوان «*Mémoire sur la peste en Algérie*» أحد المصادر الهامة جدا في التأريخ للأزمات الصَّحية التي مرَّت بالجزائر خلال العهد العثماني، وتجاوزها في البحث في هذا الموضوع يعد نقص في حق أي بحث، لذا نجد كل من «غيو» و«مارشيكا» يستعينان بها كثيرا ولا يستغنيان عنها، والمعلومات التي

فيها غالبا ما تناقلتها وفصَّلتها الدِّراسات اللاحقة لها، وهو ما حملنا على الاستئناس بها في دراستنا هذه وجعلها أحد الأركان الأساسية لجمع المعلومة.

ليأتي بعد هذه الدِّراسة مِن حيث الترتيب الزمني البحث المستفيض الذي وضعه الدكتور (Guyon) غيو، ولعلَّ هذا العمل يُعد بالفعل اللبنة الأساسية الأولى في التأريخ العلمي المنهجي للأزمات الصحية في بلاد المغرب قاطبة لا في الجزائر فقط، وقد جاء تحت عنوان « *Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique* » «تاريخ الأوبئة في شمال إفريقيا»[1]

استطاع مِن خلاله «غيو» تغطية فترة طويلة مِن تاريخ الأوبئة في شمال إفريقيا، امتدت هذه المرحلة من ما قبل الميلاد إلى غاية الربع الأوَّل مِن القرن التَّاسع عشر، وبالتَّحديد بالنسبة لإيالة الجزائر إلى غاية (١٨٢٢مـ) بحيث أُرِّخ لآخر الأوبئة بتلك السنة[2]، بينما العنوان المرفق للكتاب يتحدّث عن جرد للأوبئة في بلاد المغرب الكبير أو شمال إفريقيا إلى غاية اللحظة الراهنة والتي كان مِن المفترض أن تمتدَّ إلى حدود سنة (١٨٥٥مـ) وهي السنة التي ضُبِط ونُقِّح فيها الكتاب وقدِّم للنشر، وعليه فقد أهمل تلك الأوبئة التي ضربت الجزائر أثناء الحملة الفرنسية عليها، أو أثناء محاولات الجيش الفرنسي التوسع باتجاه الناحية الغربية مِن الجزائر في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر.

يشرع صاحب الكتاب في الفصل الأوَّل في التَّأريخ للأوبئة في منطقة الشمال

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P401.

(2) -Ibid. P401.397.

الإفريقي قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وتحدَّث عن الأوبئة الشَّديدة التي كانت تضرب قرطاجة المركز الحضاري لبلاد شمال إفريقيا خلال تلك المدة[1]، ثمَّ عقد مبحثا آخرا عن تلك الأوبئة التي ظهرت في بلاد الشمال الإفريقي قبل القرن الخامس ميلادي وحاول تتبعها إلى غاية بداية التاريخ الميلادي ما جعله يرصد لها ثُلث الكتاب تقريبا أي حوالي (١١٢ صفحة)[2].

فلمَّا استوفى ذلك انتقل إلى المرحلة الزمنية اللاحقة لهذا الحيز الزمني، وشرع في الحديث عن الأوبئة خلال القرن الأوَّل وما لحقه، مُتّبِعاً في ذلك نفس النسق الذي اتبعه في الفصل الأول من التسلسل الزمني لهذه الأمراض ودراسة تأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية. والملاحظ أنّ الباحث حاول في الكثير مِن الأحيان تحميل مسؤولية انتشار الأوبئة إلى السكان الأصليين، وهو انحياز واصطفاف إيديولوجي أكثر منه علمي، إلى جانب التفسيرات التي استخدمتها الدِّراسات الغربية التي تجعل مِن السلطة الاستعمارية الرومانية فوق غيرها مِن المجتمع داخل المغرب القديم. وهذا لا يحجب الجهد الكبير الذي قام به الباحث مُستعينا في ذلك بشكل كبير بإيراد المصادر المادية والكتابية التي أرَّخت لهذه الأزمات، لكن ما يُعاب على «غيو» مع عمله الضخم في الفصلين الأوَّلين هو مبالغته في إيراد المعلومات أو مصادرها دون التعاطي معها بنوع من النقد أو محاولة تحليلها تحليلا منطقياً، ما جعل هذا الفصل يصبح فصلاً سرديا بامتياز، وهو ما انعكس

(1) -ibid. P01.

(2) -ibid. 01-113.

على الكتاب ككل، فأضحى تقييده للأوبئة أكثر منه دراسة لها.

وقد رصد لتاريخ الأوبئة خلال الحكم المسيحي للمنطقة قرابة الأربعين صفحة تناول فيها أهم الأوبئة التي ظهرت وكان لها آثار في التاريخ العام للمنطقة، لينتقل بعد ذلك ابتداء من الصفحة (١٥٧)[1] إلى التَّأريخ للأوبئة التي ظهرت خلال التَّواجد العربي الإسلامي في المنطقة، وحرَّر العديد مِن الآراء حول كيفية وصول بعض الأوبئة عن طريق التجارة والتبادلات المختلفة بين منطقة شمال إفريقيا وغيرها مِن المناطق.

ثمّ أضحى بعد ذلك يتناول وجود الأوبئة المختلفة داخل مبحث مُقيَّدا بقرن (مئة سنة) مِن الزمان، فيورد في كلِّ قرن مِن القرون ما ظهر فيه مِن خبر الوباء أو اشتبه في وجوده وكيف امتدَّ إلى أماكن أخرى وعدَّد ضحاياه إن كان مُقيّداً بشكل ما.

أمّا المرحلة التي تعنينا بالفعل ضمن الكتاب الذي صنفه «غيو» في شأن الأوبئة والمجاعات فهي المرحلة الحديثة مِن تاريخ الإيالة الجزائرية، أو بالأخصّ تلك المعلومات التي وردت في هذا البحث ولها ما يربطها مع موضوع دراستنا أي «الأوبئة في الجزائر العثمانية خلال المرحلة الزمنية الممتدة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)» خلال العهد العثماني، يستهلها صاحب الدراسة بالحديث عن أول وباء ضرب الجزائر خلال العهد العثماني، والذي يرجع حسب رأيه إلى سنة

(1) -ibid. P113-157.

(١٥٤٢مـ) أي في مرحلة حكم «حسن آغا»[1]، وقد حرص صاحب الكتاب على حشد العديد مِن المصادر وإيرادها في بعض الأحيان بألفاظها. ونجد هذا الجزء أي المرحلة المتأخّرة مِن الدِّراسة قد خُصَّت دون غيرها بالعديد مِن التَّفاصيل الكثيرة والمهمة.

فنجد صاحب الكتاب أثناء تتبعه الكرونولوجي للأوبئة يستعرض: انتقالها مِن مكان إلى آخر في المنطقة، كما يتناول بالحديث العلاقة بين ظهورها في حيز ما وامتدادها أو تجاوزها له إلى مناطق أخرى، إضافة إلى ذلك فلم يفته أثناء حديثه عن الأوبئة الإشارة إلى بعض الحيثيات والإجراءات التي كان يقوم بها الحكام أو بعض المؤسسات المهمة في الأقطار المختلفة، وإن كان في كل هذا يُقصد جميع بلاد شمال إفريقيا مِن طرابلس الغرب إلى المغرب الأقصى غير أنّ توهُّم هذا قد يؤدي إلى اعتبر الكتاب قد تناول الأوبئة في جميع هذه المنطقة بنفس الشكل، بيد أنَّ ما نقف عليه هو غير ذلك، إذ نقف على تركيز كبير للكاتب على إيالتي الجزائر وتونس بينما قلَّما تتبع الأوبئة في المغرب الأقصى أو ليبيا، وليس يُشكُ مَن دقَّق النَّظر في الدِّراسة وتأمَّلها بعين الناقد درجة الاهتمام البالغ والكبير التي يوليها صاحب الكتاب لإيالة الجزائر، لذا نجد تركيز الكاتب الكبير عليها ثمّ يَستعرض بعد ذلك -كما مرَّ ذكره- ما تعلَّق بالإيالة التونسية ودولة المغرب الأقصى فيما ظلَّت طرابلس الغرب تُذكر كلَّ مرَّةٍ على استحياء.

---

(1) -ibid. P 206.

وعليه فنحن مُضطرُّون إلى أن نصرف البيان في تحقيق سبب رُجحان كفة الميزان لإيالة الجزائر دون غيرها في هذه الدِّراسة، وهو في نظرنا لا يخرج عن سببين اثنين: الأوَّل سبب موضوعي يتمثَّل في أنَّ الأوبئة قد تغلَّبت فعلا في الإيالة الجزائرية لذا جُعِل ذكر أي وباء مبدؤه ومنتهاه مُتعلِّقاً بالجزائر، وهذا أمر نسبيٌّ، إذ كثيراً ما ذُكِر وجود أوبئة متزامنة وكانت الإشارة إلى ما هو خارج حدود الإيالة إشارة عرضية مرتبطة بالأساس بما يحدث داخلها، ولا يعالج جوهر الوباء ومساره وتجلياته وانعكاساته.

وأمَّا السببُ الثاني فهو سبب ذاتيٌّ يتمثَّل في كون صاحب الكتاب الذي بين أيدينا يعمل كمفتش في مصلحة الصّحة في الجيش الفرنسي المقيم في الجزائر خلال تلك المرحلة، وهو ما يجعل اطلاعه على الأحداث التي تخصُّ الجزائر مقارنة مع جيرانها أعمق وأدق وله مِن التّفاصيل عن هذه الأوبئة ما قد لا يوجد لديه في الإيالات الأخرى.

وقد اعتمد في الجزء المتعلق بالأوبئة في المنطقة خلال العهد العثماني بشكل كبيرٍ على المذكرة التي كانت مخطوطة وقيّدها «بير بروجر» بل إنَّه في أحيان كثيرة يورد نفس ما أورده «بير بروجر» في المذكرة التي سلف ذكرها دونما أي إشارة إليه، وعندما نقارن بعض المعلومات التي قال أنّه استقاها مِن الوثائق والمراسلات نجدها تتطابق مع تلك التي أوردها «بير بروجر» في نفس المكان دون أن يذكر إنَّه استقاها في الأصل مما أورده «بير بروجر» وهو ما نقف عليه مثلا عند حديثه عن وباء (١٧٩٣مـ) وطريقة تفشيه في إيالة الجزائر والتي ذكرها هو في الصفحة (٣٥٥) من الكتاب فيما نجدها بنفس النَّص تقريبا في موضع آخر عند

«بير بروجر»[1]، وهو ما يُفهم منه فعلا أنّ صاحب الدراسة كثيرا ما ينقُل بالواسطة مِن المصادر المباشرة دونما إشارة إلى المصادر أو المراجع التي كانت واسطته إليها، أو إنَّه قد يكتفي في بعض الأحيان بإشارة واحدة فقط في بداية النقل، وهو ما وقفنا عليه في بعض المواضع التي نجده فيها ينقل من «بير بروجر» أو من مصادر استقى منها الأخير معلوماته من دون أن نجده يصرّح بذلك؛ ما حملنا على الاعتقاد بأنَّ العمل أو البحث الذي قدّمه «بير بروجر» حينها وعنوانه « *Mémoire sur la peste en Algérie*» قد ظلَّ لمدَّة زمنية طويلة نسبيا بحثا مخطوطا وغير مُشتهرٍ، ولم تُتح الفرصة للكثير مِن الباحثين الاطلاع عليه؛ ما جعل «غيو» يعتمد عليه في بعض الأحيان ويتغاضى عن ذكره.

وقد يتولَّد عن هذا فهم خاطئ قد يفقد العمل قيمته العلمية الكبيرة ويشكك فيه وليس هذا غرضنا، وإذ قد أتينا على ذكر جُمَلٍ مِن سلبيات النقل المتجزئ المبتور وجب الحديث أيضا عن التوسع والتعمُّق الأكاديمي المحمود الذي كثيرا ما اتبعه «غيو»، إذ كثيرا ما انطلق ممّا أشار إليه «بير بروجر» وعمّقه أكثر بحشد الأدلة والوثائق والبراهين، ومثاله تلك المعلومات المتعددة والإحصائيات الدقيقة التي تحدّث عنها فيما يتعلَّق بالوباء الذي ضرب الجزائر سنة (١٧٩٦مـ) مُستنداً في هذا على المراسلات القنصلية والإدارية والتي اكتفى «بير بروجر» فقط بالإشارة إليها، بل إنَّ كل حديث «بير بروجر» عن الوباء الذي ألَمَّ بالجزائر خلال تلك السنة كان مُقتضباً وغامضاً فيما حشد له الدكتور «غيو» مختلف الحقائق التي

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., P222.

تثبت آثاره وانعكاساته[1].

ولهذا حقيق علينا التنبيه إلى أنّ ما ذُكِر غرضه التنبيه على أنَّ صاحب الكتاب اعتمد بشكل كبير على ما قيَّده «بير بروجر» بسبب الأسبقية والجدية التي اعتمدها الأخير، كما لا يشك أنّ عمل «غيو» مِن حيث الإحاطة الزمنية والمكانية أعمق وأدق مِن عمل «بير بروجر» لذا يحفظ لكل منهما مميزاته وخصائصه. وكلّ تجاوز لهذين المؤلفين في التأريخ للأزمات قد يشتمل على مغالطات معرفية تنعكس على النتائج النهائية المتوصل إليها غالبا.

وإن كان الدكتور «غيو» قد قصَّر في شيء، فإنَّما هو تقصيرٌ في متابعة انعكاس هذه الأوبئة على الحياة العامة للسكان خاصة منهم المهمشين، إذ كثيرا ما نجده يركِّز بشكل كبير على التعاطي مع انعكاس هذه الأوبئة على السلطة الحاكمة أو علاقتها الخاصة والقريبة، في حين يتغافل إلى حد كبير عن الحديث عن الانعكاسات النفسية والعقائدية لهذه الأزمات على الحياة اليومية للساكنة، بينما يصرف جهد لا بأس به ويركِّز بشكل كبير على الانعكاس الديموغرافي لهذه الأوبئة في أكثر من موضع.

كما نقف على اجتهاد آخر في نفس السياق خلفه السيد (*Marthe Conor*) في منشورات معهد باستور بتونس يفرد مقالة خاصة بالطَّاعون الذي ألَمَّ بالمنطقة المغاربية من طرابلس إلى المغرب الأقصى[2]، تناول فيه الموضوع من خلال ما

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P٢٢-0- 241 .

قال إنَّها بعض المصادر الأرشيفية والمخطوطات والتي يقصد بها المخطوط الذي خلفه الأب فيشرا عن الطَّاعون (١٧٨٦مـ-١٧٩٧مـ) وقد تناول في هذا الدراسة أولا ظهور هذا الوباء في تونس وكيفية دخوله إليها سنة (١٧٨٤مـ) ثمّ تحدَّث عن انتقال الوباء إلى «طرابلس الغرب» في السنة الموالية وكيف آثار على التركيبة السُكانية لهذه المدينة والآثار المدمرة له، ثمَّ انتقل بعد ذلك للحديث عن الوباء في إيالة الجزائر، تناوله أوَّلا في إطار مقارنته مع نظيره في كل مِن «تونس» و«ليبيا» ثمَّ انتقل للحديث عن تطوره وانتشاره لكنه قبل ذلك أفرد بعض الفقرات لشهادات «ديسفونتاس» عن الوباء ومعالمه الكبرى في الإيالة وفي تونس، إضافة لذلك تحدَّث عن محاولة داي الجزائر أن ينأى بمملكته عن النشاط الوبائي بمراقبة الميناء، وصرفه لسفينة تونسية للاشتباه بإصابتها بالوباء، لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن استمرار الوباء في السنوات التالية، وكيف آثار في المناطق المختلفة، لكنه أغفل الحديث عن انعكاسات هذا الوباء في الحياة الاجتماعية أو السياسية، كما لم ينبّه إلى التزامن الذي عرفه هذا الوباء مع المجاعة التي استحكم آثارها بشكل كبير في بيلك الغرب الجزائري في زمن «محمّد باي الكبير"[(١)]، وفي نفس الوقت أورد مجموعة من المعطيات الرقمية التي يندر الإشارة إليها في دراسات أخرى مُتتبعاً ذلك بالسنوات والمناطق.

لنقف لاحقا على دراسة أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطب من

(١) - مؤلف مجهول: نبذة يسيرة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (٥٠٢٢) ورقة [١]

جامعة الجزائر تقدَّم بها «جون مارشيكا» سنة (١٩٠١مـ)، تقع هذه الدراسة في مائتي صفحة، كان يفترض من صاحبها حسب العنوان الرئيس أن يتناول الأوبئة في شمال إفريقيا ككل، لكنّه حقيقة اقتصر على الجزائر دون غيرها، ولعل هذا مبررٌ؛ إن علمنا إنَّه بعد العنوان الرئيسي الموجود في المذكرة « *la peste en Afrique septentrionale* » نقف على عنوان فرعي جاء فيه تخصيص الجزائر دون غيرها «*histoire de la peste en Algérie de 1363-1830* ».

صرّح الباحث في مقدمة عمله بأنّ الغرض الأساسي من وراء الدراسة هو وضع تأريخ للتسلسل الزمني لظهور الأوبئة في منطقة المغرب، وعلى هذا الأساس فالدراسة تشمل المنطقة التي حددها «مارشيكا» بدقة من المحيط إلى غاية قناة السويس[1]؛ وهذا في محاولة لسد الفراغ الذي خلَّفه تغاضي معظم المؤرخين عن الحديث على تاريخ الأوبئة في هذه المنطقة، وليس يُشك أنَّ الباحث مَسبوق بمن طرق هذا الباب وسبر أغواره بشكل جيد، سواء مِن ضمن الدراسات الإسلامية أو التواريخ المحلية أو الدراسات الغربية التخصصية، وهو الأمر الذي حمل الباحث على التصريح مباشرة بعد هذا بأنّ العمل المقدم يأتي استكمالا للمشروع الذي وضع دعاماته الأولى «بير بروجر» في مذكرته عن الوباء في الجزائر بعنوان» *mémoire sur la peste en Algérie*« ضمن كتاب « *exploration*

---

(1) - Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d’Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d’Alger, Anne 1927, non publié،

scientific de L'Algérie» والذي سبق الحديث عنه، مثل ما أشار إلى العمل القيّم للباحث الدكتور «غيو» الذي توسع في الموضوع أكثر من خلال مقالته ثمَّ كتابه «*Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique*» لكن الباحث قام بمغالطة معرفية مبنية على انعدام أي دراسات للطَّاعون أو الأوبئة في الثقافة غير غربية، وهو ما نجم عنه نوع من القفزات الابستيمية التاريخية للمنطقة، والتي سبق الحديث عنها ولا فائدة من استرجاعها هنا.

يشرع بعدها «مارشيكا» في الدخول في موضوع بحثه من زاوية التعريف العام بالطَّاعون في الجزائر عبر التاريخ، ومناقشا للآراء المختلفة حول مدى توطُّن الطَّاعون في الجزائر، ويؤكد على تأثير المرض في الجزائر والمنطقة حتى قبل التواجد العثماني بها[١]، فيما ينقل عن أستاذه رينو قوله أنَّ الطَّاعون أصبح متوطِّناً في الجزائر خلال العهد العثماني بسبب ما أوجدته طبيعة النشاط القرصني في موانئ الجزائر[٢]، ويستعرض بعضها بطريقة غير مباشرة مُسببات الوباء في الجزائر خلال العهد العثماني ويشير مثلا إلى سبب انتشاره بين الأسرى المسيحين والذي يحصره في غياب النظافة وانعدام شروط الحياة اللائقة وعدم توفير أكل محترم، وهو نمط العيش الذي كان يعيش فيه معظم الأسرى مُجْبرين على ذلك بسبب وضعية الأسر[٣].

(1) - Jean Marchika:op.cit., P14.

(2) - Ibid. P14.

(3) - Ibid. P15.

لينتقل بعدها «مارشيكا» إلى الحديث عن المستشفى الأوروبي والذي وجد لمساعدة الأسرى على تجاوز الأخطار والأوبئة في الجزائر، وقد قيَّد الحديث عنه بأهم ما يميزه وكيف كان يسعى إلى التقليل من آثار الأوبئة(١).

ينطلق بعدها الباحث في تتبع الأوبئة التي ألمَّت بالجزائر منذ سنة (١٣٦٣مـ) تاريخ أول وباء قيده «مارشيكا»، لكن الباحث يقفز مرَّة أخرى على المراحل التاريخية وهذا بتجاوزه لذكر التأريخ لعدد من الأوبئة خلال هذه المرحلة الزمنية السابقة للوجود العثماني، فيتغاضى عن الوباء الذي ألمّ بتونس وكان له آثار في المنطقة الشرقية من الجزائر وهذا سنة (١٤٠٢مـ) أو ذلك الوباء الذي ضرب المنطقة الغربية فأتى على تلمسان وما حولها من أحواز سنة (١٤٤١مـ)(٢) لينتقل مباشرة إلى الوباء الذي وقع سنة (١٤٦٧مـ) وعليه يتجلَّى لنا نوع من التجاوز لما قد ألزم الباحث به نفسه في المقدمة، من تأكيده على التزامه بتتبع ظهور الأوبئة زمنيا خلال المرحلة محل الدراسة في الجزائر(٣).

كما يلاحظ استعجال «مارشيكا» الدخول في المرحلة العثمانية، ولعل هذا راجع إلى إمكانية الوقوف على المصادر التي مِن شأنها أن تعينه على التأريخ لهذه المرحلة على عكس المرحلة السابقة، وما نورده هنا من أحكام لا يعدو أن يكون مجرد تصوير لما وقع فيه «مارشيكا» في دراسته، إذ لو قورن التتبع الزمني الذي

(1) - Ibid. P١٦--18.

(٢) - مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (١١٩٢مـ - ١٥٢٠مـ) رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٩، ص١٣٦.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P14.

أكد عليه «مارشيكا» في بداية الدراسة بذلك التَّعقب الذي استخدمه «غيو» في دراسته للأوبئة في شمال إفريقيا لظهر البون الشاسع، إذ بينما اكتفى «مارشيكا» بالحديث أو التأريخ لأربعة من الأوبئة خلال المرحلة الزمنية الممتدة على طول مائة وتسع وسبعين سنة (١٧٩) وهي أوبئة سنوات (١٣٦٣،١٤٦٧،١٥٠٩،١ ٥١٠) فيما يذكر «غيو» على سبيل المثال خلال نفس المدة الزمنية ضعف ما ذكر «مارشيكا»[1]، ولعلَّ تبرير ذلك مرده محاولة «مارشيكا» أن يقتصر في البحث على تلك الأوبئة ذات التأثير الجلي على الحياة الاجتماعية والسياسية والديمغرافية أمَّا تلك التي كان تأثيرها بسيطا فلم ينصرف إلى ذكرها.

لينطلق بعدها «مارشيكا» في الحديث عن الأوبئة وسردها تاريخيا، مع ملاحظة إنَّه كثيرا ما كان يكتفي بشاهد تاريخي واحد من أجل تأكيد وجود الوباء، فإن ذكر الأب «فيشرا» وجود وباء أو ورد خبر عنه في إحدى المراسلات أو إشارة عرضية ما عن مرض أصاب إيالة الجزائر قرَّره «مارشيكا» بل في بعض الأحيان نجده يتجاوز ذلك إلى اعتبار مجرد وصف الحالة الصِّحية في الجزائر بالمتدهورة ما يؤكد به وجود وباء بها، وهو في هذا الأمر مجبر لا مخير، إذ أنَّ أغلب الأوبئة كان يأتي ذكرها عرضا إذا ما استثنينا بعض المراسلات القنصلية التي كانت تتحدَّث عن انتشار الوباء، وعدد ضحاياه مباشرة، وفي بعض الأحيان بنوع من المبالغة.

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit.,. P 182-204.

إذ معظم أخبار الوباء في المذكرات الشخصية والتقارير كان يقتصر على مصدر واحد أو مصدرين، ما يجعل محاولة حصر وجود الوباء في تعدد ذكره وانتشار أمره بين المظان أمر صعب إيجاده والعمل به، وإذا اشترطنا لاعتماد تحقيق ذكر وقوع وباء ما على ورود خبر عنه في أكثر مِن موطن أسقطنا ذكر معظم الأوبئة في دراستنا هذه، إذ معظم ما وقفنا عليه هو ذكره في مصدر ما؛ ثمَّ بعد ذلك تعددَّت طرق النقل مِن ذلك المصدر، خاصة إذا ما رأينا حرص مصدر بعينه على التأريخ لأحد الأوبئة. فنجد المصدر قد اختص بذكر تفاصيل لم ينتبه لها مصدر آخر من ذلك مثلا ذكر أرقام الضحايا أو طريقة تفشيه على رقعة جغرافية ما. فهذه الأمور غالبا ما نجد مصدرا ما يتفرَّد بها، خاصة إذا تحدَّثنا عن المصدر الأساسي الذي اعتمده «مارشيكا» في تأريخه للأوبئة خلال القرن الثامن عشر، أي: «*Mémoires de la congrégation de la mission*» وقد ضمَّ هذا المصدر مجموعة لا بأس بها مِن الشَّهادات الخاصة لرهبان عايشوا مجموعة من الأوبئة في الجزائر خلال القرن (١٨مـ) كما سلف ذكره ما يعطي لكل رسالة ضمن هذا المجموع أهمية خاصة في تدوين تاريخ للأوبئة.

وقد يجبر الباحث في المواضيع مِن هذا النوع أن يستأنس بإشارة واحدة ليبني عليها تصوّراً لواقعة ما أو تدوين حادثة ما، خاصة إذا كانت الأخبار مِن نفس الطبقة مِن الشهود وعلى نفس القدر من العدالة فحينها يمكننا أن نتحدَّث عن كون أي فرد مِن هؤلاء علم وقيَّد شيئا لم يذكره أقرانه هو حجة له عليهم، ويمكن إعماله في تأكيد الواقعة التاريخية، وبالأخص إن كان المصدر قد صرّح بها تصريحا لا يستلزم التأويل. مثل ما هو الحال فيما تعلّق بالوباء الذي ضرب أو تجدّد بالجزائر

سنة (١٧٠٣مـ)[1] أو ذلك الذي ألمّ بتلمسان سنة (١٧٣٨م)[2]؛ لذا نعتقد أنّ اعتماد مارشيكا في بعض المواطن على حُجَّة واحدة فقط دون غيرها هو مما أُجبِر عليه، فإن كان هناك إمكانية لإدراج قرائن أخرى فإنَّه كثيرا ما استعان بها أو دعّم حُججه بها كما هو الحال مثلا في وباء سنتي (١٧٤١مـ)[3] و(١٧٤٣مـ)[4]. لذا فإنَّ المُقرَّر هو ما عند «مارشيكا» اعتمادا على المبدأ القائل «بأنّ مَن علِم حجَّة على مَن لا يَعلَم»، فإن وُجِد مَن يؤكد حدوث وباءٍ ما، وكان هذا الأمر مُقرَّراً مِن خلال قرائن مختلفة؛ ساعدنا ذلك على أن نقرِّر بأنَّ ما حدث هو بالفعل وباء أو مجرد عارض لا يرقى لدرجة الوباء.

وإذ أتينا إلى ذكر جُمل ممَّا يعد مِن محاسن الأعمال التي أتى بها «مارشيكا» في دراسته هذه قلنا على رأسها حُسن توظيفه واستخدامه لبعض الشهادات الخاصة بالآباء الرهبان وإرسالياتهم التي كانت تعمل على مساعدة الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر، بالإضافة إلى احترامه طريقة توظيف المادة المصدرية المستخدمة ضمن نسق كرونولجي دقيق يُقدِّم فيها المصادر على غيرها، أمَّا ما يُعاب على «مارشيكا» فهو عدم مناقشته لما تورده هذه المصادر، واكتفاؤه بذكرها فقط أو السكوت عنها، إلاَّ نادراً، وهو ما يجعل القارئ في الكثير مِن الأحيان يشعر إنَّه أمام نصٍّ مُنقول فقط، وما يعاب عليه أيضا شكل النقل؛ إذ كثيرا ما يستعين

(1) - Jean Marchika: - Jean Marchika:op.cit., P73.

(2) - Ibid. P78.

(3) - Ibid.p 87-90.

(4) - Ibid. P92.

بالواسطة دون العودة إلى الوثائق أو الأرشيفات التي تؤكد ذلك كما هو الحال بالنسبة إلى ما ينقله عن «دي غرامون» فغالبا ما يكتفي بالنقل فقط دون التَّأكد من موافقة ما نقله «دي غرامون» لما هو موجود في الوثائق، ولعلَّ هذا مرده إلى طبيعة تخصُّص الباحث، فهو بحكم تقديمه بحثه لقسم الطب أعفى نفسه مِن ضرورة التدقيق والتحقيق في كلِّ واقعة تاريخية، كما هو الحال في مواضع عدة منها: ما تعلَّق بأوبئة سنوات: (١٧٢٢مـ) (١٧٢٣مـ) (١٧٣٠مـ) لكن هذا لا يقلل بأي حال من أهمية هذا العمل، إذ يبقى هذا العمل هو الأول من نوعه في الجزائر خلال تلك المرحلة الزمنية، بالإضافة إلى إمكانية القول أنَّ «مارشيكا» أسَّس في عمله هذا لمنطلقات أساسية في البحث في تاريخ هذه الأزمات، ما يوجب علينا أن نشهد له بأنه عمل علمي أكاديمي رصين ومميَّز.

وبالعمل المستعرض الأخير «لمارشيكا» نكون قد أتينا على ذكر أهم المظان التي اعتنت بالبحث في مجال الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال مرحلة زمنية تشمل جزءاً مِن تاريخ المغرب الأوسط وتغطي بشكل عام التاريخ العثماني للجزائر، وهذه المصادر أو على الأقل ثلاثة منها هي لكل من: «بيبروجر» «غيو» و«مارشيكا»؛ أركان عليها مدارات البحث في التأريخ للأزمات الصحية التي مست المنطقة. ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها أثناء تناول موضوع الأوبئة أو الأوبئة التي عاشتها الجزائر خلال فترة زمنية تمتدّ على ثلاثة قرون، وإن كانت لا تخلو في بعض الأحيان من تحامل وتضم في ثناياها بعض المغالطات الأبستمولوجيا والابستيمية في تاريخ المنطقة.

كما لا يمكن أن نطوي هذا المبحث دون الإشارة إلى وجود عدد مهم من الدراسات التي تخصصت في وباء دون آخر، أو اعتنت بالحديث عن أوبئة بعينها، فنجد مثلا رسالة الدكتوراه التي قدَّمها الباحث بوليو أنتونا (*Bolio, Antonin*) والتي خصَّصها للحمى والتيفوئيد وجاءت بعنوان (*Grippe et typhoïde,*)[1] وردت هذه الرسالة في أربع وستين صفحة فقط لكنها جاءت وافية بالعديد من الخصائص الطبية لكل من الحمى والتيفوئيد، قُدِّمت الرسالة في بداية القرن العشرين في كلية الطب بجامعة باريس، وقد قام الطالب بعمل من الناحية التخصصية إذ شرع في البداية بالتَّعريف بكل من «التيفوئيد» و«الحمى»، ثمّ بدأ في التفصيل بالحديث عن تكوُّن العصيات في كل مرض على حدى، ثمّ تكلم عن تلك العلاقة الخفية التي تربط بينهما وأشار في أماكن مختلفة إلى كيفية انتشارهما وعملهما، ليتحوَّل العمل بعد هذه العروض الأدبية إلى دراسة حالات ميدانية وهو ما أعطى الدراسة البعد الدقيق والملاحظات الهامة، لذا نعتقد إنَّه مِن الأهمية بمكان الاطلاع على هذه الرسالة فيما تعلَّق بوباء التيفوئيد.

كما توجد عدد مِن الدراسات الهامة التي ناقشت مسألة الطواعين والأوبئة في العالم الإسلامي وانعكاساتها، وإن كانت في مجال زمني غير الذي نخوض فيه، ومنها على وجه الخصوص المقالات التخصصية التي نشرها جاستان ستران

---

(1) - Bolio Antonin:op.cit., P09.

Justin K. Stearn[١] وكتابات بعض المعاصرين مِن أمثال «لورانس كونرد» *Lawrence I. Conrad* المتخصِّصة حول الأوبئة والطَّواعين في التَّاريخ الإسلامي.

الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة بالجزائر أثناء العهد العثماني.

إنَّ دراسة المرحلة المحددة في البحث تتطلب تلمس الواقع المعيشي للجزائر خلال المرحلة التي سنتناولها بالتفصيل لرسم صورة عامة عن الموضوع قبيل هذه المرحلة الزمنية، أي: خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر(١٥٥٠-١٧٠٠مـ)، وهذا لن يتأتى إلاَّ بدراسة استقرائية نستعرض فيها المحطات الكبرى للأوبئة، بيد أننا نعود لنقول أننا لم نسع ليكون التَّتبع الذي نتحدَّث عنه تفصيلي مبسوط، وإنَّما عمدنا إلى أن يكون تصوُّراً عاماً وموجزاً للحالة الصِّحية السائدة خلال تلك المدَّة، وبالأخصّ عند علمنا أنّ عدد

---

(١) – انظر على سبيل المثال:

- Justin Stearns ; **Ethical Considerations in the Writings of Two 14th Century Scholars of Naṣrid Granada**, Islamic Law and Society, Vol. 14, No. 1 Published by: Brill, (2007), pp. 109-129.
- Justin Stearns ; INFECTIOUS **IDEAS: CONTAGION IN MEDIEVAL ISLAMIC AND CHRISTIAN THOUGHT**, A DISSERTATION, PRESENTED TO THE FACULTY OF PRINCETON UNIVERSITY IN CANDIDACY FOR THE DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY.

الأوبئة التي شهدتها الجزائر خلال المرحلة الممتدة (١٥٥٠مـ-١٧٠٠مـ) كانت كثيرة جدا ومتنوعة وخليق بأن تخصص ببحث مستقل، وتذكر المصادر المختلفة التي اعتنت بدراسة ظاهرة الوباء في الجزائر أنّه قد تعاقب خلال المرحلة الممتدة ما بين (١٥٥٥مـ) إلى غاية سنة (١٧٨٤مـ) ما يقارب ستة وعشرين مرّة الوباء بمختلف أشكاله[١].

وبهذا فإنَّ الوضع الصِّحي العام للجزائر خلال المرحلة الأولى للوجود العثماني في الجزائر كان متدهوراً، وتدلنا العديد مِن الأبحاث والمؤشرات التي نقف عليها أنَّ الجزائر قد تعرَّضت خلال القرن السادس عشر للعديد من الأوبئة، وتزامن ذلك مع عدد من الأزمات الغذائية التي كان لها دور هام في تفاقم الأمر أكثر؛ وهذا ما جعل العديد من الكتابات الأوربية للرحالة والدبلوماسيين تعد الأوبئة والمجاعات أحد أكبر الويلات التي مسّت الأهالي خلال تلك المرحلة[٢].

تُستهل ظاهرة الوباء في المرحلة العثمانية في الجزائر سنة (١٥٥٢مـ) إذ يُعدُّ مِن بين أوَّل الأوبئة التي ضربت الجزائر خلال العهد العثماني، وعدَّه هايدو مِن الأوبئة العنيفة جدا التي ألمَّت بالبلاد[٣]، ولعل هذا بسبب تزامنه مع مجاعة ألمت بدورها بالإيالة سنة قبل ذلك (١٥٥١مـ) ويمكن أنها استمرت في السنة التالية

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T 2. P 206.

(2) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°10, op.cit., P 59-61

(3) - Fray Diego de Haedo: Histoire des rois d'Alger. Traduite et annotée par H.-D. de Grammont, Jourdan, Alger, 1881, P96-97.

لها[١]؛ الأمر الذي جعل آثار الأزمتين قوّيا على أهالي وقبائل المنطقة، وكان هذا الوباء قد امتدَّ بشكل كبير في منطقة الغرب الجزائري وبالأخص في مدينة وهران[٢]، وأتى هذا الوباء في الأخير على «صالح ريس» بايلرباي الجزائر الذي يذكر صاحب «النبذة» إنَّه توفي بالقرب من مدينة «وهران» حين كان يعمل على فتحها[٣].

وقد ظل هذا الوباء يتكرَّر سنويا تقريبا إلى غاية سنة (١٥٥٦مـ)[٤]، ليعود مِن جديد إلى الخمود ثلاث سنوات. ويرى «ديغو دي هايدو» أنَّ مِن آثار هذا الوباء أن قضى على عددٍ كبير مِن النَّاس خاصة في مدينة الجزائر[٥]، يتجدد ظهور هذا الوباء مرّة أخرى سنة (١٥٥٩مـ) في مرحلة حكم «حسن آغا بن خيرالدين"[٦]، كما يتجدّد الوباء أيضا سنوات: (١٥٦١مـ) (١٥٧١مـ) وسنة (١٥٨٤مـ)[٧] بحيث يكون آخر وباء تشهده الجزائر خلال القرن الأوَّل من الوجود العثماني في الجزائر، في حين بقيت أوروبا في منأى عن الأوبئة إلى غاية ظهوره سنة (١٥٨٦مـ) في فالنسيا بإسبانيا[٨]، وإذا تحقَّق بالفعل ما سبق كنَّا جدرين بالقول أنَّ سنوات

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P207.

(2) - Fray Diego de Haedo: op.cit., P96-97.

(٣) - مؤلف مجهول: **نبذة يسيرة في سيرة محمد باي فاتح ثغر وهران**، و/ ٦ ص١١.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P2٠8.

(5) - Fray Diego de Haedo: op.cit., P112.

(6) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P205.

(7) - Ibid.

(8) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P03.

الخمسينات خلال القرن السادس عشر كانت بحق سنوات امتحان لساكنة الإيالة، كانت فيها المجاعات ظهيرا للأوبئة كما سبق.

بل وتوطَّن الوباء في بعض المناطق وبلغ مضارب أخرى لم يدركها من قبل؛ حتى كادت بعض الدراسات تجعله السِّمة الأساسية التي طبعت الحياة العامة لإيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر، وبتتبع عدد مِن الدراسات والمذكرات التي اعتنت بالموضوع نقف على أنَّ مجموع عدد الأوبئة التي ألمَّت بالجزائر خلال القرن السابع عشر لم يقل عن خمسة عشر وباءًا، كان كلّ وباءٍ يختلف عن الأوبئة الأخرى مِن حيث شدَّته، وتأثيراته، وطريقة انتقاله من مَكان إلى آخر[1]، لذا نجد هذه الأوبئة والمجاعات ظلَّت تختلف باختلاف درجة تأثيرها والمحيط الذي تشغله.

إذا تحقَّق ما كان من الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر خلال القرن السادس عشر فمن الواجب الآن أن نصرف البيان إلى ذكر الأوبئة والأزمات الغذائية التي شهدتها الإيالة خلال القرن السابع عشر، ونشرع في هذا انطلاقا من المجاعات التي عرفتها الجزائر خلال المرحلة الممتدة (١٦٠٠-١٧٠٠) إذ تذكر المصادر المختلفة أنَّ الجزائر قد شهدت عددا قليلا من المجاعات لا تقارن بعدد الأوبئة التي ضربت الإيالة، ولعل أهم تلك المجاعات التي كان لها أثرٌ مُباشرٌ على التركيبة الديمغرافية في البلاد، تلك المسغبة التي لحقت الجزائر سنة (١٦٨٣م)[2]

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP 263-287.

(2) - Grammont Henri Delmas: Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle, Alger, 1879. P 81.

التي تسبَّب فيها القحط والجفاف الذي لحق الإيالة سنة قبل ذلك أي خلال سنة (١٦٨٢مـ) وزاد التأثير السيء لهذه المجاعة بتزامنها مع وباء ضرب مدينة الجزائر، فزاد الوضع سوءاً وبقي المجتمع يتحمل تبعات هذه المجاعة لعدد من السنوات، ونقف في بعض المراسلات القنصلية على صورة عامة التي تركتها المجاعة التي ألمت بالجزائر آواخر القرن السابع عشر، فيما ينقله قنصل فرنسا في الجزائر (Philippe Jacques Durand) بقوله إنَّه «...إضافة إلى المواجهات مع باي تونس خلال (١٦٩٦مـ) كانت المجاعة والأوبئة على أشدَّها في مدينة الجزائر..»[١]، كما قد امتدَّت شدّة المجاعة وتفشي الوباء بالمدينة إلى غاية نهاية شهر (أكتوبر) مِن السنة نفسها[٢]. وهذا الوباء عم آثاره معظم أرجاء الدولة العثمانية خاصة إيالاتها في إفريقيا، إذ يذكر أن هذا الوباء كان يحصد في اليوم الواحد في القاهرة خمسمائة جنازة في اليوم، بل وصل عدد ضحاياه في فترة وجيزة أكثر مِن ثمان وعشرين ألف قتيل(٢٨,٠٠٠) وخلق اضطرابات في العديد من الأماكن[٣] ولعلنا بهذا نصل إلى ما يشبه حُكماً يقينيا على أن جل الأزمات التي ضربت الإيالة بقوَّة خلال القرن السابع عشر كان لها آثارا ديموغرافي واقتصادي واضح وجلي امتدّ إلى الأزمنة اللاحقة، ولم يتوقَّف تأثيره على تلك السنوات فقط بل امتد لغيرها.

(1) - H-D. DE Grammont: Correspondance des consuls D'Alger (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place de gouvernment,1890, PP, 57,59

(2) -Ibid.

(3) - Joseph von Hammer: Büyük Osmanlı Tarihi, Cilt 12, s260-262.

وإذا عرف ذلك فمن الواجب أن نعود الآن لنتكلم عن الطرف الآخر في الدراسة أي الأوبئة، إذ لم يقتصر الأمر خلال القرن السابع عشر على المجاعات، بل تعداه إلى الأوبئة والطواعين والتي هاجمت الإيالة في مستهل القرن السابع عشر، وكانت المجاعات حينها أقل ضراوة على الناس من آثار الأوبئة كما سيأتي.

ومِن أبرز الهجمات التي عرفتها الإيالة وتركت آثارها على المجال العام في الإيالة ذلك الطَّاعون الذي ألَمَّ بالمنطقة استقرَّ بالجزائر تحديدا سنة (١٦٠٥مـ) وكان فيما تذكره المصادر المختلفة يأتي على ما يقارب السبعمائة فرد يوميا[١]، ليتجدَّد هذا الطَّاعون بشكل أكثر حدَّةٍ مرتين، سنتي (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠مـ) و(١٠٣٠هـ/ ١٦٢١مـ) وأُطلِق على هذا الطاعون اسم «الحبحوبة الكبيرة» وقد تفشَّى هذا الطَّاعون في الحيز الجغرافي لكلٍّ مِن إيالة تونس وإيالة الجزائر في نفس المدة الزمنية تقريبا، واشتهر أيضا باسم «طاعون سيدي بلخريس"[٢]، وقد ذُكر خبر وجود هذا الطَّاعون متزامناً مع ظهور الوباء في كل من: فرنسا بتولوز ومونبليه وبروفاسا. واحتدم هناك وقضى على ما يقارب أربعين ألف شخص[٣]، كما تحدَّث «غيو» عن وجوده أيضا في نفس المرحلة في إسبانيا[٤]، وهو ما يجعل إمكانية الربط بين الوباء في ضفتين أمرا مستساغا وممكنا.

---

(١)- فلة موساوي القشاعي: **وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله**، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، ٢٠٠١، ص ١٤٠.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P260.

(3) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P06-09.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P260.

يخمد الوباء لفترة ما، تقارب الربع قرن، لكنه يظهر مُجدداً بشكل مُتقطِّعٍ في عدد من السنوات، فيظهر بشدَّة سنة (١٦٤٧م) وبشكل أساسي في مدينة الجزائر، ثم يتجدَّد نفس هذا الوباء سنة (١٦٤٨م) لكنه ما يلبث أن انكمش مِن جديد بُعيد ظهوره[١]، ويعود مرّة أخرى للظهور والاستقرار لفترة طويلة نسبيا قُدِّرت بعقدٍ مِن الزمن ينحصر فيما بين (١٦٥٤-١٦٦٦). ووفق ما تورده بعض الدراسات فقد خَلُص هذا الوباء إلى القضاء على ثُلُث سكان مدينة الجزائر[٢] وقد ذكر وجود هذا الوباء وانتشار آثاره في بروفانس سنوات قبل ذلك وتحديدا منذ سنة (١٦٥٠م)[٣] فيما تتحدَّث بعض المصادر عن سقوط أكثر مِن ستين ألف ضحية في وباء ألمّ بإيالة الجزائر سنة (١٦٦٢م)[٤].

بل يذهب «دي غرامون» في حديثه عن الأوضاع الاقتصادية والتجارية بين فرنسا والجزائر إلى تخصيص حيزٍ مهم للآثار الكبير الذي خلَّفه الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر خلال سنة (١٦٦٤م) والذي أدى إلى سقوط عدد كبير جدا من الضحايا في مدينة الجزائر وما حولها[٥]، وآثار بشكل كبير في أحواز بيلك

---

(1) - Grammont Henri Delmas: Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe. P8.

(٢) – فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص ١٤٠.

(3) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P18.

(4) - Masson, Paul: **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793)** (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc), Hachette, Paris, 1903, P 154.

(5) - H.-D. De Grammont, **relations entre la France et la regence D'Alger AU XVIIe siècle**, Alger, Adolphe Jourdan, 1879, P183.

قسنطينة في السنة التي تلتها[1].

ولا يتوقَّف الأمر عند هذا الحد، بل يتعدَّاه إلى الثلث الأخير مِن القرن السابع عشر (١٦٧٠-١٧٠٠) عندما يصيب الجزائر وباء قوي نتيجة خروج أحد الأساطيل البحرية من مدينة (جناكله) (Çanakkale) بمركز الدولة العثمانية، باتجاه إيالة الجزائر في (١٨ ماي ١٦٧١)[2] ويأتي على عددٍ كبيرٍ جدا من قاطنيها حسب مارشيكا[3].

ويعضد قول مارشيكا السابق ما استدلَّ به (DE Grammont) من كون أنَّ الطَّاعون خلال مدّة أربع سنوات كان قد قضى على قرابة (١٠٠,٠٠٠) نسمة، بمعدل لا يقل عن (٢٥,٠٠٠ ن/ سنويا) ولا يتجاوز (٤٥,٠٠٠ ن/ سنويا)[4] أي: بمتوسط سنوي يقارب (٣٢,٠٠٠ ن/سنويا) فإن طرحنا منها بعض المبالغات وأخذنا في الحسبان عدم مقدرة المصادر على تقديم معطيات دقيقة، أضحت الأرقام تأتي خلال هذه المرحلة (١٦٩٤-١٦٩٨) على (١٠٪) من سكان المدن، ولو افترضنا أنَّ سكان مدينة كمدينة الجزائر مثلا في حدود

---

(1) - Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d'Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, année 1927, non publié ،P55.

(2) **-Gazette de France**, 1671, N°1. P.551.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P56.

(4) - H-D. De Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, PP 268,269.

(٣٠٠,٠٠٠/ن) على أقل تقدير(كما ذكره دي غرامون في كتابه Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830)، كان عدد الضحايا نتيجة هذا الطاعون لا يقل عن ثلاثين ألف سنويا (٣٠,٠٠٠ ن/ سنويا)، أي بما يقدر خلال أربع سنوات بـ(١٢٠,٠٠٠ ن/ سنويا) وقد تلا هذا الوباء أوبئة قد لا ترقى إلى نفس الآثار الذي خلَّفه هذا الوباء، لكن كان لها هي الأخرى الآثار البارز على الحياة الاجتماعية والكثافة الديمغرافية في المنطقة، فمن ذلك على سبيل المثال الآثار الكبير الذي خلفته أوبئة سنة (1682) أو (١٦٨٣)[1] خاصة وأنها هذه المرة كانت مصحوبة بالجفاف والقحط ما أدى إلى ظهور المجاعة مرَّة أخرى بشكل قوي[2].

ونقف في المراسلات القنصلية التي سبق ذكرها للقنصل العام الفرنسي في الجزائر (Philippe *Jacques Durand*) على صورة ذكر الوباء الذي كان يضرب كل من إيالة الجزائر وإيالة تونس وكان سببا في توقيف الحملة الجزائرية على تونس سنة (١٦٩٦مـ) بحيث كانت المجاعة والأوبئة على أشدها في مدينة الجزائر، وظلت كذلك إلى نهاية شهر أكتوبر مِن السنة نفسها[3].

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P63.

(2) - H-D. De Grammont: Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle, P 81.

(3) -H-D. De Grammont: Correspondance des consuls D'Alger (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place de gouvernment,1890, PP, 57,59

ولعلَّ هذا الأمر هو ما جعل التقارير الطبية لمعهد باستور في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي تعتبر أن الوباء في الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة كاد يستقرّ بشكل دائمٍ، وهذا نظرا لطبيعة نشاط الجيوب الوبائية التي كانت تنشط خلال فترات متقطعة[1]، لذا اعتقد أننا جدراء بالحديث عن مدى ملازمة الأوبئة والغذائية للجزائريين خلال العهد العثماني وبالتَّحديد خلال القرن السابع عشر، لكن هل استمرَّ الوضع بنفس النمط والقوَّة التي كان يسير بها خلال المرحلة القادمة؟ هل تنامى تأثير الوباء أو تراجع آثاره خلال المرحلة محل الدراسة (١٨٣٠-١٧٠٠مـ)؟ هل سنقف على متغيرات جديدة تخصّ طريقة انتقال الأزمات في الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر؟

قبل أن نخوض في رسم الخارطة الجغرافية لتوزع الأوبئة في الجزائر أحببنا أن نُقدِّم بمقدمة تكون توطئة لما نروم بحثه وهو أن لتمركز الأوبئة في مكان دون آخر كانت تشكله محددات ذات عوامل مختلفة، منها ما تم ذكره سابقا في الأسباب المباشرة وغير المباشرة ومنها ما لم يذكر لإنَّه ظلَّ موضع خلاف، وأهم ما لم يتم ذكره هو تأثير الموقع الجغرافي لمدينة ما على تلقيها أسباب الوباء أو تلافيها إياه، وهو الزمن الجغرافي الذي ستنبني عليه الظروف والأحداث الكاملة لاحقا.

وتتبُع بعض الأمثلة الخاصة بالأوبئة التي ظهرت في الجزائر على امتداد مئة وثلاثين سنة (١٧٠٠-١٨٣٠) يحيلنا إلى نفس الملاحظات التي تكلَّم عنها الباحثون في هذا الموضوع في بلدان أخرى، فنذكر مثلاً أنَّ الاقتراب مِن سطح

---

(1) -A.I.P.A: (1924-P312

البحر أو الابتعاد عنه عُدَّ أحد العوامل المهمَّة في ظهور الأوبئة وتوطُّنها من عدمه[1].

فنقف على سبيل المثال إنَّه مِن بين أهم أماكن تواجد الأوبئة واستيطانها المدن الساحلية مثل: مدن الجزائر، وعنابة، والقالة، وجيجل، ووهران، ومستغانم لكن ظلَّ هذا الأمر على مستوى الظهور والتوطُّن، فيما يوجد مستوى آخر هو مستوى التفشي والانتقال، لأننا لا نقف عند الأوبئة على انحصار مكاني محُدَّد، كما أمكننا أن نستخلص مِن القراءة العامة للمصادر أنَّ الظَّاهرتين عرفتا مع تقدُّم الوقت امتداداً جغرافيا يكاد يكون شاملا لجلِّ المناطق الجغرافية لإيالة الجزائر، لكن على خلاف بين الظاهرتين كما سيأتي.

وسنحاول في هذا القسم من البحث تبيُّن المناطق الرئيسة التي استوطنتها الظاهرتان أو المناطق التي عرفت بروزاً كبيرا للأوبئة والمجاعات، إذ أنَّ تَّأثير ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة كان يختلف لا محالة.

فمن ناحية الأوبئة غالبا ما كان المنبع الذي تتطعَّم به المنطقة مِن الأوبئة مصدره المشرق العربي ومصر تحديدا [2]، أو من موانئ الدولة العثمانية[3]، هذه الأخيرة التي كانت تربطها علاقات تجارية ودينية مع الشرق الأدنى وبالأخص مع زُمر الحُجَّاج الوافدين مِن شبه القارة الهندية إلى الحجاز، وغالبا ما كانت تسهم في

---

(1) - Dubar Léon: op.cit., P13.

(2) - Lucette Valensi: op.cit., P21.

(3) -Danıel Panzac: a.g.e, s66.

نقل هذه الأمراض عبر السبل المختلفة مِن هناك إلى باقي أقطار الدولة العثمانية، وهنا يستوقفنا شبه إجماع لدى معظم الدراسات على أنَّ شبه القارة الهندية كانت هي الموطن الأوَّل لمعظم الأوبئة خلال تلك المرحلة الزمنية[1].

بعد ذلك كان خط انتشار هذه الأوبئة بعد وفودها من إيالة الجزائر إلى المشرق العربي عبر موانئ المدن الكبرى في الجزائر مثل مُدن: الجزائر وعنابة والقالة وجيجل ووهران ومستغانم، أو عبر الحدود البرية مع الإيالة التونسية، فنجد مثلا أنَّ الأوبئة التي وفدت إلى الجزائر من الناحية الشرقية سلكت نفس المسلك من تونس باتجاه طبرقة ومنها على المحور الشمالي دائما يتجه الوباء إلى المناطق المحاذية للقالة ومنها إلى مدينة عنابة[2]، من ناحية البَر يستهدف هذه المدينة وهذا المحور، بعدها إلى المناطق الشرقية مِن الإيالة الجزائرية.

أمَّا من النَّاحية الداخلية كثيرا ما انتقل الوباء من المناطق السَّاحلية التي ترتبط بالتِّجارة أو بحركة نقل مع المناطق الداخلية، لكن قبل أن نخوض في هذا الأمر يجب أن نوطئ بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول أنّنا نقف على العديد مِن الإشارات التي تتحدَّث عن انتقال الوباء مِن مدينة الجزائر أو مُدن كعنابة ووهران إلى مدن أخرى مثل: قسنطينة، والمدية، والشلف، وغيرها، فمن ذلك ما ذكره القنصل الفرنسي في الجزائر مِن انتقال وباء (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ) الذي بدأ يخمد في مدينة الجزائر وينتقل مِن هذه المدينة إلى مدينة قسنطينة مركز بيلك

(1) - Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P25.

(2) - Charles Féraud: op.cit., P420.

الشرق الجزائري[١]، نفس الأمر يحدث مع قافلة شيخ العرب التي كانت في مدينة الجزائر أثناء وباء (١٧٩٤مـ) ونقلت معها هذا الوباء في السنة نفسها إلى مدينة قسنطينة بحيث أصيب بالجرثومة شيخ العرب وتوفي جراء ذلك[٢].

كما نجد إشارة لدى «بير بروجر» تتحدّث عن دور الطرق البحرية الداخلية في العمل كناقل للوباء، إذ قدِمت إحدى السُّفن المملوءة بالانكشارية مِن ميناء مدينة الجزائر إلى ميناء مدينة بونة في تاريخ (٣٠/ ٠٤/ ١٧٨٦مـ) أي في المرحلة التي كانت تشهد المدينة وباءاً شديداً[٣]، نفس الأمر يتكرَّر في وباء سنة (١٧٩٧مـ) فيذكر «بير بروجر» أنَّ مدينة عنابة كانت قد استقبلت في السنة نفسها سفينة مِن مدينة الجزائر بها رجال الحامية العسكرية (النوبة) منهم مَن فُقد أثناء السَّفر في البحر، ومنهم مَن تُوفِي يومين بعدما دخل إلى مدينة عنابة[٤]. فإذا تحقق هذا فعلا كان ممَّا يدل على النمط الذي كان في انتقال الأوبئة، فما هذا التنقل الدائم للجماعات المحلية بين الأماكن الموبوءة إلاَّ ممَّا يُسهِم لاحقاً في تنشيط الحركية الوبائية بشكل آخر وفي مدينة أخرى أي أنَّ استمرارية تواجد الوباء كانت جد كبيرة داخل هذه المدن الأساسية، خاصة إذا علمنا إنَّه لم تُتَّخذ أي إجراءات تؤدي إلى التَّضييق على الأوبئة أو السيطرة عليها ضمن إطار جغرافي ما.

(1) -H- D. De Grammont: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742), P260.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, PP 227.

(3) - Ibid. PP 218.

(4) - Ibid. PP 229.

فكثيرا ما نجد ترابط وعلاقة اطرادية بين ظهور الوباء في الجزائر وانتقاله إلى تونس أو حدوث العكس أي انتقال الوباء مِن تونس إلى الجزائر، وهو ما حدث بالفعل مع وباء سنة (١٧٨٤مـ) والذي لم يفرغ مِن تونس إلاَّ وقد ظهر في الجزائر في نفس المرحلة أي سنة (١٧٨٥مـ) حتَّى وإن حاول «باي قسنطينة» تجنُّبه بفرض نطاق حجر صحي حول الحدود الجزائرية مع الإيالة التونسية[١]، وقد امتدّ تأثيره لاحقا خلال سنتين من المناطق الشرقية باتجاه المناطق الموجود غرب البلاد بداية ببيلك التيطري، ومن المناطق الوسطى سنة (١٧٨٧مـ) وهو ما يمكن أن تكون القوافل التجارية أو الحرفيون مِن أهالي هذه المناطق قد نقلوه معهم إلى بسكرة عند هروبهم منه أثناء ظهوره في مدينة الجزائر، أو من غير إدراك منهم لذلك، وقد تجدَّد ظهور آثاره سنة (١٧٨٩مـ) ولم يخمد أثره إلى غاية (١٧٩٢مـ)[٢].

وإذا تقرَّر ما سبق وجب أن نصرف القول إلى أنَّ الأوبئة قد غدت في الكثير من الأحيان في عدد مِن المُدن الجزائرية سمة عامة ترسم طابع الحياة في مجتمع المدن الكبرى خلال الأوبئة التكرارية، وقد تمركزت هذه السِّمة بالدَّرجة الأولى كما سبق في المدن الكبرى التي لها موانئ مطلَّة على البحر الأبيض المتوسط، وهي بالتَّحديد المدن المحورية للحركة التجارية والتنقلات الأساسية خارج الإيالة، وهي نفسها حسب «وليام شالر» ثلاثة موانئ رئيسية هي: ميناء مدينة

---

(1) - Mostefa Khiati: op.cit., P 74.

(2) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

الجزائر، ميناء وهران، وميناء عنابة[1].

فنجد بعض الأبحاث والدراسات تُخصِّص هذه المدن دون غيرها عند الحديث عن تأثيرات الأوبئة بها، حتى أننا نكاد نجد أنَّ الحديث عن الوباء لا يخرج إلاَّ نادراً عن دائرة هذه المدن، هذه المدن التي تجمعها صفة السَّاحلية باستثناء ثلاث مدن سيأتي بيانها.

وإذا عُرف هذا وفُهم ما سبق فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من الحديث فنقول: إنَّ المُدن السَّاحلية التي تمركز بها الوباء أو ظهر بها أكثر مِن غيرها هي: مُدن الجزائر وعنابة (القالة) بشكل أكبر من غيرهما، وقد ارتأينا من خلال الاستقراء تقسيم المدن التي أصابها الوباء إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: ضمَّت المُدن والمناطق التي لم يكد يظهر وباء إلاَّ وكان لها منه نصيب، حتى إنَّه يمكننا أنْ نُعدَّ هذه المدن هي مُدن التَّوطُّن أو إن صحَّ التَّعبير قلنا مدن عبورية (إذ كانت لفترة طويلة معبر تمرُّ منه الأوبئة إلى باقي أرجاء الإيالة) ، لكن هذا يقتصر بالطبع على نوعية الوباء ومدى إمكانية أن ينتقل مِن شخص إلى آخرٍ بشكل مباشر مِن عدمه، إذ يمكن أن يظهر وباء (الكوليرا) في مدينة ما لكنه لا يتعدَّها إلى غيرها إلاَّ في حالات نادرة[2]، بسبب الشروط التي يتكوَّن فيها مثل هذا الوباء، مثل الحيز المغلق الذي يتطلَّبه، أو في حالات أوبئة أخرى كـ(التيفوئيد) فإنَّ التَّلوث الذي قد يصيب منبع الماء المشترك أو مسالك الماء المختلفة قد

(1)- William Shaler: op.cit., P16.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P21.

تسمح بأن تنتقل العصيات المختلفة لوباء (التيفوئيد) عن طريق المياه[١] إلى الأفراد الأصحاء أيضا[٢] وهي بعض الخصائص التي سبق الحديث عنها واختص بها وباء التيفوئيد كما مرّ، والخريطة الموجودة هنا توضح لنا المراكز أو المدن الأساسية التي انتشرت بها الأوبئة خلال المدة الزمنية المعنية بالدراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) وهي محددة بالنقاط الحمراء الدالة على خطورة الوضع حيال وجود الوباء كما هو الحال أسفل مناطق متيجة التي ذكرت في العديد من المصادر كأحد مواطن الحمى المتكرر[٣].

أمَّا الفئة الثانية: فهي مدن العوارض، والتي كان يعرض لها في بعض الأحيان الوباء فيما كان في أحيان أخرى يمر بها دون آثار كبير، أو أنه في بعض المرات لبث فيها وآثار فيها بشكل واضح، ويمكن أن تكون ضمن هذه الفئة مدن المستوى الثاني من حيث الوجود الوبائي كما سيأتي بيانه

أما الفئة الثالثة: فهي فئة المدن الهوامش وهي تلك المدن التي كان ولوج الوباء بها هامشي، فلم يكد يستقر بها كثيرا أو لم يؤثر فيها بالشكل الذي من شأنه أن يأتي فعلا على النظام الديمغرافي أو لتركيبة سكان هذه المدن، ومنها بعض المدن التي عرفت الأوبئة مرات نادرة إن لم نقل معدودة خلال المرحلة المعنية بالدراسة(١٧٠٠-١٨٣٠مـ)

---

(1) - Bolio Antonin:op.cit.,P09.

(2) - Brouardel Paul Thoinot Léon-Henri: op.cit., P12.

(٣) - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، ٢٠٠٥، ص٤٧.

فإن تقرّر ذلك قلنا أن هذا التصنيف ليس دقيقا ولا شاملا بل هو كناية عن مقاربتنا واستقرأنا لشخصيات هذه المدن، لذا إذ أتينا الآن على ذكر التفاصيل المرتبطة بالفئات المختلفة التي ارتأينها لتلك المدن والسبب الذي حملنا على وضع كلّ مدينة ضمن فئة ما دون غيرها فنقول:

تأتي فئة المدن الأولى وهى المُدن الحاضنة أو الناقلة أو مدن التوطُّن الوبائي، على رأس هذه المدن طبعا عاصمة الإيالة أي: مدينة الجزائر أو دار السلطان أو عاصمة الإيالة، نجد أنّ أغلب الأوبئة كانت تنتشر منها إلى غيرها وبالأخص محيطها القريب ومحيط متيجة تحديدا، أو إذا لم تكن هي المستورد لها استقبلت الوباء مهما كان ضعفه وهذا راجع إلى أسباب سنعددها لاحقا لما نتحدَّث عن المدينة الثانية أي مدينة عنابة إذ نجد أنهما يقفان على نفس المميزات التي تجعلها في المرتبتين الأوليين، ونجد أنَّ أكثر من (٧٥%) بالمائة من الأوبئة التي سنتحدث عنها تمركزت في مدينة الجزائر فمنذ بداية القرن الثامن عشر ظهر وباء سنة (١٧٠٠مـ) على ما يذكره القنصل الفرنسي في الجزائر السيد (Durand) بتاريخ (٢٨/٠٦/ ١٧٠٠مـ) في إحدى رسائله ما مفاده «...لقد هاجم الوباء مدينة الجزائر منذ ثمانية أو عشرة أيام وتوفي نتيجة ذلك ثلاثة أو أربعة أشخاص..»[1] ليستمر تأثيره سنتين بعد ذلك وهو ما يمكننا استقراؤه ضمن إحدى المراسلات الرسمية للقنصل الفرنسي في مدينة الجزائر دائما بتاريخ الأوّل من شهر

---

(1) -H.-D. DE GRAMMONT: **Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742)**, P64.

(أوت/ أغسطس) سنة (١٧٠٢م) إلى السيد (Pontchartrain) «بونشاغتران» يعلمه فيها بأنّ إيالة الجزائر بدأت تتعافى من الوباء الذي ألمَّ بها منذ فترة طويلة وألحق بها خسائر فادحة قدرها (٤٥,٠٠٠) ضحية[١]، وظهر مرَّة ثالثة سنة (١٧١٧م) ثمَّ أكدَّ حضوره مرَّة أخرى سنة(١٧٣٠م) وتواصل ظهوره سنة (١٧٣٧م) في المدينة، فيما يظهر مرَّة جديدة حسب مخطوط «بيان ملوك الجزائر» عام (١٧٤٠م/ ١١٥٣هـ)[٢] ويؤثر في الساكنة بشكل كبير[٣] وتشير إحدى الرسائل الأرشيفية إلى تجدُّد ظهوره مرَّة أخرى وبشكل أعنف من ذي قبل سنة (١٧٤١م)[٤] لتعرف بعدها المدينة نوعا من الهدوء استمر قرابة أحد عشر سنة ليعود بعدها مرَّة أخرى للمدينة سنة (١٧٥٢م) حسبما يُستشفّ مِن إحدى الوثائق أرشيفية المؤرخة بالثلاثين من شهر جوان سنة (١٧٥٢م)[٥] تتحدث عن تمكن الوباء من المدينة، ويستمر الوباء في اتخاذ مدينة الجزائر مرتكزا أساسيا له، إذ يتكرر ظهوره مرات أخرى سنوات (١٧٥٣م) و(١٧٥٧م) (١٧٨٦م) ثم بشكل أكثر تأثيرا في تسعينات القرن الثامن عشر وبالتحديد مع وباء (١٧٩٣م) الذي ازدادت حدته في النصف الثاني مِن شهر (فيفري/ فبراير) حسب ما تُقرُّه

(1) -C.C.F.A] AF. é]: AE/B/I/118. Cotes: F °257-262. 1 aout 1702.

(٢) – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم (١٦٢٤).

(٣) – سيأتي الحديث عن التأثيرات الديمغرافية لاحقا في الفصل الرابع.

(4) - C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °279-282. 19 /01/1741.

(5) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F٤٦ °-50. 30 /06/1752.

رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر لوزارة خارجية بلده[1]، ثم يتكرر ظهور الوباء مرة أخرى سنة (١٧٩٦مـ) ويمتد من المدينة باتجاه الداخل فيصل متيجة والمدية ويتسرَّب عبرهما إلى المناطق المحيطة والقريبة منهما خلال شهر (أبريل/ أفريل) من السنة نفسها على حسب ما تورده بعض مراسلات القنصلية الفرنسية مع وكلاء الشركة الإفريقية[2]، ويبقى يشكل تهديدا للمدينة سنة (١٧٩٨مـ) ليحدث هدوء حذر يمتد عشرين سنة كاملة ليعاود الظهور في المدينة مرة أخرى سنوات (١٨١٧مـ)، (١٨١٩مـ) (١٨٢٢مـ) وبشكل عام فقد وصل عدد الأوبئة التي ألمت بمدينة الجزائر لوحدها خلال القرن الثامن عشر حوالي (٢٢) مرّة وظهرت الأوبئة حوالي (٠٦) مرات في الربع الأوَّل مِن القرن التاسع عشر، فإن عُرف ذلك كنَّا جدراء بأنْ نقول أنَّ مدينة الجزائر والمنطقة المحيطة بها الممتدة إلى غاية سهل متيجة كانت بحق المنطقة الأكثر تحملاً للأزمات الصّحية داخل الإيالة وهذا بسبب تحملها للحمى التكرارية التي استقرت بها إلى حد ما[3]، وفي الكثير من الأحيان كانت هي مركز الانتقال الوبائي والقلق الصحي داخل الإيالة.

---

(1) - Lettre du 17 février, dans le registre de la correspondance du consulat Français, idem, P 355.

(2) -Lettre du 2 mai 1796 (xui floréal an iv) ‹du consulat de France, à Alger, à l'agent consulaire français de Bône. Guyon, op.cit. P357.

(٣) - – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص٤٧.

فإن تقرر ما سبق وجب الانتقال إلى المدينة الثانية التي تحظى بنفس الأهمية من ناحية كونها كانت بدورها مركزا وبائيا، أو على الأقل معبرا حيويا له، وهي بدون شك مدينة عنابة أو بونة الساحلية في شرق الإيالة الجزائرية، إذ لا نكاد نجد وباءً يظهر في أحد أجزاء الإيالة إلّا ووقفنا على آثاره في مدينة عنابة، وهذا منذ بداية المرحلة المعنية بالدِّراسة، فنقف من سنة (١٧٠٠م) إلى غاية سنة (١٨٣٠م) على أكثر من خمسة عشر وباء ألم بالمدينة أو عبر من خلالها على الأقل، وحديثنا عن مدينة عنابة يتضمن أيضا مدينة القالة، بل وظلت بعض الأوبئة كالجدري تضرب المدينة من حين إلى آخر حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر[1]، فنقف على أول الأوبئة مع بداية القرن الثامن عشر تماما، إذ لم تستثن المدينة من ذلك الوباء الذي لحق بالإيالة سنة (١٧٠٠م) حسب مارشيكا (Marchika)[2]، والذي يمكننا أن نرجعه إلى أصله الحقيقي، إذ أنه كان في الأصل امتدادا لوباء سنة (١٦٩٦م)[3] الذي ضَرب المنطقة ككل وظلت بعض جيوبه الوبائية نشطة بداية القرن الجديد، مثل ما نقف على وجود الوباء أيضا سنة (١٧٥٦م) حسب ما تورده إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية الرسمية، بحيث تتكلم عن وجود عدد من حالات الإصابة

---

(1) - Sistach: la variole a Bona, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879, P126.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P69.

(3) -H.-D. DE Grammont: **Correspondance des consuls D’Alger** (1690-1742) PP . 57-59

بالوباء في مدينة عنابة أواخر شهر جانفي (١٧٥٦مـ)[1]، كما نجد أنَّ الوباء يظهر مرة أخرى في مدينتي عنابة والقالة والأحواز المحيطة حسب مراسلات الشركة الإفريقية في مدينة عنابة سنوات (١٧٨٤مـ) (١٧٨٥مـ)، إذ تورد بعض المعلومات من بينها رصد حالتين لضحيتين من سكان المدينة قد أصيبا بنفس أعراض هذا الوباء في شهر أكتوبر من سنة (١٧٨٤مـ)[2]. مثل ما تحيلنا مراسلة أخرى مِن الشركة الإفريقية أوردها «شارل فيرو « تتحدث عن تفشي الوباء ما بين سنتي (١٧٨٣-١٧٨٥مـ) في عدد من أحواز مدينة القالة[3].

ويذكر «بير بروجر» كما مرَّ معنا فيما سبق أنَّ مدينة عنابة كانت قد استقبلت في (١٧٩٦مـ) سفينة من مدينة الجزائر بها رجال النوبة العسكرية جلهم مصاب بالوباء وغالب الظن أنهم ساهموا في إدخاله المدينة خاصة إذا علمنا أن منهم من توفي داخل المدينة بعد يومين من وصوله[4]، وتبقى الأوبئة تتكرر من ناحية الظهور سنوات عدة ومختلفة وامتد إلى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فنجد مثلا أنَّ الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (١٨١٧مـ) كان أوَّل ظهوره في مدينة عنابة؛ بسبب السفينة التي حُكي أنها قد رست بميناء مدينة عنابة سنة (١٢٣٣هـ/

(1) - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F١٣ °-20. Journal n° 69 du mois de janvier 27 /01/1756.

(2) -Lettre de l'agent précité, en date du 4 octobre. Dans Histoire chronologique des épidémies, (Guyon) P330.

(3) - Charles Féraud: op.cit. ‹P395.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, PP 229.

١٨١٧مـ) قادمةً مِن مصر تحمل على ظهرها خمسة وعشرين مسافرا وافد من أداء مناسك الحجّ كان معظمهم مصابا بالطاعون وقد تفرقوا بعد دخولهم المدينة إلى أماكن مختلفة ما تسبّب لاحقا في تفشي الوباء لباقي سكان المدينة[١].

وإذ قد أتينا على ذكر مدينتين ساحليتين كانتا معابر أساسية مرَّ عبرها العديد من الأوبئة والطواعين، نأتي الآن إلى مدينة داخلية لكنها أتت قبل بعض المدن الساحلية في تلقيها للأوبئة، وهي مدينة قسنطينة، فنجد العديد مِن الأوبئة التي ألمت بمدينة عنابة وجدت طريقا لها إلى عاصمة بيلك الشرق الجزائري، منها ما ذكره القنصل الفرنسي في الجزائر مِن أمر انتقال وباء (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ) مِن عاصمة الإيالة إلى عاصمة بيلك الشرق الجزائري[٢]، والذي تتحدَّث الوثائق الأرشيفية عن تأثيراته الكبيرة على كلّ مِن مدينة قسنطينة ومدينة تلمسان سنة بعد ذلك[٣].

كما يذكر (Guyon) أنّ الوباء قد ظهر في العديد من الأماكن على الساحل الشمال الإفريقي، وكان تأثيره بشكل خاص في مدينة قسنطينة والأحواز المحيطة بها، وقد رجح «غيون» أنَّ هذا الوباء قد يكون امتدادا لسابقه الذي ظهر سنة (١١٦٥هـ/ ١٧٥٣مـ) [٤]، مثل ما نقف مرة أخرى على ظهور الوباء سنة (١٧٨٣مـ) على ما يذكره «غيون» عن الأب (Poiret) الذي يتحدَّث عن تمكُّن

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P373.

(2) -H- D. De Grammont: Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P260.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °285-286. 17 /07/1741.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P321.

الوباء في بيلك قسنطينة خلال سنة (١٧٨٣مـ)[1] ويتجدَّد ظهور الوباء مرَّة أخرى سنة (١٧٨٥مـ) في بيلك قسنطينة، ثم يتسرب إلى عاصمة البيلك سنة بعد ذلك أي سنة (١٧٨٦مـ) مع ما بذله «صالح باي» حينها من العديد مِن الإجراءات لمنع دخول الوباء إلى البيلك لكنه فشل في ذلك، كما تظهر أهمية المدينة في كونها محتضنا قويا للأوبئة وناقل مهما لها أيضا؛ مِن خلال ما حدث سنة (١٧٩٣مـ) بنقل الوباء الذي كان يضرب مدينة الجزائر إلى بيلك الشرق نتيجة الزيارة الروتينية المتعلقة بتحصيل الضرائب ودفعها لدرا السلطان[2] ولم تنقطع الأوبئة عن المدينة في الربع الأول من القرن التاسع عشر، إذ تجدَّد ظهور الوباء سنة (١٨١٧مـ)[3] ثمَّ التَّجدُّد مرَّةً أخرى(١٨١٩مـ) سنوات (١٨٢٠مـ) و(١٨٢٢مـ) وهو ما يجعل بالفعل مدينة قسنطينة ضمن الفئة الأولى من المدن الحاضنة والناقلة في نفس الوقت للأوبئة ويجعلها مركزا حيويا يختلف بقدر قليل على كل من مدينتي الجزائر وعنابة بحكم خاصيّتهما الساحلية التي جعلتهما أكثر عرضة للأوبئة.

وضمن نفس الفئة دائما نقف على مدينة تحمَّلت بدورها العديد مِن الأوبئة، وهي مدينة وهران الساحلية، إذ تلقت بسبب مركزها الحيوي في بيلك الغرب الجزائري العديد من الأوبئة منذ أول مراحل الوجود العثماني في الجزائر، إذ قد ذكرنا فيما مر أنّ من بين أوائل ضحايا الأوبئة في إيالة الجزائر في عهد البايلربايات

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P329.

(2) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P142.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P232.

بايلرباي الجزائر «صالح ريس» الذي لقى حتفه بسبب الوباء عندما كان يسعى لفتح مدينة وهران[١]. وظلت المدينة في الكثير من الأحيان سببا في امتداد الأوبئة، خاصة مع التُّجار والحجاج وبالتحديد بعد الفتح الثاني للمدينة.

ونقف في هذا الشأن على عدد كبير من الأوبئة كما سيأتي لكننا بغرض الاختصار وبحكم أن هذه الأوبئة سيأتي ذكرها بالتفصيل في حينه نستعرض بعضها فقط، ولعلَّ مِن بين أهم الأوبئة التي كان لها تأثير في النسق العام للحياة داخل بيلك الغرب الجزائري ذلك الوباء الذي ألَمَّ بالمدينة سنة (١١٥١هـ/ ١٧٣٨مـ) بعدما ظهر في بداية الأمر في مدينة تلمسان ثم انتقل إلى المناطق المحاذية لمدينة «وهران"[٢]، حينها كان «يوسف بن مصطفى بوشلاغم « يعمل لأجل السَّيطرة على النظام في البيلك والقيام باسترجاع المدينة من يد الإسبان، إلاّ أنَّه سقط بدوره ضحية للوباء الذي كان يضرب المدينة خلال تلك السنة (١١٥١هـ/ ١٧٣٨مـ)[٣].

يظهر الوباء مرات أخرى في المدينة، لكن مِن بين أهمها وأكثرها أثاراً الذي كان سنة (١٧٨٦مـ) وجاء متزامنا مع ظهوره في كلّ مِن عنابة ومدينة الجزائر وامتدَّ لاحقاً إلى المغرب الأقصى، مع أنَّ باي وهران حينها قام بتأسيس نطاق حِجر صحي عليه وعلى مَن معه مِن المرافقين، ولم يدخل مدينة وهران عندما عَلِم

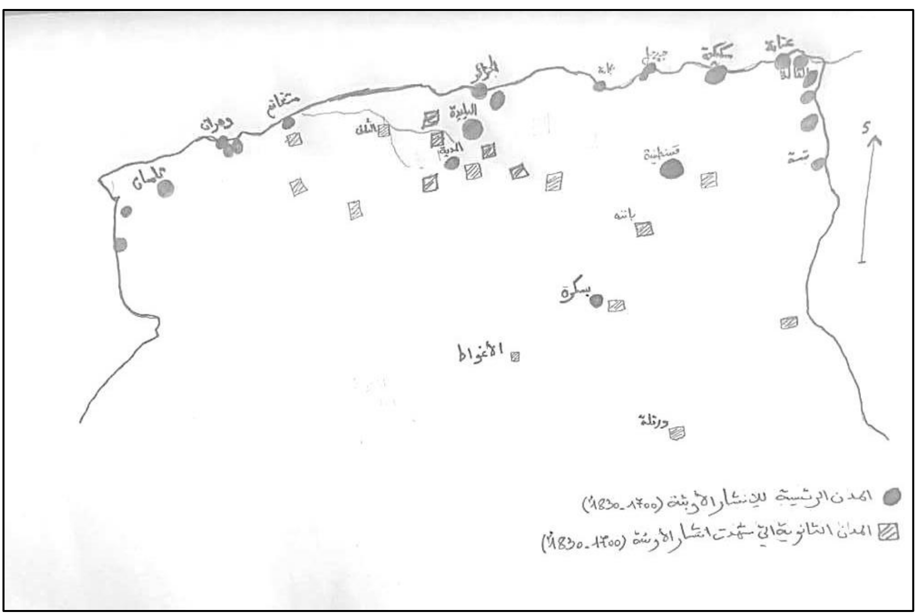
(١) - مؤلف مجهول: **نبذة يسيرة في سيرة محمد باي فاتح ثغر وهران**، و/ ٦ ص١١.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP 314-315.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

بأمر الوباء الذي اجتاحها[1]. نقف بها أيضا على وباء آخر يضرب المدينة سنة (١٨١٧مـ) وآخر يتجدد بها سنة بعد ذلك، ويستمر هذا الوباء في الظهور خلال السنوات التالية (١٨١٨مـ) (١٨١٩مـ)وسنة (١٨٢٠مـ) وحتى سنة (١٨٢١مـ) والذي لحق فيها المدينة وباء على نفس السفينة التي حملت الوباء إلى عنابة ومدينة الجزائر كما سيأتي. والخارطة التالية توضح محاور التواجد الوبائي المستوطن لبعض الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني:

١- خارطة توضح التوزع الجغرافي لمدن الفئة الأولى الأكثر عرضة للوباء (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)



(1) - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

وإذ قد ظهر لنا عدد الأوبئة التي تحملتها المدن الأساسية أو مدن التَّوطُّن الوبائي كما وسمناها، انتقلنا للحديث عن الأسباب والعوامل التي جعلت هذه المدن دون غيرها تكون ضمن هذه الفئة، وإن كان هذا أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف عليه من خلال الخريطة السابقة، إلاَّ أننا آثارنا أن نضيف الأركان التي عليها مدار هذا التوطُّن الوبائي فيها دون غيرها. ولعلنا لا نجانب الصواب إن حصرناها فيما يلي:

أنّ وجود المدن المذكورة ما عدا مدينة قسنطينة على السّاحل؛ جعلها دائمة الاحتكاك والتواصل مع أطراف عدة، أهمها الأطراف الخارجية؛ ما يجعلهما أكثر عرضة للوباء وانتشاره من غيرها، ضف إلى ذلك تمركز النشاط التجاري للإيالة بهذه المدن، ما كان يوجب وجود حركة دائمة بين هذه المدن والأطراف الخارجية، سواء كان ذلك عن طريق السُبل البحرية أو عن طريق الطُّرق البرية، وهو ما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى نقل الأوبئة من المدينة المصابة إلى المدينة الأخرى[1].

وقد مرَّ بنا في السابق في المباحث المختلفة ما لا يخفى مِن مكانة عاصمة الإيالة سياسيا خلال العهد العثماني في حركة الانتقال والاحتكاك السياسي والدبلوماسي والتِّجاري لمختلف أطياف المجتمع المحلي والدولي في موانئها، ما يجعلها الأكثر عرضة للأوبئة ضمن فئة مُدن التَّوطُّن الوبائي، وأكثر عرضة مِن غيرها للإصابة بأي وباء يظهر في المتوسط، كما لا يخفى أنّ مدينة بونة تأتي في

(1) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P20.

المرتبة الثانية من حيث عدد الأوبئة التي ألمَّت بها وهذا راجع لنفس السبب الذي خُصَّت به مدينة الجزائر، أي: مكانتها وحيويتها في عملية التبادل التجاري لإيالة الجزائر[1]لكنها ظلت في المرتبة الثانية؛ بحكم أنَّ الحركية التجارية للمدينة في الغالب كانت مقصورة على الشركة الإفريقية وبعض سفن نقل الحُجَّاج، فيما كانت مدينة الجزائر تستقطب معظم الحركية التجارية والتنقلية للإيالة.

ومِن جهة أخرى لو افترضنا أنَّه قد ظهر أي وباء على المناطق الحدودية مع تونس فهو غالبا ما سينتقل أولاً إلى مدينة عنابة عن طريق التُّجار والفلاحين، هؤلاء الذين كانوا يحرصون على أن تصل سلعهم إلى مرفئ المدينة حتى يتسنَّى لهم تصديرها إلى خارج الإيالة أو على الأقل بيعها لمن له القدرة على تصريفها خارجيا، وهو ما يجعل الجميع داخليا وخارجيا وكل المتواجدين في عملية التبادل هذه عرضةً للأوبئة.

كما أنَّ كلاً مِن عاصمة الإيالة ومدينة عنابة كانتا أحد المرافئ الأساسية في عملية التِّجارة الخارجية، إذ يُعدُّ ميناء بونة هو الثاني من حيث قيمة المبادلات التجارية مع الخارج، بل وكانت المخرج الرئيسي للمنتوجات الأساسية للإيالة إلى أوروبا في صورة: القمح، والشعير، والفواكه، والليمون، والعسل، والصوف،...إلخ والتي غالبا ما كانت تخضع لسيطرة الشركة الإفريقية[2]، كما

---

(1)- H.-D. De Grammont, **relations entre la France et la regence D’Alger AU XVIIe siècle**, Alger, Adolphe Jourdan, 1879, P236-242.

(2) - Boutin Vincent-Yves: op.cit. ،P٢١-0-211.

نجد أنَّ ميناء هذه المدينة كثيرا ما اعتُبر المخرج الأساسي الذي يخرج منه الحُجَّاج عند ذهابهم لأداء فريضة الحجّ أو عودتهم منه، ونحن نعلم أنّ الحجاج كانوا في الكثير من الأحيان أحد الحوامل الأساسية للمرض والأوبئة أو على الأقل أحد العوامل الناقلة بقوة للأوبئة، لذا فإنّ هذا يعني أنّ هذه الخاصية قد كانت أحد الأسباب المعينة في انتشار الوباء في المدن الساحلية الأولى أي مدن: الجزائر عنابة، والتي كان يتوافر فيها نفس التَّأثير الوبائي تقريبا مع احترام النسق التراتبي بحيث تتقدم مدينة الجزائر على مدينة عنابة في عدد الأوبئة، بينما تلتحق بهم مدينة وهران متأخِّرة قليلاً، بل إنَّه يمكننا أن نتحدَّث عن أنَّ ترتيب مدينة وهران من حيث الأوبئة التي أصابتها يمكن أن يأتي بعد مدينة قسنطينة.

ولسائل أن يسأل في هذا المقام ما سبب ذلك؟ أو لِمَ قُدِّمت مدينة عنابة بينما أخرت مدينة وهران لتكون بعد مدينة داخلية هي قسنطينة؟ قلنا أنَّ ذلك راجع لأسباب عِدَّة منها على سبيل المثال لا الحصر: أنَّ مدينة عنابة كانت مِن المدن الناشطة على مستوى نقل الحُجَّاج إلى موانئ مصر وتونس وطرابلس الغرب عكس مدينة وهران والتي ظلت بسبب الاحتلال الإسباني محاصرة مِن ناحية البحر ما يجعل التنقل منها إلى الحج أمر غير وارد. إضافة إلى هذا كانت مدينة عنابة مركزا لنقل القمح إلى فرنسا حسب ما تثبته الكثير من المراسلات بين الدايات وباي قسنطينة وبين الأخير والشركة الإفريقية الملكية في بونة، فيما كانت مدينة وهران تحت سيطرة الإسبان أو محل تنازع عليها ما يجعل أمر التجار بها مرهونا بمراحل زمنية مُحدَّدة، إضافة إلى ذلك فإن مدينة عنابة حدودية مع إيالة تونس والأخيرة كانت في اتصال دائما مع الأوبئة في المتوسط ما يجعل إمكانية انتقال الأوبئة من

تونس إلى عنابة كبيراً جداً، مثل ما أنَّ وجود الشرَّكة الإفريقية في عنابة أوجد لها تقييداً مُنتظماً لكلِّ ما كان يحدث فيها من أزمات صحية بعكس وهران التي ظلت محل إشارات لا أكثر، ولم يستتب الأمر بها فعليا لتقيد الأوبئة أو تاريخها بشكل عام إلاَّ بعد فتح «محمَّد الكبير» للمدينة سنة (١٧٩٢مـ)[1]، كما نرى أنَّ كلاً مِن مُدن: الجزائر عنابة ووهران كانت، إمَّا تصاب مباشرة بالوباء الوافد من الداخل وتصدِّره للمدن الأخرى، أو يحدث العكس، بحيث تتلقَّاه إحدى المدن مِن حركة السُّفن التجارية في الساحل المتوسطي وتنقله إلى داخل المدينة وينتقل منها إلى المدن الأخرى، وهو ما حدث في العديد مِن الأوبئة حتى تلك التي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل ما وقفنا عليه سنتي (١٨٣٤مـ) و(١٨٣٥مـ)[2].

وإن كنا قد استوفينا الحديث عن العوامل أو المشتركات الفعلية التي جعلت من المدن الساحلية الثلاث الجزائر، عنابة، وهران. على رأس مدن التَّوطن الوبائي تشغل أهم حيز في المجال الجغرافي لإيالة الجزائر من ناحية الوجود الوبائي، وجب علينا أن ننتقل للحديث عن مدينة قسنطينة وسبب تواجدها ضمن هذه الفئة من المدن، مع إنَّها لا تتوفَّر على الخصائص الجغرافية نفسها، خاصة فيما يتعلَّق بوجودها السَّاحلي، ثمَّ نفسِّر سبب إنَّها حازت مكانة ضمن هذه الفئة فيما غابت بعض المدن السَّاحلية الأخرى.

---

(1) -Paul Masson, Histoire Des Étabilissments et du commerce Français dans L'Afriaue Barbaesaue (1560-1793), Paris, libraire Hachette, 1903,P 106-128.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P25.

تعددت الأسباب التي جعلتنا نعد مدينة قسنطينة ضمن الفئة الأولى مِن المدن التي عانت مِن الأوبئة، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الموقع الجغرافي المهم للمدينة، والذي جعلها مركزا حيويا مِن جهة ومجالاً تداولياً مُهماً للأزمات مِن جهة ثانية.

فالقرب الجغرافي للمدينة من الحدود التونسية وكثرة حركة قبائل تلك المنطقة جعل المدينة محل خطر دائم ومفتوحة على تلقي الأوبئة بشكل كبير، وهو ما يفسِّر قيام «صالح باي» بمحاولة تطويق المدينة وتوقيف الحركة التجارية لقبائل تلك المنطقة مع نظرائهم في إيالة تونس خوفا مِن انتقال الوباء معهم إلى مدينة قسنطينة[1] خاصة وأن المدينة هي قاعدة بيلك الشرق، إضافة إلى القرب الجغرافي من مدينة عنابة والقالة وموانئ شرق الإيالة جعل معظم الأوبئة التي ترصد في عنابة تنتقل إليها إلا فيما ندر، إضافة إلى أنَّ مدينة قسنطينة والبايلك ككل مِن حيث الكثافة السكانية والتَّعداد الجغرافي خلال تلك المُدَّة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) كانت يأتي في المرتبة الثانية بعد مدينة الجزائر والأولى من ناحية البيلك، وهو ما يجعل تواجد الوباء فيها مع توفر الكثافة السُّكانية المرتفعة يجعل التَّخلص منه أمراً مستعصياً بالفعل، كما أنَّ التَّنقل الدائم لساكنة المدينة بينها وبين عاصمة الإيالة كثيرا ما كان سببا في نقل الأوبئة وتوطُّنها بشكل خاص، كما حدث مثلا في وباء سنة (١٧٩٣مـ) إذ تفشي الوباء في المدينة نتيجة قيام باي قسنطينة بزيارة

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P212.

الجزائر لأجل دفع الضريبة الدورية[1] والأمثلة هذه عديدة فضلنا أن نتركها إلى حين الكلام عن انتقال الأوبئة في المبحث المخصص لذلك.

بعد الفراغ من الحديث عن الفئة الأولى مِن المدن التي كانت مراكز للتوطُّن الوبائي وإذا تقرَّر ذلك وجب علينا الآن أن نصرف القول إلى بيان الفئة الثانية مِن المُدن التي ألَمَّ بها الوباء أكثر من مرَّة، وهي بحق «مدن العوارض» بحيث أنها تكون مُتعرضة بشكل متقطع لخطر الأوبئة، وكانت الأوبئة الكبرى التي تلم بالإيالة كثيرا ما تؤثر فيها بشكل واضح.

وتأتي على رأس هذه المدن مدينة بسكرة برغم كونها مدينة داخلية تأتي في بوابة الصحراء وبعيدة نسبيا عن مراكز التَّوطن الوبائي فإنَّها كثيراً ما تعرَّضت للأوبئة، أو كثيراً ما انتقلت لها الأوبئة الموجودة بشكل مُتكرِّر؛ فنقف على عدد كبير مِن الأوبئة التي أثرت بشكل كبير على المدينة ولعل أهم هذه الأوبئة وباء سنة (١٧٨٩مـ) الذي ضرب المدينة بقسوة، وعاد ليتجدد بها مرة أخرى سنة (١٧٩٢مـ) ولم يخمد أثره بها وبغيرها من المناطق بشكل مباشر إلاَّ هذه السَّنة تقريبا[2]. ويظهر وباء آخر أيضا لا يقل شدة عن سابقه مثلا سنوات قليلة قبل الوباءين السابقين سنة (١٧٩٨مـ) ويشمل كل مدينة الجزائر ومدينة قسنطينة ويمتد من مدينة بسكرة إلى جل مناطق صحراء الزيبان[3].

(1) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P142.

(2) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

(3) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P149.

ويعود تصنيفنا للمدينة ضمن الفئة الثانية أو بالأحرى يعود سبب وجود المدينة ضمن هذه الفئة إلى عوامل عدة من أبرزها أنَّ الفئة الأكثر عرضة للوباء في مدينتي الجزائر وعنابة هي فئة البساكرة، وهذا بسبب طبيعة النشاط الذي كانوا يشتغلون به، إذ أنَّ غالبهم يشتغل في الحِمالة داخل موانئ هاتين المدينتين، ما جعلهم في صدر مَن يتعرَّض للاحتكاك مع الأوبئة الوافدة إلى الإيالة، ثمَّ يسهم بعضهم في نقلها إلى مدينة «بسكرة» الداخلية في حالة زيارتهم لها بشكل طبيعي أو في حالة محاولة الفرار مِن الطَّاعون[1]، وسيأتي لاحقا كيف كان النَّاس يحاولون الفرار إلى المدن الداخلية هربا مِن الطَّاعون الأمر الذي جعل العديد مِن الأوبئة التي ظهرت في مدينة الجزائر تتفشى في مدن داخلية من بينها مدينة بسكرة، ومِن بين الضحايا مَن يسقط في طريقه إلى المدينة فلا يسعفه المرض لبلوغها[2] ويكون ذلك حائلا من وصول الوباء لها أما في حالة وصول المصاب بالوباء لها فتكون انعكاساته ضخمة وكبيرة على المدينة وما جاورها.

كما يمكننا أن نضيف إلى مدينة بسكرة مدينة تلمسان في بيلك الغرب الجزائري، إذ مرّ بها العديد مِن الأوبئة التي ألمَّت بالإيالة خلال المرحلة محلِّ الدِّراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) إذ نذكر من بين الأوبئة التي أثرت فيها بشكل كبير الذي ألمّ بها سنة (١٧٣٨مـ)[3] بل وكان سببا في نقل الوباء الذي ألمَّ بها إلى الأحواز

(1) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P161.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P

(3) - Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830), P78.

والمناطق القريبة منها في تلك السنة. والأمر نفسه يتجدَّد في الوباء الذي ضرب الإيالة (١٧٤٠مـ) واستمر في النشاط إلى غاية (١٧٤٣مـ) وانتقل إلى مدينة تلمسان ومنها إلى أماكن عِدَّة مثل: مُستغانم وتلمسان وقسنطينة، وقد أتى هذا الوباء حسب بعض المؤرخين على عدد كبير جدا مِن الضحايا وصل إلى قرابة الستين ألفا[1]، ويبقى الوباء يظهر في المدينة أكثر من مرة فيبرز آثاره للعيان سنة (١٧٩٠مـ) ويقضي على أعداد من الضحايا حسب ما توروده تقارير القنصلية الفرنسية في سنة (١٧٩١مـ)[2]، مثل ما يتفشَّى الوباء أيضا في المدينة والمناطق القريبة منها سنوات: (١٨٢٠مـ) وسنة (١٨٢١مـ).

ومن الأسباب التي جعلت تلمسان مثل بسكرة أو في بعض الأحيان ترتقي إلى مكانة قسنطينة في بيلك الشرق من حيث تأثير الوباء بها هو موقعها الجغرافي المهم جدا، خاصة وأنَّ أهمية الموقع زادت استراتيجيا بسيطرة الإسبان على مدينة «وهران» بحيث أضحت مدينة تلمسان نقطة التقاء ما بين السِّلع الصادرة والواردة من مناطق مختلفة سواء منها الوافدة من المغرب أو من المناطق الإفريقية ما أهل المدينة لأن تكون مَعبراً مِحورياً لهذه السِّلع[3]، إضافة إلى أنَّ المدينة –مع مازونة ومعسكر– كثيرا ما كانت أحد أركان الحكم في بيلك الغرب الجزائري، قبل الفتح الثاني لمدينة وهران مِن طرف «محمَّد باي الكبير» سنة (١٧٩٢مـ) ما يجعل

(1) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P92.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F١٣٨ °-144. 28/07/1791.

(3) -Lucette Valensi: op.cit., P58/59

الحركية السياسية والاقتصادية بها كبيرة على مدار الوقت.

أمّا الفئة الثالثة ضمن الصيغة التي نقترحها فهي فئة من المُدن التي كان تأثير الوباء فيها قليلا ومنحصرا في مرات نادرة، وهو ما نقف عليه في مدن: بجاية ومعسكر والبليدة ومستغانم وجيجل والقل ومنطقة الصحراء، وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نقول أن السبب في وضعها في هذه الفئة هو أن الأوبئة لم تتسلط على هذه المدن في كل مرة، أو على الأقل حسبما لدينا الآن من معطيات، وقد يتولد من هذا اعتبار أن هذه المدن كانت خارج نطاق الضرر الذي كانت تحققه المجاعات أو الأوبئة وهذا غير صحيح بالمرة، إذ أنّ ضرر الأوبئة والمجاعات في هذه المدن أيضا شوهد لكنه ظل على مستوى ضيق وليس له آثار كبير على الكثافة السكانية مثل الذي ضرب الصحراء الجزائرية حسب ما ينقله صاحب كتاب «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف» بإنَّه سنة (١١٩٦هـ/ ١٧٨٢مــ) قد شُوهد انتشارا للوباء بين المواشي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الجائحة الحيوانية» كما عرفت نفس المنطقة جدبا امتدَّ في الصَحراء طيلة سنة (١١٩٦هـ/ ١٧٨٢مــ)، وكان سببا في المواجهات القَبلية بين أهالي القبائل الصحراوية مِن جهة، وبين بعض القبائل الصحراوية والسُّلطة العثمانية مِن جهة ثانية[١]، غير أنَّ المعلومات حول هذا الوباء وغيره ظلَّت شحيحة جدا فيما يخص هذا الجزء من الجزائر.

(١) - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ٢٦٨.

لذا غالبا ما نجد الحديث عن ضرر الأوبئة في هذه الفئة مِن المدن أو المناطق القريبة منها ضرراً وقتياً ونطاقه ضيق وعدد ضحاياه قليل، وهو ما نشاهده مثلا في الوباء الذي ضرب الجزائر بقوَّة سنة (١٨١٧مـ) وامتدّ إلى بعض هذه المدن في السنة التي تلتها (١٨١٨مـ) فنقف عليه في: مدينة معسكر، ومدينة البليدة وجيجل[1]، ومدينة بجاية[2]، لكن على عكس الآثار الكبير الذي تركه في مدينة الجزائر نجد أنَّ ضرره في هذه المدن لم يكن بتلك القوَّة التي كان بها في مدن الفئة الأولى أو مُدن التوطُّن الوبائي.

قد يستغرب البعض سبب عدم إدراج مدن كجيجل وبجاية ضمن فئة المدن الأولى بحكم أن هاتين المدينتين بدورهما كانتا مدينتين ساحليتين وكان بهما نشاط تجاري أيضا، أي لهما علاقة خارجية تجعلهما عرضة بدورهما لأوبئة عِدَّة! قلنا أن هاتين المدينتين تقعان ضمن الفئة الثالثة مِن المدن التي كان يلحقها الوباء بشكل الكبير؛ وكون المدينتين ساحليتين لا يجعلهما بالضرورة ضمن المدن الأكثر عرضة للوباء، فهما وإن كانتا مدينتين ساحليتين غير أنَّ تأثير الوباء بهما ظلَّ ضعيفا، ولعل هذا راجع بشكل أساسي لطبيعة الحركة التجارية للمدينتين مع العالم الخارجي والتي كانت لا ترقى إلى الحركية التجارية الموجودة في مدن: الجزائر، عنابة، وهران، ولهذا فنحن جدراء بأن نصرف البيان إلى القول بأنَّ السبب

---

(1) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, PP١٦٧--170.

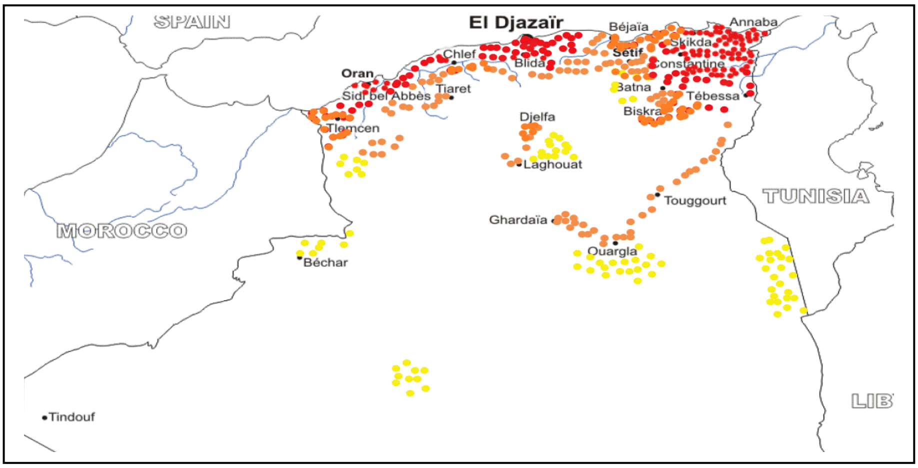
(2) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique ،P 382.

الرئيس الذي يجعل المدينة الساحلية أكثر عرضة للوباء هو الحركة التجارية القوية والمستمرة لموانئها مع السفن المختلفة وهو ما لا نتلمس وجوده بشكل كبير في المدينتين، كما أنَّ صفة الجبلية التي ميزت المدينتين جعلتهما تتمتعان بحصانة مميزة وتحميانها بشكل عام من خطر الحركة العارضة لحاملي الأوبئة. وإلاَّ فإنّ كونها ساحلية مع خمول الاحتكاك التجاري والنشاط البشري لا يجعلها عرضة أكثر من غيرها للعدوى الوبائية.

وإن جعلنا ما مضى ذكره من كون الحركة التجارية هي سبب أهم من كون المدينة ساحلية من عدمها، أصبح لدينا ما يشبه الحكم المتيقن من أنّ النشاط السكاني ذو الفعالية الكبيرة يصاحبه نشاط وبائي وانتقال وبائي بنفس الدرجة.

والخارطة التالية توضِّح التوزيع الجغرافي لخطر الأوبئة بمستوياته الثلاثة، بحيث يكون اللون الأحمر ترجمة لارتفاع حالة الإصابة بالأوبئة في هذه المدن أو في المناطق القريبة منها والتي تعيش نفس الأعراض وهي «مناطق ومدن التَّوطُّن»، بينما اللون البرتقالي يدل على وجود خطر مُتقطِّع ويشمل مدن الفئة الثانية أو «مدن العوارض» كما سميناها، ودرجة إمكانية إصابة هذه المدن بخطر الأوبئة أكبر من التي تليها، أي أقل من «مدن الهوامش» والتي لحقتها ومنطقتها بعض الأوبئة لكنها كانت مقتصرة على مدة زمنية قصيرة، وتأثير الوباء بها كان أقل شأنا وقد ميزنا هذه المدن والمناطق التي تعيش نفس حالتها باللون الأصفر.

٢- خارطة تمثل أماكن التوزع الجغرافي للأوبئة ودرجتها حسب مدن إيالة الجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠م)



اللون الأحمر: مناطق ومدن التّوطن الوبائي.

اللون البرتقالي: مناطق ومدن العوارض.

اللون الأصفر: مناطق ومدن الهامش.

وبهذه الخريطة تتضح لنا الصورة العامة لتوزع مناطق التلقي الوبائي، أو المناطق التي عانت من آثار الأوبئة والمناطق الأخرى التي ظلت بعيدة عن التأثيرات الكبرى للأزمات الصحية على الإيالة، ويمكننا أن نستنتج أن المفاصل الأساسية التي كان يؤثر بها الوباء كانت توجد في الشمال بصفة عامة، وخاصة منه الشمال الشرقي، وكلما انتقلنا من هذا الأخير ناحية الغرب نجد التأثير الوبائي، والنشاط العام له يقل، ونفس الأمر ينطبق على الحديث حيال الانتقال من الشمال باتجاه الجنوب، فكلما انتقلنا إلى الجنوب قل التأثير الوبائي لعوامل عدة سبق ذكرها منها على الأساس: ارتفاع درجة الحرارة التي لا تتيح نشاط الطفيليات

بشكل واسع، وقلة الكثافة السكانية من جهة أخرى، إضافة إلى بعد المسافات التي قد تقضي على الأوبئة في الطريق ولا تتيح لها الاستمرار إلى أقصى مدن الجنوب، وما وصل من الأوبئة إلى الجنوب غالبا ما كان مصدره الحدود الجنوبية الشرقية مع طرابلس الغرب والإيالة التونسية ولم ينتقل بشكل مباشر من الشَّمال إلى الجنوب إلاَّ نادراً.

ولعل ما سبق ذكره من اختلاف شدة الوباء في مستوياته الثلاثة التي حققناها يرتبط ارتباطا وثيقا بالمسالك التي كانت تسلكها الطرق التجارية الكبرى داخل الإيالة وخارجها، فالمدن الأكثر عرضة للأوبئة كانت في الغالب تلك المدن التي تُعد محطات أساسية في عملية التجارة داخل الإيالة أو خارجها[1]، وانتقال الأوبئة كانت إحدى سبله الأساسية الممرات أو المسالك التجارية.

❋❋❋

(١) حول المدن والمحطات التجارية الكبرى راجع ما كتبه رشيد حفيان في رسالته للماجيستير:

- رشيد حفيان: الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية أثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين ١٧-١٨م، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ٢٠١٤م، رسالة ماجيستير غير منشورة.

الفصل الثاني:
أسباب الأوبئة وبيئتها بالجزائر العثمانية

- أولا: أسباب ظهور الوباء وانتشاره.
- ثانيا: حركة انتقال وانتشار الأوبئة

١. أسباب ظهور الوباء وانتشاره.

آثار العامل المناخي في ظهور وتفشي الأوبئة:

يعدُّ المناخ عاملا رئيسيا ومحوريا في التغيرات والتَّطورات التي يعرفها التَّاريخ، غير أنّه كثيرا ما يتغاضى عنه في التعاطي التاريخي مع الأحداث، ولعل بروزه مع ظاهرتي المجاعة والأوبئة معلوم واضح، وهذا الأمر جعل العديد من الأبحاث والدراسات الأوربية في الجزائر بُعيد الاحتلال تحاول رصد هذا المناخ ولو إنَّها اعترفت أنَّ ذلك أمرٌ صعبٌ جِّداً(1).

لكن بسبب أهمية هذا البعد (المناخي) في المجال الزراعي والاقتصادي وحتى الصِّحي -الذي أضحى لا يخفى على الباحثين الآن- فقد حاولنا من خلال هذه الدراسة استجلاء بعض خفايا المناخ في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني وقبيل الاحتلال الفرنسي وشكل تأثيره على حدوث الأزمات الغذائية وحتى الأوبئة كما سيأتي، وإن كان قصب السبق في ربط العلاقة بين المناخ والأزمات الغذائية والصحية يعود ملاحظات ابن خلدون في مقدمته، وهو في هذا الأمر متجاوزٌ للنظريات والأطروحات الغربية التي أتت بعد ذلك، وأغنت هذا الجانب أكثر.

وإن جئنا لتفحُّص هذه الدِّراسات نجدها تُقدِّم انطباعا عاما بأنّ المناخ في الجزائر عموما وفي المنطقة الشمالية خصوصا يقع ضمن إطار المنطقة المعتدلة،

(1) - Vital: climat et météorologie, Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879, P128.

وتتراوح درجة الحرارة به في المتوسط ما بين (٢٠-٢٥°) أي إنَّه ضمن المنطقة المميزة والصَّالحة للنشاط الزراعي[١]، ونقف في التقارير الفرنسية التي كانت تُعدُّ حول مناخ مدينة الجزائر في السنوات الأولى من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر أنَّ متوسط درجة الحرارة في مدينة الجزائر أثناء فصل الشتاء كان في حدود (١٦°) درجة، بينما لا يتجاوز متوسط ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف معدل (٢٦°)[٢].

وهو نفس ما ذكره حسب شونبيرغ لم تتجاوز -بعد سنوات من التجربة- مستوى (٢٦°) مأوية ولا يقل عن (-٢°) ناقص درجتين في فصل الشتاء[٣]، وهو تقريبا ما ينقله المراقب العام للحكومة الفرنسية في الجزائر في كتابه حول الأوضاع العامة للجزائر زراعيا واقتصاديا وتجاريا -عن دراسة قام بها الدكتور (Feuillet)- أنّ درجة الحرارة في الجزائر تكون غالبا معتدلة ما بين (١٧°- ١٥°) سنويا، قد تنخفض في بعض الأحيان إلى أقلّ من هذا المستوى وبالتحديد في فصل الشّتاء[٤].

---

(1) - Bertherand Émile: op.cit., P139.

(2) -Boutin Vincent-Yves: <u>Dépôt de la guerre:</u> Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique, 3 édition, Ch. Picquet Paris, 1830, P111.

(٣) - أف شونبيرغ: الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر أبو العيد دودو، المجلد الأول، دار الأمة، طبعة خاصة، ٢٠٠٩، ص ١٢.

(4) - Clade Guy: L'Algérie (agriculture, industrie, commerce), Librairie Chéneaux Franville, Alger, 1876, P08.

وهو ما نقف عليه أيضا في تقرير خاص بهيئة الطقس والأحوال الجوية الفرنسية في الجزائر، بحيث أوردت أرقام مقاربة للمقاييس الوارد ذكرها بحيث لم تتعد غالبا خلال شهر أبريل مثلا من سنة (١٨٦٥) (٣٣°) درجة في أقصى الحالات ولم تقل عن (٢°) في أبرد الحالات، كما لم تزد في شهر (ماي) من نفس السنة عن (٣٨°) في أقصى حالاتها، وعليه فقد حكم التقرير بأنَّ معدل متوسط حرارة لا يزيد عن (١٦°) خلال فصل الربيع على سبيل المثال[١].

وإذا عرف هذا حُقَّ لنا أن نقول أنّ َالمناخ بالمنطقة الشمالية لإيالة الجزائر حاليا والممتدة مِن سواحل البحر المتوسط إلى ضفاف جبال الأطلس التلي-وهي نفس المنطقة تقريبا التي تحدّدها جل الدراسات[٢]- هو أعلى ما يمكن أن تصله المناطق المعتدلة في الدول الأوربية وأدنى ما هو موجود في الصحراء الإفريقية؛ الأمر الذي حمل (William Shaler) وليام شالر على مدح هذا المناخ واعتباره مناخا صحيًّا ومعتدلا، فهو ليس بالحار الذي لا تطاق حرارته ولا بالمنخفض الذي يحتمل سقره[٣]؛ وهو الذي يُعدُّ حسب (Guy) عاملا مساعدا في تطوير

---

(1) -M. D Armieux: Gazette médical de Algérie ‹mémoire présenté à la société de climatologie algérienne dans sa séance du 1er juillet 1864, 10e Année N° 7, 25 juillet1865 , P73.

(2) - William Shaler: Esquisse de l’état d’Alger, tr M.X Blanchi, librairie L’advocaat, Paris, 1830, P11.

(3) - William Shaler: op.cit., P, P 11,22.

الإنتاج الزراعي وتنويعه في الجزائر[1] عكس ما ذهب إليه حمدان بن عثمان خوجة باعتبار المناخ في متيجة والبليدة مناخ غير صحي لا يساعد على الزراعة وغيرها[2].

أمَّا من لتساقط الأمطار في الجزائر فيكاد يكون منتظم خلال المرحلة الممتدة من شهر (نوفمبر إلى شهر فيفري) أي على مدار أربعة أشهر، فقد نقلت بعض المصادر أنّ الأمطار خلال هذه المرحلة تكون متوسطة إلى حد ما، تنحصر ما بين (٢٤-٢٨) بوصة أي: ما بين (٦٠٠-٧٥٠) ملم[3] بينما تصبح الأمطار نادرة مِن شهر أبريل إلى أكتوبر[4]، أمَّا فيما يخص تساقط الثلوج فغالبا ما يكون نادرا جدا، ولا يستقر إلاَّ في المرتفعات المحيطة بسهل متيجة على ارتفاع (٢٥٠٠/ م)[5]، وهو ما يجعلنا نعتقد أنّ هذا المستوى مِن التساقط لم يكن جيدا لنمو المحاصيل الزراعية، وهو نفس ما تراه الأستاذ الباحثة عائشة غطاس إذ ترى أنّ المناخ في الجزائر لم يكن مثاليا للزراعة.

وإذا تحقق هذا فمن الواجب علينا أن نعي أنَّ هذا الأمر يرجِّح كفة أنَّ التساقط كان يعرف بالفعل تذبذبا مِن فصل لآخر، ومن مكان لآخر في إيالة

---

(1) - Clade Guy: op.cit., P08.

(٢) - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، ٢٠٠٥، ص٤٧-٥٣.

(3) - William Shaler: op.cit., P12.

(٤) أو. هابنسترايت: رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر ١٩٨٧، ص ٦٠.

(٥) - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص، ص١٢،١٣.

الجزائر، وهذا حسب الإشارات التي نقف عليها في المصادر التاريخية المحلية خاصة، وما تداول مُصطلحات: القحط، وشحُّ السَّماء، والجدب. إلاَّ دليلٌ على أنّ التساقط في الجزائر كان يعرف تذبذباً كبيراً بالفعل، ومعلومٌ أنَّ تعاقب عامين مِن تذبذب التَّساقط كان يُؤد إلى محصول سيء في السنتين ما يُؤد إلى نفاذٍ في المؤن الموجودة بالمخازن، فإن أدركت السنتين الماضيتين سنة ثالثة مِن الجفاف كانت ولا ريب المجاعة وتفاقمت آثارها الكبيرة والمتنوعة، فتبدأ في ندرة المواد ثمَّ ترتفع أسعار كل الحبوب الباقية وهو ما كان يُؤدي في بعض الأحيان إلى تطور الأمر إلى مواجهات حربية بين القبائل ينجم عنه كثرة القتل بسبب السعي للاستحواذ على المُؤن أو بسبب البحث عن الكلأ، ما يجعل آثار المجاعات مُضاعفا ومتعديا[1].

إضافة إلى ذلك فإنَّ التذبذب خاصة في فصل الخريف له أكبر الآثار السِّلبي على عملية الحرث والبذر، إذ نقف على صعوبات جمَّة في عملية الحرث -خاصة مع وجود أدوات بسيطة مُستغلة في الحرث خلال تلك المرحلة- كما تضيع محاصيل زراعية مهمة بسبب البذر دون وجود أمطار تساهم في تثبيت الزرع، وهو ما انعكس بشكل مباشر على الإنتاج الزراعي كمًّا ونوعاً وعلى ارتفاع أسعار القمح والشعير في نفس السنة أيضا.

لكن من ناحية أخرى نقف في بعض الدِّراسات المختلفة زمانيا ومجاليا خاصة منها الغربية التي تؤكد على أنَّ الإيالة لم تشهد تذبذبا طويلَ الأمد، والمناخ

(١) - برنار روزنبرجي وحميد التركي: المرجع السابق، ص ١٦٠.

في الإيالة -بصفة عامة- كان مميّزاً ومُساعدا كما سلف ذكره، ولم يعرف أوقاتا كثيرةً ومتتابعة مِن الجفاف، الأمر الذي يجعل تعليق سبب المجاعات على العوامل الطبيعية بشكل تام أمراً غير دقيق.

وتفحصِّنا لما كنت تورده مصادر تلك المرحلة حول نوعية الأراضي ومدى توفر المياه بها يجعلنا نستغرب حدوث الندرة والمجاعات بشكل تكراري، فنجد «الورتيلاني» مثلا يرسم صورة مميزة للكثير مِن الأراضي أو القرى الزراعية التي مرّ بها عند رحلته إلى الحجّ خلال الربع الثاني من القرن الثامن عشر، فيقول عند حديثه عن زمورة مثلا: «..وزمورة كثيرة المياه وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه ..»[١] ويذكر في موضع آخر: «وقصر الطير» بادية وهو من أحسن الأوطان وأكرمها، قل ألا يكون فيها الخصب، وعشبه أخضر، ولو في الصيف أو الخريف وفيه مكان يقال له: «المرجة» من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء عذبا سائغا شرابه وزرعه كثير ضرعه...»[٢].

أمَّا إن قدمنا نحن إلى محاولة تفسير هذا التباين في المعلومات بين الدراسات الغربية نفسها، بين تلك التي كانت قد كتبت أثناء العهد العثماني وتلك التي كتبت بداية الاحتلال الفرنسي لإيالة الجزائر أرجعنا ذلك إلى ما يلي: أوَّلا أنّه لا يمكننا إسقاط الأخبار التي كانت مختصة بجهة ما على سائر البلاد، إضافة إلى أن ما تنقله

---

(١) - الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محفوظ بوكراع وعمار بسطة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١، المجلد الأول، ص١٨٩.

(٢) - المصدر نفسه، ص ١٩٣،١٩٤.

بعض أخبار الرحالة أو القناصل الغربيين مثل: (William Shaler) عن كمية التَّساقط صحيحٌ إلاَّ أنَّ تقديراته غير ثابتة ولا يمكن إسقاطها على كل المنطقة الجغرافية الممتدة من ساحل البحر إلى سلسلة الأطلس التلي كما سبق ذكره، أمّا المصادر الفرنسية خاصة التي وُضِعت في بدايات الاحتلال فإنَّه لا يمكن الركون والاطمئنان إليها بشكل تام؛ إذ أنَّ المعلومات التي تَنقُلها كانت موجهة في الكثير مِن الأحيان لاستقطاب السُّكان الفرنسيين والأوربيين بهدف توطينهم في الجزائر، ولهذا نجدهم أحيانا يحاولون رسم ملامح جيدة للوضع في الجزائر عامة سواء ما تعلَّق بالمناخ أو بغيره.

على كل حال نرجع إلى الغرض من وضع هذه المعطيات حول المناخ ودرجة الحرارة وكمية التساقط لنربطها بموضوع المجاعات والأوبئة، فكمية التساقط التي أوردها كل من الباحث *(Guy)* تؤكدها ملاحظات القنصل الأمريكي «وليام شالر» والرحالة الألماني «هابنسترايت» التي تؤكد أنَّ كمية التساقط كانت متذبذبة وفي بعض الأحيان شح الأمطار خاصة في فصل الخريف حيث موسم البذر يصعب كثيرا من عملية البذر ما يجعل السنة تمر على التماس من نقص الغذاء، فإن تزامن هذا الأمر خلال موسمين أصبح الأمر خطرا وتكاد تكون له تبعات قد تتطور في بعض الفترات الزمانية وفي حالة نفاذ المؤن إلى نوع من أنواع الأزمات السكنية التي يمكن احتواؤها بشرط أن لا تمتد هذه الأزمة أو نقص التساقط إلى سنة ثالثة، فإن امتدّت إلى سنة ثالثة على التوالي أصبح يقينا وقوع مجاعة تختلف حدتها باختلاف عوامل أخرى سنأتي على ذكرها لاحقًا.

وإذا عُرِف هذا كنَّا جديرين بالقول أنَّ تذبذب التساقط أدى في الكثير من الأحيان إلى حدوث سنوات قحط أدت بدورها إلى الدفع باتجاه وجود مجاعات خطيرة، وهو ما حدث سنوات (١٧١٧مـ) إذ ظهر فيها الجفاف وأعقبتها المجاعة سنة (١١٣٠هـ/١٧١٨مـ) ما ترك آثارا كبيرا على أهالي مدينة الجزائر، حتى قيل إنَّه قد بيع لحم البشر في الأسواق مِن شدَّة الجوع[1]، مثل ما نقف على ذكر أحد المجاعات وآثارها الكبير على ساكنة الجزائر بسبب تذبذب التساقط في إحدى الوثائق الأرشيفية الفرنسية، التي تحدَّثت عن حدوث مجاعة كبيرة نتيجة القحط الذي لحِق إيالة الجزائر سنة (١٧٨١مـ)[2].

ولم يتوقف تأثير المناخ على المجاعات والأزمات الغذائية فقط بل تعداه إلى الأوبئة وتطوير الأوبئة والمساهمة في انتشارها، إذ أنَّ المناخ كان سببا لتطور بعض البكتيريات الوبائية، وساعدها فعلا على النمو والانتقال مِن حامل إلى آخر، ولعل هذا ما سيُبرِّر لاحقا سبب انتظار السكان قدوم فصل الصيف؛ أملا في ارتفاع درجة الحرارة والتي مِن شأنها أن ترفع البلاء الذي كان يأتي به الوباء كل مرّة.

أما الحديث عن درجة الحرارة التي رصدت خلال تلك المرحلة فيمكن القول إنه حدث حولها توافق كبير بين الباحثين المختصين من أمثال الدكتور (Feuillet) والدارسين والملاحظين من أمثال الدكتور «غيو» والقنصل العام

(1) - H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/139 Cotes: F١٣٥ °-136. 28/05/1781.

الأمريكي وليام شالر وبعض المصادر المحلية التي كانت تأتي على وصف مجمل لحالة المناخ بأنه كان صحيا أو لطيفا طيبا.

هذا الجو كان يساعد في الكثير من الأحيان على تزايد نشاط الطفيليات والبراغيث وهي تُعدّ ناقلا للعدوى من القوارض إلى الإنسان ، فهذه الطفيليات تجد ضالتها في درجة الحرارة الأقل من ٢٠° فالبرد يزيد من نشاطها، والحرارة المرتفعة تضع حدا لعملية تناسلها[١]، وهذا ما يفهم من تتبع حركة الوباء، لذا نجد أنَّ الحرارة في الكثير من الأحيان أصبحت المُخلِّص الأساسي للسّاكنة مِن خطر الطفيليات الوبائية إذ توجد العديد من الأوبئة التي تجد نفسها بشكل جيد في فصلي الشتاء والخريف وبالأخص وباء الجدري[٢]، وهو ما يمكن استخلاصه من قول الأب بواغي في حديثه عن الوباء الذي ألم بالجزائر في (١٧٨٥مـ) قادما من تونس بأنّ ارتفاع درجة الحرارة كان يعمل ضد تفشي هذا الطاعون[٣]، في حين يُستشفّ أيضا من قول قنصل فرنسا في الجزائر في تقريره عن وباء (١٧٩٣مـ) «...بأنَّ السُّكان كانوا ينتظرون حلول فصل الصيف بحرارته حتى يرو الوباء يختفي...»[٤] وهو ما يفهم منه أيضا أن الحرارة كانت تعمل دائما على وأد النشاط الوبائي وهو ما نجده يتجلى أيضا في إحدى الرسائل الموجهة من الجزائر إلى مارسيليا والموقعة

(١) – برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(2) - Brouardel Paul Thoinot Léon-Henri: La fièvre typhoïde, Éditeur: J.-B. Baillière et fils Paris, 1895, P06.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 196.

(4) -C.C.F.A: Lettre du 17 février 1793.

بتاريخ (٣٠.جويلية) سنة (١٢٣٤هـ/ ١٨١٨مـ) وقد ورد فيها: «بداية من شهر (جوان/ حزيران) بدأ يعرف الوباء تباطئاً في نشاطه، إذ نزل عدد ضحاياه إلى خمسة عشر ضحية في اليوم الواحد، كما أنَّ هجماته الأخيرة لم تكن مميتة...»[1] بل ونجد «بير بروجر» يربط بين فصل الربيع حيث درجة الحرارة تكون معتدلة في المتوسط وعودة النشاط الوبائي مرة أخرى من جديد[2]، غير أنه من غير الممكن أن نسقط تأثيرات هذا المناخ ودرجة الحرارة على كل الأوبئة التي سنقف عليها في الدراسة، إذ أكدت الأبحاث وجود عدد من الأوبئة وعلى رأسها التيفوئيد لم تكن لتتأثر بارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها[3]، مثل ما هو سائد في بعض الأوبئة الأخرى مثلا كالحصبة والطاعون الدبلي.

وعليه يكون جديراً بنا أن نتحدَّث عن كون الجو في المدن الساحلية في الجزائر العثمانية كان ملائما فعلا لحياة وحركة بعض العصيات، ولعلّ هذا أحد العوامل الأساسية التي جعلت من المنطقة الشمالية للجزائر أكثر قابلية لاحتضان الأوبئة وجعلت بها جيوبا وبائية تختلف درجة نشاطها باختلاف الموسم الموجودة فيه عكس المنطقة الجنوبية.

كما يمكن أن نربط العلاقة بين عدم قدرة الطفيليات على النشاط في درجة الحرارة المرتفعة مع الانحسار الدوري للأوبئة والطواعين في فصل الصيف ما

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P389.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P214.

(3) - Kelsch Achille: op.cit., P06.

جعل «فونتير دي برادي» مثلا أثناء الوباء الذي ضرب تونس سنة (١٧٨٥مـ) ينتظر حلول فصل الصيف لكي ينقص آثار الجرثومة أو يقضي عليها تماما[1]، وهو نفس الأمر الذي جعل «غيو» يصرِّح أن معظم الأوبئة تتكسر عند شهر (جوان/ يونيو)[2].

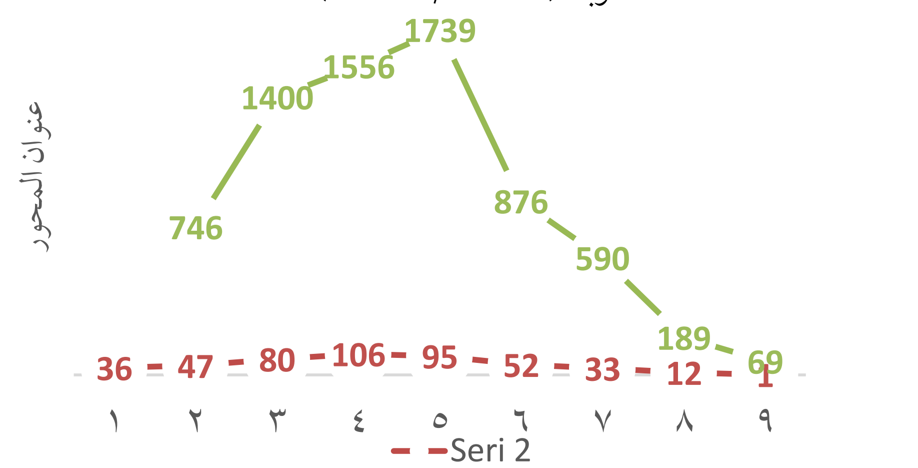
ولعل ممَّا يساعد على تبيان ما للحرارة من تأثير على الطفيليات والجراثيم المسببة والمساعدة في نمو وانتشار الأوبئة الشكل التالي والذي يمثل دراسة لتطور عدد ضحايا أحد الأوبئة في الجزائر بطريقة استقصائية حاولنا من خلالها تتبع عدد الضحايا وعلاقة ذلك بالفصول المختلفة وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة تحصلنا في الشكل التالي:

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P332.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P397.

١ منحنى بياني يوضح تطور عدد الوفيات خلال تسعة أشهر أثناء

وباء (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م)



[1] بحيث يدل الخط باللون الأحمر على متوسط عدد الضحايا خلال اليوم الواحد واللون الأخضر إنما هو لمجموع متوسط عدد ضحايا الوباء خلال الشهر الواحد.

نقف على عدد من الملاحظات من خلال هذا الشكل البياني إذ نلاحظ:

---

(١) – اعتمدنا في إنجاز هذا المنحنى البياني على عدد من المصادر التاريخية أهمها ما كتبه غيون وفالنسي ودي غرامونت، وما ذكرته بعض مذكرات الرهبان والأباء العاملين في المستشفى الأوروبي منها على سبل المثال لا الحصر:

- Guyon, Kelsch Achille, Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque, M. D Armieux: Gazette médical de Algérie, Lucette Valensi: le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830).

- تزايد عدد الوفيات من بداية انتشار الوباء في الشهر الأول (كانون الثاني/ جانفي) إلى غاية نهاية الشهر الخامس (ماي/ أيار) بل ويبلغ أقصى مداه خلال هذا الشهر بعدد وفيات يقارب (١٧٣٩ ضحية/ شهر).
- نلاحظ أيضا تراجع عدد الوفيات بداية من الشهر الخامس(ماي/ مايو) لينزل إلى أدنى مستوياته في الشهر التاسع من ظهور الوباء أي شهر (سبتمبر/ أيلول) ليصل إلى متوسط (٦٩ ضحية/ الشهر)

وعليه يمكننا أن نصل إلى بعض النتائج التي قد تساعدنا لاحقا في تتبع الأوبئة ونشاطها وتطورها والعوامل المساعدة على ذلك، ومن بين ما نقف عليه من خلال الشكل الماضي تقديمه:

- ذروة النشاط الوبائي تكون في المرحلة الممتدة من شهر (جانفي/ يناير) إلى نهاية شهر(ماي/ مايو) وهي فترة فصلي الشتاء والربيع في هذه الحالة.
- تراجع وبداية انحصار النشاط الوبائي مع دخول فصل الصيف وانتهائه تقريبا مع نهاية الفصل الصيفي.

بهذا العرض للملاحظات والنتائج المتوصل لها من خلال دراسة لعينة من الأوبئة في بداية القرن التاسع عشر تتضح لنا مجموعة من الحقائق المؤثرة فعلا وبشكل مباشر في موضوع دراستنا هذه، أي أن الحديث عن تأثير الحرارة المباشر في النشاط الوبائي ومدى امتداده أو انحصاره يمكننا نقله من باب الفرضية إلى النتيجة.

وعليه فإنّه وبإجراء مقارنة بسيطة بين المُعطى الزماني والمكاني داخل الجزائر، نجد أنَّ ذروة النشاط الوبائي غالبا ما كانت خلال المرحلة الممتدة مِن

فصل الخريف إلى نهاية فصل الربيع، ما يعني على امتداد حوالي تسعة أشهر، بينما يمكننا أن نتحدَّث عن تراجع التّأثير خلال الثلاث أشهر الصيفية، ولعلَّ هذا الأمر هو ما نقف عليه عرضا في العديد من المراسلات بين المقيمين الفرنسيين في الجزائر، بحيث يذكر السيد (Jonville) في رسالته المؤرخة في شهر أوت (أغسطس) (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ) أنّ حدّة الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر في بداية السنة كان في تراجع[1]، بل إنّ ظهور الوباء خلال الأشهر الصيفية كان بمثابة الأمر الشاذ والنادر حدوثه لكن هذا لم يعن اختفائها تماما، إذ كثيراً ما تتأقلم الجرثومة مع اختلافات درجة الحرارة والمناخ من مكان إلى آخر وهو ما وفرَّ فعلا فروقا فريدة أدت إلى تطور الجرثومة نفسها وفق مجموعة مختلفة مِن التَّأثيرات المتعلِّقة بالمناخ والتَّساقط وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة، وهو ما عدَّه الدكتور أمراً عاديا[2]، وهو ما يفسرّ اندهاش واستغراب قنصل فرنسا في الجزائر في مراسلته المؤرخة في جويلية سنة (١١١٢هـ/ ١٧٠٠مـ) من ظهور بوادر وباء، وسقوط أربعة ضحايا؛ لأنَّه لم يُعهد وجود ونشاط وبائي خلال تلك المرحلة من السنة[3]: أي أنّه يُقرّ بعدم وجود نشاط وبائي كبير خلال مرحلة ارتفاع درجة الحرارة.

(1) -H.-D. De Grammont: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742), P252.

(2)- Ducoux François-Joseph :op.cit ‹P1.

(3) -H.-D. De Grammont: op.cit., P64.

بل نعثر في إحدى التقارير المرفوعة من المقيم الفرنسي في الجزائر أن وباء سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١مـ) كان قد توقف نهائيا خلال مرحلة ارتفاع رجة الحرارة بإقليم قسنطينة وذلك في المدة الممتدة ما بين (٢٦ جوان ١٧٤١مـ) و(٠٩ أوت ١٧٤١مـ)[١] لكنه يشير في رسالة أخرى إلى عودته بشدة في بداية شهر سبتمبر من نفس السنة[٢] نفس الأمر نقف عليه مرة أخرى في إحدى رسائل الأب بواغي الذي يقرر سنة (١٧٨٥مـ) بأنّ الوباء كان يعود بقوة أشد مع كل خريف وذلك بسبب انخفاض درجة الحرارة[٣] وعليه تصبح فرضية تفاعل الطاعون مع درجة الحرارة المنخفضة أقرب إلى الحقيقة منها إلى النظرية هذا من الناحية الأولى.

أمَّا من الناحية الثانية فيمكننا أن نتحدَّث عن قلّة تأثير الأوبئة في المنطقة الجنوبية والتي غالبا ما تتميز بدرجة حرارة مرتفعة تجعل من عيش وتطور الطفيليات والفيروسات أمراً صعباً واستثنائياً، غير أنَّ هذا لا يعني انعدام تأثير الوباء تماما، وإنما يمكننا القول أنّ الطبيعة الصحراوية أوجدت نوعا من الحصانة الطبيعية لساكنة هذه المناطق ضد النشاط الوبائي[٤].

غير أنه قد ورد الخبر في بعض المصادر المحلية عن وباء ألمّ بمدينة بسكرة أتى فيها على عدد كبير مِن الساكنة كما ذكر الورثيلاني في رحلته عند حديثه عن مدينة بسكرة.

---

(1) -Ibid. P269.

(2) -Ibid. P269.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 197.

(٤) – برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص ١٨٦.

لكن وإن سلمنا بإيجابية ارتفاع درجة الحرارة وتأثيرها العام على تقليص الحركية الوبائية، فإن فعاليتها تصبح عكسية فيما تعلق بانعكاساتها على حدوث الأزمات الغذائية، فوجودها المتزامن مع غياب الوسائل المساعدة على عمليتي الحصد والبذر كان له أثرٌ سلبيٌ في المجالات الحارة، إذ أن الإشكالية تكون مزدوجة إما بسبب فساد المحاصيل وعدم القدرة على تحصيل المنتوج في الوقت اللازم، أو في حالة الرعي كان نقصُ المياه وارتفاع درجة الحرارة ونقص المورد الغذائي يدفع القبائل إلى الحركة باتجاه أماكن وجود الزاد، ما يؤدي إلى حدوث مواجهات قد تدفع إلى حدوث تغيرات جوهرية في التموقعات السكانية، ونقف على مثل هذه الإشارات في شتات الحديث العام عن المجاعات كما هو الحال سنة (١٧٩٣مـ) حسب كاتب «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف» الذي يتحدث عن حدوث قحط أضر بالحياة العامة وأدى بالناس إلى الانتقال من مضاربهم إلى أماكن أخرى وهذا عند قوله: «...وفي آخر هذه السنة وقع جدبٌ بالصَّحراء أضرَّ بالمواشي وتزاحم النَّاس على موقع المطر...»[١] وهنا نتلمس تلك العلاقات الخفية بين الجزئيات المتداخلة والمتشابكة بشكل لا مرئي، إذ أن نقص المياه وارتفاع مستوى نقص المياه الناجم عن المناخ أوجد نوعا مِن التشابك بين المناخ والأزمات الغذائية مع الحركية القبلية والنزوح من جهة أخرى ما أثَّر بشكل ما على موازين القوى، بل وأثر على إشكالية أعمق المتمثلة في السيطرة على المجال

(١) - إبراهيم محمد الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٧٩.

الجغرافي، هذا الأخير كان سببا لاحقا في حركة الباي محمد باي الكبير باتجاه الجنوب.

وعليه فالتأثيرات الجزئية البسيطة تنتقل وفق منهج خاص من مستويات نظرية مستقلة إلى مستويات عملية متشابكة وخفية. وبهذا ننطلق من إشكالية عدم وجود المياه إلى إشكالية أخرى في نفس النسق وهي:

عدم استغلال المياه بشكل جيد وتأثيراته:

إضافة إلى قلّة التساقط التي سبق الحديث عنها يوجد أيضا سبب آخر لا يقل أهمية عن قلة التساقط ومرتبط به ارتباطا سببيا ألا وهو عدم الاهتمام بالمياه، إذ نجد قلّة الاعتماد على مصادر مياه غير تلك الناتجة عن الأمطار تعد أحد الأسباب الأساسية لما شهدته الجزائر مِن جفاف وانعدام الموارد المائية الأخرى، إذ أنّ الموارد الأخرى للمياه لم تكن تستغل إلاّ نادرا، فمياه الأمطار المتساقطة كثيرا ما أوجدت جداولَ مختلفة في البلاد[1]، استُغِل بعضها في المدن الكبرى كالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان[2]، واستغلت مياه الجداول أيضا في تزويد الدور بالمياه والسقي في الحواضر الكبرى بالصحراء كبسكرة التي أشاد بها الورثيلاني بذكره كثيرة المياه والسواقي بها حين قال:«... لكل باب منها ساقية عنده ونخلها

---

(1) - William Shaler: op.cit., P14.

(2) -Mostefa Khiati: la médecine en Algérie au cours de la période Ottoman (15-19 siècle), éditions Houma, 2013, 65.

عظيم وغلتها كثيرة وكذا الفواكه والزيتون بها..»[١] بينما لا نكاد نقف على أي إشارة تدلنا على استغلالها من طرف الفلاحين خلال تلك المرحلة ، بل العكس من ذلك تماما فإنَّنا نقف على إشارات مختلفة في كتب الرَّحالة الغربيين تشير إلى جهل السكان لطريقة استغلال مياه المنابع أو استغلالها[٢].

وقد انتبهت الكتابات الفرنسية لذلك حين ناقشت هذه الدّراسات مشكلة عدم استغلال الأمطار المتساقطة، والمطَّلع على هذه الدِّراسات أو التَّقارير سيلاحظ استغراب تلك الأبحاث لندرة وجود السُّدود، وانعدام استغلال المياه الجوفية، وعدم الاهتمام بالمياه الموجودة بأعالي الجبال في عمليتي الري والزّرع، وأغرب ما في الأمر أنَّ أساليب استغلال المياه الجوفية والارتوازية كانت موجودة منذ قرون خلت خلال المرحلة النوميدية والرومانية وهذه الطريقة استفادت منها لاحقا الدول الأوروبية كإسبانيا[٣]. غير أنّ هذا الأمر لا يمكن تعميمه على كل أرجاء الإيالة، إذ تذكر بعض الدراسات أنّ نظام السقي في فحص مدينة الجزائر كان مُتطورا نسبياً مقارنة بمعارف تلك المرحلة ، وهو ما سمح بإقامة زراعة كثيفة للأشجار المثمرة والخضار والحبوب في المناطق القريبة مِن دار السُّلطان، معتمدة في ذلك على مجموعة كبيرة من الآبار والعيون والسواقي والقنوات

---

(١) – الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٢) – أو. هابنسترايت: رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر ١٩٨٧، ص ٦٠.

(3) -Clade Guy: op.cit., P9.

والصهاريج، استغلت جميعا بكفاءة عالية[١].

إلاّ أنَّنا إن جئنا للحكم على مدى استغلال الموارد المائية غير الأمطار في الجزائر عامة وليس في منطقة دار السلطان وحدها أو فحص مدينة الجزائر وحده، أمكننا أن نلاحظ دون شك من خلال الإشارات المُتكررة للرحالة الأوروبيين والكتابات المحلية خلال تلك المرحلة ندرة استغلال هذه الموارد. وهذا بسبب اتجاه السُّكان للاعتماد على تساقط الأمطار لسقي محاصيلهم من جهة ومن جهة ثانية لانتقالهم في الكثير من الأحيان للرعي في السنوات التي عرفت جفافا أو قلَّة في التَّساقط. ويرتبط بالقحط نتيجة انقطاع الأمطار أيضا ظهور أسراب الجراد التي تتسبب في حدوث عدد مِن المجاعات في الجزائر العثمانية، فكثيراً ما كان وفود الجراد على منطقة ما نذير شؤم لا يبقى آثاره منحصرا في تلك المنطقة بل يتعداها إلى غيرها، فإن تقرَّر هذا ذهبنا إلى بيان الآثار الحقيقي لحركة الجراد على المحاصيل؛ إذ أنَّ أسراب الجراد هذه كثيرا ما دمَّرت المحاصيل وسببت المجاعات بشكل مباشر[٢]، ما يجعل من هذه الأسراب أحد العوامل الأساسية المسببة لأزمات التغذية خلال المرحلة الزمنية محل الدراسة كما سنحاول توضيحه.

(١) - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثمانية، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، ٢٠٠٠، ص ٤١٦.

(2) -Perrot, Aristide-Michel esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, accompagnée d'une carte générale du royaume et d'un plan du port et de ses environs, Éditeur: L’advocaat, Paris, 1830, P 15.

فغزو الجراد للمناطق المزروعة هو أحد الأسباب الأساسية والأركان الفعلية التي ترتكز عليها المجاعات الدورية، أو كما يقول صاحبا كتاب «الأوبئة والمجاعات في مغرب القرنين ١٦ و١٧م»:«..أن الجراد كان يدخل في موكب الجفاف..»[١]، وكثيرا ما كان ذكر مرور الجراد بمنطقة ما موازيا لحدوث أزمة غذائية؛ فهو عند حلوله على أي مجال إنما يأتي فيه على الأخضر واليابس معا، ويجعل المنطقة كأن لم تك من قبل.

مثل ما أشار إلى ذلك مثلا «مارشيكا» بحديثه عن كون الوباء الذي ضرب الإيالة خلال هذه السنة (١٧٠٠مـ) قد كان مصحوبا أيضا بأسراب من الجراد والجنادب[٢]؛ وهو ما كان يؤثّر حتما بشكل مباشر في انتشار المجاعة بعد هذه السنة، إذ أنّ وجود الجنادب يعني بالضرورة انحصار الإنتاج الزراعي وانعدام الأمن الغذائي. وهو ما نستقرؤه ضمن إحدى الإشارات العرضية في ثنايا إحدى المراسلات الموجودة ضمن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، إذ تذكر في تقريرها المرسل سنة (١٧٠٢مـ) وجود قحط شديد ونقص كبير في المؤونة[٣].

وكثيرا ما اعتُبر مرور الجراد نبأً عن مرور البلاد كذلك بنقص في الغذاء كما هو الحال مثلا في مجاعة سنة (١١٢١هـ/ ١٧١٠مـ) حيث يذكر أحد الرّحالة الذين مرّوا على ناحية الجنوب الغربي بمحاذاة «الأغواط» و«عين ماضي» أنّ

---

(١) – برنار رزونبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P69.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/118. Cotes: F °292-293. 02 /Mai/1702.

الجراد قد أهلك ودمّر البلاد بتلك الناحية[١]، ويُذكر من أمثلة غزو الجراد للحقول أيضا ما نقله «غيو» عن «شاو» بأنَّ الجراد كان قد أتى على المحاصيل الزراعية سنوات (١١٣٦هـ/ ١٧٢٤مـ) وفي السنة التي تلتها تجدَّد ظهوره وكان بأعداد كبيرة جدّاً مما يعني إنَّه آثار فعلا على المحصول الزراعي لسنتين كاملتين، حينها جعلت السنة الثالثة أي تلك التي تلتهما معرضة لتكون سنة شح وارتفاع للأسعار إن لم يؤد الأمر إلى أكثر من ذلك[٢] وهو ما حدث بالفعل.

والأمر نفسه يتكرَّر في سنوات مختلفة، ويؤدي غالبا إلى نفس النتائج، فنقف فيما ذكره «دي غرامون» من مجاعة أصابت الجزائر سنة (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩مـ) نتيجة حتمية لغزو الجراد للحقول؛ والذي ذكر أنه دمّر بالفعل كل المحاصيل الزراعية لسنتين ماضيتين قبل بروز هذه المجاعة[٣]، يتجدد الأمر مرة ثانية وبنفس الصورة سنة (١٨٠٤مـ) فيذكر «مارشيكا» في تفسيره لمجاعة هذه السنة وارتباطها بوباء تلك المرحلة [٤]، أنه كان نتيجة حتمية لظهور أسراب الجراد المتنقلة بحيث قامت أسراب الجراد بمهاجمة أحواز مدينة قسنطينة؛ فقضت على جل القمح وكل ما وجد في طريقها من بساتين؛ حتى غدت كأنها لم توجد من قبل تماما[٥]، يتكرَّر الأمر مرَّة تلو الأخرى وهذه المرة نقف عليه سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥مـ) إذ يذكر

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P261.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P309.

(3) -H.DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P331.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P108.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P368.

«شالر» في مذكراته مهاجمة أسراب الجراد لحقول القمح والشعير فقضت على ما كان يوجد بها من زرع وثمار[1]، وقد وردت من مقاطعة «وهران» بحيث اتجهت منها إلى بيلك التيطري ودار السلطان[2]، الأمر الذي اضطر الدّاي إلى اتخاذ تدابير محددة تقضي بمنع تصدير الحبوب من قسنطينة ووهران إلى خارج الإيالة، بل وسعى إلى تغطية آثار هذا الغزو وما سيترتب عليه باستيراد القمح مِن الموانئ الأوروبية في محاولة يائسة لتغطية أي عجز قد يظهر[3]. وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن الأسباب التي أسهمت بشكل كبير في ظهور المجاعات في الجزائر خلال العهد العثماني، ووجب علينا الآن الانتقال إلى الشق الآخر من العنوان الفرعي؛ لنتحدَّث عن الأسباب المساهمة بشكل مباشر في تفشي الأوبئة في الجزائر العثمانية خلال المرحلة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)

وقد اختلفت بالفعل الأسباب التي أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في ظهور الأوبئة أو توطنها في أماكن بعينها، فأجملها البعض في عدم وجود النظافة بسبب الظروف الحياتية السيئة[4]، وانتشار الذهنية غير المبالية بخطورة هذه الأوبئة، والتي حملت المريض على إعادة استخدام نفس الملابس القذرة وعدم

---

(1) - William Shaler: op.cit., P, P 87, 88.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P368368.

(3) - Lucette Valensi: le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830) p59/60. A.I.P.A: 1924- N°3. P24.

(4) - Boucher Hubert: op.cit., P58.

حرصه على نظافتها حتى بعد العلاج مِن الأمراض[١]، إضافة إلى عوامل خارجة عن الإنسان تتمثل في تلك التغيرات الفورية التي كان يشهدها المناخ العام وانتشار الطَّعام السيء بين السكان[٢] إضافة إلى التأثير الكبير للمجاعات التكرارية، والتي نجم عنها فقدان الجسم لقدراته المناعية في مواجهة البكتيريات المختلفة[٣]، وعليه أصبح وجود هذه المجاعات وسيلة لظهور الأوبئة وانتشارها[٤]، لذا فإنه مع تقدم الحضارة والتطبيق الصارم لشروط النظافة وفرّت إلى حد ما بيئة طاردة للجراثيم وتكاثرها[٥]، وعليه أصبحت معظم الدراسات في شأن انتشار الأوبئة والطواعين تركِّز على فكرة أن تناقص الأمراض تابع لتطور النظافة في المحيط العام[٦]، كما نقف على التواصل التجاري والسياسي كأحد الأسباب الأساسية في نقل الوباء ونشره في إيالة الجزائر.

وقد تباينت الآراء العلمية والتاريخية حول اعتبار التواصل والحركية التجارية أحد الأسباب الرئيسة لظهور الأوبئة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، ومناط هذا التباين هو رؤية كل طرف لإيالة الجزائر من حيث كونها موطنا وبائيا أو مستوردا له، وهنا نقف أمام فرضيتين:

---

(1) - Bertherand Émile: op.cit., P231.

(2) - Crouzet Stanislas: op.cit., P17.

(3) - Kelsch Achille: op.cit., P03.

(4) - Baillière Georges Jean-Baptiste: op.cit., P27.

(5) - ibid. P19.

(6) - Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P16.

الأولى ترى أنَّ أصل معظم الأوبئة الموجودة في الإيالة خلال المرحلة محل الدراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) غالبا ما كان منبعه بعض المناطق في جنوب شرق آسيا وبعض المناطق في وسط إفريقيا، وفي بعض المراحل الزمنية يُضاف لها الحيز الأوروبي بحيث أضحى الوباء مُتأصِّلا بها أيضا(١)، بناء عليه اعتبرت نفس هذه الدراسات أنَّ إيالة الجزائر خلال العهد العثماني -وبالتحديد في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر- أضحت بدورها حالة مرضية مزمنة ارتبطت بها الأوبئة ارتباطاً وثيقاً(٢)، وقد آثارت هذه الأوبئة تأثيراً بالغًا في الحياة الصِّحية(٣) والتعداد الدِّيموغرافي لساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر، وجعلت حركة الساكنة دائمة هربا من الأوبئة والمجاعات(٤).

غير أنَّنا لا يمكننا أن نعدَّ هذا الحكم حكما مُتيقِّناً؛ وهو ما تراه الفرضية الثانية في هذه الإشكالية والتي ذهبت الدِّراسات الغربية منها خاصة الفرنسية إلى التأكيد على أنَّ الجزائر خلال المرحلة المدروسة لم تكن موطنا للوباء كما قد قيل، ولكنه كثيرا ما سِيق إليها مِن عواصم عالمية مثل: القسطنطينية، الإسكندرية، مارسيليا،

---

(1) - Tholozan Joseph-Désiré: Du Développement de la peste dans les pays montagneux et sur les hauts plateaux de l'Europe, de l'Afrique et de l'Asie, Gauthier-Villars, Paris, P2.

(2) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

(٣)- فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(4)- A.I.P.A. (1924-N°3. P312)

إسبانيا، إزمير...إلخ مثل ما هو الحال مثلا في وباء (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)[١] الذي قيل أنه وفد من أزمير[٢]، ووباء سنة (١٧٨٦م) الوافد عبر تونس من طرابلس الغرب أو ذلك الذي ألم بالجزائر سنة (١٧٩٦م) الذي يرى « تيروزن » أنّ مصر هي منبعه الأساسي، فإن عرف ذلك وتقرَّر ذلك بالفعل حسب هذه الدِّراسات فإنَّ الوباء في الجزائر كان في الغالب الأعم -وإن طال مُقامه في بعض الأحيان- وافداً مِن أماكن أخرى، وبهذا فالمنطقة لم تكن موبوءة لتوفر الخصائص الوبائية الأصيلة بها، فالمناخ مثلا وهو أحد العوامل الأساسية في ظهور الأوبئة وانتشارها كان يعد في الجزائر مناخا صحيّاً[٣] كما مرَّ بنا، وإنّما يمكن ردّ اتجاه بعض الأبحاث إلى اعتبار الجزائر منطقة موبوءة لتغلغل مجموعة من العوامل في المنطقة أسهمت بشكلٍ كبيرٍ في توطُّن الوباء لفترات زمنية طويلة أو بسبب أنها كانت أوبئة تكرارية جعلت بعض الباحثين الفرنسيين يعدونها نوعا من التوطن المحلي للوباء في الجزائر[٤].

وعملية التمحيص واستقراء المصادر التي تناولت هذا الموضوع تضعنا أمام فرضية مهمة هي أن الجو العام للجزائر كان صحيا[٥]، وهذا ما يعني أنّ جلَّ الأوبئة

(1) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

(٢) - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص، ص١٢، ١٣.

(4) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P313.

(5) - Mostefa Khiati: op.cit., P89.

التي أصابت الجزائر خلال المرحلة (١٧٠٠-١٨٣٠) كان مصدرها المشرق العربي أو موانئ دار الخلافة العثمانية[1] وبالأخص إيالة مصر إذ كثيرا ما أشير إلى دلتا النيل وصعيد مصر كأحد الروافد الأساسية في إنتاج ونشر الأوبئة وهي في ذلك لا تكاد تختلف عن نهر الغانج في الهند والمسيسيبي في أمريكا وما بين النهرين في العراق[2].

لذا نجد (Tholozan) تلوزان يؤكد أنّ أصل هذا الوباء الذي ألم بالمناطق المغاربية والسواحل المتوسطية سنة (١٧٩٦مـ) منبعه الرئيسي صعيد مصر لينتقل بعد ذلك منها إلى غيرها من المناطق في إفريقيا[3]، مثل ما يتحدث (Laumonier) لومونييه من كون دلتا النيل أحد منابع الطاعون الأساسية إضافة إلى نهر الغانج في الهند[4]، بل وبتتبع بسيط للأوبئة ومصادرها خلال حيز زمني بسيط نجده مرتبطا بمصر إذ أنّ الرقم الذي تذكره بعض المصادر مرتفع جدا ويصل خلال نصف قرن إلى ما يقارب واحد وعشرون وباءً[5] وهو نفس الرقم الذي أوردته الأكاديمية الطبية الفرنسية التي تحدثت عن تحقيق النظر في واحد وعشرون وباء في مصر

(1) - Lucette Valensi: op.cit., p 21.

(2) - A.N.M: Bulletin de l'Académie nationale de médecine, Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899, P46.

(3) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P03.

(4) - Laumonier Jean: La peste: histoire et traitement, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897, P02.

(5) - Ibid. P8.

خلال المرحلة الزمنية المنحصرة بين سنوات (١٧٨٣مـ) و(١٨٤٤مـ)(١) لذا ذهب المؤتمرون في الملتقيات الطبية التي عُقدت حول الأوبئة ونظام الكرنتينة إلى الإقرار أنّ إيالة مصر تعد موطناً أساسياً للطّاعون في المنطقة(٢)، وهو ما حمل كروزيت على اعتبار مصر إضافة للأناضول أحد أهم مناطق انتشار الأوبئة خلال المرحلة محل الدراسة(٣) مثل ما نجد أنَّ عدداً مِن الأوبئة التي أُصيبت بها الجزائر كانت منقولة إليها من فرنسا كما هو الحال في أوبئة سنوات (١٧٢٠مـ) وسنة (١٧٤١مـ) حيث نجده قضى في فرنسا خلال سنة واحدة على (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف ضحية(٤)، ولم يقتصر الأمر على ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر إذ وفدت الكثير من الأوبئة بعد الاحتلال من فرنسا إلى الجزائر مثل ما هو الحال مع كوليرا سنة (١٨٣٧مـ)(٥).

فإن تقرر ذلك ذهبنا مذهب من يرى أنّ إيالة الجزائر ظلَّت طيلة تلك المرحلة الزمنية مُستورِداً مميزاً للأوبئة، وكانت أحد مصادره إضافة للأناضول ومصر والمملكة الفرنسية ولم يقتصر الأمر على المرحلة المدروسة أو على الوباء الذي ضرب فرنسا سنة (١٧٢٠مـ) وانتقل منها إلى الإيالة بل يتعدَّاها إلى تلك الأوبئة التي ظهرت في المرحلة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر والتي أقر الباحثون

(1) - A.N.M: Anné1899, P46.

(2) - Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P15.

(3) - Crouzet Stanislas: op.cit., P02-05.

(4) - A.N.M: Anné1899, P589.

(5) - Daremberg Georges: op.cit., P07.

الفرنسيون أنَّها واردة مِن موطنهم وليست أصيلة في الجزائر كما قد يعتقد[١].

ويمكن عدّ التزامن التاريخي لظهور العينات الوبائية في المشرق وتواجدها في المغرب عاملا أساسيا في الاتجاه نحو اعتبار أن الكثير من الأعراض الوبائية كان موطنها المشرق أو دار الخلافة، وسنستعرض العديد من الأمثلة عن انتقال الأوبئة من المشرق إلى المغرب.

فلطالما ظهرت الأوبئة في مِصر وانتقلت مع الحجاج إلى غيرها من بلاد الإسلام، والأمر الذي حمل عدداً مِن العلماء على أن يُحجِم عن العودة من موانئ مصر في رحلتهم الحجية خاصة إذا ما علموا أنها موبوءة كما حدث مع العالم إدريس بن حسام الدين علي البادیسي سنة(٩١٧هـ) الذي قرر عدم العودة عن طريق مصر وقال: «..وتواترت الأثار بنزول نازلة الوباء الشديد بمصر وتوابعها في تلك الأيام، فامتنعت من الإقدام إلى قدوم تلك البلاد للمعاودة نحو ممالك الروم عن طريق البحر المعتاد..»[٢] ثم ظهر في الجزائر وباء سنة (١٧١٨مـ) واعتبر غيون أنه امتداد للوباء الذي كان في مصر؛ إذ يصرح بأنّ السبب الرئيس في تفشي طاعون سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) في إيالة الجزائر يعود إلى تراخي داي الجزائر في تطبيق الإجراءات الاحترازية على سفينة قادمة من ميناء الإسكندرية وقد عُلِم سلفا بإنَّها تحمل الطاعون، بل ولم يقم بفرض أي حِجر صحي كان من المفروض أن يفرض

---

(1) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P107.

(٢) - إدريس بن حسام الدين علي البدليسي: رسالة الآباء عن مواقع الوباء، مخطوط السليمانية [و/ ٥] مجموعة وهبي، رقم ١٣٧٩٠.

على من كان على متن تلك السفينة، وما يثير فعلا الدهشة أن جميع من في ميناء مدينة الجزائر قد سمع بحادثة وفاة أحد ركاب السفينة بالطاعون لكن لم يتحرك أحد لحجب خطر هذه السفينة وهو ما أدى إلى دخول الوباء مدينة الجزائر[١].

وفيما يلي بعض الأسباب التي أسهمت بشكل رئيسي في انتشار الأوبئة في الجزائر خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة.

هجرة الأراضي الزراعية أسبابها وتأثيراتها:

تعد هجرة الأراضي الزراعية أحد المسببات الأساسية لقلة المحاصيل الزراعية فإن تزامنت الهجرة مع الجفاف كان آثارها أشد على الناس عامة ليس على القبائل التي تهاجر أراضيها فقط، وإن كان هذا أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه فمن الواجب أن نضيف الأركان التي عليها مدار الهجرة، وينبني عليها العديد من النتائج، لكن قبل أن نخوض في هذه النتائج وجب أن نقدم بتوطئة تبين مرد تخلي السكان على أراضيهم خلال تلك المرحلة ووفقا له نجيب عن سؤال العلاقة البينية بين هجرات الأراضي والأزمات الغذائية، وهذا التَّخلي مردُّه أمرين أساسين:

أوَّلا: الوضعية الأمنية الصَّعبة التي كانت تعرفها بعض الأماكن خلال فترات زمنية مختلفة بسبب المواجهات بين القبائل أو بسبب المواجهات مع السلطة الحاكمة، مثل ما حدث في ثورة «ابن الشريف» في بيلك الغرب الجزائري[٢]، الأمر

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

(2) - Walsin Esterhazy Louis-Joseph-Ferdinand: De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, éditeur, C. Gosselin, Paris, 1840, P206.

الذي دفع بالمزارعين الذين تقع أراضيهم ضمن نطاق المواجهات بين الترك بقيادة «مصطفى باي» والعرب بقيادة «ابن الشريف الدرقاوي» إلى هجرتها بحثا عن ملاذ آخر أكثر أمنا، وهو ما أحدث الكثير مِن الاضطراب في عمليتي الحرث والحصاد ما أدى بدوره إلى انخفاض كبير في عملية إنتاج القمح.

إضافة إلى ذلك فإنَّ إمكانية توفير الأمن في بعض الأماكن بسبب قوَّة بعض القبائل والعشائر فإنَّ الأمر غير مضمون في عملية توزيع الحبوب ووصولها إلى الأسواق، بسبب خوف المزارعين مِن النهب الذي قد يتعرضون له في المسالك المؤدية إلى الأسواق، ومِن صور تأثير انعدام الأمن على ظهور المجاعات في الجزائر ما حدث أيضا سنة (١٨٠٤مـ) عندما كانت الجزائر تشهد تمردات وثورات قبلية في أماكن مختلفة على رأسها بيلك الشرق الجزائري إذ تزعم «ابن الأحرش» تلك الثورة، ما نجم عنها خوف الفلاحين والتُّجار مِن سلوك طرق قد تنتهي بهم وبمنتوجاتهم إلى مآل غير محمود وهو ما حدث فعلا؛ إذ بعد انتشار خبر تمرد «ابن الأحرش» على العثمانيين وشيوع خبر موت «عثمان باي» حاكم قسنطينة في إحدى مواجهاته لهذه الثورة سنة (١٨٠٤مـ) في المنطقة الواقعة بين القل وجيجل واسمها «وادي الزهور» اضطرب النَّاس وسادَ الهولُ بين الرَّعية وقَلَّت الحبوب، وزاد الوضع تأزما بعد أنَّ دخلت أعراش تلك المناطق في مواجهات بين بعضها البعض، فسادت بسبب هذه الثورة الفوضى والفتن؛ ما أدى إلى انعدام الحراثة، وندرة الحبوب، وعزَّ نقل الأخيرة من أماكن إنتاجها إلى أماكن بيعها[1] وخوف النَّاس على أنفسهم وسلعهم بعدما ذاع خبر الفوضى.

---

(١) - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، د-ط، ذخائر المغرب العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤، ص-ص ٢٩-٣٣.

استمرّ هذا الأمر في بيلك قسنطينة من انعدام الحرث والزرع قرابة السنتين[1] إلى أنّ عادت الأمور إلى نصابها مرة أخرى بداية من سنة (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨مـ) وقد استطاع العنتري تشريح هذه المجاعة برؤية عميقة ودقيقة، مُفسِّراً ما أصاب البلاد مِن عُسرة بارتفاع الأسعار وشُحّ الأقوات بقوله: «واتَّضح أنَّ سبب دوام القحط والشرِّ على بلاد قسنطينة ووطنها مدة ثلاثة أعوام مُركَّب مِن أمرين: أحدهما نزول الجائحة والقحط في السنة الأولى، وبقي(كذا) السنتين التي بعدها. والثاني: وهو أعظمها ترادف الافتتان والأهوال التي لم تطمئن نفوس الناس للحراثة معها.»[2] وإذا تقرر هذا قلنا كما أنَّ للاستقرار دوره في توفير المنتج والرخاء فإن للقلاقل والثورات دورا في قبض المنتجات والخيرات.

إضافة لما مرّ ذكره يمكننا الحديث أيضا عن أحد الأسباب التي لازلنا نرى مخلفاتها إلى اليوم، وهي الذهنية الجزائرية بصفة عامة، فالغالب على الفلاَّح أو المزارع الجزائري إنَّه لم يكن وثيق الصلة بعملية البذر والزرع وذلك لما تحتاجه مِن جُهد وأيدٍ عاملة مجتهدة وتحمُّلٍ للمشاق إضافة إلى أن العائد المالي منه لم يكن كبيرا[3]، بعكس عملية الرَّعي التي كانت بأقل جهد وأفضل نتائج، ولعلَّ هذا الأمر هو ما جعل العديد من الرحالة الغربيين أو القناصل الأوروبيين ينعتون المزارعين

---

(1) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, <u>Revue African</u>., Anne 1895. N°39, P165.

(٢) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) – المصدر نفسه، ص ٣٥.

والفلاحين بالكسالى[١]، ويتَّهمونهم بعدم الاجتهاد، وعدم التَّحكم في فنون ما جعل مناطق سهلية خصبة جداً لا تُؤتِي من أُكلها إلاَّ اليسير[٢].

عدم الاحتراز من الأوبئة:

تذهب بعض الأبحاث المعاصرة التي تناولت موضوع الصحة وتعامل السلطة معها إلى الإقرار بعدم جدوى التَّصدي إلى الوباء بعد وقوعه؛ ولهذا فإن غالب الأوبئة التي كانت تحدث كانت نتيجة تراخي السلطة الحاكمة في ضبط الأمور الصحية ومراقبتها، سواء كان ذلك في مدينة الجزائر أو في غيرها من المدن.

إذ قلما نجدها تعمل على اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد تفشي الأوبئة في إيالة الجزائر، أو القيام بما من شأنه أن يحد مِن دخول الأوبئة إلى الجزائر. وعلى عكس ما كان يقول وزير الداخلية الفرنسي في رسائله إلى المسؤولين عن الموانئ الفرنسية في تلك المدة الزمنية بحيث يؤكد أن الكوليرا لن تحقق شيئا إذا وجدت من يتصدى لها قبل وقوعها قائلا: «...إذا كان لكل فرد واجب بسيط ومخلص مع ضميره لمسؤولياته الواضحة اتجاه الأمة فإن الكوليرا لا تشكل خطرا»[٣] غير أن الأمر في الجزائر كان يسري وينتشر بشكل أساسي بسبب عدم وجود أي تحل بروح المسؤولية للوقوف في وجه الأوبئة، ولماّ نقوم بتتبع قول وزير الداخلية الفرنسي نقف على مفاتيح أساسية لفهم مواطن الخلل الرئيسة التي كان يلج من

(١) – أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ص ٦٠.

(2) - William Shaler: op.cit., P13.

(3) - Dubar Léon: op.cit., P01.

خلالها الوباء إلى الإيالة الجزائرية. إذ ضمن هذا القول كلمات مفتاحية مِن شأنها أن تقضي أو على الأقل تُقلّل مِن الظهور المتكرر للأوبئة خلال مرحلة ما، فالبحوث المتعددة وما تمَّ استعراضه فيما سبق مِن هذه الدراسة يؤكد أكثر مِن مرّة على المسؤولية الإنسانية في تفشي وانتشار الأمراض الوبائية، ولهذا فقد رأي وزير الداخلية بأن القضاء على الأوبئة يكمن في استباق أمرها، وما ذلك إلاَّ بالاحتراز منها وتجنب ما يهيجها لكن هذا لا يعني منع ظهورها تماما -وإن كان هذا مُتاحاً اليوم بالفعل عن طريق التلقيح وغيره-.

ونواصل مع ما ذكره وزير الداخلية الفرنسي في أمريته السابقة بقوله: «مَن يُرد السّلام الصّحي عليه أن يُعدَّ العُدَّة لمواجهة الشر (الأوبئة) وذلك باحتجازه والتحذير من خطره»[1] وهذا الأمر يقودنا إلى نقطة هامة مفادها أنَّ درء خطر الأوبئة؛ إنما ينقسم التعامل معه في الدول الأوروبية -التي كانت تتقدم على الدول الإسلامية في هذا المجال- إلى قسمين أساسيين تكاد تُجمع عليها العديد من الدراسات[2]:

أولها: القسم الوقائي (Traitement préventif): وهو الشكل الأولي الذي يستعان به قبل حدوث الوباء.

ثانيها: القسم العلاجي (thérapeutique)، وهو مجموعة التدابير التي تُؤخذ

---

(1) - Ibid.

(2) - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand: op.cit., P141.

أثناء ظهور الأوبئة[1].

فنجد مثلا مِن الدول الأوروبية مَن تقوم مباشرة بعد ظهور الوباء بالإسراع في إصدار مراسيم مختلفة لتنظيف الشوارع وتفرض عقوبات على المخالفين كما تصدر تشريعات لإقامة مخيمات للحجر الصحي ودفن الموتى بشكل سريع ومنظم[2]، وهناك مَن يرى أنّ جميع الإجراءات الاحترازية وحتى المصاحبة لظهور الأوبئة من حجر صحي وتطويق الأماكن المصابة بالوباء والتي تُقدم عليها السلطة الحاكمة ستصبح بدون معنى و لا فائدة منها إذا استثني منها فرض الرقابة الصارمة على النظافة العامة في الأماكن والأزقة[3]، وهو ما سنحاول أن نتحرّى وجوده في المرحلة الزمنية محل الدراسة ومدى تطابقها مع الشروط الصحية المفترضة.

هذان القسمان سنحاول تتبع مدى وجودهما في إيالة الجزائر أثناء المرحلة المدروسة (١٧٠٠-١٨٣٠) وإن كنا لا ننفي أن السلطة قد حاولت في بعض المرات التعامل مع هجومات الوباء بنوع من الحيطة لكن لا يُشك أن هذه الاحتياطات لم ترق لتكون ديدنا عاما للسياسة العثمانية في الجزائر، لذا نجد في العديد من المرات السبب الرئيس لدخول الوباء إلى الإيالة هو عدم تطبيق الإجراءات الصحية بشكل جدي وحازم.

(1) - Crouzet Stanislas: op.cit., P31.

(2) - Maury Eugène: L'hygiène et l'assistance publiques à Bar-sur-Aube (Aube) au XVIIIe siècle d'après les registres de délibérations (1572-1789), Éditeur: Imp. Nationale, Paris, 1903, P05.

(3) - Boucher Hubert: op.cit., P59.

وتقودنا الأبحاث إلى أنّ سبب انتشار عدد من الأوبئة كان تعنت السلطة الحاكمة في التعامل معها، إذ يذكر «غيون» أنّ الوباء سنة (١٧١٧مـ) قد وَفد إلى إيالة الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية محمَّلة بالسِّلع قادمة من مصر[١]، وقد ذُكر أنَّ الوباء كان على أشدَّه بها، وقد انتشر خبر موت قبطان هذه السَّفينة قبل أن ترسو بميناء المدينة[٢]، ممَّا مِن شأنه في الحالات الطبيعية أن يثير بعض الإجراءات الاحترازية لدى السُّلطات الحاكمة في الإيالة الجزائرية إلاَّ أنّ ذلك لم يثر أي اهتمام لدى ديات الجزائر، بل لم يُذكر قيامهم بأي جهد مِن شأنه الوقوف في وجه هذا الخطر[٣]، والأمر لم يكن قاصرا على هذه الحادثة فقط بل تشير مثلا وثيقتين أرشيفيتين التين خبر دخول السفينة الفرنسية (Sainte Barbe) سنة (١٧٤٠مـ)[٤] الوافدة من الإسكندرية وهي مصابة بالوباء إلى إيالة الجزائر، وكان دخولها تحديدا من خلال ميناء المدينة وقد علم أنها كان تحمل على متنها عدد من المصابين بالطاعون قدموا من مصر إلاَّ أنَّ السُّلطة الحاكمة في مدينة الجزائر لم تقم بأي إجراءات مِن أجل التّحقُّق مِن أمرها أو لإقامة حجر صحي لمن قدم على متن هذه السفينة[٥]، خاصة إذا علمنا أنّ قبطان هذه السَّفينة هنري ليون (Honoré Lyon) كان قد أكد لنائب القنصل الفرنسي بالمدينة بأنّ السّفينة تحمّل بين جنباتها مَن هو مصاب بالوباء.

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(2) - Jean Marchika:op.cit., P75.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(4) -C.C.F.A [AF.é]: AE/B/I/124. Cotes: F °264-265. 27 /05/1740.

(5) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °266-271. 08 /06/1740.

وقد اتصل الأخير فعلا بالداي وشرح له الأمر مِن أجل اتَّخاذ ما يلزم في هذه الحالة من العمل بنظام الحجر الصحي إلى أن يُتيقَّن مِن خلو السفينة مما جلبته معها من بلاء، إلاَّ أنَّ الداي تغاضى عن ذلك، بل وعدّ كلام نائب القنصل شكل من أشكال الخوف؛ ولا يليق بمن هو في مقام باشا الجزائر وبشجاعته أن يخيفه عارضٌ كالوباء، بل تحدَّاه في صورة من صور العنجهية أن يتمكّن هذا الوباء من إحداث أي ضرر بالمدينة، وأمر الدّاي بأن تُنزل جميع البضائع والحاجيات مِن على ظهر هذه السَّفينة وأنَّ يُسمح لمن كان على متنها بالدخول إلى المملكة بدون أي اعتراض، بل الأدهى مِن هذا إنَّه لم يكد نائب القنصل الفرنسي العودة إلى مكان إقامته حتى بلغه بأنّ سلع والبضائع التي قدمت على متن هذه السفينة أضحت تباع وتشترى في الأسواق بشكل كبير[١]؛ وهي صورة تُعبِّر في حقيقتها عن الجهل والاستهزاء بالنّصائح التي كان يسعى نائب القنصل الفرنسي تقديمها إلى الداي، لذا فنحن إذا جدراء هنا بأنَّ نصرف البيان إلى أنّ انتشار هذا الوباء وتفشي ضرره في أرجاء المدينة واستمراره في حصد ضحاياه مِن السَّاكنة ولمدَّة ثلاث سنوات على الأقل كان بفعل التَّصرف اللامسؤول الذي أقرَّه الداي، والذي نجم عنه سقوط عدد ضحايا نتيجة هذا التَّصرف خلال مدَّة ثلاث سنوات ما يقارب على الأقل ستين ألف ضحية[٢].

(1) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P31.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P92.

وهو ليس فعلا شاذا أو معزولا؛ إذ نقف في مرحلة أخرى خلال سنة (١٧٥٢مـ) على تصرَّف لا يقل غرابة من باشا الجزائر «إبراهيم باي» والذي حاول سنة (١٧٥٢مـ) إخفاء أمر الوباء الذي استفحل في المدينة؛ أملاً في استرجاع بعض الحركية الاقتصادية الغائبة عن المدينة منذ سنتين، غير أنه فشل في ذلك؛ إذ استطاع نائب القنصل الفرنسي حينها السيد «جونفيل» عن طريق المعلومات التي أوردها جواسيسه التَّأكد مِن الأعداد الكبيرة التي كانت تتساقط نتيجة هذا الوباء[١]، بل وقام من حينه بإعلام سلطات بلده بأنّ الوباء لا يزال قويا وموجوداً في الجزائر بشكل كبير لذا يجب الانتباه لذلك قبل السماح بعودة التبادلات التجارية.

من جهة أخرى وعلى الطرف الثاني نجد أنَّ السُّلطات الفرنسية كانت دائما ما تحرص على تفتيش تلك السُّفن الواردة إليها من المناطق الموبوءة بشكل دقيق وتعطي التعليمات الصارمة لتتبع السفن القادمة من الإسكندرية أو غيرها من الضفة الجنوبية والقضاء على ما فيها من جرذان مخافة أن تكون ناقلة للأوبئة أو الأمراض[٢]

وحقيق بهذا أن يجعل ما ذكره الباحث «مصطفى خياطي» في كتابه عن «الطب في الجزائر خلال العهد العثماني» من كون معظم كتابات الرحالة والأطباء تشير في استغراب إلى عدم اعتماد السُّلطة العثمانية في الجزائر على أي نظام ثابت

(1) - Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M. T3, P 228.

(2) - A.N.M: année 1899, P53.

ودائم للحجر الصحي[1] حقيقة فعلية تتجاوز أي تحامل، بل إنّ الملاحظات التي تكلم عنها «خياطي» لم تقتصر على الرّحالة الأوروبيين وقناصل الدول الأجنبية فقط؛ بل امتد الإيمان بها وملاحظتها إلى بعض أعيان وعلماء الجزائر الذين أبدوا أسفهم على عدم اتخاذ الأسباب الحقيقية التي من شأنها أن تقي المجتمع من الوقوع في كنف الأزمات الغذائية والصحية كالأوبئة.

فكان مِن بين أوائل مَن أثاروا هذه النقطة وتأسفوا على عدم تطبيقها بالحزم والجدية اللازمين العالم الجزائري «حمدان بن عثمان خوجة» إذ عدَّ عدم الاهتمام بالاحتراز مِن الأوبئة مِن أكبر الأخطاء التي تشبَّث بها المسلمون في مختلف الأرجاء سواء في الجزائر أو غيرها، بل إنّ عدم الأخذ بأسباب الوقاية منها هو ما حمل «حمدان بن عثمان خوجة» على تأليف كتابه «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء» واستغرب أَيَّما استغراب لتعصُّب المسلمين بغير وجه حق لعدم تتبع سبل الغربيين في حفظ النفس من الوباء[2]، ففي الوقت الذي كان فيه الغربيون يقومون بالتجارب المختلفة للتطعيم والتلقيح وتجريب الأدوية المختلفة وتنظيم الملتقيات والمؤتمرات في هذا الشأن[3]، ويفرضون قيودا صارمة تتعلّق بالاهتمام بالنظافة العامة وعدم السماح للأطفال بالخروج في حالة انتشار خبر وجود الوباء[4] وغيرها من الأمور التي اتخذت في القرن السابع عشر ، في هذا

(1) - Mostefa Khiati: op.cit., P 72.

(2) - Ali Rıza Paşa: Mir ’at ül-Cezayir el-Veda Cezayir, s81.

(3) - Berthet Louis: op.cit. ‹P12.

(4) - Crouzet Stanislas: op.cit., P31.

الوقت تحديدا كان المسلمون لايزالون يناقشون حكم اقتفاء آثار الغرب في الأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، ويظهر هذا الأمر جليا في تحسّر «حمدان خوجة» على ما وصل إليه المسلمون من انحطاط فكري جعلهم يرفضون الأخذ بأسباب الوقاية من الطَّاعون والأوبئة لا لشيء إلاَّ لإنَّها من عمل النَّصارى، ويظهر هذا الأمر جليا بقوله في مقدمة «إتحاف المنصفين": «كما أنّ أقوال الحكمة وأفعالها لا يستنكف العاقل عن اقتنائها لضعة مَن فَعَلَها أو قَالها، بل يبادِر للحقِّ وقبوله واستجلاب النَّفع وحُصُوله، ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال مثل هذه القواعد وإنكارها، والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الفرنج بدعواهم واشتهرت نسبته إليهم مما يتعلق من أمر دنياهم..»[1]

وليس «حمدان بن عثمان خوجة» فقط مَن تحدَّث عن عدم الاهتمام بأخذ التدابير الوقائية في مواجهة هجوم الطَّاعون، إذ يذكر «غيون» أنّ سبب انتشار طاعون سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) مرده عدم اهتمام الحكام باتخاذ التدابير اللازمة؛ إذ سُمِح لسفينة عُلِم بإنَّها تحمل الطَّاعون قادمة من «الإسكندرية» بالرسو في ميناء الجزائر، بل ولم يُقم بفرض أي حِجر صحي كان من المفروض أن يفرض على من كان على متنها، وما يثير الدهشة فعلا أنَّنا نعلم بأنّ الخبر قد وصل

(١) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عـن الوبـاء، دار الطباعـة السلطانية، إسطنبول، ١٢٥٤هـ، ص ٣.

السلطات حول سقوط أحد ركاب السفينة ضحية لإصابته بالطّاعون[1]، كما سُمح لسفينة أخرى بالرسو في ميناء مدينة الجزائر في (٢٩ جويلية/ ١٧ رمضان) من سنة (١٢٣٨هـ/ ١٨١٧مـ) كان على متنها مائتا شخص يركب بها عدد من أقارب الداي وكبار موظفي الدولة، مع علم المسؤولين على الميناء بأنّ هذه السفينة مصابة بالوباء، إذ كان معلوماً أنَّ أربعين شخصا على الأقل قد لقو حتفهم نتيجة الوباء، وبقي حوالي خمسة وعشرون شخصا مصابون بنفس الوباء ينتظرون أجلهم مع كل هذه المعطيات لم تقم السُّلطة بأي عمل مِن شأنه الوقوف في وجه تفشي الوباء[2]، أو منع تسربه مرة أخرى على الأقل.

كما أنَّ «حمدان بن عثمان خوجة» عند حديثه عن الأنظمة الوقائية في أوروبا لم يكن يتكلم عن سماع فقط، وإنما عن معاينة أيضا، إذ إنَّه كان ممن عايش «نظام الكرنتينة» أو الحجر الصِّحي مرتين إحداهما بإسبانيا والثانية بفرنسا[3]، وقد تعمَّقت بعض الدراسات حول الأنماط والطرق المختلفة التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية في مواجهة تفشي الأوبئة، إذ كان يُعمد دائما إلى عزل المرضى ومنعهم مِن التَّنقل بين الدول والبلدان، وكان لا يُسمح غالبا لمن لا يحوز على جواز سفر -مختوم مِن طرف الأطباء- بالدخول إلى المناطق التي ثبت طهارتها

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

(2) -ibid. P375.

(٣) - حمدان بن عثمان خوجة: المرجع السابق، ص ٤٦.

من الأوبئة[1]، أمّا مسألة الأخذ عن النَّصارى كانت في حينها مسألة فقهية اختلف فيها علماء ذلك العصر اختلافا بيِّنًا ليس هذا محل بسطه.

وقد صوّر «حمدان بن عثمان خوجة» ما كان يراه في الدول الغربية ولم يقف عليه في البلاد التي كان فيها -أي الجزائر- ولا غيرها مِن الدُّول الإسلامية التي زارها، إذ يُفهم مِن قوله: «..حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلاَّ بعد تحقُّقِ البراءة أو الاستبراء وجعلوا لذلك حكاماً في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط وسموا ذلك كرنتينة»[2] إنّ هذه الأمور لم تكن موجودة في البلدان الإسلامية، وقد شرح «حمدان بن عثمان خوجة» سبب ذلك وحصر عدم وجود هذه الاحتياطات في البلاد الإسلامية لنفرة المسلمين مِن كلِّ ما فعله وابتكره أو رتَّبه الغربيون[3]، ومِن جهة ثانية تنقل عدد مِن الدِّراسات وجود نظام الحجر الصِّحي في بعض المناطق في الجزائر[4]، بل وكان الحجر يمتدُّ في بعض الأحيان لمدة ١٥ يوما وأكثر فيقول في أحداث سنة (١١٥٧هـ/ ١٧٤٤مـ): «...قدم علينا مركب من الإسكندرية بالحجاج، وفيه الوبا فمنعهم الباشا الدخول حمية من أن يقوم ممرض على مصح

---

(1) - Bertherand: les quarantaines et le systém de dresde à l’encontre du choléra, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893, P154.

(٢) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، ص٣.

(٣) – نفسه، ص٣.

(4) - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

إلى ثامن عشرة، موافق خامس عشر أوغشت..»[١]

الأمر الذي يعني حسب رأينا اعتماد السلطة العثمانية لنظام الحجر الصحي بصفة انتقائية وفي بعض الأماكن والأوقات فقط، وما يؤكد هذا الطرح ما أورده (شونبيرغ) في كتابه «الطب الشعبي في الجزائر بداية الاحتلال» من أنَّ بعض الدَّايات في الجزائر خلال العهد العثماني حاول التخفيف من شدة دخول الأوبئة إلى الجزائر بفرض نوع مِن الرقابة الطبية على الوافدين مِن خارج الجزائر، وبالأخص أولئك الذين يدخلون من ناحية البحر، ويذكر في هذا الشأن كيف أُمِر بإرجاع سبعة أشخاص إلى السفن التي قدموا فيها بعد أن تأكَّد المُراقبون بإنَّهم موبؤن[٢]، والأمر عينه قام به باي قسنطينة سنة (١٧٨٥مـ) عندما أَجبر سكان البيلك على عدم التبادل التجاري مع جيرانهم التونسيين لما علم بأمر الوباء الذي انتشر في تونس[٣]، وهو نفس ما قام به باي وهران سنة بعد ذلك (١٧٨٦مـ) عندما أمر بضرب نطاق حجر صحي عليه هو ومرافقيه واستنكف عن دخول مدينة وهران لما عَلِم بأمر الوباء الذي اجتاحها[٤].

إلاَّ أنَّ هذا الأمر لم يكن مُطلقاً، فكثيرا ما لم يستسغ الديوان إرجاع المصابين بالوباء إلى بلدانهم، بل احتضن الكثير منهم بدعوى إنَّهم مسلمون، وأنَّ لهم الحق

---

(١) – عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري: لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تحقيق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر،٢٠١١، ص ١٢١.

(٢) – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٣٩.

(3) - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

(4) -Ibid.

في الإقامة في الجزائر كغيرهم من إخوانهم؛ ما ساهم في انتشار الوباء في أكثر من مكان وامتداده بشكل أكبر[1]، وهذا الأمر لم تختصَّ به إيالة الجزائر فقط، إذ كثيرا ما اشتكى الأوروبيون عدم حرص الإمارات الإيطالية على الأخذ بأسباب الحيطة من انتشار الأوبئة، وهو ما كان له انعكاس سلبي في العديد من المرات على الدول الأوروبية الأخرى[2].

بل حتَّى أنَّ إقامة الحجر الصِّحي في الجزائر أو غيرها عندما حلَّ الاحتلال الفرنسي وهو مَن يشرف على هذا الحجر لم يستطع الوقوف في وجه تفشي الأوبئة، لذا نجد بعض الباحثين الفرنسيين يرى أنَّ الحجر الصحي لم يأت أكله دائما، إذ في السنوات الأولى مِن دخول الفرنسيين إلى الجزائر انتشر (وباء الكوليرا) في عدد من المدن الفرنسية والسواحل الإسبانية، بالرغم من تطبيق قواعد الحجر الصِّحي على سواحل مدينة الجزائر، وإخلاء المباني الحكومية التي يُشك في أمر انتشار الوباء بها، فلم يثن ذلك الوباء من التقدم سنة(١٨٣٤مـ) بل ونجده يقضي على عدد معتبر من السكان سواء في مدينة الجزائر أو في المدن الأخرى[3].

والأمر السالف ذكره يدفعنا إلى القول بأنّ تطبيق شروط الحجر الصحي لم يكن يعني منع دخول الوباء بشكل قطعي، خاصة إذا علمنا أن طول الساحل الجزائري وعدم وجود ثقافة صحية بالمفهوم المعاصر لدى الفرد

---

(١) – أف شونبيرغ: المصدر السابق ، ص ٣٩،٤٠.

(2) - E.L Bertherand: Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°01, 1891, P119.

(3) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P12.

الجزائري كانت عواقبه وخيمة، وكثيرا ما انعكس بشكل مباشر على الحالة الصحية للمجتمع، لكن التطبيق كان سيخفف من حدة ضرباته أو موجة تكراره على الأقل، وهو ما لم يحدث، كما سيأتي بيانه في الفصل اللاحق.

التواصل مع الباب العالي وتأثيراته في انتقال الأوبئة:

تعدُّ إيالة الجزائر هي مفتاح التَّواصل بين المنطقة المغاربية والدولة العثمانية، ولهذا نجد الترابط الاقتصادي والعسكري وحتَّى العلاقات السياسية لهذه الإيالة مع مركز الحكم تحظى بأهمية كبرى لا للجزائر فقط، وإنما حتى للدولة العثمانية فكثيرا ما كانت الإيالة تستفيد مما يتوفر في الباب العالي من منتوجات أو ما توفره الإيالة من فائض لأسواق الباب العالي؛ إذ قد اشتهر إنتاج بعض المواد الواسعة الاستهلاك وتبادلها الطرفان مثل: القمح، الشعير، الأرز، العسل، الزيتون، البرتقال، الليمون، وغيرها من مواد كانت أساسية في عمليات التبادل التجارية بين الجزائر وغيرها من الدول[١]، ونجد في نفس الوقت حسب بعض الوثائق والسجلات الأرشيفية أنَّ الباب العالي يأتي في المرتبة الثانية مِن حيث كونه أحد المصدرين الأساسيين للإيالة بحجم مبادلات قدّرته الدراسات الفرنسية بـ (٧٤٥,٠٠٠) فرنك فرنسي سنة (١٨٢٦م) من مجموع قدره (٤,٧١٧,٠٠٠) فرنك فرنسي، إضافة إلى إنَّها الزَّبون الثاني الذي تُصدَّر له المنتوجات الجزائرية[٢]، فإن أضفنا إلى هذا ما هو معلومٌ مِن كون اسطنبول كانت المركز المحوري في

(1) -Boutin Vincent-Yves: op.cit., P209.

(2) -Boutin Vincent-Yves: op.cit., P212.

الالتقاء بين الشَّرق الآسيوي والغرب الأوروبي والحركة الإفريقية مِن مصر؛ أصبحت بذلك إسطنبول محلاً أساسيا ومركزيا لالتقاء مختلف ما قد يكون موجودا مِن الأمراض والأوبئة، ما أهّلها في العديد مِن المرات لتصبح مركزا لتحويل الأوبئة القادمة مِن آسيا والحجاز والشَّرق الأدنى إلى عمق أوروبا(١) إضافة إلى إيالات شمال إفريقيا، وبهذا يتقرّر لدينا مبدئيا أهمية هذا المحور في نقل الأوبئة التي تواجدت هناك إلى شمال إفريقيا عامة، والذي تأتي على رأسه طبعا إيالة الجزائر، وهو ما يفسر إلى حد ما انتقال العديد من حالات الوباء والطاعون من مركز الخلافة العثمانية إلى الجزائر ومنها إلى باقي المناطق المغاربية، بل يندر أن يظهر وباء في الأراضي المركزية للخلافة العثمانية دون أن يكون له أثر في الجزائر.

فمن ذلك مثلا «**الوباء الكبير**» الذي اجتاح الجزائر سنة (١٧٨٦مـ/ ١٢٠١هـ) إذ بحسب رواية الزَّهار فإنه كان وباء شديدا بشكل رهيب، وندعه يصف لنا شدَّته وطريقة ولوجه الإيالة يقول في ذلك:»...وفي سنة (١٢٠١هـ) جاء الوباء إلى الجزائر، حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوباء الكبير، قيل إنَّه أتى مِن برِّ التُّرك في مركب مع رجلٍ يُدعى ابن سماية، وطال الوباء في الجزائر إلى سنة (١٢١١هـ)..»(٢) كما ذكر نفس الوباء أيضا «بير بروجر» وعزى قدومه إلى بحارة وافدين مِن إسطنبول، وما يقوي فرضية قدوم

---

(1) - Jean Marchika: op.cit., P156.

(٢) - أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، دار البصائر، الجزائر، طبعة وزارة الثقافة، ٢٠٠٩، ص٧٨.

هذا الوباء مِن الأناضول هو أنَّ مدينة أزمير التي كانت الخزان العسكري لإيالة الجزائر لتجنيد الإنكشارية أن الوباء كان قد تفشى بها بشكل كبير ما آثار على التجنيد في الدولة العثمانية بشكل عام، بل نجد أنَّ سرعسكر مدينة أزمير «محمَّد باشا» يأذن للمتخلِّفين عن التَّجنيد مِن خارج المدينة بالتأخر في الالتحاق بها بسبب خوفهم مِن الوباء الذي كان يتفشى فيها بشكل كبير في تلك السنة، وهذه الإشارة مبثوثة في إحدى الوثائق المؤرخة بتاريخ الثاني من شعبان مِن سنة (١١٩٩هـ)[1] أي في حدود منتصف شهر جوان فإن أضفنا إلى ذلك المدة التي تستغرقها السفن في رحلتها من الأناضول إلى الجزائر ومرورها بعدد من المحطات وجدنا أن الفاصل الزمني لن يقل عن شهرين إلى ثلاثة أشهر على أقل تقدير ما سمح بتأخر دخول الوباء إلى مدينة الجزائر إلى غاية السنة الموالية لظهوره في الباب العالي.

مثل ما نقف على إشارة أخرى عن انتقال الوباء إلى مدينة الجزائر سنة (١٧٩٢مـ) بفعل وفود بعض البحارة الجزائريين مِن اسطنبول[2] هذه الأخيرة التي كان ينتشر على ضفافها الوباء بشكل كبير فنجده في المورة والأناضول ونفارين يدوم في ربيع سنة (١٢٠٦هـ) الموافق لشهر مارس من سنة (١٧٩٢مـ)[3] وهو ما يعني أن إمكانية انتقاله عبر البحارة من الأناضول ومن إسطنبول تحديدا قائمة.

---

(1) - B.O.A: C.AS. Do: N°951.Gömlek N°41311. Tarih 1199.Ş.02. Belg 01.

(2) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P٣٥٥ -354.

(3) -B.O.A: C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.

والأمر عينه نجده يحدث سنة (١٨١٧مـ)، إذ يعزو «الزَّهار» سبب انتشار الطَّاعون إلى وفود عدد مِن المراكب قادمة مِن الباب العالي إلى الجزائر: «...عندما بلغت المراكب المهداة من اسطنبول جاء معها الوباء إلى الجزائر واشتعلت ناره سنة ١٨١٧..» وهو نفس الأمر الذي أشار إليه أيضا مارشيكا بحديثه عن سفينة واردة من الأناضول بها عدد من المجندين الأتراك الذين كان يعاني بعضهم من إصابته بالطاعون[1]، ومما يؤكد على تفشي الوباء خلال هذه المرحلة الزمنية في الباب العالي ما قامت به الدَّولة العثمانية على رعاياها في العديد من المناطق في الأناضول واليونان والمجر على وجود الوباء وتفشيه في المنطقة[2]، وهو ما يعني بالفعل أنَّ مَن وفد عن طريق العمارة البحرية مِن الأناضول كان سببا فعليا في نقل المرض مِن الأماكن التي كانوا يقطنونها إلى الحيز الجغرافي لإيالة الجزائر أو تفشيه على الأقل. خاصة وأننا لا نشك في أنّ السُّفن حقيقة هي الوسيلة الأمثل التي كان ينتقل مِن خلالها الوباء والعدوى سواء من خلال الحيوانات كالقوارض والفئران والطيور أو حيوانات الأخرى مثل القردة والبراغيث[3] أو في الحالات الأكثر شيوعا من خلال السفن التي تحمل الجنود والمسافرين والقراصنة[4]

ولعلَّ طبيعة العلاقات التجارية والسياسية القوِّية بين إيالة الجزائر والمشرق الإسلامي جعلها عرضة أكثر من غيرها للأوبئة الوافدة، وهو ما جعل الأوبئة

(1) - Jean Marchika:op.cit., P156.

(2) -B.O.A: C.ML. Do: N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.

(3) - Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P29.

(4) - A.N.M: Anné1843, P203.

والطواعين التي حاقت بالمغرب الأقصى أقل خطورة وتأثيرا حسب روزنبرجي وحميد التريكي[1].

ولعله من الأهمية بما كان أن نشير إلى الدور الخفي الذي كانت تلعبه القوارض، والتي كانت تتسرب من القوارب الوافدة إلى الجزائر عبر قنوات ومناطق مختلفة إلى ميناء الجزائر، فتنتقل في سلسلة محددة تضم هذه السلسلة كل مِن (الحامل+الناقل+المستقبل) من القارض والبرغوث لتنتقل إلى حيوانات أخرى يحتك بها الإنسان، وعليه فالمتلقي للعدوى وهي القوارض تحوز غالبا على حرية حركة قد لا يحوزه الضحية المصاب بالطاعون إن اكتشف أمر مرضه في الميناء، والناقل للعدوى ممثلا في صورة البرغوث ووجوده في المنزل الجزائري خلال العهد العثماني يكاد يكون أمرا مُسلَّماً به، وعليه فالمعادلة تكاد تكون مكتملة[2]، إذ المتلقي موجود والناقل نشط والإنسان يحيا بينهما بشكل دائم، لذا فإنَّ وجود القوارض مع عدم الحرص على النظافة والالتزام بشروطها هيأ المحيط الحاضن لظهور الأوبئة والطواعين واستتبابها وانتشارها، خاصة إذا ما علمنا إمكانية اتخاذ هذه الأوبئة من الأرض جيوبا سباتيه[3] تنتقل منها مرة أخرى عند قيام الساكنة بالبحث فيها

---

(١) - روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص١٩١.

(٢) - انظر الملاحق: الملحق رقم ٠٢.

(٣) - برنار روزنبرجي وحميد التريكي: المرجع السابق، ص١٨٥.

مساهمة ركب الحجّ في تفشي الأوبئة:

يعد مِن أبرز طرق انتقال الأوبئة ودخولها الجزائر احتكاك الجزائريين بغيرهم من المسلمين في موسم الحجّ[1]، فهذا الاحتكاك المباشر بين الحجَّاج الجزائريين مع غيرهم مِن مُختلف أقطار العالم في البقاع المقدسة كثيرا ما أدى إلى انتقال العدوى الوبائية مِن فئة إلى فئات أخرى سواء كانوا جزائريين أو غيرهم، كما هو الحال في وباء سنة (١١٦٥هـ/ ١٧٥٢مـ) الذي ذكر «غيون» إنَّه قدِم مع جموع الحجَّاج من مكَّة المُكرمة[2].

ولا يقتصر الأمر على موسم الحج فقط وإنَّما يمتد الأمر ليشمل ما يعرف حينها بركب الحجِّ، إذ إنَّه من السُبل الأساسية في نقل العدوى الوبائية من مكان ما على طريق الحجّ إلى إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، تلك الطّرق التي تسلكها هذه المواكب عند عودتها إلى مضاربها؛ فنجد أنَّ ركب الحجَّ العائد مِن البقاع المقدسة باتِّجاه الجزائر أو أي مكان آخر في العالم كثيرا ما يحتك في طريق عودته مع قبائل مختلفة في أماكن شتى فالطريق البري من الإسكندرية إلى الجزائر قد يستغرق شهرا ونصفا وتجتمع فيه حشود كبيرة من حجاج طرابلس وتونس والجزائر[3]، الأمر الذي جعل العديد من التقارير الطبية تؤكد بأن الأوبئة كانت تنتقل من الشرق إلى الغرب دائما فتنتقل من مصر إلى ليبيا ومنها إلى تونس ومن

---

(1) - Lucette Valensi: op.cit., P 20.

(2) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P319.

(3) - Lucette Valensi: op.cit, p59, 60.

تونس إلى الجزائر؛ لتصل إلى غاية المغرب الأقصى[1]، وهو ما حدث فعلا مع أكثر من وباء، إذ منذ القرن السابع عشر كانت الطريق البرية الشرقية طريق انتقال وبائي بارز، إذ كثيرا ما كان مركز الوباء الأولي في إيالة تونس ومنها ينتقل إلى الجزائر كما هو الحال على سبيل المثال لا الحصر في أوبئة سنوات (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠مـ) و(١٠٣٠هـ/ ١٦٢١مـ) و(١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠مـ)[2] كذلك الشّأن بالنسبة لوباء سنة (١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣مـ)[3] والأمر سيان بالنسبة للأوبئة الأخرى محل الدراسة، نفس الأمر نجده يحدث سنة (١٧٤٠مـ) مع السَّفينة الوافدة مِن الإسكندرية باتجاه إيالة الجزائر سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ)[4] وقد لبث حينها الوباء في الجزائر مدة ثلاث سنوات كاملة، أتى فيها على عدد كبير من الضحايا مثل ما سيأتي ذكره في موضعه.

كما إنَّه كثيرا ما تتعدَّى رحلة الحجَّ كونها رحلة لأداء المناسك فقط إلى كونها رحلة لطلب العلم، وحضور مجالس العلماء، والسياحة في المدن المشهورة، وحتى التّجارة مع القبائل التي تكون على طريق العودة، بل وحتى التَّعرف على المسلمين وأحوال أراضي الإسلام في أماكن مختلفة كما يذكر مثلا أبو راس الناصري مِن فوائد المنتقاة في طريقه إلى الحجّ التعرف على بعض الأماكن والمعالم

(1) -A.I.P.A: 1924- N°3. P312

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P261.

(3) -ibid. P269.

(4) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

سماعا أو مشاهدة[1].

لذا نجد أنَّ القافلين مِن أداء مناسك الحجَّ يَسلكون طرقا مختلفة بغية الوصول إلى مساكنهم، لكن لا يكاد يخرج الأمر عن إحدى سبيلين أساسيين للعودة إلى الإيالة الجزائرية: أولهما: الطّريقُ البحري، وثانيهما: الطَّريق البريُّ، وحتَّى يتضح لنا أهمية موسم وركب الحجّ ومأسهمتها في انتشار الأوبئة في بعض الأحيان، علينا أن نفصّل في هذا الأمر بالحديث عن الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحجَّاج العائدة مِن البقاع المقدسة، ومدى تأثيرها في انتشار الأوبئة في إيالة الجزائر.

الطريق البري: يعد هذا الطريق الأهم بالنسبة لركب الحجَّ الجزائري وهو بدوره ينقسم إلى تفريعات مختلفة نستعرضها حتّى نتبيَّن أيَّ الطُّرق كان أكثرَ تأثيراً في نشر الوباء، والملاحظة التي يُستهل بها الكلام هنا أنَّ الطّريق البريَّ كان الأطول مِن حيث المرحلة الزمنية، وهو الذي يتيح للحُجَّاج الرؤية والاطِّلاع على الكثير مِن الأمور التي يجهلونها، أو يندر عليهم مصادفتها في واقعهم المعاشي، الأمر الذي حمل عدداً مِن الحجَّاج على وضع تقيدات لرحلاتهم، وتُعدُّ مِصر هي الفاصل الأساسي بين مَن يركب البحر أو يرجع براًّ.

ينقسم الحجَّاج عند بلوغهم مِصر إلى زُمر: قسمٌ يسلك السَّبيل البري والذي يبتدئ مِن الإسكندرية باتجاه طرابلس الغرب ومنها إلى القيروان، ومِن تونس

---

(١) - أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق بوكبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، ٢٠١١، ج٢، ص٤٧٣.

تنقسم قوافل الحُجَّاج الجزائريين إلى قسمين منها: مَن تسلك طريق الجنوب، ومنها مَن تسلك طريق السَّاحل.

أمَّا الطَّريق الأوَّل أي طريق الجنوب أو الطريق الصحراوي ويعرف أيضا «بمسلك القصور» على ما أوردته بعض الأبحاث[1]، يمتد مِن مدينة حلق الواد التونسية إلى مدينة وادي سوف الجزائرية كما يُستخلص مِن مصادر المنطقة[2]، ومِنها يستمر الطريق إلى عمق المُدن الصَّحراوية الكبرى مثل: بسكرة، ورقلة، والأغواط[3]، انتهاءً بمنطقة توات وأقاصي الصَّحراء، والملاحظ على هذا الطريق الصحراوي إنَّه لا تعرف احتكاكا كبيرا للقوافل مع المدن الكبرى بل تمرُّ فقط على الأعراش وبعض القبائل ما يجعل بينها وبين الساكنة ليس بذلك الحجم الكبير الذي يترتب عنه تأثير كبير، ولعلّه الأمر الذي جعل المنطقة الصَّحراوية تعرف تحصينا مِن الأوبئة أكثر من نظيرتها الموجودة في المناطق الشمالية، كما سيأتي ذكره.

أمَّا الطريق السّاحلي وهو الذي تسلكه غالبية قوافل الحجّ العائدة إلى موطنها وهو الذي غالبا ما يحمل بين جنباته أنواعا مختلفة من أعراض الأوبئة الموجودة في المشرق، لهذا نجد عددا من الدايات تفطن لهذا الأمر واستعان بالمراقبين وبعض الأطباء ليقوموا بالتحقق من سلامة السُّفن القادمة عبر هذا المسلك من

(١) – فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ١٤٣.

(٢) – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٣)– فلة موساوي القشاعي: المرجع السابق، ص ١٤٣.

الوباء، كما يقوم المراقبون بإرجاع المسافر الذي تظهر عليه أعراض أي وباء[١]، أو عدم السماح للسفن التي يثبت أن ركابها مصابون بالمرض بالرسو في موانئ الإيالة، وهو ما حدث سنة (١٨٢١مـ) مع السفينة القادمة مِن الإسكندرية، والتي كان على متنها عدد مِن الحجَّاج ورُفِض استقبالها بسبب تسرب الوباء إليها وخوفا من انتقال الوباء عن طريق ركابها إلى سكان المدينة[٢].

أمَّا الطريق هذا فغالبا ما يكون كما ذكرنا آنفا بمحاذاة السّاحل، بحيث يمكث الحجيج في بعض المُدن المشهورة والكبيرة: كعنابة، قسنطينة، أو بجاية، أو مدينة الجزائر. وكان عددٌ مِن السُّفن التي تقل الحجاج مِن مدينة الجزائر أو عنابة يمرُّ بمدينة تونس ليتسنَّى لها حسب بعض الرسائل الأرشيفية بين حكام الجزائر وأمراء فرنسا أخذ المزيد من الحُجّاج من هذه البلاد[٣]، وهو أمر مِن شأنه أن يفيد الشركاء في السفينة وأصحابها ماليا، كما سيكون وسيلة تُسهم في نقل العدوى إن وجدت من مكان إلى آخر وهكذا يحدث احتكاك تلقائي بين الحجّاج وسكان هذه المدن، فإمَّا أن يتأثَّر الحُجَّاج بالطَّاعون الموجود في هذه المدن وينقلونه معهم إلى المدن الداخلية وقراهم وإمَّا يحدث العكس. خاصة إذا علمنا أنَّ العادة التي توارثها النَّاس خلال تلك المرحلة إنَّه حين يقفل الرَّجل مِن أداء فريضة الحجِّ يحظى باستقبال كبير من أهل بلدته وعائلته وأصدقائه، فتقام له الولائم، ويأتي أهل

(١)- أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٣٩.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P394.

(3) - C. D. A. C. F: PP 64 -183.

القرية قاصدين بركة دعائه؛ فالقادم إليهم قد أتى مِن أفضل الأماكن وأحبها إلى قلوبهم، بل حتى لو عُرف أنَّ هذا الشَّخص كان سيّءَ السُّمعة قبل ذهابه فإنَّه عند إيابه يبجَّل ويُحترم ويقدم على غيره ويحتفى به"[١]، ونتيجة هذه المعايدات والزيارات وتلك الاجتماعات التي تتمُّ خلال هذه الأيام؛ فإنّ كلَّ حاجٍّ مُصابٍ بمرض الطَّاعون أو الجذام قد ينقله إلى أهله وسكان قريته دون أن يعي ذلك، فيكون بهذا سبباً مِن أسباب انتشار الوباء بينهم، فينتشر تلقائيا من فرد لآخر حسب نوعية الوباء.

أمَّا الطريق البحري: فيرى كثير مِن الباحثين إنَّه الأكثر خطورة من ناحية نقل العدوى المريضة وهو الذي ساهم بشكل كبير جدا في نقل الأمراض بين الموانئ العالمية المرتبطة بالدولة العثمانية[٢]، والطريق الذي تسلكه القوافل الراجعة مِن الحج عبر البحر كان لابد أن يخرج من إحدى الموانئ المرتبطة بعلاقات وطيدة مع الدولة العثمانية، ونقصد هنا موانئ مِصر، إذ أن قوافل الحجيج كانت تنتقل في الغالب من ميناء الإسكندرية على الضفة الجنوبية للمتوسط إلى مختلف الأماكن[٣]، وكان الحجاج الجزائريون كغيرهم مِن المغاربة غالبا ما ينزلون إما بموانئ تونس ومنها يسلكون الطرق البرية إلى الشرق الجزائري وإمَّا يواصلون لموانئ أخرى كعنابة والجزائر وغيرهما وهو ما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى

(1) - Lucette Valensi: op.cit., P 91

(2)- Danıel Panzac: Osmanlı İmparatorluğu'nda veba (1700-1850) çeviren Serap Yılmaz, tarih vakıf yurt yayınları, baskı Numune Matbaacılık, 1997, s66.

(3) -Lucette Valensi: op.cit., P91.

دخول سفن قادمة من مصر محملة بالأوبئة كما هو الحال مع السفينة الإنجليزية التي قدمت الجزائر سنة (١١٣١هـ/ ١٧١٨مـ) وهي محملة بالوباء كما ينقلها غيون عن لوجي دي تاسي[١].

أمَّا غالب سكان المناطق الشرقية وبعض أهالي الصّحراء، فيسلكون الطريق البحري مِن مصر إلى ميناء تونس ومنها إلى وادي سوف، والواحات الكبرى. وقد ذكر هذا الطريق على سبيل المثال لا الحصر مؤلف كتاب الصروف من أنه في آخر ربيع الثاني من سنة (١٢٠٥هـ/ ١٧٩١مـ) هلك ثلاثمائة حاجٍّ مِن بينهم ستة وثلاثون حاجّاً مِن أهل قمار ممَّن غرقت سفينتهم برادس قرب تونس عند عودتهم من الحجَّ، بل وغرقت في نفس الليلة ثلاثُ سُفُنٍ أُخرى بها ألفٌ وأربعمائة مسافر[٢].

فمن ذلك أن نجد الطَّاعون الذي ظهر وسط الحجيج سنة ١٨١٧ ينتقل معهم إلى مدينة الجزائر وفي نفس المرحلة تقريبا نفس الوباء ينتشر في كل من المغرب وتونس بنفس الطريقة أي عن طريق عودة الحجيج ويبقى في الجزائر لمدة خمس سنوات تقريبا ولا ينحصر إلا سنة ١٨٢٢[٣]

غير أن هذا لا يعني أن الحجاج العائدين من البقاع كانوا دائما ما يصابون هناك، إذ قد ثبت في بعض الأحيان أنَّ الوباء قد يُجلب أو يُحمل مِن الطَّريق خاصة

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(٢) – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص٢٧٥،٢٧٦.

(3) - Lucette Valensi: op.cit., p 21.

عند النزول بالموانئ المصرية، وقد يُعترض علينا بالقول: أنَّ الوباء في مصر قد يكون بدوره قادما مِن الحُجَّاج، نعم، قد يبدو هذا الاعتراض صحيحا من حيث بنيته، إلاَّ إنَّه مردودٌ بظهور العديد مِن الأوبئة في مصر مثلا حتَّى قبل عودة الحجيج من جدَّة(1)، كما إنَّه مِن المعلوم أنَّ صعيد مصر كان أحد الروافد المشهورة للطَّاعون(2) في تلك المدة الزمنية، وهو ما مِن شأنه أن يثبت فكرة أنَّ بعض الأوبئة قد أصيب بها الحجيج في طريق عودتهم، وليس أثناء حجِّهم، وإلَّا ما كان ليكون لهم القدرة على مواصلة المسار إلى غاية الجزائر، بفعل تمازج عدد من العوامل التي قد تسهم في القضاء على المصاب منها مشقة الرحلة وطولها وإجهاد الجسم فيها وعدم القدرة على التداوي أثناء ذلك.

الاحتكاكات مع البلاد الأجنبية وآثارها في تفشي الأوبئة:

تحوز العلاقة التجارية والسياسية بين إيالة الجزائر ومختلف أقطار البلاد المغاربية على أهمية كبيرة جدا لا على الجانب الاقتصادي والسياسي فقط بل ارتداداتها نجدها تنعكس في جلّ الجوانب الاجتماعية والمعيشية، وتأتي في مقدمة الدُّول التي ارتبطت الجزائر معها بعلاقات اقتصادية قوية الإيالة التونسية، فقد أورد «فلنسي» أنَّ عدد القوافل الاقتصادية المنتظمة بين الإيالتين كان كبيراً بحيث لا يقلُّ عن واحدةٍ شهريا تكون أمتعتها محمَّلة على قرابة ٣٠٠ بغل تقريبا(3).

(1) - A.N.M: Anné1899, P48.

(2) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P03.

(3) -Lucette Valensi: op.cit., p61.

بل لم تقتصر العلاقة مع الإيالة التونسية على النشاط التجاري فقط، بل تعدّته إلى النشاط الدبلوماسي والعسكري، ولكليهما آثار لا يخفى بتاتا في انتشار الأوبئة من مكان إلى آخر. لذا نقف على العديد من الأوبئة التي سبق ظهورها في إيالة تونس ظهورَها في الجزائر، وهذا بناء على عدد من الأسباب من بينها القرب الجغرافي لتونس من مناطق الحركة الوبائية كما هو الحال مثلا بالنسبة لوباء (١٧٢٠مـ) والذي ظهر في فرنسا أولا وظهر في نفس السنة في الإيالة التونسية ثم عبر من خلالها إلى الإيالة الجزائرية، أو ذلك الوباء الذي ظهر سنة (١٧٤١مـ) واشتد آثاره في تونس ثم انتقل من خلالها إلى إيالة الجزائر بحيث ظهرت فيها أعراض هذا الوباء الذي كان مدمرا بالنسبة للجزائر خلال تلك المدة حسب أرشيف وزارة الخارجية[1]، والأمر لم يختلف كثيرا خلال سنة (١٧٨٤مـ) إذ ظهرت بوادر الوباء في تونس خلال نفس السنة ثمَّ انتقل هذا الوباء عبر محور (طبرقة-القالة-بونة) ليعم كلَّ إيَّالة الجزائر سنة بعد ذلك (١٧٨٥مـ) وقد تأخر لمدة سنة بسبب تلك الإجراءات الاحترازية التي اعتمدها «صالح باي» لمنع وصول الوباء إلى بيلك الشرق الجزائري[2]، غير إنَّه في الأخير لم يُوفَّق في ذلك.

وإذا تقرَّر ما سبق وجب أن نصرف البيان إلى محل آخر كان له بدوره تأثير في نقل الأوبئة لكنه ظل خفيا ونقصد الروابط والعلاقات الدبلوماسية الحيوية بين الطرفين أو بالأصح بين الأطراف المختلفة، والتي يفترض أن تكون الأبعد من أن

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °294-295. 24 /05/1741.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P212.

تكون سببا في نقل الوباء، نجدها على العكس من ذلك تبدو جد مُؤثِّرة، فعدد مِن السُّفن الدبلوماسية كانت تخرج مِن الجزائر وتحمِل بين ركابها مَن هو مصابٌ بالداء، فيحمله بدوره إلى المكان الذي يذهب إليه سواء بتونس أو المغرب، وهو ما نجده يحدث فعليا على مستوى التمثيل الرسمي الدبلوماسي للإيالة، إذ أنّه وفي سنتي (١٨١٧مـ-١٨١٨مـ) انتقل وفدٌ من مملكة الجزائر إلى الإيالة التونسية للتفاوض حول شروط السِّلم بين الإيالتين، وكان من بين أعضاء السفينة ممثل الداي حسين «الحاج يوسف» وقد كان مصابا بهذا الوباء غير أنّه لم يُلاحظ ذلك عليه، إلى أن وصل هو ومن معه إلى تونس، وحينها فقط لاحظ الأمر؛ فحاول تداركه من خلال العلاج الذي أخذه هناك خلال إقامته[1].

إذا تقرر ما سبق من قوة العلاقة بين ظهور الوباء في تونس وانعكاساته في إيالة الجزائر، عدنا للحديث من زاويا أخرى عن ظهور الوباء في إيالة الجزائر وانتقاله إلى المملكة المغربية، إذ لا يغيب عنا أن الجزائر كانت تعد معبرا أساسيا لانتقال الأوبئة إلى المملكة السعدية، من خلال الكثير من الأوبئة التي انتقلت مِن النَّاحية الشرقية إلى بيلك الغرب، وهو حقيقة امتداد لانتقال الأوبئة عموما مِن الشرق إلى الغرب، وهو ما نقف عليه جلياً في وباء سنة (١٢١٢هـ/ ١٧٩٩مـ) إذ إنَّه قد يكون وفد عبر إحدى طريقين: إمَّا من خلال مدينة الجزائر وانتقل بفعل الحركة الداخلية إلى الغرب الجزائري، أو من خلال سفينة تركية تُقلُّ بعض الحُجَّاج رست في موانئ بيلك الغرب الجزائري، وبعدها انتشر في مدن:وهران، تلمسان،

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P424.

ومعسكر، وانتقل منها إلى المغرب الأقصى[1].

ولا تختلف كثيرا العلاقات مع المحيط القريب وتأثيراتها في نقل الأوبئة من مكان إلى آخر، إذ نفس العلاقة الحركية التي كانت بين الإيالة الجزائرية وكلّ من تونس والمغرب نجد نظيرتها مع الإيالة المصرية، إذ نقف على عدد من السّفن والبوارج الحربية التي كانت تقدّم من مِصر باتجاه ميناء مدينة الجزائر أو موانئ عنابة ووهران، فتقوم السُّفن القادمة غالبا مِن الإسكندرية بإيصال الحُجَّاج والتُّجار مِن هنالك إلى الجزائر والعكس أيضا، هذه الحركية خلقت نوعا مِن الاحتكاك الدائم بين الطرفين ساهم في الكثير من الأحيان في نقل الأوبئة التي كانت توجد في مصر إلى الجزائر وتونس.

والأوبئة التي كان مصدرها المشرق عامة وبلاد مصر خاصة عديدة لا يسهل حصرها في هذا المقام إذ تتحدّث التقارير الأكاديمية الطبية عمَّا يناهز واحدا وعشرين وباءً في المدَّة الممتدَّة ما بين (١٧٨٣-١٨٤٤مـ) فقط بدون الحديث عن الأوبئة السابقة لهذا التاريخ[2]، لذا سنكتفي في هذا الموضع بالإشارة إلى أهم الأوبئة التي ثبت وجودها في مصر ورُصد فعلا انتقالها للجزائر.

فنقف أنّه مِن بين أوّل الأوبئة التي كان مصدرها موانئ الإسكندرية خلال القرن الثامن عشر ووفدت إلى الجزائر وباء سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) إذ ذُكر أنَّ

---

(1) -ibid. P 360.

(2) - A.N.M: Bulletin de l'Académie nationale de médecine, Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899, P46.

هذا الوباء قد وفد إلى الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية قدمت محمَّلةً بالسلع من مصر[١]، الأمر نفسه نجده يحدث سنة (١٧٤٠مـ/ ١١٥٣هـ) وإذ يذكر «دي غرامون» أنّ هذا الوباء قدِم على متن سفينة قادمة من الإسكندرية[٢]، نفس الأمر نقف عليه مرة ثالثة في وباء جديد ظهر هذه المرّة سنة (١٧٤٣مـ) ويعود أصل هذا الوباء بدوره –حسب إحدى الرسائل الأرشيفية التي بعث بها القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر «توماس» (Thomas)– إلى سفينة وافدة مِن «الإسكندرية» في الثالث من شهر جويلية (١٧٤٣مـ) وكان قبطان السفينة هو «جون جونسم» (Jean Jeanseaume) وقد انتشر خبر إصابة هذه السفينة بالوباء[٣]، فإن تقرَّر هذا عدّت هذه السفينة السبب الرئيس في انتقال العدوى من مصر إلى الجزائر. ولا يتوقف الأمر عند هذا الوباء بل يتعداه إلى أوبئة أخرى متعددة من أهمها أيضا ذلك الوباء الذي ألم بالجزائر في بداية القرن الثامن عشر وبالتحديد سنة (١٨١٦مـ) إذ حسب رواية نقيب أشراف الجزائر «الشريف الزّهار» أن الوباء قد دخل الجزائر من خلال بعض السُّفن الواردة مِن اسطنبول سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٦مـ) واشتعلت ناره في الجزائر من حينها[٤]، بينما يرى «غيون» أنّ السّفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة من الإسكندرية ورست بمدينة عنابة، ومن خلالها ولج الوباء

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(2) - H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١٣٩ °-142. 17 /07/1743.

(٤) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١٥٨.

إلى المناطق الأخرى[1]، كما ذُكر أيضا بأنَّ سفينة قد رست بميناء مدينة عنابة سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) وهي سفينة حُجَّاج قادمة مِن مصر نزل منها خمسة وعشرون شخصا كان معظمهم مصابا بالطاعون انتشروا في مختلف أرجاء المدينة ما تسبّب لاحقا في تفشي الوباء لباقي السكان[2]. لا نريد أن نظل أُسارى لضرب الأمثلة وتعدادها الواحد تلو الآخر، لذا سنكتفي بهذا القدر من الأمثلة التي تؤكد دور العلاقة التجارية والمواصلاتية بين إيالة الجزائر والأطراف المختلفة في نقل الوباء من مكان إلى آخر.

غير أنه يجب أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أنَّ العلاقة التجارية التي ربطت الإيالة الجزائرية بالإيالة التونسية أو حتى المصرية لم تكن هي السبب الرئيسي في انتقال الأوبئة، إذ نجد أنّ عدد السفن المصرية الوافدة إلى الموانئ الجزائرية لم تكن بتلك الضخامة التي تعرفها مثلا الجارة الشرقية، وعدد السفن لم يتجاوز في بعض السنوات الأربع سفن سنويا، بينما قد تكون في حدود العشر سنويا في تونس[3] ما يجعل إمكانية الإصابة أكثر ارتفاعا في تونس، وهذه القلة لا تمنع إمكانية أن تنقل إحدى هذه السفن الوباء من مصر إلى منطقة أخرى، كما إنَّه كثيرا ما استُعين بالسُّفن الفرنسية والإنجليزية لنقل البضائع والحجَّاج مِن مكان إلى آخر، ما يجعل قلَّة السُّفن ليس معيارا للحكم على حركة التنقل وانتقال السِّلع،

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P372.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P373.

(3) - Lucette Valensi: op.cit., p74.

فكثيرا ما كانت السُّفن الأوروبية الوافدة مِن موانئ الإسكندرية تحمل بين ركَّابها مَّن هو مصابٌ بالمرض أو هو ناقل له، كما هو الحال في وباء سنوات (١٧١٨مـ) الذي قَدِم ضمن سفينة فرنسية وافدة مِن مصر، أو وباء سنة (١٧٤٠مـ) الذي يُشك بإنَّه قدم ضمن سفينة إنجليزية وافدة بدورها من موانئ الإسكندرية[١].

فإذا استوفينا الحديث عن العلاقات البينية بين الإيالات التابعة للدولة العثمانية، انتقلنا للحديث عن العلاقات في شق آخر هو امتداد للشق الأول، كما يدخل ضمن هذا الشقّ، وهو الحركة التي تنتجها العلاقات الدبلوماسية، إذ أنَّ ميناء الجزائر كان يعج بمختلف السفن الأوروبية الواردة لمهام دبلوماسية مختلفة، ولا تكاد تمرّ فترة زمنية قصيرة إلاّ وتشهد دخول ميناء الجزائر مجموعة مِن سُفن الدُّول الأوروبية بغرض نقل أمتعة أو هدايا خاصة بالداي قادمة من مختلف الدول الأوروبية ولا تخلو هذه السفن مما قد يوجد ببلدانها أو ممَّا قد يكون فشياً في الموانئ التي رست بها فيذكر مثلا غيون أن سفينة إنجليزية على متنها من هو مصاب بالطاعون سُمح لها بالدخول إلى ميناء الجزائر سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ)[٢] ما نجم عنه تفشي طاعون شديد تلك السنة، أو سفن تأتي لنقل أمتعة القناصل وحاجياتهم وتمرُّ على أكثر مِن ميناء واحد وأكثر من دولة واحدة قبل وصولها إلى الجزائر، ما يجعل إمكانية تعرضها لوباء ما ونقله كبيرة جدا، فنجد مثلا خلال الشهر الثاني من سنة (١٨٢٢مـ) دخل ميناء الجزائر أكثر

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P 298, 315.

(2) -ibid., P298.

مِن عشرِ سُفن مِن الموانئ الأوروبية كان أهداف معظمها دبلوماسية، فمنها مثلا: سفينة انطلقت مِن سردينا، ومرّت بميناء مرسيليا قبل أن يستقرّ بها المُقام أخيرا في ميناء الجزائر، وأربع سفن فرنسية وردت الجزائر قادمة مِن ميناء تونس[1]، بمعنى أنّ كثرت تِطوَّاف هذه السّفن مِن ميناء لآخر قبل وصولها ميناء الجزائر وهو ما قد يجعلها أكثر عرضة مِن غيرها لخطر الإصابة بالطَّاعون والتّسبب في نقله مِن محل إلى آخر.

كما أنَّ السُّفن التي كانت موجودة في الجزائر وتخرج إلى غيرها مِن الموانئ تكون في بعض الأحيان محمَّلة بالوباء أو الأمراض المختلفة ما جعل السُّلطات الأوروبية تحاول مراقبة هذه السُّفن بدقَّة، وقايةً لنفسها مما قد يعتري هذه السُّفن مِن أمراض، وهو ما حدث فعلا في الكثير من الأحيان من ذلك على سبيل المثال توقيف السلطات الفرنسية لسفينة (la Fortune) والسلطات الإسبانية لسفينة (L'Eulalie) بسبب الاشتباه بوجود إصابات بالطاعون فيهما وقد سقط بالفعل في السفينة الأولى ثلاث ضحايا ما بين (٢-١٨/٠٧/١٧٩٦مـ) وصرّح قبطان سفينة (la Fortune) بفقدانه رَجُلين مِن رجاله خلال الإبحار، وإصابة البعض الآخر من البحارة بنفس المرض[2].

عدم الاهتمام بالعلوم الطبية في الإيالة الجزائرية:

قبل أن نشرع فيما نصبو إليه من هذا البحث نرى أنه من المهم إيضاح أنَّ رؤية

---

(1) - William Shaler: op.cit, P239.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P 357, 358.

الأستاذ «أبو القاسم سعد الله» بأنَّ اهتمام الجزائريين بالطب خلال العهد العثماني كان أفضل وأكبر من اهتمامهم بالعلوم الأخرى(١)، من حيث الإجمال عين الصواب بشرط أن نقارن علم الطب بالعلوم الرياضية أو العقلية، لكنه مما قد يُوهم المتلقي بوجود نوع مِن التَّطور في هذا الجانب، وهو ما لا نقف عليه البتة في الجزائر خلال تلك المرحلة ، إذ غالبا ما كان يوجد من الطِّب في هذه المرحلة هو نفس ما كان موجودا في العالم الشَّرقي ضمن الإطار الدّيني أو بمصطلح بعض الأطباء قد بقي الطِّب خلال هذه المدَّة «محصورا في صلاحيات الطّب الديني»(٢) وكان استيعاب بعض الأمور العامة في الصّحة أو قراءات لبعض التَّوجيهات الطبية التي تركها «أبقراط» قد تجعل من الرجل العادي في المعرفة حكيما في المجتمع الإسلامي خلال تلك المرحلة من التاريخ(٣).

وإذا تقرَّر ذلك فعلا قلنا: أنَّ أحد الأسباب الرئيسة لانتشار الأوبئة بين النَّاس خلال هذه المرحلة هو عدم الاهتمام بالعلوم الطبية ولا بالأطباء، إذ نادرا ما ذكرت كتابات الرّحالة والمؤرخين وجود أطباء أو حكماء في الجزائر خلال المرحلة المعنية بالدراسة، وتكتفي بعض المظان بالإشارة إلى أطباء يعتمدون على التداوي بالأعشاب والطرق التقليدية فقط دون غيرها، في الوقت الذي كانت فيه

(١) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ج٢، ص ٤١٦.

(2) - Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand: op.cit., P142.

(3) - Bertherand Émile: op.cit., P18.

الدول والممالك الأوروبية تقوم ببعض التجارب للحصول على التلقيح المناسب لهذه الأمراض، إذ جرت العديد مِن التَّجارب حول الجدري مثلا وكيفية إنشاء تلقيح مضاد له، وكان الغربيون خلال نهاية القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر يقومون بالكثير من التَّجارب المختلفة المتعلقة بالتَّطعيم وتجريب الأدوية المختلفة، وينظِّمون في ذلك الملتقيات والمؤتمرات المختلفة[1]، بل وطُبِّق هذا النَّوع مِن اللقاحات على المرضى مِن البشر وأضحى لا يُستغنى عنه في هذا الوقت بالتَّحديد، فيما ظلَّ الجزائريون ومعظم أطراف العالم الإسلامي أسيرى للنظرة القديمة للتداوي[2]، ويرفضون أخذ التلقيحات والتطعيمات المضادة للجدري وغيره مِن أوبئة[3].

ونقف في هذا الشَّأن على أمر معاكس تماما لمسار الطب في أوروبا مثلا، إذ في حين كان الأطباء في أوروبا يسعون لإيجاد حلول لمواجهة الأوبئة المتفشية والسيطرة عليها، نقف في الجهة المقابلة مِن المتوسط على الكثير ممَّن كانوا يمتهنون الطبَّ بدون أن يكون لهم أدنى اطلاعٍ على الأمور الأساسية في هذا الجانب، بل لا يحسنون في الكثير من الأحيان إلاَّ النزر القليل مِن الكتابة والقراءة، ويكفي للتعبير عن الفكرة أن نعلم أنَّ جُلَّ مَن كان يشتغل في مهنة الطِّب في الجزائر

(1) - Berthet Louis: op.cit. ،P12.

(2) - Delvaille Camille: L'épidémie de petite vérole et la revaccination, imp. de Vve Lespès, Bayonne, 1869, PP 2-7.

(3) - Mohamed ben larbey seguir: op.cit., PP 36-37.

حينها كان مُتَطبِباً وليس طبيبا بالمعنى الحقيقي[1]، وهذا ما كان سببا أساسيا في سوء الأوضاع الصحية في إيالة الجزائر خلال تلك المرحلة وتفشي الأوبئة بشكل رهيب، وهو ما كانت تعانيه جل المجتمعات الريفية في العالم تقريبا[2]، بل وكثيرا ما نجد الكتابات الغربية تعد ما هو موجود مِن أطباء في الجزائر خلال تلك المدة(١٧٠٠-١٨٣٠مـ) مجرد مشعوذين[3] لا يفقهون مِن الطِّب شيئا كثيرا[4]، وهذا يرجع إلى أمور عدة منها ما هو علمي ومنها ما هو ذاتي، فمن جانب أول نلتمس تدني المستوى العلمي لجل مَن كان يشتغل بالطِّب في الجزائر مُقارنة مع نظرائهم في أوروبا من جهة، ومن جهة أخرى نقف على عدم قدرة الرَّحالة الأوروبيين والمقيمين الغربيين على التَّفريق بين ما هو شعوذٌ فعلا وبين ما هو طبٌ شعبيٌّ، أو ما أضحى اليوم يطلق عليه مسمَّى «الطبِّ البديل»[5].

وقد حاول بعض الباحثين أنْ يُفرِّقوا بين الأطباء المُختصِّين والهواة، وقاموا بتقسيم الأطباء حسب الفئات إلى ثلاثة أقسام هي: أطباء السلطة العثمانية(كان غالبهم من الأسرى أو العمال في المجالات الأوروبية في الجزائر)، أطباء الفئة الشعبية(كان أكثرهم من العوام الذين يشتغلون بالطب الشعبي)، وأطباء الأسرى والجالية الأوروبية(كان غالبهم من الرهبان والمبعوثين الأوروبيين إلى المستشفى

(١) - شخوم سعدى: المرجع السابق، ص٢٧٣.

(2) - Lucette Valensi: op.cit., p21.

(3) - Mostefa Khiati: op.cit., P88.

(4) -William Shaler: op.cit, P77.

(5) - Mostefa Khiati: op.cit., P88.

الإسباني)[١].

وإذا عرف ما سبق فمن واجبنا القول أنَّ تراجع الطب كعلم مستقل بذاته لم يكن مُقتصرا على الأطباء في إيالة الجزائر العثمانية خلال المرحلة محل الدراسة (١٧٠٠-١٨٣٠)، بل هو انعكاس عام لما كان سائدا في جل أقطار العالم الإسلامي، بحيث أضحى التَّمر الهندي وزبدة البقر وبعض الأعشاب توصف كوصفات طبية للمرضى ببعض الأوبئة[٢].

والتقسيم الذي سبق ذكره لفئات الأطباء لا يعني إنَّه كان يُحترم ويطبق فعليا بشكل دقيق ورسمي، إذ أنَّ سبر أغوار البحث والولوج في أعماقه يوصلنا إلى القول: أنَّ الأمر كان مُتداخِلاً بين جميع الفئات، فكثيرا ما استُعين بالطبيب الأوروبي لخدمة السياسي العثماني أو لخدمة الفرد البسيط في المدينة أو العكس.

والمستوى السيّئ للأطباء الجزائريين وقلة عددهم وعدم معرفة بعضهم بأبجديات العمل الطبي يمكن إرجاعه من إحدى النواحي إلى الوضعية السَّيئة التي كان يعيشها مَن يشتغل بالطبِّ؛ فأجورهم لم تكن تختلف بتاتاً عن أجور الجنود، كما إنَّهم كانوا لا يأخذون نظير جهودهم إلاَّ النَّزر القليل مقارنة بالأوربي إذ أنَّ العملية الجراحية التي يقوم بها الطبيب الأوروبي ويأخذ عليها (١٠٠ قرش) كان لا يأخذ في مقابلها الجراح الجزائري إلاّ بوجو واحد أي (١/ ١٠٠٠) على الأكثر مما يتقاضاه الحكيم الأوروبي، كما أنّه يندر إجراء هذه العمليات مِن طرف

(1) - Mostefa Khiati: op.cit., P101.

(2) - Bertherand Émile: op.cit., P18.

الأطباء الجزائريين[١].

وقلّة عدد الأطباء في الجزائر يؤكِّد عدم فائدة الاهتمام بالطب كمهنة كما أنَّ عدم الاهتمام هذا انعكس سلبا من جهة أخرى على أعداد مَن اهتمَّ بتطبيب النَّاس، ويكفي لتأكيد ذلك أن نقول أنّ عددهم في بدايات القرن التاسع عشر لم يتجاوز اثنا عشر شخصاً كلّهم كانوا مِن الأوروبيين، وانحصر جلُّ نشاطهم في «مدينة الجزائر» دون غيرها، ذكر منهم «غيون»: الطبيب أندراس *(Ondras)* -غير إنَّه لم يلبث كثيرا- والطبيب *(Piémonlais)* والذي خدم بعض الدايات مدَّة طويلة، ناهزت العشرين سنة، إضافة للدكتور مكاردي (*Mcardi*) وهو بدوره ورد إلى الجزائر سنة (١٨٢٦مـ)[٢].

وإذا علم ما سبق وجب أن نفتتح الخوض في تلك العلاقة بين الأطباء الأوروبيين ورجال الدولة المهمين في الجزائر، إذ نجد أنَّ العديد مِن الحكام كان يستعين بالأطباء الأوروبيين أو الأسرى الأوروبيين في الأمور الطبية، فيستوقفنا في العديد مِن المرات استعانة أو ركون الحكام لما يقوله الأطباء الغربيين فيما يكاد يغيب تماما ذكر الطبيب المحلي، فنقف مثلا في إحدى الوثائق المُرسلة مِن حاكم «بيلك الشرق» الجزائري «صالح باي» على إشارة هامة تدلُّ على غياب أي طبيب يُوثق فيه في تلك المنطقة خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة، وهو ما حمل «صالح باي» على الطلب في إرسال الطبيب الذي كان موجودا ضمن عمَّال الشركة

---

(١) – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٦٩،٧٠.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P365.

الإفريقية، وأكَّد على ضرورة أن يجلب الطبيب معه أدويته التي تُعينه على العلاج[1]، نفس الأمر نقف عليه في موضع آخر في وثيقة أُرسِلت مِن الحاج «حسين بن عبد الله» خوجة الخيل إلى وكيل «الباسيتيون» بالقالة؛ يطلب منه فيها أن يُرسل له مِن عنده طبيبا؛ يعالجه من وجع كبير يجده في رأسه[2]، وإذا تحقَّق هذا فَمن الواجب أن نصرف القول إلى أنه يُستخلص من هذه الطلبات المتكررة من كبار القوم عدد من الأمور أهمها: عدم وجود طبيب واحد في كل «بيلك الشرق» الجزائري يضاهي مستواه مستوى الطبيب الأوروبي، ثانيا: كان يوجد بالفعل شُحٌّ في مَن له المقدرة الفعلية على تقديم الوصفات الناجعة؛ وهذا ما يعني عدم فعالية الوصفات الشعبية التي كان يقدمها الحكماء في تلك المُدَّة وهو ما وصفه «Bertherand» بإنَّه جهل عميق بفحوى الطب الحقيقي لدى الحضر مِن أهالي الجزائر[3]، أو يعني عدم ثقة الحكام وكبار الشخصيات في النصائح التي يقدمها لهم الحكيم المحلي مقارنة مع وصفات الحكيم الأوروبي.

وهذه الحاجة المُتكرِّرة هي ما جعلت الطبيب الأوروبي يحظى بالاحترام الكبير من طرف الجميع، بل هو الأمر الأساسي الذي رفع بعض الأسرى الأوروبيين ليكونوا في مثابة أصحاب سلطة، بسبب ما ينشأ من علاقة وطيدة بين هؤلاء الأسرى وكبار رجال الدولة من دايات وبايات، ويذكر الأب «بوايي» أنَّ

(١) - و. م. و. ج. مج: ١٦٤١، و/ر ٧٥.

(٢) - و. م. و. ج. مج: ١٦٤١، و/ر ٩٠.

(3) - Bertherand Émile: op.cit., P38.

الطبيب الأوروبي كان يحظى بما لا يحظى به غيره مِن سعة في العيش والتبجيل، ولعلّه مثل ما قال: «الغريب الوحيد الذي يمكن أن يستفيد مِن مزايا الاحترام والتقدير»[1].

وهذا ما يُبرَّر أيضا في رأينا بذلك الاحترام الكبير الذي كان يكنُّه أهالي مدينة الجزائر والقيادات السياسية والعسكرية للأطباء الأجانب الوافدين عليها، ولعلّ مِن صور هذا الاحترام والتقدير ما نصّ عليه سيمون بفايفر في مذكراته وكيف أنتقل من أسفل العبيد إلى أعلى سُدَّة السَّادة وعريش السيادة بقوله:»...واتَّخذني طبيبه الخاص، ومنذ تلك اللحظة أصبحت كأني قد انتقلت إلى حياة أخرى، فتركت مغارة الفئران وسكنت غرفتين كبيرتين في القصر، لهما ديوان على امتداد الحائط، وأرضيتهما مغطاة بزرابي نفيسة، وكانت بهما على العموم أنواع مِن الزينة، وبدَّلت ثياب العبيد بثياب أخرى ثمينة مصنوعة مِن القطن وقمصان رفيعة، واستعضت عن فضلات الأطعمة بأكلات لذيذة، وكان يقوم على خدمتي بسكريان، باختصار لقد تحوَّلتُ مِن كلبٍ مَسيحيٍّ حقيرٍ وطبَّاخٍ شَابٍ مُضطَهدٍ...إلى طبيب خاصٍّ للخزناجي أفندي...»[2] ويجعلهم ذلك محلّ ترحابٍ، ويكثر الطلب على خدماتهم لنجاعة الوصفات التي كانوا يقدمونها في الكثير مِن الأحيان[3]، فتذكر المصادر عدداً مِن الأطباء الغربيين في الجزائر خلال

(1) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 114.

(٢) – سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تـر: أبـو العيـد دودو، المجلـد الأول، طبعـة خاصة وزارة المجاهدين، دار الأمة، الجزائر ٢٠٠٩ ، ص، ص ٢٧،٢٦.

(٣) –أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ، ص، ص ٢٣، ٥٦.

تلك المرحلة مثل: وهو ما يفسر ازدياد عددهم في آخر مرحلة من الوجود العثماني في إيالة الجزائر، وممَّن اشتهر ذكره: الدكتور السرديني مياردي (Meardi) والدكتور الإنجليزي بوهن (Bohen) والدكتور الإسباني أسانسي (Assensi).

إضافة إلى ما سلف ذكره مِن شُحٍّ في الأطباء نقف على إشكالية أخرى تتمثَّل في قلّة عدد الصيدليات، التي لم تتجاوز في بداية القرن التاسع عشر مثلاً ست صيدليات والغريب أنّها لم تكن تحوي إلاَّ القليل مِن الأعشاب والمستحضرات الطبية الطبيعية[١].

إذ إنَّه إضافة إلى قلة الأطباء في الجزائر العثمانية وتدني مستوى الكثير منهم نقف كذلك على معضلة أخرى ألا وهي غياب الصيدليات وعدم توفر الأدوية، فالأدوية التي كانت تُحضَّر في الجزائر ظلت منحصرةً في بعض السوائل وبعض الأخلاط والعقاقير[٢]، التي ليس لها الآثار الكبير في العلاج من الأوبئة أو التقليل من آثار انتقالها، وهو ما جعل إيالة الجزائر تعاني كثيرا مِن ندرة الأمصال الفعلية لمواجهة الأمراض المختلفة في الكثير من الأحيان[٣]؛ وهو ما حمل (أف. شونبيرغ) على القول في وصفه لإحدى صيدليات مدينة الجزائر بأنها-على قلتها-:«...لا تحتوي إلاّ على جرارات وزجاجات فارغة...» ويتحدَّث عن صيدلية أخرى فيقول: «...لكن صيدليته كانت فضلا عن ذلك صغيرة، فكانت عبارة عن غرف

(١) - أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٤١.

(2) - Mostefa Khiati: op.cit., P90-91.

(٣) - سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص ٢٦.

واطئة ومظلمة...» ويتحدَّث عن صيدلي ثالث وما يحوزه مِن آلات جراحية في صيدليته قائلا: «...وأراني كلّ الآلات والأجهزة الجراحية، وكان له في غطاء كُلاَّب؛ لتثبيت الأجزاء أثناء العمليات، وملقط وبعض المسامير. وكان في حقيقته مقص وملقط منوع وآخر ملون، وكلها من صنع الأوروبيين، ولكنها كانت قديمة ومن نوع متوسط...»[١] ومستخلصات العقاقير غالبا ما تحفظ لمدة طويلة في زجاجات بجوار الماء البارد، كما أنَّ معظم الأدوية وآلات الجراحة تستجلب من أوروبا[٢].

ولم يقتصر النقص في الجزائر خلال تلك المرحلة الزمنية -أي من بداية القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر-على المكونات من أدوية والآلات الطبية والجراحية المنعدمة فقط[٣]، بل امتد هذا الشح إلى المواد العلمية؛ إذ قلّما نقف على كُتب أو مخطوطات طبية أو تعتني بالطب.

ويتجلّى ذلك في صور عديدة: فهذا (سيمون بفايفر) يشتكي سوء حاله لسيده؛ بسبب انقطاع اتصاله بالكتب الطبية ويلتمس منه توفيرها له[٤]، وهذا (أف شونبيرغ) في موطن آخر يُمنِّي نفسه بأنْ يقف على كنز عظيم-لما أخبره أحد الصيادلة بوجود مخطوطة طبية-ويخيب أمله عندما رأى حالتها السيئة

(١) -أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٦٦،٦٧،٦٨.

(٢) -نفسه، ص ٦٧.

(3) - Bertherand Émile: op.cit., P33.

(٤) – سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، ص ٤٦.

المهترئة[١]، ويأتي (مصطفى خياطي) ليمدح توفر الكتب الطبية التي كانت متداولة بين أهل الصنعة خلال تلك المرحلة فلا يسعفه الحظ إلاَّ بذكر كتابات نادرة وقديمة لداوود الأنطاكي وابن رشد وابن سينا[٢]، وهو ما يؤكد الفرضية التي تقول بقلة المصادر الكتابية التي كانت تهتم بالشأن الطبي في الجزائر خلال العهد العثماني، وهو امتداد طبيعي ومنطقي لتراجع الأمة الإسلامية في الجانب العلمي خلال تلك المرحلة الزمنية وليس خاصا بالجزائر فقط دون غيرها، إذ لا نكاد نقف على أهم مِن كتاب «كشف الرموز» لعبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري وهو جزء من كتابه «الجوهر المكنون من بحر القانون»[٣].

إضافة إلى أن عموم المجتمع كان لا يفقه من أمور وأعراض الطاعون الشيء الكبير مع أنه كان كثير التكرر في الجزائر، ولعل هذا الأمر ما حمل بايسونيل على القول أنَّ السُّكان لا يعلمون شيئا عن تمظهرات الطاعون وكيفية انتقاله؛ الأمر الذي جعلهم في الغالب الأعم لا يُحسنون التَّصرف في تلك المحن الوبائية[٤].

ولعلَّ الأمر يزداد سواء إذا فهمنا الذهنية السائدة لدى عموم ساكنة الإيالة خلال تلك المدة الزمنية، إذ أنّ معظم الجزائريين والمسلمين في تلك المرحلة لم يكونوا يهتمون بالتطعيم ضد الأمراض، لاعتقادهم أنَّ هذا الأمر يتنافى وروح

---

(١)-أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٦٨.

(2) - Mostefa Khiati: op.cit., P 87-88.

(٣) – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ص ٤٣١.

(4) - Peyssonnel Jean-André (1694-1759) :Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Libraire de Gide, éditeur es animales des voyages, 1838, P228 .

تعاليم الإسلام، وهذا الوباء بالنسبة للسُّكان إن حدث ما هو في حقيقته إلاَّ قضاءٌ وقدرٌ إلاهي[1]، فليس لهم إلاَّ الامتثال إلى الأحكام التي تدعوا إلى الإيمان بالقضاء والقدر[2].

وبقي أمر التَّطعيم مجهولا في أواسط العامة إلى أن قام «الداي حسين» بتطعيم أولاده لدى أحد الأطباء الإنجليز يدعى بوهن (Bohen) وهو ما أحدث القلاقل داخل مجتمع مدينة الجزائر[3]، لاعتبارات عِدَّة منها –حسبهم– منافاة هذا العمل لقيم الإيمان بالقضاء والقدر التي يجب توفرها في المسلم، إضافة للاستعانة بغير المسلمين في التداوي خاصة إذا كان من الداي، فهو يعد انتقاصا في شخصه وهو ما لا تسمح به قوانين اللباقة والاحترام والهيبة والإجلال[4] وغيرها من جزئيات ليس هذا محل تفصيلها، وقد تحدّث الطبيب الجزائري «محمد بن العربي» أنّه في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر رفض الأهالي التطعيم الذي دعت إليه السلطات الفرنسية للحد من انتشار وباء الجدري، وهو ما رفضه جل ساكنة الجزائر من الأهالي ولم يقم به إلاّ نزرٌ قليل من السكان بإجبارهم على ذلك من

(1) - Charles Féraud, Laurent ; Histoire des villes de la province de Constantine. La Calle: et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique, imp. V. Aillaud et Cie, Alger, 1877, P 396.

(2) - Mostefa Khiati: op.cit., P 66-67.

(٣) – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٤٩.

(٤) – سيمون بفايفر: المصدر السابق، ص ٢٩.

طرف السلطات الفرنسية[1].

وإذا عُرف وفهم ما سبق وكان أمرا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب أن نقول إنَّ عدم الاهتمام بالعلوم الطبية وما يتفرّع عنها، وغياب الحد الأدنى من الثقافة الطبية لدى ساكنة الإيالة جعل الأوبئة تتفشى كل مرة بنفس النمط، دون أن تجد في مواجهتها الأدوات الطبية المادية والفكرية القادرة على التصدي لها، وهو ما يجعل هذا العنصر (الطبي) مركزيا وحيويا جدا في النتائج التي ستلقى على عاتق الإيالة.

٢. حركة انتقال وانتشار الأوبئة:

يعد من نافلة الكلام في هذا الباب أن نتحدث عن التأثير المباشر للجغرافيا في تاريخية المجاعات والأوبئة في الإيالة العثمانية، فالأحداث على تغيرها وتتابعها في حقيقة الأمر ما هي إلاَّ صنيعة لهذا الثابت الجغرافي للإيالة والمنطقة ككل، والجغرافيا هي التي فرضت المنطق الذي ظهرت به الأوبئة مِن جهة ومن جهة أخرى له مسؤولية كبيرة في انطلاقها وتفشيها.

وتتبع عدد مِن الدِّراسات الغربية والمحلية يقودنا إلى عدد مِن الاستنتاجات التي سنبني عليها تحليل هذا المبحث، وعلى رأس هذه الاستنتاجات فكرة أنَّ بروز المجاعات في الجزائر لم تكن تختص بمنطقة ما دون منطقة أخرى وهو عكس ما توافر لدى الأوبئة التي كانت في بعض المرات متمركزة حول مناطق

(1) - Mohamed ben larbey seguir: op.cit., PP 36-37.

بعينها، فنجد أنَّ معظم المجاعات عند ظهورها غالبا ما كانت تعم الإيالة ككل، أو على أقلّ تقدير تعم مناطق شاسعة، وهذا ما يفسر وقوفنا على مصطلحات قحط كبير ونقص في المؤونة في الجزائر، أو في قول أحدى المخطوطات عن مجاعة في وقت «محمَّد باي الكبير فاتح وهران»: «..إنَّه في ابتداء ولايته وقع قحطٌ شديد بإقليم الجزائر وبعمالته خصوصا...»[1] فنلاحظ قول المصنف في «إقليم الجزائر» دلالةً على كلِّ الإيالة ثمَّ يُخصِّص مكاناً بعينه فيقول و«بعمالته خصوصا» وهكذا الأمر في معظم المجاعات التي ألمَّت بالإيالة، والعدد القليل مِن المجاعات التي كانت خاصة بمنطقة ما نجدها مرتبطة ببيلك الغرب بالخصوص، لكن هذا لا يعني أنَّ المناطق الأخرى كانت في منأى عن الأزمات الغذائية، لأجل ذلك استنكفنا هنا أن نقوم بوضع تصوُّر وهمي هلامي لانتشار المجاعات في إيالة الجزائر خرائطيا، إذ لا يصبح ذلك إلاَّ مجرد تخمين لا يمتُّ للبحث الدَّقيق بصلة، واستعضنا عن ذلك بالإقرار أنَّ المجاعات لم تتمركز في نطاق أو حيز جغرافي بعينه دون المجال الواسع الذي كانت تشغله الإيالة.

وإذا ظهر لنا جواب ما جنحنا إليه فيما يخص التوزيع الجغرافي أو الخارطة الجغرافية للأزمات الغذائية والمجاعات، فمن الواجب الآن أن ننتقل للحديث عن الخارطة الجغرافية لانتقال الأوبئة خلال نفس المرحلة الزمنية أي: (١٧٠٠-١٨٣٠م)

---

(١) - نبذة من سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، رقم (٥٠٢٢)، [و/ ٢].

وقد يعد الحديث في هذا المطلب مِن باب تجميع الشَّتات المتفرِّق أو المعلومات المتناثرة في أنحاء شتّى مِن هذه الدِّراسة، والغرض الرئيس مِن وضعه هو تسهيل الوصول إلى المعلومة مباشرة، وإلاَّ فإنَّ ما يقال في هذا المبحث قد نقف عليه في مواطن أخرى لكنّه في الغالب يكون متداخلا غير منتظم في إطار واحد، لذا آثارنا أن نُخصِّص هذا الموضوع أي (حركة انتقال الأوبئة والمجاعات في الجزائر) وهو بدوره ينقسم إلى قسمين حركة انتقال العدوى المباشرة أو (العدوى في نطاقها الضيق) والقسم الثاني حركة انتشار الوباء في النطاق الكبير أي الانتشار الجغرافي ما بين المدن والقرى.

لكن قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نشير إلى نقطة مهمة تتمثَّل في تأثير الجغرافيا في مسارات التَّاريخ بصفة عامة، ومسارات الأوبئة بصفة خاصة، إذ نجد بعض بذور الملاريا استوطنت المستنقعات وأماكن تجمُّع المياه كسهل متيجة مثلاً الذي عدَّه «حمدان خوجة» منطقة وبائية ودعم هذا القول أكثر «بروديل» بحديثه عن محاولات استصلاح هذا السهل التي امتدت لقرون، ما يشير إلى أهمية الجغرافيا في وجود الأوبئة من جهة. فكثيرا ما أسهمت الرطوبة التي تكون ناجمة عن تمركز جغرافي مُعين في توطُّن بعض الأوبئة وتفشي بعضها الآخر، وكما ذكرنا في المدخل عن الحديث عن المفاهيم المختلفة للأوبئة وإشكالية صور الانتقال المختلفة من وباء إلى آخر فإن أوبئة كالكوليرا مثلا استفادت كثيرا مِن الوديان التي كانت تجري في سهل متيجة، بل وجعلت انتقال الأوبئة يكون سهلاً ويسيراً أكثر من مرة بسبب ما توفره من عوامل مساعدة على توطن الوباء كالرطوبة واعتدال درجة الحرارة وتوفر المستنقعات المائية التي توجد بدورها

البعوض وغيره من الحشرات التي تسهم في نقل بعض الأوبئة ضمن هذا الحيز الجغرافي، كما أن سهولة التحرك والتنقل الدائم للكائنات الحية ضمن النطق السهل سيكون بدوره إحدى العوامل المسهلة لعملية الانتشار والتفشي التي تسعى لها الأوبئة، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت البليدة بالرغم من عدم حيازتها لميناء مهم للحركية التجارية والاحتكاك المباشر الخارجي أحدَ بؤر التوتر الوبائي الدائم.

كما نتحدَّث من جهة ثانية عن كون المجاعات كانت مُؤثِّراً بشكل مباشر في انتشار الأوبئة مستندة على الجغرافيا بشكل كبير، إذ أنَّ حدوث الأوبئة كان يؤدي إلى هجرات سُكانية إلى المدن بحثا عما يمكِّنهم مِن سد رمقهم[1]، وعليه ينعكس ذلك في إطار اختلالات سكانية عبر التاريخ البطيء كثيرا ما انتهت بمأسسة جديدة للتوزيع السكني كما تتجلَّى التَّأثيرات الكبرى لهذه الهجرات السكانية إذا تزامنت مع الموجات الوبائية ما كان ينجم عنها توسع النِّطاق الجغرافي للأوبئة أكثر مِن مرَّة بفعل هذه الحركات، وقد بيَّنا هذا في المبحث الخاص بالخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة والمجاعات.

كما لا يمكننا بأي حال أن نلج صلب انتقال الأوبئة مِن حيز إلى آخر دون أن نتكلَّم عن العوامل الرئيسة في ذلك، ولعلَّ مِن أهمها الطبيعة الجغرافية لإيالة الجزائر، إذ أنَّ الجغرافيا صنعت فعلا تاريخ هذه الأوبئة، ففي نفس الوقت الذي

---

(1) -Fernand Braudel: la méditerranée et le monde méditerranéen, Éditeur: Armand Colin, Paris, 1966, Tome 1, P36.

أتاحت فيه للسُّكان في الجبال والصَّحاري البعيدة التَّحصُّن جعلت مِن المدن السَّاحلية أو السَّهلية القريبة منها مواطن استقرار وهجمات متكرِّرة للأوبئة وقد سبق لنا التَّحدُّث عن ذلك في مبحث الخارطة الجغرافية بما يغنينا عن اجترارِه هنا، لكن هذا لا يمنعنا أن نتساءل عما إن كان للبحر وطرقه يد كبير في انتقال الأوبئة فعلا، ثمَّ هل يُعد القرب والبعد عنه أحد معايير التَّحصُّن والسَّلامة؟ ثمَّ ما هي السُّبل التي سلكتها الأوبئة في عمليات انتقالها؟

وإذ كان الحديث عن الأهمية التي لعبها الدور الجغرافي كما سبق فعلا حُكما مُتيقِّناً فإنَّ وجود ساحل مُمتدٍ مِن الشَّرق إلى الغرب في انسيابية على امتداد (١٢٠٠كلم) يعد بحقّ أحد العوامل التي استفادتها الأوبئة بشكل كبير، وهذا مما يَقرُب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فالسُّبل الطَّبيعية التِّي استفادت منها الأوبئة في حركيتها بداية ثم انتهاءً كانت لها نفس المسارات تقريبا، فتتبعنا لها مِن مصدرها الخارجي وكيفية ولوج معظمها ثمَّ انتقالها مِن النِّطاق الخارجي الذي تموضعت فيه وانطلقت منه إلى المجال الدَّاخلي الذي تفشت فيه.

إنّ الحديث في بداية هذا المبحث عن الجغرافيا ليس من فضول الحديث كما قد يُتصوَّر، بل هو مِن صلب الموضوع، إذ أنَّ الأوبئة في انتقالها استغلت أموراً أساسية هي: «البحر، الميناء، السفينة».

وهذه الثلاثية لا يمكنها أن تكون بدون الجغرافيا التي كانت فيها الإيالة، لذا فإن تتبعنا لمسارات الأوبئة هو ما مكننا من القول أنَّ الأخيرة جعلت من الثلاثية السَّالفة بحق البنية التَّحتية التي اعتمدتها في حركيتها إلى الإيالة أو غيرها. وهي ما أوجدت نقاطا للتّقاطع المستمر بين المدن والداخل.

ونبدأ في تحليل هذه الثلاثية حتى نصل إلى ما نبتغيه، وأولها البحر؛ فوجود الإيالة ضمن البلدان والممالك المطلَّة على المتوسط جعلها تعيش حياة المتوسط، وتتأثر بالمؤثرات التي تسري في المتوسط، وكون أنَّ البحر المتوسط عبارة عن بحر مُغلق لم تجعل منه مساحته الكبيرة أكثر مِن كونه بحرا مغلقا ذا مساحة كبيرة، خاصة إذا علمنا أنَّ المسارات الحقيقية المشغولة في هذا البحر تسحب منه صفته الكبيرة، وتجعل البحر متمحورا حول نقاط مركزية أساسية، وسنتناول هذه النقاط من ناحية تأثيرها في موضوع بحثنا فقط.

فنقف على وجود محاور هي لب الحركة البحرية في المتوسط ككل بالنسبة لإيالة الجزائر على الأقل، يبدأ الخط الأول لهذا المحاور غربا مِن الجزيرة الإيبيرية إلى غاية الإيالة التونسية في خط مستقيم تقريبا، فيما يمتد الخط الثاني من مدينة الجزائر إلى الأناضول، وخط ثالث لا يقل أهمية عن الأولين يمتدُّ أيضا جنوبا من مدينة الجزائر إلى الشمال باتجاه فرنسا.

فأمَّا الخط الذي كان آثاره كبيراً في المسارات التي نتحدَّث عنها فهو مسار الخط البحري الممتد من مدينة الجزائر إلى موانئ مصر مرورا بمواني تونس وطرابلس انتهاءً عند موانئ الإسكندرية.

لكننا لن نتناول كلَّ هذه المسارات بالتَّحليل والتَّصنيف، وإنَّما سنكتفي هنا بذكر الأليات التي استفادت منها الأوبئة في انتقالها عبر هذه المسارات، وهنا سنتوقف عند سؤال مهم وهو ما الذي جعل مسارا ما أو مسارين لهما نفس الدرجة من الحركية يكون أحدهما ناقلا بدرجة خطرة ومؤثراً أساسياً في البنية الثلاثية التي تحدثنا عنها سابقا، بينما يبقى المسار الآخر هامشيا ليس له دور

كبير؟ ثمّ هل كان هذا التَّأثير والدور الذي نقصده أمراً آنيا مُرتبطاً بالأحداث والظروف الموجودة في البحر أو أمر سائر في الزمن مرتبط فعلا بالبحر في حد ذاته وما فرضه على الواقع الجغرافي؟

نعود للحديث عن المسارات البحرية لنقول إنَّه بالنسبة للإيالة ظلَّت هذه المسارات هي الأكثر تحكما في واقعها ومئالات الأمور فيها مثل ما يذكر ذلك بروديل في كلّ ما يخص منطقة البحر المتوسط لا الإيالة فقط[1]، فهذه المسارات قد فرضتها عوامل عدَّة منها العامل الجغرافي كالقرب للإيالة مع منتهيات هذه المسارات البحرية، سواء إسبانيا أو مصر أو فرنسا.

ويبقى الاستثناء الوحيد ممثلاً في المسار المنتهي في الآستانة إذ هي بعيدة مِن الناحية الجغرافية مقارنة مع غيرها مِن ممالك كانت أقرب جغرافيا لإيالة الجزائر كما هو الحال مع الإمارات الإيطالية مثلا، لكنها مع ذلك ظلت قريبة من ناحية التواصل والاحتكاك وهذا الأمر تدخل في إنشائه التاريخ والدين أكثر من الجغرافيا، كما أنَّه من حيث الناحية الأمنية ظلَّ المسار الأكثر أمنا، إذ أنَّ سيطرة الدَّولة العثمانية والأساطيل المحالفة لها على جلّ سواحل جنوب المتوسط جعل مسار السُّفن المتتبع لشواطئها يجعلها في مأمن وإن كانت المسافة النَّاجمة عن ذلك ستتضاعف أكثر من مرَّة، لكن جعل مسارات السُّفن آمنة كانت إحدى الأهداف الرئيسة، في حين أنَّ التَّواصل مع الموانئ والمجالات البرية للدول الأوروبية وعمق المتوسط موقوف على وجود الاتفاقيات والمعاهدات السلمية بين أطراف عدَّة، وهذا لم يكن سائرا على طول المدة الزمنية محل الدراسة، فقراصنة الإمارات

(1) - Ibid. P 30-41.

الإيطالية ظلُّوا في الكثير مِن الأحيان يدينون بالولاء لنشاطاتها القَرصَنِية الخاصة؛ ما يجعل التَّعامل في عمق البحر المتوسط مرتبطٌ بمخاطرَ يُستغنى عنها بسلوك مسارات تسيطر عليها قوى مُحالفة، هذا من النَّاحية الأمن الجغرافي أما مِن النّاحية التاريخية فالارتباط الموجود بين الأطراف ومراكز الحكم جعل الإيالة الجزائرية مُجبرة على ضرورة الالتزام بأمور عدّة سواء منها الرمزية أو التِّجارية مع الباب العالي ما يجعل أفق الحركة ضمن هذا المسار مضمونا ودائما، وأي انقطاع فيه ظل في المخيال الجمعي لدى المجتمع والانكشارية ورياس البحر في أوجاق الجزائر هو رديف لانقطاع في التَّواصل والارتباط الإسلامي بين المسلمين، كما أنَّ ارتباط حكام إيالة الجزائر بالتزكية مِن الباب العالي وحاجتهم الدائمة للشرعية لممارسة نشاطاتهم البحرية في المتوسط جعلهم دائما في حاجة إلى الحفاظ على هذا المسار البحري، كما سيأتي.

أمَّا إن أتينا لتصنيف هذه المسارات مِن حيث الأهمية أو مِن حيث كونها أحد الآليات الفعلية في نقل أو انتقال الأوبئة، فسيأتي بدون أدنى ريب الخط الذي يربط موانئ مدن الإيالة الجزائرية بموانئ مصر مُرُوراً بطبيعة الحال بكل من إيالتي تونس وطرابلس الغرب وانتهاء في بعض الحالات في المغرب الأقصى، فهذا المسار كان أحد المسارات الأكثر تأثيراً في انتقال الأوبئة لاعتبارات عديدة؛ فمن جهة فهذا المسار هو مسلك تجاري نشيط خلال تلك المرحلة[1]، ومِن جهة

---

[1] رشيد حفيان: **الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين ١١-١٢هـ/ ١٧-١٨مـ**، رسالة ماجيستير، في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، ٢٠١٤، ص ١٤.

أخرى كان مسلكا لنقل المسافرين خاصة من الحجاج، إذ كثيراً ما كان المسار الأكثر نشاطا بحكم الانتقال الدوري والمنتظم للسُّفن الواردة مِن هناك وتحمل الحُجَّاج الجزائريين والمغاربة ذهابا أو إيابا.

في حين يأتي المسار الثالث مِن حيث الأهمية في التَّواصل ونقل الأوبئة وهو المسار الذي يربط إيالة الجزائر بالمملكة الفرنسية، ويأتي هذا المسار في المرتبة الثانية ضمن المسارات الأكثر أهمية بسبب الحركية الدائمة فيه، إذ أنَّ معاهدات الصلح والتعاون التي كانت بين البلدين ضمنت إلى حد ما للسفن التجارية المتنقلة بين الطرفين الحد الأدنى من الأمن الذي يسمح بتطوير التجارة بين الطرفين، فنجد خصوصا في القرن الثامن عشر هذا المسار يصبح شريانا في نقل القمح والشعير من الجنوب إلى الشمال ونقل الخشب والسواري من الشمال باتجاه الجنوب.

وهذه المسارات البحرية تربطنا لا إراديا بثاني الأركان الثلاثية التي ذكرناها آنفا أي: الميناء، فوجود موانئ كبيرة ومشهورة منذ القدم ساعد في تواصل آلية التفاعل المستمر بين هذه الموانئ فهي نقاط التقاء البر بالبحر، وهذه المرافئ ليست وليدة القرن السادس عشر أو السابع عشر، بل تعود إلى حركة السُّفن الفينيقية القديمة، التي جعلت هذه الموانئ بمثابة مضخات تواصلية، وتمأسست حولها مجموعة من المدن التجارية والنقاط الالتقائية التي كانت أساسا في كل الحركات كما سيأتي.

فموانئ القسطنطينية وأزمير والأناضول ظلت بالنسبة للسُّفن الجزائرية نقاطا أساسية في رحلاتها البحرية، سواء للتَّوقف لأجل الاستراحة وأخذ المؤن أو مِن

أجل التَّجنيد العسكري لصالح أوجاق الجزائر أو من أجل التزود بالآلة الحربية وهو ما ظل مستمرا من النصف الثاني للقرن السادس عشر كما تبيِّنه وثائق الأرشيف العثماني[1]، أو مِن أجل التَّزود ببعض المواد التجارية أو لأجل مراسيم التعين التي أَلزمتْ الإيالة بأخذ رموز الولاية كلّ مرحلة جديدة للحفاظ على العلاقة والارتباط الروحي بين الطرفين. وظلت هذه العلاقات محافظة على خصوصيتها -مع بعض الفتور في بعض المراحل التاريخية- إلى غاية الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر سنة (١٨٣٠مـ).

كما أنَّ موانئ مِصر ظلت ذات أهمية كبيرة لإيالة الجزائر وساكنتها، فقد اعتُبرت البَّوابة الأساسية التي يعبر مِن خلالها الحُجَّاج الجزائريون إلى «البقاع المقدَّسة»، لذا ظلت الحركة التنقلية بين المركز الممثل في «مكة المكرَّمة والمدينة النبوية» والأطراف الممثلة في الإيالات الشمال إفريقية، مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالحركة إلى ميناء «الإسكندرية» ومن خلالها إلى موانئ «جدَّة» وعليه كانت موانئ مصر وميناء الإسكندرية تحديدا معبرا مهما تلتقي فيه جموع الحجاج.

أمَّا بالنِّسبة إلى الموانئ الفرنسية فقد كان الارتباط بينها وبين موانئ الإيالة الجزائرية ارتباطا تجاريا خالصا، إذ كثيرا ما كانت الإيالة الجزائرية بمثابة مصدر أساسي للاحتياجات الفرنسية مِن القمح والشعير إضافة إلى المرجان، بينما كانت الإيالة في حاجة إلى الصواري والأخشاب والصابون والبن والبارود وغيرها مِن

---

(1)- B.O.A, M.A.D: K.K, N° 62, s 296.

أمور منشؤها المملكة الفرنسية[1]، مثل ما أنَّ تبادل الأسرى بدوره بين الطَّرفين كان أحد المبادلات الحيوية، وهو ما جعل الارتباط يكون دائما وثيقا بين تُجار البلدين، وجعل الحركة دائمة بين موانئ المملكتين.

وإذا تقرَّرت أسباب التواصل ووجود إمكانية التواصل ممثلة في الموانئ والمراكز الحيوية توجَّب علينا أن نصرف القول الآن إلى الحديث عن الوسائل الأساسية لمواجهة جغرافية البحر واستغلال القدرات الطبيعية ممثلة في الموانئ، وانتقلنا عليه للحديث عن الوسيلة الأساسية التي اعتمدت كرابط بين الوسائط الطبيعية والبشرية، فالسفن كما هو معلوم عُدَّت كأهم الأدوات التي استعانت بها الأوبئة في التَّنقل مِن حيز جغرافي ما إلى حيز جغرافي آخر،

وإذا تحقَّق ما سبق وجب هنا أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول إنَّ السُّفن هي البوابة الرئيسة التي اعتمدتها الأوبئة للولوج والتنقل من الحيز الخارجي البعيد إلى الحيز الداخلي للإيالة والذي يتمثَّل في المدن السَّاحلية ذات الأنشطة التِّجارية والسياسية.

ولا يُستدلُّ على هذا الأمر بأفضل مِن استنطاق الوثائق الأرشيفية والمصادر التاريخية التي أشارت إلى انتقال الأوبئة مِن مجال إلى آخر، فتتبعنا لانتشار مجموعة مِن الأوبئة يقودنا إلى النتيجة نفسها، إذ نجد ومنذ بداية القرن الثامن عشر جل المصادر تتحدَّث عن انتقال الأوبئة من مجالات جغرافية بعيدة إلى إيالة الجزائر عن طريق السُّفن، فيذكر مثلا على رأس مستويات التأثير المسار البحري

(1) - C. D. A. C. F: le 21 juillet 1725.

الذي سبق ذكره ويربط بين مدينة الجزائر وموانئ الإيالة المصرية، فنجد أنَّ وباء سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) قد ظهر قبل ذلك في مصر ، فيما تذكر بعض المصادر أنّه قد حلَّ بالجزائر تلك السنة قادما من الإسكندرية عن طريق سفينة إنجليزية قدمت محمَّلةً بالسلع(١)، يتكرَّر الأمر مرة أخرى ففي نفس المرحلة التي تتحدث فيها الأخبار عن تفشي الوباء في مصر سنة (١٧٣٩مـ) نقف على وجود الوباء في إيالة الجزائر أشهرا بعد ذلك أي سنة (١٧٤٠مـ/ ١١٥٣هـ) ووقد ذكر أيضا أنَّ هذا الوباء كان نتيجة سفينة وافدة مِن ميناء الإسكندرية(٢)، ولعل الأمر أصبح من المسلمات بحيث أضحى ظهور خبر الوباء في مصر هو تنبيه على قرب ظهوره في إيالة الجزائر، إذ نقف مرة أخرى على وباء جديد يظهر هذه المرّة سنة (١٧٤٣مـ) ويعود أصل هذا الوباء بدوره حسب إحدى الرسائل الأرشيفية إلى سفينة وافدة مِن ميناء «الإسكندرية» وهذا في اليوم الثالث مِن شهر جويلية من سنة (١٧٤٣مـ) وكان قائد هذه السفينة البريطاني «جون جونسم»(٣). ولم يكد هذا الأمر يتغير طوال هذه المرحلة، بل المستغرب أنَّ السلطات الرسمية في إيالة الجزائر ومع تكرر نفس السبل في دخول الأوبئة لم يذكر اتخاذها أي إجراءات خاصة، فنقف على نفس الأمر يتجدَّد أيضا في أوبئة عدة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر، فنجد مثلا الأب «فيشرا» يؤكد أنَّ سبب

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(2) - H.- DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١٣٩ °-142. 17 /07/1743.

الوباء الذي ألم بالجزائر هو سفينة كانت تُقلُّ عدداً مِن الحجَّاج الجزائريين العائدون مِن «مكة المكرمة» عبر إحدى السُّفن التي كانت متواجدة بميناء الإسكندرية، هذه الأخيرة دخلت إلى مدينة عنابة[1] إذ مِن المعلوم أنَّ «صالح باي» حاكم بيلك قسنطينة، كان قد قام -على غير عادة الحكام في تلك المدة- باتِّخاذ العديد مِن الإجراءات الاحترازية للوقوف في وجه تفشي هذا الوباء. خاصة إذا علمنا حسب ما ينقله «مارث كونر» بأنَّ السفينة كانت تحمل مائتان وستة عشر حاجا سقط منهم خمسة وسبعون ضحية قبيل دخوله سواحل مدينة عنابة خلسة[2]. يتجدَّد هذا الحال أيضا مع وباء آخر يلَّم بإيالة الجزائر سنة (١٨١٦مـ) إذ يرى «غيون» أنّ السفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة مِن «الإسكندرية» رست بمدينة عنابة، ومن خلالها تفشى الوباء إلى المناطق الأخرى[3]. فيما يتحدّث «بير بروجر» عن سفينة وافدة إلى ميناء عنابة قادمة من ميناء «الإسكندرية» بتاريخ (٠٩/ ٠٦/ ١٨١٧مـ)[4]، ولعلنا لا نحيد عن الصواب إن قلنا أن سبب كثرة الأوبئة الوافدة عبر مسار البحري الرابط بين مدينة الجزائر أو مدينة عنابة وموانئ مصر خاصة منها الإسكندرية راجع إلى كون الإسكندرية أضحت خلال تلك المرحلة الزمنية نقطة محورية لحركة النقل والتنقل في المنطقة، وتتظافر العديد مِن الأسباب التي جعلت مِن إيالة مصر مصدراً مميز

(1) - Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568).

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P226.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P372.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P232.

للأزمات الصَّحية، فنجد مثلا أنّ الطوفان الموسمي لنهر النيل في صعيد مصر جعل الفلاحين دائما في مواجهة عوامل الحمى والملاريا الموسمية، هذا إضافة طبعا إلى كون ميناء الإسكندرية مُلتقى الطرق التجارية وقوافل الحج، الأمر الذي جعل العديد مِن الباحثين يصنِّف مِصر مثل ما تُصنَّف الهند من حيث درجة ظهور وخطورة الأوبئة، ولهذا جعل نهر «النيل» هو نهر «الغانج» الهندي، ما يجعل مصر إحدى بؤر المُتأصِّل للقلق الوبائي[١] خلال المرحلة الممتدَّة مِن أقدم التاريخ إلى بدايات القرن العشرين.

إلا أن الانتقال الدوري للأوبئة من الحيز والمجال الخارجي إلى المجال الداخلي لم يقتصر على السفن الوافدة عبر المسار البحري الأوَّل من مصر فقط، بل تشاركت فيها المسارات البحرية الأخرى، إذ نقف على العديد من الأوبئة كانت الأناضول هي مركزها ومنها وفدت العدوى إلى إيالة الجزائر، لذا نجد الشريف الزهار يتحدث عن هذا الأمر قائلا:».. وكان الوباء في الجزائر يتسرب غالب الأحيان عن طريق البحر، لذا نجد أول مَن يصاب به هم عمال الموانئ، وبعد ذلك ينتشر في بقية أنحاء البلد..»[٢] وهو الحال فعلا في الكثير من الأوبئة كما سيأتي.

فنجد ملامح الانتقال الوبائي من الأناضول إلى إيالة الجزائر يتجسَّد في أكثر مِن مثال، فنقف عليه مثلا في الوباء الذي اجتاح الجزائر سنة (١٧٨٦مـ) وعُرف

---

(1) -A.N.M: Bulletin de l'Académie nationale de médecine, P46.

(٢) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٧٨.

«بالوباء الكبير» الذي ترجع به المصادر إلى عدد مِن الرَّحالة الوافدين إلى الإيالة مِن الأناضول، وفي هذا يقول «الزَّهار» إنَّه: «...وفي سنة (١٢٠١هـ) جاء الوباء إلى الجزائر، حتَّى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوباء الكبير، قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، وطال الوباء في الجزائر إلى سنة (١٢١١هـ)..»[١]، كما ذكر نفس هذا الوباء «بير بروجر» وجعل آلية انتقاله إلى الإيالة البحارة الوافدون مِن إسطنبول. نفس المسار البحري يكون مَسْؤُولاً مرَّة أخرى عن انتشار الوباء في الجزائر مرَّة جديدة حسبما يشير إليه «غيون» في وباء سنة(١٧٩٢م)؛ إذ يرى أنَّه كان نتيجة وصول عدد مِن البَّحارة الجزائريين الذين كانوا في الأناضول[٢]. يتجدَّد نفس النَّمط الانتقالي للأوبئة مرَّة ثانية في أقل مِن عقد مِن الزَّمن إذ إنَّه وفي سنة (١٢١٢هـ/ ١٧٩٩م) تَفِدُ سفينةٌ تركية تُقلُّ بعض الحُجَّاج وترسو في موانئ بيلك الغرب الجزائري محمَّلة بالوباء، وبعد ذلك بزمن قصير سُمِع خبر تفشي الوباء في مُدن: وهران، تلمسان، ومعسكر. وانتقل بعد ذلك مِن المحيط المغلق لبيلك الغرب الجزائري إلى المغرب الأقصى[٣] والأمر مبسوط بشكل أكبر في الفصل الثاني والمبحث المتعلق بكرونلوجيا الأوبئة بين التَّفشي والانحسار ما يغنينا عن البسط أكثر.

وإذ قد أتينا على ذكر الجُمل مما يتصل بحركة السفن وعلاقاتها بالموانئ

(١) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٧٨.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P٣٥٥ -354.

(3) Ibid. P 360.

والبلدان ضمن مسارات عددنا أهم المسارات بقي لنا أن نتحدَّث عن آخر هذه المسارات البحرية المؤثرة في وجود الأوبئة في الإيالة، إذ لم تقتصر الاحتكاكات التِّجارية والحضارية مع الموانئ الإسلامية ممثلة في الموانئ المصرية والتركية بل تعدَّت إلى مسارات نحو الشَّمال مع محور تجاري هام يربط الجزائر بفرنسا وليفورنو ومرسيليا وغيرها من موانئ الضفة الأوروبية، فنجد إنَّه كثيرا ما أشاد الدبلوماسيون الجزائريون والفرنسيون في مراسلاتهم بطبيعة العلاقة الاقتصادية القوية بين الطرَّفين والتي لم يكن لها من مجال للتنقل إلا عبر البحر، وتَتجلَّى هذه الحركية التجارية الكبيرة في كثرة المبادلات التجارية الاقتصادية بين الطرفين، وهو ما توضحه المراسلات الرسمية بينهما، فنقف مثلا على رسالة مُؤرَّخة في (١٠/ ٠١/ ١٧١١مـ) أرسلت مِن طرف «علي داي» إلى الملك الفرنسي «لويس الرابع عشر»[١] تعكس رضى الطرفان عن مستوى الحركية والنَّشاط التجاري بينهما.

وغالبا ما كان وجود الوباء في فرنسا يعني إلى حدٍّ ما انتقاله إلى الإيالات الموجودة جنوب المتوسط خاصة منها القريبة والمجاورة مثل: الإيالة التونسية، والإيالة الجزائرية، وطرابلس الغرب، وهو ما جرى فعلا سنة (١٧٢٠مـ) عندما انتقل الوباء مِن منطقة الشام إلى فرنسا عن طريق سفينة (le Grand-Saint-Antoine) «سانت أنطوان الكبرى» إلى مدينة مارسيليا[٢]، فقضى بها خلال ثلاثة

(1) - C. D. A. C. F: le 10 janvier 1711.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P-P 298-303.

أشهر فقط على ما يقارب ثمانين ألف ضحية[1]، لينتقل منها بعد ذلك إلى الضِّفة الجنوبية مِن المتوسط، وتحديداً إلى كلّ مِن إيالات «طرابلس الغرب» و«تونس» و«إيالة الجزائر» فظهرت بوادره في نفس السنة تقريبا (١٧٢٠مـ) وبقي يتجدد بعد ذلك لثلاث سنوات تقريبا.

كما يُذكر أنَّ مِن بين الأوبئة التي كان مصدرها ومكان تطورها مدينة مارسيليا الفرنسية وانتقالها إلى موانئ الضفة الجنوبية وباء سنة (١٧٤٠مـ) الذي قضى في فرنسا وحدها على قرابة أربعين ألف ضحية[2] وانتقل بعدها إلى الإيالات العثمانية فنجده يفتك بتونس في نفس السنة ويلج الجزائر ويؤثر عليها بشكل كبير سنة بعد ذلك، لتشهده بعدها مسارات الانتقال من فرنسا إلى إيالة الجزائر انقطاعا دام قرابة سبعين سنة، وهذا الانقطاع مرده الاحتياطات والاحترازات التي أضحت فرنسا تلزم بها سفنها، ولم ترجع التأثيرات المباشرة لانتقال الأوبئة في هذا المسار إلاَّ مع الحملة الفرنسية على الجزائر، وتجدد ظهور وباء الكوليرا مرَّة أخرى سنة (١٨٣٧مـ)[3].

فإذا كان ما مر يقرب على العقل فهمه ويسهل الوقوف على صدقه، فمِن الواجب الآن أن نضيف الأركان التَّي عليها مدار الانتقال في شقِّه البشري، لكن علينا أن ننبه إلى أن الانتقال في هذا الشق يمكن أن نضعه ضمن مجالين أساسييْن،

---

(1) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P19.

(2) - A.N.M: Anné1899, P589.

(3) - Daremberg Georges: op.cit., P07.

المجال التأسيسي، والمجال التوسعي. فإن جئنا إلى تفصيل المجالين قلنا:

المجال التأسيسي: هو المجال الأول الذي يعرفه الوباء بعد دخوله الحيز الجغرافي للإيالة، يضم هذا المجال العناصر المباشرة القريبة من أوَّل تماس بين: الوافد في صورة (الوباء) والماكث في صور متعددة (ككائن الحي، والمجال الجغرافي، المناخ) وقد أطلقنا عليه اسم المجال التأسيسي لكونه حيز ومحيطا يتأسس من خلاله الوباء في أول ظهور له، فهو الذي ينبني عليه نتائج الأوبئة فيما يأتي من نجاحها في التفشي أو انكفائها على ذاتها.

المجال التوسعي: وهو المجال الثاني والهدف الذي يريد الأوبئة أن يحقق فيه الاستبطان بشكل أكبر، يضم هذا المجال المتلقي الداخلي. وغالبا ما يكون المجال التوسعي بعيدا عن مركز الحركة والموانئ لكنه يكون دائما ضمن ارتباط دائم مع المجال التأسيسي، غالبا ما يكون محميا بعدد مِن العوامل الطبيعية مثل: (جغرافية الجبال، والبعد عن مراكز التأسيس،) وعوامل بشرية مثل:(عدم وجود كثافة سكانية عالية). والمجالان يدخلان ضمن الإطار العام للبنى التحتية لحركة انتقال وتوطّن الأوبئة.

نأتي للمجال التأسيسي لحركية الأوبئة فنقول أنه بدوره ينقسم إلى دائرتين أساسيتين: دائرة الانتقال الخاص ودائرة الانتقال العام، وضمن دائرة الانتقال الخاص تتبدى لنا معالم الحركات الأولى التي ينتهجها الوباء في الانتقال، وفي تتبعنا لانتشار الأوبئة كان قد استوقفنا أمر قلنا إنَّنا سنشير إليه بالتَّفصيل هنا، وهو الخطوة الأولى التي اعتمدها الوباء في الانتقال، ألا وهي خاصية أوَّل الفئات ضمن السكان إصابة بالأوبئة، والملاحظة تدلنا على أنَّ مَن تصدَّى لهذه المرتبة غالبا ما

كانوا عمال الموانئ عموما وفئة البساكرة منهم خصوصا، وهنا تستوقفنا ملاحظة معظم الكتابات الغربية من كون أنّ البساكرة كانوا أوّل فئة عرضة للأوبئة في مدينة الجزائر، ومردُّ ذلك أنَّ هذه الفئة اتَّخذت مِن «الحمالة» أي: نقل الأغراض داخل الميناء وخارجه مصدر رزق لها، فنجد الكثير من الأوبئة أوّل مَن تُسقط مِن الضحايا يكونون من هذه الفئة، فمثلا في وباء سنة (١٧٩٣مـ) كانت أولى الضحايا المُصرَّح بها نتيجة لظهور الوباء هم مِن فئة البساكرة[١]، الأمر عينه يتكرَّر في سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧هـ) فيسقط ثلاثة مِن البساكرة مرَّة أخرى ضحايا للوباء في مدينة الجزائر[٢]، وذلك يوم (٢١/ جوان) وقد سقط ثلاثتهم موتى بالميناء[٣]، بعد فترة وجيزة لا تتعدى الأيام القليلة يسقط خمسة مِن البساكرة أيضا موتى نتيجة لنفس الوباء، بعدها بأيام يسقط أربعة بساكرة ضحايا اثنان منهم داخل أسوار المدينة ما يوحي بانتقال الوباء في قادم الأيام إلى داخل المدينة، فينتبه «عمر داي» لذلك ويرسل أطباءً للتَّحقق مِن الأمر؛ ويتضح لهؤلاء الأطباء أن الأعراض على الجثث هي نفسها ويعلنون للداي أنَّ هذا وباء جديد فعلا يستبيح ضحاياه من البساكرة، ثمَّ بعد فترة قصيرة في العشرين مِن الشَّهر نفسه (٢٠/ جولية ١٨١٧مـ) نجد أنَّ مِن بين ٢٠ ضحية للوباء سبعة ضحايا مِن البساكرة[٤]، لكن هل كان البساكرة في منأى عن غيرهم؟ ألم يحتكوا بغيرهم ومن هي الفئة التي سيتواصلون

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, PP 232.

(2) - Ibid.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit.,٣٧ 2.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP٣٧.3, ٣٧،4.

معها بشكل كبير؟

في هذه الحالة الأحرى بنا أن نعود لدراسة مراحل انتقال السلع من الميناء إلى التجار، فنقف على أنَّ الفئة الثانية بعد البساكرة التي تكون في احتكاك دائم معهم بسبب التعاملات التجارية كانت في الغالب من فئة اليهود؛ إذ كانت هذه الفئة هي الزُّمرة المُتحكمة في التَّعاملات التِّجارية الأساسية، وهذا الأمر جعل فئة اليهود تكون هي الفئة الثانية التي ينتقل إليها الوباء، مِن حيث خطر الإصابة بالوباء، فهذه الفئة هي الأكثر تماساً مِن النَّاحية التِّجارية مع مختلف الفئات في المدينة، وعليه فهي الفئة الأكثر قُرباً مِن مُختلف العمال في مرسى مدينة الجزائر وغيره من أماكن؛ الأمر الذي يجعلهم في بعض الأحيان أحد النَّواقل الأساسية للعدوى خاصة ونحن نعلم من خلال العديد مِن الشَّواهد أنّ الوباء كان ينتقل في الكثير من الأحيان عن طريق اللمس وحينها يكون الناقل والمتلقي في صحَّة جيدة[1]، فلا ينتبه الطَّرفان لذلك، ونحن بالفعل إن تتبعنا الأوبئة التي كانت موجودة خلال تلك المرحلة ، بل إن عدنا إلى نفس الوباء الذي كنا بصدد الحديث عنه أي وباء سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧هـ) سنجد إنَّه مباشرة بعد الإصابات التي تتحدّث عنها المراجع في صفوف البساكرة نجده ينتقل إلى فئة اليهود، إذ مباشرة بعد التّأكد مِن وجود الوباء وظهور أعراضه على تسعة جثث وجثة واحدة لضحية من الحضر، نجد أنّه قد وُجِدت جثتان ليهود تحمل نفس أعراض الوباء، ثمَّ بعد فترة قصيرة تبيَّن أنَّ أكثر مِن ستين يهوديا كانوا يعانون المرض بسبب وباء (١٢٣٢هـ /

(1) - M Faroux: M.C.M, P 75.

١٨١٧هـ)، أياما بعد ذلك سقط في مدينة الجزائر يوم (٢٧/ جوان ١٨١٧هـ) (٤٥) خمسة وأربعون ضحية من بينهم (١٠) عشرة مِن اليهود[1].

كما أنَّ قيام بعض اليهود بالمخاطرة في الأعمال المتعلقة بجثث المرضى – سيأتي تفصيله عند الحديث عن الانعكاسات الاقتصادية- سيؤدي بدون شك إلى توسيع دائرة احتكاهم المباشر بالمرض، ما سيزيد حتما مِن إمكانيات انتقال المرض إليهم أوَّلاً ثمَّ انصرافه إلى غيرهم ثانيا، وقد أوردنا دائرة نسبية تعيِّن نسبة الضحايا حسب الفئات، فكان أن احتلت فئة اليهود المرتبة الثانية بنسبة ضحايا المصابين بذلك الوباء إذ كانت تناهز تقريبا (٪١٠) من مُجمل نسبة الضحايا[2]؛ وهو ما يؤكد أهمية هذه الفئة في عملية نقل العدوى إلى القريبين منها والمحيطين بها.

والنسبة المرتفعة من عدد الضحايا اليهود في غالب الأوبئة جعلتهم يسعون للنأي بأنفسهم عن المجالات التي ينتشر فيها الوباء، وهو ما يبرِّر تفضيل العديد من اليهود الخروج من المُدن الحضرية الكبرى أثناء ظهور الأوبئة، بل ويتضح مدى استيعاب كبار اليهود لخطر التجارة العادية في تلك الأيام بقيام أحبارهم بسن قوانين تحضُر على اليهود شراء وبيع ملابس الموتى من ضحايا الأوبئة خوفاً مِن انتقال الأوبئة إليهم[3].

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P٣٧.4

(٢) – راجع المطلب الخاص بكرونلوجيا ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة.

(3) -Lucette Valensi: op.cit. ،document 6.

فيما ذهبت بعض التَّقارير بأنَّ الطَّاعون لا ينتقل عَن طريق الملابس إذ لوحظ أنّ الملابس التي كانت تستعملها الكثير مِن النِّساء لم تقم بنقل الطَّاعون إلى غيرهن على غير المتوقع، مع أنَّ النساء اللاّتي بيعت ملابسهن كن بدورهن مُصابات بالطَّاعون[1] ومرد هذا الخلاف وحسمه يعود لطبيعة الوباء التي تختلف من مرة لأخرى.

دائما في إطار مجال التأسيس وضمن دائرة الانتقال العام وجبت الإشارة إلى أنَّ الوباء في الكثير مِن الأحيان ظل ينتقل ضمن مجالات تكاد تكون مغلقة، كما هو الحال بين أفراد العائلة الواحدة، إذ لا ينتقل إلى الفرد الأول حتَّى يكاد يقضي على العائلة كلها، وهو ما حدث فعلا مع العديد من العائلات الكبرى التي تسمَّى الوباء باسمها نظرا لما خلفه بين أفرادها أو لأنه قضى عليها بالكلية، فهذا وباء «حبحوبة المجاد» الذي ضرب الجزائر سنة (١٧٨٦مـ)[2] يذكر ولسون أنه أباد كلَّ أفراد عائلة المجاد فَسُمِّيَ باسم العائلة، الأمر نفسه نجده في وباء آخر سنة (١٧٩٤مـ) سمي بـ«حبحوبة عثمان» لإنَّه قضى على عدد كبير من أفرادها، ومن الأمثلة التي تصور الحالات التي نتحدَّث عنها ما حدث مع عائلة «بن شمعون» اليهودية، إذ نجد أنّ الوباء كان ينتقل بين أفراد العائلة الواحدة ولينتهي بكل أفراد العائلة إلى نفس الأمر، بحيث أصيب في هذه العائلة مثلا بداية الشاب «صموئيل» فتوفي ثمّ أدركه أخوه فتوفي أيضا في نفس المرحلة ، لتعيش الأخت «لينة» فترة

(1) -Clot Antoine-Barthélémy: op.cit., P17.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190,

قصيرة بعدهما تحاول مواجهة المرض لكنها تموت أيضا نتيجة نفس الوباء، وتقضي لاحقا معظم العائلة بسبب هذا الوباء، وتوجد عائلة أخرى يهودية أيضا عاشت نفس المسار هي عائلة (*Sanguinetli*) «صونغولتلي» فقدت أكثر من ثمانية أفراد من العائلة الكبيرة[1].

وهذا يدلُّنا على أنَّ إمكانية الانتقال الوبائي داخل العائلة الواحدة تكون أكبر بكثير مِن أن يفد الوباء مباشرة من خارج العائلة، فاستخدام أفراد العائلة الواحدة لنفس الوسائل التي كان يستخدمها المصاب بالعدوى وبالأخص استغلال الملابس الخاصة بالمريض بدون تطهيرها أو الاهتمام بتعقيمها كانت أحد أسباب انتقال العدوى مِن المرضى إلى الأصحاء، ولهذا نجد الأب «فيشرا» يتأسَّف على مواصلة الأهالي استعمال الأغراض الشخصية للمرضى: كسرير المريض أو ملابسه وفي أحسن الحالات يقومون ببيع ملابس المرضى أو إهدائها؛ وهو ما ينجم عنه بطريقة تلقائية تفشي الوباء كما يؤكده المختصون في الأمراض المعدية[2]، وعليه ظهور النتائج عكسية شديدة التَّأثير في انتقال الوباء وامتداد تأثيره، ويساق في هذا الشأن العديد من الأمثلة عن انتقال المرض من الموتى إلى الأصحاء بفعل استخدام أغراضهم الشخصية كالملابس التي ورثوها عنهم أو الأدوات التي خلَّفوها، ويُذكر في هذا المقام قصة ذلك الابن الذي شرع في بيع ملابس أبيه المتوفي مباشرة بعد دفنه، واستخدم ما لم يستطع بيعه من سراويل بدون

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P٤. 03, 404.

(2) - Crouzet Stanislas: op.cit., P20.

أدنى حيطة أو اتخاذ مسببات الحذر ما نجم عنه انتقال خبر إصابته بنفس الوباء[1].

ثمّ تأتي مِن حيث الفئات الناقلة للوباء أيضا فئة الخدم والحشم داخل القصور، إذ كثيرا ما نقف على حالات كانت الإصابة الأولية بها في صفوف الخدم وانتقلت بعدها للسَّادة أو استطاع السَّادة اكتشاف الأمر والحيطة منه قبل لحاقه بهم، ومِن أشهر الحالات التي قضى فيها الخدم على السَّادة بنقلهم الوباء إليهم حالة زوجة «الدَّاي عمر باشا» التي سقطت متوفاة في القصر مباشرة بعد سقوط إحدى خدم المقيمين في المنزل ضحايا لهذا الوباء في (٢٥/ فيفري ١٨١٨مـ) ولم يتوقف انتقال المرض مِن الخادم إلى زوجة الداي فقط بل انتقل مِن الزَّوجة المُتوفَّاة إلى الدَّاي عمر باشا نفسه، فسقط في الفاتح مِن شهر(مارس/ ١٨١٨) ميتا[2]. نفس الأمر يحدث مرّة ثانية حينما يُصاب ثلاثةٌ مِن عمال حدائق قصر الداي بالطّاعون فيسقطون ضحية لهذا الطاعون (٢٠/ ١٠/ ١٨١٨مـ)[3] ثم يدرك ذلك عدد من كبار المقربين إلى الداي، لكنه نجح في أن ينأى بنفسه عن هذا المصاب.

ومن ضمن الإطارات أو الدوائر العامة لانتقال الأوبئة ما نجده من الاحتكاكات الطبيعية الناشئة داخل المعاملات اليومية الروتينية بين الساكنة داخل المجال التأسيسي والمجال التَّوسعي في آن واحد، إذ نقف على العديد من صور

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P139.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P381.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P٣٨.6

انتقال الأوبئة داخل المجالين في التجمعات العامة التي كانت تضم الساكنة مثل المقاهي والأسواق والاحتفالات والأعياد وحتى الجنائز والحمامات، ويتضح هذا الاحتكاك بدلائل عكسية، أو بشواهد عن محاولة الساكنة ممَّن يحوزون على قدر من الثقافة الصِّحية على الابتعاد عن أماكن الاحتكاكات الروتينية المساهمة في انتقال الأوبئة، وهو ما نستجليه من تصرفات قناصل الدول الغربية الذين كانوا يتجنبون مراسيم الأعياد والاحتفالات والمناسبات إذا تصادفت مع انتشار الأوبئة محاولين أن ينأوا بأنفسهم عن ذلك، مثل ما حدث في عيد الفطر لسنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧مـ) عندما غاب القنصل الفرنسي دفال (Deval) من الاحتفالية الرسمية لعيد الفطر[1]؛ بسبب اعتباره الأمر محلاً للاحتكاك المؤدي إلى انتقال الأوبئة خاصة وأن هذه الاحتفالات يشهدها جموع من العرب واليهود، كما حاول بعض قناصل الدول الأوروبية أن لا يتعرّضوا لمسار انتقال الأوبئة المعلوم في هذه التَّجمعات لكنهم في نفس الوقت كان يخافون أن يكون عدم حضورهم للاحتفالات سبباً في تدهور العلاقات الدبلوماسية؛ فتفطَّن بعض القناصل إلى خدعة بتقديم أو تأخير التهنئة بالعيد في قصر الداي ليوم أو يومين عن الاحتفال الرسمي ما يتيح وجود عدد أقل مِن النَّاس وهو ما طبقه بالفعل عدد من القناصل في عيد الفطر الذي كان سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨مـ)[2]. كما نقف على تصريح لأحد وجهاء الجزائر «حمدان خوجة» يصف فيها محاولاته الابتعاد عن السُّبل التي

(1) - Jean Marchika:op.cit., P157.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P,P 375,385.

يسلكها الوباء في انتقاله بين النّاس بتجنب الذهاب إلى الأماكن العامة مثل: الحمامات المقاهي وحتّى الجنائز، لذا نجده يصف الأمر الموجود في إيالة الجزائر خلال تواجد الأوبئة بنوع من الأسى، فنجده يلتزم بيته ويتجنب الاحتكاك بالنَّاس، ولا يخرج إلاَّ لضرورة ما، مثل ما لمَّح بالتزامه الابتعاد عن الأماكن التي يجتمع بها النَّاس وعدم لمسه الأشياء التي تعلَّق بها الأمراض[١]. وهو عكس ما كان منتشراً بين العامة مِن النَّاس، إذ لم يكن يذكر خبر وفاة أحد النَّاس بالطَّاعون إلَّا واجتمع عليه عدد كبيرٌ مِن النَّاس لتشيعه وهو ما يرفع إمكانية الإصابة بالعدوى وانتقالها مِن شخص إلى آخر[٢]. وبهذا نكون قد استوفينا المجال التأسيسي في حيزيه الخاص والعام.

وإذا تمَّ لنا الغرض مِن استعراض ما تعاهدنا عليه من تسمية في القسم الأول، وإذا تحقَّق ما له مِن سبيل في المجال التأسيسي الأوَّل بدائرتيه العامة والخاصة انتقلنا بعد ذلك للحديث عن المجال التَّوسعي، وهو المجال الذي شغلته الأوبئة مِن أجل التَّوسع لكن قبل أن نستعرض ما نرومه ضمن هذا المجال وجب أن ننبه أن هذا المجال ينقسم بدوره بين: مسار وهدف. فالمسارات هي طرق الانتقال الوبائي وأما الأهداف فهي مستقرات الانتقال الوبائي أو بالأحرى أماكن التَّوطن الوبائي. وهو ما توضحه الخريطة المرفقة عن طبيعة المجالات التي شغلتها

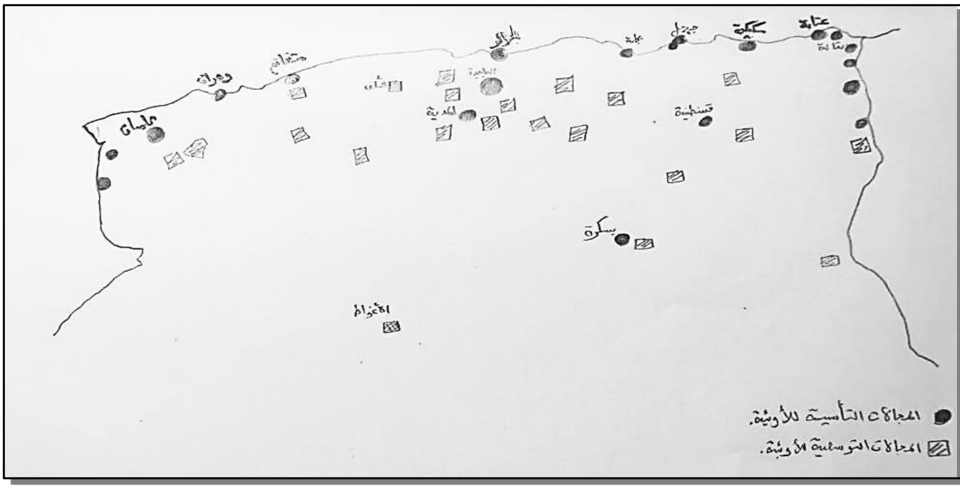
---

(١) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص ٣٢.

(2) - Jean Alasia ; Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne .Dans M.C.M, P٤٥.0

الأوبئة، بين ما هو مجال تأسيسي للأوبئة وما هو مجالٌ توسعي.

٢- خارطة توضح أماكن توزع الأوبئة حسب طبيعة المجالات الذي شغلته[١]



وإذا عُرف ما سبق شرعنا في الحديث عن المسارات فنقول إنَّها تلك السُّبل البرية التي سلكتها الأوبئة وانتقلت عبرها إلى هدفها الأساسي، وهي داخلية وخارجية، أما الخارجية فتكاد معظم التقارير تؤكد بإنَّها كانت تنتقل من الشرق إلى الغرب، فتظهر غالبا في مصر وتنتقل منها إلى طرابلس الغرب ثمَّ تنقسم هناك بين مَا تتَّجه إلى الإيالة الجزائرية مباشرة ومن تدخل إلى إيالة التونسية ومنها تلج الإيالة

---

(١) - أنجزنا هذه الخارطة بناء على عدد من المصادر والرحلات التي كانت تذكر أماكن تواجد الأوبئة وبالأخص المصادر التالية:

- Adrien Berbrugger: **Mémoire sur la peste en Algérie**
- Guyon: **Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique**
- Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**

الجزائرية عبر مسارات عِدَّة باتجاه عنابة وقسنطينة؛ ومن هذه الأوبئة مَا يكمل مساراته إذا كان قويا بالفعل باتجاه المغرب الأقصى[1]، هذا فيما يخصّ المسار البري الخارجي، وقد فصَّلنا الحديث فيه في المبحث المتعلق بركب الحجّ ما يغنينا عن تكرار تفاصيله هنا

أمَّا من ناحية المسارات البرية الدَّاخلية التي سلكتها الأوبئة فنجدها تعتمد على محور بري يمتدَّ عبر مسار (طبرقة - قسنطينة) مُخترقاً بعض المُدن السَّاحلية كالقالة وعنابة، فيكاد يكون الطريق التِّجاري هو الطريق الموازي لانتقال هذه الأوبئة مِن تونس إلى الجزائر أو العكس، ويتجلَّى هذا الأمر في أنَّ العديد مِن الأوبئة قد سلكت هذا المسار للوصول إلى أهدافها -وهذا راجع بالأساس إلى النشاط التجاري الذي كان يربط بين مدن هذا المسار كما سيأتي- ومِن الأمثلة على ذلك: الوباء الذي ألَمَّ بالإيالة التُّونسية سنة (١٧٨٤مـ) وقضى بها على ما يقارب الثلاث مائة ألف شخص (٣٠٠,٠٠٠) خلال تلك السنة والتي تلتها[2]، وجد الوباء طريقه إلى الانتقال عبر المحور المذكور إلى مدينة القالة وثمَّ إلى مدينة عنابة فسكيكدة[3]، وعليه أضحى ينتشر في حيز جغرافي معتبر يغطي مُعظم بيلك الشرق -وهو ما يقع ضمن ما اصطلحنا عليه «الأهداف» التي سنتحدث عنها لاحقا- كما أننا نقف على طريق آخر لانتقال الأوبئة وهو الطريق الرابط بين

(1) -A.I.P.A: 1924- N°3. P312

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P 226.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P, P343.

المركز في بيلك الشرق والمركز في الإيالة ككل أي بدار السُّلطان، فنجد أنَّه كثيراً ما جُعل هذا المسار طريقا حيويا في نقل الأوبئة التي ظهرت في عاصمة الإيالة إلى أطرافها، مثل ما هو الحال مثلا في وباء سنة (١٧٩٣مـ) والذي تسرَّب من مدينة الجزائر سنة (١٧٩٣مـ) إلى مدينة قسنطينة أثناء الزيارة الروتينية التي يقوم بها البايات لأجل دفع الدنوش[1]. وهو الطريق أو المسار الذي كان يطلق عليه «السلطاني»[2] وما ذكرناه في هذا المقام هو المسار الشرقي له فقط. وتأكد الانتقال الوبائي عبر هذا المسار في هذه الحالة وتأريخها يعني بالضرورة أنَّ الطريق كان سالكا لانتقال الأوبئة مِن مجال إلى آخر بشكل سلس عبر هذا المسار خاصة وأن هذا الطريق كان يتوفر على مزيا الأمن والاستقرار الذي كانت توفره السلطة الحاكمة.

نقف على مسار آخر لا يقل أهمية عن مسار قسنطينة مدينة الجزائر، وهو يتفرع بدوره من قسنطينة ولا يقل أهمية عن المسار الأول، وذلك أنَّ هذا المسار يربط بين مدينة الجزائر ومُدن الزاب الجزائري، وتحديدا يمتد من دار السُّلطان إلى مدينة بسكرة، إذ أنَّ وجود عدد مِن العمال الذين يشتغلون في مدينة الجزائر في نقل البضائع «الحمالة» وظهور عدد مِن الأوبئة في بسكرة أثناء فرار البساكرة مِن

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P142.

(٢) للمزيد من التفصيل راجع:

- رشيد حفيان: **الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين ١١-١٢هـ/ ١٧-١٨مـ**، رسالة ماجيستير، في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، ٢٠١٤. ص ١٤-١٨.

الطاعون في العاصمة إلى مدنهم الداخلية يؤكد أن الوباء قد اتخذ بالفعل هذا المسار كأحد المسارات الهامة باتجاه نقل الوباء من الجهات الساحلية في الشمال إلى الجهات الداخلية في الجنوب، كما حدث مع وباء سنة (١٧٨٩مـ) الذي ضرب مدينة بسكرة بقسوة، وعاد ليتجدّد سالكا نفس المسار سنة (١٧٩٢مـ)[١]. ووباء ثالث أيضا لا يُستبعد أن يكون قد تعاهد نفس الطريق المذكور فيظهر سنة (١٧٩٨مـ) ويمتد مِن مدينة الجزائر إلى بسكرة ومنها إلى جلّ مناطق صحراء الزيبان[٢]، وهذه الصحراء في حد ذاتها كانت أحد الأهداف التي كان يسطرها الوباء فعليا لأجل بلوغ مدن الجنوب كما سيأتي.

إضافة للمسارين السابقين نقف على مسار آخر هو المسار الغربي، والذي يخرج عادة مِن باب عزون بمدينة الجزائر باتجاه الغرب ماراً مدينة البليدة فإما أن يسلك الطريق الجنوبي باتجاه المدية ثم يكمل المسار إلى الصحراء باتجاه الأغواط أو يسلك مساره باتجاه مدينة معسكر ومنها إما شمالا باتجاه مستغانم أو يتوغل أكثر غربا باتجاه مدينة تلمسان وبلعباس ومن خلالها إلى مغنية فمدينة وجدة بالمغرب الأقصى، وهذا المسار بدوره يدخل ضمن الطريق السلطاني الذي سبق الحديث عنه، وقد سلكت العديد من الأوبئة هذا المسار في عملية الانتقال والتفشي، فنرصد هذا الأمر مثلا في الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (١٧٤٠مـ-١٧٤٣مـ) والذي تفشي بشكل كبير خلال سنة (١٧٤٣مـ) في بيلك الغرب بعدما

(1) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P149.

كان قد تفشى قبل هذه السنة بشكل كبير في كل من دار السلطان ومدينة قسنطينة، ليأتي الدور على مدن الغرب الجزائري، وتذكر بعض المصادر أنّ عدد ضحاياه كان يتراوح ما بين (١٢-١٠) يوميا[1]، وبقي نشطاً إلى الأسبوع الأوَّل مِن شهر أغسطس من سنة (١٧٤٣مـ)[2]، وقد أكدت عدد مِن الوثائق أنَّ معظم المُدن التي كانت على خط هذا المسار قد تفشى فيها الوباء، وبالأخص مُدن: مُستغانم ومعسكر وتلمسان. وهو ما نجده يتكرر مرة أخرى فيما يعرف بـ«حبحوبه المجاد» التي انتقلت إلى بيلك الغرب الجزائري بدورها سنة (١٧٨٦مـ) وكان لها أثرا كبيرا في الجانب الديموغرافي للمنطقة كما سيأتي.

كما لا يفوتنا أيضا أن نتحدَّث عن وجود بعض المسارات العشوائية التي كانت تنتقل فيها الأوبئة عن طريق حركة أشخاص بعينهم أكثر ممَّا هي حركة مُستمرّة ومُتتابعة، فيجعل المسارات كثيرة ومتعددة، لكن الأكثر ارتباط بما نريد نحن في هذا المقام لا تخرج كثيراً عمَّا وضَّحنا فيما سبق، لذا فنحن جديرُين بالقول أنَّ التنقل الوبائي كانت تحكمه طُرق بعينها لعل أبرزها الطريق السُّلطاني ومسالكه المختلفة التي استعرضناها فيما سبق.

والملاحظ على هذه الطُّرق أنّ غالبها تجتنب المسار الجبلي، وهذا لأمرين: أولهما: صعوبة هذه المسالك طبيعيا، وثانيهما: عدم توفر أمن يظاهي ذلك الموجود على المسارات المذكورة، لذا نجد أن المناطق الجبلية ظلت في الكثير

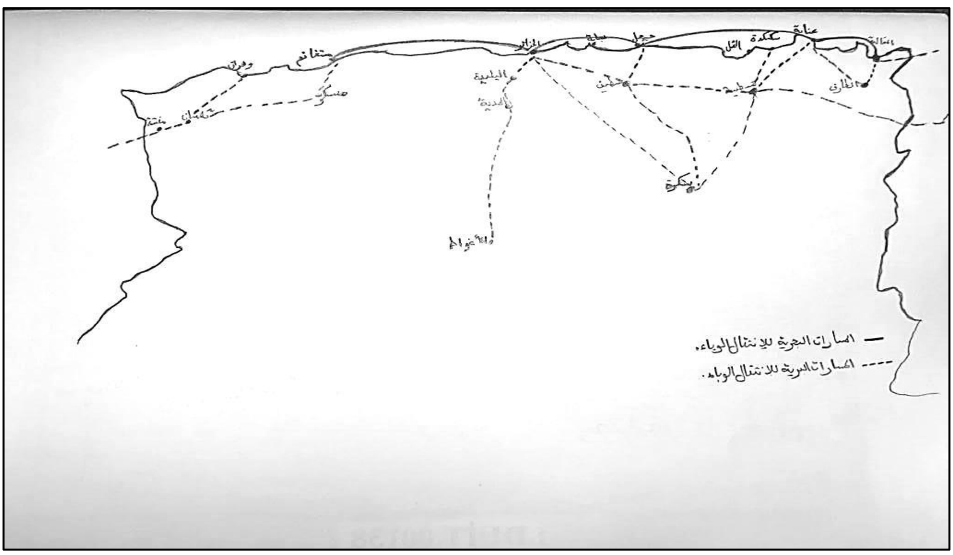
---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P92.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١٤٩ °-150. 07 /août/1743.

من الأوبئة بعيدة عن هذا الخطر ومحصنة بشكل كبير، وهذا يعيدنا للحديث الذي انطلقنا منه أوَّل هذا المبحث عن تأثير الجغرافيا في انتقال الأوبئة، فنقول أن الجغرافيا العامة آثار في انتقالنا الأوبئة من الخارج إلى أبواب الإيالة، مثل ما أثرت الجغرافيا بشكل حاد في انتشار الأوبئة وتوطُّنها في بعض المناطق، وهو ما آثارناه بالتفصيل فيما سبق ذكره[1]. ولعل الخارطة اللاحقة توضح إلى حد ما المسارات الأساسية التي سلكتها عدد من الأوبئة خلال عملية انتقالها من مدن إلى أخرى.

٣- خارطة توضح مسارات انتقال الأوبئة داخل إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر[2].



---

(١) - تحدثنا عن الأثر الجغرافي لانتقال الأوبئة وتمركزها في مبحث الخارطة الجغرافيا لانتشار الأوبئة والمجاعات، وهو ضمن الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) - أنجزنا هذه الخارطة بناء على عدد من المصادر والرحلات التي كانت تذكر مسارات التنقل والانتقال من مكان لآخر.

لا يتوقَّف انتقال وحركية الوباء عند الإنسان فقط كما قد يُعتقد بسبب تركيزنا عليه، بل يتعدّى الأمر إلى جل الكائنات الحية التي كانت تجاوره المحيط والتي كانت في بعض الأحيان هي أحد النواقل أو الوسائط خاصة إذا عَلمْنا أنَّ الحيوانات المختلفة كانت تعيش جنبا إلى جنب مع سكان مدينة الجزائر، مثال ذلك الخيول والأبقار والماشية وإن كان الأب «بواغي» يصرح بخلاف ذلك(١)، غير أنَّ الحقائق العلمية والتاريخية كثيرا ما تتحدث عن استعمال الأوبئة للكائنات الحية المختلفة خاصة منها البراغيث والفئران والحشرات التي تتطفل على أنواع مختلفة من الحيوانات في القصور كالخيول والأبقار والغنم وتصبح هذه الحشرات والبراغيث في الكثير من الأحيان المضيف الأساسي للاحتفاظ بالوباء بل ونقله مِن مكان ما إلى مكان آخر.

لذا نجد عدداً مِن التشريعات المتَّخذة في الدُّول الأوروبية حينها نصت على ضرورة التَّخلص مِن الحيوانات التي يشتبه في مرضها عن طريق القتل الفوري(٢)، ويزيد خطر انتقال الوباء من الغنم والماشية إلى الإنسان في حال توفرت فيه بعض الخصائص كوجود جِراح لدى الإنسان أو خرجات تسمح بتسهيل مرور البكتيريات إليه(٣). فهل حدث ذلك فعلا في الحيز الزمكاني الذي نتدارسه؟

بالفعل نجد أنَّ للأمر علاقة وطيدة لكنها غير جلية بين الإنسان والحيوان في

---

(1) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 198.

(2) - Maury Eugène: op.cit., P08.

(3) - Violle Henri Jules: op.cit, P17.

عملية نقل وانتقال الأوبئة على المسارات السابقة، إذ كيف نفسِّر تلك العلاقة بين موت العمال في القصر واكتشاف نفوق عدد من الحيوانات الخاصة بقصر الدايات؟

ولعلَّ هذا مما يبين العلاقة غير الواضحة لكنها تُفسِّر إلى حد ما السبب الذي جعل العديد من العمال في قصور الدَّايات وكبار رجال الدولة (كخوجة الخيل والخزناجي) يعانون مِن الهجمات الوبائية، فغالبا ما كان احتكاك هذه الفئة مِن الخدم بالحيوانات في الإسطبلات وتجهيزها بما تحتاج إليه يؤدي في النهاية إلى انتقال الوباء في حالة وجوده من الحيوانات والكائنات الحية التي توجدها إلى هذه الفئة من الخدم في مرحلة ما، وهو ما استنبطه الكثير مِن الأطباء والمختصين بعد ذلك[١]، ولعلَّ هذا ما يُستنبط أيضا مِن رسالة أوردتها إحدى الكتابات المحلية حول موت حوالي ١٤ حصانا من الخيل في نفس الأسبوع الذي توفي فيه الداي «علي خوجة» في (الأول مارس١٨١٨مـ) في إسطبلات القصر[٢]، كما أنَّ هذا ما يلاحظ في سنة (١٧٨٨مـ) إذ أتت الجائحة الوبائية على عدد معتبر من الساكنة كان غالبهم ممَّن يشتغل في الزِّراعة أو له علاقة بالتربية الحيوانية كما يفهم ذلك مِن تصريح الأب «فيشرا» والذي أثبته له «مارشيكا»[٣] .

(1)- Dumas: les sources naturelles du vaccin, dans <u>Gazette médicale de l'Algérie</u>, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.P172.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P.P 406,407.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P139.

وهو ما يفسر أيضا اتجاه السُّلطات الصِّحية والإدارية في بعض الدول الأوروبية إلى التَّخلُّص مِن الأبقار والأغنام التي يشتبه في مرضها بالقتل بشكل سريع[1].

وإذا تحقَّق المراد مِن عرضنا المقتضب عن المسارات المهمة التي كانت تسلكها الأوبئة نعود إلى غرضنا مِن هذا التوطئة لنتحدَّث عن «الأهداف» التي توطَّنت بها هذه الأوبئة، غير أننا سنجملها فقط منعا لتعارض التكرار بينها وبين مبحث الخارطة الجغرافيا. فهي في الناحية الشرقية تستهدف بشكل عام التجمعات السكنية الكبرى والتي كانت المدن الكبرى كقسنطينة والقل وعنابة في بيلك الشرق وكل من تلمسان ومعسكر ووهران في بيلك الغرب، ومدينة بسكرة وأحوازها في صحراء الزيبان جنوبا، فيما تمركز العديد من الأوبئة أيضا في سهل متيجة ومدينة البليدة والمناطق المحيطة بهما.

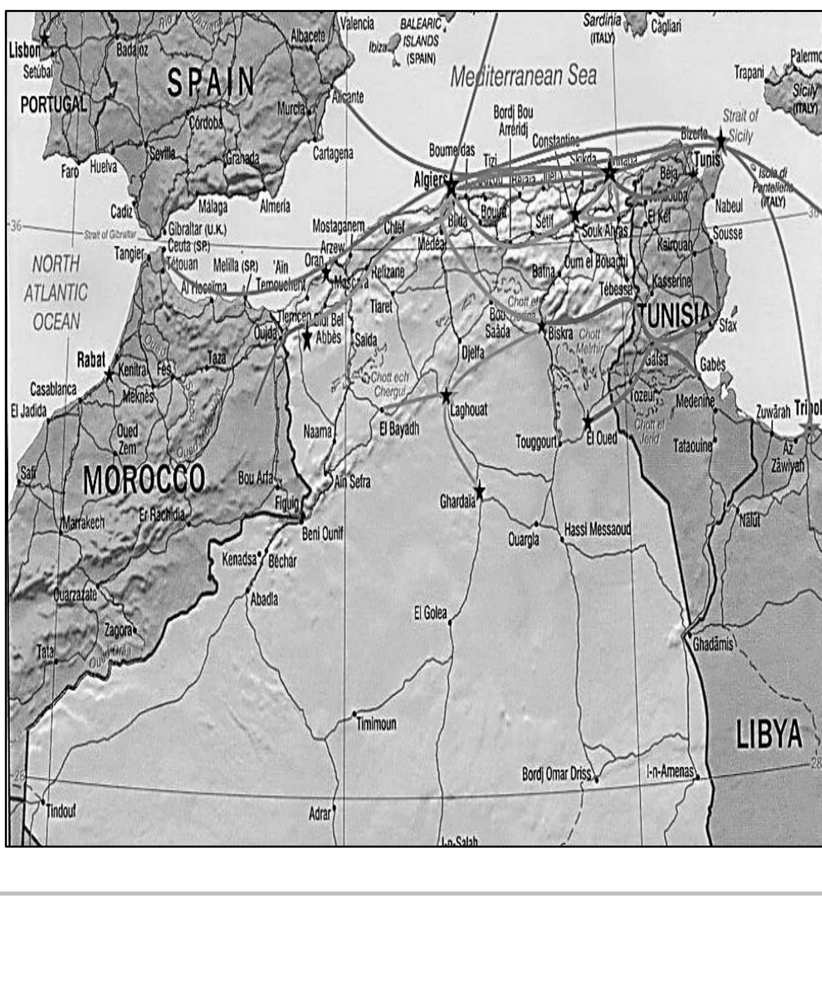
بقي الإشارة إلى نقطة هامة ترتبط بحركة انتقال الوباء أو الطاعون من منطقة إلى أخرى، فالبعد الزمني الذي كان يستغرقه انتقال الوباء من مكان إلى آخر لم يكن مضبوطا بمدة زمنية معلومة سلفا، يتأتى حينها التحرز من انتشار هذا الوباء أو ذلك الطاعون، وأحيانا نجد أن الوباء يظهر في أكثر من مجال جغرافي في نفس المدة الزمنية، بينما يتخلف ظهوره في مكان إلى آخر أيام أو أسابيع وفي بعض الحالات أشهر كاملة، وهذا الحال ينطبق على كل الأوبئة التي كانت تظهر أو تختفي في المنطقة الجغرافية الممتدة ما بين الأطلسي ونهر النيل في مصر.

---

(1) - Maury Eugène: op.cit., P08.

ولزيادة توضيح المسارات التي سلكتها الأوبئة أثناء عملية انتقالها مِن حيز جغرافي إلى آخر سواء من خارج الإيالة إليها أو ضمن المجال الداخلي، ولتبين ما كان للجغرافيا والجبال مِن آثار في كبح تفشي وانتشار الأوبئة وضعنا الخارطة التالية التي توضح المسارات المختلفة لانتشار وتفشي الأوبئة في إيالة الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة، وهذه الخريطة مبنية على أساس عدد من المصادر والمراجع التي اعتنت بالرحلات خلال تلك المرحلة الزمنية:

٤- خارطة المسارات الخارجية والداخلية لانتقال الأوبئة إلى إيالة الجزائر خلال العهد العثماني.



بحيث تمثل الخطوط الحمراء، المسارات الممتدَّة مِن الخارج باتجاه إيالة الجزائر أو العكس، فيما تمثل الخطوط البرتقالية تلك المسارات الداخلية بين كبرى المدن في الإيالة، وتمثل الخطوط الزرقاء المسارات البحرية الكبرى، فنلاحظ بالنسبة للخطوط الداخلية البرتقالية سلوكها مسارات محاذية للجبال، بينما تظل المدن الجبلية محصنة إلى حد كبير، ونلاحظ في نفس الوقت الضغط الكبير لمجموعة المسارات باتجاه مدن عنابة الجزائر، إذ أنّ جلّ المسارات الكبرى تلتقي لديهم، فتجمع بين التلقي البحري والتصدير البري كما يتضح، وهو ما جعل هذه المدن محورية في حركة انتقال الأوبئة وحيوية في خارطة توزع هذه الأوبئة في نفس الوقت.

الفصل الثالث:
حوليات الأوبئة بالجزائر ١٧١٠ – ١٨٣٠

١- كرونولوجيا تفشي الوباء (١٧١٠ – ١٧٨٥).

٢- كرونولوجيا تفشي الوباء (١٧٨٥ – ١٨٣٠)

١. كرونولوجيا تفشي الوباء (١٧١٠ – ١٧٨٥).

سنوات التردد الوبائي في بدايات القرن الثامن عشر (١٧٠٠-١٧١٥م)

مثل ما قرّرنا في دراستنا هذه قبل أن نشرع فيما وعدناه عند الحديث عن مسألة تفشي الأوبئة وانحصارها في الإيالة الجزائرية خلال القرن الثامن عشر والثُّلث الأوَّل مِن القرن التاسع آثارنا أن نُقدِّم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول، إنَّ الأوبئة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني لم تقتصر حقيقة على منطقة ما دون مناطق أخرى، إلاَّ إنَّها كانت قد تمركزت في عدد من النقاط المحورية سبق الحديث عنها، وتأثيراتها الفعلية اختلفت اختلافا بيِّنا بين منطقة الجنوب وباقي حواضر المدن الكبرى، وقد لاحظنا -كما سبق- أنَّ معظم المناطق الأكثر عرضة للوباء كان حيزها الجغرافي موجود في المناطق الشمالية من الإيالة، وبالأخصْ بالمدن والحواضر الكبرى، وقد علَّلنا ذلك بارتفاع نسبة الكثافة السُّكانية في المنطقة وتوفر العوامل الداخلية (المناخ، الحركة التِّجارية) والخارجية (الاحتكاكات في الموانئ) وتأثيراتها المباشرة في تفشي الأوبئة أو انحصارها. وهذه كلها أمور ظلت مساهمة بشكل أو بآخر في التَّوسع الجغرافي للأوبئة وانكماشها. وقد اختلف نتيجة لذلك اختلافا بيِّناً الباحثون حيال اعتبار إيالة الجزائر موطنا دائما للأوبئة أو مجرد مستورد ملتزم بها؟ ثم هل كانت البيئة الجزائرية بيئة وبائية فعلا؟ أم أنّ الأمر يرتبط بوجود عوامل ساعدت على أن تكون السمة البارزة هي حروب وبائية للإيالة؟ ثم بعد ذلك في أي مرحلة زمنية أضحت الأوبئة عائقا فعليا في وجه الإيالة؟ هل توجد مرحلة بعينها استسلمت فيها الإيالة

لقدرها الوبائي المتكرر؟ أم كانت مجرد سنوات معدودة لا تعطي طابع عاما وبائيا للمرحلة محل الدِّراسة؟

يذكر (*De. Grammont*) بأنَّ للأوبئة التي عرفتها إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر دورا كبيرا في تراجع نمو الكثافة السُّكانية خلال هذا القرن الثامن عشر[١] خاصة إذا ما تمت مقارنتها مع القرن السابع عشر في الجزائر أو القرن التاسع عشر، لكن هذا التأثير لم يكن بنفس القوَّة والتَّأثير طوال هذا القرن فنجده ينقسم إلى مراحل زمنية يكون فيها التأثير الوبائي على الساكنة شديدا جِداً، بينما تتراجع حدته في مراحل زمنية أخرى.

فيما يخص المرحلة الأولى من القرن الثامن عشر فترى بعض الدراسات – كما هو الحال بالنسبة للباحثة فلة موساوي في أطروحتها للدكتوراه– أنّ إيالة الجزائر خلال الخمسة عشر السنة الأولى مِن القرن الثامن عشر (١٧٠٠-١٧١٥) كانت غالبا ما تستثنى مِن موجات الطَّاعون الذي حلَّ بكل مِن الإيالة التونسية والمصرية وإيالة طرابلس الغرب وهو نفس ما تراه لوسيت فلنسي[٢].

غير أنَّ تتبع الأوبئة خلال هذه المرحلة الزمنية يجعل الأمر يحمل أوجهاً متعدِّدة منها الوجه الذي ذكرته الباحثتان، ومنها وجه أخرى يرى أنَّ سبب اشتهار الإيالة بخلوها مِن موجات الطَّاعون الكبرى خلال الخمسة عشر سنة الأولى هو

(1) - H.-D. DE Grammont: **Histoire D'Alger sous la domination Turque** (1515-1830) Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, P240.

(2) -L.Valensi: **Calamités démographique en Tunisie et en Méditerrané orientale aux 18 et 19 siècles**. In Annales E.S.C. N°6. P1541.

انعدام وجود أي تأثيرات كبيرة لهذه الأوبئة، وإلاَّ فإنها عانت بدورها مِن وجود بعض الأوبئة وهو ما سنتحدث عنه.

إذ نقف في بداية الأمر على تقرير للقنصل الفرنسي في مدينة الجزائر «دوران» (*Durand*) ضمن إحدى مراسلاته الأرشيفية بأنَّ الوباء قد هاجم مدينة الجزائر سنة (١٧٠٠مـ/ ١١٠٠هـ) في ثمانية أو عشرة أيام قائلا في تقريره: «..إنَّ الوباء قد هاجم مدينة الجزائر منذ ثمانية أو عشرة أيام، وتوفي جراء ذلك ثلاثة أو أربعة أشخاص..»[1]، وعليه فهو من الناحية الزمنية منحصر زمنيا كما إنَّه مِن حيث التَّأثير لا يرقى إلى تلك الأوبئة التي سيأتي ذكرها، ولعل هذا ما جعلنا نقف على ذكر لنفس الوباء من طرف الدكتور «غيون» بشكل مُحتشم وعرضي؛ فيتحدَّث عن وجود وباء في مدينة الجزائر خلال سنة (١٧٠٠مـ) متزامنا مع حدث آخر وهو الخلاف مع الباب العالي لكن بدون أن يتطرَّق إلى آثاره وانعكاساته على المجال العام؛ وذلك حسب رأينا يعود إلى أنَّ الآثار العام لهذا الوباء قد ظل هامشيا ومُستتراً، أو بسبب أنَّ المدَّة الزَّمنية لهذا الوباء قد كانت مدة قصيرة يصعب تتبع آثارها حسب ما أورده القنصل (*Durand*).

مِن جهة أخرى نجد أنَّ «مارشيكا» يتحدَّث في أطروحته عن تجدُّد الطَّاعون في الجزائر خلال هذه السنة (١٧٠٠مـ)، ويشير إلى آثاره في مدينتي الجزائر وعنابة، كما يستغرب مِن قدرته على الاستقرار في هذه المنطقة مع وجود ارتفاع في درجة

---

(1) -H.-D. DE GRAMMONT: **Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)**, P64.

الحرارة كان يفترض أن تثنيه كما جرت العادة[١]، وهو عين ما أشار إليه أيضا القنصل «دوران» باستغراب في مراسلته السالفة الذكر بقوله:»...إنَّه لم يسبق وأن شرع الوباء في الانتشار خلال هذه المرحلة ..»[٢] وهو بذلك يتحدث عن زمن الصَّيف، لأنَّ ظهور الوباء على غير العادة كان في بداية شهر (جوان/ يونيو). أما من حيث أصل هذا الوباء فقد ذكرت الجريدة الرسمية للدولة الفرنسية حينها أنَّ ظهور الوباء في مدينة البندقية بداية مِن الشَّهر الثاني مِن سنة (١٧٠٠مـ)[٣]، وهو ما يعني إمكانية أن تكون مدينة البندقية هي النَّاقل المحتمل الذي تمكَّن مِن إدخال هذا الوباء إلى الإيالة من خلال تعاملاتها التجارية مع الإيالة؛ خاصة إذا علمنا أنّ للطَّرفين (البندقية/ الجزائر) احتكاك دائما خلال نهاية سنة الماضية (١٦٩٩مـ) وبداية سنة (١٧٠٠مـ).

واصل الوباء تقدُّمه فعليا خلال صيف هذه السنة، واشتُبِه في إنَّه يوم السَّابع عشر مِن شهر (جويلية/ يوليو) كان سببا في سقوط عدد كبير مِن الضحايا مِن الأسرى الأوروبيين خلال تلك المرحلة [٤] وهذا ممَّا لا يتعارض وتقرير القُنصل الفرنسي في الجزائر «دوران» الذي قال أنّ عدد الضحايا كان قليلا لا يكاد يذكر[٥]،

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P69.

(2) - letter M. Durand Alger, le 28 juin 1700 dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742) H. DE Grammont, P79.

(3) **-Gazette de France**, 1700, N° 01. P.67,68.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P70.

(5) letter M. Durand Alger, le 28 juin 1700 dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742) H. DE Grammont, P79.

إذ أن المرحلة الزمنية التي يغطيها مارشيكا أطول من تقرير القنصل الفرنسي، إلاّ أنّ استمرار هذا الوباء ظل على نطاقٍ ضيِّقٍ هذه المرَّة، ويبدأ في الانسحابات مُتراجعا إلى غاية نهايته تماماً أواخر هذه السنة، وتتمظهر هذه النتيجة في قلّة عدد الضحايا المتحدث عنهم خلال فصل الخريف على غير العادة[1].

وقد ظلت بعض الجيوب الوبائية لهذا الوباء نشطة إلى غاية سنة (١٧٠٢مـ)، ويدعّم هذا الأمر ما نقف عليه ضمن إحدى المراسلات الرسمية للقنصل الفرنسي في الجزائر (Durand) المقيّدة بتاريخ الأوّل مِن شهر (أوت/ أغسطس) سنة (١٧٠٢مـ) والمرسلة إلى السّيد «بونشاغتران» (*Pontchartrain*) ينبئه فيها بأنّ إيالة الجزائر قد بدأت تتعافى مِن الوباء الذي ألَمَّ بها منذ فترة طويلة وألحق بها خسائر فادحة قدَّرها القنصل بـ خمسة وأربعين ألف (٤٥,٠٠٠) ضحية[2]، وهو لا محالة رقم كبير جدا، لكن إن ربطنها بالمرحلة الزَّمنية التي شهدت بروز الوباء أوَّل مرة وانقضأه كان الرقم مقبولا إلى حد ما، إذ جاوزت فترة توطُّن الوباء في الإيالة الثمان سنوات كاملة امتدت من نهاية القرن السابع عشر وبالتحديد من سنة (١٦٩٢مـ) إلى غاية نهاية (١٧٠٠مـ).

تشهد بعد ذلك الإيالة نوعا من العافية، تمتدَّ هذه المرحلة على مسار طويل يبلغ عشر سنوات تقريبا يبدأ مِن سنة (١٧٠٥مـ) وينتهي عند سنة (١٧١٦مـ) وهي بحق تعد المرحلة الأكثر هدوءا مِن ناحية النشاط الوبائي، إذ قلَّ

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P70.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/118. Cotes: F °257-262. 1 aout 1702.

أن نقف خلال هذه المدَّة على نشاط وبائي مُعتبر كان له بالفعل آثار كبير يذكر على الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية لساكنة الجزائر.

ولعلَّ ممَّا يؤكد فكرة خلو هذه المرحلة مِن الأوبئة الحادة، أنّ كلّ مَن تناول الحديث عن الأوبئة أو المجاعات أو الظَّواهر الطبيعية خلال تطرُّقه لأحداث هذه المرحلة لم يتحدَّث عن آثار معين لظهور وباء ما أو تأثير أزمة صحية ما على إيالة الجزائر العثمانية خلال هذه السنوات، باستثناء ما ذكره الدكتور «غيون» مِن وباء أو حمى خبيثة ظهرت في تونس والجزائر خلال سنة (١٧٠٥مـ)[١]، لكن آثار هذه الحمى لم يكن كبيراً ولم يمتدَّ لمرحلة زمنية طويلة، وهذا الأمر جعل ذكر هذه الحمى مُغيَّباً في الكثير مِن الكتب التي أرّخت لتلك المرحلة،

وهو ما حمل الباحثة «فلة الموساوي» على أن تعتمد المذهب القائل بأنّ الجزائر خلال هذا الحيز الزمني كانت تتمتَّع بصحة جيد عكس الجارات الشرقية تونس وطرابلس الغرب[٢].

وباء سنة (١٧١٧مـ)

وإذا تقرّر ما سبق انتقلنا للحديث عن الأوبئة التي آثرت بشكل كبير في المجال الجغرافي المدروس، ولعلَّنا لن نحيد عن الصواب إن قلنا إن هذا الأمر قد تجسَّد فعلا في الوباء الذي ظهر سنة (١٧١٧مـ)، وقد برز ذكر تجليات هذا الوباء

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P295.

(٢) – فلـة موسـاوي: الصـحة والسـكان في الجزائـر خـلال العهـد العثمـاني وأوائـل الاحـتلال الفرنسي(١٥١٨–١٨٧١) ص ٦٨،

في أكثر من موطن في حوض المتوسط، فذُكِر وجوده في عدد مِن الممالك العثمانية مع بداية السنة كما يتَّضح ذلك مِن خلال تتبع أرشيف المراسلات العثمانية[١] والذي كان -في الغالب- امتدادا للوباء الذي تحقق ظهوره في بعض أجزاء الدولة العثمانية أواخر سنة (١٧١٦مـ)[٢].

فيما يذكر «غيون» أنّه قد وَفد إلى إيالة الجزائر عن طريق سفينة إنجليزية قَدمت محمَّلة بالسِّلع[٣] مِن مصر، بحيث كان الوباء على أشدِّه بها، وقد انتشر خبر وفاة قبطان هذه السَّفينة والعديد مِن ركابها لاحقا حتى قبل أن ترسو بميناء المدينة[٤]، ممَّا مِن شأنه في الحالات الطبيعية أن يثير بعض الإجراءات الاحترازية لدى السُّلطات الحاكمة في الإيالة الجزائرية إلاَّ أنّ ذلك لم يُثر أي اهتمام لدى دايات الجزائر، بل لم يُذكر قيامهم بأي جهد مِن شأنه الوقوف في وجه هذا الخطر[٥]، وهو إلى حد ما يرسم ملامح الذهنية الحاكمة في تلك المدة الزمنية، إذ كان يعتقد بعض حكام الجزائر إنَّهم حكام لسكان هذه الإيالة ومتصرفون في شأنها السياسي وليسوا جزءا من التركيبة الاجتماعية، وهو ما سنعود له لاحقا بالتفصيل.

---

(1) -B.O.A: AE. SAMD.III.Dosya N°39.Gömlek N°3746. Tarih 1129.R.13, Belg 01.

(2) - Johann Wilhelm Zinkeisen: **Osmanlı İmparatorluğu Tarihi**, Çeviri Nilüfer Epçeli , Cilt 5, Yeditepe Yayınevi, ı. Baskı. Eylül 2011. S323.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

(4) - Jean Marchika:op.cit., P75.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298

وما زاد مِن آثار وباء سنة (١٧١٧مـ/ ١٧١٨مـ) هو تزامنه مع زلزال ضرب المدينة في نفس السنة، لكن يفهم من رسالة الأب باتلوت (Batault) أرسلها من الإيالة الجزائرية إلى فرنسا أنَّ آثار هذا الوباء لم يكن كبيرا وسرعان ما انجلى وانحصر تأثيره[١]، وهو ما جعل عملية جميع المعطيات الخاصة بهذا الوباء المتعلقة بعدد الضحايا ومناطق انتشاره أمرا غير ميسر حاليا. لكن مما يستفاد من التأريخ لواقعة هذا الوباء هو ذلك النوع مِن اللامبالاة وأثره الانعكاسي على المجتمع، وهو ما سيتكرر كثيراً.

ظهور الوباء في الإيالة التونسية وامتداداته في الجزائر (١٧٢٠مـ)

لعل المركز الذي انتشر منه هذا الوباء إلى إيالة تونس هو مدينة مرسيليا الفرنسية، إذ كثيرا ما عُدَّت هذه المدينة من طرف الكثير مِن الباحثين خلال تلك المرحلة مدينة موبوءة بامتياز، ويتمظهر هذا الأمر في الخوف الذي يتلبس به كلُّ الوافدين إلى المدينة والذين أضحت بعض المصادر تذكر أنهم يحاولون عدم دخول المدينة القديمة أو التوطن بها خلال مرحلة إقامتها بها خوفا من تبعات الأوبئة والأمراض الأخرى[٢].

فيما ذهبت بعض الدِّراسات إلى أنَّ أصل الوباء الذي ألم بتونس وانتقل لاحقا

(1) - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P49.

(2) - Gaffarel, Paul et Duranty, Marquis: La peste de 1720 à Marseille et en France: d'après des documents inédits, Éditeur Perrin, Paris, P01.

إلى إيالة الجزائر هو بلاد المشرق، وبالتَّحديد البلاد السورية[١] وبعده انتقل منها عن طريق سفينة (*le Grand-Saint-Antoine*) «سانت أنطوان الكبرى» خلال نفس المرحلة الزمنية تقريبا[٢] إلى مدينة مارسيليا، ومن هناك بدأ هذا الوباء رحلته التدميرية الكبيرة؛ فكان له الآثار البالغ والشَّديد على فرنسا أولا فقضى خلال ثلاثة أشهر فقط تمتد من نهاية شهر(يوليو/ جوان) إلى غاية نهاية شهر (أوت/ أغسطس) على ما يقارب ثمانين ألف ضحية في مدينة مارسيليا لوحدها[٣]، ثم انتقل بعد ذلك إلى الضِّفة الجنوبية مِن المتوسط وتحديدا إلى كلّ مِن إيالات «طرابلس الغرب» و«تونس» و«إيالة الجزائر».

ويذكر الرَّحالة (*Beaugrand*) في رحلته إلى تونس مشاهدته لتأثير وباء سنة (١٧٢٠مـ) على ساكنة تونس، إذ قضى حسب روايته على (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف إنسان[٤]، لعلَّ في هذا الرقم بعض المبالغة، لكن إن قمنا بمقارنة هذا الرّقم مَع تلك الأرقام الغربية التي تتحدَّث عن سقوط عدد أكثر مِن هذا الرقم في مدينة مرسيليا لوحدها فهي تتحدَّث عما يقارب (٥٠,٠٠٠/ ن)[٥] خلال هذا الوباء مع ما فيها من احتياطات وخبرة في مواجهة مثل هذه العوارض الوبائية.

---

(1) - Laumonier Jean: La peste, P06.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P-P 298-303.

(3) - Chabrand Jean-Armand: op.cit., P19.

(4) - H. Beaugrand: Lettres de voyage, Montréal des Presses de la patrie, 1889, P112.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P303.

بل إننا نقف على العديد مِن رسائل طلب المساعدة ترسل إلى السُّلطة الإمبراطورية يتقدَّم بها عددٌ مِن الأطباء الذين كانوا على متن السُّفن التي كانت في عرض البحر، وتحمل الوثائق التي وقفنا عليها في الأرشيف الفرنسي فيما يخص هذا الوباء على ملامح ترسم بحق شدَّة هذا الوباء وقوته[١]، لذا فيمكن الحديث عن إمكانية أن يكون الرقم الوارد آنفا قريبا من الصِّحة، خاصة إذا ما أضفنا للعارض الوبائي ما وقفنا عليه من إشارة عابرة لدى «دي غرامون» يتحدّث فيها عن المُدَّة الزمنية الممتدة مِن (١٧٢٠مـ-١٧٢٢مـ) مشيرا إلى التزامن العارض للوباء في تلك السنوات مع المجاعة[٢]، وإن كان «دي غرامون» في أثناء هذه الإشارة لم يذكر العدد التقريبي لضحايا هذا الوباء أو فترة تفشيه إلا إنَّه قد نبَّه إلى تأثيره الكبير في صفوف العبيد أو الأسرى، الأمر الذي جعل أسعار العبيد تعرف ارتفاعا كبيرا بل أدى آثار هذا الوباء إلى ارتفاع سعر الفدية على الأسرى إلى ثلاثة أضعاف[٣]، وهنا نستجلي التأثير الجلي للأوبئة في الحياة الاقتصادية للإيالة، بل ويتعداه إلى الممالك والدول الأوروبية فهي التي كانت تتحمل تبعات هذا الارتفاع في الأسعار، وهو ما من شأنه أن يؤثِّر على هذه الممالك في جزئيات أخرى، خاصة وأن القرن وإن وسم بكونه قرن القمح فإنّه لم يتخلص من الأسر

---

(1) -F.M: Cotes: MAR/C/7/58, D 81722

(2) - H.- DE Grammont: **Histoire D’Alger sous la domination Turque** (1515-1830) Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, P282.

(3) - H.- DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P282.

والقرصنة كمورد أساسي للخزينة العامة للإيالة، ويجب علينا أن نشير إلى ما تحدث عنه «غيون» من كون الإيالتين الجزائرية والتونسية قد حاولتا تطبيق تدابير صارمة -لم يُفصح عنها- للحد مَن آثار هذه الهجمة الوبائية[1].وعليه يمكن أن نرى أن الإجراءات قد تتخذ إذا كان الوباء كبيراً ويؤثر بشكل بارز على منطقة الحوض المتوسط ككل.

كما نقف على رسالة ودية من أحد الآباء المكلفين بفداء الأسارى على غاية الأهمية، كتبها الأب «باتولت» -أرسلها إلى أحد طلابه ومؤرخة بـ (٢٣/ أفريل ١٧٢٣)- ينبِّه فيها بوجود الطَّاعون في إيالة الجزائر خلال هذه السَّنة، كما نبَّهه في نفس هذه الرسالة إلى أنَّ هذا الطَّاعون قد تزامن مع مجاعة وزلزال ضربا المدينة[2] في نفس المرحلة ما جعل آثاره أكثر عنفا.

وقد حتّم هذا الوباء الذي اشتدَّت قوته في فرنسا السُّلطات الفرنسية على غلق موانئها، بل وتم في الكثير مِن الأحيان رفض استقبال سفن القراصنة والبحارة الفرنسية أنفسهم مخافة اشتداد قوَّة هذا الوباء من جديد أكثر وهو ما تؤكده إحدى الوثائق الخاصة بالموانئ النشطة في مدينة مارسيليا و ما جاورها[3]، وقد استمرَّ

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

(2) - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P53.

(3) - MAR. C. 7. F N 18 :D 10. 1719.

النَّشاط الوبائي تقريبا مدّة سنتين كاملتين[١]، إذ نجد تجدَّد ذكره في عدد مِن الوثائق الأرشيفية الخاصة بالبحرية الفرنسية خلال تلك المدَّة[٢].

طاعون ١٧٣٠

وإذا تحقق وجود الوباء سنة (١٧٢٠-١٧٢٢مـ) انتقلنا للحديث عن الوباء الذي أتى بعده، وبالتحديد ذلك الذي نقف له على بعض الإشارات في الشتات المختلف لظهور الطاعون سنة (١٧٣٠مـ) وقد ظهر قبيل هذه السنة خبره في «جزيرة كريت» إذ ورد في أحد المراسلات العثمانية أن الدولة أسقطت على أهل الذمة في الجزيرة الضرائب المستحقة هذه السنة حتى يستعيد الأهالي عافيتهم[٣] ونقف فيما يخص إيالة الجزائر على إشارة هامة لدى «دي غرامون» تتحدَّث عن وفاة السيد «دوران» القنصل العام الفرنسي في مدينة الجزائر والقائم بالأعمال الفرنسية في الجزائر وهذا في الثامن من شهر أكتوبر سنة (١٧٣٠مـ)[٤]، كما نقل «غيون» عن إحدى المخطوطات التي وقف عليها قول صاحبها: «...الطَّاعون قد عاد مِن جديد إلى الجزائر في هذه السنة (١٧٣١مـ)...»[٥] وقد وصف «مارشيكا»

---

(1) - MAR. C. 7. F N 58 :D 08. 1722.

(٢) - انظر الملاحق: الثالث والرابع.

(3) -B.O.A: AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°1139٣. Tarih 1142.M.02, Belg 01.

(4) - H.- DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830), P285.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

هذا الوباء بإنَّه طاعون خفيف لم يكن له كبير آثار[١].

تجدُّد الوباء سنة ١٧٣٢

ولعل الوباء الذي ذكره مارشيكا في السنة السابقة هو الذي تجدد آثاره في السنة اللاحقة، إذ يورد «ابن رقيَّة التلمساني» تجدُّد الطَّاعون في مدينة الجزائر سنة (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢مـ)[٢]، إلاَّ أنَّ « مارشيكا « يذكر بأنّه لم يكن وباءً شديدا وذا آثار كبيرٍ، وقد تزامن هذا الوباء مع فترة حكم الداي « الحاج أحمد « وقد نقل هذه المعلومة عن «غيون» و «بيربروجر"[٣]، لكن آثار هذا الوباء كان شديدا ومؤثرا في بعض مناطق الدولة العثمانية أدى في بعض الحالات إلى اندثار قرى بأكملها مثل ما نقف عليه في أحد الوثائق الأرشيفية التي تطلب إحدى العائلات من السلطة المركزية السماح لها بالانتقال من قريتها أو قضائها إلى قضاء آخر، إذ لم يبق في قريتها من العائلات التي تنعم بالحياة إلا هذه العائلة[٤] وقد استمر تقريبا إلى غاية (١٧٣٥مـ) في مناطق قريبة من الباب العالي في الآستانة مثل تكيردا وغيرها[٥].

وباء ١٧٣٨

فإذا تقرَّر ما سبق استأنفنا التتبع الكرونولوجي للأوبئة خلال هذه المدَّة، نجد

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P77.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P314.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P78.

(4) -B.O.A: AE. SAMD.III.Dosya N°76.Gömlek N°5019. Tarih 1147.R.25 Belg 02.

(5) - Joseph von Hammer: a.g.e, C 5. s527.

أن أول ما يليه من أوبئة ذلك الذي أُشير إلى وجوده في مدينة «تلمسان» في بيلك الغرب الجزائري بدايات سنة (١١٥١هـ/١٧٣٨مـ) لينتقل منها لاحقا إلى المناطق المحاذية وتحديدا مدينة «وهران» وأحوازها[١]، وقد عين حينها «يوسف بن مصطفى بوشلاغم» بايا على بيلك الغرب خلفا لوالده مصطفى بوشلاغم[٢].

حاول «يوسف بن مصطفى بوشلاغم» أن يسيطر على النِّظام في البيلك وأن يقوم باسترجاع مدينة وهران من يد الإسبان، إلاّ أنه سقط بدوره ضحية لهذا الوباء سنة (١١٥١هـ/ ١٧٣٨مـ)[٣] ، ومن دلالات موت باي الغرب الجزائري بهذا الوباء أنه انتشر بشكل واسع ومعتبر داخل هذا البيلك، وله من القوة والتأثير ما منحته القدرة على الوصول إلى رأس حاكم البيلك بذاته، بمعنى أنّ وصوله لهذا الشخص يكون بعد أن تفشى بشكل واسع فيمن هم دونه طبعا، كما نستنبط ملاحظة هامة وهي أنَّ الوباء غالبا ما يكون قد ألم أيضا بجزء مُعتبر مِن القوّة التي كان يقودها «الباي يوسف بن مصطفى بوشلاغم» وأنّ حركة هذه القوّة العسكرية في بيلك الغرب تكون قد أججّت نشاط الجيوب الوبائية بشكل أكبر، وخلقت مواطن عدوى وبائية جديدة في طريقها.

وأمر مساهمة الجيوش والميليشا في نقل الأوبئة قد كان مشهوراً خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكثيرا ما حدث في أوروبا نفسها؛ إذ أنَّ مرورو

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP 314-315.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P175

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

الجيوش الفرنسية على سبيل المثال عبر جبال الألب سنة (١٧٤٣مـ) كان سببا مباشرا في تأجيج الوباء في كامل المنطقة الأوروبية[١]، فإن تقرَّر فعلا ما لحركة الجيوش مِن آثار في نقل الأوبئة قلنا: أنَّ ذلك أحد الأسباب الرئيسة والوسائط الأساسية التي استعان بها الوباء في بسط نفوذه على الكثير من المناطق الجغرافية التي لم تخل عادة من استقرار سياسي وهو ما يؤدي إلى وجود حركات عسكرية تنتج بدورها حالات تفشٍ جديدة للأوبئة وتحمل على توسيع وامتداد رقعتها الجغرافية، كما تعمل بشكل غير واعٍ على إطالة عمر هذه الأوبئة. وعليه تصبح الجيوش أشبه ما تكون بخلايا وبائية نشطة ومتحركة.

وإذ قد ظهر لنا جواب ما جنح إليه من عمل الجيوش في تأجيج الأوبئة فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا فنقول أنَّنا ما سقنا المثال السَّالف إلَّا لندلِّل به على أنّ حركة الجيوش عامة وميليشيا الباي «يوسف بن مصطفى بوشلاغم» خاصة يدا قوية في نقل الوباء من الغرب الجزائري إلى بيلك التيطري ومنه إلى دار السُّلطان ولعلَّ هذا ما تجزم به الملاحظة.

فيورد «مارشيكا» أنَّ هذه السنة (١٧٣٨مـ) عُرفت «بعام الوبا»[٢]، وهو ما يشعرنا بأنّ هذا الوباء لم يكن كسابقه بل كان فعلا وباءً شديدا، تستقرّ بعض الجيوب الوبائية في الجزائر نتيجة هذا الوباء لمدَّة ثلاث سنوات، ولعلّ هذا الوباء هو نفسه الذي انتقل في مرحلة أخرى مِن بيلك الغرب الجزائري إلى المغرب الأقصى.

---

(1) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P21.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P78.

وباء ١٧٤٠

بعد هذا الوباء ستعرف المنطقة ككل وليس إيالة الجزائر فقط أحد أكبر وأشد الأوبئة التي اجتاحت الجزائر خلال النِّصف الأوَّل مِن القرن الثامن عشر، وهذا الوباء حسب ما يذكره صاحب مخطوط «بيان ملوك الجزائر» يحتمل أن يكون قد اجتاح مدينة الجزائر عام (١٧٤٠مـ/ ١١٥٣هـ)[١]، ويذكر تقرير أورده القنصل الفرنسي في الجزائر السيد (Taitbout) تفشي الطاعون بإيالة الجزائر ويصفه «بالشَّديد» وهذا خلال سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ) [٢] يستمر نشاط هذا الوباء لمدَّة ثلاث سنوات بشكل متقطع[٣] يخبو فيها في فصل الصيف ويسترجع نشاطه أثناء الخريف من جديد.

أما فيما تعلَّق بضبط تاريخ ظهوره الفعلي، فترى الباحثة «فلة موساوي» أنّ هذا الوباء قد انتشر فعليا في الجزائر بداية مِن شهر (مارس ١٧٤٠مـ)[٤]، فيما يذهب غيرها إلى الاعتقاد بأنّ هذا الوباء قد ظهر حقيقة في شهر جوان من سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠مـ) كما ذهب إلى ذلك «غيون»[٥]، وهو نفس ما نقله

(١) – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم(١٦٢٤).

(2) -H.-D. DE Grammont: Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P221.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

(٤) – فلة موساوي: الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، ص ٧٣.

(5) - H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

«مارشيكا»[١] ولعلَّهم يستأنسون بما يورده الأب «بيير فارو» والذي تحدَّث عن معلومة مفادها أنَّ هذا الوباء قد ولج الجزائر بداية من شهر جوان سنة (١٧٤٠م)[٢].

لكن نعد الرّأي الثاني غريبا بعض الشيء، أو أنّ الأمر لا يعدو إلاَّ أن يكون حالة استثنائية تميّز بها هذا الوباء، إذ مِن المعلوم أنّ الحرارة كانت أحد العوامل الرئيسة في إبطاء سرعة انتشار الوباء، بل وفي بعض الأحيان القضاء على الطفيليات والأرومات المختلفة، لذا نعتقد أنَّ الوباء سنة (١٧٤٠م) إما أنّه كان قد ظهر فعلا في شهر مارس مع بداية فصل الربيع مثل ما ذهبت إلى ذلك «فلة موساوي»، أو إنَّه خلال ظهوره في بداية فصل الصيف ظل على نطاق ضيق وكانت درجة الحرارة لطيفة فعلا استطاعت خلالها الأرومة الوبائية الانتقال من طرف لآخر، ليستأنف رحلته نحو حصد عدد أكبر من الضحايا بداية من خريف نفس السنة (١٧٤٠م).

كما نقف على اختلاف حول كيفية دخوله إلى الإيالة، فهناك من رجَّح فرضية دخول الوباء إلى الإيالة بواسطة سفينة قادمة من أحد الموانئ المتواجدة في الإسكندرية[٣]، وهو ما نقف عليه فعلا في إحدى الإشارات العرضية ضمن المراسلات القنصلية الفرنسية الموجودة بأرشيف وزارة الخارجية (١٢/ ماي١٧٤٠م) تشير إلى وفود السفينة (*Sainte Barbe*) بقيادة القبطان

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P78.

(2) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 31.

(3)- H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

(*Honoré Lyon*) من مدينة الإسكندرية وهي مصابة فعلا بالطاعون(١)، وتسند هذه الفكرة إشارة أخرى نقف عليها في رسالة ثانية مؤرخة بتاريخ (١٢/ ماي ١٧٤٠مـ) يرد فيها ذكر دخول سفينة قادمة من الإسكندرية على متنها ركاب يُشتَبَه في إصابة عدد منهم بالطَّاعون إذ توفي بالفعل أحد ركابها قبل الرُّسو بالميناء(٢). وهو نفس ما ذكره الأب بيير «فارو» الذي أكدَّ على أنّ سفينة فرنسية وافدة مِن الإسكندرية قد دخلت ميناء الجزائر في شهر جوان من سنة (١٧٤٠مـ)(٣) وقد سعى قبطانها مباشرة عند رسوها إلى الاتصال بنائب القنصل الفرنسي بالمدينة لتحذيره من إصابتها بالوباء حتى تُتّخذ الإجراءات اللازمة لذلك، غير أنَّ الغريب في الأمر أنّه لا الوثيقتان الأرشيفيتان اللتان سبق الحديث عنهما ولا مذكرات الأب «بيير فارو» قد ذكرت أي نوع من الإجراءات كانت السلطات قد اتخذتها لمنع تسرب هذا الوباء إلى الجزائر.

إضافة إلى ما سبق من مصادر يذكر «غيون» في تتبعه للأوبئة في شمال إفريقيا أنَّ هذا الوباء قد دخل الإيالة بالفعل عن طريق سفينة فرنسية(٤)، فيما ينقل «مارشيكا» رؤية مغايرة ترى بأنّه قدِم عبر البرِّ من بيلك الغرب الجزائري، وينقل في نفس الفقرة بأنّه يوجد من يعيد أصله إلى سفينة فرنسية قَدِمت إلى الجزائر في

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °264-265. 27 /05/1740.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °266-271. 08 /06/1740.

(3) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 31.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P315.

(جوان/ يونيو ١٧٤٠) من مصر[١]. وهو الأمر الذي جزمت به مجموعة من الوثائق الأرشيفية والمذكرات التي سبق لنا ذكرها.

فإن تقرر ما سبق عدنا للحديث عن قوة وشدة هذا الوباء، إذ قد تُنوقل آثاره الكبير مِن أوَّل أسبوع تفشى فيه الوباء داخل المدينة، فكان أوَّل ضحاياه ذلك العامل البسيط الذي بدأ في نقل المتاع الموجود في السفينة إلى أصحابها، لينتقل الوباء بشكل سريع وشديد إلى معظم الأحياء الموجودة بالمدينة[٢].

فتنُقل بعض الأرشيفات الفرنسية أنّ عدد الضحايا كان يبلغ ما متوسطه ما بين (١٠٠-١٠٣) ضحية في اليوم[٣]، بينما يذكر القنصل الفرنسي في الجزائر السيد «تاتبو» أنَّ هذا الوباء كان يحصد في اليوم الواحد قرابة المائتي ضحية على الأقل[٤]، ويرى الأب «بيير فارو» (Faroux) أنّ الوباء كان له مِن الشدّة ما يقضي بها على قرابة الألف ضحية في أسبوعه الأول، ثمَّ يستمر في الفتك بعدد الضحايا يتأرجح ما بين (٤٠٠-١٠٠) ضحية يوميا خلال الشهر الأوَّل[٥]، وهو تقريبا نفس ما ذهب إليه «بيربروجر» إذ يرى أنَّ عدد ضحايا وباء (١٧٤٠مـ) كان في حدود (٤٠٠ ضحية/ يوميا)[٦]، فيما يرى «دي غرامون» أنّ هذا الوباء عندما بدأ يقلّ

(1) - Jean Marchika:op.cit., P78.

(2) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P315.

(4) -H.-D. DE Grammont: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742), P221.

(5) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.

(6) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

آثاره أضحى يستحوذ يوميا على ما بين (٢٠٠-٤٠٠) ضحية[١]، وهو نفس الأمر الذي نقله «غيون» ونقله عن الأخير «مارشيكا»[٢]، ونجد أنّ الأب «أندري فرنسوا» يتحدَّث عن رقم قريب من هذا الرقم من خلال ملاحظاته التي دونها أثناء وجوده في مدينة الجزائر خلال شهر جويلية، كما يتحدَّث أيضاً عن رقم قوامه ستين ألف ضحية في مدينة الجزائر وحدها[٣].

كما تحدَّث أحد ضحايا هذا الوباء أقصد الأب «بيير فارو» عن الأعداد الضخمة مِن الأسرى المسيحيين الذين ضاق بهم المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر سنة (١٧٤٠مـ) نتيجة هذا الوباء، حتَّى أضحى المستشفى مكانا لتجميع جثث الموتى فقط، إذ لم يستطع بالرغم ممّا كان يقدِّمه إلاّ أن يصبح شاهدا يَعُدُ الضحايا كلَّ يومٍ[٤]، ولعلنا نستنبط من ملاحظاته أمراً في غاية الأهمية وهو تحول المستشفى من مؤسسة استشفائية إلى مؤسسة لحصر الجثث وهذا إنَّما يعود بنا مرَّة أخرى للحديث عن نظرية المؤسسات الاستشفائية كأحد روابط نقل الأوبئة بين المرضى خلال تلك المرحلة الزمنية، وهو ما تؤكد عليه بعض الدراسات

(1) - H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P297.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P31 - ٦Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P78.

(3) - Adrien François Poissant: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 64.

(4) - Pierre Faroux: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 32.

الملاحظة للشَّأن الصِّحي خلال تلك المدَّة الزمنية[١].

على العموم فإن غلبة الظّن تحيلنا إلى أنّ هذه الأرقام في الأخير هي أرقام تتكامل فيما بينها في غياب المصادر الرسمية أو المحلية، وهي انعكاسٌ فعليٌّ لشدَّة هذا الوباء والقوَّة الكبيرة التي شرع بها، ولعل ما سيق من أرقام تنتقل ما بين الألف إلى الأربع مئة إلى المئة ضحية هي في الحقيقة تعبير عن حالة التَّفشي والانحسار التي يعرفها كلَّ وباء.

في الأخير فإنّ الحديث عن رقم (٤٠٠) ضحية يوميا الذي ساقه «بير بروجر»[٢] يعد بالفعل رقم كبيراً، خاصة إذا افترضنا أنّ الانطلاقة الحقيقية لهذا الوباء كانت مع وفود السفينة الفرنسية (Sainte Barbe) في النِّصف الأوّل مِن شهر ماي (١٧٤٠مـ)[٣] وظل بنفس الحدّة إلى غاية منتصف شهر (أوت/ أغسطس) بعدها أصبح عدد الضحايا يوميا قريبا من ٢١ ضحية[٤]، وهو ما يحيلنا إلى ثلاثة أشهر على الأقل أي (٩٠) يوما، وعليه فالقيام بعملية حسابية بسيطة بحسب المعطيات التي توفرها المصادر المختلفة تقودنا إلى رقم كبير لمتوسط عدد الضحايا لا يقل عن (٤٠٠) ضحية/ يوميا، فلو افترضنا ذلك لتحصَّلنا على رقم ضحايا بالشكل التالي:(٤٠٠×٩٠) أي (٣٦,٠٠٠) وهو رقم كبير جدا قد يبلغ عُشر سكان المدينة حينئذ، وهو على كبره لا يكاد يقارن بالرقم الذي أورده

(1) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P23.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °264-265. 27 /05/1740.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P87.

الأب «أرنست فرنسوا» الذي تحدّث عن ستين ألف[1]، أو «مارشيكا» في أطروحته والذي قرَّر أنَّ عدد ضحايا هذا الوباء ناهز السَّبعين ألفا[2].

وإذ قد أتينا على ذكر هذه المعطيات والأرقام التخمينية فهو من باب التأكيد على الآثار الكبير الذي تركه هذا الوباء على المجال التداولي الذي قيّد فيه خبر هذا الوباء، فنحن سنقف على ارتداداته في المخيال العام للآباء الذي شهدوه وقيَّدوا آثاره في كتاباتهم حتَّى بعد عقد كامل مِن مُضيه فنجد الأب بوسو (Aarnolt Bossu) بعد اثنتا عشرة سنة يعود ليرسم ذكراه بصورته العنيفة[3].

أمَّا نحن فنعتقد أنَّ متوسط الضحايا يوميا كان فعلا كبيرا، لكن ليس بالمعطيات المقدَّمة، بل نتوقع أنه يكون قد استقر عند قرابة (٢٥٠) ضحية يوميا أي ما نجم عنه (٣٠, ٠٠٠) وذلك لعدَّة اعتبارات منها على سبيل المثال: أنّ تلك المرحلة مِن السَّنة تعرف ارتفاعا كبيرا لدرجة الحرارة ما يؤدي إلى التَّقليل مِن حركة الأرومات المختلفة، وتراجع تأثير الوباء هو ما نقف عليه فعلا في مراسلة من السيد (*Janville*) إلى غرفة التجارة بمرسيليا بتاريخ شهر(أوت/ أغسطس) مِن سنة (١٧٤٠مـ) يخبرهم فيها ببداية تراجع آثار هذا الوباء[4].

---

(1) - Adrien François Poissant: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 64.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P87.

(3) - Arnoult Bossu: op.cit, M.C.M, P229.

(4) - Lettres de M. de Jonville a MM. Les échevins et députes du commerce de Marseille, Alger le 24/08/1740, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P141,

لهذا فما وجد من أرقام هنا فلا يمكننا الجزم بصحتها كما لا يتأتى لنا إغفالها، لكن ما يمكننا فعلا القيام به هو مقاربة هذه الأرقام وفق المعطيات المختلفة للوصول إلى النتائج الكلية أو النتائج الأقرب إلى الصحة والأكثر واقعية، أي أنّ هذه الأرقام مع تباينها توضّح بما لا يدع مجالاً للشّك أنّ بداية هذا الوباء كانت قوية وحاسمة بشكل كبير.

وهو ما يحيلنا إلى استنتاج آخر، وهو أنَّ بداية كهذه لنشاط وبائي ما يعني ضمنيا إنَّه دخل متلبسا ضمن مجموعة كبيرة من النّاس، ولم يُصب به في البداية عددا محدودا فقط مثل ما قد يُتوهم، فلو افترضنا إنَّه دخل بإصابة شخصين أو ثلاثة أو أربعة لكان انتقال العدوى يحتاج إلى نشاط كبير من هؤلاء النَّفر ولمدة زمنية طويلة حتى يستطيع أن ينتقل عبر الاحتكاك من شخص لآخر، لكننا نعلم أنّ المصابين لديهم ما بين (أربعة وستة أيام) للعيش في دور حاضن الوباء، وفي السنَّة أيام هذه أو الأربعة أيام لابد وإنَّهم سيمكثون يومين على الأقل معتزلين النَّاس في بيوتهم بسبب تطور الوباء، وهذا يعني أنَّ فترة تحركهم ومجال احتكاكهم لن يكون إلاَّ ضمن يومين أو ثلاثة على الأكثر، ولن يكون احتكاكهم خلال هذه المرحلة بتلك القوَّة التي يحدثها مثل هذا الوباء، لذا يمكننا أن نتوقَّع أن مثل هذه الأوبئة في شدّتها غالبا ما تكون ضمن أفواج الحجَّاج أو القوافل التجارية الداخلية أو قد تحملها بعض المحلات والفرق العسكرية عند تحصيلها الضرائب أو ما شابه ذلك.

تجدّد الوباء مرة أخرى سنة (١٧٤١م)

يتجدَّد وباء السنة الماضية مرَّة أخرى في صورة ثانية في الأشهر الأولى من هذه السنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١مـ) إذ تورد رسالة أخرى من السيد «جونفيل» -القنصل الفرنسي في الجزائر- إلى السلطات بلده في مدينة مرسيليا بتاريخ (٠٤/ ٠١/ ١٧٤١مـ) أنّ الوباء بالرغم مِن انحصاره لايزال موجودا[١]، وظلَّ منذ السَّنة الماضية في بعض الجيوب الوبائية في مدن: كقسنطينة ومستغانم، ثمّ إنّ العلاقة التجارية الدائمة بين هذه المدن و عاصمة الإيالة «مدينة الجزائر» قد أدى دون ريب إلى تجديد نشاط الوباء في هذه المدينة أيضا بداية من منتصف الشهر الثاني[٢]، وتشير مراسلة أخرى في وثائق أرشيف وزارة الخارجية إلى تواجد الوباء أيضا في مدينة تلمسان بداية من الشهر الأول لهذه السنة[٣]، فيما يذكر الأب «أدريان فرنسوا» أنَّ الوباء قد تجدَّد ظهوره بداية من شهر أفريل من سنة (١٧٤١مـ)، وأضحى يُحصِي حسب قوله ما بين (٢٠-١٥) ضحية في اليوم[٤]، وهو ما نقله أيضا «مارشيكا» في أطروحته، إذ تحدَّث عن تجدُّد الوباء بداية شهر أفريل

---

(1) - Lettres de M. de Jonville a MM. Les évhevins et députes du commerce de Marseille, Alger le 04/01/1741, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P143,

(2) - Jean Marchika:op.cit., P87.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °279-282. 19 /01/1741.

(4) - Adrien François Poissant: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 97.

وبمتوسط ضحايا قدَّره بما بين(١٥-٢٠) ضحية يوميا[١]، ونجد أنّ هذا المتوسط من عدد الضحايا كان مستمراً خلال الشهرين التاليين أي خلال شهري (ماي-جوان)، إذ حسب ما يورده الأب غابريال (Chaires Marie Gabriel) -في المذكرات الجماعية للرهبان الأوروبيين في الجزائر خلال تلك المرحلة- أنّ عدد ضحايا هذا الوباء كان تقريبا نفس عدد الضحايا في شهر ماي الماضي وهو في حدود (٢٠-١٥) ضحية يوميا[٢]. فيما يرتفع عدد الضحايا حسب بعض المراسلات إلى خمسين ضحية يوميا مع تقدُّم الشُّهور[٣].

كما يمكن أن نؤكد تواجد الوباء في الجزائر خلال شهر جوان وجويلية على الأقل من خلال ما نقف عليه من إشارات إلى قيام السُّلطات الفرنسية في الموانئ الفرنسية بإيقاف إحدى السفن الوافدة من الجزائر بتاريخ (١٨/ جوان ١٧٤١مـ) وذلك لوجود ثلاثة أفراد سقطوا ضحايا نتيجة الطَّاعون الذي كان موجودا في الجزائر كانوا على متن هذه السفينة[٤]، كما ذكر أرنست ماغسيي (Ernest Mercier) بأنّ وباءا ألمّ بقسنطينة فجعلها تعاني مرتين؛ لأنّه تزامن والمواجهات التي كانت تحدث بين قبائل النمامشة وغيرها[٥]، وهو بهذا يشير إلى الوباء الذي نتحدَّث عنه هنا.

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P88.

(2) - Charies Marie Gabriel: mémoires de la congrégation de la mission P109.

(3) - Lettres de M. Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Correspondance des consuls d'Alger, Anne 1741, P266-267,

(4) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P316.

(5) - Ernest Mercier: op.cit., P 258.

مثل ما نجد في إحدى المراسلات الرسمية الصَّادرة من القنصلية الفرنسية في الجزائر في النِّصف الثاني مِن شهر جويلية إشارة صريحة إلى الضَّرر الكبير الذي أحدثه هذا الوباء في كلّ مِن مدينتي قسنطينة وتلمسان[١].

ويمكن أن يكون هذا الوباء هو «التيفوس» إذ أنَّ تتبعنا للبؤر الأولى التي تحدَّثت المصادر عنها يسوقنا إلى السُّجون، وهو ما يفسر التعليمات التي أوردتها الكنيسة للرهبان خلال تلك السنة والتي على رأسها: «جواز ترك القيام بالقدَّاس في السجون في حالة الالتباس بوجود الطاعون في السجن، وهذا من أجل الحفاظ على أنفسهم من خطر الاحتكاك بالمصابين من المساجين خاصة وأنه قلَّما يدرك العبيد والأسرى إصابتهم بالوباء»[٢] وفي قراءة استنباطية لما هو مضمن داخل هذه الوثيقة نجد أنّ التعليمة تحتوي على تحذير ضمني مِن الاحتكاك بالمساجين؛ لانتشار الوباء بينهم.

فإن تحقق هذا أضحى هذا السجن غيره أحد المراكز الأساسية التي ظهر فيها الوباء، وقد سبق القول أنَّ مِن أهم الأماكن التي يشغلها وباء التيفوس (typhus) الأسواق والسُّجون وأماكن تجمع الفقراء إذ يجد فيها مرتعا جيدا له؛ لما يوجد بها من عوامل تساعده على التَّطور والانتشار بشكل أكبر[٣]، وتتبع بعض الأعراض التي أوردتها المصادر خلال تلك المرحلة تدعم هذا الأمر بشكل أكبر.

---

(1) -C.C.F.A] AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °285-286. 17 /07/1741.

(2) - Poirier Dubourg: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 110.

(3) - Baillière Georges Jean-Baptiste: op.cit., P53.

وممّا سبق يتَّضح لنا جليا بأنّ الطَّاعون قد تجددّ العهد به، واستقرَّ به المُقام في مدينة الجزائر لمدة ستة أشهر على الأقل؛ إذ نجد أن المصادر تتحدّث عن انطلاقته في بداية السنة وتدلنا قرينة السفينة السالف ذكرها إنَّه لم يتوقف خلال تلك المرحلة على الأقل بل ونجده أيضا في شهر جوان في مدينة عنابة حسب مراسلة من وكيل الشركة الإفريقية في مدينة عنابة إلى أحد الأشخاص المقيمين بتونس يشرح له صعوبة دخول السفن الفرنسية إلى موانئ الإيالة لسببين: أحدهما الاضطرابات السياسية في مدينة الجزائر، والثاني: الضربات القاسية للوباء التي لم تنقطع بعد[١]، هذه المراسلة مؤرخة في بداية الشهر السَّادس ما يثبت فعلا بقاء الوباء في المدن الكبرى كعنابة.

مثل ما أنَّ هذا الوباء كان سببا مباشرا حسب ما تورده إحدى التَّقارير الموجودة بالأرشيف الفرنسي التي تتحدث عن إلغاء حملة كان من المزمع القيام بها لتأديب بايات تونس خلال شهر ماي وكان من المخطط لها أن يقودها «باي قسنطينة» حينها لكن الأوضاع الصَّحية المتدهورة في المدينة وظهور الوباء بها جعل القيام بالأمر مخاطرة لا فائدة منها، وهذه قرينة ثانية على تواجد الوباء في قسنطينة وأحوازها خلال شهر ماي من هذه السنة أيضا[٢].

يستمر الوباء في الجزائر إلى نهاية السنة تقريبا لكن على مراحل، إذ توضح مراسلة قنصلية ثانية إنَّه بداية من النِّصف الثاني لشَّهر(أوت/ أغسطس) يبدأ الوباء

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °29٨-299. 04 /jun/1741.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °29٤-29٥. 24 /05/1741.

في الانحسار حتى لا يكاد يُرى له ضحايا إلاّ حالات نادرة[١]، وهذا عكس ما ذهب إليه «الأب أدريان فرنسوا» والذي تحدّث عن اشتداد آثار الوباء في شهر (أوت/ أغسطس) وهذا بما لاحظه مِن ازدياد عدد الضحايا والمرضى في المستشفى الأوربي للأسرى في مدينة الجزائر[٢]، وإن كنا نعتقد حقيقة أنَّ شدَّة الوباء خلال شهريْ (أوت) و(سبتمبر) قد تراجعت إلى حد ما؛ وهذا راجع لا محالة إلى الارتفاع الكبير في درجة الحرارة الذي تشهد المدينة خلال تلك المرحلة من السنة، لكن هذا لم يمنع الوباء مِن أنْ يتجدّد مرّة أخرى وإن كان بشكل محتشم في النِّصف الثاني مِن شهر (سبتمبر) ويرتفع عدد الضحايا مرَّة أخرى وبشكل أكبر في نهاية شهر أكتوبر[٣].

فيما تشير رسالة القنصلية الفرنسية إلى انتهاء الوباء في النِّصف الثاني من شهر (سبتمبر)[٤]، مثل ما أورد الأب «أدريان فرنسوا» في تقريره إلى أنَّ الوباء يعود لينحصر في شهر (أكتوبر) بشكل يترك الفرح والسرور في المجتمع[٥].

(1) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P158,

(2) - Adrien François Poissant: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 97.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P90.

(4) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F٣٠٧ °-3٠٨. 2 ٠/09/1741.

(5) - Adrien François Poissant: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 98.

وهو لا يمثل أي تناقض في رأينا إذ أنَّ إمكانية أن يكون الحُكم عاما بانقضاء الوباء لا يعني بأن ينعدم ضحاياه تماماً في مكان آخر، وإنّما في الحقيقة وبشكل علمي يمكننا أن نستخدم في هذه الحالة مصطلح «الانحسار الوبائي» لأنّه يعبِّر فعلا عما كان يحدث مع ضحايا الناجمون عن هذا الوباء، ويكون هذا الانحسار على مستويات متباينة: إمَّا «انحصاراً تاماً» وفي هذه الحالة نصبح نتحدّث عن انقضاء النشاط الوبائي في جل أرجاء الإيالة، وإمَّا انحصارا جزئيا ويكون في منطقة محددة في الإيالة مع بقاء بُؤر وبائية نشطة أو متجدِّدة في أماكن أخرى.

عودة الجيوب الوبائية للظهور مرة أخرى سنة (١٧٤٢م):

مرَّ بنا فيما سبق التقرير الذي أورده السيد «تاتبو» والذي تحدّث فيه عن كون وباء سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١م) بقي يستدعي جيوبه الوبائية للنشاط على امتداد ثلاث سنوات كاملة[١]، لكنه لم يتحدّث عن سير الوباء وتفشيه من مكان لآخر، كان يقضي يوميا على ما بين (٤٠-٥٠) شخصا حسب رسالة أُرسِلت إلى الغرفة التجارية بمرسيليا[٢]، لكن غالبا ما تكون حدَّة وباء (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) قد خفت بعد الانطلاقة القوية، إذ يذكر السيد «جونفيل» في مراسلاته مع مسؤولي الغرفة التجارية الفرنسية بأنَّ حدّة الوباء كانت في تراجع مستمر[٣]، حتَّى إنَّه يكاد

---

(1) - Notice sur le Consulat de M.Taitbout et l'intérim de M. De Jouville, dans Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), Grammont: P221.

(2) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P256.

(3) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P252.

ينقضي تماما في المرحلة الصيفية؛ إذ لم يُسجَّل أي ملاحظة لسقوط وفيات بسبب الطَّاعون طيلة خمسة عشر يوما الأخيرة مِن شهر أوت[١].

مثل ما تقابلنا إشارة إلى هذا الوباء في هذه السنة بطريقة غير مباشرة في أوَّل رسالة قنصلية مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى سلطات بلدها، بحيث نقف على الإشارة إلى رسالة قُيِّدت في شهر جانفي من سنة (١١٥٤هـ/ ١٧٤٢مـ) يشير فيها السيد «جونفيل» إلى بقاء بعض الجيوب الوبائية التي ظهرت السنة الماضية (١٧٤١مـ) على نطاقات ضيقة[٢]، مثل ما تورد رسالة أخرى مِن القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر مؤرخة بـآخر شهر جانفي من سنة (١٧٤٢مـ) ما مفاده بأنّ الوباء قد كان موجودا في جهة «تلمسان» لكنَّه ظل إلى نهاية الشهر على نطاق ضيق وتأثيره لازال ضعيفاً[٣]، وهو نفس ما تقرُّه رسالة أخرى مِن نفس القنصل في الفتاح من شهر فيفري يصف فيها الوضع في إيالة الجزائر بقوله: «..إنَّ الأوضاع الصَّحية هنا جيدة جدا، لكن الوضع مغاير في منطقة «تلمسان» والمناطق المحيطة بها...إذ بقي بعض النَّشاط الطَّاعوني ...»[٤]

كما يذكر الأب «فرانسوا بايسانت» بأنّ مرحلة الهدوء لم تدم طويلا إذ سرعان ما تكرَّر ظهور الطَّاعون في مدينة الجزائر[٥]، كما تشير إحدى الرسائل الصَّادرة عن

---

(1) -Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P269.

(2) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P254.

(3) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P282.

(4) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans C.C.A.G, P284.

(5) - François Paissant: Mémoires de la congrégation de la mission P103.

القنصلية الفرنسية في الجزائر مؤرخة بالسَّادس عشر من شهر (ماي/ ١٧٤٢مـ) أرسلها القنصل «جونفيل» إلى السيد (Maurepas) مفادها: «أنّ أحد السفن الفرنسية قد ظلت عالقة في ميناء مدينة الجزائر ولم تستطع الدخول؛ خوفا من الوباء الذي توطَّن بالمدينة خلال تلك المرحلة»[١].

وقد وصل عدد الضحايا حسب ما ينقله «غيون» خلال هذا الوباء متوسط ما بين (٢٠-٢٤) ضحية يوميا في الأسبوع الأول من شهر جوان[٢]، ليصل في منتصف الشهر إلى متوسط (٤٠-٣٠) ضحية في يوميا[٣].

في نفس المرحلة أي بعد مُضي حوالي سبعة أشهر من الرِّسالة الأولى التي أرسلها القنصل «جونفيل» مِن الجزائر إلى فرنسا نقف على رسالة ثانية من نفس القنصل مؤرخة بـــ (١٠/ ٠٧/ ١٧٤٢) تفيد بدورها بأنّ الوباء ظل موجودا إلاّ أنّ تأثيره كان ضعيفا[٤].

وقد يتولد عما سبق الاعتقاد أنَّ هذا الوباء كان بالفعل ضعيفا ولا آثار له، فيما إن تتبعنا رسائل أرشيفية أخرى سنجد أنَّ لهذا الوباء أثراً بارزاً، فنقف أوّلاً على رسالة قنصلية تورد أنَّ المتوسط اليومي للضحايا نتيجة لهذا الوباء كان لا يقل عن تسعة وعشرين ضحية يوميا (٢٩) وهذا خلال الأسبوع الأول لشهر جوان من سنة

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °20-22. 16 /05/1742.

(2) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P319.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P91.

(4) - Lettres de M. de Jonville a, Alger le 10/07/1742, Dans Revue African., Anne 1889. N°32, P224,

(١٧٤٢مـ)[١]، وتتحدَّث رسالة أخرى عن نفس العدد تقريبا في المنتصف مِن شهر جوان أيضا، فتورد هذه الرسالة أنّ متوسط عدد الضحايا نتيجة هذا الوباء كانت في حدود (٢٠-٢٤) ضحية يوميا[٢] أي: خلال الأسبوع الثاني مِن شهر جوان.

ليبدأ الوباء في الانحسار فعليا بداية مِن شهر (أوت/ أغسطس) وينقضي تماما حسب ما يورده «غيون» في نهاية الشَّهر، مُستنِداً فيما قرَّره إلى رسالة موجودة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية[٣]، بينما نقف على وثيقة أرشيفية أخرى تقرر أن انتهاء الوباء فعليا كان في الثالث من شهر سبتمبر من السنة نفسها[٤].

فإن تقرَّر ما سبق أمكننا التَّحدُّث عن أمرين اثنين: إمّا أنّ هذا الوباء لم يكن بتلك الشدّة التي تستدعي الإشارة إليه والتَّأكيد على التَّفاصيل الخاصة بعدد الضحايا الذين أسقطهم، أو أنّه بقي طيلة فترة زمنية على نطاق ضيِّقٍ في المدن الداخلية أو البعيدة عن دار السلطان فلم يُتح بسبب ذلك للجميع أن يلاحظ انعكاساته الحقيقية خاصة منها الديموغرافية على السُّكان.

---

(1) - C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °37-38. 05 /juin/1742.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °45-49. 16 /juin/1742.

(3) - Lettres du consul de France à Alger, dans les Archives du ministère des Affaires étrangères dans Guyon, P319.

(4) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °68-69. 03 /sep/1742.

وباء (١٧٤٣م)

اختلف في هذا الوباء هل هو مستورد كما جرت العادة مِن خارج الإيالة، أم إنَّه مجرد وباء تكراري؟ استدعى جيوبه الوبائية النائمة، حسبما تذكره رسالة ضمن الوثائق الأرشيفية الخاصة بالقنصل الفرنسي الجديد في الجزائر السيد توماس (Thomas) فإنّ هذا الوباء قد دخل إلى الجزائر في سفينة وافدة من الإسكندرية في الثالث مِن شهر جويلية (١٧٤٣م) كان يقودها القبطان جون جانسوم (Jean Jeanseaume) وغالب الظَّن أنَّ هذه السفينة كانت مصابة بالوباء[١] فكانت السَّفينة –حسب هذه الرؤية– السبب الرئيس في انتقال العدوى مرة أخرى مِن مصر إلى الجزائر، بينما يرى «غيون» أن الوباء قد عاد للظهور مرَّة ثالثة بعد مرحلة الانكماش في بداية سنة (١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م) إذ لم يكن يحصد يوميا أكثر من (١٠-١٢) ضحية[٢]، ونقف أيضا على دليل آخر في إشارة «ابن حمادوش» في رحلته» لسان المقال» إلى وجود الوباء في الجزائر خلال نفس السنة بقوله بأنّهم في طريق عودتهم من حجِّهم: «...بعد خروجهم مِن الجزائر بعشرة أيام توفي الحاج «عبد القادر» شهيداً؛ بالوباء...» وبهذا فهو يُقرُّ بوجود نشاط وبائي؛ الأمر الذي حمل ريس مرسى ميناء «جبل طارق» يقضي بعدم السّماح للسّفينة التي كانت تُقلُّ «ابن حمادوش» وغيره مِن المسافرين بدخول الميناء، بل

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١٣٩ °-142. 17 /07/1743.

(2) - J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P319.

أمرهم بالابتعاد عن المرسى مخافة نقل الوباء إلى داخله[١]، وهو ما حدث فعليا.

وتوجد إشارة أخرى لدى الأب «فرانسوا بايسانت» (François Paissant) المسؤول عن المستشفى الإسباني في مدينة الجزائر في شهر سبتمبر مِن نفس السنة، تتحدَّث عن وجود إحدى الحالات في المستشفى الذي يشرف الأب فرنسوا عليه لأحد الأسرى الإسبان[٢] يظهر عليها نوع مِن المرض والإجهاد الذي قد يكون نتيجة إصابة خفيَّة بالطَّاعون.

ويذكر «مارشيكا» نقلا عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بأنَّ عدد الضحايا في شهر جويلية من سنة (١٧٤٣مـ) كان يتراوح ما بين (١٢-١٠) يوميا[٣]، وقد توسع المجال الجغرافي لهذا الوباء فنجده يمتدُّ إلى بيلك الغرب الجزائري، ويظل مُستمراً إلى غاية الأسبوع الأوَّل مِن شهر أغسطس على الأقل حسب ما تورده إحدى الوثائق الأرشيفية[٤]، لكنَّنا نعتقد أنّ التأثير العام لهذا الوباء ظلَّ مَحصوراً على نطاق ضيق.

كما تذكر مجموعة من المصادر أنّ وباء سنة (١٧٤٠مـ) هو نفسه استمرَّ إلى غاية (١٧٤٣مـ) على الأقل، وأنَّ هذا الوباء مع استمراريته لم يبق محصوراً في منطقة ما بعينها، وإنَّما انتقل إلى أماكن عدَّة مثل مستغانم وتلمسان وقسنطينة، كما أنّ هذا الوباء حسب بعض المؤرخين أتى على عدد كبير جدا مِن الضحايا يصل

(١) – عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري: المصدر السابق، ص ٣٠.

(2) - François Paissant: mémoires de la congrégation de la mission P171.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P92.

(4) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١ °49-15٠. 07 /août/1743.

حسب «بلفان» (Blavin) إلى قرابة الستين ألفا كم سبق ذكره[١].

إلاّ أنّ تتبّع الإحصاءات التي كانت تُدلي بها المصادر والمراجع المختلفة التي سبق رصدها لا تحيلنا على هذا الرقم الكبير، وإنَّما تشير إلى العكس من ذلك بحيث أنّ تأثير هذا الوباء خلال المرحلة (١٧٤٣مـ-١٧٤٠مـ) كان ينحصرا دوما ويتقلّص عدد ضحاياه على مدار السنة إلى أن وصل حسب مدير الشركة الإفريقية في عنابة السيد «فوغاس» (M. Fougasse) إلى نهايته الفعلية في شهر سبتمبر مِن سنة (١٧٤٣مـ)[٢].

تجدد الوباء بعد هدوء سنتين (١٧٤٥مـ)

يُقرُّ «مارشيكا» أنَّ هذا الوباء لم يتمَّ الحديث عنه في معظم المصادر التاريخية التي أرّخت للفترة المدروسة، وإنَّما وردت الإشارة إليه في أحد الكتابات المحلية، وذلك عند الحديث عن مراسلة كانت بين داي إيالة الجزائر وأحد البايات الذين يطالبون بضرورة إرسال المساعدات العسكرية له، غير أنَّ الداي اعتذر عن ذلك مُتحجِّجاً بسوء الأوضاع الصِّحية في مدينة الجزائر نتيجة الطَّاعون الذي كان يضربها[٣]، وهو ما يُفهم بأنّه دليلٌ على وجود طاعون نشط خلال هذه المُدَّة الزَّمنية، وهو الأمر الذي لا يمكننا الجزم به في رأينا إلّا بوجود قرائن أخرى تؤكد على إمكانية تواجد وباء فعلي خلال هذه السنة. كما يمكن أن نحمل كلام

(1) - Jean Marchika:op.cit., P92.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F١ °55-160. 06 /sep/1743.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P9٣.

الداي إن ثبت وجوده فعلا على إنَّه يتحدَّث عن نتائج الطَّاعون الذي تأكد وجوده قبل سنتين أي (١٧٤٣مـ) وأن آثاره لاتزال بارزة للداي.

هدوء مقطوع بطاعون (١٧٤٩مـ)

بعد الإشارة السابقة عن وجود الطاعون لا نقف فيما بين أيديها من مصادر عن إشارات لظهور الطاعون خلال المرحلة الممتدة من ما بين سنتي (١٧٤٥-١٧٤٨مـ) فنجد أن أوَّل الإشارات المستجدة لظهور الوباء مرَّة أخرى هو ما نقله «بير بروجر» من أنَّ الوباء قد تجدَّد ظهوره في الجزائر خلال سنة (١١٦٢هـ/ ١٧٤٩مـ)[١] أي في فترة حكم «إبراهيم بن محمّد باشا»، إلاَّ أنّه اكتفى بهذا ولم يتحدَّث عن تأثيره أو قوته أو آثاره[٢]، مثل ما نقف في إحدى «مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية» على إشارة هامة لدخول الطَّاعون إلى الجزائر، ويعبّر عن ذلك بقوله:»..عام (١١٦٣هـ) الثلث(كذا) وستين ومائة وألف جات الحبوبا....»[٣] زمن «محمّد باشا» وقد ظلت المعلومات حول هذا الوباء قليلة وشحيحة جدا، لذا صرَّح «مارشيكا» بإنَّه يصعُب الحديث عن تفاصيل خاصة بهذا الوباء[٤]، سواءً مِن ناحية الأماكن التي ضربها هذا الوباء أو من ناحية الأعداد التي قضى عليها من الضحايا أثناء زمن بروزه واضمحلاله.

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P207.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P319.

(٣) - مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، ورقة [٣] رقم (١٦٢٤)

(4) - Jean Marchika:op.cit., P94.

لتعرف بعدها إيالة الجزائر عودة المناخ الصحي لها، إذ شهدت الجزائر نوعا مِن الاستراحة القصيرة في مواجهاتها المتكرِّرة مع الوباء، لذا عدَّت العديد مِن الدِّراسات والمصادر المرحلة الزمنية المحصورة ما بين سنوات (١٧٤٤مـ - ١٧٥١مـ) فترة عافية وصحة جيدة، ولم تشهد فيها الجزائر طواعين مؤثرة على الأقل[١] في حين نقف على أنَّ الوباء قد أتى على عددٍ مِن الأماكن في إسطنبول والأناضول ومات به عدد من الأعلام المهمين[٢] وذكر من هؤلاء على وجه التحديد الشاعر العثماني الكبير رحمي أفندي والقائد العسكري محمود باشا فيما اصطلح عليه اسم الطاعون الكبير في المصادر العثمانية[٣].

عودة الوباء من جديد (١٧٥٢مـ)

لم يتطرَّق «بير بروجر» في مذكرته للحديث عن وجود أي وباء خلال هذه السنة، بينما نجد «دي غرامون» يتحدَّث على أنّ الجزائر قد شهِدت خلال سنة (١١٦٥هـ/ ١٧٥٢-١٧٥٣مـ) وباء شديداً، كان يحصد في الشَّهر الواحد ما يبلغ سبعمائة ضحية واستمرّ في ذلك لمدّة أربع سنوات كاملة[٤]، في حين ينقل «مارشيكا» عن مؤلف مجهول قوله أنّ وباء (١٧٥٢مـ) قد استمرّ في الإيالة لثلاث

(1) - Ibid. P93.

(2) - Joseph von Hammer: a.g.e, C 5. s318.

(3) - Şem'dani-zade fındıklılı Süleyman efendi: Mürat T-Tevârih, hazırlayın M.Münir Aktepe, Istanbul Edebiyat fakültesi matbaası, 1976, C 1, s156.

(4) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P306.

سنوات كاملة[١]، ويمكننا التّأكيد على وجود الوباء خلال هذه السنة مِن خلال ما نقف من وثائق أرشيفية مؤرَّخة بالثلاثين من شهر جوان سنة (١٧٥٢مـ) تتحدَّث عن انتشار الوباء في مدينة الجزائر بشكل كبير[٢]. مثل ما نقف عليه في مذكرات الرُّهبان الأوروبيين في الجزائر على ذكر لهذا الوباء، فنجد الأمر يتمثَّل في رسالة مؤرخة في الأوَّل مِن شهر جانفي سنة (١٧٥٣مـ) « ...قيام عدد كبير مِن التُّجار في المدينة بغلق محلاتهم وسقوط عدد كبير من الموتى يوميا في الجزائر؛ بسبب الوباء الذي انتشر بالمدينة واستحكم بها...»[٣] كما أوردت هذه المذكرات بعض المعطيات التي سنأتي على ذكرها وتحليلها فيما هو قادم.

إلاّ أنَّ «دي غرامون» لم يُشر في كلامه إلى الشدَّة التي واصل بها الوباء حصده لضحاياه، فيما نقف في «مذكرات الرهبان والآباء الغربيين» المُقيمين في المستشفى الإسباني في مدينة الجزائر على أنَّ هذا الوباء قد ظهر تقريبا في حدود شهر (ماي) مِن هذه السنة، وكان يأتي دوريا على ما بين (١٥-١٠) ضحية يوميا، لكن الأهالي والأسرى كانوا في ريبة مِن أمرهم، هل هو حقا الطّاعون؟ أم إنَّها مجموعة من الوفيات المتزامنة فقط؟ ولم يتأكَّد هذا الأمر حسب «الأب بوسو» (Arnoult Bossu) إلاَّ في الثالث مِن شهر (جوان) مِن نفس السنة، حينها فقط أدرك الجميع أنَّ الطاعون يتجدَّد مرة أخرى في مدينة الجزائر[٤]، وهو نفس

(1) - Jean Marchika:op.cit., P97.

(2) -C.C.F.A] AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °46-5٠. 3 ٠/06/1752.

(3) - Arnoult Bosssu: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P227.

(4) - Arnoult Bossu: op.cit, M.C.M, T3, P229.

التاريخ الذي يرجحه «غيون» مُستنداً في ذلك على ما قال إنَّها وثائق أرشيفات لاليزارت[١].

ولا يتوقف الخلاف حيال هذا الوباء بين الباحثين حول تاريخ ظهوره بل يمتد إلى منبعه أو مصدره الأساسي، فنجد أنَّ «غيون» قد أشار أنّ مصدر هذا الوباء قوافل الحُجَّاج الوافدة من مكّة المُكرَّمة[٢]، فيما ينقل «مارشيكا» قولين: أحدهما أنَّ لهذا الوباء علاقة مباشرة بالوباء الذي كان قد شاع صيته في اسطنبول سنة قبل ذلك أي سنة (١٧٥١مـ)، وثانيهما أنّ الوباء قد وفد للجزائر عن طريق الجهة الغربية؛ إذ كان مُستقرّاً سنة قبل ذلك في مدينة طنجة المغربية[٣]، وهو الأمر نفسه الذي ينقله بدوره «غيون» عن الأرشيفات الفرنسية لكن بدون ترجيح له[٤].

استطاع هذا الوباء التغلغل في أماكن مختلفة، فنقف عليه داخل السجون حسب ما تذكره إحدى المصادر فتنقل خبر وفاة أحد الأسرى الأوربيين في سجنه سنة (١٧٥٢مأ) نتيجة للوباء[٥].

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P319.

(2) -ibid.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P95.

(4) -les Archives du lazaret de Marseille, Dans. H.C.E.N.A, P320.

(5) -Albert Devoux: relevé des Principaux Français qui ont réside a Alger (1686-1830) , Anne 1872, N°16, P378.

وقد ألقى هذا الوباء بظلاله فعلا على المجتمع من خلال آلية حصد الأرواح التي برع فيها، إذ نقف على ما ينقله «راتسيو مداندي» (Ratio Medendi)[١] ناقلا إيَّاه مِن أحد المصادر المجهولة المؤلف، والتي عايش صاحبها الوباء الذي شهدته الجزائر خلال تلك المرحلة (١٧٥٢-١٧٥٣مـ) -لكنه بقي مجهولا أو فضل أن يبقى مجهولا- يصوِّر فيها الوضع الكارثي نتيجة الوباء الذي أصاب الجزائر خلال هذه السنة، فيرى أنّ الطّاعون قد أهلك حوالي ثُلث السُّكان ممَّن كانوا يقطنون البيوت المفتوحة على الهواء، بينما توفي قرابة الثُلثَان من المرضى الذين كانوا يقطنون المستشفى الإسباني في المدينة، وذلك بسبب الضيق والعدد الكبير للمرضى في المستشفى[٢] وهذا مما يستدعي الوقوف عند هذا القول، فالحديث عن البيوت المفتوحة هو حديث لا مقصود عن نوع محدد من الأوبئة أو الطواعين وهو الطَّاعون الرئوي[٣]، وقد سبق أن مر بنا بإنَّه أحد أنواع الطَّواعين التي تنتقل بشكل سريع ومؤثر عن طريق الهواء[٤].

---

(١) - أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الطبية في جامعة فينا، ولد سنة (١٧٠٤مـ)، اشتغل كثيرا على النظام العيادي والوبائي في الطب، فوضع منهاجا جديدا في هذا الشأن ضمن أعمال كاملة تتضمن مواضيع ووثائق مختلفة نشرت بداية من سنة (١٧٥٧مـ) في فينا تحت عنوان (Ratio medendi in nosocomio practico) توفي سنة (١٧٧٦مـ).

- Hugh James Rose: New general biographical dictionary, Vol VIII, Londan, 1848, P170.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P96.97.

(٣) - انظر الملاحق: ملحق رقم ٢.

(4) - Violle Henri Jules: La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste, P4.

ومن الناحية المبدئية فإنّ بعض ما أورده هذا المصدر قد يكون فيه جزءٌ كبيرٌ من الحقيقة، إلاّ أنّ التَّسليم بسقوط ثُلث السُّكان يُعدُّ نوعاً مِن المبالغة غير المعقولة، فإن اعتبرنا عدد سكان مدينة الجزائر على أقل تقدير خلال تلك المرحلة في حدود (٢٠٠,٠٠٠) فعدد من سقط في هذا الوباء قرابة خمسة وستون ألفا (٦٥,٠٠٠) وهو رقمٌ كبيرٌ جدّاً كما يتَّضح، إضافة إلى أنَّ القرائن لم تتحدّث عن هجمة بهذه الحدّة في هذا الوباء على الأقل. فنجد على سبيل المثال إشارة ضمنية داخل إحدى الوثائق الأرشيفية تتحدَّث عن متوسط سقوط معدله (٥٠) ضحية يوميا خلال شهر جويلية مثلا[١]، بالإضافة إلى مراسلة أرشيفية ثانية موجَّهة مِن الجزائر إلى المشرفين الصَّحيين بمدينة «مرسيليا» في شأن هذا الوباء تتحدّث هذه المراسلة عن سقوط قرابة (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف ضحية خلال هذا الوباء وتترَّقب عودته في ربيع سنة (١٧٥٣مـ)[٢].

فلو أتينا لترجيح ما ذهب إليه صاحب هذا المصدر فيكون الترجيح من حيث كلامه على عدد الهلكى في صفوف المستشفى الإسباني، خاصة وأنّ العدد يمكن حصره وعدّه.

مثل ما أوردت الأرشيفات الفرنسية لا زارت الخاصة بغرفة مارسيليا – les Archives du lazaret de Marseille مِن أحد الوكلاء الذين بالجزائر إلى الغرفة التجارية الفرنسية:«...بأنَّ هذا الوباء قد أسقط فعلا ٤٠٠٠ ضحية إلى الآن، وقد

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °51-52. 21 /07/1752.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °87-94. 07 /Déc/1752.

يشتدّ فتكه أكثر بالناس في فصل الربيع، وهو بدون ريب وباء وافد من طنجة المغربية، يتَّجه بثبات ليغزو جميع التجمعات السُّكنية في ناحية الشرق الجزائري، وهو يحرز تقدُّماً كبيرا باتجاه بمدينة قسنطينة، كما سيصل حتما لإيالة تونس، وإن فعل ذلك فإنَّه سيلحق بها لا محالة أذى كبيرا..»[١] وكأنّ هذا الوباء لما وصل إلى الجزائر وجد المحيط المساعد له حتَّى يتطور بشكل أكبر وأسرع[٢]، وحسبما جاء في أحد المراسلات الخاصة بالقنصلية الفرنسية في الجزائر فإنَّ هذا الوباء استمرَّ في نشاطه تقريبا إلى غاية الثامن مِن شهر أكتوبر (١٧٥٢مـ)[٣]، وهو نفس ما نقف عليه أيضا في موطن آخر يتحدَّث عن كون أنّ هذا النشاط الوبائي قد ظلَّ على حاله إلى غاية بداية شهر أكتوبر من سنة (١٧٥٢مـ) بحيث أَعلَم المُخبريين والأسرى المسيحيين في الجزائر الرُّهبان المسيحيين بذلك، وأضحى عدد الضحايا في هذه المرحلة (أكتوبر ١٧٥٣مـ) لا يتجاوز خمسة إلى ستة أفراد في اليوم، بعدها يضمحل تماما، فلا نكاد نقف له على أي ذِكر لاحقا.

وإذا تحقق ما سبق وجب علينا أن نقول إن هذا الوباء هذه المرة ألحق بالإيالة أذى كبير، لكنه ليس منفصلا عن السَّنوات السَّابقة له، وهو وإن كان امتدادٌ للوباء الذي سبقه بسنة فهو أيضا في حقيقة الأمر بداية للوباء الذي سيكون بعده بوقت قصير، وهو وباء الذي ظهر سنة (١٧٥٣مـ)

---

(1) -les Archives du lazaret de Marseille, Dans. H.C.E.N.A, P320.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P96.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °61-63. 08 /Oct/1752.

وباء سنة ١٧٥٣م/١١٦٦هـ

هذا الوباء على غير العادة لم تغفله المراسلات أو الكتابات بل توقعت حدوثه، إذ نجد عدد مِن المراسلات بين القنصلية الفرنسية والجهات الصِّحية الفرنسية تتكلَّم عن تجدّد وباء سنة (١٧٥٢م) هذه السنة أيضا، لذا فظهوره حسب هذه الوثائق كان مسألة وقت لا أكثر[١]، وتذهب بعض المصادر إلى أنَّ هذا الوباء هو تجلِّي وتجدُّد مستمر لوباء سنة (١٧٥٠م) الماضي ذكره، وقد أعلن داي الجزائر في ربيع سنة (١٧٥٣م) عن وجود الوباء في مدينة الجزائر[٢] على غير العادة، لكنّه من جهة أخرى لم يعلن عن الرقم الحقيقي الخاص بالخسائر في الأرواح ولعل ذلك خوفٌ مِن التأثير على التبادلات التجارية مع أوروبا[٣] إذ كثيرا ما كان انتشار خبر تفشي الوباء في الإيالة يعني نقص أو تقلص الحركية التجارية بين الإيالة والممالك الأوروبية.

ويتكلم «غيون» حيال أنّ هذا الوباء قد عمَّ جُلَّ سواحل الشَّمال الإفريقي، وبالأخص في مدينة قسنطينة والأحواز المحيطة بها، وإن لم يقدِّم صورة عن شدَّة هذا الوباء، إذ اكتفى فقط بذكره عرضا مُشيراً إلى إنَّه قد يكونُ امتداداً للوباء الذي سبقه بسنة (١١٦٥هـ/ ١٧٥٣م)[٤].

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °105-108. 17 /Fév./1753. Et les lettres des 6, 20 novembre 1752 et 8 janvier.

(2) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P228.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °123-129. 23 /Avr./1753.

(4) J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P321.

كلا إنَّ توهُّم ما سبق ممَّا قد يُؤدي بنا إلى الحكم على هذا الوباء بإنَّه كان عارضا لا أكثر، لكن الحقائق التي نقف عليها في مواطن أخرى أرشيفية أو مذكرات لرحالة ومقيمين أوروبيين في الجزائر تفيد بغير ما سبق، إذ قد أوضحت مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر بتاريخ: (٢٣/ أفريل) مِن سنة (١٧٥٣مـ) مفادها وقوع عدد كبير مِن الضحايا والخسائر الكبيرة نتيجة لهذا الوباء، فنجد هذه الوثيقة تتحدَّث عن (٤٠٠) ضحية خلال شهر أفريل لوحده[١]، وإذا عرف هذا قلنا يمكن أن يكون هذا الوباء قد تجدّد فعليا مِن السَّنة الماضية ولعلّه (أي: وباء ١٧٥٣مـ) كان أشدَّ ضراوةً مِن سابقه (أي: ١٧٥٢مـ)، إذ تنقُل لنا بعض المراسلات القنصلية الفرنسية بأنّ عدد الضحايا كان ما بين (٦٠-٧٠ضحية/ يوميا) خلال شهر جوان، فيما نقف في مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى الغرفة التِّجارية الفرنسية بمرسيليا على تقرير يحصي ما يقارب ألفا وسبعمائة ضحية (١٧٠٠) خلال شهر جوان لوحده[٢].

ويدعم هذا الرأي بما ينقله «غيون» من مراسلة أرشيفية أخرى، تذكر أنّ عدد الضحايا خلال شهر(جوان/ يونيو) مِن سنة (١٧٥٣مـ) كان لا يقلُّ عن (١٧٠٠) ضحية[٣]، والرقم عينه ذكرته المذكرات الجماعية للآباء الرهبان المقيمين في مدينة الجزائر، إذ ذكرت أنّ بدايته كانت بعدد (٤٠٠) ضحية في شهر أفريل،

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °123-129. 23 /Avr/1753.

(2) -C.C.F.A] AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °135. 11 /jui/1753.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P321.

وانتهت خلال شهري (جوان وجويلية) إلى قرابة (١٧٠٠) ضحية/ شهريا[١]، وهذه الأرقام تدلّنا على متوسط يومي للوفيات لا يقلُّ عن (٥٦) ضحية يوميا.

وحسب إحدى الوثائق الأرشيفية فقد تفشى هذا الوباء بشكل كبير وسريع في مدينة قسنطينة والمناطق المحيطة بها إلى غاية الحدود مع إيالة تونس[٢]، إضافة إلى كلٍّ مِن مدينة القالة وجيجل[٣]، وهي تقريبا نفس المناطق التي تحدَّث عنها أيضا «غيون»[٤].

لم يتوقَّف الوباء مع شهر أوت كما جرت عادته، إذ ظهرت بعض الحالات الشَّاذة في الإيالة حتَّى خلال شهر سبتمبر، لكن الغريب في الأمر أنَّ النَّشاط الوبائي خلال المرحلة الصيفية لم يتراجع كما عهدناه، بل تفيد المراسلات القنصلية أنّ عدد الموتى ضمن السَّاكنة نتيجة لهذا الوباء في الأشهر الصَّيفية وتحديداً خلال شهري (جويلية–أوت) قد قُدِّر بما يزيد عن أربعة آلاف ضحية[٥].

يمتدُّ هذا الوباء في الغالب أيضا إلى مُدن أخرى كـ «عين ماضي» والمناطق المحيطة بها، وقد ذُكر في ترجمة الشيخ الولي «أحمد التيجاني» أنَّ والده «سيدي محمَّد بن المختار» قد توفي سنة (١١٦٦هـ/ ١٧٥٣مـ) نتيجة لهذا الوباء[٦].

---

(1) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P229.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °141-144. 31 /08/1753.

(3) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P229.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P321.

(5) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °141-144. 31 /08/1753.

(6) -L. Arnaud: histoire de L'ouli sidi Ahmed Et-tedjani, Anne 1861, N°5, P469.

يكاد الوباء ينجلِي تماماً خلال هذه السنة لولا بعض الإشارات المبعثرة في ثنايا المصادر والمراسلات الأرشيفية والتي تتحدَّث عن ظهور بعض الحالات النادرة والمتفرِّقة، فنجد بعض الإشارات العابرة عن هذه الوفيات في بعض مذكرات الرهبان الأوروبيين المسؤولين عن رعاية الأسرى المسيحين في الجزائر تتحدث عن بعض الضحايا خلال شهر سبتمبر(١)، ونقف على حكم يقيني في إحدى الوثائق الأرشيفية يُصرِّح مباشرة بأنّ وباء (١٧٥٣مـ) قد انقضى أمره تماما(٢).

تعرف إيالة الجزائر بعد هذا بداية هدوء حذر للوباء منذ نهاية سنة (١٧٥٣مـ) ويمتد هذا الهدوء في مدينة الجزائر إلى غاية ربيع سنة (١٧٥٦مـ)، لكن هذا لم يعن أن الوباء غاب تماما عن المجال المادي داخل الإيالة، إذ نقف على إشارة عند «مارشيكا» إلى وجود الطاعون في مدينة قسنطينة في مستهل شهر فيفري من سنة (١٧٥٤مـ)(٣)، تعضدها إشارة أخرى أيضا في وثيقة من الوثائق الأرشيفية لوزارة الخارجية الفرنسية تفيد بوجود بعض الحالات التي سقطت نتيجة الطاعون في بعض الجهات في بيلك قسنطينة دون غيرها(٤)، وهو ما يعني تواجد الطَّاعون فعليا، لكنه ظل مُنحصرا كما قيل في بيلك الشرق الجزائري، ولم يتفش إلى غيره؛ ولهذا لا نجد له آثاراً في المصادر التي أرَّخت بشكل ما لهذه المرحلة ، كما أنّ

(1) - Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P228.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °145-146. 3 /sep/1753.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P96.

(4) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °236-237. 29 /01/1754.

غياب معطيات المتواترة والتفصيلية في بعض الأحيان يحيلنا بطريقة ما إلى القـول بأنّ التأثير الذي ظلّ يحدثه وباء (١٧٥٤مـ) لم يكن قويـا لـيُلاحظ؛ لـذا فإنَّـه ظـل دائما على نطاق ضيق حيّا ومُنحصراً في مكان ما دون غيره.

وباء ١٧٥٥مـ

كما قد أُشير إلى وجود عدد قليل وحالات نادرة ومتفرقة من الضـحايا خـلال سنتي (١٧٥٤مـ-١٧٥٥مـ) لكنها ظلت ضعيفة، إذ يشير صاحب مخطوط «بيـان ملوك الجزائر» إلى تجدّد الحبوبا (أي: الطَّاعون) سنة (١١٦٨هـ/ ١٧٥٥مـ) عـلى مرَّتين الثانية منهما صادفت عيد الأضحى بقوله:«...عام ١١٦٨هـ في شـهر العيـد الكبير جات الحبوبا..»(١)، نفس الإشارة نقف عليها عند أحد الرهبان الأوروبيـين في مدينة الجزائر إذ تكلَّم عن وجـود ضـحايا لهـذا الطَّـاعون خـلال نفس المـدَّة تقريبا في مدينة القالة قاربت العشرة آلاف ضحية(٢).

مثل ما نقف على بعض الإشارات الطفيفة عن هـذا الوبـاء في أمـاكن مختلفـة أيضا، فيشير إليه بادئ ذي بدأ «بير بروجر» بقوله أنّه قد عثر في الوثـائق الأرشـيفية للشَّـركة الإفريقيـة عـلى إشـارات تتحـدَّث عـن مـرور الوبـاء بـالجزائر خـلال شهر(أكتوبر/ ١٧٥٦مـ)(٣)، وهو فعلا ما وقفنـا عليـه في أحـد الوثـائق الأرشـيفية الخاصة بالمراسلات الرسمية بين الشركة الإفريقية والقنصلية الفرنسية في الجزائر

---

(١) مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، و[٣] رقمه (١٦٢٤)

(2) - Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P229.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 207.

تتحدَّث عن ظهور العديد من حالات الوباء في مدينة عنابة أواخر شهر جانفي (١٧٥٦م)[١]، وتورد وثيقة أخرى مُرسلة مِن السّيد (Germain) إلى السيد (Machault) نبّأه فيها بوجود الوباء في مدينة الجزائر، وهذه المراسلة مؤرخة بشهر فيفري مِن السَّنة نفسها[٢]، أمّا «غيون» فيشير في هذا السياق إلى أنّ الوباء تجدّد ظهوره ربيع هذه السنة أي: في بداية شهر (مارس ١٧٥٦م)[٣]، فيما ذهب «آخرون» إلى أنَّ الوباء ظهر في الأيام الأولى لشهر فيفري وظل ناشطا إلى غاية أواخر شهر (أوت/ أغسطس)[٤].

حصد هذا الوباء خلال الخمسة الأيام الأولى من شهر مارس ما يقارب (١٦٧) ضحية على الأقل، غير أنّ آثاره ظل دائما مُنحصراً في العامة مِن النَّاس وبشكل محدود أيضا[٥]، وقد يُتوهَّم مِن هذا أنَّ الوباء ظل ضعيفا ومحصورا في مكان ما، وهو معاكس لما يورده عدد من التقارير والمراسلات القنصلية الفرنسية، التي تتحدَّث عن كون الوباء قد ظل مُستمراً في حصد ضحاياه دون هوادة، حتى بلغ عدد من قضى عليه هذا البلاء (٤٣٢٤ ضحية)[٦] خلال الأربعة

(1) - C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F °13-2٠. Journal n° 69 du mois de janvier27 /01/1756.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F٣٣ °-34. 26 /02/1756.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P321.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P103.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P321.

(6)- ibid., P321.

أشهر الممتدة من شهر (فيفري/ فبراير- ماي/ مايو) (١١٦٩هـ/ ١٧٥٦مـ) أي بمعدل (٣٧/ ضحية يوميا)، وهو نفس ما ذهبت إليه المذكرات الجماعية للرهبان، والتي كانت تتحدَّث عن عدد مهول من الضحايا لهذا الوباء قارب (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف ضحية، فإن تحقَّق هذا فعلا كان جديرا بنا القول أنَّ هذا الوباء فقد انتقم مِن تباطئ حركته خلال سنتي (١٧٥٤مـ) و(١٧٥٥مـ)[(١)].

لكن تبقى بعض المراسلات والوثائق المختلفة في مقارنتها مع ما سبقه من أوبئة تعده وباء نشطا لكنه ليس بتلك القوة التي عرفها من قبل، وهذا ما حمل القنصل الفرنسي في الجزائر في مراسلته إلى وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية يتحدَّث عن أنَّ الوباء لم يصل تأثيره إلى حد توقيف الحياة العامة أو عمل حكومة الجزائر خلال تلك المدّة كما جرت العادة في بعض الأوبئة[(٢)].

سنوات العافية وعودة الحياة الصحية في الإيالة(١٧٥٦مـ-١٧٨٥مـ)

بعد مرحلة طويلة امتدت أكثر من ثلاثين سنة متقطعة تسترجع الإيالة نوعاً مِن الهدوء والحالة الصحية الجيدة التي تقطعها بعض الفترات القلقة أو التي حام حولها شكوك في وجود الأوبئة من عدمها، إذ في حقيقة الأمر لا نقف خلال هذه المرحلة الزمنية على قرائن قوية تُحاجج عن الوجود الفعلي للوباء بالإيالة، باستثناء بعض الإشارات لحالات شاذة لوفاة فلان بالطَّاعون أو مجموعة مِن النَّاس مِن نفس الجنس بمرض ما، كما هو الحال بالنسبة لحالة التركي «حسن كارا» الذي

(1) - Arnoult Bossu: op.cit, M.C.M, P229.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F °67-74. 2 /juin/1756.

أُشير إلى وفاته بالطَّاعون سنة (٢٤/ ٠٦/ ١٧٥٨مـ) في مدينة القالـة[١]، كمـا تـورد بعض الدراسات وجود بعض العلامات عن انتشار الوباء في مدينـة قسـنطينة سـنة (١٧٥٨مـ)[٢]، لكن كما تقرَّر سابقا فإنَّ غياب القرائن الدَّالة عـلى حـدوث الأمـر يجعل مِن الإقرار بوجـوده نوعـا مِـن الجـزم في غيـر موضـعه وإن كانـت بعـض المصادر تتحدث عـن آثـار هـذا الوبـاء الكبيـر في إسـطنبول والـذي لحـق سـنة (١٧٥٧مـ) بأحد ولاة العهد العثمانيين في عهد عثمان الثالث[٣].

نقف أيضا عـلى ذكـر بعـض الوثـائق الأرشـيفية الخاصـة بالشّـركة الملكيـة الإفريقية مؤرخة بتاريخ (١٧/ ٠٨/ ١٧٦٣مـ) عـلى تقييـد يفيـد بوقـوع عـدد مـن الأسرى النابوليين موتى نتيجة لوباء ما[٤]، نفس هذا الكلام ينقله «غيـون» فيـذكر بإنَّه اعتماداً على بعض الوثائق الأرشيفية الخاصة بالشركة الأفريقيـة قـد عُثـر عـلى إحدى المراسلات المؤرخة في (١٧ أوت/ أغسـطس ١٧٦٣مــ) تشـير إلى وقـوع خمسة مِن العبيد النابوليين ضحايا للوباء[٥]، ونقف في موضـع آخـر ضـمن إحـدى وثائق الأرشيف العثماني على إسقاط الدولة العثمانية للجزية عـلى أهـالي سـلانيك (Selanik) بسبب الوباء الـذي كـان يضـرب المدينـة المتوسـطية في نفس هـذه

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 207.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P105.

(3) - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu: Mufassal Osmanlı Tarihi, Turk Tarih Kurumu, Ankara, 2001, c. 5, s2551.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, 207.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P323.

السَّنة[١]، ويذكر «مارشيكا» بناء على إحدى وثائق الأرشيف الفرنسي بيربينيان (Perpignan) أنه كان يُشتَبه في زيارة الوباء للجزائر خلال سنة (١٧٦٤مـ) لذا نجد أنّ السّلطات الفرنسية طبقت تدابير الحجر الصحي على السفن الواردة من الجزائر[٢]، والأمر لا يقتصر على السُّفن الوافدة من الجزائر فقط بل على جل السفن الواردة إلى الموانئ الفرنسية، وهذا راجع أساسا إلى انتشار أخبار مفادها تمكُّن الوباء مِن عدد مِن المراكز والمدن التِّجارية الكبرى في حوض المتوسط على شاكلة مدينة «حلب» التي أشار تقرير سنة (١٧٦٢مـ) الوارد في المجلة الفرنسية إلى استمرار الوباء بها طيلة صيف سنة (١٧٦٢مـ)[٣] ومدينة «اسطنبول» التي تحدّثت بعض التقارير عن ظهور بعض الأحياء التي تعاني من تسلُّط الوباء عليها لكنها تبقى أحياء محصورة وصغيرة[٤].

فلو أقررنا الأمر على صورته، ولم يزد عدد الضحايا على الضحية الواحدة أو الخمسة ضحايا فإنَّه ينبغي ألا يُلتفتَ إلى العارض على إنَّه وباء، بل إنّ توهُم هذا ممَّا يؤدي إلى اعتبار كل عارض وفاة لمجموعة من الأفراد نوعا مِن الأوبئة وهذا ما لا يصح عقلا ولا يحتمل واقعا. إذ قد أقررنا في رسم حدّ الوباء -في المدخل- أن يتَّصف بشرط التَّفشي والانتقال بين النّاس ضمن رقعة جغرافية ما أو مجموعة

---

(1) -B.O.A: AE. SMST.III.Dosya N°248.Gömlek N°19٧٩٧. Tarih 1176.M.16. Belg 01.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P106.

(3) -Gazette de France, 1762, N° 74. P.335.

(4) -Gazette de France, 176٥, N° 420. P.166.

مـن الأمـاكن، وهـو مـا لا نقـف عليـه في أمثلـة السـنوات الـثلاث: (١٧٥٨مـ) (١٧٦٣مـ) (١٧٦٤مـ).

وبناء على ما سبق فإنَّ مرحلة الهدوء تمتدُّ على ما ذكرناه من نهاية وباء (١٧٥٦مـ) إلى بداية ظهور بعض الحالات أواخر سنة (١٧٨٤مـ) ما يعني أنّ الإيالة كانت تنعم بنوع من السِّلم الصِّحي، وهو ما ذهبت إليه معظم الدِّراسات التي اختصّت بهذا الموضوع[١] في الوقت الذي كانت فيه منطقة الحجاز قد فقدت ما يقارب اثنا عشر ألف ضحية في موسم الحج بسبب الطَّاعون سنة (١٧٨٠مـ)[٢].

وتكاد المرحلة تكون خالية من الهجمـات الوبائيـة التـي تسـتهدف الإيالـة، باستثناء إشارة واحدة إلى سقوط عدد مِن البحَّارة الجزائريين موتى نتيجة لعـارض وبائي ألَّمَّ بهم سنة (١٧٧٠مـ)[٣]، .وهذا الوباء نقف عليه أيضا في عدد مـن إيـالات الدولة العثمانية في منطقة القرم، حيث خسرت الدولة العثمانية بسببه العديـد مـن المواقع لصالح الإمبراطورية الروسية، مثل ما قضى هذا الوباء على قيـادات هامـة في الجيش العثماني مثل قبطان الجيش العثماني «محمّد باشا» الـذي سـقط نتيجـة الوباء الذي كان يلم بالمنطقة[٤] ما سهل استحواذ روسيا على عدد من قلاع الدولة العثمانية بالمنطقة سنة (١٧٧٠مـ)[٥]

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, 207,208.

(2) - B.O.A: C.EV. Do: N°192. Gömlek N°9580. Tarih 1194.N.29. Belg 01.

(3) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/135. Cotes: F °22-3٠. 25/.02.1772.

(4) - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu: a.g.e, s2575.

(5) - Joseph von Hammer: a.g.e, C 5. S656.

كما حاول «غيون» الإشارة إلى إمكانية وجود وباء لكن بالاستعانة بفرضية مفادها، كثرة القتلى في حملة «أوريلي على مدينة الجزائر سنة[1] (١٧٧٥مـ)» بإمكانية وجود وباء خفي ساهم في القضاء على من أصيب في هذه الحملة بجراح ما بسبب المواجهة، إذ إنَّه مِن المعلوم إنَّه لم يعاف من جنود هذه الحملة إلاَّ النَّزر اليسير جدا[2]، ما جعله يذهب للاعتقاد بإمكانية إصابة جنود الحملة الإسبانية بنوع مِن الأوبئة، وهو الأمر الذي رفع عدد الضَّحايا حسب رأيه في صفوف هذه الحملة، فإن قرّرنا معه ذلك فمن الواجب في هذه الحالة حصر الأمر في فرضيتين أساسيتين هما:

أوّلاً: أنّ الحملة في حدّ ذاتها كانت تحمل بين جنباتها نوعا من أنواع الطَّاعون ولعله الطَّاعون الروسي الذي انتشر في بعض مناطق أوروبا واستشرى فيها خلال تلك المدّة(١٧٧٥مـ)، فإن تقرّر هذا فمن الواجب أن نصرف القول إلى أنّه لا يمكن عدّ هذا وباءً موجودا بالجزائر حتى يجب أن يُدرج فيما أدرجناه.

ثانيا: أنّه وجد فعلا نوع من الأوبئة خلال تلك المرحلة وانتقل إلى السّفن الإسبانية لكنه كان محدودا وبسبب نشوة الانتصار أغفلت المصادر المحلية الجزائرية الإشارة إليه.

(١) - عن هذه الحملة يراجع: خيرالدين سعيدي: حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م من خلال مخطوط «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» مع تحقيق الجزء المتعلق بالحملة من المخطوط. مجلة آفاق الثقافة والتراث. دبي، ذو الحجة ١٤٣٦هـ/ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٥م). ـ ص ص: ١٧١ ـ ١٩٥.

(٢) - ابن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق خيرالدين سعيدي، الطبعة الأولى، دار أوراق ثقافية للنشر، جيجل، الجزائر، ٢٠١٧، ص١٥٧.

غير أنَّ ما جعل الفرضية الثانية صعبة التَّحقق هو عدم إشارة القناصل أو الأسرى في مذكراتهم خلال تلك المرحلة لوجود وباء ما أو انتشار طاعون ما في الجزائر، ولعلّه الأمر الذي حمل «مارشيكا» على تجاوز الحديث عنه تماما خلال تلك السنة[١].

إضافة إلى هذا فإنَّ انعدام وجود الوباء في المناطق الشمالية في الجزائر لم يصاحبه الأمر نفسه في المناطق الجنوبية للجزائر، هذا وقد ذكر صاحب كتاب «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف» أنَّه في سنة (١١٩٦هـ/ ١٧٨٢مـ) شُوهد انتشارٌ للوباء بين المواشي، وهو ما يمكن أن نسميه بالجائحة الحيوانية، وعرفت المنطقة جدب امتدَّ في الصَحراء سنة (١١٩٦هـ/ ١٧٨٢مـ) وكان سببا في المواجهات القَبلية بين أهالي القبائل في الصحراء من جهة، وبين القبائل التي تعيش بالصَّحراء والسُّلطة العثمانية من جهة أخرى[٢] ولعلَّه نفس الوباء الذي تحدّث عنه الأب (Poiret) بقوله سنة (١٧٨٥مـ)-في أولى رسائله إلى صديقه الدكتور فُرستير -:«..أنّ الوباء قبل سنتين قد دمّر البلاد..»[٣] وهو ما نقف عليه فعلا في بعض المصادر الأخرى التي اطّلعنا عليها أو أرَّخت للأوبئة خلال تلك المدَّة أو أشارت إلى ذكر وباء ما بشكل عارض فمن ذلك مثلا ما نقف عليه من إشارات في رسالة لوكيل الشركة الإفريقية في القالة سنة (١٧٨٥مـ) والتي أبان فيها

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P106.

(٢) – إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ٢٦٨.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27, op.cit., 12 Mai 1785.

عن وجود الآثار الكبير الذي خلفه وجود الوباء في المدينة منذ سنتين على المدينة وسكانها قائلا أنّه قد أدى الوباء الذي ظهر في المدينة منذ سنتين إلى تدميرها وتشتيت أهلها[١]، وهذا من شأنه أن يقيد المرحلة الزمنية التي نضعها لانخماد النشاط الوبائي إلى سنة (١٧٨٣م)، ويؤكد مِن جديد إنَّه لا يمكننا أنْ نتحدَّث بأحكام مُطلقة عن اندثار الوباء في جميع أرجاء الإيالة في وقت واحد أو طيلة مدَّة زمنية واحدة ومنتظمة في جميع المواطن بقدر ما يكون متذبذباً مِن مكان إلى آخر.

وقد تحدَّثت مثلاً الجرائد الرسمية الفرنسية لسنة (١٧٨٣م) عن انتشار الوباء في أرجاء مختلفة مِن الدَّولة العثمانية[٢]، بل نجده يتفشى في عاصمة الدولة العثمانية في حد ذاتها بداية مِن (٠٤ ذو الحجة ١١٩٧هـ) أي في حدود (٣٠ أكتوبر ١٧٨٣م)[٣]، وأسهبت الجريدة الفرنسية في التحدَّث عن الأعداد المهولة مِن الضحايا[٤] وتتحدث بعض الوثائق في الخط الهمايوني العثماني عن ما يقارب من ثمانية آلاف فرد من العساكر على الأقل في ولاية بلغراد فقط في مدة وجيزة جدا ما فرض على محافظ الإيالة «عزت باشا» الطلب من الدولة العثمانية إرسال تعزيزات عسكرية جديدة لمواجهة خطر التناقص العسكري في الإيالة بسبب هذا الوباء وما قد يترتب عنه[٥]

---

(1) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.

(2) -Gazette de France, 1783, N° 65. P.287.

(3) -B.O.A: HAT. Do: N°12. Gömlek N°438B. Tarih 1197.L.23. Belg 01.

(4) -Gazette de France, 1783, N° 65. P.287.

(5) -B.O.A: C.ML. Do: N°406. Gömlek N°16652. Tarih 1197.Z.04. Belg 03.

والوباء المذكور غالبا هو نفس الوباء الذي ظهر سنة (١٧٨٣م) وجعل له الأب « بواغي « (Poiret) زخما كبيراً واصفاً إيَّاه أيضا بالوباء المدمِّر، وهو ما ينقله «غيون» أيضا عن الأب في كتابه عن رحلته في شمال إفريقيا، بل ويقرِّره فعلا إذ يتحدَّث عن وجود الوباء في «بيلك قسنطينة» خلال هذه السنة[١]، وهو ما أشار إليه أيضا «مارشيكا»[٢]، غير أنّ هذا لا يتطابق مع رؤية «بير بروجر» والذي يؤكِّد خلو الجزائر مِن أي طاعون أو وباء خلال المرحلة الممتدة من (١٧٥٦م) إلى(١٧٨٤م)[٣]، أمَّا أوَّل الإشارات التي نقف عليه في أرشيف المراسلات القنصلية الفرنسية فهي تؤرخ بـ (٢٧ ماي ١٧٨٦م) وتتحدَّث عن موت أحد الركُاب الذين كانوا برفقة سفينة فرنسية تحركت من الجزائر وكان قائدها حينها القبطان[٤] (Jean François) « جون فرنسوا».

الطاعون يضرب الإيالة التونسية ويهدد الإيالة الجزائرية من جديد (١٧٨٤م)

وإذا عرف هذا فمن الواجب العودة إلى مقصدنا مِن القول إذ إنَّه في نفس السنة أي: (١٧٨٤م) التي كان الخلاف حول وجود الوباء في الجزائر مِن عدمه، فإن الأخير كان على أشدّه في كلّ من تونس ومصر،[٥] وقد ساد الاعتقاد بأنّ طريقة

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P329.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P110.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, 207,208.

(4) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F °63-64. 27 /05/1786.

(5) - B.O.A: HAT. Do: N°29. Gömlek N°1361. Tarih 1198.Ş.13. Belg 01.

ولوجه الإيالة التونسية كان عن طريق سفينة وافدة مِن «الإسكندرية» كانت تحمل على متنها مجموعة من المصابين بالوباء، وقد أعلن عن وجود الوباء في تونس فعليا بداية مِن منتصف شهر جويلية سنة (١٧٨٤مـ)[١] وقد أُعلِن أيضا عن وجود عدد مِن السُّفن التابعة للإمارات الإيطالية أصيبت بالوباء[٢] خلال نفس المرحلة، وعليه أصبح انتشاره في كامل حوض المتوسط (خاصة منه في الناحية الجنوبية الغربية) أمرا واقعيا مسلما به.

كان لهذا الوباء بالغ التأثير على تلك الأقطار وقد تحدث عنه ابن أبي الضياف فقال: وفي سنة (١٧٨٣مـ) وقع بالمملكة طاعون جارف، وهو المعروف عند أهل الحضر بالوباء الكبير، مات بسببه أعيان من الحاضرة، وآثار في عمران البلاد نقصا فادحا[٣]، وهو ما حمل» فونتير دي برادي « (*Venture de Paradis*) على القول بأنّه قد تسبَّب في إحداث نوع من الفوضى داخل الإيالة التونسية؛ وهذا بقضائه على قرابة مائة وخمسين ألف (١٥٠,٠٠٠) نسمةٍ خلال ستة أشهر[٤]، وقد أشار الأب «بواغي» في رسالته الخامسة والعشرين وهذا عند مروره على منطقة طبرقة سنة (١٧٨٥مـ) بأنّ الوباء استحكم فيها السنة الماضية، يقصد سنة (١٧٨٤مـ)[٥] فيما

---

(1) -Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T P 2.23

(2) -Gazette de France :1787, N° 61. 30.07.1784.

(٣) – أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان ، ج٣، ص ١٤.

(4) - Venture de Paradis: Alger aux XVIII siècle (1700-1799), édité par Fagnan Alger, Typographie Adolph Jourdan 4, place du gouvernement, 1989, P 33.

(5) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°25,op.cit.,P179.

تذهب بعض التقديرات إلى أرقام أكبر من ذلك وأخطر بكثير إذ تتحدَّث عن (١٨,٠٠٠) ضحية من مجموع (٤٥,٠٠٠) نسمة في مدينة طرابلس وقرابة (٣٠٠,٠٠٠) ضحية في الإيالة التونسية مما مجموعه المليون نسمة[١]، وقد بلغ متوسط حدّ الوفيات في معظم الأيام قرابة (٣٠٠ شخص يوميا)[٢]. ويرى «بير بروجر» أنَّ متوسط الموتى كان في حدود (٢٠٠ضحية/يوميا)[٣]، لكن الأمر الذي لا تختلف حوله المصادر هو أنَّ هذا الوباء كان خطيرا جدا، وتورد «المجلة الفرنسية» تقريرا بتاريخ (١٧/ ٠٧/ ١٧٨٤مـ) عن كون الوباء اكتُشف في عدد من السُّفن البحرية، وأنَّ آثار هذا الوباء كنت قد امتدت إلى جل الدُّول المتوسطية الممتدة من إيطاليا شرقا إلى جبل طارق غربا[٤]، وانعكس وجود هذا الوباء على نواحٍ عديدة وبالأخصّ مِن النَّاحية الديمغرافية ومِن النَّاحية الاقتصادية، ما جعل الأب « بواغي » يتأسَّف على الحالة الفظيعة التي ترك الوباء عليها تونس ما بين (١٧٨٤-١٧٨٥مـ)[٥]

لنبقى نطرح التساؤل كيف لوباء بهذا الحجم أن يبقى مستترا أو لا يوجد تماما في الجزائر؟ إذ حسب «بير بروجر» لم نقف على أي آثار له في مدينة الجزائر على

(1) -Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P226،

(2) - Venture de Paradis: op.cit., P 33.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P211.

(4) -Gazette de France :1783, N° 61. P25٠.

(5) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P182.

الإطلاق[١]، لكن هذا لا يتنافى ووجوده في مواطن أخرى غير مدينة الجزائر، إذ إنَّه قد ذُكِر في إحدى المراسلات الأرشيفية للشركة الإفريقية في مدينة عنابة إنَّه قد رُصِدت حالتان اثنتان لضحيتين من سكان المدينة قد أصيبا بنفس أعراض هذا الوباء في شهر أكتوبر من سنة (١٧٨٤مـ)[٢].

مثل ما تحيلنا مراسلة أخرى مِن الشركة الإفريقية أوردها «شارل فيرو» مؤرخة في ماي (١٧٨٥مـ) إلى تفشي الوباء منذ سنتن أي سنة (١٧٨٣مـ) وذلك في عدد محدود من أحواز مدينة القالة[٣] كما تشير قرينة أخرى عبارة عن رسالة مضمّنة في الكتاب نفسه مؤرخة بـ (٢٨ جانفي ١٧٨٥مـ) تشير إلى انتشار الوباء في القالة منذ تسعة أشهر تقريبا[٤] أي منذ أفريل (١٧٨٤مـ) في العديد من الأماكن، لكن الإشكال أنَّ هذه الإشارة ظلت مجرد تخمين لم يقطع بصحته بوجود قرائن أخرى يمكننا الاستدلال بها أو الاحتجاج بها على وجود الوباء فعلا، فإن تقرّر هذا؛ رأينا إنَّه مِن الأصوب أن نتحدَّث عن اشتباه وجود الوباء في جزء من البلاد ممثلا في بيلك الشَّرق الجزائري أي قسنطينة ومدينتي القالة وعنابة لم يتعدَّ هذا الوباء على الأقل خلال المرحلة الأولى هذا النطاق، ولعلَّه بسبب اقتصار وجود شبهة الوباء على مدينتين دون غيرهما جعل معظم الدّراسات تبتعد عن اعتباره وباءً حلّ فعليا

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, PP 207،208.

(2) -Lettre de l'agent précité, en date du 4 octobre. Dans (Guyon) P330.

(3) - Charles Féraud: op.cit. ،P395.

(4) - Ibid. P414

بالجزائر خلال هذا السَّنة وتقتصر على ذكر وجوده في تونس وما ألمّ بها بسببه[١]، ولو أنّه لم يكن كذلك لوجدنا عدداً مِن المصادر تعدُّه فعلا أحد الأوبئة التي ألمَّت بالجزائر ولدرس بنفس الكم والكيف الذي دُرست به الأوبئة الأخرى.

وعليه فإننا إن أردنا أن نجعل من الحديث السردي الذي مر بنا في هذا المبحث حديثا رقميا بالمعطيات لتطور الأوبئة ومدى تأثيرها خلال المرحلة الممتدة مِن (١٧٠٠-١٧٨٥مـ) فإننا لن نجد أفضل من تجسيد هذا الأمر في أعمدة بيانية قد تختصر إلى حد ما الكثير من الحديث وتعطي تصوراً عاماً.

٢. كرونولوجيا تفشي الوباء (١٧٨٦ – ١٨٣٠)

حاولت إيالة الجزائر ممثلة في شخص باي قسنطينة أن تنأى بنفسها عن الوباء الذي كان يضرب بقوّة في كلّ من تونس وليبيا ومصر سنة (١٧٨٥مـ)[٢]، وتمظهر هذا السّعي في منع «صالح باي» سكان بيلك الشرق الجزائري من جميع أشكال المعاملات التِّجارية ومختلف أنماط الاحتكاكات مع القبائل التونسية في المناطق الحدودية[٣]، إلاَّ أن هذا الاحتراز لم يأت أكله، إذ تذكر بعض الوثائق تفشي هذا

(١) - انظر على سبيل المثال:

- Marthe Conor: Une épidémie de peste en Afrique mineure
- Adrien Berbrugger: mémoire sur la peste en Algérie
- J.-L.-G. Guyon: op.cit.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P220.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P212.

الوباء لاحقا -حسب الوثيقة المُرسلة من وكيل الشركة الإفريقية الفرنسية في عنابة إلى القنصل العام الفرنسي في الجزائر- في بعض أحواز مدينتي القالة وعنابة، وهذا ابتداءً من شهر (فيفري/ ١٧٨٥مـ/ ١١٩٩هـ)[١] كما نقف على رسالة أخرى أُرِّخت بـ الثاني عشر ماي (١٧٨٥مـ) تتحدَّث عن تفشي الوباء في نواحي القالة[٢] ، والملاحظ أنّ هذه المناطق كلُّها مناطق محاذية للحدود التونسية؛ وعليه فهي تقع في مرمى الحركة التجارية والحركة الرعوية لقبائل تلك الأماكن ما يجعل عملية الاحتكاك أمراً وارداً وبشدّة، وهو الأمر الذي حمل الأب «بواغي» على عدم إتمام رحلته باتجاه مدينة قسنطينة والتي كان يبرمج زياتها في شهر مارس من هذه السنة، وذلك لما رأى فيها من مخاطر انتقال الوباء إليه وصعوبة السَّيطرة على التَّواصل مع السكان المصابين بهذا الوباء ما يجعل إمكانية إصابته بهذا الوباء كبيرة جدا[٣].

فإن سلّمنا بإمكانية ما سبق الحديث عنه صرفنا القول إلى الكيفية التي تسرَّب بها إلى داخل إيالة الجزائر، فنجد أنّ الطّاعون بعدما دخل مدينة القالة وعنابة واستقرّ بهما شرع في التَّوغل أكثر إلى داخل الإيالة لكن بشكل بسيط، فنقف عليه يسير أولا وفق محور طبرقة القالة في المرحلة الأولى، وقد قضى على عدد من القبائل المرابطة بالحدود التونسية الجزائرية[٤]حتَّى يقول عنه «بايسونيل» بإنَّه عند

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P33٢.

(2) - Charles Féraud: op.cit., P395.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 191.

(4) - Masson Paul: op.cit., P452.

مروره بالقالة كان له من القوة ما سمح له بتدمير البلاد والقضاء على عدد كبير من السكان[1].

يبدأ في التَّسرُّب مِن مدينة القالة باتجاه المناطق المحيطة بالمدينة والقريبة، فنقف عليه بالفعل في بعض القرى والمداشر التي مرَّ بها الأب «بواغي» وذكر في بعض رسائله إنَّه قد أُعلِن بها وجود الوباء لذا فضلوا الابتعاد عنها[2].

وقد مضى الحديث عن محاولة «باي قسنطينة» منع تقدُّم هذا الوباء إلى الأمام لكن مسعاه في الحقيقة لم ينجح[3]، وهذا لعوامل عدَّة: أهمها صعوبة مراقبة الحدود الفاصلة بين إيالة الجزائر وإيالة تونس من جهة، ومن جهة أخرى لانعدام وجود ثقافة طبية لدى أهالي القبائل الموجودة في المنطقة الحدودية تساعد على السيطرة على الوباء، فاستطاع بذلك هذا الوباء القضاء على عدد كبير من السّاكنة في مُدن بيلك الشرق الجزائري، كما استطاع دخول مدينة الجزائر وأخذ العديد من الضحايا معه، خاصة من جنود الإنكشارية وهو ما نلتمسه في رسالة من أسير إسباني كان متواجدا في الجزائر خلال تلك المرحلة [4].

(1) - Peyssonnel et Desfontaines: op.cit., T 2, P226.

(2) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°5,op.cit.,P26. Et -R. L. Playfair: Visite au pays des khomair (Kromirs), Anne 1888, N°25)P52.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P214.

(4) - Venture de Paradis: op.cit., P168.

وعليه فظهور هذا الوباء في إيالة الجزائر قد تأخّر نسبياً مقارنة بظهوره في كلٍّ مِن المغرب الأقصى وتونس خلال سنة (١١٩٧هـ/ ١٧٨٤مـ)[١]، وحدَّته خلال المرحلة الأولى لظهوره كانت أقلّ من حدّته لدى الجارتين؛ وهذا راجع غالبا للاحتياطات التي اتَّخذها باي قسنطينة «صالح باي» بمنعه لعملية التواصل والتبادل التجاري بين القبائل الجزائرية في بيلك الشرق الجزائري ونظيراتها في الإيالة التونسية متأسيا في ذلك بالأوروبيين حسب قول الأب «بواغي»[٢].

استمرّ هذا الوباء في حصد الضحايا خلال شهري مارس وأفريل بحسب ما نقف عليه من رسائل مرسلة من وكيل الشركة الإفريقية السيد «بروينيون» (Bourguignon) إلى القنصل الفرنسي العام في مدينة الجزائر، وذكر في هذه الرسائل استمرارية الوباء وشدَّته خلال هذه المرحلة [٣]، كما نقف عليه على غير العادة نشطا وقويا في الصيف فيذكره كل من غيون[٤] ومارشيكا، ويؤكدان على أنَّ الوباء قد ظلَّ نشطاً في مدينة «عنابة» خلال شهر جوان بشكل عادي[٥]، لتتراجع حدَّة هذا الوباء في شهر (أوت/ أغسطس) حتَّى يصبح الأمر في حكم المنتهي تماما خلال هذا الشهر؛ وهو ما حمل وكيل الشركة الإفريقية في رسالته المؤرخة في (٢١

---

(1) - Ibid. P 33.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 212.

(3) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P334.

(5) - Jean Marchika:op.cit., P119.

أوت ١٧٨٥مـ) على القول[١]: «بأنّ الحالة الصَّحية جيِّدة في المدينة» لكن لعله يقصد المحيط الخاص بالشركة الإفريقية تحديدا؛ لذا فأنَّنا نجده يؤكد الحديث عن تعافي المدينة مِن الوباء وهذا في رسالة ثانية مؤرخة بـ (٢٧ سبتمبر ١٧٨٥مـ)[٢].

غير أنّ العديد من المراجع ترى عكس ذلك وتسلك مسلكاً غير ذلك الذي ذُهب إليه، إذ تتحدَّث في الكثير من الأحيان عن سقوط العديد من الضحايا نتيجة لهذا الوباء خلال الأشهر الأخيرة مِن السَّنة نفسها، وتقريبا منذ بداية الشهر العاشر كما يذكر حاكم حصن البيستون في القالة السيد (*Almaric*) في رسالة إلى القنصل الفرنسي العام في مدينة الجزائر مؤرخة بـ (٢٨ أكتوبر ١٧٨٥مـ) بأنّ الوباء قد تجدَّد مرَّة أخرى في هذا الشهر وبدأ في حصد ضحاياه من جديد[٣]، ثمّ يسترسل (غيون) في الحديث عن سقوط ضحايا في كلٍّ مِن: مدنية عنابة والقالة وقسنطينة خلال الشَّهر الأخير مِن السَّنة (١٧٨٥مـ)[٤]،وهو نفس ما يشير إليه الأب «بواغي» حينما يتحدَّث عن سقوط العديد من الموتى؛ نتيجة لهذا الوباء، وهذا ضمَّن إشارة عرضية إلى ذلك في ثنايا رسالته المؤرخة في آخر شهور سنة (١٧٨٥مـ) والمرسلة إلى الدكتور فورستر (*Forestier*)[٥].

---

(1) - Lettre de M. Barre dans: H.V.P.C, P425

(2) - Lettre de M. Barre dans ; H.V.P.C, P.426

(3) - Lettre de M. Almaric dans: H.V.P.C, P425

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP 334, 335.

(5) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 59-61.

قد يُعتقد ممَّا سبق أنَّ الوباء قد ظلَّ نشطاً بنفس الوتيرة طيلة المرحلة المُتحدَّث عنها، إلاَّ أنَّ الحقيقة تدلنا إلى أنَّ الوباء كان يمرُّ بمراحل يشتدُّ فيه هجومه، ومراحل أخرى تفتر فيها قوَّته، فنجده يتراجع أو ينحصر خلال فترة زمنية ما تحدث في النِّصف الأوَّل مِن شهر (أوت/ أغسطس) مثل ما سبقت الإشارة إليه، بينما نجده في مراتٍ أُخرى يسترجع حيويته ويتفاعل النَّشاط بشكل أكبر خاصة بعد بداية شهر أكتوبر وما يصاحبه مِن تغيرات مناخية بانخفاض درجة الحرارة وتزايد مستوى التَّساقط.

الوباء يأبى الرحيل (١٧٨٦م)

عدّته العديد مِن الكتابات مِن أصعب الأوبئة التي شهدتها الجزائر، وما جعل آثاره شديداً أنّه قدم مباشرة خلف مجاعة قاسية عرفتها البلاد، سُمي في بعض المناطق باسم «حبوبه المجاد» وذلك بسبب ما حصد من ضحايا في صفوف هذه العائلة، بل نقف -في بعض المصادر- على ما يروى من أنّ هذا الوباء قد قضى تماما على أفراد عائلة (المجاد)[1].

تحقَّق ظهور وباء (حبحوبه المجاد) في عدد من المصادر الإخبارية، فنجد صاحب مخطوط بيان ملوك الجزائر يتحدث عنه بقوله: «ثمَّ مِن بعد ذلك جات الحبوبا للجزائر عام (١٢٠٠هـ)..»[2] وحسب مُذكرات الأب فيشيرا (*Vicherat*)

(1) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

(٢) - مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم (١٦٢٤) و[٥]

في الجزائر فإنه قد أعلن عن تواجد هذا الوباء في شهر جويلية من سنة (١٧٨٦مـ)[١].

فيما يذهب البعض إلى أنّ هذا الوباء الذي ظهر في الجزائر سنة (١٧٨٦مـ) ما هو في حقيقته إلاَّ امتدادٌ طبيعي للوباء الذي ظهر في مصر سنة (١٧٨٤مـ) وليبيا وتونس إذ تذكر التقارير الاستخباراتية الواردة إلى فرنسا إنَّه وبالرغم مِن الاحتياطات التي حاولت الإيالة المصرية اتّخاذها فإنَّها لم تفلح في السَّيطرة على الوباء هذه المرَّة[٢]، كما امتدَّ الوباء في نفس السَّنة أيضا إلى الإيالة التونسية سنة (١٧٨٤مـ) وكان موجودا بالفعل بها في سنة (١٧٨٦مـ) حسب التَّقرير الذي أورده السَّيد (Alasia) ألاسيا إلى ملك سيردينا حينها[٣]، كما تذكر دراسات أرشيف باستور وجوده وفعاليته في طرابلس الغرب (١٧٨٥مـ)[٤]، وحسب «غيون» فإنّ الوباء تجدد ظهوره مع بداية شهر فيفري من سنة (١٢٠٠هـ/ 1786مـ) وتحديداً في الأماكن القريبة من مدينة عنابة[٥]، وهو ما يتّفق مع رؤية «بير بروجر» مِن ناحية مكان ظهور هذا الوباء.

---

(1) - Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568).

(2) -Gazette de France :1784, N°70. P287.

(3) -Jean Alasia: Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne. Dans: M.C.M. PP (444-448).

(4) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P222.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP343.

فيما يختلف «غيون» مع «بير بروجر» من النّاحية الزمانية، إذ يناقش «بير بروجر» ظهوره زمنيا في بداية الربيع وتحديدا مع منتصف شهر مارس، ويستبعد أن يكون من بداية شهر فيفري. ويقرّر ذلك من خلال حجّتين: الأولى تتمثّل في سماح الوكيل الخاص بالشركة الفرنسية في عنابة لاثنتا عشرة سفينة بالإبحار باتّجاه الموانئ الفرنسية[1]، فإن سلّمنا بذلك وجب علينا أن نُقرَّ بأنّ المنطقة خلال هذه المرحلة كانت تتمتع بالصحة الجيدة إذ لم يكن قد ظهر بها بعدُ الوباء، وبهذا يُؤسِّس لفكرة أعمق وهي أنّ الاحتراز مِن الوباء خلال تلك المدَّة بالنسبة للدول الأوروبية أو على الأقل بالنسبة لفرنسا كثيرا ما كان بشكل استباقي، أي أنّ الاحتراز مِن الوباء بحسب القائمين على الأعمال الفرنسية كان ينطلق مِن خارج فرنسا وذلك خوفا مِن انتقال المرض إلى فرنسا حسبما يُفهم.

كما يستعين في الحجة الثانية بشاهد آخر وهو أنَّ ظهور الوباء كان متزامنا مع عودة فصل الربيع، فيقول:»...أنّه من الفاتح مارس إلى غاية العاشر أو الرابع عشر مِن نفس الشهر كان عدد ضحايا هذا الوباء ما بين خمسة وستة أشخاص يوميا»[2]، أي: أنّه لما لم يُلاحظ وجود ضحايا لهذا الوباء قبل الفاتح من مارس، وهو في الحقيقة نفس ما ذهب إليه «غيون» في موضع آخر إذ تحدَّث بدوره عن ضحايا هذا الوباء بداية مِن شهر مارس، مستدلا على ذلك بالوثائق الأرشيفية للشركة الإفريقية الفرنسية بعنابة، وفي نفس الوقت يشير إلى أنّ الوباء كان قد أسقط بعض الضحايا

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P218.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P218.

في أحواز مدينة عنابة، وهو ما ذكرته بالفعل مراسلة رسمية من وكيل الشركة الإفريقية في المدينة إلى السُّلطات الفرنسية في الرابع عشر مِن شهر مارس (١٧٨٦مـ) إذ قرَّر حينها أنَّ الوباء ظهر في بعض المناطق المحيطة بالمدينة وإنَّه كان يسقط ما بين خمسة وستة أشخاص في اليوم الواحد، ليتطوَّر في الأسبوع الثاني إلى ما بين أربعة عشر وثمانية عشر ضحية في اليوم[١].

بينما يذهب الأب «فيشرا» تقريبا نفس المذهب في تحقيق دخول وانتشار هذا الوباء في الجزائر، إذ يرى إنَّه قَدِم ضمن السفينة المذكورة مع وفود الحجاج الجزائريين التي رجعت من «مكة المكرمة» عبر إحدى السُّفن التي كانت متواجدة بالإسكندرية ودخلت إلى مدينة عنابة خلسة[٢].

وهو ما تنقله بعض الأبحاث مِن أنّ هذا الوباء قد وفد إلى الجزائر عن طريق ميناء مدينة عنابة، إذ رست في ميناء المدينة سفينة القائد «غِيبار» (Guibert) الذي قَدِم إلى الميناء مِن سواحل الإسكندرية محمَّلاً على متن سفينته مائتيْن وستة عشر حاجا عائدا من البقاع المقدسة، سقط أثناء طريقه إلى مدينة عنابة ما يقارب من خمسة وسبعين ضحية، وقد ذُكِر أن دخوله لميناء مدينة عنابة كان خلسة دون أن ينتظر السَّماح له بذلك[٣]، ولعلَّ ذلك بسبب إدراكه؛ إنّه لن يُسمح له بالرسو في ميناء المدينة.

---

(1) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., La Calle, P 415.

(2) - Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568).

(3) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P226.

وهنا يذكر الأب «جون ألازيا» بعض الملامح الكبرى أو الأعراض المختلفة التي كانت تظهر على المصابين بهذا الوباء، فيتكلَّم أوَّلاً عن ظهور آلام في الرَّأس تصاحبها آلام شديدة في المعدَّة يصبح معها الترياق الممنوح من طرف الطبيب غير مجد، تتطوَّر هذه الآلام في مرحلة لاحقة، يظهر على أجسام المرضى بعد ذلك أنواع من الندبات تتطور في بعض الأحيان لتصبح خرجات مختلفة[١]، وقد تكلَّم حينها الأب « جون ألسيا » عن سقوط الكثير ممَّن أُصيب بهذه الأعراض ميتاً في مستشفى الجزائر سنة (١٧٨٦مـ)[٢].

في هذه الأثناء تتحدَّث الأخبار المتناقلة والمصادر المختلفة عن انتقال الوباء إلى مدينة عنابة؛ وإدراك وكيل الشركة الإفريقية الملكية الفرنسية لذلك ما حمل الشركة الملكية الفرنسية في مدينة القالة على ضرب حصار على أطراف الشركة حتى لا تنتقل إليها العدوى الوبائية[٣].

وتطوَّر عدد ضحايا هذا الوباء ليصل في نهاية شهر مارس إلى ما بين أربعة عشر وثمانية عشر ضحية في اليوم[٤]، ليتطوَّر أكثر عدد الضَّحايا مع مرور الوقت ويستقر فيما بين (٤٠-٦٠) ضحية يوميا على الأقل في محيط مدينة القالة حسب رسالة من وكيل الشركة الإفريقية إلى القنصل الفرنسي مؤرخة بـ(٢١ ماي ١٧٨٦مـ) وتوقّع

---

(١) – انظر الملاحق: ملحق رقم٠١.

(2) -Jean Alasia ; op.cit., Dans. M.C.M, PP (444-448).

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P343.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P218.

أن يمتدّ هذا الوباء ليعمّ جميع المنطقة خلال هذه السنة[١].

بدأ هذا الوباء بالتّوغل فعليا كما توقعت المراسلات الفرنسية أكثر ناحية الغرب بداية مِن السَّادس والعشرين من شهر مارس؛ فوصل إلى مضارب قبائل صنهاجة في المناطق القريبة مِن مدينة سكيكدة[٢]، ويظهر في وقت لاحق في بيلك الغرب الجزائري.

فتذكر الدِّراسات المختلفة إنَّه خلال سنة (١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦مـ) أي في زمن حكم «محمَّد بن عثمان الأكحل» ظهر طّاعون ببيلك الغرب الجزائري، بعدما كانت المجاعة السابقة له قد تركت آثارها السلبية بشكل كبير في حياة قاطنة البيلك سنة (١١٩٥هـ)[٣]، وتزامُن القحط والوباء كثيرا ما حدث، وعندها تكون نتائجهما أخطر وأكثر سوءاً، إذ إنَّه وبحكم أنّ الجوع أو القحط الشديد يُفقِد الجسم قدرته في المناعة الطبيعية كما مرَّ بنا في المدخل فإنَّه يصبح بمجرد أن يخالطه امتحان الوباء يفقد كل قدراته على التجاوب مع الحياة؛ ولهذا نجد أنَّ هذا التزامن ينتج عنه آثارٌ رهيبة. وهو ما حدث فعلا في بيلك الغرب الجزائري خلال تلك المرحلة.

---

(1) - Lettre de M. Barre Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud, P425

(2) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P, P343.

(3) -Brosselard: les inscription arabes de Telimcen, Revue African., Anne 1860, N°4, P 88.

ولعلَّ مِن بين الدَّلائل التي توضِّح عمق تأثير هذا الوباء والعدد الكبير للضحايا اللائي كان يحصدها يوميا خلال المدَّة التي شُوهد بها في الجزائر سنة (١٧٨٦مـ) تلك الصُّورة التي رسمها لنا «جون ألازيا» بقوله:«...خلال الثمانية عشر شهراً التي استوطن بها الطَّاعون الجزائر لم تنقطع ليوم واحد تلك الأصوات المرتفعة للنسوة والأطفال بالبكاء إعلانا عن فقدان عزيز ما، وهو صراخ وبكاء يعبِّر حقيقةً عن حجم ذلك الألم الذي لحقهم ...»[١] وقد تحدَّث «كونر» عن كون أنّ عدد الضَّحايا نهاية شهر أفريل مِن نفس السَّنة كان لا يقل عن خمسة وأربعين ضحية يوميا[٢].

فيما يرى «مارشيكا» بأنّ هذا الوباء قد انتقل من المُدن الموجودة في بيلك الشرق: كعنابة والقالة إلى بيلك التيطري. ثمَّ بعد ذلك امتدّ إلى بيلك الغرب الجزائري؛ وهو ما ترك آثارا كبيرا على الإيالة وزرع الخراب في جميع أنحاءها[٣]. ونقف فعليا على إشارات مختلفة في المراسلات الفرنسية على وجود الوباء في مدينة عنابة في ربيع سنة (١٧٨٦مـ)[٤].

فيما ظلت مدينة قسنطينة تتمتَّع بنوع من المعيشة الصَّحية الجيدة لكن لمدة وجيزة فقط، وهذا نتيجة لطبيعية الجهود التي بذلها «صالح باي» في تأمين المدينة من الوباء، لكن سرعان ما لحق مدينة قسنطينة نفس ما في المدن الأخرى مِن وباء،

(1) -Jean Alasia ; op.cit .Dans. Mémoires de la congrégation de la mission. P. 450

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P220.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P116.

(4) -C.C.F.A] AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F °168-171. Anne 1786.

وظلَّ تأثيره متباينا حسب المرحلة التاريخية، فنقف على متوسط ضحايا يقارب ثمانية عشر ضحية يوميا في الثُّلث الأخير مِن شهر ماي في معظم بيلك الشرق[١]، ما يُؤكَّد وجود الوباء أيضا في منتصف شهر جوان وجود أحد التقارير المرفوعة مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر لم تشر إلى أعداد الموتى مِن السَّاكنة لكنها ذكرت أنّ الأعداد كانت مجهولة يشير إلى استمرار الأزمة الصحية خلال هذا الشهر[٢]، مثل ما نجد بعض الإشارات تتحدث عن ارتفاع عدد الضحايا إلى ما بين (١٥-٢٠) خمسة عشر وعشرون (ضحية/ يوميا)، وهذا في المرحلة الممتدَّة ما بين أواخر شهر جويلية ومنتصف شهر سبتمبر، ليرتفع هذا الرقم مرَّة أخرى خلال المرحلة الزمنية المُمتدَّة من بعد شهر (أوت/ أغسطس) إلى أكثر من خمسين(٥٠) ضحية يوميا[٣]، ونقف على وصف الشدة التي ميزت هذا الوباء في مدينة عنابة بما ورد في أحد المراسلات مِن كون المدينة تعاني الويلات نتيجة هذا الوباء[٤].

الأمر الغريب الذي نقف عليه أنّه في نفس الحيز الزمني الذي نتحدّث فيه عن آثار الوباء في بعض المدن الداخلية نقف على تأخر الإعلان عن ظهور ضحاياه في مدينة الجزائر، إذ لم يتم رصد الحديث عن ضحايا لهذا الوباء إلاَّ في الخامس عشر من شهر أكتوبر من نفس السنة حسب «غيون»، الذي يقول إنَّه نقل هذه المعلومات مِن ثلاثة مصادر عربية مخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، اثنتان

(1) - Jean Marchika:op.cit., P116.

(2) -C.C.F.A] AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F °178-179. /06/231786.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P220.

(4) -C.C.F.A] AF. é] : AE/B/I/14٣. Cotes: F °1-3. 17/04/1786.

منها لآخِر مفتٍ للمالكية في الجزائر مثل ما صرّح بذلك[1]، وهو غالبا رأي مُستنبطٌ مِن الطّرح الذي قدّمه «بير بروجر»، إذ رأى أنّ خروج سفينة بتاريخ الثلاثين من شهر أفريل سنة (١٧٨٦مـ) من ميناء مدينة عنابة التي كانت موبوءة إلى ميناء مدينة الجزائر التي كانت تعرف حالة صحية ممتازة لم يكن له أي آثار في انتقال الوباء، بالرغم مِن أنّ هذا التَّصرف الطَّائش لم يكن معزولا، إذ كثيرا ما تجاوز ساكنة الإيالة الاهتمام بطرق نقل الوباء من مكان إلى آخر، لكن مع هذا ظل الحديث عن الوباء في المدينة متأخرا إلى غاية (١٥/ ١٠/ ١٧٨٦مـ)[2].

إلاَّ أنّنا نعتقد أنّ نقل «غيون» في كتابه الفكرة التي أوردها «بير بروجر» قد يُلبِس الأمر لباس القطعية، وهذا أمر لا يُسلِّم به عاقل، إذ من الصّعب توقع مرور الوباء أو الطّاعون بكل طاقته ببيلك التيطري ودار السلطان وصولا إلى بيلك الغرب الجزائري دون أن تكون له أي آثار، خاصة إذا ما تتبعنا الطُّرق التي كان يسلكها العامة أو التُّجار للاتجاه مِن بيلك الشَّرق الجزائري إلى دار السلطان أو من بيلك الغرب الجزائري إلى دار السلطان كان يمرُّ في كلِّ الأحوال والحالات عبر متيجة ومضارب بيلك التيطري[3]، وعليه فإنّ الحديث عن مرور مصابين بهذا الوباء دون أن يتأثّر سكان هذه المناطق بذلك يُعدُّ أحد الأمور المستبعدة في نظرنا.

وأمَّا عدم حصولنا على الإشارات إلى وجود إصابات وضحايا لهذا الوباء؛

(1) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P, P347.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P218.

(3) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P21٥.

فإنّما مردُّه نقص المادة الخبرية حول تلك المنطقة تحديدا. ونحن نعلم أنّ دار السُّلطان تعرف كثافة سكانية هي الأكبر في الإيالة. كما قد أورد بالفعل الأب «بواغي» بأنَّ هذا الوباء قد عمَّ الإيالة وأهلك السُّكان[1]، حتَّى إنَّه اشتدَّ وباء سنة (١٧٨٦ مـ) في مدينة القالة بشكل كبير بعد النّصف الثاني مِن شهر ماي ويصل إلى إسقاط قرابة الثمانين (٨٠) ضحية يوميا، وأدى نشاطه إلى القضاء على نصف ساكنة مدينة القالة تقريبا، وحمل باقي سكان المدينة على الفرار بأنفسهم إلى المناطق الأكثر أمنا[2].

هذا الوباء أو كما تعرف في المنطقة الغربية من الإيالة «حبحوبه المجاد» تعرف كغيرها من الأوبئة التي ألمّت بالجزائر بداية الانحسار الجغرافي في فصل الصيف، لكن هذا لا يعني اختفاءه بشكل كامل، إذ كثيرا ما نقف في أطروحة «مارشيكا» نقله لمراسلات الشركة الإفريقية في مدينة عنابة التي تشير إلى بعض الإشارات على وجود بعض ضحايا وباء حبحوبة المجاد في شهر جوان[3]، كما نقف فيما ينقله الأب «فيشرا» على بعض الأمثلة لحالات ضحايا الوباء في شهر جوان[4]. فيما يبدأ الانحسار فعليا لحبحوبه المجاد في النَّصف الثاني مِن شهر جوان، ويمتدُّ هذا الانحسار إلى غاية بداية فصل الشتاء، إذ لا نكاد نقف في المرحلة الممتدّة من (٢٩ جويلية إلى ١٧ أكتوبر) على أية حالة وفاة مرتبطة بشكل

(1) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°17,op.cit.,P 107.

(2) - Lettre de M. Hugues Dans: H.V.P.C, P.432

(3) - Jean Marchika:op.cit., P119.

(4) - Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568).

مباشر بالوباء، خاصة إذا ما استثنينا أحواز مدينة القالة[١]. وهو نفس ما تؤكده مراسلة مِن وكيل الشركة الإفريقية بمدينة القالة إلى القنصل الفرنسي العام بمدينة الجزائر، إذ يقول فيه: «...منذ اثنا عشر يوما لم نلاحظ أي حالة وفاة سببها الطَّاعون المنتشر»[٢] وهو تقريبا الأمر عينه الذي يتحدَّث عنه «مارشيكا» إذ ينقل مِن وثائق أرشيفية أخرى تخص الشركة الإفريقية أنّه أثناء شهر جويلية والنّصف الأوَّل مِن بداية شهر (أوت/ أغسطس) لم تسجل أي حالة وفاة مرتبطة بالوباء[٣]. وظل الأمر كذلك تقريبا إلى غاية منتصف شهر سبتمبر من نفس السنة، فيشير حينها كلًّ مِن «بير بروجر» و«غيون» إلى ظهور ضحايا جُدد في نفس السَّنة بعد شهر سبتمبر نتيجة لهذا الوباء، مستندين في ذلك على ما قالوا إنها مصادر جزائرية مخطوطة[٤] ونجد له ما يعضده في قول صاحب المراسلة السالفة الذكر أنه بقيت بعض الضحايا تظهر من آن لآخر في أحواز مدينة القالة وأرياف بيلك قسنطينة[٥].

تجدد وباء سنة ١٧٨٧م

يظهر هذا الوباء في منتصف شهر (جانفي/ يناير) سنة(١٧٨٧مـ/ ١٢٠١هـ)

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P220.

(2) - Lettre de M. Hugues Dans: H.V.P.C, P.432

(3) - Jean Marchika:op.cit., P120 .

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P218. Et. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P347.

(5) - Lettre de M. Hugues Dans: H.V.P.C, P.432

في مدينة القالة[١] مُستهدفا بعد ظهوره كل مِن: مدينة عنابة وقسنطينة بالشرق الجزائري[٢]، ثمّ يتفشى في نفس المرحلة تقريبا في جلّ المناطق الشرقية[٣]، وهو نفس ما ذهب إليه «مارشيكا» بحيث رأى أن ظهوره كان في بداية شهر جانفي وظل يتفشى بقسوة إلى المناطق المجاورة[٤]، بينما يرى «دي غرامون» أنّ البداية الحقيقية لظهور هذا الوباء كان في مدينة الجزائر بعد بضعة أشهر من التاريخ المذكور آنفا، وتحديدا في (٢٧/ أبريل-نيسان) سنة (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧مـ)[٥].

في حين يورد «الزّهار» في مذكراته: أنّ وباء سنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٧مـ) كان امتداداً لوباء (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧مـ) وأنَّ هذا الأخير قد دخل الجزائر عن طريق بر التّرك، كما ذكر أيضا أنّ هذا الوباء اشتُهر بين الأهالي باسم «الوباء الكبير"[٦] وتتبعنا للوباء في الوثائق الأرشيفية العثمانية يؤكد بالفعل انتشار الوباء في أكثر من محل داخل الدولة العثمانية في أزمير والجزر المحيطة بها تحديدا بل تتحدث هذه الوثائق عن إسقاطه أكثر من ثلاثة آلاف شخص في مُدَّة وجيزة[٧].

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P221.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P352.

(3) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P125 .

(5) -H.- DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.

(٦) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٧٨.

(7) -B.O.A: C.ML. Do: N°724. Gömlek N°29635. Tarih 1202 .L. 06. Belg 01.

غير أنَّ كلّ من «غيون» و«مارشيكا» أرجعا جهة قدوم هذا الوباء إلى الإيالة التونسية، وفصَّل كل من «فونتير دي برادي» و«غيو» طريقة قدومه إلى تونس التي تعتبر محطة عبَر من خلالها إلى إيالة الجزائر، فيما يرجع المنشأ الرئيس الذي وصل عبره الوباء إلى تونس سنة (١٧٨٣مـ) من مركز الخلافة الإسلامية حينها اسطنبول[١]. مثل ما نقف في المجلة الفرنسية على إشارة هامة مفادها انتشار الوباء في الإمارات الإيطالية بالأخص في باليرمو في نفس المرحلة الزمنية وأنه كان يأتي على عدد معتبر من القتلى يوميا[٢].

وإن كنا في هذا المقام في محل التَّرجيح فإنّنا نرجح ما طرحه الزَّهار، إذ أنَّ الوباء الذي تحدّث عنه كل من غيون و«فونتير دي برادي» هو الوباء الذي أصاب تونس في فترة متقدمة، وهو الذي امتدَّ فعلا إلى الجزائر سنتي (١٧٨٥مـ) و(١٧٨٦مـ) لكن غالب الظن أن هذا الوباء هو صورة جديدة عن الوباء الموجود في هذه المرحلة في الأناضول (١٧٨٥مـ) الذي تذكره عددٌ مِن الوثائق العسكرية العثمانية بسبب الاختلالات والأضرار الكبيرة التي ألحقها ببعض الأوجاقات في قضاء أزمير في تلك السنة[٣].

ظل وباء سنة (١٧٨٧مـ) خلال المرحلة الأولى مِن ظهوره على نطاق ضيق حسبما يُستنبط مِن رسالة مِن السيد «بار» (M. Barre) إلى السُّلطات الفرنسية[٤]،

(1) - Venture de Paradis: op.cit., P330.

(2) - Gazette de France 117/78/08, N° 66. P321.

(3) - B.O.A: C.AS. Do: N°951.Gömlek N°41311. Tarih 1199.Ş.02. Belg 01.

(4) -Lettre de M. Barre, du 17 janvier. J.-L.-G. Guyon.

إلاَّ إنَّه ما لبث أن أضحى له الآثار الكبير على المناطق التي انتشر أو ألمَّ بها إذ استطاع في فترة قصيرة مِن السَّادس والعشرين مِن شهر جانفي إلى نهاية الشهر أن يُسقط أكثر مِن أربعة عشر وثلاثمائة من المسلمين وواحد وعشرين مسيحيا وأربعة مِن اليهود[1]، وشأنه في ذلك شأن معظم الأوبئة التي حلَّت بالمنطقة وكانت على درجة معتبرة مِن القوَّة؛ ولعلّ هذا ما حمل بعض الدَّارسين على عدّه أحد أهم الأوبئة التي دمَّرت الإيالة خلال تلك المرحلة [2]، وقد أكَّد على هذا التأثير والخطورة ما ذكرته المجلة الفرنسية في عددها الثاني والستين الصَّادر في الثالث مِن شهر (أوت/ أغسطس) مِن سنة ١٧٨٧مـ[3].

فإن تقرَّر الآثار الكبير لهذا الوباء صرفنا القول إلى ما تورده المراسلات والتَّقارير القنصلية من معلومات حياله، إذ تتحدَّث عن محصلات هذا الوباء خلال المرحلة محل الدِّراسة فتحصي تقارير فرنسية عددا مُعتبراً مِن الضحايا في مدينة الجزائر خلال ستة عشر شهرا تمتد من السابع والعشرين أفريل (٢٧/ ٠٤/ ١٧٨٧مـ) إلى غاية الرابع عشر مِن شهر جوان مِن نفس السنة (١٤/ ٠٦/ ١٧٨٧مـ) ثمانية آلاف وخمسا وستين ضحية مقسمة (٨٠٦٥ ضحية) على الشَّكل التالي: (٦٧٤٨) من المسلمين، (١٠٩٣) مِن اليهود، (٢٢٤) مِن النَّصارى[4]. لكن التقارير عن سقوط الضحايا تحصي ما بين مائة وخمسون ومائتان

(1) - Jean Marchika:op.cit., P126 .

(2) - Venture de Paradis:loc.cit., Anne 1896, N°40, P33.

(3) -Gazette de France :1787, N° 62. 03.08.1787.

(4) -Gazette de France :178٧, N° 67. P331.

(٢٠٠-١٥٠) من الضحايا يوميا[١]، وهو نفس ما أثاره «مارشيكا» بخصوص عدد ضحاياه، إذ رأى أنَّ متوسط عدد الضحايا اليومي خلال شهر أفريل من هذه السنة قدر بـ (مائتين وخمسة عشر ضحية في اليوم)، بينما ناهز الأربعة آلاف ضحية خلال هذا الشهر، بينها: ثلاثة آلف وسبعمائة من المسلمين، واحد وعشرون وأربع مائة من اليهود، وخمسة عشر ومائة من النصارى، فيما بلغ عدد الضحايا في شهر جوان من فصل الصيف حوالي ثلاثة آلف وثمانمائة من المسلمين سبعون ومائة من النَّصارى وتسعون وأربع مائة مِن اليهود[٢].

مثل ما أشارت إحدى الوثائق السالفة الذكر الموجودة ضمن أرشيف وزارة الخارجية عن سقوط مئتين من الضحايا المسيحيين خلال شهر أفريل لوحده، كما سقط في نفس المُدَّة مدير المستشفى الأوروبي في مدينة الجزائر ضحية لنفس الوباء[٣] ما يؤكد على ما ذهبنا إليه فيما سبق من سلبية الدور الذي أضحت بعض المستشفيات تلعبه، والتي أصبحت في الكثير من الأحيان تلعب دور الوسيط أو النَّاقل للفيروسات والمتسبب في انتقال الوباء، وهذا الأمر الذي حمل المؤسسة الصِّحية في الجزائر بعد عشر سنوات مِن الاحتلال وتتبع الأوبئة وكيفية انتشار وتأثيرها إلى اقتراح بعدم قبول المرضى المصابين بالأوبئة في المستشفيات العادية وتخصيص بديل لذلك مُستشفيات أخرى تكون على أطراف مدينة الجزائر[٤].

(1) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °19-20. /25/04/1787.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P129،130.

(3)- C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °19-20. 25/04/1787

(4) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P195.

إضافة لما سبق ذكره يتحدّث «دي غرامون» عن عدد ضحايا هذا الوباء خلال المرحلة الممتدة ما بين أواخر شهر أفريل ومنتصف شهر جوان مِن نفس السنة (١٧٨٧مـ) يقدر بحوالي خمس وستون وثمانية آلاف ضحية[١]، وهو نفس الرَّقم الذي أوردته تقارير المجلة الفرنسية بناءً على إحدى الرسائل الواردة من الجزائر وقد فصل عدد الضحايا على الشكل التالي[٢]:

- مسلمون: ٦٧٤٨
- يهود: ١٠٩٣
- مسيحيون: ٢٢٤

فيما يذهب «مارشيكا» إلى التقرير أن رقم الضحايا قد قارب الستة عشر ألفا (١٦,٠٠٠)[٣]، وهو ما يكون قد نقله غالبا عن «غيون» أو من الوثائق الأرشيفية للشؤون الخارجية، إذ وقفنا على إحدى المراسلات الأرشيفية التي تتحدَّث عن سقوط ما يقارب (١٦,٧٢١) خلال السَّتة الأشهر الأولى لهذا الوباء نجح في القضاء على ما يقارب من (١٦,٧٢١) وقد جاءت التَّفاصيل الخاصة بالضحايا مقسَّمة على الفئات الثلاث التي يتشكل منها مجتمع مدينة الجزائر على النحو التالي:

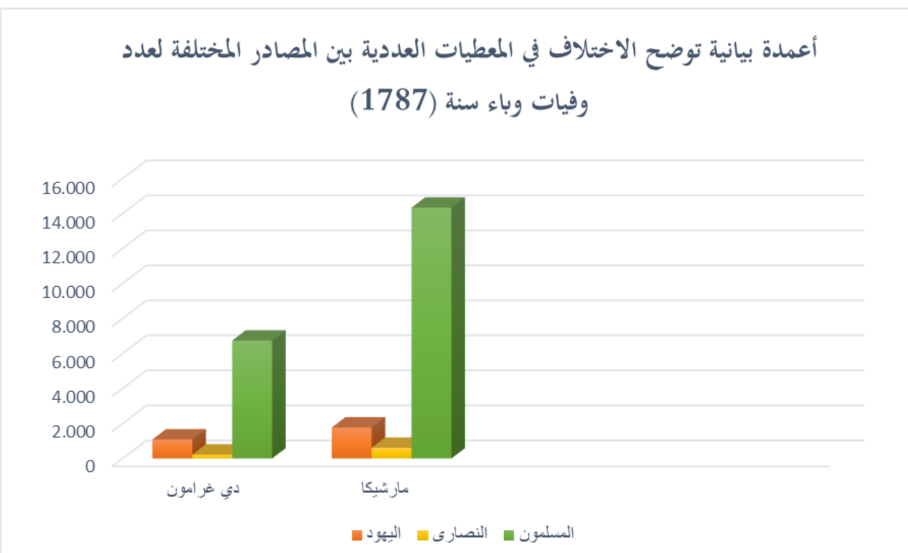
(1) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.

(2) -Gazette de France :1787, N° 67. 21.08.1787.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P137.

- ٦١٣ من النصارى.
- ١,٧٧٤ من اليهود.
- ١٤,٣٣٤ من المسلمين[١].

ومستوى التضارب والاختلاف بين المصادر يحيلنا إلى عدم إمكانية الجزم بالمعطيات العددية المقدمة، فلكل كاتب مصادره التي قد تكون مخالفة لمصادر نظيره ولعل هذا يتجلى بوضوح في الشكل التالي والذي يرصد الاختلاف العددي بين مصدرين مهمين حيال نفس الوباء، كما هو مُوضحٌ في الشكل التالي:



(1) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °29-30. /sep/1787.

ولعلّ هذه الأرقام الكبيرة هي التي جعلت «فونتير دي برادي» يعتبر بأنّ هذا الطَّاعون كان يقضي على العمال بشكل رهيب وامتدّ تأثيره لسنوات عدَّة بعد ذلك[١]، خاصة وأنَّ بعض المؤشرات الموجودة في المراسلات القنصلية الفرنسية كانت تتحدَّث عن استحكام آثاره في بعض المدن الساحلية خاصة منها مدينة عنابة[٢].

الأمر السَّالف يحيلنا إلى الاختلاف البيِّن في شأن عدد ضحايا الأوبئة بين المراجع المختلفة، إذ يَعد «غيون» الأرقام التي نقلها هي مِن أدق الأرقام، وبالأخصَّ في الوباء الذي نتحدَّث عنه، إذ أنّه يؤكد إنَّه استقاها مِن أرشيفات وزارة الخارجية الفرنسية؛ بحكم أنّها ضُمِّنت في رسالة أرسلها القنصل الفرنسي العام في الجزائر إلى مسؤوليه في وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية[٣]. وهو ما يؤكده عليه «دي غرامون» بحيث وصل الرقم مع نهاية شهر (جويلية/ ١٧٨٧مـ) إلى ما يقارب (١٧ , ٠٤٨) ضحية نتيجة لهذا الوباء[٤]. وهذا الرقم قريب نسبيا مما أورده كل من «مارشيكا» و«غيون»، كما أشار الزَّهار إلى الآثار الكبير الذي أحدثه هذا الوباء على السَّاكنة؛ إذ كان يقضي يوميا على خمسمائة ضحية[٥]، وهو رقم يظهر فيه نوع مبالغة

(1) - Venture de Paradis:loc.cit., Anne 1895, N°39, P29٥.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F °168-141. 25/05/1786

(3) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °29-30. /sep/1787.

(4) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.

(٥) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٧٨.

من أجل تصوير حجم الكارثة التي ألمّت بالجزائر جراء هذا الوباء، وإلاَّ فإنّ خمسمائة ضحية في ستة أشهر على الأقل لوجود الوباء والتي تتفق حولها جميع المصادر التي ذكرت الوباء يؤدي بنا إلى ما مجمله (٩٠,٠٠٠) ضحية وهذا أمر مهول جدا، يصعب اعتماده خاصة إذا ما قُورن بساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر. كما قضى هذا الوباء على ما بين (٦٠-٥٠) ضحية من رياس البحر[١].

وبإجراء مقارنة بين المعطيات الرقمية التي نقف عليها في المراجع الأجنبية المختلفة فإنَّنا نلاحظ مجموعة من الأمور لعل من أهمها الآن: أنّ الأرقام غالبا ما تكون متضاربة متباينة، وهذا مردّه صعوبة إيجاد إحصاء دقيق لضحايا الوباء خلال تلك المرحلة من جهة، واختلاف زوايا الرؤى ومصادر المعلومة لدى كل مصدر أو مرجع من جهة ثانية. وقد يمكن إلى حد ما افتراض أن أحد أسباب التباين الذي نقف عليه في هذه الحالة مثلا: أنّ مُراد «دي غرامون» وقصده عدد الضَّحايا خلال المرحلة الأولى قد يكون خاصّاً بحصر العدد في سكان مدينة الجزائر لا غير، وهنا فقط يُستساغ ذلك.

أمّا الملاحظة الثانية التي نقف عليها بمقارنة بسيطة بين محتوى الأعداد المختلفة للضحايا: فإننا نؤكد على أن السُّلم التراتبي لعدد الضحايا لدى كل مصدر لا يختلف عن الآخر، بحيث يأتي المسلمون في رأس المثلث الهرمي المقلوب لعدد الضحايا عند «غيون» مثلا يقارب نسبة (٧٢,٨٥٪) وعند «دي غرامون» يقارب نسبة (٥٧,٨٣٪)، تليهم بعد ذلك فئة اليهود، ثمَّ تأتي بعدهما فئة

(1) - Venture de Paradis: loc.cit., Anne 1895, N°39, P310.

النَّصارى بحيث تكون في أدنى الهرم المقلوب، كأقل الفئات تضررا من تبعات هذا وباء سنة (١٧٨٧م) فيكون الشكل بالصورة التالية:



وقد ذكر غيون أنَّ الوباء كاد ينتقلُ إلى إسبانيا عبر إحدى السُّفن المملوءة بالعبيد المتجهة إلى جزيرة مايوركا، إلاَّ أنَّ سقوط ضحايا على متن السَّفينة جعل السُّلطات الإسبانية تقوم بإخضاع كل مَن كان في السفينة إلى الحجر الصحي، فوقع عددٌ آخر من الضحايا ممّن أصيب بالعدوى، ونجا قسمٌ آخر من الأسرى الذي كانوا على متن السفينة، وكان مِن نتائج التدابير الوقائية التي اعتمدتها السُّلطات المحلية أن تجنّبت إسبانيا آثار هذا الوباء(1)، وقد استمرّ هذا الوباء في حصد ضحاياه في الجزائر إلى غاية (١٤/ حزيران/ جوان (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م) حسب

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P353.

«دي غرامون»[1] وامتدَّ إلى ما بعد هذا التَّاريخ حسب ماورد في إحدى تقارير المجلة الفرنسية المؤرخ في (١٧/٠٨/١٧٨٧مـ) التي تحدَّثت عن تفشي الوباء في جلِّ السُّفن التَّابعة أو الواردة من إيالة الجزائر[2].

وقد بلغ عدد ضحايا هذا الوباء خلال هذا الشَّهر المقصود حوالي ثلاثة آلاف وثمانمائة من الضحايا من بينهم اثنان وستون ومائة وثلاثة آلاف (٣١٦٢) مِن المسلمين وأربعمائة وتسعون من اليهود ومائة وسبعون من النصارى[3]، وهو ما نستشف من خلاله أمرين على غاية كبيرة من الأهمية:

أولهما: أنَّ تأثير هذا الوباء ظلَّ يسري بين الفئات المختلفة بنفس القوَّة التي تحدّثنا عنها آنفا، فكان أكبر تأثيره على المسلمين ثمَّ اليهود فالنَّصارى.

وثانيهما: أنَّ قوَّة هذا الوباء لم تتأثَّر بارتفاع درجة الحرارة خلال هذه المُدَّة والذي مِن المفترض أن يكون وسيلة مساعدة مِن أجل التَّخفيف مِن حدَّة نشاط الوباء.

بل إنَّ في هذه الأرقام ما يشير فعلا أنَّ بقاء الوباء في هذا الشَّهر يؤكد أنّه بهذه الحدَّة يحوصل باختصار شدّته وحدّته المتلازمتين طيلة مدة نشاطه بالإيالة، ويجعلنا نعتقد أنّ هذا الوباء أحد أهم وأقوى الأوبئة التي ألمتَّ بالجزائر خلال القرن الثامن عشر فعلا.

(1) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P339.

(2) -Gazette de France :1787, N° 66. P320.

(3) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P236.

يتحدَّث «كونر» عن كون أن انحصار هذا الوباء قد حدث بالفعل نتيجة لارتفاع مستوى درجة الحرارة إلى درجات كبيرة خلال شهر (أوت/ أغسطس) مِن السَّنة نفسها(١)، بينما يرى «الزّهار» أنَّ هذا الوباء قد استتب له الأمر في الجزائر مدّة طويلة ناهزت العشر سنوات أي إلى غاية (١٢١١هـ/ ١٧٩٧مـ).(٢) فيما تذهب «لوسيت فلنسي» إلى أنّه توغّل أكثر بعد سنة (١٧٨٩مـ) باتجاه الجنوب الجزائري أي إلى منطقة الزَّاب وغيرها(٣)، وهو ما نقف عليه فعلا في بعض الإشارات إلى خراب بسكرة نتيجة وباء حلّ بها خلال نفس المدّة المعنية بالدراسة.

وممّا تذكره الأبحاث أيضا أنّ الوباء الذي شهدته جلَّ منطقة المغرب خلال سنة (١٧٨٥مـ) ومسَّ كل من تونس والجزائر، تخلَّصت مِنه الأولى بعد سنة، بينما امتدَّ في الجزائر لسنوات أخرى وفي أماكن عدَّة، وتذكر «لوسيت فالنسي» أنَّ هذا الوباء انتشر مِن المناطق الشرقية التي عرفته سنة (١٧٨٧مـ) إلى المناطق الوسطى للجزائر أي بيلك التيطري وكان ذلك سنة (١٧٨٨مـ) ليتوغَّل أكثر في العمق الجزائري باتِّجاه منطقة الزاب كما مرّ بنا(٤).

وهو ما ذهب إليه أيضا «الزَّهار» وإن كانت روايته تحتمل أن تكون تحمل بين جنباتها نوعا من المبالغة، إذ أخذنا في الحسبان المرحلة الزمنية التي يورد أنّ

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P237.

(٢) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ٧٨.

(3)- Lucette Valensi: op.cit., P21.

(4) -ibid. P21.

الوباء ظل ناشطا فيها في الجزائر، فهو يتحدَّث عن استمرار الوباء عشر سنوات، أي في المرحلة الممتدَّة ما بين (١٢٠١هـ-١٢١١هـ) أي (١٧٨٧مـ-١٧٩٧مـ) لكن ما تكشف عنه المصادر يوحي بأنَّ هذا الوباء نشط على مراحل متقطعة، أي ظلَّت الجيوب الوبائية نشطة على مراحل متقطِّعة، وإلاَّ فإنَّه بافتراض استمراريته وباحتساب معدّل متوسط الضحايا خلال تلك المرحلة نجد أنَّ الرقم يصبح جد مهول ولا يمكن مقارنته بأي حال مع متوسط الكثافة السكانية بالجزائر عموما.

وقد ظل ماثلا في بعض أرجاء الإيالة وتحوَّل مع الوقت إلى نوع من أنواع الجوائح الحيوانية إذ أتى على عدد كبير من الضحايا الحيوانية أيضا حسب «كونر» الذي أشار إلى أنّ هذا الوباء لم يقتصر أمره على البشر فقط بل ضرب هذه المرَّة الحيوانات بشكل كبير ومركز، فأتى على عدد ضخم مِن المواشي والأبقار التي كانت ترعى في الجبال والمناطق البعيدة، وهذا ما أدى إلى تأذي سكان الأرياف والقبائل هذه المرَّة بشكل كبير[١]، وهو ما يُظهِر فعلا مدى تفشي هذا الوباء. الأمر الذي حمل الكثير من الباحثين على اعتباره جائحة حيوانية خطيرة[٢]، فيما يرى «غيون» أنّ آثاره لم يكن بتلك الشدّة التي أحدثها في سنته الأولى؛ لذا لم يُسجَّل عددٌ كبيرٌ من الضحايا خلال هذه السنة[٣]. وهذا ما جعلنا نعتبر بداية النِّصف الثاني مِن هذه السنة مرحلة العافية وهو ما سنتحدَّث عنه هاهنا.

---

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P227.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P129،130.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P353.

عودة السنوات الصحية الجيدة إلى الإيالة (١٧٨٨م-١٧٩٢مـ) مشوبة ببعض الأزمات:

كما يتجدَّد نشاط الوباء سنة (١٧٨٨مـ) لكنه يظل على نطاق ضيق، وهذا ما يمكن عدُّه أمرا طبيعيا إذ لا يمكن أن ينحصر الوباء دون أن يترك آثاره، خاصة وأنَّ وباء سنة (١٧٨٧مـ) كان جدّ نافذٍ ما جعل مدينة الجزائر تحمل بين ثناياها ملامح هذا الآثار في هذه السنة(١)، وذُكِر سُقوطُ عددٍ بسيط من الضحايا نتيجة عودة الوباء كما هو الحال في أحد المراسلات الفرنسية التي تحدَّثت عن عودة نشاط الوباء في ربيع سنة (١٧٨٨مـ)(٢) وقد ظَّلت بعض الجيوب الوبائية للوباء الماضي ذكره ماثلة في الجزائر خلال سنة (١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨مـ) بالرغم مِن أن آثاره كان قد خفَّ فِعلا في صيف (١٧٨٧مـ)(٣)، مثل ما تشير رسالة قنصلية أخرى صادرة عن السُّلطات الفرنسية في الجزائر إلى استمرار الوباء مع معدل وفيات صغير(٤)، وقد تأكَّد انتهاء هذا الوباء في شهر أوت مِن السَّنة نفسها حسب ما تورده ملاحظات قنصلية(٥).

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P237.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °42. 16/03/1788.

(3) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °22-23. 29/06/1787.

(4) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °63-66. 27/06/1788

(5) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °80-86. 13/08/1788.

كما قد أُشير إلى إمكانية وجود شكل مِن أشكال الطَّاعون أيضا في تلمسان خلال سنة (١٧٩٠مـ)[١]، ونقل ذلك أيضا «مارشيكا» في أطروحته[٢] ونقف في نفس هذه السنة على اشتداد الوباء في مصر حسب ما تنقله المراسلات الموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء والتي تذكر في ثناياها عدداً من رجال الدولة الذين فقدوا خلال هذه النائبة[٣]، ونقف في تقرير للقنصلية الفرنسية في الجزائر على إشارة عرضية لوباء أصاب مدينة تلمسان سنة (١٧٩١مـ)[٤] إلاَّ أنّ الوقائع والمظان المختلفة لا تتحدَّث ولا تشير إلى مثل هذا الوباء خلال تلك المرحلة في الجزائر، إلاَّ أنَّ هذا الوباء كان ينشط بشكل كبير ومنهجي في مركز الخلافة العثمانية مدينة اسطنبول حسب ما تورده تقرير قنصلية فرنسية [٥] كما تتحدَّث المجلة الفرنسية في تقاريرها الدورية عن تفاقم الوباء سنة (١٧٩٢مـ) في كلِّ مِن المورا واليونان الخاضعتين للسَّلطنة العثمانية وتورد هذه التقارير أنَّ عدد الضحايا جاوز الثلاث مائة ألف[٦].

لتشهد بعدها إيالة الجزائر نوعا مِن خمود الطَّاعون وتراجعه هجماته، وإن كنا لا ننفي وجود أي نشاط وبائي، بل ظلَّ النشاط الوبائي محصورا في بعض المناطق

(1) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P354.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P140.

(3) - B.O.A: HAT. Do: N°1412. Gömlek N°57500. Tarih 1205.Z.29. Belg 01.

(4) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °138-144. 28/07/1791.

(5) -Gazette de France, 1791, N° 9٠. P.39٥.

(6) - Gazette de France: 1792-27-01. N° 08. P 01.

دون غيرها، إذ في الوقت الذي لا نقف على ذكر للوباء في المدن الكبرى والحواضر المشهورة تورد إحدى الوثائق الشخصية بأن وباء سنة ستة ومائتين وألف ١٢٠٦هـ أدى إلى سقوط عدد معتبر جدا من الضحايا فيقول صاحب الوثيقة ما نصه:»..... «بسم الله الرحمن الرحيم وفي سنة ستة ومائتين وألف خرجنا من الوباء أول يوم[...] يوم جمعة بعد الصلاة بمسجد بوحيدوس... وفي اليوم الرابع مِن شوال ارتحلنا إلى أولاد عباشة فصلينا عيد الفطر في أرض «سيدي سالم» وصلينا عيد الأضحى في «عين بواعصيد»، ومات خلق كثير من جيراننا ، وأحصي من توفي به ما ينيف على ثمانمائة من قرى «اذراع حليمة» و«السويقة» و«أولاد بلهوشات»..»[١] هذه الوثيقة تؤكد على أمور من بينها أن الوباء وإن كان قد تراجع في المدن والحواضر الكبرى إلا أنه بقي أو انكمش إلى المناطق الداخلية.[٢]

ولهذا لا يمكننا القطع بأن الإيالة خلال المرحلة الممتدة ما بين (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢مـ) كانت تعيش في نوع مِن السَّلام غير المعلن مع النشاط الوبائي في الحواضر الكبرى. في حين لم يغب الوباء خلال هذه المرحلة عن الحوض المتوسطي إذ نقف في إحدى المراسلات الأرشيفية للقنصل الفرنسي في

(١) – هذه الوثيقة نشرها الأخ محمد بوعبد الله في صفحته على الفايس بوك وقال في نشرها: «هذه وثيقة حصلت عليها من أستاذنا البحّاثة سيدي عبد الحكيم بوبكر، عن وباء انتشر في بلدتي زمورة سنة ١٧٩١ ..» شهدت هذه الوثيقة في ١٢ أبريل ٢٠٢٠مـ الموافق لـ١٨ شعبان١٤٤١هـ على الرابط التالي:
https://www.facebook.com/mahammed.bouabdallah?epa=SEARCH_BOX

(٢) – لأهمية الوثيقة وعدم وجود نمط آخر نوثقها به فقد آثرت إضافتها في قائمة الملاحق حتى نحتفظ بنسختها الأصلية.

أثينا عن حديث عن تفشي الوباء بها وآثاره الكبير عليها[١].

تجدُّد الوباء مرَّة أُخرى (١٢٠٦هـ/١٧٩٢م)

غير أنّ ذلك السَّلام بين الإيالة والأوبئة لم يلبث أن انفك عِقده أواخر سنة (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢مـ) وهذا حين عاودت شبهة الطَّاعون في الظهور بين ظهراني أحد الأساطيل البحرية الجزائرية القادمة من اسطنبول[٢]، إذ أُشيع بأنَّ ضمن طاقم هذا الأسطول مَن هو مصابٌ بالطَّاعون[٣]، ونقف بالفعل على خروج سفينة بها مائة وثلاث بحارة من بينهم خمسة وستون بحاراً كان قد عين في إيالة الجزائر بينما أرسل الخمسة وثلاثين بحاراً الباقيين للعمل في الإيالة التونسية[٤]، ونجد أنَّ ساكنة المدينة قد ظلت تترقَّب بخوف مصير هذا الأسطول، خاصة وأنَّ وكيل الخرج لم يكن قد حسم أمره في شأن دخولهم الميناء من عدمه[٥]، ومما يدعم الشواهد حيال إمكانية أن يكون هذا الأسطول فعلا يحمل بين جنباته الطاعون هو الإشارات المختلفة في الوثائق العثمانية التي تتحدَّث عن انتشار الوباء[٦] في جزيرة المورا (Mora) العثمانية على ضفاف المتوسط، مثل ما نقف في مواطن أخرى على

---

(1) - C.C.F.A] AF. é [: (AE/B/I/174). Cotes: F° 183. 18 août 1789.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P225.

(3) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/143. Cotes: F °160. 08/06/1792.

(4) -B.O.A: AE.SSLM.III. Do: N°136.Gömlek N°8256. Tarih 1206.B.12. Belg 01.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P353.

(6) -B.O.A: C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.

هجرة عدد من العمال المعينين لمناصبهم في قرى الأناضول بسبب هذا الوباء[١].

وقبل ظهوره بسنة واحدة أي في سنة (١٧٩١مـ) وصل خبر انتشاره في مصر[٢] بل إنَّ الوباء هذه المرة لم يكتف بالعامة من النَّاس بل استطاع الوصول إلى والي مصر إسماعيل باي وقضي عليه في السنة نفسها (١٧٩١مـ)[٣]، ولعله واصل من هناك طريقه إلى الأناضول أيضا عبر المسار البحري الرابط بين الإيالة المصرية والأناضول، ونقف عليه أيضا سنة (١٧٩٢مـ) في مصر أيضا[٤]

وإذ قد شرعنا في الحديث عن دخوله الجزائر عبر هذا الأسطول فعلينا أن نشير إلى نقطة هامة تسهم بدورها في ولوج هذا الوباء وغيره إلى إيالة الجزائر والمتمثلة في تدخل ريَّاس البحر بنفوذهم من أجل السّماح لأصدقائهم بدخول المدينة، ولعل التّساهل والاضطراب الذي عرفته هذه الحادثة هو ما سيؤدي لاحقا إلى ظهور الوباء مرَّة أخرى في الجزائر هذه السَّنة (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢مـ) ومطلع السَّنة القادمة. وقد ألمَّ هذا الوباء بعددٍ مِن المناطق التي تخضع للسُّلطة العثمانية كجزيرة مورا ومناطق في الأناضول ومدينة ازدين (izdin) باليونان[٥]، وقد أشار قنصل فرنسا في «أثينا» إلى هذا الوباء وقال أنَّ عدد ضحاياه قارب

(1) - B.O.A: C.AS. Do: N° 870.Gömlek N°37292. Tarih 1206.L.04. Belg 02.

(2) - B.O.A: C.DA. Do: N°35.Gömlek N°1722. Tarih 1205.N.29. Belg 01.

(3) - Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu: a.g.e, s2702.

(4) - B.O.A: HAT. Do: N°209. Gömlek N°11213. Tarih 1206.Za.29. Belg 01.

(5) - B.O.A: C.AS. Do: N°170. Gömlek N°7439. Tarih 1206.Z.20. Belg 02.

الثلاثمائة ألف قتيل (٣٠٠, ٠٠٠)[1].

لذا نجد مَن يرى أنَّ الوباء قد تجلَّى فعليا في إيالة الجزائر خلال هذه السنة أيضا، ويستند في ذلك على ما حملته إحدى الرسائل من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى سلطات بلده، يخبرهم فيها بأنّ الوباء الذي ظهر في الجزائر في شهر جوان من سنة (١٧٩٢مـ) قد ظلَّ بها إلى غاية شهر جويلية مِن السَّنة القادمة، أي سنة (١٧٩٣مـ).

كما أنَّ «مارشيكا» ينقل من رسالة مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية أنّ تأثير العدوى في وباء (١٧٩٢مـ) لم يكن كبيرا؛ لذا لا نقف عليه كثيرا في المصادر المختلفة[2].

في بداية هذه السنة الجديدة (١٧٩٣مـ) أي منذ مطلع الشَّهر الأوَّل قد شُوهِدت بعض الحالات التي كانت تنذر بتفشي الوباء داخل أسوار مدينة الجزائر، واعتبرته بعض المراجع استمرارية للوباء الذي ظهر سنة (١٧٨٦مـ) إذ حمل نفس أعراضه وآثاره[3]، كما عدَّه بعضهم جائحة حيوانية؛ إذ ظل الوباء الماضي ذكره لسنة (١٧٩٢مـ) مستهدفا في الغالب الأعم بالفئران الخاصة بميناء مدينة الجزائر، وهذا ما يفسِّر ظهور أوَّل أعراضه على عمال الميناء من البساكرة[4]، وهو ما يجعلنا نعتقد أنَّ هذا الوباء هو الطَّاعون الدبلي (*bubonic plague*).

(1) -Gazette de France, 1792, N° 08. P 33.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P141.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P222.

(4) - Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P141.

وقد أُورِدت رسالة من القنصل العام الفرنسي في الجزائر إلى وكيل الشركة الفرنسية أنّ الوباء قضى على عدد من البساكرة في ميناء مدينة الجزائر في السابع والعشرين من شهر (جانفي/ يناير)[١]، كما أوردت الرسالة نفسها أمرا إلى الوكيل العام للشركة الإفريقية في مدينة بونة يقضي فيه بضرورة أن يحرص على إرفاق كل السُّفن الصَّادرة باتِّجاه فرنسا بالوثائق اللازمة التي تشرح الوضع الصحي العام في الجزائر[٢]، وذلك حتّى يتسنّى لآمر البحر في الموانئ الفرنسية الانتباه إلى تفتيش هذه السُّفن وأخذ الاحتياطات اللازمة لمنع ولوج أي وباء إلى أراضي المملكة الفرنسية. كما نجد ذكر الوباء في بعض التحليلات التي رافقت الرسالة التي أرسلها المفاوض لتحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر السيد (Batault) بأنّه قد تجدّد الوباء سنة (١٧٩٣مـ)[٣]

تباطأ قليلا نشاط وباء (١٧٩٣مـ) لكنه كان متفشياً في العديد من الإيالات والأقضية العثمانية فنجد خبره في كل من: أدنه (Adana) وأنقره (Ankara) وإسطنبول (Istanbul) حسبما هو موجود في الوثائق الأرشيفية العثمانية[٤]، وقد ظهر في بداياته الأولى خلال شهر (فيفري/ فبراير) في إيالة الجزائر وكأنه يتراجع إلى

(1) -Lettre du 29 janvier, dans le registre de la correspondance du consulat Français, Guyon, op.cit, P 355.

(2) - Lettre du 29 janvier, dans le registre de la correspondance du consulat Français, Guyon op.cit, P 355.

(3) - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736), P28.

(4) -B.O.A: C.ML. Do: N°94. Gömlek N°4218. Tarih 1207.Z.07. Belg 03.

الوراء وينحصر، حسبما تورده رسالة القنصل الفرنسي في الجزائر لوزارة الخارجية الفرنسية، لكنه عاد ليتجدَّد بعد منتصف الشهر مرَّة أخرى وبشكل أكثر حدة[١]، وكما مرَّ بنا فإنَّ هذا الوباء لم يخرج على عادة الأوبئة في استهداف فئات محددة، إذ نجد أنَّ أول من أُصيب بهذا الوباء وظهرت عليه أثاره هم فئة البساكرة[٢]، ثمَّ سرعان ما انطلق هذا الوباء بقوَّة جديدة في النصف الثاني من شهر فيفري، كما اشتدّت حدّته في شهري (مارس/ أفريل) من السنة نفسها[٣]، وقد نجح هذا الوباء هذه المرَّة في التّسرب إلى مدينة البليدة إذ وحسب مراسلة قنصلية فإنَّ الوباء كان موجوداً بمدينة البليدة بداية مِن الثُّلث الثاني لشهر (أفريل/ أبريل)[٤]، وبعدما تمكَّن بها امتدّ منها إلى بعض المناطق الدَّاخلية الأخرى وبالأخص مدينة قسنطينة وغيرها[٥]، مُستفيداً مِن الحركة الكبيرة التي تحدِثها حاشية الباي عندما تصادفت مع الزيارة التي كان يقوم بها باي قسنطينة؛ لأجل دفع الدنوش مع هذا الوباء[٦].

(1) - Lettre du 17 février, dans le registre de la correspondance du consulat Français, ibid, P 355.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P225.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P226.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P143.

(5) - J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P353.

(6) - Jean Marchika: op.cit., P142.

ارتفعت شدّة هذا الوباء بحيث أضحى في نهاية شهر (جويلية/ يوليو) يقضي على متوسط ما بين (١٠٠-٨٠) ضحية يوميا[١]، ثمّ يتباطؤ مرَّة أخرى في نهاية شهر(أوت/ أغسطس) ليصل إلى متوسط ما بين (٢٥-٢٠) ضحية يوميا[٢].فيما تذكر بعض الجرائد الخاصة بمدينة بونة أنَّ متوسط الضحايا في قسنطينة في شهر أوت ظل يتراوح ما بين (١٠٠-٨٠) ضحية يوميا[٣].

ولعل سبب سهولة انتقاله هذه المرَّة مِن مدينة الجزائر إلى عاصمة بيلك الشرق قسنطينة كانت الزيارة التي يقوم بها الباي من أجل دفع الضريبة (الدنوش) وهي عملية كان يقوم بها البايات كلَّ ثلاث سنوات، كما شهد الوباء تقدُّما ملحوظا خلال أيام الصَّيف على غير العادة، بسبب الأمطار الغزيرة التي كانت تهطل على الجزائر في نهاية شهر (ماي/ ١٧٩٣مـ) ما أدى إلى استمرار آثار هذا الوباء حتّى في فصل الصيف، مع ملاحظة تراجع مداه قليلا في مدينة قسنطينة ليصبح في مرحلة ما يقضي على متوسط رقم ينحصر حسب رسالة من وكيل الشركة الفرنسية في القالة إلى ممثل السلطة الفرنسية فيما بين (٢٠-٢٥) ضحية يوميا[٤].

(1) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 461.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P226.

(3) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 461.

(4) - Lette du 26 août, de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Alger, J.-L.-G. Guyon: op.cit., P-P, 353-356.

وقد أدت سرعة وقوَّة انتشار هذا الوباء في بعض مناطق بيلك الغرب الجزائري؛ بالسُّلطة في المغرب الأقصى إلى فرض حِجر صحي على القادمين مِن الجزائر. وقد لبث العمل بهذا الحِجر مِن شهر جوان إلى غاية شهر أكتوبر من سنة (١٧٩٣مـ) تقريبا[١]، ما يوحي فعليا بأن نشاط هذا الوباء انحصر أو انعدم تماما، وهو نفس ما نقف عليه في الرسالة التي أرسل بها وكيل الشركة الإفريقية في مدينة بونه إلى القنصل الفرنسي العام بمدينة الجزائر والتي يعلمه فيها بانحصار الوباء تماما، وقد كانت هذه الرِّسالة في الرابع من شهر نوفمبر من نفس السنة[٢]، وعليه فغالب الظنَّ أنَّ هذا الوباء انحصار فعليا بداية مِن شهر أكتوبر.

وباء (١٢٠٨هـ/١٧٩٤مـ)

يعدُّ هذا الوباء أحد الأوبئة التي قَدِمت إلى الجزائر واستوطنتها في فصل الرَّبيع[٣]، وغالبا ما كان ذلك بعد موسم الحج؛ إذ قدِم مع الوافدين سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ)[٤]، وقد مثَّل شكلاً مِن أشكال استمرار عودة نشاط الجيوب الوبائية في منطقة ما، وتذكر المراجع أنّ جُثث الضحايا غالبا ما كانت تميزها أنواعٌ من الترسبات والبقع السوداء المتضخمة على أجسام الضحايا[٥]، ما كان يوحي بالمعانة التي يتعرَّض لها ضحايا هذا الوباء، وهو ما يوحي بنوعية الطاعون الذي

(١) – محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص٨٧.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P142.

(3) - Ibid., P144.

(4) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190,

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P-P, 358.

كان في الغالب الأعم هو الطاعون الدبلي مثل ما تحدَّثنا عنه في المدخل.

تظهر من خلال المراسلات الرسمية بين القنصلية الفرنسية في الجزائر ووكيل الشركة الفرنسية بمدينة عنابة، إنَّه وبداية من شهر أبريل مِن سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ) شُوهِد آثار الوباء مرَّة أخرى في الجزائر، أو بالأحرى يمكننا القول إنَّه لوحظ استمرار الوباء في حصد الضحايا لكنَّه في هذه المرَّة لم يكن بتلك الشدّة الكبير[١]، كما لاحظ القنصل أيضا وجود مرض آخر لم يستطع التّأكد منه، أتى هذا المرض على عدد كبير مِن الضحايا[٢].

انتقل هذا الوباء في المرحلة الثانية بعدما اشتدّ آثاره في مدينة الجزائر باتجاه بيلك الشرق بحيث تفشى في كلّ من عاصمة بيلك الشرق مدينة «قسنطينة»، ومدينة عنابة إحدى كبريات المدن في هذا البيلك ، إذ أصبح آثار الوباء في هاتين المدينتين أكبر منه في مدينة الجزائر في حد ذاتها، إذ لم يتجاوز عدد الضحايا في مدينة الجزائر (٣١ ضحية/ يوميا) بينما وصل عدد الضحايا تقريبا إلى (٥٠/ يوميا) في قسنطينة[٣].

(1) - Lettre du 3 avril, du consul français, à Alger, à l'agent consulaire de France à Bône, J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P-P, 356.

(2) - Lettre du 10 avril du consul de France, à Alger, au ministre des affaires étrangères dans. J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l’Afrique, P-P, 356.

(3) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P, P, 356, 357.

هذا التباين في الأرقام بين المدينتين يفتح لنا آفاق التَّساؤل حول ما إن كان لخبرة سكان مدينة الجزائر في الأوبئة دورٌ في التَّعامل مع هذا الوباء؟ مقارنة بغيرهم من سكان المناطق الأخرى؟ وقد استثنينا التفكير في الموقع الجغرافي وعلاقته بالقرب والبعد من البحر بسبب كون ثاني مدينة عانت من آثار هذا الوباء وغيره سواء في هذا البيلك أو مقارنة مع مختلف المدن في الجزائر هي مدينة «عنابة» وهي بدورها مدينة ساحلية كانت تعاني مثل مدينة الجزائر وفي بعض الأحيان أكثر منها في تبعات وآثار الوباء على السَّاكنة، فإن قمنا بالمقارنة بين آثار هذا الوباء مثلا في مدينتي «عنابة» و«الجزائر» وجدنا أنَّ مدينة عنابة تحصد ضحايا بشكل أكبر مع دار السلطان «مدينة الجزائر» علما بأنَّ الكثافة السُّكانية كانت في «مدينة الجزائر» أكبر منها في «مدينة عنابة» ما يحيلنا إلى الافتراض بأنّ طريقة تعامل ساكنة مدينة الجزائر فعلا قد أصبحت أكثر نضجا في التعامل مع الوباء مِن غيرهم.

كما يمكن أن يربط البعض بين «عنابة» أو «بيلك الشرق الجزائري» وعلاقته مع إيالة تونس الحدودية ما يجعل حدوث التأثر قد يكون أكبر بحكم الحدود وحركة القبائل في الإيالتين مع بعض، لكن هذه الفرضية أيضا يصعب إعمالها في هذا الوباء تحديدا كون إيالة تونس لم يلاحظ بها آثارٌ للوباء منذ (ماي/ ١٧٨٦مـ) ما يجعل العامل الحدودي والقرب من تونس في هذا الموضع في بعيد الافتراض.

نعود للحديث عن هذا الوباء والذي وصل هذه المرّة إلى بعض الأشخاص مِن ذوي الجاه مِن أمثال ابن شيخ العرب في منطقة الزيبان، والذي لم يستطع التَّعافي من هذا الوباء؛ فسقط في شهر ماي ١٧٩٤مـ مَقضيا عليه، وارتفعت

الحصيلة اليومية من الضحايا من (٥٠/ يوميا) إلى (١٥٠/ يوميا) إلى بمعدل (٣٠٠٪)[1]، نعتقد أن هذا الارتفاع في عدد الضحايا كان لفترة محدودة لم تتعد (١٥ يوما)، والأمر الغريب فعلا في تطور النشاط الوبائي هذه المرّة أنّه كان في عز فصل الصّيف، وبالتَّحديد في النِّصف الأوَّل من شهر (جويلية/ يوليه١٧٩٤مـ)[2] وهو ما نجده مُصرَّحاً به في ثنايا إحدى الرسائل التي أرسلها وكيل الشركة الإفريقية السيد (Guibert) إلى القنصل العام الفرنسي في الجزائر السيد «فاليار» (Valliere) بتاريخ الثامن مِن شهر جويلية (١٧٩٤مـ) وهو الأمر الذي لاحظه الدكتور «غيون» بتعجُّب كون المرحلة المعتاد فيها تراجع الوباء هي فترة الصيف والممتدة ما بين (جويلية-أكتوبر) ويعتقد «بير بروجر» أنَّ ذلك مردُّه تواصل سقوط الأمطار على غير العادة على قسنطينة خلال تلك المرحلة [3].

نتقل بعدها للحديث عن الوباء في بيلك الغرب الجزائري، إذ يظهر هذا الطَّاعون ببيلك الغرب الجزائري في فترة حكم « محمّد بن عثمان الأكحل أو «محمد باي الكبير» وبالتَّحديد سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ)[4]، وهذا بعد قحط

---

(1) - Lettre du 4 juin, de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Alger. J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P-P, 356.

(2) - Lettre de M. Guibert dans: H.V.P.C. P.491

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P227.

(4) -Brosselard: loc.cit., Revue African., Anne 1860, N°4, P 88.

شديد ألمَّ بالبيلك سنة قبل ذلك[١]، أطلق سّكان البيلك على هذا الوباء اسم (حبحوبة عثمان) [٢]نسبة إلى عائلة «عثمان بن محمد الكبير» إذ أنّه قضى على عدد كبير من أفراد هذه العائلة[٣].

ساد الاعتقاد لدى سكان البيلك أنَّ السبب الرئيسي وراء هذا الوباء هو مجموعة من الحجَّاج العائدون من «مكة المكرمة»[٤]، وهو ما رأى «بير بروجر» إنَّه يتعارض مع الحقائق التي قدّمها عن الطريقة التي تفشى بها الوباء من مدينة الجزائر إلى بيلك الشرق ثمّ بعد ذلك وصوله إلى بيلك الغرب الجزائري[٥]، لكن هذا التَّحامل على رأي الأهالي في الكيفية التي وفدت بها «حبوبة عثمان» إلى بيلك الغرب الجزائري قد يستساغ في حالتين اثنتين، إحداهما أن تكون مدينة وهران مدينة داخلية لا ترتبط بأي علاقات مع العالم الخارجي إلاَّ عن طريق البر، وهذا معلوم إنَّه غير صحيح، والثانية أن تثبت لنا الوثائق إنَّه لم تدخل خلال سنة (١٧٩٤مـ) أي سفينة إلى ميناء مدينة وهران قادمة مِن الحج أو تحمل على متنها الحجاج، وهو الأمر الذي لا يستطيع «بير بروجر» إثباته، لذا نعتقد أنَّ وفود الوباء من البَّر كما قال «بير بروجر» لا يتعارض مع وفوده أيضا وفي نفس المدة مِن جهة البحر، لتبقى الأسبقية هي محل النَّظر.

(١) – مؤلف مجهول: نبذة من سيرة الباي محمد الكبير (مخطوط) المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم ٥٠٢٢. [و/ ٢]

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P196,

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P357.

(4) - Walsin Esterhazy: op.cit., P196,

(5) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P227.

وباء سنة (١٧٩٥م- ١٧٩٦م)

كما يذكر «بير بروجر» إمكانية أن تكون سنة (١٧٩٥مـ) موبوءة ولو بشكل ضيق ومنحصر، إذ ذكر أنه قد قيل بوجود بعض الضحايا في مدينة «دلس» ومدينة «الجزائر»[١]، لكنَّ هذه المعلومات ظلَّت فوضوية وشحيحة وبدون تفاصيل، كما أنَّ وجود هذا الوباء في تونس خلال نفس المرحلة كان آثاره ضعيفا لكن من المؤكد وجوده خلال تلك المرحلة ، إذ نقف في العديد من المراسلات على إشارات متفرقة عن وجود الوباء في انتشار كما هو الحال في إحدى الرسائل التي أرسلها أحد العمال الفرنسيين في الشركة الإفريقية مِن مدينة القالة إلى السلطة الفرنسية يشتكي فيها ما لقيه في سفره من تعرض قراصنة البحر لسفينته، ويشرح كيف أنّه لم يستطع دخول الموانئ التي مرّ بها بسبب انتشار مرض الجدري بها منذ أكثر من أحد عشر يوما[٢]، ولعل ضعف تأثير مرض الجدري في مدينة الجزائر -إن وجد- هو ما جعل ذكره في الوثائق أمر نادر[٣]، وهو ما يجعلنا نعتبر هذه السنة فعلا سنة موبوءة، إذ أنّ المصادر لا تُمدُّنا بما مِن شأنه أن يُعد أَساساً معلوماتياً قد يرقى ليُؤسس عليه موقف علمي أو تاريخي ما حيال وجود الوباء من عدمه.

(1) - Ibid. P229.

(2) - Bonne, et floréal an 4 de la République (21 Avril 1796) Au citoyen Herculais, envoye extraordinaire de la République française auprès des puissances Barbaresques: H.V.P.C, P335.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P357.

اشتبه في وجود بعض الحالات الشاذة التي سقطت نتيجة الوباء في كلّ من مدينتي الجزائر ودلس[١]، وهذه المعلومة نقلها أيضا «مارشيكا» من «بير بروجر» وتوقف لديها دون ما إبداء رأيه[٢]، ولعل هذا راجع إلى انعدام المعلومات حول هذا الوباء، إضافة إلى انعدام ذكره في المصادر والمراجع المختلفة من جهة ثانية حملنا على أن لا نأخذها في الحسبان كسنة وبائية، إذ أنّ تأثيرها إن كان موجوداً فعلا فهو لم يصل إلى درجة تصنيفها سنة وبائية، ولهذا لم يُلتفت لها أصلا في جل المصادر وحتى الدراسات المختصَّة.

أمَّا في السنة التالية أي: (١٧٩٦مـ) فإنَّنا نقف على بعض المراسلات في الأرشيف العثماني تتحدث عن وجود الوباء في عدد من الجزر والإيالات التابعة للدولة العثمانية خاصة بلغاريا واليونان[٣]،وهو ما يؤكد صحة المعلومات التي توردها بعض المراسلات القنصلية الفرنسية مع وكلاء الشركة الإفريقية، بحيث تورد هذه الوثائق والمراسلات بإنَّه قد لُوحظ وجود أعراض للوباء بداية مِن شهر(أبريل/ أفريل) من سنة (١٧٩٦مـ)[٤]، كما ورد في برقية أخرى أنّه في الخامس أو في السَّادس مِن شهر (جويلية/ تموز) قد توفيت امرأة في مدينة عنابة نتيجة

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229

(2) - Jean Marchika:op.cit., P146.

(3) -B.O.A: C.AS. Dosya N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1210.N.17, Belg 03.

(4) -Lettre du 2 mai 1796 (xui floréal an iv), du consulat de France, à Alger, à l'agent consulaire français de Bône. Guyon, op.cit. P357.

الطَّاعون لكنها ظلت حالة شاذة[١]، كما تتحدَّث المراجع عن بداية ارتفاع عدد الضحايا بعد شهر جويلية وأوت إذ وصل في تلك المرحلة في بعض الأيام وفق ما أورده الأب «فيشرا» ونقله عنه مارشيكا إلى عدد ثمانية وأربعين يوميا، مِن بينهم عدد كبير مِن النَّصارى[٢].

كما يتحدّث «غيون» عن خروج سفينتين مِن ميناء مدينة الجزائر واحدة في شهر (جوان/) اسمها L(Eulalie) والأخرى في شهر جويلية اسمها (la Fortune) وقد اكتُشف لاحقا في ميناء مارسيليا بإنَّهما تحملان الوباء[٣]. في نفس المرحلة أي خلال شهر (جويلية/ يوليو) وشهر (أوت/ أغسطس) وقد مرَّ بنا أنّ الوباء حينها كان يضرب مدينة الجزائر بقوَّة من جديد[٤].

وباء سنة (١٧٩٧م)

يعد أحد أشد الأوبئة التي عرفتها كلّ من تونس والجزائر، يرجع (Tholozan) « ثلوزان « أنَّ أصل هذه الوباء يرجع إلى «صعيد مصر» فيرى أنَّه قد ظهر هناك سنة (١٧٩٦مـ) وانتقل منها إلى غيرها من المناطق في إفريقيا، أو إنَّه ظهر في الحبشة وانتقل منها إلى صعيد مصر[٥]، وهو نفسه ما قرَّره (Laumonier)

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229, Et Lettre de La calle du 22 juin (iv messidor an iv), au consul de France, à Alger, Guyon, op.cit. P357.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P145.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P357.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229.

(5) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P03.

لومونييه من كون دلتا النيل أحد منابع الطَّاعون الأساسية مثله مثل نهر الغانج في الهند[١] وقد وصل عدد الأوبئة خلال المرحلة الزمنية (1783-1844) ما يقارب واحداً وعشرين وباءً[٢].

فإن تقرَّر ما سبق انتقلنا للحديث عن امتداد هذا الوباء من مصر إلى غيرها وبالتحديد إلى مختلف الإيالات العثمانية نتيجة للاحتكاك الذي كان أكيداً بين الحجاج في موانئ مصر، أما في إيالة الجزائر فقد ظهر هذا الوباء بداية من ربيع سنة (١٧٩٧م) وبدأ في حصد ضحاياه بشكل كبير بداية مِن شهر ماي[٣]، فيما يرى بعض الباحثين أنَّ الانطلاقة الفعلية لهذا الوباء كانت في شهر أبريل مِن سنة(١٢١١هـ/ ١٧٩١م) وامتدّ تأثيره وفعاليته إلى غاية نهاية شهر (جوان/ يوليه/ ١٧٩٧م)[٤].

كان يحصد متوسط ضحايا قُدِّر بما بين عشرين وخمسة وعشرين ضحية في اليوم، وهذا خلال شهر ماي في مدينة الجزائر وحدها[٥]، فيما يعرف عدد الضحايا ارتفاعا بشكل مهول جدا، يصل حسبما يورده وكيل الشركة الإفريقية في مدينة بونة -ضمن رسالة إلى القنصلية الفرنسية في الجزائر- إلى عدد يقارب الخمسمائة ضحية يوميا في بداية شهر جوان، ثمّ يتراجع بعدها إلى قرابة المائة ضحية يوميا في

(1) - Laumonier Jean: op.cit., P02.

(2) - ibid. P8.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P358.

(5) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P229.

آخر الشهر نفسه[1]. تظهر حالات وعينات مرضية لضحايا كُثر بسبب هذا الوباء خارج مدينة الجزائر بداية مِن شهر (جوان) مِن السنة نفسها في مدن بونة وقسنطينة[2] وقد تزامن في مدينة وهران الساحلية حسب إحدى المخطوطات بأزمة غذائية وقحط شديد كان تصرف الباي «محمَّد الكبير» حينها قد خفَّف مِن وطأته بفتحه لمخازن الحبوب وتسخيره مطعم القصر للضعفاء من السكان والأهالي[3]، كما يظهر بعد ذلك تحديدا في شهر(أوت) في مدينة قسنطينة غير أنَّ عدد ضحاياه ظلَّ منحصراً فيما بين (٤-٥) ضحايا يوميا[4]، ولذلك عُدَّت الإيالة كلُّها موبوءة بالطَّاعون، بحكم أنّ أهم مدنها كانت تحت وطأة هذا الوباء بمستويات مختلفة[5]

فيما يمكننا الرجوع للحديث عن العوامل المختلفة التي أدّت إلى أن عودة الانتعاش الكبير للجيوب الوبائية خلال هذه السنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٧مـ) يرجع إلى أسباب عدّة لعل من أهمها؛ حركة القبائل الكبيرة في داخل الإيالة؛ نتيجة ثورة درقاوة والتي امتدّت في أرجاء واسعة في بيلك الغرب الجزائري، وهذا ما يُستنبط

---

(1) - Lettre des 4 et 22 avril, 9 mai et 2 juin (xv germinal, III et xx floréal, et XIV prairial au v), de l'agent consulaire de France, à Bône, au consul de France, à Algeri, J.-L.-G. Guyon, opcit, P, 358.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P148.

(٣) - مؤلف مجهول: النبذة من سيرة محمد باي فتح ثغر وهران، (مخطوط) المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (٥٠٢٢) ورقة [٢].

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit.,

(5) - Jean Marchika:op.cit., P148.

من حديث «أبي راس الناصر» عن فتنة درقاوة وما تبعها من طاعون تهرّب منه الواعون على حد قوله[١].

يبدأ تراجع آثار هذا الوباء كما هي العادة في الغالب في فصل الصيف مع الارتفاع الكبير لدرجة الحرارة[٢]، وينحصر تدريجيا إلى غاية عودة ظهوره مرة أخرى سنة (١٧٩٨مـ)

تجدد الوباء سنة (١٢١٢هـ/١٧٩٨مـ)

يبدو أنّ الوباء في الجزائر كان يرفض الرَّحيل أواخر القرن الثامن عشر، إذ إنَّه لم يكتف بنتائج سنة واحدة ليظهر(١٢١١هـ/ ١٧٩٧مـ) ويتجدَّد ظهوره مرّة أخرى سنة (١٧٩٨مـ/ ١٢١٣هـ) في شكل طاعون رئوي يجتاح الجزائر والمغرب في نفس التوقيت تقريبا[٣] فيما كان مُنتشراً في إسبانيا ومضيق جبل طارق وموانئ طولون الفرنسية[٤]، وحسب الدلائل المختلفة ما هو في الحقيقة إلاَّ امتدادٌ طبيعيٌّ لوباء سنة (١٧٧٩مـ)، فيما يرى « ثلوزان « أنَّ هذا الوباء إضافة إلى كلَّ مِن وباء (١٨١٨مـ) ووباء سنة (١٨٢٨مـ) تعود في أصلها إلى منطقتي القوقاز وأواسط آسيا[٥].

---

(١) – أبو راس الناصر: فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص٢٤.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P23.

(٣) – العربي المشرفي: المرجع السابق، ص ١٨١.

(4) - B.O.A: HAT. Do: N°144. Gömlek N°6042. Tarih 1219.Za.24. Belg 01.

(5) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P09.

ويرى «بير بروجر» أنّ الكلام عن ظهوره في الإيالة في تلك المدة كان محض إشاعات برزت بداية شهر أفريل مِن هذه السَّنة، وحقيقته تظهر إنَّه وباءٌ بسيط تأثيره اقتصر على بعض الحالات المعزولة خلال هذه السنة[١]، تزداد قوَّة ونشاط هذا الوباء مع مرور الوقت ليصل إلى غاية أقصى الغرب الجزائري وبالتَّحديد إلى مدينة تلمسان في نفس السنة[٢].

وقد تحدّث الدكتور «رنو» عن امتداد الوباء وانتقاله مِن مدينة تلمسان خلال سنة (١٧٩٨مـ) إلى المغرب الأقصى عبر الطريق القاري[٣]، غير أنّه تعوزنا المصادر والمراجع حاليا في شأن هذا الوباء إذ لا نقف على ذكر كبير له، وكل ما نقف عليه في الحقيقة ما هو إلاَّ ما أشار إليه «بير بروجر» ونقله عنه «غيون» و«مارشيكا» في كتبهما[٤].

وباء (١٢١٣هـ/١٧٩٩مـ)

يأبى بالفعل الوباء إلاَّ أن يترك بصماته في كلِّ سنة مِن السنوات الأخيرة في القرن الثامن عشر إذ تظل الجيوب الوبائية تتجدَّد وتستدعي الأوبئة في كلِّ مرَّة، بحيث يظهر النَّشاط الوبائي في مدينة الجزائر مرَّة أخرى في المرحلة الممتدة مِن جانفي إلى غاية سبتمبر مِن سنة (١٧٩٩مـ)[٥]، يصل عندها إلى مرحلة يقضي فيها

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P2.31

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P359.

(٣) - محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص ٨٩.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P149.

(5) - Ibid. P149.

يوميا خلال شهر (سبتمبر) على ما يقارب (٣٠٠ضحية/ يوميا) في مدينة الجزائر، فيما يقضي الوباء في مدينة قسنطينة ببيلك الشَّرق الجزائري يوميا على ما يقارب (١٢٠ ضحية/ يوميا)[1].

وقد لاحظ بعض الأطباء العرب في شهر مارس مِن نفس السَّنة ضمن الحجاج الوافدين في سفينة تركية من «مكة المكرمة» إنَّها ضمَّت عددا مِن المُصابين بالوباء، تُوفي عددٌ منهم بعد إصابتهم[2]، وقد شوهد الوباء في كل من غزة وبلاد الشام ومصر أيضا[3]، أصبح الوباء يقضي على (١٥ شخص/ يوميا) خاصة وإنَّه كان قد انتشر في كلِّ مِن معسكر وتلمسان[4]، ويمتدّ إلى غاية صحراء الزّيبان[5].

يبدأ الوباء في الانحسار بداية مِن شهر (جوان/ يونيو) إلى (٣ أو٤ ضحايا/ يوميا) وكأنّ بالوباء استغنى عن الضَّحايا الجزائريين الذين تعود عليهم بضحايا جدَّد هذه المرَّة ضمن العمق الغربي إذ قد ظهرت بالفعل الآثار العديدة لهذا الوباء في المغرب الأقصى بعد مدَّة وجيزة[6].

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P359.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P359.

(3) -B.O.A: C.AS. Do: N°804.Gömlek N°34147. Tarih 1213.Za.29. Belg 01.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P360.

(5) - Jean Marchika:op.cit., P149.

(6) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P360.

وباء (١٢١٦هـ/١٨٠٢م)

في السَّنتين الأولتين من القرن التاسع عشر لا نقف على معلومات كثيرة عن تسرب الوباء في إيالة الجزائر خاصة وأنه قد تحقق وجوده في الإيالة المصرية[١]، لكن غالب الظنَّ إنَّه لم يكن له أي تأثير على الإيالة الجزائرية، وكان أول خبر حول ظهوره هذه المرة بعد سنتين كاملتين أي سنة (١٨٠٢مـ) واقتصر ظهوره على بعض أحواز مدينة وهران[٢]، وغالبا الظَّن أن يكون هذا الوباء امتداداً لذلك الذي ظهر بين أظهر الجيش الإسباني سنة (١٨٠١مـ) وانتقل منها عن طريق بعض السفن الحربية إلى مالطا وفرنسا كما توضحه الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء[٣]، والأمر فعلا مثل ما قد لمَّح إليه «غيون» في خصوص هذا الوباء قد أُغفِل ذكره وإنَّه لم يُشر إلى آثاره أو نتائجه أو طريقة وصوله إذ كُلّ ما ذكر عنه كان ضمن الوثائق الأرشيفية لازارت (lazaret) وأنّ هذا الوباء قد ظهر فعلا في مدينة وهران وبعض النقاط على السَّاحل[٤] مثل ما يتجلَّى آثار هذا الوباء على طلبات تخفيض الضرائب الواردة إلى السلطة العثمانية من بعض جنودها في الإيالات المختلفة خلال السنة نفسها[٥] التي كانت مفروضة على الجند العثماني في بعض الأوجاقات، مثل ما نقف على آثاره في توقيف بعض الإدارات العثمانية عن

(1) - B.O.A: HAT. Do: N°240. Gömlek N°13451. Tarih 1214.N.29. Belg 01.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P150.

(3) - B.O.A: HAT. Do: N°245. Gömlek N°13836. Tarih 1215.Ş.01. Belg 01.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P364.

(5) -B.O.A: AE. SSLM.III.Dosya N°58.Gömlek N°3461. Tarih 1215.Ra.08, Belg 01.

مزاولة نشاطاتها بسبب انتظارها أن ينحصر آثار هذا الوباء[1].

ظهور داء الجدري (١٢١٧هـ/١٨٠٣م)

كان للجدري أثرٌ كبيرٌ في تاريخ الأوبئة لبلاد المغرب والحوض المتوسطي ككل، لذا نقف على وجود عدد مِن التَّقارير الصَّحية التي اعتنت بظهور مرض الجدري في القرن التَّاسع عشر، والطريقة المثلى في مجابهته[2]، وقد تردَّد على الجزائر في عدد مِن السَّنوات، وكان مِن بين السنوات التي أعاد فيها الظهور بشكل مُتستِّر في أماكن محدودة سنة (١٢١٧هـ/ ١٨٠٣مـ) في مدينة الجزائر[3]. غير إنَّه لم تذكر له أي أعراض كبرى آثارت على الحيز الجغرافي العام. لذا لا نجد له ذكراً كبيراً في المصادر التي أرّخت أو تحدَّثت عن الإيالة الجزائرية، وقد ظلت هذه الجيوب تستدعي الوباء من فترة إلى أخرى على نطاق ضيق وغير ذي آثار كبير، فنجد الحديث عن الوباء في هذه الحالة يكون مقتضبا كما هو الحال مع وباء (١٨٠٤مـ).

ظهر وباء (١٨٠٤مـ) بدوره بعد هجمات أسراب الجراد فكان البلاء مزدوجا بين أزمتي المؤونة التي أتت على القمح والشعير والثمار والأوبئة التي أتت على الإنسان في حد ذاته، فشهدت بذلك مدينة قسنطينة أشدَّ أنواع الأزمات المتزامنة،

(1) - B.O.A: C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05. Belg 03.

(2) - Legée Émile: Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur: imp. de Briez, Abbeville, 1872, P04.P04.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P364.

وليس يُشك أنّ هذا الوباء قد ترك آثاراً كبيراً على جميع مناحي الحياة[1].

تجدُّد سنوات العافية من جديد (١٨٠٤-١٨١٦م)

تكاد تجمع أغلب المصادر التي أرَّخت لتاريخ إيالة الجزائر خلال هذه المرحلة على خلوها مِن الأوبئة والطَّواعين؛ الأمر الذي حمل عدداً من الباحثين على القول أنَّ الإيالة كانت تشهد حالة صحية لم تشبها أي أخبار عن الوباء، فإن تقرَّر هذا حُقَّ لنا أن ننقل ما قاله «مارشيكا» مِن كون المرض خلال هذه السنوات كاد يُنسى[2]، على عكس ما كان يحدث في بعض المناطق في المتوسط مثل: الإمارات الإيطالية ومنطقة الدانوب ومركز الدولة العثمانية، إذ ظهر الطَّاعون مرَّة أخرى حسب ما تورده المصادر المختلفة سنة (١٨١١م) وامتد إلى غاية (١٨١٢م)[3] فيما يرى باحثون آخرون أن هذا الوباء قد امتدَّ أيضا إلى السنة التي تلته مُخلِفاً عددا كبيرا مِن الضحايا[4]بل وأدى إلى تعطل التِّجارة بشكل عام في موانئ الدولة العثمانية خلال السنة الممتدة ما بين (١٢٢٧-١٢٢٨هـ)[5].

(1) - Ibid.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P150.

(3) -Nalan Turna: İstanbul ’un Veba ile ımtıhanı 1811- 1812 Veba salığını bağlamında toplum ve ekonomi,C1, Sayı1, Ağustos 2011, studies of the ottoman domain, s01.

(4) - Boucher Hubert: op.cit., P20.

(5) -B.O.A: HAT. Do: N°280. Gömlek N°16568. Tarih 1227.Z.29. Belg 01.

وباء (١٨١٦م/١٢٣٢هـ).

ولم يُشاهد الوباء ولم يتكرَّر ظهوره إلاَّ سنة (١٨١٦م/ ١٨١٧م) بحيث يُمكن عدُّ هذا الوباء أحد أخطر الأوبئة التي انتشرت في المنطقة ككل، إذ امتدَّ وجوده مِن المغرب الأقصى إلى غاية إيالة طرابلس، ولم يستثن حسب المراسلات القنصلية للدول المختلفة أي مكان[١].

أرجع عددٌ مِن الباحثين أصل هذا الوباء إلى مناطق القرى في الأناضول وأرمينيا[٢]، وهو ما نقف عليه فعلا في إحدى الوثائق المالية في الأرشيف العثماني، وردت إلى الصدر الأعظم «خرشيد أحمد باشا» سنة (١٨١٦م) وتتحدَّث الوثيقة عن صعوبة جمع الضرائب في تلك المُدَّة الزمنية بسبب الأوضاع السَّيئة التِّي خلفها الوباء في مناطق مختلفة في المناطق الأوروبية للدولة العثمانية وفي منطقة الأناضول وغيرها[٣]، وكنتيجة للموقع الهام الذي ارتبط به ظهور هذا الوباء فقد كان بالفعل وباء خطيراً جِدّاً لا على منطقة الأناضول فقط بل على كل المناطق التي ترتبط بها بعلاقات ما، امتدَّ هذا الوباء حسب قول «بير بروجر» مِن خريف سنة (١٨١٦م/ ١٢٣٢هـ) إلى غاية خريف السنة التالية، أي: سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م)[٤]. فيما يرى مارشيكا أنّ التأثيرات المباشرة وغير المباشرة قد ظلت

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P151.

(2) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P03.

(3) - B.O.A: C.AS. Do: N°268.Gömlek N°10993. Tarih 1231.Ş.09. Belg 06.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P2.31

سارية المفعول إلى غاية (١٨٢٢مـ)[١].

بل واستطاعت بعض الجيوب الوبائية سنة (١٨١٦مـ/ ١٢٣٢هـ) أن تأتي في مرحلة ما على أعلى هرم السُّلطة في الإيالة، بل وصل إلى غاية الداي «علي باشا» الذي تُوفِّي بهذا الوباء سنةً بعد ذلك (١٨١٧مـ/ ١٢٣٢هـ)[٢]، وإذا تقرّر هذا فمن الواجب الآن أن نصرف الحديث إلى طبيعة هذا النمط الوبائي الذي ظل مجهولا لدى جزء كبير من النَّاس؛ وكيف آثار عليهم، فنجد أنّ بعض الباحثين يرى أنّ السبب في امتداه وتفشِّيه بشكل قوي هو أنّه قِدم بشكل لم يتعوَّده السُّكان؛ فلم يتسن لهم أن يلاحظوا تلك العوارض المختلفة الموجودة في الجثث الجديدة، عكس تلك المظاهر التي أَلِفوها في جثث المرضى لذا اعتقد بعضهم أنها عرضٌ مِن أعراض «الحمى الخبيثة»[٣].

ظهر الوباء حسب رواية «الزّهار» قادما ضمن بعض السُّفن الواردة مِن اسطنبول سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٦مـ) واشتعلت ناره في الجزائر حينها[٤]، بينما يرى «غيون» أنّ السفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة من الإسكندرية رست بمدينة عنابة، ومن خلالها ولج الوباء إلى المناطق الأخرى[٥]. ولعل غيون هنا يقصد بالسفينة القادمة من الإسكندرية عند تجدد الوباء في السنة

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P151.

(٢) – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (١٦٢٤) و[٣]

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P372.

(٤) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١٥٨.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P372.

الثانية السفينة التي تحدّث عنها «بير بروجر» وقال أنّها رست بميناء عنابة بتاريخ (٠٩/٠٦/١٨١٧م)[١]، وسبب هذا الأمر أنّ «غيون» لا يعد الوباء موجودا بالفعل في الجزائر خلال سنة (١٨١٦م) وإنَّما يرى أنَّ الوباء ظهر بعد ذلك بسنة. ويرى «مارشيكا» بأنّ الموطن الحقيقي للسفينة مركز الخلافة العثمانية، وإنَّها مثل ما ذكر «الزَّهار» قدِمت مِن الإسكندرية، لكن ذلك كان سنة (١٨١٧م) بقيادة «الريس علي» ويرجح إنَّها دخلت إلى ميناء الجزائر في السَّادس عشر مِن ماي (١٨١٧م) أو في الثَّامن مِن شهر جويلية من سنة (١٨١٧م) خاصة وإنَّه يربطها بما قد أذيع مِن خبر حول انتشار الوباء في المرافئ المصرية خلال تلك المرحلة[٢].

لكن لا يُمكننا عدُّ ما ذكره «بير بروجر» و«غيون» ونقله عنهما «مارشيكا» حكما متيقِّنا وقطعيا، إذ نقف على ذكر أعراض هذا الوباء في أكثر مِن مصدر من المصادر المحلية كما هو الحال في: مخطوط «بيان ملوك الجزائر» و«مذكرات الشريف الزهار» وكما أورده» فيرا «في كتابه عن مدن بيلك الشرق الجزائري وقوله بأنّ بعض السُّكان خاصة مِن عرش «أولاد مسعود» قد نزحوا مِن تونس وليس مِن الأهالي الأصليين في مدينة القالة كون أنَّ الأهالي الأصلين في المنطقة قد قضى عليهم وباء (١٨١٦م) كما ذكر[٣].

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P2.32

(2) - Jean Marchika:op.cit., PP151،154.

(3) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.

وما يهمنا فعلا هو أنّ ظهور الوباء في كلّ من مدينة الجزائر عنابة ووهران قد تزامن مع حملة اللورد «إكسمورث» على الجزائر؛ وأنَّ تزامن ظهور الوباء في أكثر مِن مدينة في نفس المرحلة اعتبر أمراً غريبا إذ وجد في الغالب مجموعة مِن الفواصل الزمنية بين ظهوره في مكان أو مدينة ما وامتداده لمكان أو مدينة أخرى.

وقد امتدَّ فعلا وباء سنة (١٨١٦مـ) إلى السنة التي تلته (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) ليشمل كلاً مِن «مدينة قسنطينة» ومنها ينتقل إلى تونس[١] حسب «أندري بير بروجر» لكن حسب ما هو معلوم فإنّ هذا الوباء كان موجودا بالفعل قبل هذا التاريخ في كل من: تونس وليبيا بل حتّى إنَّه ذكر وجوده في بعض المناطق في الأناضول والحجاز أيضا[٢].

انتقلت العدوى الوبائية فيما بعد مِن الجزائر إلى المملكة المغربية، حيث برزت فيها عينات وبائية سنة (١٨١٧مـ) مُخلفة ما بين (٤٠ – ٦٠) ضحية يوميا، وهو ما حمل القناصل الأوروبيين في المغرب الأقصى على مراسلة السلطان «مولاي إسماعيل» من أجل أخذ الحيطة بمحاصرة الطَّاعون في المناطق الشرقية لذا اعتمد جملة مِن التدابير أهمها:

- فرض حجر صحي على المراكب القادمة من المغرب الكبير لمدة أربعة أيام.

---

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P2.32

(2) - Tholozan Joseph-Désiré: Les trois dernières épidémies de peste du Caucase, auteur Éditeur: G. Masson, Paris, 1879, P28.

- مراقبة المناطق الشرقية واتباع أسلوب والده والمتمثل أساسا في إقامة حزام عسكري طبي بين مملكة المغرب وإيالة الجزائر[1].

تجدُّد الوباء (١٢٣٢هـ/١٨١٧هـ)

ظلت بعض الجيوب الوبائية خامدة سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧هـ) مُدَّة وجيزة، لكن سرعان ما جددَّت نشاطها مرَّة أخرى إذ يرد في أكثر مِن موضع سقوط عدد مِن الضَّحايا بسبب الطَّاعون، مِن بينهم ثلاثة بساكرة سقطوا في ٢١ من شهر جوان ثم يسقط مرة أخرى خمسة من البساكرة في الخامس من شهر جويلية في نفس المرحلة تقريبا بعد خمسة أيام تسقط ضحيتان من فئة البساكرة أيضا[2]، وهذا أحد المؤشرات الهامة على أنّ الجهة التي قَدم منها الوباء غالبا هي ميناء المدينة، فإنّ تقرّر هذا قلنا أنّ هذا الوباء وافد أكثر لكن ليس بالضرورة في نفس السفينة التي أوردها «غيون» ونقلها عنه «مارشيكا» إذ أنّ السَّفينة التركية التي أشاروا لها قد وصلت الجزائر في الثامن من شهر جويلية من سنة (١٨١٧مـ) فيما أننا نقف على حالات مؤكدة لضحايا الطَّاعون في الواحد والعشرين مِن شهر (جوان/ يوليو) أي أنّ مُسبِّب هذا الوباء هو سفينة وافدة مِن البحر، لكن ليس مُؤكداً إنَّها السَّفينة التي أشار إليها كل مِن «غيون» و«مارشيكا» بل يمكن أن نقول ما قاله «مارشيكا» من كون أنّ السفينة المذكورة أسهمت بشكل ما في نقل العدوى إلى أماكن أخرى[3].

(١) – محمد الأمين بزاز: نفس المرجع، ص ١٠٤،١٠٥.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P154.

(3) - Ibid. P155.

أكثر من كونها سببا رئيسيا في دخول الوباء إلى الجزائر.

وإذا تقرَّر هذا رجعنا مرَّة أخرى إلى إمكانية تأكيد ما ذهب إليه «الشَّريف الزَّهار» مِن كون الوباء الذي نحن بصدده قد دخل الجزائر قبل سنة (١٨١٧مـ)[١].

شرع هذا المرض في اصطياد ضحاياه مِن الموانئ كما جرت العادة، فسقط بسبب ذلك ثلاثة من البسكريين في الواحد والعشرين من شهر (جوان/ يوليو)، وذكرت رسالة موجّهة من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى مرسيليا أنهم كانوا خمس ضحايا، كما ذُكِر بإنَّه قد أُمِر بحملهم ليموتوا في دُورهم؛ بسبب إصابتهم بالطَّاعون، كما انتشر الخبر بأنّ اثنين آخرين ماتا في المدينة[٢]، والسبب الرئيس في أنَّ البساكرة كانوا هم أوَّل وأكثر عرضة للطَّاعون؛ إذ أنّهم كانوا يمتهنون حرفتي النقل البحري والحمالة[٣]، وعليه جعلتهم مهنتهم أول المحتكّين بالوباء الوافد عبر الموانئ البحرية أو حتى احتكاكا مع الفئران التي تأتي في السفن الوافدة[٤]، وقد لاحظ حينها كل من الدكتور «أسنسي» *Assensi* والدكتور «فرنسوا توزيل» *François Touzel* بعدما أوفدهما الداي عمر لمتابعة الأوضاع[٥] أنّ الأعراض الموجودة في الجثث هي نفسها، الأمر الذي يعني أنّ الأمر يتعلّق بالوباء فعلا.

(١) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١٨٥.

(2) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P373.

(٣) عائشة غطاس: الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر(١٧٠٠–١٨٣٠) ص ٣١،٣٠.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P141.

(5) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P373.

وقد ذكرت الرِّسالة السَّالفة أيضا أنه في الثامن من نفس الشهر قدمت إلى الجزائر سفينة تركية على متنها حُجَّاج عائدون مِن الإسكندرية ذُكر إنَّها رمت في البحر قرابة خمسة وعشرين شخصا لإصابتهم بالطَّاعون، ولمَّا رست هذه السَّفينة بميناء عنابة نزل منها خمسة وعشرون شخصا كان مصابا بالمرض انتشروا في مختلف أرجاء المدينة طبعا ما تسبب لاحقا في تفشي الوباء دون شك لباقي السكان[1]. ولعلها السَّفينة نفسها التي مرَّت بمدينتي الجزائر ووهران في نفس المدَّة[2]، وهذا ما يبرِّر تزامن ظهور الوباء في المدينتين في نفس المرحلة وبنفس الحدَّة تقريبا.

توفي في نفس الشهر أيضا نائب القنصل الفرنسي في الجزائر السيد فرانكوِش *M. Francowich* بنفس الأعراض الوبائية، بل أنَّ هذا الوباء دخل حتَّى إلى الثكنات العسكرية، إذ أنّه قضى على عدد مِن العساكر في ثكنة طريق «باب عزون» و«ثكنة البحر»، كما استطاع هذا الوباء هذه المرة أن يلج إلى بيوت كبار رجال الدولة كالخزناجي والآغا والكثير ممن هم دونهم[3]، وهذا إنَّما يؤكد أنَّ هذه الفئة مع ما لها من المال والسَّطوة كانت قليلة الاهتمام بما من شأنه أن يحفظ صحتها أو يجنبها تلك النتائج الخطيرة.

---

(1) - ibid. P373.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, PP 332,333.

(3) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P374.

يرتفع عدد الضحايا تباعا في شهر جويلية فَيَصِل في الثالث عشر مِن شهر جويلية إلى أربعين ضحية موزعة بين فئة البساكرة وحضر المدينة وبعض اليهود، بينما نقف في اليوم الموالي على ثمانية عشر ضحية، ونفس العدد تقريبا في الخامس عشر من جويلية، ليستمرَّ هذا المتوسط إلى غاية العشرين من جويلية (١٨١٧مـ)[١].

في التاسع والعشرين من شهر جويلية الموافق لـ ١٧ رمضان (١٢٣٨هـ/ ١٨١٧مـ) يتحصَّل الوباء على جرعة نشاط قوية وهامة بسبب دخول سفينة جديدة لميناء مدينة الجزائر على متنها مائتي شخص، مِن بينهم ابن الداي وبعض أقاربه، وكان عدد منهم مصابا بالمرض حسب ما لاحظه قناصل الدول الأوروبية، لكن لم تتدخل السلطات في مدينة الجزائر لاتخاذ أي تدابير احترازية من شأنها تخفيف آثار هذا الوباء[٢]، ولعلّ هذا الأمر هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى استمرار هذا الوباء في النشاط خلال فصل الصيف على غير العادة[٣]، إذ مِن المعروف أنَّ الوباء ينحصر بارتفاع درجة الحرارة كما سيأتي معنا بالتفصيل في موضع الحديث عن المناخ وتأثيره في المجاعة والوباء، إضافة إلى هذا الوباء ابتُليت مدينة الجزائر أيضا بالزلزال الذي ضرب المدينة في نفس المرحلة تقريبا[٤]، ما يعني أنَّ الخسائر البشرية خلال هذه المرحلة كانت كبيرة فعلا ومؤثرة بشكل ما على الحالة

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P155.

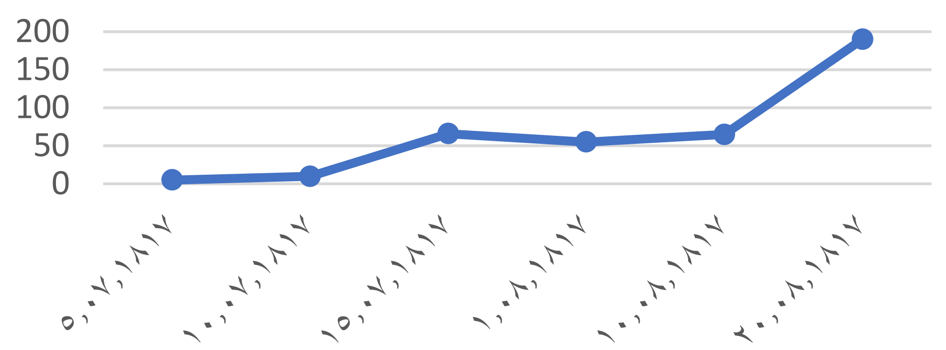
(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P375.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 333.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P156.

الديمغرافية كلما طال الزمن الذي يشغله هذا الوباء مثل ما يوضحه المنحنى البياني التالي:

منحنى بياني يرصد ارتفاع عدد الوفيات خلال شهري جويلية وأوت سنة (١٨١٧مـ) في مدينة الجزائر



يستمرّ الوباء في شهر (أوت/أغسطس) بنفس الوتيرة، فيقضي على خمسة وخمسين فردا في الأوَّل مِن هذا الشهر، وعلى ثمانين ضحية في اليوم الموالي، ليصل عدد الضحايا في الثامن من نفس الشهر إلى مائة وأربعين ضحية ويبدأ في الانخفاض بداية من النَّصف الثاني لشهر أوت فيصل في الثامن عشر من هذا الشهر عدد الضحايا إلى الثلاثين[1]، وينخفض إلى أقل مِن ذلك لاحقا في آخر هذا الشهر حتَّى يكاد يختفي تماما بداية مِن النِّصف الثاني مِن شهر سبتمبر[2].

(1) - Jean Marchika:op.cit., P157.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 333.

والملاحظ أنّ هذا الوباء هذه المرّة لم يقتصر على مدن مثل: عنابة ووهران وقسنطينة كما تعودنا بل يكاد ينتشر في جلِّ المدن التي توجد بالإيالة[١] فنجده يحصد أكثر مِن أربع مائة وخمسين ضحية في مدينة بسكرة وحدها[٢].

يستمرُّ هذا الوباء في مدينة عنابة وأحوازها إلى نهاية هذه السنة، بينما يبدأ حدوث في انحصار تأثيره في مدينة الجزائر وتراجع سطوته بداية مِن منتصف شهر أكتوبر[٣]، نفس الأمر نقف عليه يحدث مع هذا الوباء في مدينة قسنطينة، إذ يبدأ في الانحسار تدريجيا بداية من شهر نوفمبر[٤]، حتى يكاد ينقضي أمره تماما من الإيالة قبيل نهاية السنة[٥].

وباء (١٢٣٣هـ/١٨١٨)

لم تكد تمضي بضع شهور من السنة الماضية حتى عاد الوباء للظهور مرة أخرى سنة (١٨١٨مـ) إذ ظهر هذا الوباء في أوّل الأمر في شكل غريب لم يتعوده الأهالي، لذا لم ينتبه له الكثير منهم، بحيث ظهرت فقاعات وتصلبات للأعصاب وتشنجات على بشرة بعض الموتى ما أثار حفيظة واستغراب الجميع، إذ لم تُشاهد أعراض هذا المرض مِن قبل؛ لذا حاول البعض تفسيره بأنّه «الوبائي الشرقي»

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P160.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P375.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P159.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P, P 334,337.

(5) - Jean Marchika:op.cit., P159.

وقال آخرون إنَّه نوع من أنواع «الحمى الخبيثة»[1] فيما يذهب «مارشيكا» إلى إنَّه إما «وباء الجدري» أو «الحمى الخبيثة»[2] وقد رصد هذا الوباء فعلا في بعض مناطق الأناضول فيما استثنيت إيران منه[3] كما يمكن أن يكون هذا الوباء هو حمى التيفوئيد، إذ يذهب عدد مِن الدِّراسات إلى حدوث تشنجات وتقلصات مختلفة نتيجة ردود الفعل الوترية في سياق حمى التيفوئيد[4]. كما تحدثت عن هذا الوباء العديد من المصادر التي تناولت تاريخ المنطقة فذكر ابن أب الضياف الآثار الكبير الذي خلفه هذا الوباء على حاضرة تونس إذ وصل عدد الضحايا في أيام قليلة الألف، ومات به عدد من أعيان تونس، وقيل إنَّه استمرَّ بها نحو عامين كاملين[5].

وتتجلّى أعراض وعلامات هذا الطّاعون مرَّة أخرى في مدينة الجزائر على عدد من الضحايا إذ تذكر بعض المصادر أنه ظهر بداية هذه السنة على شاب يهودي يدعى «صموئيل بن شمعون» يتوفّى هذا الشاب في (١٧/ جانفي/ يناير) من سنة (١٢٣٤هـ/ ١٨١٨مـ)، لكن الوباء يتقدّم هذه المرة ببطيء ودون تأثير كبير[6]، على

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P372.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P156.

(3) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P28.

(4) - Libert Marcel: Étude des réflexes dans la fièvre typhoïde(thèse de doctorat), président de thèse professeur Raymond, Faculté de médecine de Nantes -Thèse Doctorat- Éditeur: A. Michalon, Paris, 1902, P11.

(5) ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، ج٣، ص ١٢٧.

(6) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P38٠.

غير ما يورده «مارشيكا» الذي يرجِّح أنَّ الوباء تصادف مع احتفالات المولد النبوي بالجزائر والذي صادف (١٩/ جانفي ١٨١٨مـ) وقد خلَّف حسبه من بداية ظهوره إلى نهايته حوالي (٤٩٩) ضحية[1]، إلاَّ أنَّ مقارنة هذا الرقم مع ما أورده «غيون» مِن أن تأثيره في البداية كان محدودا يجعلنا نقرر أنّ هذا الرقم مبالغ فيه، إذ أنّ بداية الوباء في أيامه الأولى يكون منحصرا في الغالب وترتفع أعداد الضحايا تباعا، لذا يمكننا أن نتحدَّث على هكذا رقم بداية مِن شهر فيفري أو مارس حسب امتداده، فهو خلال مرحلته الأولى بالكاد يستطيع أن يصطفى مجموعة مِن النواقل لتحمله إلى غيرهم من الناس.

ويستمرُّ هذا الوباء ضمن عائلة «شمعون» الماضي ذكرها، إذ تُنقل أخبار حول وفاة أخته بعد دفنه بشهر ونصف، فتؤرَّخ وفاتها في الثاني من شهر مارس من السنة نفسها كما تسلط هذا الوباء في بيت الداي بشكل رهيب إذ قضى أوَّلاً على ما يقارب خمسة وعشرين من العبيد ثمَّ أخذ زوجة الداي[2]، ثمّ يستمر ليحصد روح الداي «علي خوجة» بداية شهر مارس (١٨١٨مـ)[3]، ويخلفه نتيجة هذا الأمر آخر دايات الجزائر حسين باشا[4]، فيما يرى «بير بروجر» أنّ الوباء ظهر أوَّلاً في مدينة عنابة، لكنّه لم يسقط موتى بل إنّ بعض مَن أصيب به شُفي مِن سقمه هذا الأمر مما

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P162.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P381.

(3) -Vayssettes: histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793-jusque-là chut de Hadj Ahmed, Revue African., Anne 1862, N°6, P 209.

(4) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P81.

يرجح نظرية أن يكون هذا الوباء هو الجدري إذ أنّ تعرض الفرد له مرة من قبل يكسبه المناعة[١]، وكانت أولى حالات الوفيات في مدينة الجزائر في شهر أفريل استمر بعدها إلى غاية فصل الصيف ليتجدّد مرّة ثانية في السنة التالية وبقوّة[٢].

بداية من شهر مارس مِن سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨مـ) بشكل رهيب وفظيع؛ أتى على ساكنة المدينة ومن حولها من القرى[٣]، وبقيت الجيوب الوبائية لهذا الطاعون تظهر بين الفينة والأخرى ومن مَحل إلى آخر وهذا طوال سبع سنوات ممتدة من (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) إلى غاية (١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣مـ)[٤]. ويرى غيون أن وباء(١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) ظل يتجدّد إلى غاية (١٢٣٧هـ/ ١٨٢١مـ) بعدها بدأ يعرف هذا الوباء نوعا من الانحسار[٥]، وتؤكد الوثائق المتعلقة بالوباء أنّ بعض الجيوب الوبائية ظلت نشطة إلى غاية سنة (١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣مـ) وهي السنة التي يعرف بعدها هذا الوباء نوعا من التراجع حسب بعض الوثائق الأرشيفية الخاصة بمعهد باستور[٦].

---

(١) – انظر المدخل ففيه بحث مستفيض حول تعريفات الأوبئة وخصائص كل منها.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 334.

(3) -H.- DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P382.

(٤) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١٨٥.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P39٧.

(6) -A.I.P.A: (1924-N°3.P327)

كان امتداد هذا الوباء مميَّزا جدا، إذ كاد يغطي جل أراضي الإيالة، فنقف عليه في العديد مِن المدن التي لم يسبق الإشارة إليها في أيٍّ مِن الأوبئة السابقة، فنجد بعض الدِّراسات تتحدَّث عن وجوده في مدينة معسكر ووهران وغيرهما، فنجده في منتصف شهر أفريل في مدينة معسكر يسقط عددا مِن الضحايا(١).

فيصل الوباء إلى مدينة وهران في السادس عشر من شهر أفريل من نفس السنة، وهذا ما يفهم من محاولات بعض اليهود الفرار من المدينة بعدما أشيع خبر انتشار الوباء بها، ويتأخَّر ظهوره في مدينة بجاية إلى غاية الثَّامن مِن شهر (جوان/ يونيو) مِن نفس السنة(٢)، كما إنَّه يصبح قادرا على حصد ما يقارب الأربعين ضحية يوميا في مدينة وهران خلال النِّصف الأوَّل مِن شهر مايو، فيما نقف في مراسلة قنصلية على انتقال الوباء من الغرب الجزائري باتجاه المغرب الأقصى خلال نفس المدَّة(٣)

وإذا كان ما سبق أمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب الآن أن نضيف الحديث عن المعطيات العددية المختلفة حول الضحايا الذين سقطوا نتيجة هذا الوباء، فتُقدِّر بعض الدِّراسات متوسط عدد الضحايا مثلا بخمسة وعشرين ضحية يوميا في شهر أفريل فيما يرتفع العدد في شهر ماي إلى حوالي ثلاثين ضحية يوميا(٤)، وترى بعض الأبحاث التي تناولت الوباء نفسه أنّه قد

(1) - Jean Marchika:op.cit., P167.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., PP 382, 383, 384.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P167.

(4) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 334.

استطاع حصد عددٍ مُعتبرٍ خلال شهر أفريل من هذه السنة، فتورد بعض الأرقام التي مفادها أنّ عدد ضحايا هذا الوباء خلال شهر أبريل بلغ متوسط (١٥٥٦ ضحية) منها (١٣٩٥ مسلما) و(١٦١ يهوديا)[١] أي أنَّ المتوسط اليومي كان في حدود خمسين ضحية يوميا، وغالب هؤلاء الضحايا مِن المسلمين مقارنة مع من يعيش معهم من اليهود والنَّصارى. وهذا أمر طبيعي نظرا للكثافة السكانية المتباينة في المدينة بين العناصر المكونة لها.

كما يُلاحظ إنَّه مع وجود عدد مِن النَّصارى في المدينة إلاّ أنَّ تأثير الوباء عليهم خلال الثُلث الأوَّل مِن القرن التَّاسع عشر يكاد يكون صفرياً، ولعلَّ لهذا علاقة مع طبيعة العلاقات مع الدول الأوروبية مِن جهة ومُخرجات مؤتمر فينا التي أقرَّت منع الاستعباد الأوربي مِن جهة أخرى ما أدى إلى تراجع عدد الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر على عكس اليهود الذين كانوا يشكلون جزء من التركيبة العامة لساكنة المدينة، لذا نجد أنّ النسب موزعة بين الفئتين المعنيتين أي المسلمون واليهود بالشّكل الموضح في الدائرة النسبية وألحقنا بهم النَّصارى حتى تتضح الصُّورة بشكل أكبر[٢]:

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P382.

(٢) تم إنجاز هذا الشكل بناء على بعض المعطيات المختلفة المبثوثة في المراجع التالية:

- J.-L.-G. Guyon: **Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à a nos jours**
- Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830)

تقسيم عدد الضحايا بين الفئات المختلفة داخل مدينة الجزائر في وباء سنة (١٨١٨مـ)



وبهذا يتضح أنَّ الفئة الأولى التي كانت تأثر بالأوبئة وانعكاساتها هي فئة المسلمين تليها بفارق معتبر فئة اليهود ويمكن تبرير ذلك بعدة عوامل لعل أهمها؛ الكثافة السكانية المختلفة بين الفئتين إضافة إلى الاحتياطات والاحترازات التي كان يقوم بها اليهود مقارنة مع المسلمين كما سيأتي في البحث الخاص بالاحترازات من الوباء.

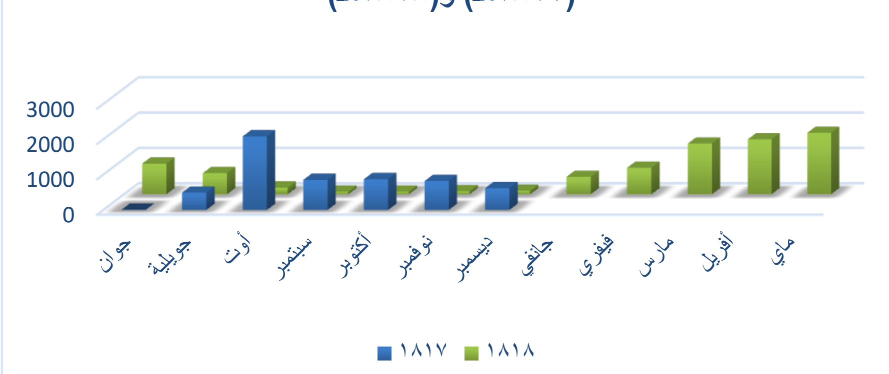
يبدأ هذا الوباء في الانحسار في معظم أرجاء الإيالة، فنجد أنّ مدينة عنابة حسب إحدى الرَّسائل القنصلية للشركة الإفريقية في مدينة عنابة توضح أنّ المدينة كادت تتعافى منه نهائيا قُبيل نهاية السَّنة، فلا نكاد نقف له على ضحايا إلّا على حالات شاذة لبعض السكان في أحواز المدينة[1].

---

(1) - lettres des 14 et 21 Décembre dans Jean Marchika, P 170.

نفس الأمر أيضا تذكره رسالة أخرى تخص مدينة قسنطينة، إذ ترى الرِّسالة أنَّ الوباء يكاد ينجلي عن معظم بيلك الشرق، وأنَّ وجوده هناك ظل منحصراً في بعض المناطق الجبلية المحيطة بها[١]، وهذا على غير العادة، إذ كثيرا ما كانت هذه المناطق هي الأكثر تحصينا ما يجعل العديد مِن السُّكان يفكرون في الفرار إليها لما تستعر نار الوباء في المدن الحضرية. وقد ظلَّ هذا الوباء –على ضعفه– موجودا بقسنطينة إلى غاية منتصف شهر نوفمبر من السنة نفسها[٢].

وقد كان تأثير وباء سنة (١٨١٨مـ) أشد بكثير مِن الوباء الذي سبق ذكره (١٨١٧مـ) بل تكاد تدلنا المعطيات إلى أنّ عدد الضحايا قد تزايد خلال هذا الوباء بشكل كبير، ولعلَّ الشَّكل البياني التالي يوضح بشكل أبسط مدى تطور عدد الضحايا بين وباء سنة (١٨١٧مـ) ووباء سنة (١٨١٨مـ)



أعمدة بيانية توضح الفرق في تزايد عدد ضحايا وباء سنتي (١٨١٧مـ) و(١٨١٨مـ)

(1) - lettres des 1 juillet, dans Jean Marchika, P 170.

(2) - lettres des 14 et 21 Décembre, Marchika, op cit. P171.

فنقف في الشكل البياني على عدد من الملاحظات الهامة، وعلى رأسها أن المرحلة التي شهدت ذروة النشاط الوبائي خلال سنة (١٨١٧مـ) هي نفس المرحلة التي شهدت تراجع الوباء خلال السنة التالية(١٨١٨مـ) فيما أن المرحلة التي عرفت قوة وتزايد تأثير الوباء سنة (١٨١٨مـ) لم يكن قد ظهر فيها تماما أي مظهر من مظاهر التأثير الوبائي على ساكنة الإيالة، وعليه فإنه يمكننا الحديث عن كون وباء (١٨١٨مـ) كامتداد للوباء الذي ولج الإيالة سنة (١٨١٧مـ) والأخير ظهر في نهاية شهر جوان وتأكد ظهوره بداية من شهر جويلية فعليا.

وعليه فيمكننا الحديث عن فترات وبائية، أي عن حيز زمني ينشط فيه الوباء ذاتيا يمتد منذ ظهوره إلى خمسة أشهر تقريبا مع ضرورة الإشارة إلى التأثير البالغ والمهم لعوامل أخرى كعامل الطقس والكثافة السكانية وغيرها وهنا تتجلى تلك العلاقة الخفية بين بروز الأوبئة ووجود الأرضية الملائمة لها والمساهمة فيها وهي المجاعات وسوء التغذية[1]، فإن تقرر هذا سلكنا مسلكا يرى أن لكل وباء ذروة لنشاطه تمتد مِن ظهوره إلى خمسة أشهر، تتزايد قوَّة هذا النّشاط الوبائي إذا تصادف مع انخفاض درجة الحرارة أو توفر أزمة غذائية ما، الأمر الذي يطور نشاط الطفيليات في أجسام النواقل. لكن بعض الباحثين يعترض على هذا الأمر ويرى أنّ التزامن الوقتي الذي كان بين بعض المجاعات والأوبئة لا يكوِّن بالضرورة علاقة اطرادية بين الأزمات الغذائية والأوبئة، خاصة إذا ما استُثنيت مِن ذلك بعض العوامل الأساسية المطورة للطفيليات والعصيات المختلفة، وعليه فيمكن القول

(1) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P01-03.

أنّ المجاعات والأوبئة لم تكونا خاضعتين لبعضهما كُلياً كما قد يتصوَّر الكثير[١]. وإنما يمكننا أن نقول أنّ وجود المجاعة أو ضعف التغذية يؤدي إلى تفاقم انتشار الأوبئة ويساعدها على التفشي أكثر، خاصة ونحن نعلم أنّ نقص التغذية يفقد الجسم بعض مناعته ما يسهم في تفاقم هذه الأوبئة.

وباء سنة (١٢٣٤هـ/١٨١٩م)

قد يكون هذا الوباء امتداداً للوباء السَّابق واستئنافاً لنشاطه مع خريف (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) أو مع نهاية السَّنة نفسها وبدأ في حصد ضحاياه بشكل قليل بداية هذه السنة في مدينة عنابة ومدينة الجزائر[٢]، فيما يرى بعض الباحثين إنَّه وبعد اختفاء آثاره لأشهر يعود الوباء للنشاط مِن جديد وهذه المرَّة مباشرة مع بداية السنة يقضي على أربعة أشخاص ليصل في نهاية الشهر الأوَّل إلى القضاء على ما يقارب (٩٣ ضحية)[٣] فيما نقف على عدد ضحايا يقارب (١٤٠) ضحية خلال الشهر التالي[٤]، لكن الأمر الذي يظل غريبا هو ما ورد في أحد الرسائل الموجهة مِن وكيل الشركة الإفريقية في عنابة إلى القنصل العام الفرنسي بالجزائر والتي تتحدَّث عن تميُّز المدينة بالصِّحة الجيِّدة منذ منتصف شهر جانفي، وأنَّ عمال الشركة كانوا يتحركون بكامل الحرية دون مخافة شيء ما[٥].

(1) - Kelsch Achille: op.cit., P08.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 336.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P382. P388.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P173.

(5) -C.C.F: lettre du 22 mars, Berbrugger, op.cit:P336.

ولو جُعِل الأمر كذلك فعلا؛ لجاز لنا القول أنّ هذا الوباء وإن تجدَّد ظهوره في مدينة الجزائر فإنَّه -على الأقل- خلال المرحلة الأولى مِن ظهوره ظلَّ في منأى عن مدينة عنابة.

تزداد حدَّة الوباء مع مرور الوقت فينتقل عدد الضحايا من معدل (١٣-١٢) ضحية يوميا خلال شهر مارس إلى قرابة العشرين (٢٠) ضحية يوميا وقد أورد «مارشيكا» رسالة قال إنَّها للقنصل الفرنسي في الجزائر قائلا فيها: «..إنَّ الطَّاعون يقلقنا مرَّة أخرى، إذ ظهر منذ قرابة ثلاثة أشهر، وإن كان ليس بالقوَّة المعهودة لكننا كنا نأمل في أن ينقضي تماما قبل أن نضطر إلى ترقب ارتفاع درجة الحرارة، ..إنَّه يأتي على معدل ثمانية عشر إلى عشرين فردا في اليوم وقد تسارع قليلا هذه الأيام إلى ثلاثين ضحية في اليوم...وبالرغم من الاحتياطات التي اتخذتها قنصليات دول إنجلترا وفرنسا وإسبانيا إلاّ أنّ ذلك لم يمنع سقوط بعض خدمنا من القبائل نتيجة هذا الطَّاعون...»(١)

وما أورده «مارشيكا» على لسان القنصل الفرنسي هو تصوير للحالة العامة الحقيقية لوباء سنة (١٨١٩مـ) إذ ظهر على مستوى ضيق وكان عدد ضحاياه قليلا، لكن في نفس الوقت كان يحمل في جنباته خطر التَّفشي الذي أضحى الجميع يهابه لما له من تأثير لا يخفى، لا على مستوى الديمغرافي فقط وإنَّما أيضا على مستويات عِدَّة كما سيأتي بيانه في موطنه.

على كلّ حال يمكننا أن نقول أنَّ الوباء ظهر هذه المرَّة فعليا مع بداية السنة،

(1) - Jean Marchika:op.cit., P174.

لكنَّه كان مُنحصِراً من حيث النطاق الجغرافي والتأثير الديمغرافي، كما إنَّه لم ينتقل إلى الجهة الغربية من البلاد إلاَّ مع نهايات شهر(ماي/ مايو) مِن نفس السنة، إذ وردت أخبار تفيد بوجود الطاعون بتلك المضارب[1].

ظل وباء سنة (١٨١٩مـ) لمدّة طويلة خلال هذا السنة يقوم بضربات خاطفة لكنها غير مؤثرة مِن النَّاحية العددية، إذ كان يظهر في مدَّة زمنية قصيرة ثمّ ينحصر مِن جديد في المرحلة التي تليها، بل إنّه لم يُحكِم سيطرته على مدينة عنابة مثلاً خلال تلك المرحلة الزمنية الحساسة التي تتصادف مع عودة الحجَّاج ووجود الحاميات العسكرية بها، بل ظلَّت الصِّحة في المدينة توصف بأنّها ممتازة[2]، وقد ورد في مراسلة من القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السلطات الرسمية في فرنسا بتاريخ ١٨ (ماي/ مايو) بأنّه «...بعد بعض التحريات أثبت أنَّ الطَّاعون موجود في الجزائر منذ حوالي ثلاثة أشهر، لكنه بشكل بسيط جدا، ويُرجى أن يرتفع هذا الوباء بدون الحاجة لانتظار فصل الصيف، يقضي الوباء حاليا على متوسط ما بين (١٨-٢٠ ضحية/ يوميا)...بالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها كلَّ مِن القنصلية الفرنسية ونظيرتيها الإنجليزية والإسبانية فقد ظهرت بعض حالات الطَّاعون داخل القنصليات غالبا ما يكون سببها الخدم داخل القنصليات...»[3] وهو نفس ما أشار إليه «بير بروجر» إذ نقل بدوره أنّ عدد الضحايا يوميا في

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P389.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 337.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P389.

المرحلة الممتدة من نهاية (جانفي/ يناير) إلى منتصف شهر (ماي/ مايو) في مدينة الجزائر كان يتراوح ما بين ثمانية عشر وعشرين ضحية وفي أقصى درجاته خمسة وثلاثين ضحية يوميا(١).

وقد تولَّد عن ذلك تراجع حدَّة هذا الوباء فعليا خلال المرحلة الصيفية، والممتدَّة مِن أواخر شهر (ماي/ مايو) إلى بداية شهر (أكتوبر/ تشرين الأول) بحيث فقد فيها قوّته المعهودة، ثمّ استرجع حدّته مرّة أخرى بداية من شهر (نوفمبر)، وهو ما نقف عليه فيما ورد في إحدى الرسائل الصادرة من وكيل القنصلية الفرنسية في قسنطينة إلى المسؤول عنه في القنصلية الفرنسية في دار السُّلطان بمدينة الجزائر، حيث أُشير فيها إلى عودة نشاط الوباء في مدينة قسنطينة، بداية مِن الشهر (أبريل/ أفريل) وامتدّ وجوده إلى غاية شهر ديسمبر مِن السنة نفسها وقد كان معدل الوفيات اليومية في حدود (٢٥) ضحية يوميا(٢).

وباء سنة (١٢٣٥هـ/١٨٢٠م)

لم تعرف الجزائر انقطاع لسلسلة الهجمات الوبائية التي سُلّطت على الإيالة مِن سنة (١٨١٦م) وقد تحدَّثت بعض الدِّراسات عن بعض الحالات التي اشتُبه في إنَّها إصابات بالطَّاعون في بداية شهر جانفي، ونفس المصادر تتحدَّث عن تراجع ملاحظة وجود ضحايا خلال الشهر التالي أي شهر فيفري(٣)، ليبرز بوضوح خلال

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 337.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P391.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P176.

شهر (مارس) بحيث تأتي رسالة من وكيل الشركة الفرنسية في عنابة إلى القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر تنبأه باستمرار وباء السنة الماضية في بعض أحواز مدينة قسنطينة[١]، وقد أوردت بعض المصادر أنّ معدل الوفيات كان في حدود (٢٥) ضحية يوميا تحديداً خلال شهري مارس وشهر أوت[٢].

وتأتي بعض الرسائل مِن وهران لتؤكِّد أنّ الوباء تجدَّد نشاطه بالفعل خلال شهر (أفريل/ أبريل) ويحصد ما بين سبعة وثمانية ضحايا يوميا ليرتفع العدد في شهر (ماي/ مايو) فيصبح العدد ما بين ثلاثين وأربعين ضحية يوميا (٤٠-٣٠ ضحية/ يوميا) بقي يحصد نفس العدد من الضحايا على هذه الحال إلى غاية نهاية شهر (ماي/ مايو) حينها فقط بدأت المؤشرات بالانخفاض وهو أمر مفهوم بسبب العلاقة الاطرادية بين زيادة درجة الحرارة وانخفاض النشاط الوبائي كما مرَّ بنا. وعليه نقف عليه في الأشهر اللاحقة خاصة خلال الأشهر الصيفية إذ ينحصر تماما فلا نكاد نقف له على أي آثار في أشهر: (جوان/ يونيو) و(جويلية/ يوليه) و(أوت/ أغسطس) وينعدم آثاره تماما بعد السَّابع من شهر (سبتمبر/ أيلول)[٣]

وعليه تكاد تكون عادة وقانون مستمر للنشاط الوبائي، بحيث كلَّما يظهر الوباء يجد طريقة للتفشي خلال خمسة أشهر، ليعاود الانحسار بعد ذلك، باستثناء إمكانية أخرى وهي أن يظلَّ في بعض الجيوب البعيدة عن المدن الحضرية والتي

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P391. 393

(2) - Jean Marchika:op.cit., P177.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P391. 393

لا يمكن أن يلاحظ فيها حركية الوباء، أو أنّه لم يُشر فيها إلى النشاط الوبائي، ولعل أحد أهم الأسباب وراء عدم ملاحظته ووهن قوته هو ضعف الكثافة السكانية والذي يُعدُّ بحقٍّ السّبب الرئيس في هذا الأمر، ما يجعل الحديث عن تفشي الوباء في الأماكن البعيدة عن المدن أمراً نادراً.

ظهور الوباء سنة (١٢٣٦هـ/١٨٢١م)

تجدَّد الوباء السنة الماضية وظهرت أولى آثاره في بداية السنة مِن مدينة عنابة، إذ وردت العديد مِن الرسائل إلى القنصلية الفرنسية في الجزائر تتحدّث عن تجدد النشاط الوبائي في المدينة، يظهر ذات الأمر في مدينة وهران وقبلها أيضا تجدد الوباء في مدينة تلمسان وحتى في مدينة عنابة[١]، وخلال نفس المرحلة بتاريخ (١٧/ فيفري/ فبراير) مِن نفس السنة إذ وردت على ميناء وهران سفينة نمساوية مِن الإسكندرية تحمل على متنها أربعمائة حاج عائد من مكة ورست فعلا، لكن في فترة لاحقة رفض استقبال إحدى السُّفن العثمانية الكبيرة كان على متنها أيضا عدد من الحُجَّاج مِن بينهم مَن تأكّد أنّه مصاب بالوباء وهذا سبب عدم السماح لها بالرسو في الميناء وإنزال ركابها في البر، بل إنَّها غادرت بعد ذلك بيومين دون أن تستطيع إنزال الركاب[٢]

استمرَّ الوباء في حصد ضحاياه لكن على نطاق ضيق خاصة إذا ما قورن بسابقيه، وكان آخر ملاحظة لوجوده ترجع إلى شهر في آخر شهر (أوت/

(1) - Jean Marchika:op.cit., P177.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P394.

أغسطس)[1]

وتذكر بعض أرشيفات معهد باستور لسنة (١٩٢٣مـ) أنَّ الوباء في الجزائر بدأ يعرف تراجعا كبيرا منذ سنة (١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢مـ)[2] خاصة إذا ما قورن بالمرحلة التي سبقته، كما يمكننا القول أنَّ الجزائر في المرحلة الممتدَّة (١٨١٧مـ-١٨٢٢مـ) أصبحت الموزع الرئيسي للوباء إلى جميع المنطقة[3]، فهي منذ أن احتضنته في بداية سنة (١٢٣٤هـ/ ١٨١٧مـ) تغلغل في مناطقها المختلفة الممتدة مِن الشرق إلى أقصى الغرب فأقام مدّة طويلة في كلِّ مِن عنابة وقسنطينة ووهران وتلمسان ما جعلها مكاناً محورياً ينطلق منه في هذه المرحلة إلى غيرها.

وباء (١٨٢٢مـ)

في حقيقة الأمر إنَّ الوباء الذي عرفته الجزائر خلال هذه السنة هو امتدادٌ طبيعيٌّ للوباء الذي حلَّ بها منذ سنة (١٨١٧مـ) وظل يتجدَّد كل مرّة خلال أربع سنوات، إلاَّ أنَّ آثاره في هذه السنة كان أشدَّ ضرراً إذا ما قورن بالسَّنتين السَّابقتين، واللَّتان كاد فيهما الوباء يختفي تماما مع بعض الاستثناءات، إذ يتحدَّث «مارشيكا» عن عدد ضحايا لهذا الوباء قارب (٢٢٦٢) وهو رقم يقارب تقريبا ما فقدته الجزائر مِن ضحايا سنتين قبل هذا التاريخ، وهو يفوق بكثير سنتي

(1) - Ibid. P397.

(2) -A.I.P.A: (1924-N°3.P327)

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P428.

(١٨٢٠مـ) وسنة (١٨٢١مـ)[1]، وهذا ما يجعل أهمية وتأثير هذا الوباء أكبر مِن سابقيْه بالإضافة إلى إنَّه تزامن أيضا مع جائحة حيوانية خلال نفس السنة أتت على عدد كبير مِن الأحصنة والبغال والحمير والماشية.

وقد قرَّر «مارشيكا» أنَّ هذه الهجمة الوبائية كانت آخر جائحة وبائية ضربت شمال إفريقيا واستمرَّت طيلة أربع سنوات كاملة[2]، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني بأي حال من الأحوال زوال هذه الأوبئة بشكل مباشر بعد هذا التاريخ، إذ نقف على عدد من الأوبئة والطواعين التي اجتاحت الجزائر والمنطقة ككل في الربع الثاني مِن القرن التَّاسع عشر منها وباء الكوليرا الذي ظهر في منطقة متيجة سنة (١٨٣١مـ) وامتد منها إلى العديد من الأمكنة الأخرى[3]، وقد خُصّصت هذه المرحلة بعدد مِن الدِّراسات والأبحاث تغنينا عن إعادة تتبعها واستقصاء أمرها في موضعنا هذا.

بالإضافة إلى أن الحديث عن انقراض تام للوباء خلال تلك المرحلة لن يكون أمرا علميا إذا كثيرا ما نجده ينتقل من مكان إلى آخر أو يتجدَّد مِن حين إلى آخر، وهذا الأمر لم يقتصر على الجزائر وإنَّما امتدَّ إلى جل دول الحوض المتوسط مثل تونس وليبيا وإيطاليا وفرنسا وتركيا وغيرها[4].

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P178.

(2) -Ibid. P179.

(3) - Vignes Pierre: Histoire du choléra-morbus, qui a régné épidémiquement à Oran pendant les mois d'octobre1834 et de janvier 1835, Verronnais, Metz, 1836, P 42.

(4) - Arnaud Léonard: op.cit., P8.

والحقيقة التي تنبثق عن المعطيات السَّالف ذكرها هو أنَّ الطاعون أو الأوبئة قد استقرَّت في الجزائر في أزمنة تاريخية طويلة، حتى نكاد نقول أنَّ الطَّاعون والأوبئة انتقلت بين نمطين أساسين أثناء وجودها في الجزائر هما الاحتضان والانتشار، وتتبع مسار ظهور وتطوُّر الأوبئة يسوقنا إلى القول أنَّ الوباء خلال هذه المرحلة كان بين مرحلة الاحتضان التي تكون في بُؤر مُحددة وصغيرة. وبين مرحلة التَّطور والانتشار التي تظهر في مجالات جغرافية واسعة وتكون غالبا مُتجدِّدة، وهذا الأمر نفسه نجده في مواطن أخرى لكن في فترات متقدمة نسبيا كما هو الحال مثلاً في بعض سواحل المدن الأوربية خلال القرنين السادس عشر والسَّابع عشر حتَّى أنَّ بعض الدَّارسين كان يرى أنَّ الوباء إذا ظهر في مدينة أوروبية ما فإنَّه غالبا ما يكون أطول مِن الانبعاثات المؤقتة مِن القارات الأخرى[1].

فإن تقرَّر ما سبق بقي أن نشير إلى نقطة هامة، وهي أنَّ الأوبئة أو المجاعات لم تعرف انحساراً تاماً ونهائياً بعد انقضاء العهد العثماني، بل ظهرت بعض الأوبئة في صورة الكوليرا سنة (١٨٣٤مـ) والتي كانت مدمرة فعلا للمجال الذي شغلته أقصد المرسى الكبير ووهران وما تلاها، وقد كانت بدورها واردة مِن سواحل إسبانيا التي كانت تعيش في أحضان هذا الداء خلال تلك المرحلة[2].

(1) - Tholozan Joseph-Désiré:op.cit., P03.

(2) - Vincent, Martin Antoine et Collardot, Victor: Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur: V. Rozier, Paris, 1867, P09.

الفصل الرابع:
موقف السلطة والفئات الاجتماعية من الأوبئة.

- أولا: الأزمات الغذائية وتأثيراتها في الأوبئة.
- ثانيا: الإجراءات الوقائية وكيفية تعامل الحكام مع الأوبئة.
- ثالثا: تفسيرات العلماء لظاهرة الوباء.

١. الأزمات الغذائية وتأثيراتها في الأوبئة:

سيعتبر المطلع على هذه الدراسة أن ما عددناه خلال المرحلة الممتدة خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر على عدد كبير من المجاعات، يتنافى مع تلك الأوصاف التي كانت تطلقها الكتابات الغربية عن المميزات الطبيعية التي تتميز بها الجزائر من ناحية الجغرافيا والإمكانيات الطبيعية، وكيف كان يمكن لها أن تكون حسب قول « وليام شالر» مخزنا للحبوب لأوروبا وكامل إفريقيا.

وكيف أن شأن هذه المميزات الطبيعية من موقع ومناخ وتربة وتضاريس أن تتيح للجزائر أن تلعب دورا رئيسا وتنشط المحور التجاري بين إفريقيا بما يعود بالفائدة على إفريقيا وأوروبا[١]، خاصة لما نعلم أنّ سهل متيجة على سبيل المثال كان من أغنى المناطق بالحنطة وباقي الحبوب[٢]، كما أنَّ أراضي بيلك الغرب مُورِّدٌ أساسيٌ للقمح باتِّجاه البلاد الأوروبية[٣]، ولعل هذا ما يُستشف فعلا مِن شرح «أبي راس الناصري» على قصيدته في مدح «محمَّد باي الكبير» بقوله: «...**والنَّاس بتلك الأرض بأخصب عيشٍ، وأطيبه وأرغده وأعذبه، فكثرت عندهم الخيرات وتمت لهم البركات**...»[٤]

(1) - William Shaler: op.cit., P210.

(٢) - أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٣) - المصدر نفسه: ص ٥٠.

(٤) - أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج٢، ص ٤٥٦.

لكن في نفس الوقت عدّت المجاعات في الكثير من الأحيان خلال المرحلة الزمنية المعنية بالدراسة أحد أهم الآفات التي نخرت النُّمو الديمغرافي لساكنة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر[1]، لكن في نفس الوقت من الصعب علينا الإقرار مباشرة بوجود مجاعة ما أو تأكيدها مالم يتم الإشارة إليها في عدد من المصادر المخطوطة أو المطبوعة المختلفة التي تتحدَّث عن تلك المرحلة أو هذه السنة بعينها، بالأخص إن كانت هذه المصادر لم تنقل عن بعضها البعض، لذا نجد أنفسنا في مشكلة من حيث إثبات وجود مجاعة ما من عدمها إذا لم نقف على إشارات واضحة.

فنقف على أول ظهور للمجاعة في الإيالة خلال القرن الثامن عشر سنة (١٧٠٢مـ)، بحيث نجد مارشيكا (Marchika) يتحدَّث عن مرافقة أسراب الجراد لوباء سنة (١٧٠٠مـ) وهذا الأمر كثيرا ما كان ينجم عليه نتاج علائقي مستمر هو حدوث نقص في الغذاء، وهذه الإشارة نقف عليها عرضيا أيضا في إحدى المراسلات بين القنصلية الفرنسية في الجزائر ودائرة الشؤون الخارجية في فرنسا، إذ تورد هذه الوثيقة أنَّ الجزائر كانت تشهد خلال هذه السنة قحطاً شديداً ونقصاً في المؤونة[2]، كما أنَّ حديث « مارشيكا « عن أسراب الجراد يوحي بأنَّ

(١) – فلة موساوي: الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(١٨٧١–١٥١٨) أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر(غير منشورة)، إشراف ناصرالدين سعيدوني، جامعة الجزائر(أبو القاسم سعد الله)، السنة الجامعية ٢٠٠٤–٢٠٠٣، ص ٧٩،

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/118. Cotes: F °292-293. 02 /Mai/1702.

المرحلة التي ستلحق مرور هذه الأسراب من الجنادب ستؤدي غالبا إلى مجاعة ما، وهو ما حدث بالفعل حسب الوثيقة السالف ذكرها، كما أنّه عاد ليتحدَّث عنه عرضا في موضع آخر لما وصف أوضاع سنة (١٧٠٢مـ) بأنّها كانت سنة صعبة بسبب ما شهدت من مجاعة[١].

كما نقف في مراسلة أخرى على تصريح باستمرار آثار المجاعة سنة (١٧٠٣مـ) على تجارة الإيالة وعلاقاتها مع الدول الأخرى[٢]، بحيث أدت هذه الأزمة الغذائية إلى تراجع في عملية التبادل التجاري بين الإيالة وغيرها من الممالك بحكم الانغلاق ونقص الموارد الكبير الذي لحق بالإيالة خلال تلك السنة. لتعرف بعدها إيالة الجزائر نوعا من الهدوء والاستقرار الغذائي حسب ما توحي به بعض الإشارات الشحيحة في الرسائل الدبلوماسية بين الجزائر وغيرها من الدول الأوروبية على وجود وفرة في الغذاء والحبوب دفعت بالحاكم إلى تصدير بعض الفائض باتجاه الدول المحتاجة له، ولعل هذا ما يستنتج من خلال عدد من الرسائل المتزامنة من حاكم الجزائر علي داي إلى ملك فرنسا «لويس الرابع عشر» ووزير البحرية «بونتيشراتن» حيث أشار فيها الداي إلى إرساله سفينة مشحونة بمختلف أنواع القمح إلى فرنسا سنة (١٧١١مـ/ ١١٢٢هـ) في مقابل بعض المواد الأولية التي تحتاجها الإيالة في صورة أخشاب للسفن ومجاديف[٣]،

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P73.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °294-297. 12 /jui/1703.

(3) -C. D. A. C. F: le 11 mars 1711. P77.

لتأتي إشارة لاحقة نقف عندها لدى «مارشيكا» أيضا تتحدَّث عن وقوع مجاعة سنة (١١٣١هـ/ ١٧١٩مـ) قضت على عدد كبير مِن الأسرى الأوروبيين[1]، ونحن نعلم إنَّه إن كُتب على الأسرى الأوروبيين الموت جوعا فهذا يمتدُّ إلى غيرهم قطعا، إذ لم يحدُث في مسار المجاعات أن انتقت إحدى الأزمات الغذائية فئة واحدة ضمن الساكنة وتحيد عن الفئات الأخرى. ويدعم ظهور المجاعة في الإيالة أيضا خلال نفس السنة الإشارة التي نقف عليها لدى «دي غرامون» إذ يذكر إنَّه وبعد استلام «محمَّد بن حسن» منصب داي الجزائر سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) إضافة إلى ما كان موجودا من مصائب تعيشها الإيالة بسبب الاضطرابات السياسية والعلاقات الخارجية المتقلبة ظهر القحط والمجاعة فألمَّت بإيالة الجزائر سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) وتجلَّت في الآثار الرهيب الذي خلَّفته على الساكنة، حتى ذُكِر إنَّه قد بيع لحم البشر في الأسواق مِن شدَّة الجوع[2]، اشتدَّت هذه المجاعة سنة (١١٣٢هـ/ ١٧١٩مـ) في مدينة الجزائر حتَّى اعتبرها «غيون» أحد المجاعات الرهيبة وقد استمرَّ آثارها ثلاث سنوات كاملة[3].

ونقف على إشارة في إحدى المراسلات القنصلية الفرنسية في الجزائر بدائرة الشؤون الخارجية مفادها أنّ المجاعة قد تفاقم آثارها في مملكة الجزائر، وازداد الأمر سُوءاً مع الزلزال الذي ضرب مدينة مليانة، لذا اقترحت المراسلة على

(1) - Jean Marchika:op.cit., P77.

(2) - H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.

(3) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

السلطات التجارية الفرنسية أن تُسهِّل عملية بيع كميات القمح التي أرسل «داي الجزائر» في طلب شراءها وهذا لكيلا يفكر الأخير في الانتقام من فرنسا عن طريق الضغط أو توقيف عمل الشركة الإفريقية بمدينة «عنابة"[1].

ولشدَّة آثار هذه المجاعة نقف على شتات أخبارها في مصادر عدة منها تلك التَّقارير التي كان يكتبها الرُّهبان المسؤولون عن عملية فداء الأسرى المسيحيين في الجزائر، بحيث يَرد في إحدى هذه التقارير بأنَّ الطَّاعون الذي كان موجودا بالمدينة قد تأثَّر كثيرا بالمجاعة التي سبقته وازداد آثاره سوءا في المدينة، وهذه الرسالة مؤرخة في (٢٣/ أفريل ١٧٢٣مـ) وعليه فإنَّ المجاعة ظلَّت مَحصورةً بين سنتي (١٧٢٣-١٧٢٢)[2].

سنوات العافية والوفرة الغذائية والهجمات الخاطفة للمجاعات (١٧٣١مـ-١٧٧٠مـ)

تعود الإيالة لتسترجع بعضا من عافيتها وتنعم ببعض الوفرة الغذائية في سنوات الثلاثينات من القرن الثامن عشر مع استثناء واحد، وتتضح الوفرة فعليا في صور المبادلات التجارية وشحنات القمح المصدرة إلى الخارج والتي كانت تستفيد منها أطراف مختلفة، فنجد مثلا «عبدي باشا» داي الجزائر سنة

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/121. Cotes: F °87-89. /1/janv./ 1723.

(2) - Lettres du R.P.J Batault missionnaire apostolique a Alger (1676-1736) avec note historique sur le rachat des esclave a cette époque, Chalon sur Saone, 1880, Paris, P52.

(١١٤٤هـ/ ١٧٣١م) يتعامل بتصدير القمح مع المملكة البريطانية بحيث يرسل سفينة محمَّلة بالقمح غير إنَّها أُسرت مِن طرف بحارة فرنسيين[١]، وما يهمنا هنا هو ما نقف عليه من دلائل الوفرة الغذائية خلال تلك السنة والسنوات التي سبقتها من خلال عملية التَّصدير الغذائي، وممَّا يعضد القول بأنَّ البلاد خلال هذه المرحلة الممتدة مبدئيا ما بين (١٧٣٠م-١٧٣٣م) كانت تنعم بنوع من السلام مع المجاعة وتنعم برغد العيش ما يجعلها في منأى عن المجاعة ما صرَّح به «إبراهيم باشا» داي الجزائر في رسالته إلى الكونت «دومورباس» سنة (١١٤٥هـ/ ١٧٣٣م) بإنَّه حثَّ باي مدينة وهران على أن يجعل تجارة القمح حكرا على الشركة الفرنسية دون غيرها[٢]، كما تُؤكِّد رسالة من الكونت (De Maurepas) إلى لومير (Lemaire) ينبّهه فيها إلى ضرورة التواصل مع الداي «إبراهيم باشا» وتذكيره بحقّ الشَّركة الفرنسية في احتكار تجارة القمح إذ ورده أنّ الداي قد أعطى لأحد التُّجار اليونان حق تحميل سفينتين بالقمح، ومنح باي قسنطينة بدوره رخصة لأحد السُّفن الإنجليزية لأجل شحن القمح الجزائري، بل واستفاد التَّاجر اليوناني الماضي ذكره من امتياز تحميل السُّفن بالقمح بالكمية التي يريدها[٣]، ومردُ هذا الأمر غالبا هو معاناة فِرنسا خلال نفس المرحلة الزمنية من نقص المؤن وتعرض بعض أطرافها إلى مجاعة حادة كما هو الأمر في مدينة

---

(1) -C. D. A. C. F: le 2 avril 1731. P149-153.

(2) -C. D. A. C. F: le 12 juin 1731.

(3) -C. D. A. C. F: le 4 juin 1734.

«ليون» وغيرها[1].

ونقف في مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية على إشارة واضحة إلى شحن الشَّركة الملكية الإفريقية لسفينتين فرنسيتين من ميناء مدينة «عنابة» مُحملة بأجود أنواع القمح وإرسالهما باتجاه ميناء «مرسيليا» لكن مِن جهة أخرى نقف على تقرير تورده مراسلة قنصلية يتحدَّث عن تأزُّم الوضع في الإيالة سنة (١٧٣٤مـ) بسبب الوضع السيء الذي تسببت فيه المجاعة[2] وهو ما تؤكده وثيقة ثانية من نفس المصدر في صيف سنة (١٧٣٤مـ)[3]، وإذا تقرَّر هذا فمن الواجب أن نَصرف القول إلى أنَّ الأمر كان خطيرا وينمُّ عن عدم وجود ضوابط قانونية صارمة في شأن تصدير الفائض مِن القمح إلى الدول الأخرى، إذ في نفس المرحلة الزمنية التي كانت فيها المجاعة تضرب إيالة الجزائر في إحدى جهاتها بشكل قوي كما مرَّ في هذه الوثائق[4] كانت جهات أُخرى تقوم بتصدير هذه المادة المهمة إلى خارج الإيالة.

مثل ما نجد العديد مِن الإشارات الضِّمنية والهامة جِدّاً ضِمن وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، تشير العديد منها إلى مقتنيات فرنسا من القمح الجزائري، وقد ورد في بعضها أنَّ عدد هذه السفن بلغ ثمانية عشر سفينة مِن القمح بعضها من طرابلس الغرب وغالبها مِن إيالة الجزائر، وقد شُحنت في شهر جوان

(1) - Masson, Paul: op.cit., P265.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/123. Cotes: F °158-161. 16 Fve.1734.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/123 Cotes: F °206-210. 16 juil 1734.

(4) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/123 Cotes: F °206-210. 16 juil 1734.

من نفس السنة باتجاه الموانئ الفرنسية(١٧٣٤مـ)[١]، لتعود الوفرة الغذائية إلى غاية سنة (١٧٤٢مـ) عندها يتحدَّث صاحب «التبر المسبوك» عن مجاعة امتدَّت تسع سنوات بعد ذلك أي إلى سنة (١٧٤٩مـ/ ١١٦٣هـ)[٢]، لتنعم بعدها الإيالة بهدوء جديد وصلح مع الأزمات الغذائية، كما يُسْتقرَأْ ذلك ضمن مراسلة هامة بين داي الجزائر «علي باشا» وأمين البحرية الفرنسية «موراس» سنة (١١٧١هـ/ ١٧٥٧مـ) حيث يتحدّثان فيها عن بعض الأمور التجارية بين الإيالة الجزائرية والمملكة الفرنسية، ويَرد في هذه المراسلة إنَّه خلال هذه السنة (١٧٥٧مـ) تمَّ أسر سفينة جزائرية محمَّلةٌ بالقمح كانت تابعة للداي شخصيا، كان الداي قد صرح في ردّه على إحدى المراسلات أنه ينتظر استرجاع حمولة السفينة أو قيمتها المالية على أقل تقدير، كما نجده يتحدَّث في نفس الرِّسالة عن استلامه لما قيمته سبعة عشر ألف ليرة هي بمثابة مبلغ بيع القمح الجزائري المملوك لأحد اليهود[٣] وإن كانت إحدى الإشارات لدى «دي غرامون» حيال طاعون (١٧٥٢مـ) تتحدَّث عن تزامنه مع مجاعة شديدة كان آثارهما أشدَّ مِن الاضطرابات السياسية والعسكرية التي كانت تمرُّ بها الإيالة حينها[٤].

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F٣ °7-38. 8 juin 1742.

(٢) – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (١٦٢٤)

(3) -C. D. A. C. F: le 30 novembre 1757.

(4) - H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830), P3٠٦.

فإن تقرّر ما سبق فعلا وكان يقرب على العقل تناوله والوقوف على صحَّته كنا جدراء بالقول أنَّ السَّنوات الممتدة ما بين (١٧٤٩م-١٧٧٠م) يمكن أن نعدَّها سنوات للوفرة الغذائية، وإلَّا كان سيصعب جدا تحصيل القمح خلال هذه المدَّة، وبهذه الكمية الكبيرة التي تستقرأ من حجم المراسلات وتبعث إلى فرنسا أو غيرها.

عودة السنوات العجاف والمجاعات الشديدة (١٧٧٦-١٧٧٠)

بعد المراحل المتقطعة من السنوات الماضية ظهرت من جديد معالم عودة السنوات الشِّداد، فيرى نقيب أشراف الجزائر «الشريف الزّهار» أنّه وبعد نكوص الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة (١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م) امتدّ الغلاء وارتفاعات الأسعار ستة سنين، أي إلى غاية (١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م) بحيث أصبح سعر الصَّاع الجزائري مِن القمح أربع بوجه أي ما يقارب(٤٠/غ فضة)، وساد بين النَّاس الجوع حتَّى قيل: «...**إن النَّاس يموتون جوعا في الأسواق**..»[١].

إلاَّ أنَّ المميز في هذه المجاعة أنَّ «الزَّهار» لم يجزم بنسبتها إلى قلّة المطر، بل لم يستبعد أن يكون كثرة التساقط وترادف السنين بذلك سببا في ظهور هذه السنوات، فمن النتائج التي ترتبت عن كثرة التساقط سنويا تأذي الكثير من المحاصيل الزراعية التي كانت تكتنزها الأراضي، ونقف على ذكر هذه المجاعة أيضا في مدينة عنابة من خلال الإشارات المختلفة ضمن إحدى المراسلات

(١) - الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٥٠.

الدَّاخلية بين الشركة الإفريقية والقنصلية الفرنسية التي تتحدَّث عن وجود المجاعة وقلَّة الزَّاد بأيدي النَّاس[1].

لكن ما يزيد في شكوكنا حيال وجود أزمة غذائية فعلية هو التأثيرات العامة لهكذا أزمة على المجتمع، إذ أنَّه لم يُذكر فيما مرَّ بنا مِن مصادر ومراجع مختلفة الحديث عن تأثر السَّاكنة بأي أزمة غذائية، بل يذكر «الزّهار» نفسه بُعيد حديثه عن هذه المجاعة الممتدّة لست سنوات (١٧٧٠مـ-١٧٧٦مـ) أنَّ:»... **اللَّحم والسَّمن والأرز فكان خيرا كثيراً، وفيه الرِّفق في الأسعار**...»[2] فَمن الصَّعب الجمع بين النقيضين في قولنا إنَّه نتيجة للمجاعة كان النَّاس يتساقطون مِن الجوع في الأسواق أو يموتون جوعا، فيما نتحدَّث في نفس الحيز عن توفُّر اللَّحم والأرز وبأسعار معقولة ومتيسِّرة.

فإن فهم مقصدنا من الاعتراض السابق، قلنا أن عملية الجزم بوجود الأزمة الغذائية خلال هذا المدة من عدمه قد يصعب تحقيقها، ويتحدَّث (Masson) «ماصون» عن ازدهار التِّجارة الفرنسية مع الإيالات الإفريقية خلال مرحلة السَّبعينات من القرن الثامن عشر؛ بما يفتح المجال بشكل أكبر حيال نوعية وشدَّة الأزمة الغذائية أو المجاعة التي تحدَّث عنها الزَّهار آنفا، فحدوث المجاعة يستلزم تباطؤ الحركة التجارية باتجاه الشَّمال ونموها في الاتجاه العكسي، فإن تقرَّر ذلك كان الأحرى أن نشهد تراجع التجارة خلال تلك المرحلة من الجنوب

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/135 Cotes: F °221-223. 1773/06/21.

(٢) – الشريف الزهار: المصدر السابق، ص٥٠.

نحو الشمال وازدهارها من الشمال باتجاه الجنوب، أو لعل «ماصون» أراد ذلك لأن إجماله لتطور وانتعاش النشاط التجاري قصد به اتجاها واحداً[1]، لذا يبقى الجزم بوجود مجاعة خلال هذه المرحلة أمراً صعباً حاليا، ويحتاج إلى دلائل أقوى. وإن كان تصرف أحد الدايات بمنع تصدير القمح الجزائري الذي كان أحد التّجار الفرنسيين قد اشتراه سنة (١٧٧٥مـ) ويود بيعه في اسطنبول يفتح المجال حول إمكانية وجود نقص غذائي حمل الداي على هذا الفعل، وهو الأمر الذي جعل قنصل فرنسا في إسطنبول يتدخل لدى الباب العالي لأجل إلزام داي الجزائر باحترام المعاهدات والسماح لهذا التاجر بتوريد سلعته المقدرة ستين ألف كيل مِن الحنطة إلى اسطنبول[2]

استراحة قصيرة وعودة لأزمات خطيرة (١١٩٩هـ/١٧٨٥مـ)

سبق الإشارة إلى عودة السنوات العجاف والمجاعات الشديدة (١٧٧٠-١٧٧٦مـ) وإن كان الحسم الفعلي في وجودها مؤجل إلى قادم الأيام ومزيد البحث، إلاَّ أنَّنا نقف بعدها على استراحة خمس سنوات على الأقل لم نقف فيها على أي إشارة فعلية عن بروز أي أزمة غذائية خلالها أي منذ (١٧٧٥مـ) لتظهر بعض الإشارات المشتتة تتحدَّث عن ظهور أزمة غذائية أو مجاعة شديدة على ساكنة بيلك الغرب الجزائري، إذ تُورد «المجلة الإفريقية» إنَّه مِن بين الأمور التي بقيت راسخة في ذهن سكان بيلك الغرب الجزائري ويربطون بينها وفترة حكم «محمَّد

(1) - Masson Paul: op.cit., P497.

(2) - B.O.A: C.HR. Dosya N°147. Gömlek N°7308. Tarih 1188.Za.18. Belg 01.

ابن عثمان» تلك المجاعة الرهيبة التي عرفها البيلك سنة (١١٩٥هـ/ ١٧٨٠مـ)[١]، نفس الإشارة نجد صداها ضمن وثيقة فرنسية تتحدَّث عن الآثار الكبير الذي أحدثته مجاعة استمرَّت مدَّة خمس سنوات عمَّت أماكن مختلفة من الإيالة، وأُشير فيها أيضًا إلى ترقُّب الجميع سنة (١٧٨١مـ) لتكون السنة الأخيرة المنقذة من نير هذه المجاعة[٢].

ونقف على تجدد هذه المجاعة بعد مدَّة زمنية قصيرة، وتجدد آثارها أيضا على بيلك الغرب الجزائري وقد حلت بالبيك حسب ولسن إسترهايز بُعيد تسمية «محمَّد باي الكبير» سنة (١١٩٩هـ/ ١٧٨٥مـ) بايا على بيلك الغرب الجزائري[٣]، ونقف في إحدى المخطوطات: «..إنَّه في ابتداء ولايته وقع قحطٌ شديد بإقليم الجزائر وبعمالته خصوصا...»[٤]، وقد كانت هذه المجاعة قوية جدا بحيث صاحبتها اضطرابات وثورات في البيلك إضافة إلى الوباء الذي تبعها، حتى اشتُهرت هذه المجاعة عند العامة من النَّاس بعام الشر[٥]، وقد قضت هذه المجاعة

---

(1) - Brosselard: **les inscriptions arabes de Tlemcen, Revue African.**, journal des travaux de la société historique Algérienne, Publication Honorée de souscription du ministre de l'instruction publique, Jourdan libraire éditeur, Alger, Anne1860, N°4, P88.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/139 Cotes: F °135-136. 1781/05/28.

(3) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

(٤) - نبذة من سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، رقم (٥٠٢٢)، [و/ ٢]

(5) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

وتزامنها مع الوباء على عدد كبير مِن السَّاكنة في المنطقة.

وغالب الظَّن أنّ هذه الأزمة لم تتضرَّر منها إيالة الجزائر فقط، بل امتدَّت إلى المنطقة ككل، وهو ما يُستقرؤ في إرسال باشا «طرابلس الغرب» بسفينة إلى ميناء «بونة» قصد التَّزود ببعض المؤن، خاصة منها القمح[1].

وبعد مضي قرابة السبع سنوات من الهدوء والتوفر الغذائي، تبدو من جديد المجاعات في صورة العدو الرئيس لبيلك الغرب الجزائري، إذ تتجدَّد المجاعة مرَّة أخرى في بيلك الغرب وبالتَّحديد «مدينة وهران» سنة (١٧٩٢مـ) مسبوقة في نفس المرحلة بكارثة طبيعية ناجمة عن زلزال سنة (١٧٩٠مـ) ما جعل تأثيرها هذه المرة مزدوجا وأشد على النَّاس[2]، ولم يتوقف الأمر هنا بل تعدها إلى طاعون شديد زاد مِن تردي الوضع المجتمعي العام بشكل ملحوظ جدا. ولم تبق هذه الأزمة حبيسة بيلك الغرب فقط، بل امتدت إلى جل المناطق على الحدود الجنوبية الغربية، فنقف بعد سنة من هذه المجاعة أي سنة (١٧٩٣مـ) على تمظهرات جديدة للأزمة في جهة الصحراء بهلاك عدد مِن المواشي والناس وتأزُّم العيش بالمنطقة، وقد ترتب عن الجفاف الذي زادت حدته في هذه السنوات واندفاع الناس للبحث عن مواطن وجود الكلأ لمواشيهم هو ما ذكره صاحب الصروف باقتضاب عند سرده وقائع سنة (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣مـ) بقوله: «...وفي آخر هذه

(1) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 421.

(2) - Jean Marchika: op.cit., P145.

السنة وقع جدبٌ بالصَّحراء أضرَّ بالمواشي وتزاحم النَّاس على موقع المطر...»[١] ما نجم عنه تشابك الأزمة الغذائية مع الحركية القبلية والنزوح وهو ما أدى لاحقا إلى ظهور العديد من النزاعات على المنطقة، وإشكالية السيطرة على المجال الجغرافي، ولعلها ستكون أحد الأسباب الأساسية لحملة الباي محمد الكبير على الجنوب كما هو مشهود تاريخياً. بمعنى أن المجال الذي كانت قد شغلته هذه الأزمة لم يقتصر على الوضع الآني بل تعدى إلى المستقبل القريب.

ونقف على أثر هذه المجاعة في السنة الموالية أيضا أي سنة (١٧٩٤م) فيتحدَّث «مارشيكا» عرضا عن وجود تزامن للوباء الذي تفشى في الجزائر مع مجاعة في نفس السنة. فيما أن تتبع الوثائق يحيلنا على نقطة هامة وهي وجود عمليات تصدير للمنتج المحلي في صورة القمح إلى أماكن أخرى خارج البلاد أثناء معاناة البلاد من نقص المؤن، إذ تذكر إحدى المراسلات باسم بوشو (Buchot) إلى حسن داي سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م) طلب يلتمس فيها الأخير من ممثل الخارجية الفرنسية التوسط من أجله لدى داي الجزائر لمنحه عدداً مِن التَّسهيلات لأجل شراء كميات كبيرة مِن القمح الجزائري، ومساعدته في شحنها إلى فرنسا[٢]، كما أشار القنصل «فاليار» في مراسلته مع وزارة الخارجية بأنَّ الطَّلب الفرنسي لقي ترحيبا كبيرا مِن طرف الدَّاي بالرغم من كل المحاولات الإنجليزية لثني الداي

(١) - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(2) -C. D. A. C. F: le 28 août 1794.

حسين عن تقديم الدعم للجمهورية الفرنسية[1]، بل رد «الدَّاي حسين» على طلبات الشراء كان بأكثر مما كانت تنتظره حكومة الجمهورية في حد ذاته، إذ عبَّر الداي عن استعداد إيالة الجزائر لتقديم كل ما تحتاجه الجمهورية من حبوب أو أغذية أو أحصنة هي في حاجة إليها[2].

وهو ما يعني بالنسبة لنا أحد الأمرين:

أولا: إمَّا أنَّ توفُّر هذه المواد وبالتحديد القمح كان كبيرا ووافرا، لدرجة إمكانية التقسيط أو المداينة إلى أن تمر فرنسا بسلامة من أزمتها، إذ أنَّ الدفع قد بقي مُؤجَّلاً إلى ما بعد تجاوز الجمهورية الناشئة للأزمة التي كانت تمر بها.

ثانيا: عدم اكتراث الداي وشركات تصدير القمح للوضع الداخلي المُتأزِّم بسبب المجاعة في حين كانت أنظار الداي وشركات التصدير التي يستحوذ عليها اليهود منصبة على نسبة الأرباح الكبيرة المحققة من عملية التَّصدير هذه.

وهو ما يؤكد مرة أخرى على أهمية ربط الأمور الجزئية والمستويات المتباينة مع بعضها البعض، إذ أنّ بعض العوامل الطبيعية في صورة (نقص التساقط) وبعض العوامل السياسية في صورة الوضع العام في فرنسا بسبب ثورتها ومواجهاتها الأوروبية، كانا سببين في زيادة أطماع الربحية لمحتكري تصدير القمح الجزائري إلى أوروبا ما أدى إلى ارتفاع فاتورة الدين الفرنسي باتجاه المورد الجزائري، ما سيفتح لاحقًا باب الاحتلال الفرنسي للإيالة، فيما أدت هذه الذهنية

---

(1) -C. D. A. C. F: le 15 octobre 1794.

(2) - C. D. A. C. F: le 16 octobre 1794.

داخليا إلى حدوث العديد من الاضطرابات الساعية للتخلص من صور هذا الاحتكار المأثرة بشكل مباشر على التركيبة الاجتماعية وهو ما سنتبيَّن آثاره بشكل أكبر عند الحديث عن مجاعة (١٨٠٥مـ) وتأثيراتها المباشرة فيما هو قادم.

ليتجدَّد مرَّة أخرى أثر المجاعات في إيالة الجزائر سنة (١٧٩٨مـ) فيذكر «مسلم بن عبد القادر» في خاتمة «أنيس الغريب والمسافر» أنَّ هذه المجاعة كانت إحدى المجاعات السَّيئة الآثار على الإيالة الجزائرية عموما وبيلك الغرب تحديدا وهذا بقوله: «...مسغبة عظيمة أُهلكت فيها أممٌ كثيرة حتى أكلوا الميتة والدم ولحوم بعضهم بعضا...»

انحصار المجاعات في الثُلث الأوَّل مِن القرن التاسع عشر (١٨٠٠-١٨٣٠مـ) في إيالة الجزائر:

لم تكد الإيالة تتعافى مِن آثار المجاعة التي ظهرت في سنة (١٧٩٨مـ) إلاَّ وقد عادت للظهور مرَّة أخرى في مطلع القرن التاسع عشر، فنقف على ذلك فيما ينقله «حمدان بن عثمان خوجة» عما حدث سنة (١٨٠٠مـ) بقوله: «..أُصيبت الجزائر بمجاعة كبرى، ووقعت الحاجة إلى الأقوات، فأمر الدَّاي لتموين البلاد؛ بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح. وقد بيع ذلك القمح بثمانية وعشرين فرنكا للصاع الواحد، وبالرغم من ذلك كان لا بد مِن تنصيب الجنود عند باب كل مخزن...»[1] وهو ما يوحي من جهة بشدَّة هذه المجاعة، ومن جهة أخرى ببعض التدابير التي كان يأخذها بعض الولاة والدايات من أجل التخفيف من حدة

(١) – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، ص ١٢٢.

الأزمات الغذائية، وهو ما عقدنا له مطلبا خاصا ليس هذا مقامه، ثمَّ تعرف بعد ذلك الإيالة عودة التوازن الغذائي وتتجنب التعرض لهكذا أزمات مدة لكنها ليست طويلة، إذ تجدَّد الحديث مرَّة أخرى في العقد الأول مِن القرن التاسع عشر دائما على آفة المجاعة، وبالتحديد بداية من موسم حصاد سنة (١٨٠٤مـ) أي في نفس السنة التي شرع بيلك الشرق بالحرب ضد باي تونس حيث يزعم العنتري أنَّ الجفاف قد حلَّ بالبلاد وظهرت أزمة عميقة وعبَّر «العنتري» عن ذلك بقوله: «..يحكى إنَّه في سنة (١٢١٩هـ) زمان الأتراك وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضرَّ بأهل بلد قسنطينة ووطنها، ودام الحال كذلك عليهم ثلاث سنين متوالية...»[١] وقال متحدثا عما خلفته هذه المجاعة: «...وكانت عيطة القبائل في شهر الله ربيع الأول في السنة المذكورة (١٢١٩هـ) وكانت فتنة عظيمة ومات من الخلق شيء كثير وعم القحط جميع البلاد الواصل إلينا ذكرها..»[٢]

بدأت عوارض هذه المجاعة تتجلَّى فعليا للعيان حسب «لوسيت فلنسي» سنة (١٨٠٥مـ) وتسبَّبت لاحقا في ثورة كبيرة قام بها الأهالي ضد اليهود؛ لاعتقادهم أنّهم بسيطرتهم على تجارة القمح وتصديره للدول الأوروبية ساهموا في ندرة القمح في الإيالة في وقت كان الأهالي في أمس الحاجة إليه[٣]،وقد مرّ بنا التسهيلات التي كان يتحصل عليها اليهود وغيرهم، وقد كادت هذه الثورة أن

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٢٧،٢٨.

(2) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l’histoire de Constantine, Revue African. Anne 189٥. N°39, P165,

(3) -Lucette Valensi: op.cit., P24.

تقضي على الحكم العثماني في الجزائر من خلال ثورة الأهالي في المدينة وثورة «ابن الأحرش» في الداخل.

نفس هذه المجاعة امتدَّ لهيب آثارها في السنة التي تلتها أيضا، أي: سنة (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦مـ-١٨٠٧مـ)، وهذا ما يؤكده تصريح العنتري بقوله: «..وهذا الشر باق إلى سنة التاريخ هذه، وهي سنة إحدى وعشرون والله يلطف بعباده..»[(١)]، وقد نجم عن هذه المجاعة وغيرها من المجاعات كما سيأتي ارتفاع أسعار القمح أكثر من ثلاثة أضعافه بحيث أضحى سعر الصَّاع الواحد من القمح يبلغ ما يقارب خمسة عشر ريالا، وسعر الشَّعير يصل إلى قرابة ثماني ريالات[(٢)].

مثل ما نقف أيضا على وجود ندرة غذائية سنة (١٢٣٠هـ) أي في حدود سنتي (١٨١٤-١٨١٥مـ) وهذا بسبب غزو الجراد للمنطقة مرة أخرى، إذ يُذكر «..إنَّه في هذه السنة جاء الجراد، ..أوَّله أتى طائراً، ثمَّ غرس وأقام أياما في الأرض، ثمَّ خرج وأكل الزَّرع والأشجار والثِّمار، ووقع الغلاء في تلك السَّنة...»[(٣)] وهو ما يؤكد أن هذه السنة بدورها لم تخل من نقص في المؤونة وشدَّة في الوضع، ليتدخل بعدها الأمير بتوزيع القمح على الخبازين وتحديد سعره مثل ما كان في أيام الرخاء ما خفف من وطأة هذه الأزمة.

---

(1) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l'histoire de Constantine (مخطوط), Revue African., Anne 189٥. N°39, P165,

(2) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l'histoire de Constantine (مخطوط), Revue African., Anne 189٥. N°39, P165,

(٣) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ١٤٤.

بعدها تنتقل الإيالة إلى العيش ضمن نطاق عام من توفر الغذاء وابتعاد شبح الأزمات الغذائية، إذ لا نكاد نقف على إشارات واضحة إلى حدوث أزمات ما كان لها تأثيرها الفعلي أو تشابكت مؤثرة في نمط ما من أنماط العيش العام داخل الإيالة، وإذا عرف هذا كنا جديرين بالحديث عن مرحلة معافاة أو مرحلة هدوء نسبي في الاحتياجات الغذائية، ولعل هذا مرتبط إلى حد ما بالحالة العامة التي كانت تعيشها أيضا الجهة الأخرى للمتوسط، فالاستقرار السياسي في المنطقة الأوروبية والوصول إلى اتفاقات سياسية للصلح بين دولها جعلها تعمل على تحقيق أمنها الغذائي، ما انعكس مستقبلا على طلبيات شراء القمح الجزائري، وأدى عليه إلى تشبع السوق الداخلية مقارنة مع الفترات السابقة (١٧٩٨-١٨١٤مـ).

وإذ قد أتينا على ذكر مُجمّل ما تعلَّق بالمجاعات والأزمات الغذائية التي عاشتها الإيالة الجزائرية في المرحلة التاريخية الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) عدنا إلى مقصدنا مِن الشِّق الثاني الموجود ضمن الدِّراسة لنتحدَّث عن الأزمات في شقها الصِّحي أو ما حددنها باسم الأوبئة.

٢. الإجراءات الوقائية وكيفية تعامل الحكام مع الأوبئة.

من المباحث الأساسية لهذه الدِّراسة ما سيأتي في هذا الفصل، لا لأهميته الآنية فقط المتعلقة بموضوع الدراسة، بل يتعدَّاها إلى كون ما سيُناقش في هذا الفصل هو أحد الظروف العامة التي أضحت من المؤثرات في تاريخ الأحداث (المجاعات

والأوبئة) وعُدَّت التَّصرفات المختلفة داخل هذا الفصل هي البُنى الأساسية التي نظمت الذهنيات الإثنية داخل التركيبة الاجتماعية لإيالة الجزائر وشكل تصرفاتها مع المستجدات التاريخية المختلفة. وهذا مما يرسم لنا الصورة العامة للمجتمعات الكبرى لا في إيالة الجزائر وحسب وإنَّما في العالم المتوسطي ككل.

وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من القول فنقول: إنَّ لظهور المجاعات أو الأوبئة في منطقة ما آثاراً بالغاً لا يخفى -كما سيأتي في الفصول الخاصة بتأثيرات الأوبئة والمجاعات على الجوانب الحياتية المختلفة في المجتمع الجزائري- على التركيبة الإثنية داخل المجتمع الواحد، وهذا راجع بالضَّرورة إلى نمط التصرف من طرف كل فئة مع ظاهرتي المجاعات والأوبئة، فإن كان الفئة المجتمعية قوية ومن الزُّمرة المميزة سعت إلى مجابهتها والوقوف في وجهها، بينما قد تحاول فئة مجتمعية أخرى سُلوك سُبل تحاول مِن خلالها الابتعاد عن تأثيراتها والبحث عن سُبل قد تنجيهم مِن الهلاك[1]، كما نقف على نموذج آخر في التصرف مع هذه المجاعات والأوبئة نجده يتمظهر في الاستسلام لواقعها وهو فهم مستنبط من أحكام أقرتها مرجعيتها الدينية بل ونجد كل ما تقوم به هو من باب انتظار أجلها لا أكثر فنجد هذه الفئة مِن المجتمع مبادرة إلى التَّوبة مِن الذُّنوب وتسعى إلى ردِّ المظالم إلى أهلها[2]. بحيث ترى هذه الفئة أنَّ ما أصابهم مِن آثار هذه المجاعات أو في شكلها الثاني الأوبئة ما هي في الحقيقة إلاَّ

(1) -Lucette Valensi: op.cit., P21.

(٢) – العربي المشرفي: المصدر السابق، ص٢٥٥.

إرادة إلهية يجب احترامها والسكون إليها[1].

وهو أمرٌ مخالفٌ لمنابع التأصيل لديها، ففهم «عمر بن الخطاب» والرّعيل الأوَّل مِن الصَّحابة رضي الله عنهم لذلك غير هذا الذي نجده عند هذه الفئة وهي السواد الأكبر من المجتمع، فنقف في الآثار على قيام «عمر بن الخطاب» بتوقيف خطَّته لدخول بلاد الشَّام لما علم أنَّ بها وباءً؛ خوفا على المسلمين، بل وعدَّ ذلك فِراراً إلى قدر الله[2]. وهو أمر طبقته فئة ضمن التركيبة الاجتماعية بالفعل، كما نفذته وأقرته بعض المجتمعات الأوروبية والسُّلطات الحاكمة كإجراءات سريعة خلال القرن السَّابع عشر وما بعده كما تم إنشاء بعض التَّدابير كتشييد الحجر الصِّحي وترتيب الدخول والخروج من المدن بتصاريح وفرض رقابة صارمة على التنظيف وغيرها[3]، بينما ظهرت تصرفات أخرى قد تكون في بنيتها موازية لما تم ذكره وهو ما سيأتي بيانه، على أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّنا في هذا المقام نتناول شقين زمنيين، مرحلة ما قبل الأوبئة والغذائية ومرحلة أثناء الأوبئة والغذائية أي نحاول الإجابة عما يلي كيف كانت تصرفات الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد لمواجهة المجاعات والأوبئة؟ وهل كانت الذهنية السائدة فاعلا مؤثِّراً في النتائج والانعكاسات الحياتية لهذه الأوبئة؟

---

(1) -Peyssonnel, Jean-André (1694-1759). Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. P228, 1838

(٢) – من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم ٥٧٢٩.

(3) - Maury Eugène: op.cit., P07.

والحقيقة التي يجب أن ننطلق منها هي أنَّ غالب الأوبئة كان يمكن إلى حد ما الوقاية مِن شرها، أي أنَّ جميع الأمراض كان يمكن تلافيها باللُّجوء إلى تدابير صحيَّة تمنع الأوبئة مِن التَّطور والتَّفشي(١)، لذا من الطبيعي أن نجد من يحمِّل السُّلطة مسؤولية تفاقم الوضع كلَّ مرَّة، والوقوع في نفس النتائج بعد كلِّ أزمة مردُّه اعتبارهم أنَّ السُّلطة الحاكمة قد ظلَّت في موضع المُشاهد، وهو ما يتجلَّى فعلا في العديد من المرَّات في بقاء السُّلطة تراقب مآلات الأمور دون أي فعل احترازي قبل ذلك أو أثناءه على الأقل يساهم في الحد من نشاط هذه الأوبئة، والأمثلة على هذا عديدة فيذكر «غيون» مثلاً أنَّ أحد الأسباب المباشرة في انتشار الطَّاعون سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨م) كان يتمثَّل في عدم أخذ السُّلطة لزمام المبادرة، إذ كان يجب عليها أن لا تسمح للسَّفينة القادمة مِن الإسكندرية والتي تحوم الظنون حول كونها تحمل الوباء بين ركابها، في حين سمح لها بالنزول في ميناء المدينة وعدم الاهتمام باتخاذ التَّدابير اللازمة كان قد سمح للسَّفينة بالرُّسو في ميناء المدينة بشكل عادي، ولم يذكر أنه قد فُرض على ركابها أي حجر صحِّي مع العلم بأنّ أحد ركَّاب السَّفينة قد سقط ضحية لإصابته بالطَّاعون(٢)، مثل ما يتجلى الأمر بشكل أوضح سنة (١٧٤٠م) حينها اشتبه النَّاس في وجود الطَّاعون على متن السَّفينة الواردة مِن الإيالة المصرية خلال هذه السنة، وتقدّم نائب القنصل الفرنسي بعدما أعلمه قبطان السَّفينة الفرنسية الواردة بحقيقتها وأنها تحمل بين جنباتها الوباء

---

(1) - Baillière Georges Jean-Baptiste: op.cit., P14.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

اتصل نائب القنصل بالداي لاتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة هذا الوباء ومنعه مِن الولوج إلى داخل المدينة، لكن الدَّاي تصرَّف بنوعٍ مِن التَّكبر والتَّعالي عن الحقيقة ورد على نائب القنصل: «...بأنَّ سبب خوفه مِن هذا الوباء هو كونه مسيحيا يخشى الموت، أمَّا هو (الداي) فلا يخاف الطَّاعون ولا يهاب الموت؛ وإنَّه إن حاول الدُّخول سيتصدَّى له بالمدافع كما يتصدَّى للأعداء، وإلاَّ فهو قدرٌ محتومٌ...» بل وأمر مِن ساعته بإنزال البضائع وتوزيعها على أصحابها بالسَّماح للرُّكَّاب بالنزول من على متن تلك السفينة[1]، فكان ذلك إيذانًا بخراب البلاد بالطَّاعون في تلك السَّنة والسَّنوات التي تلتها، وقضى هذا التَّصرف على الآلاف مِن سكان مدينة الجزائر ليمتدَّ إلى خارجها لاحقا.

نفس هذا الأمر يحدُث مرَّة أخرى سنة (١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢مـ) إذ عَلِم المسؤول عن الميناء في مدينة الجزائر بوجود وباء على متن إحدى سُفن ريَّاس البحر الجزائريين الوافدة مِن اسطنبول[2]، لكن وكيل الخرج وآمر البحر بقيا يراقبان وترقبان فقط، في حين كان الأحرى بهما اتخاذ قرارات تقضي بعدم السَّماح لمن على متن هذه السَّفينة بالنزول إلى البرِّ حتى يُتأكَّد مِن سلامتهم أو يخضعون للحجر الصِّحي، وهذا ما لم يحدث طبعا، وهو ما يكون قد أدى لا حقا إلى انتشار الوباء سنة (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣مـ) في مدينة الجزائر كما مرَّ بنا في حينه.

نفس الأمر نقف عليه مرَّة أخرى إذ أُذِن لسفينة أخرى بالرُّسوِ في ميناء مدينة

(1)- Mémoires de la congrégation de la mission, M. Faroux, P 31.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P354.

الجزائر في (٢٩ جويلية/ ١٧ رمضان) من سنة (١٢٣٨هـ/ ١٨١٧مـ) وقد كانت محمَّلة بمائتي شخص مِن بينهم ابن الداي ما جعل توقيفها في الحجر الصحي أمراً غير مطروح للنِّقاش بتاتا، والغريب في الأمر أنَّ الجميع في إدارة ميناء المدينة كان على علم بأنّ أربعين شخصا على الأقل قد لقوا حتفهم نتيجة الوباء، وبقيَ حوالي خمسة وعشرين شخصاً مصابين بنفس الوباء ينتظرون أَجلهم لكن كلَّ هذه المعلومات لم تحمل السُّلطة على القيام بما يحميها مِن انتشار الوباء مرَّة أُخرى[1].

يضاف إلى هذا أيضا أنَّ السُّلطة كثيرا ما كانت ترغب في أن يظل أمر الوباء وانتشاره في الجزائر سرا، وبعيداً عن مسامع الدُّول الأوروبية، وهذا خوفا مِن اتِّخاذ هذه الدول لإجراءات تمنع التَّبادل التجاري مع الجزائر خوفا من انتقال الوباء إليها، لذا نجد أنَّ بعض الوثائق الأرشيفية تنبِّه إلى هذه الخطوة وتتحدَّث عن محاولات الداي التَّكتم على الخسائر وشدَّة الوباء في الجزائر، مثل ما جرى سنة (١٧٥٣مـ) إذ ورد في إحدى المراسلات أنَّ الداي يحاول أن يتكتَّم عن الخسائر الكبيرة في الجزائر حتى لا تتوقف نتيجة ذلك المبادلات التجارية[2].

ولو جعل الأمر كذلك لوجب علينا أن نرجح مذهب القائل بأنَّ السلطة العثمانية في الجزائر كانت لا تتفاعل إلاَّ مع ما له علاقة مباشرة ببقائها مِن عدمه وهذا خلاف ماكانت تعتمده الدولة العثمانية في مركز الدولة على الأقل، إذ كانت تحرص بعض الدوائر الصحية الرسمية بإجبار أصحاب الفنادق على إغلاق

---

(1) Ibid. P375.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/128. Cotes: F °123-129. 23 /Avr/1753.

الغرف أو المواطن التي يثبت فيها أنه قد سقط بها ضحايا جراء الوباء كما هو الحال سنة (١٨١٢مـ) عندما أغلقت كل غرف الفنادق التي ثبت فيه الوباء وأُخلِيت تماماً[1]، ولو أنَّها كانت كذلك فعلا في جميع الحالات لوجب وسمها بالتقصير وسوء التّدبير، كلا إن توهم هذا ممّا يؤدي بنا إلى إصدار أحكامٍ في غير موضعها، لذا وجب علينا أن نتأنى ونطرح الأسئلة التالية: ألم تقم السُّلطة العثمانية وممثلوها بأي شيء يمكن أن يعد مِن حسناتها في هذا الباب؟ ألم يوجد فعلا مَن كان لها بعض الجهد في هذا الشَّأن وحاول أن يجنِّب المناطق الخاضعة له سوء المصير المحدق بها؟ هل توجد مصادر تحدَّثت فعلا عن احترازات قامت بها السُّلطة العثمانية خلال تلك المرحلة لتجنيب الإيالة مآلات الفشل والاندثار؟

إذا أتينا على ذكر الجمل مما يتصل بمحاسن الأعمال التي اتخذتها السُّلطة العثمانية في الجزائر لأجل التَّحرُّز مِن الأزمات الغذائية ومواجهة الأوبئة، قلنا إنَّها في العديد مِن المرات وبأشكال مختلفة لإيجاد بعض الحلول وهو ما سنتحدَّث عنه في هذا المبحث بالتَّفصيل، لكن قبل الشروع في الحديث عن الإجراءات التي قامت بها مختلف فئات المجتمع لمواجهة الأزمات علينا أن نتكلم عن الاحتياطات التي كان من المفروض وجودها من أجل مواجهة خطريْ المجاعة أو الوباء خلال العهد العثماني (١٧٠٠-١٨٣٠) فهل فعلا قامت السلطات الحاكمة وساكنة الإيالة بما من شأنه أن يقيها شر القحط؟ هل وُجد فعلا من التجهيزات والمخازن ما كان له دور في تخفيف وطأة المجاعات؟ هل تصرف

(1) -B.O.A: C.SH. Do: N°06. Gömlek N°290. Tarih 1227.Za.29. Belg 01.

الدايات بذكاء عند هبوب رياح الجوع؟ ما الأساليب التي اعتمدوها للتخفيف من آثار غياب المؤونة؟ وبالنسبة لظاهرة الوباء الذي تفشى في الجزائر خلال هذه المرحلة أكثر من مرة هل قامت السلطة الحاكمة عموما بما يضمن سلامتها وسلامة رعيتها من هذه الجوائح؟ هل ظهرت هذه الأمور في تنظيمات رسمية وتشريعات التزمها الجميع؟ هل حققت هذه الإجراءات -إن وجدت فعلا- ما كانت تصبو إليه؟ هل كانت مختلف جهات الإيالة على القدر نفسه من الاستعداد لخطر الوباء؟ هذا ما سنحاول التحدث عنه فيما يلي:

لعله من الصعب تحري وجود خزانات أو مستودعات كان الهدف من إيجادها حقيقة تخزين المُؤن في مواسم الرخاء إلى مواسم العسرة، وإنْ ورد في بعض المصادر والدراسات اتخاذ الناس للمطامير من أجل تحزين الفائض من القمح إلى المواسم القادمة خاصة لموسم الشتاء أين تصعب الحركة ويصبح من العسير توفير القمح أو الشعير، ولا نكاد نقف على هذه الثقافة إلا في المطامير القديمة التي كان يخزن فيها أهالي الجبال وسكان الهضاب مخزوناتهم من القمح والشعير[1]، لكن هذه المخزونات ظلت على مستوى العائلي الخاص، ولم تضح ثقافة خاصة بالدولة كما جرى في البندقية مثلا التي أحدثت مؤسسة شأنها تدبير إدارة الفائض من القمح في المملكة كما يقول «بروديل»، أما بالنسبة للإيالة فنجد في أوقات الفائض تصدَّر الحصاد المحلي دون الأخذ بالحسبان مسارات السنوات القادمة. فنجد ضمن المراسلات البينية لحكام الإيالة مع السلطات المختلفة ما

(١) - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة.

يدل على حركية التصدير القوية التي شهدها القرن الثامن عشر للقمح لكن هذا الأمر لا يعني أنَّ القرن كاملا كان بهذا الزخم وهذا الاكتفاء بل نقف على مراحل مِن القحط والفتور كنا قد تحدثنا عنها بالتفصيل فيما سبق ومن صورها ما وُجِد مِن مراسلات. أما ما نقف عليه فعلا في بعض المراسلات بين دايات الجزائر ونظرائهم في فرنسا ما ورد في ثنايا إحدى المراسلات الموجودة في أرشيف الغرفة التجارية الفرنسية من مفاوضات حول إحدى السفن الجزائرية التي وقعت في أسر القراصنة الفرنسيين والتي كانت في مهمة شراء القمح من السواحل المغربية[1]، وقد ورد في رسالة أخرى في نفس الشأن من الداي حسين خليفة مصطفى داي إلى الكونت بونتشارتين مؤرخة بـ(سبتمبر/١٧٠٦م) مفادها أنّ السفينة المغتصبة من طرف القراصنة الفرنسين والتي هي محل المفاوضات كانت تحمل من المال (٧٥٠) قرشا لشراء القمح موجهة إلى الجزائر[2]، وحسب ما ورد في الرِّسالتين فإنَّه في تلك المرحلة كانت الجزائر تعرف غلاءً في الأسعار؛ أي أنَّ أحد الأساليب التي اعتمدها الدايات لكسر الأسعار الناجمة غالبا عن ندرة التساقط، هو ما قام به أيضا محمد باشا داي الجزائر سنة (١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) بحيث قام بإرسال رسالة إلى كل من لويس الخامس عشر ومسؤول مدينة تولوز يحثهما على قبول وتسهيل طلبه بشراء (١٠,٠٠٠) كيل مِن القمح[3]، وهو ما قد

(1) - C. D. A. C. F: le 13 janvier 1706.

(2) - C. D. A. C. F: septembre 1706.

(3) - C. D. A. C. F: le 25 février 1723.

يكون نتيجة نَقص في المؤنة لا أكثر، إذ أنّه وبعد سنتين مِن الرِّسالة السَّالف ذكرها نقف على رسالة أخرى مؤرخة بـ(جويلية ١٧٢٥م/ ١١ ذي الحجة ١١٣٧هـ) مُرسلة مِن طرف حاكم الجزائر الجديد «عبدي باشا» داي الجزائر يخبر فيها حاكم فرنسا «لويس الخامس عشر» بأنّه قام بإرسال مبعوث جديد لاشتراء بعض الأمور التي كان يراها ضرورية كالبارود والفتائل والصواري[1] ولم يذكر حاجة الإيالة إلى القمح بما يجعل من إمكانية حدوث مجاعة أو قحط خلال المرحلة الزمنية (١٧٢٣-١٧٢٥م) محدودة جدا. وعليه فلا يسعنا التّأكيد على حدوث مجاعة فعلية سنة (١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) أو إذا ما كانت لها آثاراً كبيرة، ويمكن أن يكون تصرُّف «محمَّد باشا» سنة (١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م) نوعاً مِن الاحتياطات أو رغبة في الحفاظ على أسعار المواد الأساسية معقولة ما يوحي بأن السلطات الحاكمة سعت ولو بشكل قاصر إلى توفير احتياجات السوق من القمح خلال واحدة من مراحل تراجع الإنتاج نتيجة الجفاف، وهو ما نقف عليه أيضا في مساعي بعض البايات ممَّن أخذ على عاتقه -بصفة شخصية- حماية مناطق نفوذه مِن شر المجاعات، فنجد على سبيل المثال بعض الإشارات الدالة على قيام الباي «محمَّد الأكحل» بإنشاء مخازن للقمح وفتح هذه المطامير للنَّاس في أيام القحط أو عرض مخزونها في السُّوق مِن أجل ضبط سعرها، وفي هذا الأمر يورد صاحب مخطوط النبذة في سيرة محمد باي الكبير قوله:»...غير أنه في ابتداء ولايته وقع قحط شديد بإقليم الجزائر خصوصا بعمالته؛ هذا ولما كان ادّخر حبوبا كثيرة أخرجها

---

(1) - C. D. A. C. F: le 21 juillet 1725.

للأسواق عندما غلت الأسعار...»[١] وهو ما يفهم منه أنَّ «محمّد باي الكبير» كان من خلال سلطته كباي على الغرب الجزائري يدَّخر في بعض الحالات التي تعرف فيها الإيالة نوعا مِن الفائض الإنتاجي الكثير من الحبوب لمثل هكذا أزمات، وهو عمل مِن شأنه أن يقلِّل فعلا مِن وطأة الأزمة الغذائية التي كان يمر بها البيلك وإن كان لا يقضي عليها بشكل تام.

وإذ قد ظهرت لنا جوانب من مساعي السلطة العثمانية للتَّقليل مِن وطأة الأزمات الغذائية فمن الواجب الآن أن نعود للحديث عن نفس هذه المساعي في شقِّها المتعلق بالأوبئة، فنجد أنَّ العديد مِن الأبحاث ترى إنَّه مِن العبث الاستمرار في مهاجمة تأثيرات الأوبئة بدل التصدي لأسبابها الحقيقية، لذا اعتبرت أنَّ العلاج الحقيقي إنّما يكمُن في القُدرة على الالتزام بالقواعد العامة قُبيل الوباء والقواعد الخاصة أثناءه[٢]، وهي القواعد الوحيدة القادرة على منع عودة الأوبئة مرّة أُخرى؛ فإن جُعِل الأمر كذلك فعلا كان من الأجدر على السُّلطة الحاكمة في الجزائر خلال العهد العثماني أن تُولي إجراءات الاحتراز مِن الوباء قدراً أكبر من الأهمية، وهو الأمر الذي لم نقف عليه تقريبا بشكل مُؤسَّس خلال المرحلة محل الدراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) مثل ما هو الحال في بعض الحالات التي نلتمَّس فيها فعليا عدم حرص السُّلطة العثمانية على الأخذ بتدابير الوقاية مِن الأوبئة وإلزام النَّاس بها

(١) -نبذة في سيرة محمد باي الكبير: مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، باريس، مخطوط رقم (٥٠٢٢)[و/٢].

(2) - Dubar Léon: op.cit., P17.

وهو ما نتبينه من تتبع المصادر المختلفة التي خُلِّفت في هذا الشأن أو خلال تلك المدة الزمنية، والتي يأتي على رأسها كلام «حمدان بن عثمان خوجة» الذي أبدى تَحسُّره على عدم اهتمام السُّلطة الحاكمة بتطبيق أنظمة الوقاية والنظافة والحجر الصِّحي أو ما يُعرف الكرنتينة» التي كان مِن شأنها تخفيف وطأة الهجمات الوبائية، وهو ما نقف عليه في العديد مِن المواطن في مُصنَّفه «إتحاف المُنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز مِن الوباء» غير أنّ هذا قد يُعدُّ نوعاً مِن التَّحامل المبرر، إذ نجد أنّ السُّلطة الحاكمة في بعض الأحيان قد حاولت ولو بارتباك أن تَحدَّ مِن النشاط الوبائي كما يُذكر ذلك في عدد من المصادر[1].

وهو ما حاول بعض الباحثين رسم صورته، من خلال ذكر ما كانت تبادر السُّلطة الحاكمة في الجزائر وتنتهجه لأجل الحد مِن تأثيرات الأوبئة والمجاعات، فنجد كلّ سلطة محلية ضمن البيلك تسعى إلى تحصين نفسها مِن تبعات الأوبئة أو المجاعات التي تلوح في الأفق ولهذا نجد بعض البايات أو الدايات يقومون بمحاولات استباقية تضمن انحصار تأثير الوباء أو المجاعة زمانيا ومكانيا، لكن نعود للتأكيد على أن هذه الإجراءات لم تكن -مع الأسف- نظامية ومُلزمة مِن طرف السُّلطة الحاكمة؛ وهذا أمر لا يستغرب إذا علمنا أنَّ اعتماد إجراءات الاحتراز بالنَّسبة للدَّولة العثمانية تأخَّر إلى غاية ثلاثينات القرن التَّاسع عشر[2].

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

(2) - Tholozan Joseph-Désiré: op.cit., P03.

لكننا نقف على بعض المساعي التي حاول تطبيقها عدد من دايات وبايات الجزائر، كما هو الحال بالنسبة لداي الجزائر «محمَّد بن عثمان خوجة» خلال سنة (١٧٨١م) إذ رفض -حسب أحد الوثائق الأرشيفية- السَّماح لأحد السُّفن الفرنسية القادمة مِن مرسيليا والمحمَّلة بالبضائع المختلفة الرُّسو في ميناء مدينة الجزائر؛ لاشتباه إصابة طاقمها بالطَّاعون[1]، لكن هذا لم يكن ناجعا إذ قام مجموعة من الأشخاص بمساعدة هذه السفينة على النزول في ميناء مدينة عنابة وتسرب أيضا هذا الوباء حينها عن طريق البر الشرقي للإيالة[2].

الأمر عينه نجد «صالح باي» حاكم قسنطينة يقوم به في الربع الأخير مِن القرن الثامن عشر، بحيث يفرض طوقاً على المناطق المحاذية لتونس وهذا لمنع دخول الوباء الذي كان منتشرا بها[3]، ويصدر أوامره للقبائل القريبة مِن تلك المضارب بأن تلتزم الامتناع عن التَّعامل مع القبائل التونسية إلى أن يظهر خلو تلك القبائل مِن الطَّاعون وهو بذلك يحاول لا محالة السَّيطرة على حركة التنقل الدَّائم المساعد على تفشي الأوبئة[4]، واستمر هذا الحضر في السنة التي تليها أيضا[5] متأسيا في هذا الأمر بالاحتياطات التي كان يأخذها الأوروبيين حسب مارشيكا[6]،

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/139. Cotes: F °130-133. Mai/1787.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P222.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, 212.

(4) - Ernest Mercier: op.cit., P 258.

(5) - Mostefa Khiati: op.cit., P74.

(6) - Jean Marchika:op.cit., P110.

وذلك لعلمه بأنّ الاحتكاك مع هذه القبائل بأي طريقة سيفتح الباب على مصراعيه لدخول الوباء، وقد وُفِق في تلك المرحلة بحيث نقف في رسالة من وكيل الشركة الإفريقية في القالة إلى القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر مؤرخة بـ (٣١ ديسمبر ١٧٨٥مـ) يشرح فيها قيام حاكم قسنطينة حينها « صالح باي «بإرسال أوامره إلى حاكم مدينة القالة يحثه فيها على العمل على تحييد الوباء الذي كان يضرب تونس، بل ونستجلي في الرسالة نفسها بأنه يحرص على أن يتعاون حاكم مدينة القالة مع وكيل الشركة الإفريقية السيد باري من أجل صد تقدُّم الوباء، وهو بالفعل ما يحدث وتكون نتائجه طيبة خاصة خلال المرحلة الأولى من ظهور الوباء؛ إذ أنّه خلال المرحلة الأولى التي كان فيها الوباء يحصد ما بين (٤٠٠-٢٠٠ضحية/ يوميا) في مناطق أخرى كان بيلك قسنطينة ومدينة القالة تحديدا يتمتعان بحياة صحية جيِّدة. ومن جهة ثانية يتخذ هو على مستواه الشخصي ما من شأنه الحفاظ على حياته من خطر الوباء فيرفض استقبال النَّاس ويكتفي معهم بالمراسلات وهو ما يُفهم مما أورده «صالح باي» في إحدى الرسائل المؤرَّخة بـ (٢٨ مارس ١٧٨٥مـ) إلى وكيل الشركة الإفريقية في «بونة» والتي أكَّد له فيها إنَّه سيعمل على حل إحدى الإشكاليات بمراسلة المختصين بالأمر وهو يعتذر عن ملاقاتهم في هذه الأثناء بسبب الوباء[1]، بل ونجد حسب إحدى الوثائق الأرشيفية في المكتبة الوطنية الجزائرية أنَّ «صالح باي» كثيراً ما كان يُبادر في طلب الحكيم الذي يشتغل في الشركة الإفريقية بالقالة عند أي خطب، وكان يطلبه بسرعة وبدون أناة إذ تورد

(1) - Lettre de M. Bey de Constantine dans: H.V.P.C , P416.

أحد هذه الوثائق المرسلة منه إلى وكيل الشركة الإفريقية يطالبه فيها أن يُرسل فور تلقِّيه هذه الرِّسالة بطبيب الشَّركة إلى قسنطينة إذ أنَّ أحد رجال صالح باي وذكره بقوله: «ابننا الحاج مسعود بن زكري» يحتاج إلى رعاية سريعة، بل وأكد على أن يأتي الطبيب مجهزا بجميع الأدوية التي يحتاجها[١]، وهو ما يُوحي بحرص الحاكم «صالح باي» على الحالة الصِّحية لمحيطه القريب على الأقل، وهو ما يعني بأنَّ الرَّجل كان يهتم بهذا الأمر فعلا حتَّى ولو لم يكن على المطلق وبصفة دائمة إلاَّ إنَّه لم يهمله، لذا لا يُستبعد فعلا أن تكون الاحتياطات المُتَّخذة في هذا الشَّأن أحد الأمور التي ميزت مدّة حكمه غير أنَّ هذا الأمر لم يستمر طويلا، إذ في بداية ربيع (١٧٨٥مـ) بدأ الوضع في التّغير في اتجاه الأسوأ، وهذا بدون أدنى شك نظير عدم التزام بعض القبائل الجزائرية أو التونسية بأمر تفادي الاحتكاكات والتبادلات التجارية[٢].

ثمَّ إننا نقف على ما يذكره أحد الآباء في هذا الشَّأن إذ يرسم لنا صورة مِن الاحتياطات التَّي اتُّخذت خلال تلك المرحلة وهذا بحديثه عن محاولة الابتعاد عن مَن يُشك في إصابته بالعدوى الطَّاعونية، وذكره لمناسك العبادة التي يتَّخذها العامة مِن الصَّلاة والدُّعاء لأجل أن يمنع الله دخول الوباء إلى القرى والمداشر وغيرها، إلاَّ أنَّ هذه التَّدابير لم تأت أكلها؛ إذا نجد أنَّ الوباء بدأ يتسرَّب تدريجيا إلى الشَّمال الشَّرقي بالقالة ومنها انطلق إلى أماكن أخرى وإن كان ذلك بشكل طفيف

---

(١) - و.م. و.ج. مج. ١٦٤١، و، ٧٥.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 212.

مقارنة بما كان يفعله في الإيالة التونسية(١). ونجد داي الجزائر سنة (١٧٨٦مـ) يقوم بدوره برفض استقبال سفينة قادمة مِن تونس على متنها عائلات تونسية اشتبه في إصابتهم بالوباء(٢)، لكن حتَّى هذا الإجراء لم ينجح في كبح جموح التَّفشي الوبائي في الجزائر خلال تلك السَّنة إذ نجحت حامية النوبة في تسريب الوباء إلى الجزائر عن طريق عنابة كما مرّ بنا في موضعه(٣).

مثل ما نجد أنَّ باي الغرب الجزائري «محمَّد باي الكبير» -فيما يذكر مارشيكا أن من قام بذلك هو عصمان بن محمد باي الكبير- وهذا سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ) بالخروج وأهله وجميع حاشيته مِن المدينة إلى سهل مليلة بحيث تحصَّن هنالك مدَّة مِن الزمن، قدّرتها بعض الدراسات بثلاثة أشهر(٤)، ولم يعد إلى المدينة إلاّ بعد أن اطمأن بأنّها خالية مِن الوباء، كما قام باي بيلك الغرب الوهراني برفض استقبال سفينة عثمانية كبيرة كانت قد أتت من الإسكندرية وعلى متنها عدد كبير من الحجاج، وذلك بسبب وجود عدد من المصابين بالمرض على متن هذه السفينة(٥).

وعلى صعيد آخر نجد «الداي عمر» مثلا يقوم بإرسال أطبائه الشخصيين سنة (١٨١٧مـ) إلى ميناء مدينة الجزائر بعدما بلغه سقوط ثلاثة بسكريين ضحايا

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P333.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P226.

(3) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P226.

(4) - Walsin Esterhazy: op.cit., P196.

(5) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P394.

لمرض غريب لتشخيص هذا المرض، وقد تنبّه الأطباء إلى أنَّ الجثث تشترك في نفس الخصائص مِن حيث التفخُّم والتقيُحات والانتفاخ(١).

وهذا لا يعني بأي حال أنَّ قدرة السُّلطة على التَّدخل لإخماد الوباء كانت ناجعة ومؤثرة بنسبة فعلية، وإنَّما قد تكون ناجعة وقد يكون لانتشار الوباء مِن القوَّة ما تسمح له بالوصول إلى أعلى هرم السُّلطة الحاكمة كما حدث سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) في دولة «علي باشا» الذي قضى نحبه بالوباء كما يرد في إحدى وثائق الأرشيف العثماني(٢).

إلاَّ أنّ ما يلاحظ على الإجراءات التي اتبعتها السُّلطة العثمانية في الجزائر -أو في مناطق أخرى في أرجاء الدولة العثمانية -إنَّها تميزت بالفتور والارتجال، إذ نجد أنّ السلطة العثمانية في الجزائر خلال المرحلة الممتدة (١٧٠٠-١٨٣٠) قد قامت بعدد مِن الإجراءات من أجل تحصين نفسها أولا من هذه الأزمات وذلك على نطاق ضيق يتسم غالبا بعدم وجود نظام معين، فنقف مثلا على مجموعة من بعض الدايات أو البايات تختار الابتعاد عن طريق الوباء، وذلك سواء بالإغلاق على أنفسهم وفق محيط ضيق من الحشم والخدم الذين يُؤمن خلوهم من المرض، أو من خلال انتقال كبار من في السلطة ومن معهم من الحشم والخدم إلى خارج المدينة، وهو ما نقف عليه في أمثلة عدّة فنجد مثلا أبناء الباي حسن بن علي

---

(1) -Ibid. P372.

(٢) – انظر الملاحق: الملحق رقم ثلاثة.

- B.O.A: BH. Dosya N°150. Gömlek N°7181. Tarih 1233.C.29. Belg 01.

أثناء الوباء الذي أصاب الجزائر في (١٧٤١مـ) يفضلون الابتعاد إلى الأماكن الخاصة البعيدة عن سطوة الوباء[١]، -كما يمكن أن يكون خروجهم خوفا من داي الجزائر الذي كان قد أرسل في طلبهم حسب رسالة قنصل فرنسا في الجزائر[٢]- غير أنّ هذه الإجراءات لم تكن موحَّدة في كلِّ الأماكن، بل كانت تخضع أساسا لمدى اهتمام الداي أو الباي خلال فترة زمنية بأخذ هذه الاحترازات.

لذا نجد أنّ «حمدان بن عثمان خوجة» بُعيد خروجه مِن الجزائر وبعد معاينته لأشكال الاحتراز مِن الوباء في مختلف الأقطار التي تطبقه[٣]، أرسل خِطابا في شكل كتاب إلى حكام الدَّولة العثمانية في الباب العالي يحثهم فيه على ضرورة الأخذ بالإجراءات الوقائية التي مِن شأنها أن تخفِّف وطأة هذا المرض الذي أصبح مزمنا في عدد من أجزاء الدولة العثمانية، خاصة الإيالات القريبة منها، أو تلك التي تربطها بها علاقات وطيدة، فاقترح تطبيق نظام الحجر الصِّحي في الموانئ العثمانية، كما شددّ على ضرورة تعين طبيبٍ حاذقٍ له القدرة على التَّفريق بين أمراض الأوبئة وغيرها، واعتبر وجود هذا الطبيب واجبا شرعيا لا مناص منه لحفظ نفوس المؤمنين[٤]، ولعلَّ هذا ما كان سببا في بداية تطبيق الإجراءات

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P88.

(2) - Charles Féraud Lauren ; op.cit., P 396.

(٣)- راجع ما كتبناه عن هذا الكتاب في مبحث الكتابات التاريخية حول الأوبئة في التـراث الإسـلامي في المدخل.

(٤) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص ٤٧.

الاحترازية في الدولة العثمانية ضد الأوبئة سنة(١٨٣٩مـ)[1] وهو ما يثبته ابن حمدان خوجة «علي رضا أفندي» في كتابه (مرآة الجزائر)[2].

احتياطات الأعيان والعامة من المسلمين مِن خطري المجاعة والوباء:

ترى بعض الدراسات-على قلتها- أنّ سكان وأعيان الجزائر كثيرا ما كانوا يحاولون أن يدرؤوا عن أنفسهم عواقب الأوبئة والمجاعات وما عليهم من مآسي، فنجد الأطباء يصفون للمرضى ومَن تعتريهم بعض الأعراض بعض الوصفات الطبية التي مِن شأنها أن تمنع استفحال الأمراض الوبائية المعدية، فنجدهم مثلا يصفون نبات القشاع والزنجبيل والقرفة لمن تظهر عليهم أعراض مرض الزهري[3]، كما نجد هؤلاء الأطباء يحثون مَن ابتُلي بداء الجرب بأن يفرك جسمه بخليط مِن الكبريت والبازلاء كلَّ ليلة حتَّى لا يعطي أي فرصة لظهور البثور أو غيرها على جسمه[4].

إضافة لهذا نجد أنَّ الأعيان وأصحاب الجاه في مدينة الجزائر وغيرها يحاولون بكلِّ الطَّرق اتقاء شر الوباء، والأمثلة على هذا عديدة، فمن ذلك ما تورده مذكرات البعثات الكنسية إلى مدينة الجزائر مِن أنَّ الخوف مِن الطَّاعون كان يحمل النَّاس وخاصة منهم التّجار على التزام بيوتهم وذلك بالإغلاق على أنفسهم

(1) - Tholozan Joseph-Désiré: op .cit., P03.

(٢) - علي رضا باشا: مرآة الجزائر، ترجمة علي شوقي، مطبعة دار سعادته، اسطنبول، ١٨٧٦مـ، ص١٠٩.

(3) - Mostefa Khiati: op.cit., P91.

(4) -Ibid. P92.

واعتزال النّاس إلّا بقدر محدود[1]، ويذكر في هذا الشأن الأب (*Poiret*) أنّ سكان القبائل التي مرّ بها وأتى على ذكرها أن سكانها كانوا يحتمون بخيامهم ولا يخرجون منها إلاَّ لضرورة ما[2]، في محاولة يائسة لاجتناب الوباء.

ويضيف إلى ذلك «حمدان بن عثمان خوجة» أنّه كان إذا ألَمَّ بمدينة الجزائر الوباء لزم بيته وقلَّل مِن حركته واحتكاكه بالنَّاس، ولم يخرج إلاَّ للضرورة القصوى والتي مثَّلها في صلاة الجمعة أو في تشييع جنازة، كما صرَّح بالتزامه الابتعاد عن الأماكن التي يجتمع بها النَّاس وعدم لمسه الأشياء التي تعلَّق بها الأمراض من ألبسة أو غيرها، وكما إنَّه كان كلما عاد إلى منزله تبخَّر[3]، حتَّى يُطهِّر نفسه مِن كلِّ ما قد يؤذيه، فكان مِن نتاج هذا الاحتراز والوقاية أنْ سَلِم هو وأهله مِن الإصابة بالوباء. وهو عكس ما جرت عليه العادة عند العامة من الناس، إذ لم يكن يطير خبر وفاة أحد النَّاس بالطَّاعون أو بغيره إلاَّ واجتمع عليه عددٌ كبيرٌ مِن النَّاس لتشيعه، وهو ما يضاعف إمكانية الإصابة بالعدوى وانتقالها مِن شخص إلى آخر[4].

كما نقف على إشارة مهمة في خضم حديث الأب (*Poiret*) عن رحلته مِن مدينة القالة إلى تونس سنة (١٧٨٥مـ) حيث تحدّث ضمن حيثيات حركته في البلاد أنّه لما كان ومن مَعه مَن الحضر أنَّه بلغهم أنَّ القرى التي بينهم وبين هدفهم

---

(1) - Arnoult Bossu: op.cit, M.C.M, T3, P227.

(2) -Jean-Louis-Marie Poiret: op.cit., P29.

(٣) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص ٣٢.

(4) - Jean Alasia ; Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne .Dans) mémoires de la congrégation de la mission)P.450

محفوفة بالطَّاعون أصبحوا يُصرُّون على أن تبقى مسافة معتبرة بينهم وبين مَن يلتقونه مِن العرب أو القبائل حتَّى لا ينتقل الأوبئة إليهم بشكل مِن الأشكال(١)، وهذا إنَّما يُعبِّر عن الإجراءات الأولية التي كان يأخذها الحضر والعرب أثناء تنقلاتهم بين أماكن يشتبه في وجود الطَّواعين بها.

لا يعني أنّ كلّ النّاس كانت تبقى متفرجة على الوباء ولا تحرك ساكنا إلاَّ بعد وقوع الأزمات، إذ يذكر الأب «بواغي» ما يفيد قيام أحد السُّكان باستفساره عن الطُّرق الأمثل لتجُّنب الوباء، فلمَّا شرح لهذا الفرد البسيط ذلك، نجده يسعى إلى القيام بكل ما مِن شأنه تجنيبه وأهله خطر الإصابة بالوباء، فيضع عدداً مِن الاحتياطات لمحاولة النّأي بنفسه وأهله عن خطر الإصابة بالوباء، إلاَّ أنَّ الأب «بواغي» يشرح لنا أنّ ما قام به هذا الفرد لا يعدو إلاَّ أن يكون اجتهاداً فردياً لن يكون كافيا في الغالب ليؤتي أكله ويحفظ أهله(٢)، غير أنّ ما يهمنا في هذا الكلام هو أنّه وُجد فعلا مِن بين الأهالي مَن كان يسعى لاتخاذ الإجراءات اللازمة مِن أجل حفظ نفسه و أهله مِن التبعات التي قد تنجم عن الوباء وهو ما يعني ضمنيا أنَّ الموقف مِن الوباء والتَّعامل معه ضمن الفئة الواحدة كان يختلف، وعليه فلا يمكن أن نصدر حُكما مُطلقا يدخل في ضمنه جميع أفراد الفئة الواحدة، وإن كان الغالب هو ما سنشير إليه.

---

(1) -Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°5,op.cit., P26.

(2) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit.,P 196.

من جهة أخرى تنقل لنا بعض التَّقارير التي كانت تقوم بها السُّلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر صوراً عن محاولات المجتمع التَّعامل مع الإصابات الوبائية مِن خلال القيام بالإكثار مِن الاغتسال والوضوء للقضاء على العرق السَّائل مِن جسم المريض بغزارة، كما إنَّها نقلت تعاطي المريض أكواباً مِن القهوة المرُكَّزة التي يضاف لها أعواد مِن شجر الكينا بالإضافة إلى إضافة الكثير مِن الليمون لهذا الشراب[1]، وهو حسب ما تورد هذه التَّقارير مِن مكونات في هذا الشراب فإنَّهم يريدون تزويد الجسم بالطاقة وتمكينه من الحيوية وهي الأمور التي يفقدها المصاب بالطاعون غالبا، وهذا ما كان سيسمح ببعض الطاقة والحيوية لتتسرب إلى جسم المريض، ولو بشكل محصور زمنيا.

كما كان يسعى السُّكان للتَّداوي مِن الإصابات التي تلحق الصّغار بالكي، أي يقومون بفتح أماكن الخرجات التي تكون مليئة بالدَّم المُتخثِّر ويقومون بعد ذلك بكيها بالنَّار وبعد ذلك يقومون بتضميدها في محاولة لتخليص المصاب من الألم الذي يعتريه، وقد أثبتت هذه المحاولات نجاعتها في الكثير من المرات[2].

كما تثار إشكالية أخرى هي المدة التي يلتزم بها بكذا احترازات إذ نرى أنها غالبا ما كانت آنية ، أي في نفس المرحلة التي يظهر فيها الوباء وليس قبله وغالبا ما كان اعتمادها على مضض بداية من القرن التاسع عشر، وعلى نطاق ضيق، إذ كثيرا ما اعتبر النأي بالنفس عن مسببات انتقال الطاعون إلى الفرد الآخر شكلاً مِن

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P142.

(2) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P142.

أشكال رفض القضاء الإلاهي، لذا نجدهم لا يتورعون عن الاتصال بالمرضى بالطاعون[1]، وأن محاولات الأوروبيين حثهم على التعامل مع الأوبئة بحذر كانت في الغالب تبوء بالفشل الذريع كما سيأتي حين الحديث عن احترازات النصارى واليهود من الأوبئة والمجاعات.

احتياط النصارى واليهود المقيمين في الجزائر من الوباء

يعد أهل الذمة أحد أهم الأطياف العامة للمجتمع في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وقد تباينت أعداد ركني هذه الفئة بين قسمين أساسيين: اليهود والنَّصارى، اختلفت أعداد المقيمين في الجزائر خلال المجال الزمني حيز الدّراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) بحيث نجد أن أعدادهم ترتفع وتنخفض مُتأثرة بالسياق العام للإيالة، لكن عددهم ظل محدودا إذا ما قارناهم بالسُّكان الأصليين، وهذا الأمر لم يمنعهم من الحفاظ على شخصيتهم المميزة ضمن التركيبة الاجتماعية بل شكلت بأفراد هذه الفئة كتلة ظلت إلى حد ما مُتقوقعة ومحافظة على خصائصها العامة، داخل هذه الكتلة نقف على فسيفساء اجتماعية المئات مِن المُهاجرين والأسرى والعشرات مِن القناصل والمساعدين والخدم[2].

وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نفتتح الغرض فيما هو غرضنا من القول فنقول أنَّ الفئة النَّصرانية المقيمة في الجزائر -خاصة منهم القناصل والتجار والرهبان-قد أخذت عددا مِن الأسباب التي تُعينهم على عدم الإصابة بالوباء،

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P181.

(2)- Lucette Valensi: op.cit., P30.

وهذا ما نجده ماثلا ومَشهورا عند مَن كان موجودا في الجزائر مِن النَّصارى خاصة منهم الرهبان والآباء الذين كانوا يشتغلون في المستشفى الأوروبي، إذ نجدهم يلمحون إلى الاحتياطات التي كانوا يتخذونها إزاء تلك الأزمات[1]، لأجل ذلك كانوا لا يخرجون أيام انتشار الأوبئة مخافة أن يمسَّهم ما مِن شأنه أن يعرضهم للوباء، ولعل هذا أحد الأسباب الأساسية في انتقال الأوبئة لعدد منهم كما سبق الإشارة إليه، كما يؤكد هذا الأمر فرضية وجود المحيط المناسب لانتقال الأوبئة داخل المستشفيات[2].

وبعيدا عن المستشفيات نجد أن الكثير مِن السَّادة كانوا يجتنبون خدمهم مخافة تساهل الخدم في أمور الاحتراز مِن الوباء[3]، كما نجدهم يحرصون كلَّ الحرص على النظافة الدائمة لأماكن العبادة أو أماكن التجمعات العامة فنجدهم يقومون بغمس أوتاد مِن الخشب في الزيت مِن أجل أن يمسحوا به الأماكن التي يستخدمها النَّاس كثيرا أو الرموز الدِّينية المهمة[4]، بالإضافة إلى ذلك نلاحظ حرصهم الكبير على توفير الرعاية في المستشفى وعلى نظافته وذلك مِن أجل إسعاف المرضى بمختلف أنواع أمراضهم، خاصة منهم أولئك الذين يصابون بالوباء أو الطاعون، وفي خضم حديث «مارشيكا» عن وباء (١٧٠٠مـ) نجده ينقل عن الأب سانت جان (St. Jean) إعجابه بنظافة المستشفى المهيأ خصيصا

(1) - Français Paissant: Mémoires de la congrégation de la mission P 103.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P23.

(٣) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص، ص ٤٣،٤٤.

(4) - Arnoult Bossu: op.cit, M.C.M ،T 3. P 234.

لاستقبال المرضى المسيحين، أثناء زيارته إلى هذا المستشفى رفقة القنصل الفرنسي في الجزائر له بُعيد وباء (١٧٠٠مـ)[١]، وهذا المركز الاستشفائي كان في مدينة الجزائر، وقد أُلحقت إدارته بمتصرِّف يساعده رجل دين منتمٍ لإرسالية عتق الأسرى، يوجد بهذا المركز الاستشفائي جراح وصيدلي مهمتهما خدمة المرضى والأسرى الأوروبيين بالمدينة[٢].

كما كانت السُّلطات الأوروبية حريصة على تقديم العون لهذا المستشفى مِن خلال تخصيص بعض الرهبان للخدمة فيه كما هو الحال مع القديس جان أنطوان (*Jean Antoine*)[٣] وفي حالة شغور أو فقدان بعض عمال المستشفى تقوم السلطة الإسبانية -غالبا- أو الفرنسية بإرسال مَن ينوب عنهم، مثل ما حدث على سبيل المثال سنة (١٧٩٧مـ) حينما قامت السُّلطات الإسبانية بإرسال طاقم طبي مِن أربعة رهبان للخدمة في مستشفى الأسرى المذكور، وأرسلت شخصين آخرين للعمل في إدارة المستشفى[٤]، أثناء الوباء الذي ضرب الجزائر خلال تلك السنة. بل إنَّ بعض الرهبان والأطباء الذين كانوا في هذا المستشفى كانوا يقومون بتقديم المساعدة للأسرى في أماكن إقامتهم إذا أتيح لهم ذلك وسُمح لهم بذلك[٥].

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P 70.

(٢) - أو. هابنسترايت: المصدر السابق، ، ص٣٤.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P 70.

(4) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P359.

(5) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P 229.

وإذا تقرَّر ما سبق صرفنا القول للحديث عن بعض التشريعات والأحكام الصادرة في الجزائر مِن أجل حماية هؤلاء الرُّهبان، فنجد إنَّه قد أُورِدت مجموعة مِن الأحكام الخاصة بالطَّاعون في مذكرات الرُّهبان الصادرة في الرابع والعشرين مِن شهر أكتوبر سنة (١٧٤١مـ) وتنصُّ على ثلاث نقاط أساسية هي في مجملها مجموعة مِن الاحتياطات والإجراءات المُلزمة للرَّهبان المسيحيين العامليين في إيالة الجزائر؛ وهذا مِن أجل كون هؤلاء الرهبان قد نذروا أنفسهم للكنيسة وهي ترى أنَّ أهميتهم تتعدَّى حماية أنفسهم فقط مِن الخطر الذي يتضمَّنه الوباء، بل تكمن أهميتهم في الخدمات الكبيرة التي يجب أن يقدموها للأسرى والفقراء من المسيحين الأوروبيين، ويأتي على رأس هذه التعليمات(1):

١- جواز ترك القيام بالقدَّاس في السُّجون في حالة الالتباس بوجود الطَّاعون في السجن، وهذا مِن أجل الحفاظ على أنفسهم مِن خطر الاحتكاك بالمصابين مِن المساجين خاصة وأنه قلَّما يدرك العبيد والأسرى إصابتهم بالوباء، ثانيا مِن أجل الحفاظ على أنفسهم بحكم إنَّهم ليسوا مُهمين لأنفسهم فقط ولكن حتى لغيرهم من المرضى الذين ينتظرون أن يسعفهم هؤلاء الرُّهبان في المستشفى الأوروبي في المدينة مثلا.

٢- الحرص في أثناء القداس على جعل مسافة بين الرهبان وغيرهم مِن النَّاس خاصة أولئك الذين يُشتبه في إصابتهم بالمرض على أن توفر جميع الوسائل التي مِن شأنها أن تُقلِّل فرص انتقال الوباء إلى الرُّهبان بأن تستحدث عصاً

(1) - Poirier Dubourg: Mémoires de la congrégation de la mission, Tome 3, P 110.

تكون طويلة مِن أجل تقديم القرابين، وتكون هذه العصا هي الواسطة بين الرهبان وغيرهم مِن المسيحيين في حال تقديم شيء ما لهم أو العكس.

٣- يجب التَّأكد دائما أنَّ على الراهب أن يأخذ جميع الاحتياطات اللازمة مِن خلال عدم التماس مع أي كان وعدم التعامل المباشر وضرورة التأكيد على الرهبان إنَّه بوفاتهم سيبقى عددٌ مِن المسيحيين بدون مساعدة لصعوبة توفير الرهبان في فترة قصيرة.

كما ينقل لنا الطريقة التي يعتمدونها في وضع الحواجز في محيط المستشفى الإسباني وفي الأماكن الخاصة بالعبادة للأوربيين في الجزائر، وذلك بغلق المساحات الموجودة حول الأماكن وهذا بوضع عسف النخيل وربطها ببعضها بحيث تشكل جدارا لا يمكن اختراقه بسهولة، وفي نفس الوقت يتيح هذا الجدار للفناء الداخلي أن يستوعب عددا كبيرا من النصارى بداخله، لا يتواصلون أثناء ذلك مع أي أحد من الأهالي إلاّ عن طريق هذا الجدار أي بالكلام فقط، وفي حالة أراد النصارى استلام شيء ما استعملوا الملاقط، وكان كل شيء يُستلمُ يوضع في ماء ساخن أو على النّار أو في الخل. وهذا بحسب نوعية الشيء المُسلَّم...كما أنه في حالة وقع الشك في أحد الأفراد أنه قد يكون مصابا بالعدوى فإنه يُفصل عن الآخرين، ويُوضَعُ في غرفة بها سرير واحد وبعض الحاجيات الأساسية، بحيث يأكل لوحده ويستعمل أطباقا خاصة به وكرسياً شخصياً لا يشاركه فيه أحد، كما كان الآباء والرهبان كثيرا ما يقللون من الذهاب إلى السُّجون لزيارة الأسرى

الأوروبيين...كما يقللون من الالتقاء بمن يريدون الاعتراف بذنوبهم[١].

مع ما ذُكر من تعليمات احترازية شرعت للرُّهبان في المستشفيات عامة وفي السجون خاصة، ونصت الأحكام على ضرورة ذلك، والملاحظة إنَّه مع ما ذكر مِن مزايا خُصَّ بها هذا المستشفى مِن النَّظافة والتنظيم، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع ظهور العديد من الأوبئة أو انتقالها داخل المستشفيات في حد ذاتها، وهذا يؤكد بعض ما ذكرناه في مدخل الدراسة من أن بعض الأماكن المغلقة مثل المستشفيات أضحت بدورها سببا في انتقال الأمراض، ما جعل هذه المؤسسة تنتقل في بعض الأحيان مِن كونها سببا للقضاء على الأوبئة إلى وسيلة لإطالة عمرها وامتدادها الجغرافي[٢].

إذا تحقق الغرض من الحديث عن الاحترازات المتبعة من النَّصارى داخل المؤسسات المغلقة التي جسدها المستشفى والكنيسة والسجن انتقلنا للحديث عن هذه الاحترازات ضمن حيز آخر، جسدته قنصليات الدولة الأجنبية في الجزائر، فنقف على أنَّ عددا مِن القناصل كانوا يختلقون الحُجج لعدم حضور المناسبات الاحتفالية الرسمية مثل: عيد الفطر، عيد الأضحى، رمضان، المولد النبوي؛ خاصة إذا تزامنت هذه الأعياد مع وجود نشاط وبائي ما.

وهو ما يتجلى في العديد من الصور فعلى سبيل المثال نجد هذا الأمر يهتدي إليه القنصل الفرنسي «دوفال» (Deval) عندما غاب عن الاحتفال الرسمي بعيد

---

(1) - Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, PP 235-229.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P23.

الفطر لسنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)[1]؛ بسبب خوفه من الاحتكاك الذي يكون في هذا العيد مع العرب واليهود، لكن في الكثير من الحالات وتجنبا لحدوث أزمات دبلوماسية ما كان بعض القناصل يقومون بتعجيل زيارتهم الرسمية مِن أجل تقديم واجب التهنئة بالعيد إلى الداي في «دار السُّلطان» يوماً أو يومين قبل التَّاريخ الرسمي للاحتفال بالعيد، وهو ما حدث في عيد فطر (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م)[2]، غير أنَّ هذا الأمر لم يكن متاحا في جميع الحالات إذ كثيرا ما أُجبِر العديد مِن القناصل على الحضور وتقديم التَّهنئة للداي في نفس يوم الاحتفال؛ إرضاءً لرغبات الدَّاي، مثل ما حدث في عيد الأضحى سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م)[3] فنجد أن القناصل قد سعوا لأن يحيطوا أنفسهم بنوع من الحماية من الأوبئة لكن هذا لم يكن متاحا في جميع الحالات بسبب الأعراف التي تعودها حكام الجزائر ما صعّب مِن العملية فعلا. كما يظهر حرص القناصل في حماية أنفسهم وحماية مَن هم على علاقة مباشرة بهم عن طريق إبلاغ معاونيهم ومَن يشتغلون معهم أو تربطهم بهم علاقات بكل جديد يخصُّ تدابير أخذ الحيطة والحذر في هذا الجانب، وهو ما يُستنبط مِن إحدى الرسائل الرسمية مِن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى سلطات بلدها، إذ ورد فيها أنَّ القنصلية قد اتّخذت عدداً مِن الاحتياطات مِن أجل الوقوف في وجه الطَّاعون الذي لوحظ في البلاد[4]، وهو ما يُفهم مِن كلام أحد الرُّهبان

(1) - Jean Marchika:op.cit., P157.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P 375,385.

(3) -Ibid., P378.

(4) -Ibid. P389.

الذين كانوا في مهام في الجزائر خلال تلك المرحلة إذ يتحدَّث عن تقديم الرهبان للأسرى النَّصارى أوراقا تعلمهم طريقة التَّعامل مع الطَّاعون وكيفية الاحتراز منه[1]، ولعلّ قيام السيد «جونفيل» نائب القنصل ومعه وكيل الشركة الملكية الإفريقية أثناء طاعون سنة (١٧٤٠مـ) بالإغلاق على أنفسهم في البيت الذي يقيمون فيه رفقة بعض الخدم الذين تُحُقِّقَ عدم إصابتهم بالطاعون[2]، وتصريح الأب «بواغي» بأنَّ أحد أهم الطرق لتجنب الوباء كان بالانتباه إلى ضرورة عدم الاتصال بأي صورة من الصور مع السكان والبقاء بعيدا عن كل الأشياء التي تخصهم سواء كانت ملابس أو أدوات يستخدمونها[3] يرسم لنا إلى حد ما تلك الاحتياطات التي كان العديد من النصارى يتخذونها وتقدم لنا بعضا من الصورة العامة للاحتراز التي كان يبادر بها القناصل وغيرهم من الأوروبيين في مدينة الجزائر خلال ظهور الأوبئة.

كما يتجلَّى هذا الأمر بشكل أكبر في قيام نائب القنصل الفرنسي جونفيل أيضا أثناء الوباء الذي ضرب الجزائر بشدّة سنة (١٧٤٠مـ) وذلك بمراسلة بعض الفرنسين وحثّهم على أن يقوموا بجرد الأشياء الثمينة في بيوتهم والإغلاق عليها في مربع ما، وأن لا يستعملوا من الأدوات والتجهيزات والأثاث إلاّ ما هو ضروري جدا بما يمكنهم من تجنب الوقوع في شراك الطاعون[4] نفس الأمر يلاحظه بوسو

---

(1) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P 231.

(2) - Français Paissant: mémoires de la congrégation de la mission, P74.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P194.

(4) - Français Paissant: mémoires de la congrégation de la mission P 75.

(Arnoult Bossu) إذ يشير إلى قيام الفرنسيين بالإغلاق على أنفسهم مخافة انتقال عدوى الإصابة الوبائية إليهم في وباء سنة (١٧٥٢م)[1]. فإذا كان هذا الأمر يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب الآن أن نضيف أحد الأركان الأساسية التي اهتمت بحماية نفسها من تبعات تفشي الأوبئة ونقصد بها المؤسسات الاقتصادية والتجارية الأجنبية في الإيالة.

نجد أنَّ المُؤسسات الفرنسية -وهي الوحيدة التي كانت تسيطر على الامتيازات الأجنبية في الإيالة- وبالأخصّ وكلاء الشَّركة الإفريقية -التي تعمل في صيد المرجان في القالة -كانت تقوم بالعديد مِن الخطوات لأجل حماية نفسها، وهو ما نقف عليه في عدد مِن الإشارات في الوثائق الأرشيفية، فمن ذلك ما نقف عليه ضمن إحدى الإشارات غير المباشرة التي نقف عليها في وثيقة من أرشيف الشركة الإفريقية حول قيام مسؤوليها بدفع قيمة مالية معينة لليهود الموجودين في الميناء -أثناء الطَّاعون الذي ألَمَّ بإيالة الجزائر سنة(١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م)- نظير تقديمهم العديد مِن الخدمات لطاقم السَّفينة الذين كانوا يفضلون عدم التماس المباشر مع الأهالي ويرجحون عدم النزول بالمدينة، وفي مقابل ذلك الاكتفاء بتكليف اليهود بالقيام بما يحتاجون إليه من خدمات أو مهمات معينة كالنقل والبيع والشراء وغيرها[2].

(1) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P 229.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 207.

كما كان وكيل الشركة الإفريقية يحرص كلَّ الحرص على عدم انتقال العدوى مع سُفنه إلى فرنسا، ولأجل ذلك ؛كان يقوم بمنع إرسال السفن مِن الميناء في حالة كان انتشار الوباء بشكل كبير؛ مخافة وصوله عبر بعض البحَّارة إلى مرسيليا ومنها التوغُّل إلى الداخل الفرنسي، فنقف على عدم سماح وكلاء الشَّركة بشحن السُّفن إلاَّ في حالة تحقق خلوها وخلو المكان مِن الإصابة بالطَّاعون وهو ما يفهم في بعض الإشارات المتفرِّقة في المصادر الفرنسية التي تناولت مسألة الوباء في الجزائر[1]، ويعد هذا العمل إجراء استباقياً كانت تقوم به الشَّركات الفرنسية في الجزائر أولاً لحماية نفسها مِن خطر هذا الأوبئة، وثانيا لحماية المملكة الفرنسية مِن مخاطر تسرُّب هذه الأمراض داخل تجمعات الشركة.

مثلما نجد الشَّركة الإفريقية تقوم بسد بواباتها في وجه أهالي وسكان المنطقة المحيطة بهم، وهو ما نقف عليه فيما ينقله الأب (L'abbé Poiret) عن إحدى المراسلات المؤرخة بـ (١٢/ ٠٥/ ١٧٨٥مـ) والتي أُرسِلت مِن الشركة الملكية الإفريقية بمدينة القالة إلى الجهات المعنية تخبرهم فيها بقيامها بإغلاق أبوابها في وجه كل التّعاملات الاقتصادية والتجارية مع الأهالي[2]؛ احترازا مِن انتقال الوباء إلى داخل أسوارها وحماية للعاملين بالمؤسسة، وقد أوردت المؤسسة أنَّ قيامها بهذا العمل لوقاية نفسها من بلاء الوباء قد قُوبِل بامتعاض ورفض مِن طرف

---

(1) - Ibid. P 218.

(2) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., 12 Mai 1785.

الأهالي الذين أصبحوا يرمون الجثث المصابة بالوباء عند بوابات الشركة(١)، نفس الأمر أعادته المؤسسة في السَّنة التالية للوباء خاصة وأنه تمَّ التَّأكد مِن ظهور الطَّاعون في مدينة عنابة، إذا حاولت وضع مجموعة مِن الحواجز تمنع ساكنة المناطق المجاورة من الوصول إلى مقر الشركة الإفريقية(٢)، وإن كان الأهالي قد يعبرون عن امتعاضهم من هذه التَّصرفات فإن السُّلطة الحاكمة في البيلك كانت تراه إيجابيا لذا نجد «صالح باي» يأذن للشركة الإفريقية الفرنسية في القالة بضرب الحصار على منشئاتها أو إغلاق المناطق التي تخضع لسلطتها(٣)، وهذا الأمر ليس بمعزول إذ كانت العديد من الشركات الفرنسية في تونس تقوم بالأمر نفسه فتقوم به على سبيل المثال الشركة الفرنسية (le fonduk) الموجودة بتونس(٤)، إذ كانت تقوم بوضع حواجز تحول دون وصول الأهالي إلى الشركة وعليه تقلل إمكانية الاحتكاك المباشر معهم(٥).بل إنَّه في بعض الحالات يطلب المسؤول الفرنسي من الأوروبيين القاطنين في المدينة أن يفصلوا بين المرضى وبينهم وأن يجندوا لخدمة المرضى مجموعة من الخدم على أن لا يحتكوا هم بهم، وهو ما يُستقرؤ في التَّوصيات التي قدمها نائب القنصل السيد «جونفيل» في رسالة إلى عائلة الإخوة

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P334.

(2) -Ibid., P343.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, 227.

(4) - Ibid. P210.

(5) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°25,op.cit., 12 Mai 1785.

«جون» التي أصيب فيه عدد مِن الإخوة[1]، مثل ما قام القنصل الفرنسي العام في الجزائر أثناء الوباء الذي ضرب الإيالة سنة (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣مـ) بمراسلة وكيل الشركة الفرنسية في مدينة عنابة يحثُّه فيها على إرفاق ملفات السُّفن التي تأتي من فرنسا وتعود إليها من الجزائر ببرقيات يذكر فيها الظروف الوبائية التي تعرفها الجزائر[2]، وحسب قراءتنا فإنّ هذا العمل مِن شأنه أن يُجبر الموانئ الفرنسية لاحقا على إخضاع طاقم السَّفينة للمعاينة أو الحجر الصِّحي إن اقتضى الأمر ذلك.

بالإضافة إلى ما مرَّ بنا مِن إجراءات كانت تُؤخذ قبيل حلول الأزمات، نجد أنه توجد العديد مِن الإجراءات التي كانت تُتَّخذ في حين الأزمة، فمن ذلك مثلا أن يُسرع الأوروبيون إلى الخروج من المُدن إلى الأرياف وهذا على اعتباره ملاذا آمنا من الوباء، وهو ما نجده يحدث فعلا في الوباء الذي ضرب الجزائر سنة(١٧٩٣مـ)[3] حين قام الأوروبيون (القناصل - التجار) بالخروج مِن مدينة الجزائر باتجاه الأرياف المحيطة بها خوفا مِن الوباء، لأجل حماية أنفسهم، وذلك لأنَّ الكثَّافة السُّكانية تكون أقلَّ بكثير مِن المدن، وعليه فإن نسبة الإصابة بالعدوى تكون أقل أيضا، نفس الأمر يقوم به ممثل القنصلية في مدينة بونة في الوباء الذي يضرب المدينة سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧مـ) إذ يقوم بالخروج مِن المدينة والنزوح

(1) - Français Paissant: M.C.M, P 76.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P355.

(3) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P226.

إلى الريف[1] إضافة إلى أنَّ إمكانية مراقبة المحيط القريب في الريف تكون أكبر مِن المدن بحيث أنَّ كثرة الأسواق والمقاهي والحركة اليومية للخدم والوافدين لزيارة القناصل وغيرها من أعمال تُصعِّب الأمر، وهو أمر منطقيٌّ جِدا إذا ما قورن باللامبالاة التي كانت موجودة لدى السُّكان المحليين اتجاه أمور عدَّة تسهم في انتقال الوباء وانتشاره.

إضافة لما سبق قامت الهيئة القنصلية الفرنسية في الجزائر بإحضار عدد من اللقاحات ضد داء الجدري الذي انتشر في الجزائر خلال سنة (١٢١٧هـ/ ١٨٠٣مـ)[2]، وهو الأمر الذي لم تتعوَّده الجزائر ولم تعمل به مِن قبل.

وإذا عُرف هذا فمن الواجب الآن أن نفتتح الخوض في الشق الثاني من الأركان التي عليها مدار أهل الذِّمة وهم اليهود، فمن أوجه الاحترازات التي كان يتَّخذُها اليهود ما ذكرته «لوسي فلنسي» في إحدى الوثائق التي أوردها أنَّ اليهود كانوا بمجرد أنَّ يُلاحظوا أنّ الوباء تفشى أمره في مدينة الجزائر يقوم المكلف بطائفة اليهود بالمدينة بإعلان حضر شراء الألبسة مِن الأهالي[3]؛ خوفا مِن انتقال الوباء عن طريق هذه الألبسة، كما يذكر «فيشرا» في يومياته إنَّهم كانوا إذا تبيَّنوا استمرار الطّاعون لفترة طويلة ألزموا فتيانهم البالغين بالزواج[4]، خوفاً مِن انقطاع

---

(1) - Ibid. P233.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P364.

(3) -Document No 6:

(4) - Jean Claude Vichert: op.cit., PP (559-568). Et- Jean Marchika: la peste en Afrique septentrionale, P126.

النّسل واعتقاداً منهم بجدوى هذا الأمر في التَّقليل مِن آثار الوباء.

مثل ما كانوا يقومون بتجنُّب الأماكن المكتظة ولا يلتزمون حضور جنائزهم، وإن مات أحدهم غسَّلوه بالماء وطيَّبُوا جثته بالكافور والأعشاب[1]، كما أنَّنا نقف في بعض المصادر على إشارات هامة مفادها أنَّ «علي خوجة» آثار الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧مـ) قام بإصدار أمر لليهود بالعودة الفورية إلى عملهم التُّجاري داخل مدينة الجزائر[2] ما يُفهم منه أنَّ اليهود قاموا بالخروج مِن المدينة إلى الأحواز والأرياف خوفاً على أنفسهم، ولا يُستبعد أن تكون هذه أحد الطُّرق التي حاول مِن خلالها اليهود النَّأيْ بأنفسهم عن تبعات الوباء.

غير إنّ هذه الاحتياطات لم تكن دائما تأتي بالمرجو منها؛ إذ كثيرا ما ظلّت مجرد محاولات يائسة للسَّيطرة على الطَّاعون بعد تسربه.

وإذا عرف ما سبق وجب أن نصرف البيان إلى أنّ ظهور الوباء بين أفراد فئة اليهود غالبا ما كان ينتهي بسقوط عدد كبير مِن الضحايا قبل أن يستتب الأمر وينحصر الوباء أو الطَّاعون مِن جديد وهو ما يجعل الاحتياطات وتصرُّفات فئة اليهود على أهميتها تبقى مبتورة وضعيفة، خاصة إذا علمنا أنَّ مثل هذه الاحتياطات لم يُعمل بها في المدينة أو محيط الوباء ككل، وإنما على حيز ضيق داخل العائلة والجماعة الأثنية لا أكثر، وهو ما نقف عليه في الكثير مِن حالات النشاط الوبائي كذاك الذي ألمَّ بمدينة الجزائر سنة (١٧٨٧مـ) وكان له تأثير كبير على فئة اليهود

(1) -Document No 6:

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P376.

بحيث سقط فيه حوالي (١٠٩٣) مِن اليهود، فيما كان عدد الضحايا من النَّصارى لا يتجاوز (٢٢٤)[1]. هذا بالرُّغم مِن حزمة الإجراءات المُتَّبعة حينها لاستدراك أعداد ممَن فُقِد مِن الضحايا أو التصدي لهجمات هذا الوباء؛ فمن ذلك مثلا: قيامهم بتزويج الشباب اليهود، ومنع شراء ملابس الأموات، والإغلاق على أنفسهم في بيوتهم[2]، وهو ما يُستجلى أيضا في العديد من الأوبئة التي كان من أكبر ضحاياها اليهود كوباء سنة (١٧٤١مـ) ووباء سنة (١٧١٨مـ) ووباء سنة (١٧٨٥مـ) وغيرها.

وقبل أن نشرع في الحديث عن المساهمات المختلفة للسلطة ومن هو دونها في حل الأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني، وتحديدا خلال المجال الزمني حيز الدراسة، علينا أن نقول أن تعامل الفئات المختلفة مع الأوبئة والغذائية لم يكن على نفس القدر من الكفاءة والاهتمام، بحيث نجد أكثر فئة اهتمت باتخاذ الإجراءات الاحترازية هي فئة النَّصارى، وهذه بسبب الثقافة التي كانت بدأت تتأسس في المجتمع الأوروبي، أما اليهود فلم تتعد محاولاتهم استنساخ التجربة التراثية في المخيال الجمعي للمجتمع اليهودي، أما إن أتينا إلى المجتمع المسلم فيمكننا أن نقول أن الفئة التي اهتمت باتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية لا تتعدّى بعض عناصر السلطة الحاكمة وظل ذلك راجعاً أساساً إلى فلسفة الحاكم في حد ذاته، فرأينا من أسهمت أعماله في تضيق مجال حركة الأوبئة وتفشيها أو

---

(1) -Gazette de France :1787, N° 67. P331.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P22.9

التقليل من آثار الأزمات الغذائية، كما رأينا مَن كانت تصرفاته سبباً في حلول مشاكل صحية وغذائية كبيرة أدت بالإيالة إلى العيش تحت وطأة الأزمات مدة طويلة، مثل ما وجدت بعض الاحترازات التي سعى لها في غير تنظيم بعض المسلمين الذي احتكوا بالثقافة الغربية مثل «حمدان خوجة» لكنها ظلت ضيقة وبسيطة وغير منظمة في مؤسسة بعينها.

مساهمة السلطة والحكام وأرباب المال في حلِّ الأزمات

من طبائع الناس أن تختلف مواقفهم أثناء الأزمات والمصائب ولهذا نجد أنَّ المواقف التي اتَّخذتها مكونات المجتمع حيال ظهور هذه الأوبئة أو المجاعات اختلفت عن بعضها، وبما أنّه معلوم أنّ المجتمع خلال المجال الزمني محل الدراسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) كان يعيش نوعا من الفئوية وجب علينا أن نتتبع تصرف كلَّ فئة على حدة، فالمجتمع كان يضم الحكام ورجال الدِّين وأرباب المال، كما كان يضم أيضا المعسورين والفقراء والمعوزين، لذا من الطبيعي أن يحاول هذا المبحث إبراز تصرف كلِّ فئة حيال المستجدات التي أتت بها أزمات القحط والجدب والغلاء في جانبيها الإيجابي والسلبي.

وإذا تحقَّق هذا فَمن الواجب أن نستهلَّ الكلام في هذا المقام أوَّلا بأعلى مَن في الهرم السياسي في مجتمع الإيالة خلال تلك المُدَّة، ونقصد بهم رجال السُّلطة الحاكمة مِن دايات وبايات وغيرهم، فجلّهم كان يُنظر إليهم بنظرة إجلال واحترام باعتبارهم ينفذون أوامر السلطان الأعظم، وبالأخص منهم مَن تقلدّ مَنصب الدَّايوية أو البابوية، فالجميع ينظر إلى الداي مثلا على إنَّه رجل مميز بما اجتباه الله

به مِن سلطان الحكم والتدبير والمال، لذا كان يُنتظر منه أكثر مما ينتظر من غيره، خاصة وأنَّ الحكام في مركز الدولة العثمانية أو في مناطقها المختلفة كانوا يجتهدون في تقليل آثار الأوبئة بتخفيف الأعباء الضريبية على السُّكان أوقات القحط والوباء مثل ما تشير المراسلات الرسمية للحكَّام في العهد العثماني، إذ كثيراً ما أُخِّرت الضرائب عن وقتها وعُفي عن بعض ما كان يقع حتّى على أهل الذمة من: جزية، أو ضريبة على الأرض كما تبينه الوثائق المختلفة[1]، فكيف تصرَّف الدَّايات والبايات؟ وهل تفاعلوا حقا مع المجتمع خلال هذه المصائب؟ هل قدموا ما يُشكرون عليه فعلا في مواجهتهم للأزمات المتكررة؟

مِن نافلة الذكر القول أنّ المرحلة التي ندرسها تمتد على مسار مائة وثلاثين سنة وحكم خلالها أكثر من واحد وعشرين داياً وشهِدت الإيالة خلال هذه المرحلة ما يقارب ستة وعشرين وباءً وأكثر مِن عشر مجاعات وأنَّ حصر كلَّ تصرفات الدايات غير مستطاع حاليا، لذا سنحاول أن نضرب أمثلة لتصرفاتهم في مواطن مُختلفة وفي فترات متباينة حتى تكوَّن صورة بيِّنة.

ملامح من التعاملات السلبية مع الأوبئة والغذائية:

تنقل بعض المصادر المحلية والأجنبية أنَّ السُّلطة الحاكمة خلال العهد العثماني لم تقم بواجبها اتجاه السكان بالقدر الكافي خلال المجاعات والأوبئة، وهو ما نقف عليه فعلا في العديد من الأمثلة فمن ذلك مثلا ما حدث سنة

(1) -B.O.A: C.ML. Do: N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.

(١٧٤٠مـ) حين كان الوباء يتربص بالجزائر وقدمت سفينة فرنسية من إحدى الموانئ المصرية وهي مصابة بالوباء، وقد اتصل قبطان السفينة بالقنصل الفرنسي قبل الإرساء بالسفينة وشرح له الأمر لأخذ الاحتياطات الواجب اتخاذها في مثل هذه الحالة، وقد تواصل مسؤولوا القنصلية بالديوان وبالداي من أجل الحصول على المساعدة اللازمة لمنع دخول هذه العدوى إلى المدينة وذلك بإقامة حجر صحي لمن هم على متن السفينة، لكن الداي كان يتعنت ويرد على نائب القنصل بأنّ الطاعون إذا كان مقدرا له الدخول والتفشي في المدينة فالدَّاي لا يهابه ولا يخاف منه، بل وأمر من ساعته بإنزال البضائع الموجودة في السفينة[1] وكأنّه يتعامل مع شيء مادي يمكنه مجابهته، وهذا إنَّما يدل على نقص أو انعدام الثقافة الصِّحية التي كانت تتوفر في عدد قليل مِن الحكَّام خلال هذه المرحلة، بل نجد مَن تتوفر فيه هذه الخصائص العلمية يفضل أن ينجو بنفسه من مغبة مواجهة الوباء فنجد بعض البايات ينأون بأنفسهم ومَن معهم من الجند من مغبّة التّماس مع غيرهم، أو نجد أنَّ الباي يخرج بمن معه من المحلّة إلى مكان يتربّص به ريثما تهدأ الأمور، وهو ما قام به العديد من البايات مثل: باي الغرب الجزائري (محمد عثمان بن الكبير) في الوباء الذي ضرب بيلك الغرب الجزائري وسُمِّي باسم عائلته سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ) إذ ابتعد عن المدينة وخرج بأهله وحاشيته إلى أحواز وهران وظل هناك حوالي ثلاثة أشهر كاملة[2]، وإن كان نفس هذا الباي قد قام بما

(1) - Jean Marchika:op.cit., P79.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P196.

يشفع له لاحقا على عكس البقية ممن لعِب دور المُتفرِّج في الأزمات الغذائية مثلا، بل ولم تسمح للسُّكان بالاقتراض مِن مخازن القمح الخاصة بها؛ فينقل العنتري خلال المجاعة التي مسَّت قسنطينة سنة (١٨٠٤مـ) من تقصير الباي عبد الله باي ما نصُّه: «..ولم يبلغ عنه إنَّه فتح مخازن البيلك مثلاً وتصدَّق منها على الضعفاء بشيء مِن الحبوب أو عاملهم بسلَفٍ مِن مال الخزينة على ما أصابهم.»[١] كما يذكر في موضع آخر أنَّ السُّلطة في تلك المجاعة التي ألمت بالبلاد لم يظهر منها عناية كافية بشؤون الناس بهدف التَّخفيف من شدَّة المجاعة وحصر مجال الأوبئة وفي هذا الشأن يقول: «..وأمّا جانب المخزن في تلك المجاعة فلم تظهر منه إعانة كافية لعامة الضعفاء..»[٢]، غير إنَّه لا يمكننا أنْ نلوم السُّلطة حينذاك على تصرفها لأسباب مختلفة منها ما ذكره العنتري بنفسه؛ فخزائن القمح التابعة للبايلك هي أيضا لم تَسلَم مِن النَّقص خلال تلك المرحلة ؛ بسبب إخراج المُؤن إلى المحلَّة التي كانت في مواجهات مباشرة مع الثائرين الذي يقودهم ابن الأحرش، الأمر الذي نجده في كتاب العنتري نفسه وهو يرويه على لسان أهالي قسنطينة قائلا: «..بعض النَّاس يذكر أنَّ السبب في عدم معاملته (يقصد الباي عبد الله) للنَّاس مِن الخزينة فراغها بالصَّرف في الفتن التي صادفت تلك المجاعة المُتقدَّمِ ذِكرُها..»[٣] فحددَّ لنا أهالي قسنطينة أنَّ مِن الأسباب التي حملت حاكم قسنطينة الباي «عبد الله»

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) – المصدر نفسه: ص ٤١.

(٣) – المصدر نفسه: ص ٤٢.

في المجاعة التي شهدتها قسنطينة خلال سنوات(١٨٠٣مـ-١٨٠٧مـ) على عدم فتح خزائن الحبوب لمساعدة السكان على تجاوز الأزمة أنَّ هذه الخزائن نفسها كانت تعاني نفس النُّقص والعجز، وبالأخصِّ عندما تقترن هذه المجاعات بفترة ثورة ما كما حدث فِعلاً سنة (١٨٠٤مـ) فقد تزامنت المجاعة التي ألمت ببيلك قسنطينة مع ثورة ابن الأحرش في الشَّرق الجزائري[١].

كما رفضت العديد من القبائل دفع الضرائب الواجبة عليها؛ بسبب الفاقة التي لحقتها نتيجة المجاعات أو الأوبئة، وهو ما نقف عليه فعلا في فترة حكم «محمَّد بن حسن داي» (١١٣٠هـ/ ١٧١٨م)[٢] في حين إنَّه مرَّ بنا أنَّ حُكَّام الدَّولة العثمانية كانوا يسمحون ليس بإسقاط الضرائب فقط وإنَّما حتَّى بإسقاط الجزية عن أهل الذِمّة[٣] وهو ما سنراه فيما هو قادم.

لا يعني ممَّا تمَّ سرده آنفا بين دفتي هذا المبحث أنَّنا قرَّرنا أنَّ السُّلطة الحاكمة في الجزائر كانت مُهملة تماما إلى درجة إنَّها لم تقم بشيء تُحمد عليه، فهل قامت فعلا بأي شيء يستحق منا أن ننوِّه به هنا أو نتكلَّم عنه فيما سنستعرضه؟ كيف كان آثار ما قامت به على السُّكان وعلى وجودها هي أيضا؟ هل يمكن لما سنذكره ممَّا قامت به أن يُغطي على الأخطاء والاستهتار السالف ذكره؟

---

(1) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P371.

(2) -H.-DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P278.

(3) -B.O.A: C.ML. Do: N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.

مِن أجل أن تقلِّل مِن حجم الآثار الكبير الذي كانت تخلِّفه الأوبئة والغذائية نجد السلطة تقوم بمجموعة مِن الأعمال الإيجابية التي تُحسب لها، ويتجلَّى الأمر أساسا في سعيها للتَّخفيف مِن شدَّة أزمات الجوع بأن قامت بإعفاء القبائل التي يلحق بمحاصيلها ضرر ناتج عن غزو الجراد أو نتيجة الجفاف مِن دفع ما هو واجب عليهم مِن ضريبة إلى السُّلطة الحاكمة[١]، كما قام عدد مِن البايات بخطوات مِن أجل مساعدة النَّاس على تجاوز أزمة نقص التموين أو انتشار الأمراض، فنجد مثلاً الباي «محمَّد الكبير» مِن أجل تخفيف وطأة المجاعة التي أصابت البلاد في سنة (١١٩٩هـ/ ١٧٨٥مـ) يقوم باشتراء القمح مِن بعض الدول الأوروبية كإسبانيا وبيعه للأهالي بنفس السِّعر، أو كان يقوم بتوزيعه على الفقراء مجانا إضافة إلى تأجيل الضرائب المفروضة على القبائل كالعشور وغيرها إلى أزمنة أخرى[٢]، وقد ثبت فعلا إنَّه كثيرا ما كان يفتح مطبخ القصر مِن أجل إطعام الفقراء والمحتاجين بل ويقوم بتعين مَن مِن شأنه المساعدة على حفظ وتوزيع الغذاء على النَّاس مثل ما يورده صاحب مخطوط «نبذة يسيرة مِن سيرة الباي محمّد فاتح ثغر وهران» فيقول: «...غير إنَّه في ابتداء ولايته وقع القحط الشديد في إقليم الجزائر خاصة بعمالته هذا ولما كان ادخر حبوبا كثيرة أخرجها إلى الأسواق عندما غلت الأسعار فانحطت وقتئذ ولولا ذلك لهلك الكثير ومما كان يعد من فضله فتح مطعمه لضعفاء أم العساكر وكان يكسي العراة ويخلصهم من مصيبة البرد

(١) - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤٢.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

الشديد...»[1] وقد ساعد هذا الأمر فعلا في التقليل مِن شدة المجاعة، إلاّ أنّه لم يقض بشكل مباشر عليها، إذ لم تكن تلك الكميات كافية للقضاء على تبعات ما اشتُهر عليه بـــ(عام الشَّر) حينها.

كما راعت السُّلطة الحاكمة حالة القبائل خلال النكبات والأزمات الغذائية؛ فأعرضت عن أخذ الضريبة المفروضة على القبائل في السَّنوات العجاف وهو ما نجده في تصرف محمّد باي الكبير سنة (١١٩٩هـ/ ١٧٨٥مـ)[2] أو نجد التساهل في التعامل مع القبائل التي تعرف مجاعة أو جفافا أو زحف جرادٍ أوقات الأزمات تعرف تأجيل أو انتظار تحصيل الضرائب إلى أزمنة أخرى بتأخيرها منتظرةً تحسُّن الوضع مثل ما كان يعتمد في جل مناطق الدولة العثمانية في أوقات القحط والوباء والغلاء[3]، وهو الأمر الذي قام به «عبد الله باي» حاكم قسنطينة بعد القحط والفتن التي عرفتها قسنطينة سنوات (١٨٠٣مـ) (١٨٠٤مـ) (١٨٠٥مـ) إذ يروى عن «عبد الله باي» قسنطينة إنَّه قام في المجاعة التي ألمّت بقسنطينة سنة (١٢١٨هـ-١٨٠٣مـ) مثلا بحثِّ أهل البادية على مساعدة سُكَّان المدينة بإدخال منتوجاتهم مِن القمح إلى السُّوق، وبعث برسائل إلى وجهاء القبائل يحثُّهم فيها على السعي في هذا المعروف، ويحفزهم على دفع ما لديهم من فائض للسوق حتَّى يرفعوا ما بإخوتهم مِن ضرّ سببه القحط، وسأل أرباب الخزائن والمزارعين أنْ يُمدُّوا السُّوق

---

(١) - مؤلف مجهول: نبذة يسيرة في سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم (٥٠٢٢) ورقة[٢].

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

(3) -B.O.A: C.ML. Do: N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.

بما يزيد عن حاجتهم الخاصة، بل وقام بإرسال مَن ينظِّم سوق الحبوب ويكفل لكلّ شخص أن يأخذ ما يسدُّ به رمقه هو أهل بيته دونما إسراف، ويدفع للمزارع حقه دونما بخس، فكان لهذا التَّخطيط مِن الباي «عبد الله» ودعواته الآثار الطيب على السُّوق إذ بدأ استجلاب القمح مِن أماكن عِدَّة ونهض أهل المناطق المحاذية مثل أهل ريغة وأهل فرجيوة وتجنَّدُوا لإمدادها بما تحتاجه مِن مؤونة حتى ارتفع البلاء وعمّ الرخاء[1] كما قام بإسقاط الضريبة تلك السنة على الأهالي بسبب سوء أحوالهم. وصار ما قام به «عبد الله باي» في قسنطينة بمثابة العرف لدى الحكومات المتعاقبة[2]. وهنا لا بد أن نورد ما استدركه «العنتري» على ما قام به «الباي عبد الله» إذ لم يكن هذا الإعفاء الذي سنه «الباي عبد الله» وبعض الدَّايات إلاَّ إعفاءً ظرفيا وليس تاما مثل ما قد يُفهم، لذا في الحقيقة يمكننا أن نتحدَّث عن عملية تَحيين فقط إلى غاية تحسُّن الأوضاع العامة واستحصال الضريبة المستحقة مرَّة أخرى، وهو ما كانت تقوم به السُّلطة المركزية العثمانية كما تؤكده العديد مِن الوثائق الأرشيفية إذ تقوم بتحيين الضرائب إلى غاية تحسن الأوضاع العامة[3]. وهذا الأمر لا ينتقص مِن كون الفعل إيجابياً وإجراءًا كان ضروريا؛ إذ أنّه يخفف على القبائل شدَّة هذه الأزمة لا محالة.

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤١.

(٢) – المصدر نفسه: ص ٤٢.

(3) -B.O.A: AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°11393. Tarih 1142.M.02, Belg 01.

مثل ما يذكر الزّهار قيام «عمر باشا» بعد المرحلة التي تم ذكرها آنفا وبالتَّحديد أثناء القحط الذي أصاب البلاد سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٤مـ) بتوزيع القمح على جميع الخبازين وتثبت سعره مثل ما كان قبيل القحط وأمر جميع الخبازين بأن لا يرفعوا سعره وأن يقوموا بعمل ما يجب حتَّى يوفروا للسكان ما يحتاجونه[١].

إضافة إلى ما مضى قامت السُّلطة الحاكمة في بعض الأحيان وبشكل رسمي بسنّ مجموعة مِن التَّشريعات والقوانين الوقتية أو الجزئية غرضها المساعدة على تجاوز الأزمات الراهنة، والتي يُذكر مِن بينها ما قام به «الداي عمر» في التاسع من شهر جويلية سنة (١٢٢٧هـ/ ١٨١٥مـ) بفرضه قانونا يُجبر الجميع سواء كانوا عربا أو يهودا بأن يقوموا بالقضاء الفوري على أي تجمعات يرونها لليرقات وأن لا يعطوا لها أي فرصة للتّحول إلى جراد[٢]، في حين فُرض قانون آخر يقضي بمنع تصدير الإنتاج الفلاحي خاصة من الحبوب مِن الجزائر إلى أوروبا إلاَّ بإذن خاص[٣]، كما أُمِر بتقسيم الخبز الذي كان يُحضَّر في الأفران العمومية والخاصة بين السُّكان، وعهدت لفرق عسكرية بحراسة هذه الأفران[٤] خوفا مِن الاضطراب أو الفوضى التي قد يشهدها بيع الخبز. مثل ما قامت الحكومة أيضا في الكثير مِن الأحيان بهدف تقليل وطأة المجاعات التي مسَّت البلاد بالاستعانة بالاستيراد مِن

(١) – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١٤٥.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P371.

(3) -William Shaler: op.cit., P101.

(٤) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤٢.

الدُّول الأجنبية، فقامت السُّلطة الحاكمة سنة (١٨١٩ مـ) باستيراد ما يقارب خمسين ألف مِكيال مِن القمح[١].

فإن تحقق بالفعل ما سبق كنا جدراء بالقول أن فهم السلطة العثمانية للإجراءات الاحترازية والوقائية كان متأخرا جدا، وما إدراك السُّلطة العثمانية لضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة وما اقتناع بعض الحكام بفعاليتها إلا نظير إلحاح القناصل الأوروبيين لها بضرورة تفعيل بعض الإجراءات لحماية نفسها من هجمات الأوبئة والأزمات الغذائية، والجهة الأوروبية هي التي حملت السلطة العثمانية الحاكمة في إيالة الجزائر على اتباع بعض الإجراءات الاحترازية ضد الأوبئة والمجاعات، لكنها ظلت منكفئة على نفسها غير قادرة على تحقيق الأمان الصحي والغذائي للإيالة. ونجد أنَّ الأوربيون في حد ذاتهم قد تضرَّروا مما كان يحدث في الإيالة مِن أزمات غذائية وصحية، فحدوث الأزمة الغذائية كان يعني شح المواد الغذائية المصدرة باتجاه موانئ مارسيليا وليفورنو وجنوى، وحدوث الأوبئة يعني تقلص التبادلات التجارية مخافة انتقال الأوبئة فمن ذلك تأثر الحركية التجارية بحيث كانت بعض السُّفن الأوروبية تبقى خارج الموانئ ويُرفض استقبالها للاشتباه في إصابتها بأي مرض وبائي ولتجنب نقل الطاعون أو المرض إلى داخل الإيالة[٢].

---

(1) -William Shaler: op.cit., P103.

(2) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P139.

كما كان من الاحترازات المتبعة من السلطة الحاكمة أثناء الأزمات أن تقوم بتعطيل أو إلغاء بعض الحملات العسكرية أو استخلاص الضرائب لكيلا تتفشى الأوبئة بشكل عام، فنقف من الأمثلة على ذلك قيام كل من داي الجزائر وباي بيلك قسنطينة سنة (١١٥٣هـ/ ١٧٤١مـ) -حسب رواية الموفد الفرنسي في الجزائر (Maurepas)- بتوقيف حملة عسكرية غرضها تأديب باي تونس؛ خوفا مِن تفشي الوباء الموجود في تلك المنطقة[1].

وإذا تمَّ الغرض مما سبق مِن الحديث عن السُّلطة السياسية وتبين ما كانت تقوم به أثناء هذه الأزمات يممنا وجهنا شطر الحديث عن المكونات الأخرى للتركيبة الاجتماعية، والتي يمثِّلها في هذا المقام أوَّلاً فئة من رجال المال على قلتهم.

يحكم معظم التَّصرفات والإجراءات التي كانت تقوم بها هذه الفئة -ممن استطعنا الوقوف على أمرهم- تحكمها العاطفة الدينية الإسلامية، إذ أنّ معظم التّصرفات مثل ما صرَّح به أصحابها أو دلَّت عليه أفعالهم وأقوالهم كانت مِن أجل شيء عقدي يؤمنون به، فكانت تصرفات غالبيتهم -بحسب اجتهادهم- غرضها التوسيع على إخوتهم في الدِّين، والتَّوسيع على أنفسهم في دار البقاء. لكن تصرفاتهم على قسمين خاصة بهم ومتعلقة بغيرهم.

فمما قد خص بهم ما نقف عليه في مذكرات الآباء المسيحيين في الجزائر، إذ إنَّه نتيجة لتجدُّد الطَّاعون صيف (١٧٥٢مـ) قام العديد من التّجار داخل المدينة

---

(1) -H.-D. DE Grammont: Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742), P266.

بإغلاق محلاتهم التجارية والتزموا بيوتهم[١]، وهو ما يوحي بأنّ أول شيء كان يفكر فيه هؤلاء التُّجار هو محاولة أن ينأوا بأنفسهم عن خطر انتقال عدوى الوباء أو الطاعون إليهم

فمن هذه التصرفات أن بعض أرباب المال عندما اشتدت وطأة المجاعة على أهل قسنطينة وعزّ عليهم شراء القمح لارتفاع سعره سنة (١٢١٨هـ-١٨٠٣مـ) كان يأتي الرجل من الميسورين إلى سوق الرحبة على هيئة البائع فيجتمع إليه القوم، ويكتل لك فرد منهم ما يحتاج ثمّ إذا فرغ من ذلك وأتى الوقت الذي يدفع فيه الناس ما عليهم من قيمة ما أخذوه نادى فيهم ذلك الرجل الميسور: « يا عباد الله كل مِن أخذ شيئا فهو له خالصا لا آخذ منه ثمنه» وهذا الأمر كثيراً ما قام به أهل البادية والرجال الميسورون خلال تلك المرحلة، والأمر لم يتوقف هنا، فحتّى عابر السبيل إذا قدِم البادية أو المدينة مع ما فيها مِن العُسر تقدّم إليه أهلها مِن الوجهاء وغيرهم مِن البسطاء وقدَّموا له مِن أقواتهم ما يسدُّ به رمقهُ[٢].

وكانت أشهر الطُّرق التي اعتمدها المجتمع في مواجهته في أوقات الشّدائد العودة إلى كل ما هم في المقدس من القران والسنة، واعتقدوا أنَّ هذه العودة هي سبب رفع البلاء؛ وهذا ما نجده مبثوثاً في المخيال الجمعي المفسّر لهذه الأوبئة، فيعتقدون أنّ مردها إلى إرادة إلهية لذا لا يصح الاعتراض عليها، بل يؤدي بهم في بعض الأحيان هذا الاعتقاد إلى الظنّ بأنّ الاستسلام لهذه الأمور هو ممَّا يتوجَّب

---

(1) -Arnoult Bosssu: M.C.M.Tome 3, P227.

(٢) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤٠.

القيام به شرعا، لذا نجد الكتابات والتَّقارير الاستعمارية الفرنسية عند تناولها الظاهرة تتحدث عنها في شكل من الاستغراب[1] في حين أن نفس هذا النمط الانحصاري إلى الجانب الروحاني كان مبثوثا في الثقافات الدينية المختلفة لا في الثقافة الإسلامية وحدها، فنجد أنّ أخذ الاحتياطات في المخيال الجماعي الإسلامي خلال تلك المدّة عُدَّ أمراً منبوذا وهو ما كان يستغربه أوروبيو تلك المرحلة[2]. هذا الأمر هو أحد أهم الأسباب التي حملت «حمدان بن عثمان خوجة» وهو أحد أطياف المجتمع العام من جهة وأحد المتعلمين والمطلعين على الثقافة الغربية من جهة أخرى، يُصنِّف كتابه «إتحاف الأدباء في مباحث الاحتراز من الوبا»

هذا التوجه الروحي والعودة إلى ما هو مُقدّس في الحقيقة لم يكن حالة شاذة في المجتمعات الشرقية بل كان هذا النمط من التفكير سائدا لدى جل الثقافات، فالجميع وفي أديان وثقافات مختلفة كان يعتقد أنّه لا طاقة لهم لمواجهة هذه الأزمات الصحية إلاَّ بالاتجاه إلى الله، لذا نجد هذا السبيل يُسلك بقوة ويطرق برغبة عند ظهور أي نوع من الأوبئة أو المجاعات، والصور على هذا الأمر كثيرة وعديدة، فمنها مثلاً تلك الصورة التي يرسمها «العربي المشرفي» للقارئ في أثناء الطاعون الذي ظهر في جل المناطق في بلاد المغرب بقوله:«...فحينئذ أعلنت النَّاس في هذه المُدَّة بالاستغفار، وتوجَّهت إلى الله توجُّه خشوعٍ واضطرارٍ،

---

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P139.

(2) - Ibid. P139.

وأكثرت التَّصدُّق فيه: بأن بذلوا الطعام للفقراء، والأيتام. ولجأوا إلى المولى بقراءة القرآن، يتنفَّلون به في اليل البهيم والناس نيام، وسُرِدت في سائر المساجد أحاديث البخاري والشِّفا حتّى حصل بإذن الله الشَفا...» [١] ومنه أيضا ما نقف عليه في إحدى أسئلة العوام إلى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية حينها حول مشروعية قراءة الأذان بين المغرب والعشاء لدفع أذى الطَّاعون والوباء في بلدة حلّ بها هذا الوباء[٢].

ولعلَّ مِن أبرز الأمثلة التي يمكنها أن تصوِّر لنا حقيقة هذه التَّصورات في المخيال الجماعي ما نقف عليه في الوباء الذي حلّ بالجزائر سنة (١٧٤٠مـ) والذي تورده المصادر الأرشيفية المختلفة وتتحدَّث عن آثاره الكبير[٣]، والذي كان السبب المباشر فيه هو نوع التفسيرات التي كان فسّر بها داي الجزائر التَّحذيرات التي قدَّمها له نائب القنصل الفرنسي حيال خطر دخول ركاب السّفينة التي تحمل الوباء دون إخضاعها للحجر الصّحي لمدَّة أربعين يوما على الأقل، فنقف في مذكرات الأب «بيير فارو» على الكلام الذي رد به داي الجزائر حينها على نائب القنصل الفرنسي بقوله:»...أستطيع أن أفهم خوفك الكبير وهذا بسبب كونك مسيحيا،...أمَّا أنا فمسلمٌ تركيٌّ لا أخاف مِن الطَّاعون أو ممّا يكون قُدِّر لهذه المدينة، فماذا تريدني أن أفعل مِن أجل هذا الطَّاعون الذي تترقبه؟ إنَّنا أسوأ

---

(١) – العربي المشرفي: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، ص١٩٢.

(2) - B.O.A: HAT. Do: N°1656. Gömlek N°102. Tarih 1222.Za.29. Belg 01.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °266-271. 08 /06/1740.

وأشد مِن الطَّاعون، وإذا كان يجري على شيء فليفعله؛ فإنَّنا بإذن الله لا نخافه، ولا نهابه، ونحن له بالمرصاد في كلِّ حال...»[1] وهذا مما يظهر بجلاء تجذُّر التَّفسير الديني العقدي لظاهرة تفشي الأوبئة، وهي في إحدى جزئياته خاصة المتعلقة بالحكام نوع مِن أنواع الهروب مِن القيام بالإجراءات التي يُفترض القيام بها، وشكلٍ مِن أشكال التَّنصل مِن المسؤولية الملقاة على عاتقهم خلال مرحلة الأزمات الصحية أو الأزمات الغذائية.

كما نقف إضافة على ما مرَّ بنا على أنماط أخرى لمواجهة الوباء منها محاولة الابتعاد عن طريقه، فمن ذلك محاولة التُّجار تقليل خطر الإصابة بالوباء عن طريق إغلاق محلاتهم كما أوردته بعض مذكرات الآباء والرهبان مثل ما مرّ ذِكره[2]، أو يكون الابتعاد عن طريق هذا الوباء بالهجرة مِن المدن الكبرى نحو الأرياف أو المناطق البعيدة عن الزِّحام، كما هو الحال العديد مِن رجال القبائل الذين كانوا يقطنون مدينة الجزائر من أجل العمل، فبمجرد أن يتيقنوا مِن تفشي الوباء في المدينة ينتقلون إلى قراهم الموجودة في الجبال والتي تُعد حصنا ضد الطواعين، وهو ما حدث في العديد من المرات، فنقف عليه كردة فعل لسكان القبائل المختلفة في مدينة الجزائر في وباء سنة (١٨١٧مـ) إذ ينزح مُعظم سكان القبائل واليهود إلى خارج مدينة الجزائر بعد تفشي الوباء حتّى أصبحت خالية مِن

(1) - Pierre Faroux: M.C.M., Tome 3, P31.

(2) - Arnoult Bosssu:M.C.M, Tome 3, P227.

النَّاس[1]، نفس الأمر نقف عليه مع سكان مدينة وهران عندما اجتاح داء الكوليرا المدينة إذ أسرع السكان كرد فعل لتجنبه الاتجاه إلى بعض المدن الأخرى مثل مستغانم ومعسكر وهو ما أدى لاحقا إلى انتشار الوباء بشكل كبير وأدى إلى سقوط ما يقارب ١٤٥٧ ضحية خلال شهر واحد في مدينة معسكر وحدها[2].

وهذا لا يعني أنّ كلّ النَّاس كانت تبقى متفرِّجة على الوباء ولا تُحرك ساكنا إلاّ بعد وقوعه، إذ يتحدّث الأب «بواغي» عن قيام أحد السُّكان باستفساره عن الطُّرق الأمثل لتجنب الوباء، فلمَّا شرح له ذلك، وجد الأب «بواغي» ذلك الشَّخص يقوم فعليا بما أوصاه وقام بكلّ ما مِن شأنه تجنيبه وأهله خطر الإصابة بالوباء والتي غالبا ما تكون قاصرة بسبب أن معظم سكان المدينة لم يكن يلتزم بهذه الإجراءات[3]، على كل حال ما يُهمّنا فيما سبق أنّه توجد عينات لمن كان يسأل ويستفسر عن الاحتياطات الواجب اتباعها في حالة الإصابة أو ظهور الوباء وهو ما يعني ضِمنيا أنَّ الموقف مِن الوباء و التَّعامل معه ضمن الفئة الواحدة كان يختلف وعليه فلا يمكن أن نُصدر حُكما مُطلقا يدخل في ضمنه جميع أفراد الفئة الواحدة، وإن كان الغالب هو ما أشرنا إليه من عدم أخذ الاحتياطات اللازمة والتَّملُّص مِن كلِّ المسؤوليات.

(1) - Jean Marchika:op.cit., P156.

(2) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P10.

(3) - Jean-Louis-Marie Poiret: Lettre N°27,op.cit., P 196.

أمَّا بالنسبة لفئة النَّصارى واليهود داخل الإيالة عند وقوع الأوبئة والغذائية فقد اختلفت إلى حد ما فكانت أشدَّ حيطةً وأبلغ حذراً، إذ نرى العديد مِن الآباء أو الرَّحالة يُشيرون إلى محاولة عدم الاحتكاك مع المرضى أو مع العامة تجنباً لمُسَببَات انتقال المرض إليهم، كما نجدهم يقومون بإلغاء بعض الاحتفالات الدِّينية التي كانت ترعاها الكنيسة خوفا مِن تفشي الوباء، وقد تمَّ فعلا إلغاء عدد مِن الاحتفالات بالمناسبات الدينة في مدينة الجزائر سنة (١٧٤١مـ) خوفا مِن الوباء الذي تفشى في المدينة حينها[1].

الأمر نفسه نقف عليه فيما يورده الأب «بوسو» الذي يشير إلى التَّعليمات التي أُلزِم بها المسيحيون ممّن يشتبه بإصابتهم بالطَّاعون أو الوباء، فتحدَّث عن ضرورة أن يقوم المصاب بالمرض بالأمور الأساسية للعبادة وحده وبعيدا عن الاحتكاك بأي طرف مِن الكنيسة أو عملها لذا فإنَّه يوقد الشُّموع ويتلو الترانيم ويعمل طقوس القداس ويقوم بتغيير ملابسه لوحده دون الاستعانة بغيره بما يضمن على الأقل عدم انتقال المرض في حالة ثبوته من المريض إلى غيره، كما أنه كان يحضر على المريض الدخول مباشرة للاعتراف بذنوبه إلى خلوة الرهبان إلاَّ ومعه من يدق بجرس صغير للدَّلالة على أنَّ الوافد للاعتراف هو شخص مريض، ويحمل الأخير معه إسفنجة تكون مبلولة بالخل مِن أجل التَّعقيم على أن يبقى طيلة فترة الاعتراف بعيدا بمسافة عن الرّاهب تختلف هذه المسافة باختلاف مرحلة المرض وظهور أعراضه على المصاب. بل تورد هذه المصادر أنَّ المصاب كان مُضطراً قبل دخوله

(1) - Poirier Dubourg: M.C.M. T3, P109.

الكنيسة إن سُمح له بذلك أن يغسل وجهه وكفيه بالخل[1].

وهو ما يحملنا على القول أن بعض الإجراءات المتخذة من قبل السلطة السياسية في صورة الدايات والبابات وبعض الإجراءات المعتمدة من رجال الدين الرهبان والأحبار كانت في غالبها لديها الحد الأدنى من بعد النظر في عملية انتقال وتفشي الأمراض أو بنت مجموعة من الفرضيات التي تحكم تنقل الأوبئة والأمراض أما الطبقة العامة من الشعب فلم تكن كلها بنفس مستوى «حمدان خوجة» العلمي ما لم يتح لها حماية نفسها من أعراض تفشي الأوبئة، وهو ما جعل العديد من الأوبئة تجد في سكان الإيالة الحاضنة الممتاز للأوبئة وانتشارها. وعليه فإن أصل هذه الأمور يكمن في البنية الذهنية داخل المجتمع في حد ذاته، فحتى لو افترضنا أنَّ السلطة ظلت مقصرة في واجباتها الأساسية لمنع تفشي وانتقال الأوبئة فإن المجتمع بدوره وذهنته أسهمت في بقاء الأوبئة وتفشيها. وعليه فكل من السلطة الحاكمة بتعنتها وسكان الإيالة بجهلهم التدابير الأساسية أسهمت في سوء الأوضاع خلال الأوبئة والأزمات الصحية عامة.

٣. تفسيرات العلماء لظاهرة الوباء:

تباينت تفسيرات بين الفئات المختلفة داخل مجتمع إيالة الجزائر لسبب تفشي الأوبئة وشحُّ الأمطار كلّ بحسب اتجاهه وثقافته، فنجد أنّ العلماء مثلا: كانوا يمثلون شريحة كبيرة تنظر إلى ورود المجاعات وانتشار الأوبئة نظرة دينية

(1) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P233.

وليدة البيئة والمحيط الذين يعيشون فيهما، إذ نجدهم يفسرون الظاهرتين تفسيرات دينية ليست وليدة اجتهاداتهم الخاصة وإنَّما يمكن القول إنَّها نتيجة الموروث التراثي الذي ورثه هؤلاء العلماء والنشأة الدينية للمجتمع.

ويتأتى التَّفسير الديني في صورة عقاب إلاهي للمجتمع بسبب الابتعاد عن تعاليم الدين في طليعة هذه التبريرات، وهذه النَّظرة في حقيقتها ترجع إلى قرون سابقة للوجود الإسلامي ككل، إذ نجد لها آثاراً في الفكر اليوناني والرُّوماني القديم، فتفسَّر هذه الأزمات مرَّة على أنّها صنيعة السَّحرة[١]، ومرة أخرى على إنَّها تجليات لغضب الآلهة كما هو الحال في حالة وباء الجدري الذي ضرب أثينا سنة (٤٢٩ق.م) وصاحبه زلزال مُدمّر[٢]، ثمّ نقف على الاتجاه الثيولوجي في تفسيرات الأوبئة والمجاعات بنفس النَّمط تقريبا لدى كل شعوب وحضارات العالم فنقف عليها في حضارة الشَّرق الأقصى في صورة الإله (كالت) عند الهنود والذي نُسبت له معظم الأزمات باعتباره يمثل الغضب والسَّخط[٣]، وتوجد بعض الثقافات اعتبرت الطَّاعون والمجاعة والقحط ما هي إلاَّ لعنات مِن اللَّعنات التي ترمي بها النجوم أو الكواكب على سكان الأرض بسبب معاصيهم[٤].

(1) - A.N.M: Anné1843, P1048.

(2) - Boucher Hubert: op.cit, P11.

(3) - Onetti: le choléra morbus asiatique, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888, P05.

(4) - Crouzet Stanislas: op.cit., P01.

كما نجد لهذا الفكر امتدادا دينيا احتوته التَّفسيرات عند أصحاب الكتب السماوية سواء منهم أحبار اليهود أو رُهبان النّصارى، وقد حادت بعض الشَّيء السلُّوكيات التفسيرية التي صاحبة ظهور الأزمات الغذائية والصحية عند هؤلاء القوم، وإن كانت في محصّلتها لا تعمل على أكثر مِن تثبيت هذا الفهم وجعله نوعا من أنواع الاستسلام اللاشعوري لدى الفئات المغلوبة على أمرها لهذه الأزمات، ولعلَّ هذا ما يبِّرر اعتبار الطّاعون في الكثير مِن الحالات شكلاً مِن أشكال العقاب الإلهي للعاصين، وأداة غضب إلهي ضد المعتدين، بل صُوِّر في صورة الشَّرير الذي يقضي على العصاة نتيجة أعمالهم[1].

فمِن التَّفسيرات التي صاحبت ظهور الأوبئة اعتقد الكثير من العلماء وأفراد المجتمع أنّ سبب الأوبئة والطَّواعين هي كثرة ذنوب العباد والآثام والمعاصي فنجد المشرفي يتبرَّأ لله مما اجترحه المجتمع مِن الخطايا والذنوب حتى يرفع الله عليهم هذا البلاء بقوله: «..ونستغفرك من آثام ارتكبناها فجرت إلينا الطعن والطَّاعون، ومن أجلها ارتفعت البركة في الأعمار والأمطار والأسعار... »[2] وهو في هذا لا يختلف كثيرا عن التفسيرات التي كان يفسر بها مؤرخو المغرب الأقصى عودة الأوبئة والمجاعات كل حين وفي هذا يقول «محمّد الضعيف» مثلا: «...وكل هذا من كثرة المناكر وما ظهر مِن الفُحشى مع قلة الأحكام فما أهون

(1) - Boucher Hubert: op.cit., P11.

(٢) – العربي المشرفي: المرجع السابق، ص١٧٥.

الخلق على خالقه إن خالفوا أمره ونهيه..»[1] وحتى الجفاف اعتبروه كالوباء عقابا إلاهيا مُسلَّطاً عليهم بما اقترفته أيديهم مِن الآثام، وطبعا هذا التفسير قطعي أتت به الآيات والأحاديث المختلفة، ويكاد ينعقد عليه الإجماع بين العلماء المسلمين، وهذا ما يُفسّر محاولات تصحيح الأمر وتداركه بالتوبة والإنابة.

علاوة على ما سبق ابتدَعت المجتمعات الإسلامية عامة أساليب مختلفة لمحاولة التَّملص مِن الأوبئة والأزمات الغذائية عن طريق حِلق الذِّكر الجماعية وقراءة كُتبٍ بعينها وهي أولى الآليات التي طبقتها المجتمعات الإسلامية حينها؛ فيذكر «البسطيمي» ما كان مُنتشراً في زمانه مِن قراءة بعض أمهات الكتب الإسلامية لرفع الوباء والشدائد قائلا: «...فالشَّافعية يتبرَّكون بقراءة «التنبيه» في أيام الوباء وهو كتابٌ مباركٌ...والمالكية يتبرَّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة «الموطأ»...و"الحنابلة» يتبرَّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة «الخرقي» لأبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي، وجماعة مِن العلماء يتبركون في أيام الطَّاعون بقراءة «الشِّفا» للقاضي عياض...والصوفية يتبركون بقراءة كتاب «قوت القلوب» لشيخ العارفين أبي طالب المكي...وجمهور العلماء في أيام الوباء والطَّاعون وغير ذلك من الآفات السماوية يتبركون بقراءة كتاب «البخاري» فإنَّه الجِنَّة الواقية في آفات الشَّدائد...ومِن العلماء مَن يتبرَّكون بكتاب «مسلم» وهو كتاب جليل الشَّأن باهر البرهان...»[2] وهو ما فُسر بكونه نتيجة عجز وافتقار المسلمين لوسائل مواجهة

(١) – محمد الأمين بزاز: المرجع السابق، ص٦٧.

(٢) – عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: المرجع السابق، [و/ ١٩].

الطبيعة[١].

ونفس الأمر نجده لدى أهالي الديانات الأخرى أثناء هذه الأزمات، فيذكر أنّ أحبار اليهود خلال إحدى الأوبئة التي ألمت بإيالة الجزائر يعللون لأصحاب الديانة اليهودية ذلك بسبب المعاصي والآثام التي يقترفونها، بل وفي بعض الأحيان يتحملون آثار هذه التفسيرات إذ نجد على سبيل المثال في سنوات (١٧٤١مـ) (١٧١٨مـ) (١٧٨٥مـ) وهو ما يستجلي أيضا في عدد من الأوبئة كان من أكبر ضحاياها اليهود[٢]، وقد حصل أن اتفق الأحبار اليهود مع العلماء والفقهاء المسلمين ضد أبناء دينهم بحكم أنّهم عصاة لله ويجب عليهم أن يدفعوا ثمن معصيتهم. وتؤكد التفسيرات التي لدى أحبار الديانة اليهودية على ذلك.

مثل ما أنّ المسيحيون يفسرون مآلات الأمر إلى عدم الالتزام بالأوامر المسيحية، الأمر الذي نجم عنه سخط الله وغضبه فعاقب سكان مدينة الجزائر بهذه الآفات، ولعل هذا ما نقف عليه في أكثر من تفسير، فمن ذلك نجد مثلا اعتبار وباء الجدري إرادة إلاهية خالصة سببها الرئيس هو المعاصي[٣]، كما أنَّ الرهبان في حديثهم للمصابين بالطَّاعون يطالبونهم بالتوبة والإنابة والعودة إلى الله وهو ما نصَّ عليه الأب (*Arnoult Bossu*) عندما أشار إلى الرسالة التي أرسلها الرُّهبان للرعايا الأوروبيين مِن أجل الوقاية مِن الوباء[٤]، ومِن ذلك أيضا أَنهم كانوا يدعون

(١) – رزونبرجي وحميد التركي: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(2) -Gazette de France :1787, N° 67. P331.

(3) - Delvaille Camille: op.cit., P2.

(4) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P231.

المرضى والأصحاء إلى العودة إلى الصلوات وعدم الركون للحياة، بل كثيرا ما كان الرُّهبان يتجَّهون إلى الدَّعوة إلى الصلوات العامة في الكنيسة حتَّى يستجيب الله لهم ويرفع عنهم البلاء[1].

والأمر لم يختلف كثيرا لدى المجتمع الجزائري وعلمائه خلال العهد العثماني، وإن كان أوجه التفسير تختلف بين العلماء والفقهاء من جهة والعامة مِن النَّاس من جهة ثانية؛ إذ نجد أنّ العلماء يسلّمون بأنّ الوباء والمجاعات كلها تقديرٌ إلاهي، ويرجعون في ذلك إلى الآثار التي تؤكد على ذلك، وبالأخصّ ما نقف عليه في اعتراض «أبي عبيدة بن الجراح» على «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنهما- في شأن عدم دخول الشام؛ لوباء فشى فيها، بقول «أبي عبيدة بن الجراح": أَفِرارٌ مِن قدر الله**!**» فقال عمر -رادا هذا الاعتراض-:«لو غيرُك قالها يا أبا عبيدةَ، نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله» والآثار أورده البخاري في صحيحه[2]. وهذا الآثار وإن كان يقرر بأن هذه الأوبئة قدر من الله لكنه لم يستسلم لها كما نجد العوام تفعل، وإنَّما إقراره لها إيمانٌ بالله وسعيه في الابتعاد عنها وتجنبها أيضا كان يرى فيه إتماما لقدر الله، وسعيا في طاعة رسول الله ﷺ، إذ نقف في حديث آخر في نفس الباب من صحيح البخاري حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**»[3].

---

(1) -Ibid. P231.

(٢) - من حديث في صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم:٥٧٢٩.

(٣) - صحيح، أخرجه البخاري، كتاب الطب، ما يذكر في الطاعون، حديث رقم ٥٧١٩.

أمَّا العوام فنجد بأنّ لهم العديد مِن التَّفسيرات السطحية والتي تتشابك بشكل وطيد مع الخرافات والتأويلات اللامنطقية؛ فيصبح بها انتشار الأوبئة وحدوث المجاعات مُستند على التّعليل الميتافيزيقي أو التفسير الثيولوجي القار في المخيال الجمعي لدى النّاس[1]، فمن ذلك أن نجدهم يفسرون الوباء أو القحط بتولي عائلة ما للشَّأن عام في الدولة، وهو ما نستنطقه مِن شهادة «ابن المفتي» في تقيداته إذ يذكر انتشار اعتقاد بين سكان مدينة الجزائر مفاده أنَّ تولية غير ذرية سيدي السَّعيد قدورة خِطَّة الفتوى قد يجلب البلاء والوباء والقحط للبلاد فيقول: «..وهذا الحاج السّعيد كان مِن أَبْلد مخلوقات الله تعالى، ولم يكن يفرِّق بين صياح الدِّيك وثغاء الخروف، وكان خبيثا، وصل إلى هذه الخطة بكره ونفور، وجاءت توليته بسبب أنَّ أهل المدينة يُجِلُّون آباءه وأسلافه ويستبشرون بهذه العائلة، وكانوا يعتقدون بل حتَّى يتيقَّنُون أنَّ البركة تلتصق حتَّى بالأبناء في سِنِّ الحداثة، وكثير مِن محاورتنا معهم في هذا المعنى، وهو:(أنَّ المدينة ما لم يتولَّ فيها مُفْتٍ ينتسب لذرية سيدي السَّعيد فإنَّه سينهال عليها وابلٌ مِن البؤس كغلاء الأسعار والزلزلة والصَّاعقة وأشياء أخرى)[2] وهذا ما أدى إلى تولية الفتوى والقضاء إلى أفراد من هذه العائلة ممن ليس أهلا لها.

---

(1) - Boucher Hubert: op.cit., P11.

(٢)- حسين بن رجب شاوش ابن المفتي: تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٩، ط١، ص١٠٧

وبهذا يظهر أنّ الفقهاء ومع اختلاف معتقداتهم يتفقون إلى حد ما حول مركزية القضاء فيما حل بالمجتمع مِن أزمات، لذا بقيت عقيدة أنَّ الله هو مَن كتب عليهم هذا العقاب وعليه يجب الرِّضا به[1]، ويرون الحلَّ يبدأ مِن العودة إلى الله، لكن الجزئية التي يختلفون حولها هي إلى أين ينتهي الحل، فإن اتَّفق أنَّ له جزء رئيسي ليرفع البلاء ممثلا مثل ما رأينا في التوبة والاستغفار، فإنَّ رجال الديانات الثلاث اختلفوا فيما دون ذلك من وجوب الاحتراز والتداوي والفرار من الوباء. وهو ما نقف على تمثلاتها في العالم الإسلامي بشكل جلي بداية من الربع الأول من القرن التاسع عشر، إذ انقسم الفقهاء حول مشروعية اتخاذ تدابير لمواجهة الوبا كتلك التي في أوروبا، ولعل هذا الأمر يظهر بجلاء في المناقشات الفقهية التي كانت في تونس مثلا سنة ١٨١٨مـ بين العلماء فيمن يرى ضرورة الأخذ بالاحتياطات لمواجهة الوباء كالشيخ «أبي عبد الله محمد بن محمَّد بن محمَّد بيرم» وأنه ممَّا يشرِّعه الدِّين واجتهادات السلف، وبين مَن يرى ضرورة التسليم لمجاري القدر كالشيخ «أبي عبد الله محمَّد بن سليمان المناعي»[2]، وقد ذكرنا تأليف الشيخ بيرم الثاني رسالة سمَّاها «حسن النبأ» كما تقدَّم ذلك[3]، فيما ألف الشيخ «سليمان المناعي» رسالة في الرد على من يرى التشبث في التحرز والكرنتينة. وقد سار حمدان ابن عثمان خوجة نفس المسار الذي سلكه الشيخ «بيرم الثاني» عندما كتب رسالته

---

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P139.

(٢) – أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان، ج٣، ص١٢٨.

(٣) – انظر ما كنا قد كتبناه عن الكتابات التاريخية حول الأوبئة في التراث الإسلامي في المدخل.

«إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء» وإن كان لم يذكر رسالة الشيخ «بيرم الثاني» في هذا الموضوع، بل شنَّع على مَن يرى بإنَّه لا يجوز التَّحرز مِن الطَّاعون والوباء[١]، ودعا السلطة العثمانية بعد وصوله لإسطنبول لإعمال «نظام الكرونتينه» لإنَّه السبيل الأنجع لمواجهة الأوبئة[٢]، بل وحلى رسالته بتزكيات عديدة مِن علماء عصره في شأن صحة ما ذهب إليه ودلَّ عليه.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب، أنّ كُلاً مِن الشيخ «سليمان المناعي» والشيخ «حمدان بن عثمان خوجه» كانا قد صنفا رسالتيهما وفق ما تراه السلطة السياسية الحاكمة في كل قطر من القطرين، فرسالة الشيخ «المناعي» جاءت كاستجابة لأمر من حاكم إيالة تونس «حسين باي» سنة (١٨١٨مـ) بسبب تبني الحاكم في تونس خلال تلك المدة للرأي القائل بعدم التحرز والفرار مِن الوباء مهما كان آثاره[٣]، فيما كانت السلطة العثمانية خلال المرحلة التي كتب فيها حمدان خوجه تحت حكم السلطان محمود الثاني الذي كان بدوره مُتأثراً بالتنظيمات التي كانت تحدث في أوروبا، وكان يحتاج إلى علماء متنورين لهم القدرة على شرعنة بعض الأحكام والتنظيمات الجديدة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر فكرة «الحجر الصحي» التي كانت تجابه بالرفض من طرف بعض العقول الفقهية.

---

(1) -Birsen Bulmuş; Plague, Quarantines and Geopolitics in the Ottoman Empire, P 99.

(2) Ibid. P97.

(٣) – حسين بوجرة: الطاعون وبدع الطاعون، ص٢٠٧.

فإن تقرَّر ما سلف وجب علينا القول بأنّ الاختلاف الذي كان في مستويات التفسير لا يعني بأي حال بطلان إحدى طرفيها بشكل عام، فتواجد التفسيرات الدينية من حيث أصلها لا تتعارض مع التفسيرات التي نقف عليها اليوم بشكل علمي، وقد تبيين لنا بعد استعراض التفسيرات المختلفة في الثقافات المتباينة إنَّه توجد علاقة وثيقة بين البنية الدينية للمجتمعات المختلفة وتفسيراتها للأزمات العرضية مع اختلاف في درجة التعابير الذهنية المعبرة بها عن حالات الاستسلام والانقياد لما يفرضه الأمر الواقع آنئذ.

الفصل الخامس:
انعكاسات الأوبئة على أوضاع الجزائر العثمانية

- أولا: التأثيرات الاقتصادية للأوبئة على الحياة العامة.
- ثانيا: الانكماش الديمغرافي لساكنة الجزائر العثمانية.
- ثالثا: التغيرات والتأثيرات الاجتماعية.

١. التأثيرات الاقتصادية للأوبئة على الحياة العامة:

تعدَّدت النتائج المترتبة على ظهور المجاعات وانتشار الأوبئة، فكانت سمة أساسية لرسم الحياة الاقتصادية داخل مجتمع الإيالة الجزائرية خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة (١٧٠٠-١٨٣٠)، واختلفت التأثيرات الاقتصادية للمجاعات والأوبئة باختلاف الكثافة السكانية للمنطقة الموبوءة والمرحلة الزمنية التي استقرت المجاعة أو الوباء بها، وهذا ما سنجد تأثيراته مجسَّدة في أمثلة كثيرة وفي مواطن مختلفة.

واعتقد أنّه لا يوجد وصف سيستوعب ما سنتحدَّث عنه مثل ذلك الوصف الذي أورده «حمدان بن عثمان خوجة» في مصنَّفِه إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز مِن الوباء عند قوله: «..فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحسنة، فأقفرَّت معالم البلاد وتشوشت أحوال العباد واضمحل العلم وذووا الاستعداد، وانقرض مِن العساكر مَن كان عدة في العمران والفلوات، وخلف جميعهم بعد العناء والتعب خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات..»[1]

قد يتعجَّب المُطَّلع على هذا المبحث حديثنا عن أي جانب إيجابي للطَّاعون على الحياة والأهالي، وإن وجد كيف له أن يكون إيجابيا بالفعل؟

نعم يمكن عد بعض ما ترتَّب عن الطَّاعون بالنسبة للأهالي خاصة منهم مَن كانوا في حالة عوز شديد شكلاً مِن أشكال الربح العاجل أو شكلاً مِن أشكال

---

(١) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص٤.

إدخال الأموال، إذ نقف على وثيقة في غاية الأهمية صادرة عن الشَّركة الإفريقية الفرنسية في مدينة القالة، تُقدِّم هذه الوثائق نوعا مِن المعطيات والتَّفاصيل عن الأموال المصروفة على حالة مرضية لأحد الفرنسيين الذين سقطوا نتيجة وباء سنة (١٨١٨م).

القيمة بالريال	المهمة
النقل	٤
استضافة المريض	٧٢
لباس	٦
الأكل	١٢
التطبيب	٦
حمل الجثة إلى المقبرة	٤٨
حفر القبر	٢٤
مصاريف الخدمات في البيت	١٢
المجموع	**١٨٤**

جدول مصاريف الخاصة بالسيد فرنسوا أدول المتوفي بالطاعون بتاريخ (٠٤/ ٠٢/ ١٨١٨م)

المصدر: وثيقة أرشيفية ضمن وثائق الشركة الإفريقية[1]

(1) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P235.

بحيث يلاحظ قيمة الأموال التي يجنيها السُّكان نتيجة الأعمال التي يقومون بها، خاصة أحد اليهود الذي قبل استضافة هذه الحالة المرضية فاستفاد مِن (٧٢ريال) مثل ما نجد استفادة الأربع أشخاص الذين يحملون الجثة للدفن من (٤٨ ريال) واستفادة من يحفر القبر مِن قيمة معتبرة تقدر بـ(٢٤ ريال) ولعل هذا يميل بنا إلى بعض الاستنتاجات المركزية في موضوع هذا البحث، إذ نجد إنَّه ومع الخطر المعتبر لتبعات هذه الأعمال على من يحتك بالمريض فإن ذلك لم يثن السكان خاصة منهم اليهود عن هذا العمل(١) والاستفادة المالية، نفس الأمر نجده عند أولئك الذين يغامرون بحياتهم نظير (٤٨ ريال) من أجل إيصال الجثة إلى المقبرة، وهذه القِيم تفيدنا أيضا في استجلاء الأمور التي كان يهابها النَّاس عند وقوع الطَّاعون، إذ تظهر أعلى قيمة أنها لمن يستضيف المريض في بيته ويرعاه خلال أيام مرضه، وهذا يدل على إنَّه لم يكن مِن السهل إيجاد مَن يقوم بهذه المهمة، وإلاَّ إن وجد من يقوم بهذا الأمر قلَّ سِعرها لا محالة، كما يمكننا أن نستقرأ مِن خلال هذه الوثيقة أمرين مهمين أحدهما صحيح في الغالب وهما:

أولا: أنّ النصارى (الشركة الإفريقية الفرنسية) كانوا يفضلون التعامل مع اليهود في هكذا مهام -في كل ما تعلّق بالطاعون- لأنّهم يكونون أقلّ عرضة للوباء من المسلمين.

ثانيا: أنّ المسلمين في هكذا حالات يمكن أنهم كانوا يرون أنه ليس من الحكمة أو الدّين استضافة النَّصارى المُصابين بالطَّاعون ولو كان ذلك مقابل مبلغ من المال.

(1) - Ibid. P235.

على كل حال فالغرض من إيراد هذه الوثيقة وتتبع ما يستشكل غرضه الرئيس تبيان أوجه ما يمكن أن نسميه الربح العاجل، لأننا نعي أنه في الآجل يمكن أنه قد ترتب عن هذا الربح استجلاب خطر الموت لا للفرد القريب مِن الحالة المرضية لوحده ولكن لمحيطيه القريب مُمثلاً في عائلته، والمحيط البعيد مُمثلاً في الفئة التي ينتمي إليها، أي أنَّ الربح المالي قد يحصل فعلا نظير هذه الخدمات وهو ما يهمنا إثباته في هذا المبحث.

اضطراب الحياة التجارية أثناء الأوبئة:

علاوة على ما مضى نجد أن مِن التأثيرات البالغة الآثار للأوبئة أو المجاعات على الحياة الاقتصادية أن تضطر الحياة التجارية والاقتصادية لتتوقَّف تماماً في بعض الحالات، إذ كثيراً ما كانت المجاعة مثلا سبباً في توقيف التَّبادل التِّجاري مع الدُّول الأوروبية، خاصة فيما يتعلَّق بالقمح أو الشعير، وينسحب الأمر على كلّ المواد الغذائية التي كانت تُصدَّر مِن الجزائر باتجاه أوروبا، فنقف مثلا في سنة (١٧٠٣مـ) على توقف كل ملامح التِّجارة الخارجية حسب ما تورده إحدى المراسلات القنصلية[١].

وبلغ الأمر مثلا سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٨مـ) أن رفض المتعاملون التجاريون في مرسيليا استلام أي شيء يكون مصدره الجزائر خوفا من إصابتهم بالوباء الذي شاع صيته في الجزائر، بل إنَّ بعض التُّجار رفض حتى استلام الرسائل التي كانت

---

(1) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/118. Cotes: F °29٤-297. 12 /jui/1703.

تصله مِن ممثليه في الجزائر خوفا مِن انتقال الوباء إليهم من خلالها[1].

تتكرّر صور التّأثير الاقتصادي للأوبئة على الحياة التِّجارية، فنجد في إحدى المراسلات القنصلية في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مؤرَّخة بالرابع عشر ماي (١٧٤١م) من طرف القنصل العام الفرنسي في الجزائر السيد «جيفال» يقوم فيها بإخطار السُّلطات التجارية في بلاده بضرورة تعليق التَّعاملات التِّجارية مع إيالة الجزائر مؤقتا إلى أن تتخلَّص مِن أسباب هذا التَّعليق، والتي يأتي مِن ضمنها أيضا التخلُّص من الطاعون[2]، إضافة إلى ضرورة توفير الأمن وتنظيم العمل التجاري والعلاقات مع الإيالات المجاورة، وقد كان لهذه المراسلة سببها المنطقي إذ علمنا أنَّ فرنسا بدوها كانت تعاني خلال هذه المرحلة بسبب تزايد النشاط الوبائي وصعوبة السيطرة عليه، وخاصة في المدن الساحلية ذات العلاقات التجارية القوية مع الجزائر: كمدينة مرسيليا. وجزيرة كورسيكا

كما نقف على نفس المعنى إذ يتحدَّث الأب «بوسو» عن تعليق التبادلات التجارية بين الإيالة وغيرها مِن الدُّول الأوروبية سنة (١٧٥٢م) بسبب الوباء الذي كان يضرب المدينة خلال تلك السنة، وقد سعى داي الجزائر في ربيع سنة (١٧٥٣م) لإعادة تفعيل التبادلات التجارية غير إنَّه لم يستطع النَّجاح في ذلك بسبب عودة الوفيات في صفوف ساكنة المدينة[3].

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P298.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/124. Cotes: F °292-293. 14 /05/1741.

(3) -Arnoult Bosssu: M.C.M., T 3, P228.

مرَّة أخرى يؤدي تواجد الوباء في الجزائر إلى الحد مِن النَّشاط التجاري بين الإيالة والمملكة الفرنسية، فنقف في شهادات الآباء الرهبان الذين كانوا يستقرُّون في الجزائر لخدمة الأسرى والعبيد والتُّجار الأوروبيين في المدينة على إيراد معلومات في غاية الأهمية، تتمثَّل في رد فعل التُّجار الذين كانوا في المدينة نتيجة انتشار الوباء في صيف (١٧٥٢مـ) والذي حمل العديد مِن هؤلاء التُّجار على إغلاق محلاتهم والانصراف إلى التربُّص في بيوتهم بعيدا عن تبعات هذا الوباء، فإن تقرَّر هذا صرفنا الحديث إلى الانعكاس الشرطي لهذا الأمر بدون أدنى ريب على النشاط التجاري أيضا، فنقف على ما يؤكد هذا الأمر من خلال إشارة عَرضية نستنبط من خلالها تلميحاً إلى انكماش التَّبادلات التِّجارية بين الإيالة الجزائرية والدُّول الأوروبية[1]؛ بسبب تفشِّي وباء سنة (١٧٥٢مـ) وخوف الدول الأوروبية من انتقاله إليها، وهو ما سيؤدي إلى ارتفاع في أسعار المواد التجارية كنتيجة طبيعية لقلّة العرض ومحافظة الطلب على نفس مستواه الطبيعي، فإن تقرَّر هذا الأمر أمكننا الحديث عن العلاقة الاطرادية بين انتشار الوباء وانكماش التبادلات التجارية وارتفاع الأسعار الغذائية (**وباء+ انكماش تبادلات تجارية= ارتفاع أسعار الغذاء**).

مثل ما نقف في نطاق آخر على مطالبة القنصليات الأوروبية في مدينة الجزائر من حكامها إلزام سفن الإيالة بالابتعاد عن سفن بلدانهم مهما كان السبب خوفا من انتقال الأوبئة إلى السفن الأوروبية، طالما بقيت الجزائر تعاني من الوباء لخوف

---

(1) -Ibid.

القناصل من انتقال الوباء إلى بلدانهم، وهو ما حدث فعلا سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨مـ) في فترة حكم الداي حسين(١). الأمر الذي كان له انعكاس فعلي على الحركة التجارية وتبادل السلع في المسار البحري الرابط بين الإيالة والموانئ الفرنسية خاصة والأوروبية عامة.

وهو ما تؤكده إحدى المراسلات السابقة لهذا التاريخ والتي كانت في ربيع (١٧٥٦مـ) بحيث أشارت إلى إنَّه يوجد بعض الإشكالات في التَّبادلات التِّجارية مع الإيالة بسبب كون الطَّاعون منتشراً بها في العديد مِن المدن؛ لذا رأت المراسلة إنَّه مِن الأفضل التريث قليلا في التبادلات التجارية(٢)، فإنَّ تحقق ذلك صرفنا البيان إلى القول أنَّ العلاقات التِّجارية كانت تعرف الكثير من محطات التوقُّف الإجبارية في حالة كان الطَّاعون أو الوباء مُستشريا في الإيالة بشكل قوي، إذ نقف في إحدى المراسلات القنصلية على تصريح بأنَّ العلاقة التِّجارية كانت متوقفة طيلة خمسة أشهر خلال سنة (١٧٥٢مـ) بسبب الطَّاعون الذي كان ينخر الإيالة(٣).

وإذا عرف ما سبق فمن الواجب أن نصرف البيان إلى شقٍّ آخرٍ مِن التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصِّحية والغذائية على المجال الاقتصادي العام، إذ إنَّه بعد إحدى الطَّواعين التي لحقت مدينة الجزائر لم يُوجد في مدينة الجزائر كلِّها شخصٌ واحدٌ يمكن اعتباره مِن أهل الحرفة الحقيقين في مدينة الجزائر(٤)، وإن كانا نعتقد

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P383.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/129. Cotes: F °44-45. 24 /03/1756.

(3) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °87-94. 07 /Déc/1752.

(4) - Lucette Valensi: op.cit., P21.

أنّ هذا التّصوير مبالغ فيه كثيراً إلاّ أننا مُتأكِّدون مِن التَّأثير السَّلبي لمثل هذه الأوبئة على الحياة الاقتصادية العامة، إذ كانت غالبا ما تتعطَّل الأركان التجارية مع الدول الأوروبية بسبب التوجس من الطَّاعون[١] أو يمنع شحن أي سفينة بالمواد الغذائية في حالة مهاجمة الجراد أو ضعف مردود المياه للسقي أو ترقب مجاعة ما كما حدث سنة (١٨١٥م)[٢].

ومِن صور التّأثير السلبي لهذه الطواعين أيضا على أهل البلاد مِن النَّاحية الاقتصادية واستفادة غيرهم مِن هذا المصاب أنْ استفادت الشركة الإفريقية في عنابة مِن تزايد كميات الصُّوف المصُدَّرة إلى أوروبا مِن موانئ عنابة؛ بسبب قلة اليد العاملة التي أتى عليها طاعون سنة (١٧٨٥م) وعجز الحرفيين عن استغلال الكميات الكبيرة لهذه المادة[٣].

نفس صيغ الانعكاس السِّلبي على الجزائر والإيجابي على الدُّول الأوروبية نقف عليها في نتائج الطَّاعون الذي ألم بالجزائر بعد سنتين أي سنة (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م) بحيث أدى إلى نقص اليد العاملة ونقص الكثافة السُّكانية معا، ما انعكس على سوق طلب القمح، أي انخفض الطلب على القمح خلال صيف هذه السنة، ما استفادت منه الشركة الإفريقية بعنابة بإن استغلت الموقف وزادت من كمية صادراتها مِن القمح الجزائري باتجاه فرنسا إلى ما يقارب (٢٥,٠٠٠ طن)

---

(1) - Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P229.

(2) - Lucette Valensi: op.cit., P24.

(3) - Ibid. P21.

بعدما كانت في حدود ما بين (١٠-١٢ ألف طن)[1] أي أن كمية القمح المصدر تضاعفت تقريبا في نفس المرحلة التي كانت فرنسا في أمس الحاجة إلى القمح.

نقف على شكل آخرٍ مِن أشكال انعكاس الأزمة على الاقتصاد الخاص بالبيلك أو على خزينة البيلك، إذ أنَّ قيام بعض البايات في بعض الأحيان بمحاولة مساعدة الأهالي على تجاوز أزمة الجوع مِن خلال اشتراء القمح من الأسواق الخارجية وتوفيره في السُّوق الداخلي بنفس السعر أو مجانا مثل ما قام بذلك محمد باي الكبير سنة (١١٩٩هـ/ ١٧٨٥مـ) أو ما سمي حينها بـ«عام الشرّ» كما أنَّ إعفاء القبائل المخزنية وحتَّى المتعاونة والممانعة مِن دفع العُشور بسبب الوضع المعيشي السيء[2]، سيكون له تأثير لامحالة ولو بشكل نسبي على خزينة الباي، خاصة إذا ربطنا تلك المدة الزمنية بما كان يحيط بها من أشغال على رأسها مع محاولة «محمَّد باي الكبير» السَّيطرة على بعض التَّمردات الموجودة هنالك، ولعلّ مِن بين أسباب اتجاه الباي «محمَّد الكبير» لاحقا إلى الجنوب حاجة سلطته إلى أموال الضرائب التي كانت تدفعها بعض قبائل تلك الجهات لملك المغرب، فتحصيلها كان يؤدي في الغالب إلى تغطية العجز الناجم عن تقديم المساعدات إلى سكان البيلك، كما أن هذه الإعفاءات حقيقة كانت تحين لا أكثر وهو ما كان معمولاً به في العديد من الأماكن في الدولة العثمانية كما توضح الوثائق الأرشيفية المختلفة.

---

(1) - Venture de Paradis: loc.cit., Anne 1895, N°39,P282.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

كما يتبين لنا الآثار الاقتصادي البارز للأزمات الصحية والغذائية من خلال تصرفات وتشريعات تلك المرحلة الزمنية التي دأب عليها بعض الحكام كداي الجزائر «علي خوجة» الذي أصر إثر الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧مـ) بإصدار أمر لجميع التُّجار بما فيهم اليهود أصحاب المحلات الموجودة في مدينة الجزائر بالعودة فورا إلى المدينة ومزاولة أنشطتهم؛ وهذا آثار فرار جلِّهم إلى الأرياف خوفاً مِن أن ينالهم الوباء، وهو ما يرسم لنا صورة تعطل الأنشطة التجارية لا في حيزها الخارجي فقط مع الدول الأوروبية كما تم ذكره ولكن حتى على النطاق الداخلي المحلي، وهو الأمر الذي سينعكس على حياة المجتمع حتما، ما كان قد يؤدي إلى احتمال حدوث اضطرابات ما سياسية أو اقتصادية وهو أمر كانت ترفضه العقلية السياسية سواء عند علي خوجة[١] أو عند غيره، مثل ما يفهم من هذا المرسوم أمور عديدة من بينها وجود هجرة جماعية للسُّكان مِن المدن الحضرية الكبرى إلى الأرياف والأحواز القريبة، وهو أولى ردَّات الفعل التي كانت تسلكها التجمعات البشرية، وهو ما له انعكاس على الحياة الاقتصادية بشكل عام لا في الوباء المذكور فقط وإنما في جل الأوبئة، فنجد مثلا المجلة الفرنسية تتحدث عن الحالة التجارية المعقدة في مدينة الجزائر سنة (١٧٨٧مـ)؛ بسبب غياب أصحاب المحلات والحرفيين عن مواضع عملهم وإغلاقها بشكل مؤقت حتى ينجلي الوباء[٢] الذي كان في المدينة، الأمر الذي يجعل ما قام به «علي خوجة» أمراً طبيعيا للحفاظ على السَّير الطبيعي للحياة العامة.

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, P376.

(2) -Gazette de France :1787, N° 67. 21.08.1787.

٢. التأثيرات الاقتصادية للأزمات الصحية والغذائية على فئات الهامش:

وإذ قد ظهرت لنا جوانب مِن تأثيرات الطَّاعون والمجاعات على الجانب الاقتصادي في شقه السياسي العام ننتقل للحديث عن جوانب أخرى من التأثيرات الاقتصادية على الفئات الهشة أو على الهامش في التاريخ العثماني، إذ نجد أنَّ الأزمات المتحدث عنها لم تقتصر على فئة ما دون الفئات الأخرى، فنجد أنَّ الأزمات الطَّبيعية مثل ما آثارت على السَّاكنة المحلية للمدن الجزائرية والإيالة ككلّ، نجدها قد آثارت في جوانب أخرى على السَّاكنة الوافدة إلى المدينة، خاصة منها فئة الأسرى النَّصارى.

ويسوقنا تتبع المصادر المختلفة إلى الوقوف على العديد مِن الأمثلة عن تأثير الأوبئة على فئة الأسرى من الأوروبيين من أوجه عِدَّة، منها أنَّ قيمة هؤلاء الأسرى مثلا قد ارتفعت سنة (١٧٢٠مـ/ ١١٣٢هـ) إلى ثلاثة أضعاف ماكانت عليه[1]، وهذا لأسباب عديدة أهمها، اشتداد الأوبئة والأزمات الغذائية جعل الجميع في حاجة إلى يد عاملة للخدمة هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكننا أن نتحدث عن آثار قطع العلاقات بين الإيالة والباب العالي سنة (١٧١١مـ) وانعكاسه المؤقت على نشاط القرصنة المنحصرة، ما أسهم في قلة وجود الأسرى وعليه ارتفاع أسعارهم. مثل ما أدى موت عدد كبيرٍ مِن الأسرى خلال الأوبئة إلى ارتفاع

---

(1) - H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830) P282.

أسعارهم تلقائيا، ولم يظل الأمر حبيس الإيالة بل نجد انعكاسه حتَّى في المعاهدات الخارجية للإيالة فنجد على سبيل المثال السُّلطة تكون مجبرة على طلب العبيد بدل الأموال في حالات الصلح مع دول أخرى أو كشكل مِن أشكال الضرائب المستحقة والإتاوات المفروضة على دول أخرى، كما هو الحال سنة (١٧٤٢م) بعد نتائج ذلك الوباء الذي حلَّ بإيالة الجزائر نفس السنة، فتورد إحدى الوثائق الأرشيفية الخاصة بوزارة الخارجية الفرنسية بأنَّ الدَّاي «علي باشا» قد طلب مِن أجل الصُّلح مع تونس مِن الأخيرة عدداً مِن العبيد ليغطي النقص الفادح لهذه الفئة في الجزائر بُعيد ذلك الوباء[١]، كما نجد إنَّه وخلال النِّصف الثاني من القرن الثامن عشر ارتفاع سعر فداء الأسرى سنة (١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م) لتعذر الحصول عليهم بسبب حاجة الأهالي لهم من أجل إقامة بعض المنشئات المختلفة[٢].

وكثيرا ما أدت الأوبئة إلى القضاء على أعداد كبرى من العبيد والأسرى إذ يذكر أنه من نتائج الوباء الذي كان بالجزائر سنة (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م) قضاؤه على جزء كبير مِن العبيد والأسرى المسيحين وقد بلغ عددهم ما بين (٨٠٠-٧٠٠ ضحية)[٣]، بينما يرى «دي غرامون» أنَّ عدد الضحايا كان في حدود المئتين

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °60-62. 23 /08/1742.

(2) - H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830)P314.

(3) - Venture de Paradis: op.cit., P52.

والأربعة والعشرين مسيحياً في المرة الأولى وحوالي خمسمائة عند تجدُّده[1]، مع وجود ما يقارب من ألفي أسير قبيل هذه المُدَّة[2].

كما نقف على وجه آخر من أوجه التأثير الاقتصادي للأزمات الغذائية والصِّحية على فئة الأسرى في نفس السياق لكن بزاوية معاكسة تماما، إذ بدل ارتفاع سعر الأسير كما جرت العادة نلاحظ تراجع سعره وانكسار قيمته المالية خاصة في حالة وجود الأزمات الغذائية، إذ يصبح العبد أو الأسير أرخص ما في يد الأهالي، فيسعون إلى التَّخلص مِن أحد المستهلكين للغذاء في البيت -ولو على قلته- لصالح بعض الكسب العاجل، وهو ما كان يؤدي في الغالب إلى تراجع أسعار الأسرى لكثرة العرض، وكثيرا ما اضطرَّ مَن في السُّلطة مِن كبار القوم والتُّجار إلى بيع ما بين أيدهم مِن الأسرى؛ حتى يضمنوا عدم خسارتهم في المجاعات أو الأوبئة بموتهم أو بفقدانهم لقيمتهم، وهو ما نجده يحدث في فترة حكم الداي «إبراهيم باشا» إذ إنَّه أثناء الوباء الذي ألَمَّ بالجزائر سنة (١٧٤١مـ) اضطر عدد كبير من التُّجار وكبار الملاك إلى بيع عددٍ ممَّن تحت أيديهم مِن العبيد الجنويين بسعر رخيص، خوفا مِن أن يصيبهم ما أصاب البعض من زملائهم الآخرين في طاعون سنة (١٧٤٠مـ)[3]

(1) - H.-D. DE Grammont: op.cit., PP 339.340

(2) - Venture de Paradis: op.cit., P52.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P79.

فإن سلّمنا بذلك يمكننا أن نستنتج أنَّ المقدمات الماضية تقودنا إلى نتيجة مفادها أنّ عدد الأسرى تراجع إلى ثلاثة أضعاف عدد الأسرى قبل الوباء سنة (١٧٢٠م/ ١١٣٢هـ) وعليه انعكس على سعر الفداء تلقائيا، كما أنَّ ندرة الأسرى إن حدثت قد تشترك فيه أمور عدّة مِن أهمها: تأثير الطاعون وتأثر الإيالة بفرض قوانين جديدة تمنعها مِن القرصنة أو الأسر، وإن كان البعض يعترض على هذا الأمر من خلال تأكيده على أنَّ الريّاس كانوا قد أسروا العديد مِن المسيحيين مِن السَّواحل الإيطالية خلال المدة الزمنية التي فرض فيها الحظر[1]، وعلى كل حال فإنَّه مِن المعلوم أنَّ القرن الثامن عشر عرف تراجعاً كبيرا لعمليات الأسر والقرصنة وعليه تراجعت الغنائم الممثلة في الأسرى لصالح انتعاش تجارة القمح، وتراجع الغنائم أدى تلقائيا إلى ارتفاع أسعارها تجاوبا مع قانون العرض والطلب.

أما إشكالية ارتفاع سعر الأسرى والتي غالبا ما يربطها «دي غرامون» بظهور الطَّاعون وتنكيله بالأسرى، إنَّما غرضها إظهار الأسرى بصورة الضحية الكبيرة داخل الإيالة؛ إذا تجتمع عليها مصائب الحكم الجائر للدايات والظلم الذي يتعرضون له في الأسر، والمعاملة السيئة، ويأتي الطَّاعون ليجعل منهم شهداء ويخلِّصهم مِن المعاناة الكبيرة التي يعيشونها.

---

(1) - H.-D. DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P269.

وإذا فُرغ مِن مظاهر تجلي الأزمات الغذائية والصحية على الفئة الوافدة على إيالة الجزائر كان حقيق بنا الآن الحديث عن التأثيرات المباشرة للأزمات الصحية والغذائية على الحياة الاقتصادية أو على المعيشة اليومية لساكنة الإيالة، وقبل أن نشرع فيما وعدنا لابد أن نشير إنَّه ممَّا لا يخفى بأية حال الانعكاس المباشر الذي يترتَّب على غياب سلعة مِن السُّوق، إذ كثيرا ما كان يؤدى غياب القمح أو غيره مِن الحبوب إلى ارتفاع أسعاره بشكل كبير يعجز الأهالي نتيجة لذلك عن اقتنائه، خاصة إذا علمنا مثلاً أنّه في العديد مِن الأحيان ترتفع أسعار المواد الاستهلاكية مِن قمح ومشتقاته إلى أرقام قياسية قد تتعدَّى السِّعر الحقيقي بأكثر مِن عشرة أضعاف أيام القحط والمجاعة، فيكفي لندلِّل على هذا الأمر أنَّ نضرب مثالا بسعر الصَّاع الواحد مِن القمح وكيف يتغير سعره إذ انتقل في الكثير من الأحيان من ربع بوجو إلى ستة بوجو كاملة، وفي موطن آخر انتقل سعر الشَّعير إلى قرابة الثمان ريالات[(١)]. وتذكر بعض المصادر المحلية التي عايشت بعض الأزمات الغذائية أنَّ الصَّاع الواحد مِن القمح بلغ سعره خمسة عشر ريالا بعدما كان سعره قبل مجاعة (١٨٠٥م) لا يتجاوز ريالاً ونصف ريال في أغلى الحالات[(٢)]، أي أن سعره تضاعف بما يقارب عشر مرات، وكان دوام الحال في بعض الأحيان إلى السنة والأكثر.

---

(1) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l’histoire de Constantine, Revue African., Anne 189٥. N°39, P165,

(٢) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص ٣٤،٣٥.

ولا يتوقف تأثير ظهور الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر واشتداده بها على أسعار القمح والشعير فقط، بل يتعداها إلى فرضه نوعا مِن الحصار على المدينة، مثل ما يشير إلى ذلك القنصل الفرنسي في المدينة في مراسلة للغرفة التجارية في مرسيليا بقوله: «...أنَّ تفشي الوباء قد ضرب ما يشبه الحصار على المدينة...»(1) وهذا مما مِن شأنه أن يجعل التَّزود بالمؤن أو إخراج السِّلع مِن الجزائر أمراً عسيراً مما أدى بحدوث أحد الأمرين؛ إمَّا نَقص في المواد الأساسية كالقمح والشعير ما سيؤدي لا محالة إلى حدوث شُحٍّ في التَّموين بالقمح والشعير وهو ما ينتج عنه ارتفاع الأسعار، وقد يتطوَّر الأمر إلى حدوث أزمة غذائية في حال عدم القدرة على إيجاد مخارج تموينية أخرى، أو قد يؤدي في جهة مناقضة إلى حدوث نوع مِن التَّشبع للسوق في حالة وجود فائض في الإنتاج الزراعي، ما ينتج عنه وجود سِلع كثيرة وانعدام المقدرة على تصريفها خارج الإيالة الجزائر ما سيُحدث نوعا مِن الوفرة تؤدي إلى تراجع الأسعار في هذه السنة، وإمكانية تخلي الفلاحين عن زراعة القمح في السنة الموالية ما يترتب عنه بدوره حدوث نقص ي التوازن الغذائي المطلوب.

وقد ظهرت بعض الأزمات الغذائية في بداية القرن التاسع عشر، وكانت تجلياتها ضمن قوالب مختلفة تجلّت مثلا في ثورة كبيرة قام بها الأهالي ضد اليهود سنة (١٨٠٥م)؛ لاعتقادهم أنّ الأخيرين بسيطرتهم على تجارة القمح وتصديرهم له باتجاه الموانئ الأوروبية قد أسهموا في ندرة القمح في الإيالة في وقت كان

(1) -H.-D. DE GRAMMONT: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742),P222.

الأهالي في أمس الحاجة إليه(١) وعليه حدثت هذه المجاعة، وقد مرَّت معنا التَّسهيلات التي كان يتحصَّل عليها اليهود وغيرهم في هذا السياق(٢)، وكادت هذه الثَّورة أن تقضي على الحكم العثماني في مدينة الجزائر، خاصة وأنَّ الإيالة كانت تعيش أيضاً مرحلة اضطرابات بسبب ثورة «ابن الأحرش» في بيلك الشَّرق.

نفس هذه المجاعة امتدَّ لهيب آثارها في السنة التي تلتها أيضا أي (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦مـ-١٨٠٧مـ)، وهذا ما يؤكده العنتري بقوله: «.. وهذا الشَّرُ باقٍ إلى سنة التاريخ هذه، وهي سنة إحدى وعشرون والله يلطف بعباده..»(٣)، وقد نجم عن هذه المجاعة وغيرها مِن المجاعات مثل ما مر ارتفاع أسعار القمح أكثر من ثلاثة أضعافه بحيث أضحى سعر الصَّاع الواحد من القمح يبلغ ما يقارب خمسة عشر ريالا، وسعر الشَّعير يصل إلى قرابة ثماني ريالات(٤). مثل ما نجد بوادر تأثير غزو الجراد للإيالة سنة (١٨١٤مـ) ماثلا لولا تدخل الداي عمر باشا بفتحه مخازن القمح للخبازين وفرضه لتسعيرة موحدة للجميع ما ساهم في التقليل من حدة هذه الأزمة الغذائية وتأثيراتها الاقتصادية(٥).

---

(1) -Lucette Valensi: op.cit., P24.

(٢) - راجع ما كنا قد كتبناه في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

(3) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l’histoire de Constantine, Revue African., Anne 189٥. N°39, P165.

(4) -Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l’histoire de Constantine , Revue African., Anne 189٥. N°39, P165.

(٥) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ١٤٥.

ونعود لذكر أنَّ مِن التأثيرات الاقتصادية لهذه الأزمات الغذائية أن أضحى الصَّاع الواحد مِن القمح قيمته خمسة عشر ريالا بعدما كان سعره قبل المجاعة لا يتجاوز ريالا ونصف ريال[1]، بمعنى أنّ سعر القمح تضاعف ما يقارب عشر مرات، وكان الأمر يدوم مدة زمنية طويلة ترهق الناس تصل إلى سنة أو سنتين.

وإذ قد ظهر لنا جوانب مما جنحت إليه الحياة الاقتصادية خلال الأزمات التي جسّدتها الأوبئة فمن الواجب أن نصرف البيان إلى القول أنَّ انتهاء أي أزمات غذائية كانت أو صحية كان إيذانا بعودة الحركية التجارية والاقتصادية في الإيالة، وهو ما يُستشف فعلا فيما أشار إليه العديد من الباحثين الذين جعلوا من الأوبئة والمجاعات وبالا على التِّجارة الأوروبية مع الإيالة[2]، سواء منها ما تعلق بصيد المرجان أو بتجارة القمح أو بغيرهما.

انعكاسات المجاعات والأوبئة على الجوانب العسكرية:

لعله من الأصوب قبل أن نخوض فيما نحن بصدده أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه فنقول: أنَّ من أبرز مظاهر التأثيرات الكبيرة للأوبئة والمجاعات على المجالات المختلفة صور تأثيرها الشديد على الجانب العسكري، وهذا التَّأثير كان على مستويات عدِّة ومتباينة، تختلف باختلاف شدَّة الأوبئة ، إذ نجد أنه كلَّما كانت شدَّة الوباء أو المجاعة كبيرة كلّما كان مدى تأثيره العام أشدَّ وأصعب، وهذا التأثير لم يختص بالإيالة دون غيرها، بل كان يعمُّ كلَّ

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص ٣٤،٣٥.

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P233.

المجالات الجغرافية والدُّول المختلفة في المتوسط، فنجده يؤثر على إمداد الجيوش بالعتاد الحربي كما كان يحدث مع الدولة العثمانية أكثر من مرَّة[1]، مثل ما نجده يقضي على عدد من جنود الجيش الفرنسي الذي قاده «نابليون» في حملته على مصر سنة (١٧٩٨م) مثل ما توردهُ بعض الوثائق[2]، مثل ما نقف على وجه آخر من أوجه التفاعل بين الأوبئة والجوانب العسكرية الارتباط بين حركة الجيوش في العالم وتفشي الأوبئة، وهذا ما يرد عند الحديث مثلا عن الوباء الذي ألمَّ بأوروبا سنة (١٧٤٣م) والذي كانت أحد أسباب تفشيه الأساسية انتقال الجيش الفرنسي بقيادة «إنفينيتي» عبر جبال الألب إلى العمق الأوروبي[3] ما ساهم في تفشي الوباء وامتداد نشاطه مِن الحيز الجغرافي الفرنسي إلى مجالات جغرافية أكبر ألمت بأوروبا ككل، ولم تشذ العلاقة بين الأوبئة والغذائية مع المجالات العسكرية في حالة الإيالة الجزائرية خلال مدة الدراسة الممتدة على طوال قرن وثلث (١٧٠٠-١٨٣٠م) وهو ما سنعمل على تفصيله.

وإذا عُرف ما سبق فمن الوجب أن نعود للحديث عن تأثيرات الأزمات على الجانب العسكري في الإيالة فنقول إنَّه كثيراً ما ذكر عدد الضحايا من الجنود نتيجة الأوبئة التي كانت تلم بالإيالة، بل ونجد بعض الأوبئة قد نجحت في الولوج إلى معاقل الجند في الأوجاق، فنجد ذكر الوباء في ثكنات الإنكشارية في كلِّ مِن «باب

(1) - B.O.A: AE.SMST.III. Do: N°162. Gömlek N°12704. Tarih 1186.Z.01. Belg 05.

(2) -B.O.A: C.AS. Do: N°804.Gömlek N°34147. Tarih 1213.Za.29. Belg 01.

(3) - Chabrand, Jean-Armand: op.cit., P21.

عزون» و«باب جديد» و«باب الواد» وغيرها[١] كما ونجد أنَّ مِن آثار طاعون سنة (١٧٨٦م) أن أصبحت الثكنات خاوية على عروشها بعدما كانت تكتظ بالجنود، فالطَّاعون في هذه المرَّة دخل إلى الثكنات وألحق بالجند خسائر فادحة[٢] لا تختلف كثيرا عمَّا ألحقه بالسُّكان البسطاء كما مرَّ بنا في موضعه[٣] ولهذا كثيرا ما نجد دايات الجزائر يطلبون الإذن لتجنيد نفر جديد من الإنكشارية من أزمير بعد كل وباء، كما حدث سنوات: (١٧٨٧م) و(١٧٩٢م) و(١٨١٧م) فنجد الداي حسين بعدما خلف علي باشا يطلب الإذن بتجنيد بعض الجند من الباب العالي ويأذن الأخير لوكيل أوجاق الجزائر الحاج سعيد بتجنيد من يريد من الأهالي ممَّن حسنت سيرته لصالح الولاية في السنة ذاتها[٤] .

وإذا كان ما سبق حُكماً مُتيقناً لا يحتاج إلى كثرة التدليل، بل هو شائع في المصادر المختلفة التي كانت تتحدَّث عن الجند العثماني في الجزائر، صرفنا القول إلى الحديث عن الأركان التي عليها مدار التأثير الكبير للأنشطة العسكرية، فنجد أنفسنا نقف على عدد مِن الحملات العسكرية التي تمَّ إيقافها بسبب هجمات الأوبئة، فمن ذلك توقيف الحملة الدفاعية العسكرية التي كانت تستهدف حماية مدينة «وهران» في عهد «يوسف بن مصطفى بوشلاغم» والذي كان

---

(1) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P374.

(٢) - كاثكارت: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ص ١٠٠.

(٣) - راجع ما كتبناه عن هذا الوباء في الفصل الثالث المبحث الثالث.

(4) -B.O.A: HAT. Dosya N°283. Gömlek N°16872. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.

قد عُيِّن خليفة لوالده «مصطفى بوشلاغم»[1].

حاول «يوسف» أن يحمي المدينة من الخطر الإسباني الذي كان يهدِّدُها، إلاّ إنَّه سقط ضحية للوباء الذي كان يضرب المدينة والمنطقة سنة (١١٥١هـ/ ١٧٣٨مـ)[2] ما جعل دخول الإسبان إليها أمرا سهلا، وإن تقرّر فعلا وفاة القائد «يوسف بن مصطفى بوشلاغم» بسبب هذا الوباء قلنا أنّ الأحرى بمن هو دونه أن يتضرر منه خاصة مِن جنود الحامية الانكشارية ممَّن كان في اتصال دائم مع الباي أو مع المصابين بالداء، وما وصول الوباء إلى غاية القائد الأعلى للجيش إلاَّ دلالة كبيرة على ضراوة وشدَّة هذا الوباء، وإذا عرف هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من القول فنقول أنَّ ما يهمنا فيما حدث في هذا الوباء سنة (١٧٣٨مـ) ليس شدَّته أو مُدَّته الزمنية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى توقف عمل عسكري كنتيجة حتمية لانتشار هذا الوباء داخل أسوار المدينة.

ولهذا كان ما وُجِد مِن تفشى للأوبئة هو غالبا ما أدى إلى تعطيل النشاطات العسكرية، وهذا راجع إلى عدة أسباب من بينها الخوف من أن تكون سببا في تفشي الوباء، إضافة إلى الحالة الصحية التي يكون عليها جنود المحلة وما يعتريهم من خوف الإصابة بالوباء عند الحركة والاحتكاك بغيرهم، ولعل ذلك يبرز على سبيل المثال سنة (١٧٤١مـ) أي في عهد «إبراهيم باشا» حينما تزامنت الحملة التي كان

(1) - Walsin Esterhazy: op.cit., P175

(2) - Adrien Berbrugger: op.cit., T2, P 206.

الداي قد أمر بها ضد إيالة تونس مع ظهور الوباء في قسنطينة[١]، فأمر الداي «باي قسنطينة» بتأخير خروج المحلة ثمّ أُلغيت هذه الحملة تماما؛ بسبب تفشي الوباء في كلِّ مِن مدينة قسنطينة وأحوازها، مثل ما كانت قد بدت آثاره أيضا في كلِّ مِن إيالة تونس وبعض مناطق طرابلس حسبما تورده مراسلة مؤرخة بــ (٢٤/ ماي ١٧٤١مـ)[٢] وهي نفس الإشارة التي نجدها تتكرَّر في الرِّسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي في الجزائر إلى سلطات بلده في السنة عينها[٣].

يتكرَّر الأمر مرَّة جديدة سنة (١٧٥٥مـ) حين يضطر داي قسنطينة إلى إلغاء حملته على باي تونس بعدما تأكَّد أنَّ القبائل تخاف الالتحاق بالنوبة التي قدِمت مِن الجزائر؛ لإنَّه انتشر بين النَّاس أنَّ مِن فيها كان مُصاباً بالطَّاعون[٤]، فأثنى هذا الأمر باي قسنطينة على المُضِي قُدما في مسعاه وبهذا تعدَّى آثار الطَّاعون الجانب العسكري إلى الزاوية السياسية أيضا، إذ أصبح يؤثر في العلاقات بين الأطراف المختلفة في الإيالة ونظرائهم في الإيالة التونسية، وبهذا يتَّضح لنا الآثار الخفي الذي أسهمت به بعض الأزمات في تأخير أو إلغاء بعض الخيارات العسكرية التي كانت مقترحة للإيالة حينها، ما يجعل هذه الأزمات إحدى المُتغيرات الأساسية في عملية التقدم والتراجع العسكري في المنطقة.

---

(١) – مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم (١٦٢٤) و[٣]

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °294-29°. 24/05/1741.

(3) -Lettres de M. Jonville a, Alger le 03/09/1741, Dans Correspondance des consuls d'Alger, Anne 1741, P266-267,

(4) - Jean Marchika:op.cit., P102.

كما نقف في ضمن إحدى المصادر التي ترجع إلى إسباني سابق في إيالة الجزائر يؤكد فيها أنَّ عدد الجنود الترك كانوا في تراجع مستمر، وهذ كان مرتبطاً – حسب رأيه- بالوباء الذي كثيرا ما استهدف الانكشارية بالجزائر، وبالأخص ذلك الذي ضرب الإيالة سنة (١٧٨٣مـ) بحيث بلغ عدد المصابين من الجند في الإيالة ثُلُث عدد الجنود المتواجدين في الإيالة[١]، كما أنّنا نقف على إشارة أخرى تتضمن إرسال «داي الجزائر «محمَّد بن عثمان خوجة» لابن عمِّه «حسن باشا» مِن أجل تجنيد رجال جُدد مِن أزمير نتيجة الوباء الذي أخل بأعداد الجند الترك في الجزائر بعد وباء(١٧٨٦مـ)[٢] وهو ما وافق عليه أمين الترسانة وطالب إثر ذلك الإذن مِن الصدر الأعظم والقبطان دوريا لإرسال بعض المعدات الحربية أيضا حسب ما تورده إحدى المراسلات بين الترسانة العامرة والباب العالي في أرشيف رئاسة الجمهورية التركية[٣].

كما نجد في موضع آخر إشارة إلى أنَّ طاعون (١٢٠١هـ/ ١٧٨٧مـ) قد قضى على عددٍ مِن كبار رجال البحر ما بين خمسين وستين رجلا[٤]، وهو ما ينعكس بشكل سلبي لا محالة على النشاط البحري للأسطول الجزائري الذي كان يعرف خلال القرن الثامن عشر تراجعا رهيبا في نشاطه، حيث أنَّ الأوبئة إذا أتت على مجموعة مِن البحَّارة أو رياس البحر كان ينتج عنه عُسراً في إيجاد الطواقم البحرية

---

(1) - Daremberg Georges: op.cit., P07.

(2) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190,

(3) -B.O.A: AE. SABH.I. Dosya N°88.Gömlek N°6066. Tarih 1199.Ca.07, Belg 01.

(4) - Venture de Paradis: loc.cit, Anne 1895, N°39, P310.

أو استخلاف رؤساء البحر، ، إذ أنّ قضاء الوباء الماضي ذكره على خمسين فردا مِن رياس البحر ليس بالأمر الهين، وتعويض هؤلاء البحارة كان يحتاج إلى سنوات مِن التَّجنيد والتجريب والانتقاء وإعطاء الفرصة لمن يكون له القدرة الحقيقية على قيادة السفن الحربية. ولعل آثار هذه الخسارة العسكرية تتبدى في تراجع الحملات البحرية للأسطول البحري.

وانعكاس الأوبئة على الجوانب العسكرية لم يقتصر في تلك المدة على إيالة الجزائر فقط كما قد يُتوهَّم من كلامنا، بل كان له تأثيرات أكبر على الجيوش وأغلب الدول، مثل ما نقف عليه بالنسبة للجيش العثماني سنة (١٧٧٠مـ)[1]، إذ كثيرا ما تعطَّلت آليات تمويل الجيش بما يحتاجه مِن مُؤن وعتاد عسكري خلال حملاته الحربية بسبب انتشار الطَّاعون، وهو ما حدث سنة (١٧٧١مـ) في جزيرة سنوب (Sinob) حيث تعطَّل إرسال الآلات الحربية بسبب الطَّاعون الذي انتشر في المنطقة[2]، وتخوفت السُّلطات المحلية مِن تفشيه بشكل أكبر لذا ظلت تترقب بل وخسرت القلعة بسبب هذا التَّرقب، يتجدد الآثار مرة أخرى في أثناء الحرب التي شنتها الدولة العثمانية سنة (١٧٧٨مـ) على بعض سفن القراصنة في اليونان لكنها سرعان ما أوقفت هذه الحرب التأديبية؛ بسبب خسارتها للعديد من العساكر التي كانت ضمن الأسطول الحربي البحري العثماني بسبب الوباء الذي كان

---

(1) - Şem'dani-zade fındıklılı Süleyman efendi: a.g.e, C 2, s52.

(2) -B.O.A: AE.SMST.III. Do: N°162. Gömlek N°12704. Tarih 1186.Z.01. Belg 05.

يضرب آنئذ وأسقط خمسة عشر ألف جندي عثماني خلال بضعة أشهر[1]، وحدث نفس الأمر مرة أخرى عندما تعطَّلت إمدادات الجيش العثماني في «نفراكوب» (Nevrekob) سنة (١٨١٥مـ)[2]، نفس الأمر نقف عليه في الثُلث الثاني مِن القرن التَّاسع عشر، أي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذ بمجرد ظهور وباء الكوليرا في مدينة الجزائر ووهران سنة (١٨٣٤مـ) وبين صفوف الجيش الفرنسي نجد جزءاً مِن سكان المدن الساحلية ينكمش إلى المدن الداخلية هربا مِن البلاء العسكري والبلاء الصِّحي[3].

وإذا كان ما مرّ معنا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه، فمن الواجب القول أن تأثيرات الأوبئة كانت عاملا أساسيا في مسارات الكثير من الحملات البحرية والبرية للإيالة خلال المرحلة الزمنية محل التَّشريح.

بقي أن نقول أيضا أنَّ تأثير الأوبئة والمجاعات وإن كان خفياً إلاَّ إنَّه ظلَّ حقيقيا وكبيرا، وتأثير الأزمة سواء الغذائية أو الصِّحية على الحياة العسكرية ظلت تختلف درجاتها باختلاف حدَّة وقوَّة الوباء، فنجد أنَّ بعض الأوبئة وإن كان عدد ضحاياها مُعتبراً مِن حيث الكمية إلاَّ إنَّه ظلَّ منكفئا ومحصورا ،مثل ما هو الحال في الوباء الذي تجدَّد في الإيالة سنة (١٧٥٦مـ)[4].

---

(1) - Joseph von Hammer: a.g.e, C 6. S24.

(2) -B.O.A: C.AS. Do: N°483. Gömlek N°20145. Tarih 1230.S.21. Belg 01.

(3) - Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: op.cit., P21.

(4) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/129. Cotes: F °67-74. 2 /juin/1756.

إضافة للأسباب الآنف ذكرها يمكننا أيضا أن نشير إلى أحد الأسباب العامة التي جعلت أوروبا والعالم الغربي يتفوَّقان على العالم الإسلامي مِن حيث الإنتاج الزراعي خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة، ألا وهو الوسائل التقليدية التي كانت تستعمل في النشاط الزراعي، ولعلَّ هذا ما اعتبره العنتري ضعف الاهتمام بالفلاحة بشكل عام خلال العهد العثماني[١]، وتجدر الإشارة أنَّ ما كان يُستعمل خلال هذه المرحلة مِن وسائل زراعية هي عينها التي استخدمت قبل قرون خلت خلال فترة الإمبراطورية الرومانية فالمحراث هو نفسه، ومعظم الآلات المستعملة خشبية الصنع تقليدية جدا[٢]، وهي إحدى الأمور التي جعلت الإنتاج الزراعي ضئيلاً إذا ما قُورن بالإمكانيات الطبيعية التي تميِّز الإيالة.

فغالبا ما ظلت الأدوات المستخدمة في عملية الزرع والحرث جد متأخرة، ولا يمكنها أن تلبي الحاجيات الأساسية التي لها القدرة على تغطية الحاجة الداخلية للساكنة من المواد الغذائية خاصة منها القمح والشعير، ولعلَّ هذا أحد الأمور التي كان لها تأثير ولو غير ظاهر على الأزمات الغذائية التي كانت تلم بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني عموما والمرحلة المدروسة خصوصا.

قبل أن نخوض فيما نحن بصدده يجب أن نقدم بمقدمة تكون توطئة لما نروم إيضاحه، فنقول إننا لا نبتغي هنا حصر الأسباب التي نرى إنَّها منطقية أو أساسية فقط، وإنَّما سنحاول أن نسوق كلَّ الأسباب التي رءاها المجتمع في تلك المرحلة

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٥٠.

(2) -Lucette Valensi: op.cit., P43.

أو نراها نحن اليوم مِن زوايا رؤيتنا الحالية، إلاَّ أننا سنحاول أن نعقد في نهاية هذا المبحث ما نرى أنَّ له تأثيراً فعليا في ظهور وانتشار الأوبئة.

ومِن بين العوامل الأساسية المساهمة في انتشار الأوبئة «ارتياد الأماكن العمومية»، خاصة المقاهي والحمامات والتي كانت منتشرة بشكل كبير في مدينة الجزائر والمدن الكبرى، إذ تذكر بعض الدراسات أنَّ عددها في مدينة الجزائر لوحدها ناهز الستين[1].

وتكمن خطورة ارتياد الحمامات في استعمال العامة لنفس الأغراض خلال عملية الاستحمام، في صورة المناشف المستعملة في الحمامات من جهة، ما يسهم في نقل الوباء مِن الشخص المصاب إلى الشخص غير المصاب بشكل سريع ومهلك، وقد ذكر «حمدان بن عثمان خوجة» أنّ الناس كانت تفِرّ إلى الحمامات التي يعتقد أنَّها نظيفة للتّطهر مِن الأدران، وفي نفس الوقت كان العامة يبتعدون عن الحمامات التي يشاع خبر وجود الطَّاعون بها.

إلاّ أنّهم تغاضوا عن مسألة غاية في الأهمية وهي: أنَّ الجميع سيسعى إلى قصد هذه الحمامات للاستحمام ما يجعلها بدورها عرضة لتكون ناقلا للوباء[2]، وقد أشار قنصل فرنسا في الجزائر سنة (١٦٩٩مـ) إلى إنَّه يظن أنَّ للماء دورا كبيرا في نقل الأوبئة بشكل كبير، وقد ذكر ذلك في إحدى مراسلته الموجهة إلى السلطات

---

(1) - Mostefa Khiati: op.cit., P 66.

(٢) – حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بالاحتراز من الوباء، ص٦٢.

السياسية في بلاده[1]، كما ذكرت إحدى الوثائق المؤرخة سنة (١٧٨٦مـ) أنّ كلّ المزابيين الذين يعملون داخل الحمامات قد لَقَوْا حتفهم في الطَّاعون الذي أصاب المدينة تلك السنة[2]، كما استغرب الطبيب الدنماركي (أف.شونبيرغ) انتشار القذارة في بعض أزقة مدينة الجزائر وفي بعض الحمامات، وتوقَّع أن يكون لها أثرٌ فعليٌّ في نشر الأوبئة مستقبلا وهو ما حدث لاحقا بالفعل[3]. بينما يذهب «فيشرا» – وينقلها عنه «كونر»- إلى الاعتقاد أنّ للحمامات ولبخار الماء الآثار الطيب والصحي في المعافاة مِن العديد من أنواع الأوبئة والطواعين، ويستدلان على ذلك بما نقله أحد اليهود مِن كون أنّ ذهابهم للحمامات كانت تعدُّ بالفعل مكاناً للتَّخلص من الأوساخ والبحث فيها عن المعافاة[4]، لكن هذا وإن كان يمكن أن يوجد فعلا فهو مُعلَّقٌ بتوفر شرط آخر لا يقل أهمية عنه وهو ما لم يذكره الشاهد اليهودي ولم يشر إليه الناقلان، ونقصد به ضرورة الالتزام أثناء ذلك باستعمال الأدوات النظيفة غير المستعملة من قبل وهو أمر يصعب الحصول عليه في الحمامات خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

بناء على ما سبق يمكننا الحديث فعلا عن التأثير المزدوج للذهاب إلى الحمامات، فمنها ما هو إيجابي يكمن في تنظيف البشرة والحصول على درجة

---

(1) -H.-D. DE GRAMMONT: Correspondance des consuls d’Alger (1690-1742),P64.

(٢) – انظر:

- Document 6: Propagation d’une épidémie: la peste à Alger en 1787.

(٣) – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٦٣.

(4) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P237.

الحرارة المرتفعة التي تكون بمثابة مانع من تطور الجرثومة وانتقاله إلى مرحلة أخطر، وفي نفس الوقت له جانبه السلبي وهو الغالب حسب رأينا ويكمن في أن ينتقل المكان من كونه مكاناً للبحث فيه عن النظافة إلى كونه مكاناً تجتمع فيه مسببات المرض سواء من المصابين فعلا أو عن طريق انتقال الجراثيم بين الحضور في الحمامات.

إضافة إلى الحمامات توجد أيضا التجمعات العامة والتي كانت تكون إما في المقاهي أو في المناسبات الخاصة مثل الأعياد الدينية، إذ كثيرا ما أسهمت هذه التجمعات في نقل الوباء ولعل هذا ما يفسر من خلال دراسة ظاهرة تزايد عدد السكان المصابين بالوباء بعد عيد الفطر لسنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧مـ) نفس الأمر يتحدث عنه «مارشيكا» إذ يشير إلى أنَّ عدد الضحايا كان في ارتفاع بعد عيد الفطر، ويرجع ذلك للاحتكاك الكبير الذي يحدث بين الناس إذ يقدم الجميع من سكان وتجار ويهود وكبار رجال الدلولة وضباط الجيش ورياس البحر لتهنئة الداي بالعيد[١] ويلتقي الجميع ببعضهم فيؤدي ذلك لا محالة إلى تيسير انتقال المرض أو الوباء من جهة إلى أخرى فتتجاوز بذلك الإصابات بالمرض من العشرات لتصل إلى المئات والألاف بُعيد عيد الفطر، فينتقل مثلا عدد الضحايا من متوسط خمسين ضحية في اليوم إلى متوسط مائة ضحية في اليوم بعد العيد بيومين والشكل التالي يوضح ذلك[٢].

---

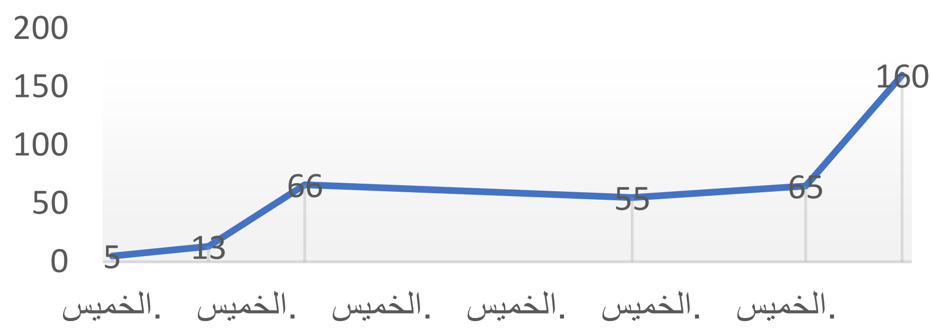
(1) - Jean Marchika: op.cit., P158.

(٢) هذا المنحنى البياني أنجز اعتمادا على ما ورد في عدد من المراجع أهمها:

=

منحنى بياني يوضح ارتفاع عدد ضحايا الوباء قبل وبعد عيد الفطر

سنة (١٨١٧مـ) في مدينة الجزائر



من الأمور المساعدة في انتشار الأوبئة في القطر الجغرافي للإيالة الجزائرية ولا يُنتبهُ له كثيرا، تنامي حركة السكان الداخلية، خاصة بين قاطني المدن وسكان الأرياف، وإذا أردنا دلائل على أهمية هكذا عنصر في انتشار الأوبئة مِن مكان إلى آخر ومدى تأثيره وجب علينا إجراء مقارنة معقدة بين انتشار الأوبئة والأمراض بين فترتين زمنيتين مختلفتين أولهما تنطلق مِن مُنتصف القرن السادس عشر وتنتهي مع نهاية القرن السابع عشر(١٥٥٠-١٦٩٩) وهي فترة تُعدُّ فترة ترسيم الوجود العثماني في الجزائر وتجذره ومقارنتها بالطرف أو المرحلة الزمنية التالية

=

- J.-L.-G. Guyon: **Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à a nos jours**
- Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830)

والتي تمتد من بداية القرن الثامن عشر و وتنتهي بالاحتلال الفرنسي لإيالة الجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠) وهي فترة نمت فيها الروابط بين السلطة السياسية والفعاليات الاجتماعية، كما تطورت فيها علاقة الريف بالمدينة.

والملاحظ أنَّ الطرق التجارية بين الريف والمدينة خلال المرحلة الأولى من الحكم العثماني (١٥٥٠-١٦٩٩) لم تكن قوية، بحكم أنَّ السُّلطة السياسية كانت غارقة في صراعات مِن أطراف متعدد من أجل بسط سيطرتها الجزائر، وغدت السلطة السياسية خاصة في القرن السادس عشر تسعى إلى توطين وجودها بالتَّخلص من أعدائها في المنطقة[1]، وعلاقاتها الاقتصادية كانت مرتبطة بالمحيط الخارجي أكثر من ارتباطها بالحيز الداخلي، وهذا ما ضمن الحركية الاقتصادية داخل المدن، فالمداخيل المالية كانت مرتبطة أساسا بالنشاط البحري للأسطول الجزائري، وما يحقِّقه في هذا الإطار مِن غنائم كان بدوره يدخل تلقائيا ضمن تنشيط الدورة الاقتصادية داخل هذه المدن، إضافة لهذا فالتزام بعض الدول الغربية - نتيجة المعاهدات والاتفاقيات مع إيالة الجزائر- بدفع ضرائب موسمية أو هدايا سنوية ضمنت للسُّلطات السياسية العثمانية في الجزائر وكبار رياس البحر؛ مبالغ مالية وممتلكات قدَّرها الأب دان مثلا بـ ٢٠ مليون فرنك[2] الحركية المالية، وعليه توفرت الاحتياجات الأساسية للنشاط الاقتصادي الداخلي للمدن؛

(1) - Ernest Mercier: Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la coqueté française(1830), Ernest Leroux, Paris, T3, P70-86.

(2) - Ernest Mercier: op.cit., P147.

إذ أن وجود الموارد المالية – نتيجة أسر بعض السفن الغربية – من جهة، ووفرة السلع المختلفة القادمة مِن الموانئ الأوروبية –نتيجة توفر الأسطول البحري القوي ووجود المعاهدات التجارية مع دول أخرى– من جهة ثانية، إضافة إلى وجود الكثافة السكانية المعتبرة من جهة ثالثة، هذا الثالوث جعل المدن الكبرى ترتبط بعلاقات تجارية مع الخارج أكثر من ارتباطها مع نظيراتها الداخلية.

واقتصرت الحركة الداخلية للأفراد أو الجماعات على بعض التخوم المحاذية للمدن الكبرى، وهذا في الغالب للعمل على توفير ما تحتاجه هذه المدن مِن المواد الأولية إن اقتضت الحاجة لذلك، وقد عدّ لوسي فلانسي حجم المبادلات شيئا لا يكاد يذكر، إذ أنَّ المبادلات الداخلية مع المناطق الجنوبية لا تتم إلاَّ مرَّة واحدة أو مرتين في السنة[1]، ما جعلها تجارة منتظمة لكنها غير مؤثرة، لكن ما يهمنا في هذا المقام ليس النشاط التجاري ولن نناقشه هنا، وإنَّما ما نبحث عنه في هذا الأمر هو حركة القافلة وكيف لها أن تعمل من غير دراسة على انتشار الوباء من مكان ظهوره إلى من مكان آخر.

ومما يُمثَّل به في هذه الطرق التجارية التي ممكن أن تكون قد أسهمت في انتشار الأوبئة بشكل مباشر، ذلك الطريق التجاري بين مدينة جيجل في الساحل الشرقي للجزائر ومدينة الجزائر باعتبارها العاصمة، والذي أُنشئ بهدف توفير حاجيات السلطة الحاكمة في مدينة الجزائر مِن الأخشاب لتجهيز السفن[2]، لكن

---

(1) - Lucette Valensi: op.cit., P 58/59

(2) - Ernest Mercier: op.cit., P145.

مع الوقت أصبح طريقا تجاريا دائما، وهو يدخل ضمن طرق أخرى في التل كنا قد سبق وأن أشرنا إليها[١] وهو قد يكون بدون شك أحد مسببات انتقال الوباء أكثر من مرة مِن مدينة الجزائر إلى جيجل، ومن الأخيرة قد يُنقل مع التُّجار إلى مناطق أكثر توغلا في الداخل عن طريق مسار سطيف قسنطينة فبسكرة.

ومن طرق المواصلات أيضا التي وُجِدت بشكل دائم بين عاصمة الإيالة ومختلف المناطق خاصة في الجنوب الجزائري، تلك الطريق الرابطة بين مدينة الجزائر وغرداية عن طريق بسكرة، والتي كانت تُعدّ طريق ربط محوري بين الجنوب والشمال[٢]، خاصة أننا نعلم بأنه يوجد العديد مِن الحرفيين البساكرة والميزابيين الذين كانوا يستقروا بمدينة الجزائر ولم ينقطعوا عن موطن نشأتهم حسب هايدو، ما يجعل انتقالهم بين الفينة والأخرى خاصة في فترات انتشار الأوبئة هروبا منها شيء وارد بشدة؛ الأمر الذي يسمح بانتقال العدوى من منطقة جغرافية إلى أخرى.

كما أنّ تلمسان بقيت معبرا محوريا للسلع القادمة من إفريقيا[٣] جنوب الصحراء وإن اختلف في حجم مبادلاتها إلا أنها مثبتة، والأمر الذي يجعل احتكاك سكان تلمسان مع غيرهم من سكان الإيالة من شانه أن يساهم في نقل الأوبئة من الإيالة إلى غيرها أو العكس، يعني نقل الوباء مثلا من المناطق الغربية أو المغرب الأقصى أو من إفريقيا إلى المناطق الداخلية للإيالة.

---

(١) - راجع ما كنا قد تطرقنا إليه في مبحث "انتقال وانتشار الأوبئة"

(2) - William Shaler: op.cit., P105.

(3) -Lucette Valensi: op.cit., P58/59

يضاف إلى ما سبق الحركة الناجمة عن قيام البايات بالزيارة السنوية لمركز الإيالة من أجل دفع الدنوش، إذ كثيرا ما كان التنقل سببا رئيسيا في نقل وحمل الوباء والطاعون من مكان إلى آخر، فنجد على سبيل المثال أن تصادف سنة دفع الدنوش مع وجود وباء في مكان ما يقضي بصفة قطعية بظهور الوباء في المكان الآخر، فمن ذلك نجد أنّ أحد الأسباب الأساسية في تسرب الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر سنة (١٧٩٣مـ) من المدينة إلى قسنطينة هو قيام باي قسنطينة بزيارة الجزائر لأجل دفع الضريبة الدورية[١] والتي كانت تُقدَّم كلَّ ثلاث سنوات، الأمر نفسه نقف عليه مرة أخرى عند قيام باي بيلك الغرب الجزائري بزيارة الجزائر لدفع الدنوش في الوقت الذي كان الوباء ينتشر في المنطقة.

ولعلَّ مِن الأسباب الرئيسة التي أسهمت في عدم السيطرة السريعة على انتشار الأوبئة غياب مؤسسات استشفائية أو طبية محترمة ومجهزة، إذ لا تشير المصادر على اختلافها إلاَّ إلى النزر القليل جدا، فمدينة الجزائر مثلاً التي كانت عاصمة الإيالة لم تتجاوز بها عدد المستشفيات خلال الربع الأوّل مِن القرن التاسع عشر خمسة مستشفيات على الأكثر[٢]، والأغرب أنَّ من بين هذه المستشفيات واحد إسباني وآخر فرنسي تابعان للإرساليات المسيحية أو لجمعيات فداء الأسرى الإسبانية والفرنسية، وما يزيد الأمر حيرة هو أنّ مدينة الجزائر التي قُدَّر في أقلّ الدِّراسات إنصافا عدد السكان بها بما يفوق ٢٥٠ ألف نسمة لم يوجد بها إلاَّ خمسة

---

(1) - Jean Marchika: op.cit., P142.

(٢) – أف شونبيرغ: المصدر السابق، ص ٧٤-٨٦.

مستشفيات، أي بنسبة ١/ ٥٠٠,٠٠ نسمة، والمستشفى لم يكن يتسع غالبا لأكثر من ١٠٠ مريض.

الانكماش الديمغرافي لساكنة الجزائر:

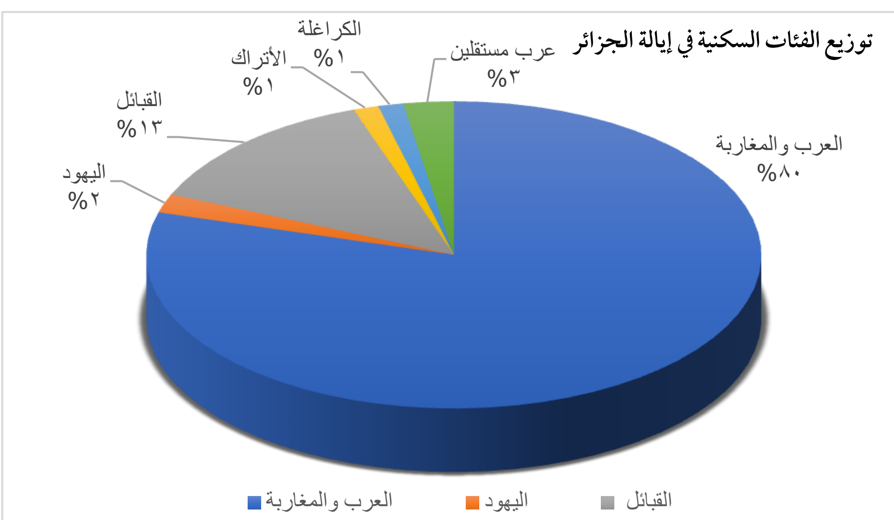
قبل أن نخوض في غرضنا مِن هذا المبحث وجب أن نقدِّم بتوطئة لما نروم إيضاحه، فنقول أنَّ مِن البُنى التَّحتية التي يرتكز عليها تاريخ الأوبئة والأزمات الغذائية وكان لها تأثيراتها الكبرى الكثافة السُّكانية لحيز جغرافي ما، وما سنتحدَّث عنه مِن آثار مُدمِّرة كانت للمجاعات والأوبئة خلال القرن الثَّامن عشر والتَّاسع عشر، بحيث لم تبق آثاره خاصة بإيالة الجزائر فقط، بل تعدَّت آثار هذه الأزمات لتشمل العالم المتوسطي ككل، فنقف على اختلالات للتوازن السّكني عرفتها هذه المنطقة وهي ما تعد بحق ارتدادات دأبت على إحداثها الأوبئة في تاريخ المتوسط بداية من القرن الثالث عشر خاصة في جهته الشمالية[1]، والأمر المُدمِّر الذي عاشته أوروبا في قرونها الوسطى هو ما كانت تعيشه الإيالة الجزائرية خلال القرن الثَّامن عشر وبداية التَّاسع عشر.

كما مر بنا وسبق ذكره لا يخلو بناء نموذج عام للكثافة السكانية في إيالة الجزائر من صعوبات كثيرة، ففي بداية الأمر علينا أن نرى الصورة العامة التي كانت عليها إيالة الجزائر خلال المرحلة محل الدراسة، وهذا الأمر يصعب رصده بدقة عالية، فأولا هناك شح في المعلومات وعدم دقتها، وهناك ثانيا معطيات

(1) - Daremberg Georges: op.cit.,P01.

عددية متضاربة، ففي حين نجد الكثير مِن الدِّراسات الغربية عموما والفرنسية تحديدا تتَّفق فيما بينها على أنَّ إيالة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تكاد تكون خالية تماما مِن السَّاكنة، مع أن الأرقام التي سنوردها تعوزها الدقة بسبب غياب وثائق تؤكدها إلاَّ إنَّه لا يسعنا بأي حال الاستغناء عنها.

حيث تورد هذه الدراسات إحصائيات مختلفة عن عدد السُّكان في الإيالة فنجد مثلا التَّقارير العسكرية تتحدَّث عن قلَّة الكثافة السُّكانية للجزائر بشكل مريب، بحيث تجزم بأنَّ تعداد الساكنة من الأهالي في الجزائر قاطبة لا يتجاوز مليون وثمانمائة وسبعين ألفٍ (١,٨٧٠,٠٠٠) نسمة مقسمين على ست فئات كما هو موضح فيما يلي[1]:



مجموع الساكنة حسب هذه التقديرات لا تتجاوز: ١,٨٧٠,٠٠٠ نسمة.

---

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P111.

بل وتذهب هذه التَّقارير إلى أنّ الحديث عن مليون وثمانمائة وسبعين ألف قاطن في الجزائر هو من باب المبالغة، وترى هذه أنَّ حقيقة التَّواجد السُّكاني في المنطقة باستقراء الوجود السُّكاني في المدن الكبرى كان لا يتجاوز مئة واثنين وسبعين ألف (١٧٢,٠٠٠) وقرَّرت هذه الدِّراسات أنَّ هؤلاء هم سكان المدن الكبرى كما وتتساءل في نفس الوقت كيف يمكن أن يكون الوجود السُّكاني خارج هذه الحواضر أكثف منه فيها[١]. فيما يقرِّر ميشال بيروت (Michel Perrot) بأنّ عدد سكان إيالة الجزائر في أحسن الأحوال لم يتجاوز المليونين والنِّصف[٢] (٢,٥٠٠,٠٠٠) نسمة على أكثر تقدير، وترى «لوسيت فلنسي» -وهي التي وضعت كتابها في فترة مُتأخِّرة عن مَن تقدّم ذكرهم- أنّ عدد سكان الجزائر قبل (١٨٣٠مـ) لم يتجاوز على الأغلب ثلاثة ملايين ساكن (٣,٠٠٠,٠٠٠)[٣].

وهذه الأرقام كما تمت الإشارة إليه تصب في اتجاه واحد هو إعلام المُطَّلع على هذه التقارير من الجهات الرسمية الفرنسية أنَّ هذا المجال أو الحيز الجغرافي يكاد يكون خالياً مِن السُّكان. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ يمكن أن نجد تبريره في كون أنَّ مُعظم من تصدى لكتابة هذه التقارير هم من الأقلام العسكرية ، وتكتب وفق تصور ومنهج وخطة محددة سلفا كانت تهدف في الأساس إلى إقناع السلطة الفرنسية أو المواطن الفرنسي البسيط بأنّ هذه الأرض (الجزائر) فارغة وتحتاج لمن يُعمِّرها ويستقرّ بها.

---

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P111.

(2) -Perrot, Aristide-Michel: op.cit., P16.

(3) - Lucette Valensi: p20.

فيما يرى «حمدان بن عثمان خوجة» أنَّ عدد سُكان الجزائر كان لا يقل عن عشرة ملايين نسمة قبل الدخول الفرنسي للجزائر[١]، فيما تتفق ملاحظات الرَّحالة والقناصل والإحصائيات المبنية على ملاحظات مَن زار الجزائر مِن الأوروبيين خلال العهد العثماني أنَّ إيالة الجزائر خلال القرن التَّاسع عشر كان تعرف تراجعا كبيرا ومُطَّرداً في النُّمو الديمغرافي، أدى بدوره إلى تراجع نسبة ساكنة مدينة الجزائر، فعلى سبيل المثال تراجع تعداد ساكنة المدينة مِن مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) حسب رواية الأب «دان» إلى خمسين ألفا (٥٠,٠٠٠) في منتصف القرن الثامن عشر، لينتهي إلى قرابة الثلاثين ألف نسمة أثناء الدخول الفرنسي إلى مدينة الجزائر[٢].

إلاّ أنّ هذه الإحصائيات تبقى محل تجاذبات وتوقعات لا أكثر، فكما لا يمكن الحديث عن وجود عشرة ملايين من الساكنة تؤكدها التقييدات الرسمية فلا يمكن الركون بأي حال إلى القول أنَّ عدد سُكان الجزائر كان يبلغ حوالي المليون وثمانمائة (١,٨٠٠,٠٠٠) كما أوردته بعض الإحصائيات العسكرية الفرنسية أو أقل من ذلك كما ذهبت إليه تقديرات الرَّحالة الغربيين.

أما تحاملنا على بعض الإحصاءات التي أوردها الرَّحالة في كون أنَّ مُعظمهم لم تكن تسمح لهم قدرتهم على الإحاطة بالتّقديرات وغالبيتهم التزم نفس

(١) – حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، ص٠٨.

(2)- H.-D. DE Grammont: Histoire D’Alger sous la domination Turque (1515-1830), P240.

المسار خلال رحلتهم واقتصرت زيارتهم إن وجدت على مدن بعينها لا أكثر، لذا لا يمكن اعتماد كلِّ ما أوردوه خلال رحلاتهم على أنها مسلمات، وإن كانت تقديراتهم ومعلوماتهم تُلقي بظلالها على ما سنقف عليه في هذا المبحث، فهي في الأخير الأنيس الوحيد لما نحاول الحديث عنه في هذا المقام.

وإذا قد ظهر لنا جواب ما جنح إليه المختلفون حول عدد ساكنة الجزائر قبيل المرحلة المعنية بالدراسة فمن الواجب أن نعود إلى ما هو غرضنا ونتحدَّث عن محاولتنا مقاربة المعطيات المتوفرة على ما يعتريها مقاربة تاريخية نفهم بها تأثيرات المجاعات والأوبئة على المجال الديمغرافي في الحيز الجزائري. وننطلق في هذا المسار مما أوردته بعض المصادر المحلية عن آثار الأوبئة بشكل عام على الإيالة من ما أورده الورثيلاني في رحلته عند حديثه عن مدينة بسكرة بقوله:«..مع نفوذ الوعيد فيها مِن أمر الوباء؛ حتَّى صارت في قلة؛ بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار، بل عن أوصاف المدن الصِّغار، فهي الآن لا حمام فيها ولا سوق يعتبر منها...»[1] ونقف على ما يورده أحد الكتاب ما ينقله «راتسيو مداندي» عن أحد المصادر المجهولة المؤلف -والتي شهد صاحبها الوباء الذي عرفته الجزائر خلال سنتي (١٧٥٢-١٧٥٣مـ)- تتحدَّث عن انهيار الوضع الديموغرافي لمدينة الجزائر نتيجة الوباء الذي ضرب المدينة سنة (١٧٥٣) بلغ ثُلث سكان المدينة، وقد خصَّ بالذكر أنَّ معظم الضَّحايا كانوا ممّن يقطنون في بيوت ذوات أفنية واسعة ومفتوحة، كما ذكر أنّه بسبب هذا الوباء أيضا تُوفي قرابة ثُلثَي المرضى

(١) – الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، المجلد الأول، ص٢٤١.

الذين كانوا يقطنون المستشفى الإسباني في المدينة، كما تحدثت العديد من الوثائق الأرشيفية عن شدة هذا الوباء وإن لم تفصح على أعداد بعينها واكتفت بالحديث عن شدة الوباء سنة (١٧٥٢م) في مدينة الجزائر[1]، أمَّا الحديث عن أعداد الموتى الأوروبيين في المستشفى فيعود غالبا إلى الضيق المتزايد على المستشفى والعدد الكبير للمرضى في هذا المستشفى[2]، وهذا مما يرفع من إمكانية أن يكون هذا الوباء في الغالب هو الطاعون الرئوي الذي ينتقل عبر الهواء.

والحديث عن ثُلث سكان مدينة ما ليس بالأمر الهين، فلو اعتمدنا أقل التقديرات التي أوردتها المصادر الغربية لساكنة الجزائر خلال تلك المرحلة نجدها في حدود (٥٠٠,٠٠٠) خمس مائة ألف نسمة، ومعلوم أنَّ ثُلث هذا الرقم -على افتراض أنه أقل التَّقديرات- يتجاوز (١٥٠,٠٠٠) مائة وخمسين ألف نسمة، وفقدان رقم كهذا في وباء واحد يستمرُّ ثلاث سنوات سيغير لا محالة في الكثير مِن الأمور والمعطيات المُتعلِّقة بالمدينة لا في الزمن الآني فقط وإنما في الزمن المستقبلي، سواء في جانبها الاقتصادي أو التِّجاري أو في منظومتها العسكرية أو حتَّى في حركيتها الحضرية والفكرية.

ولا يخفى الآثار البارز للمجاعات والأوبئة على النُّمو الديمغرافي للسَّاكنة في منطقة ما، فنجد مَثلاً الوباء الذي ضرب المنطقة المُمتدَّة مِن طرابلس الغرب إلى المغرب الأقصى قد أحدث آثاراً كبيراً في تغير الخارطة السُّكانية للمنطقة ككلّ،

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/125. Cotes: F °46-50. 30 /06/1752.

(2) - Jean Marchika:op.cit., P96،97.

فلم يترك المدن الكبرى إلاَّ وقد أتى على جزء خطير جِدّاً منها فنجده مثلا يقضي على جزء كبير مِن ساكنة مدينة طرابلس الغرب على ما يقدر بثمانية عشر ألف ضحية» مِن مجموع سكان المدينة والذي قدر حينها بـ «خمسة وأربعين ألفا» أي ما يقدر بنسبة (٤٠٪) مِن سكان المدينة ويقضي على ألف يهودي من بين خمسة آلاف كانوا يستوطنون المدينة أي ما نسبته (٢٠٪) من يهود هذه المدينة، والأمر سيان في تونس فنقف على أرقام كبيرة لعدد ضحايا هذا الوباء في سنته الأولى (١٧٨٤مـ) ما جعل «ديسفونتاس» يعَدُّه سبباً رئيساً في القلاقل التي كانت تعرفها مدينة تونس خلال تلك المرحلة وأتى فعلا على ثمانية آلاف (٨٠٠٠) ضحية من اليهود الذين كان يقدر عددهم بقرابة الستين ألفا (٦٠,٠٠٠) أي ما نسبته (١٣,٣٣٪) وقد ظلَّ خلال الأيام الأولى يأتي على ما يقارب الألف (١٠٠٠) ضحية يوميا مِن المسلمين لينخفض الرقم إلى حدود الخمسمائة في الأيام الأخرى، بل إنَّ الأمر انتهى إلى سقوط حوالي ثلاثمائة ألف ضحية في تونس من جملة ما قيل أنَّه مليون ساكن للإيالة خلال تلك المرحلة[1]، أي أنّنا نتحدَّث عن ما لا يقل عن (٣٠٪) مِن السَّاكنة وهو عدد مهول إذا أسقطناه على واقعنا الحالي فكأنما نقول أنَّ الآثار الذي تركه هذا الوباء على الإيالة التونسية يفوق مجموعه ما أسقطته الحروب مع الدول الأوروبية مِن حملات بحرية خلال العهد العثماني بل تصبح المواجهات الحربية طيلة ثلاثة قرون ونصف من تاريخ تونس أمر على عِظمه بسيطا. وهو ما يمكن أن نستشفه من الوصف الذي أطلقه (*Desfontaines*) على الوباء الذي ضرب تونس

---

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P-226 220.

سنة (١٧٨٥مـ) قائلا بأنّه:«...وباء دمَّر البلاد ...وقلَّص عدد السُّكان بشكل كبير جِدّاً...»[١].

أمّا بالنسبة للآثار الذي خلَّفه هذا الوباء على الإيالة الجزائرية فإنَّه لا يختلف كثيرا إذ وبالرغم ممَّا قام به كلّ مِن داي الجزائر «محمّد بن عثمان باشا» و«صالح باي» حاكم بيلك الشرق الجزائري إذ حاولا اتّخاذ بعض الإجراءات التي مِن شأنها كبح جماح التَّقدم الذي كان يعرفه هذا الوباء مِن مدينة بونة السَّاحلية إلى غيرها من المدن الداخلية سنة (١٧٨٦مـ)[٢]، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع من أنَّ أثره كان شديداً على التركيبة السكانية بالفعل، لم يكن يخف تماما إذ نجده يقضي على سكان مدينة القالة بأكملها أو في حالة أحسن على نصف سكانها مثل ما تورده رسالة مِن وكيل الشركة الإفريقية مؤرخة بـــ(٢٥ ماي ١٧٨٦مـ) يتحدّث فيها الوكيل السيد «هيوس» (*Hugues*) عن سقوط نصف سكان مدينة القالة ضحايا لهذا الوباء الذي كان يهاجم المدينة بقوة سنة (١٧٨٦مـ)، بل ولا يتوقف الأمر ههنا بل إن هذا الوباء جعل النصف الآخر من السكان يسعى للانتقال من المدينة إلى غيرها، وهذا إن دلّ على شيء فإنَّما يدلُّ على الآثار المدمِّر لهذا الوباء[٣]، وتأثيراته على الديمغرافيا العامة للمدينة، ولعل مما يبرز الآثار الكبير الذي خلَّفه هذا الوباء والذي امتد آثاره إلى مدينة الجزائر سنة

---

(1) - Peyssonnel et Desfontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d’Alger, pub par Dureau de la malle, T 2, P226.

(2) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/142. Cotes: F °171-168. 08/0681786.

(3) - Lettre de M. Hugues dans Histoire des villes de la province de Constantine Charles Féraud, P.432

(١٧٨٧م)[1] على الكثافة السُّكانية في مدينة الجزائر، وتحديداً بين فئة اليهود إذ متوسط النَّجاة لم يتجاوز خُمس هذه الفئة الموجودة بالمدينة، فتحدَّث عن نجاة أقل مِن عشرة أشخاص مِن مجموع أربع وخمسين زواجا من هذا الوباء[2]، وينقل في موضع آخر رقماً كبيراً لعدد الضحايا مِن الأطفال الذين قضى عليهم هذا الوباء في شهر واحد، وقد قُدِّر بأربعمائة طفل خلال شهر واحد[3]؛ هو أمر ولا ريب لن يتوقَّف على الكثافة العددية لهذه المجموعة ضمن المرحلة القريبة فقط، بل يتعدَّى تأثيره إلى المراحل اللاحقة في تاريخ هذه الفئة.

وقد تصبح الآلية التدميرية للأزمة أكثر ضرارا إذا تزامنت الأزمة الصحية مع الأزمة الغذائية كما حدث في بيلك الغرب عموما سنة (١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م) والتي كان مِن نتائجها الآنية القضاء على عدد كبير جدا مِن ساكنة المدينة[4]، بالإضافة إلى تزامن الوباء والمجاعات مع كوارث طبيعية أخرى كان يؤدي دون أدنى شك إلى تبعات كبيرة على النمو الديمغرافي للساكنة، إذ نجد أن تصادف وباء سنة (١٨١٧م) مثلا مع الزلزال[5] الذي ضرب مدينة الجزائر خلال تلك المرحلة جعل الخسائر تتضاعف على مستوى عدد ساكنة المدينة بشكل جعل المدينة تبدو وكإنَّها مدينة أشباح.

(1) -C.C.F.A [AF. é] : AE/B/I/14٢. Cotes: F°143. 29/08/1787.

(2) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, (A.I.P.T) 228

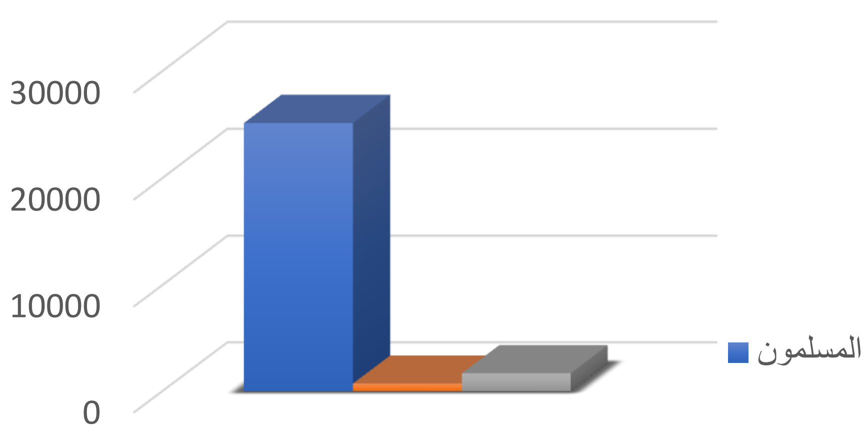
(3) - Ibid.: P230.

(4) - Walsin Esterhazy: op.cit., P19٠.

(5) - Jean Marchika:op.cit., P156.

وهذا الأمر سيؤثِّر لاحقا على تباطئ النُّمو السكني الموجود في البيلك في المرحلة القادمة إذ أنَّ العوز والحاجة ستكون على أشدِّها ما يُصعِّب تدارك الأمر في مدَّة وجيزة. ويفصِّل البعض آثار التأثيرات الديمغرافية خلال الامتداد الزمني لهذا الوباء على مدار سنتين منحصرتين ما بين (١٧٨٥مـ)-(١٧٨٨مـ) بما يُقدَّر بثلاثين ألف ضحية، أي بمعدل لا يقل عن عشرة آلاف ضحية سنويا، وقد وُزِّع عدد الضَّحايا حسب المعطى العددي التالي[1]:

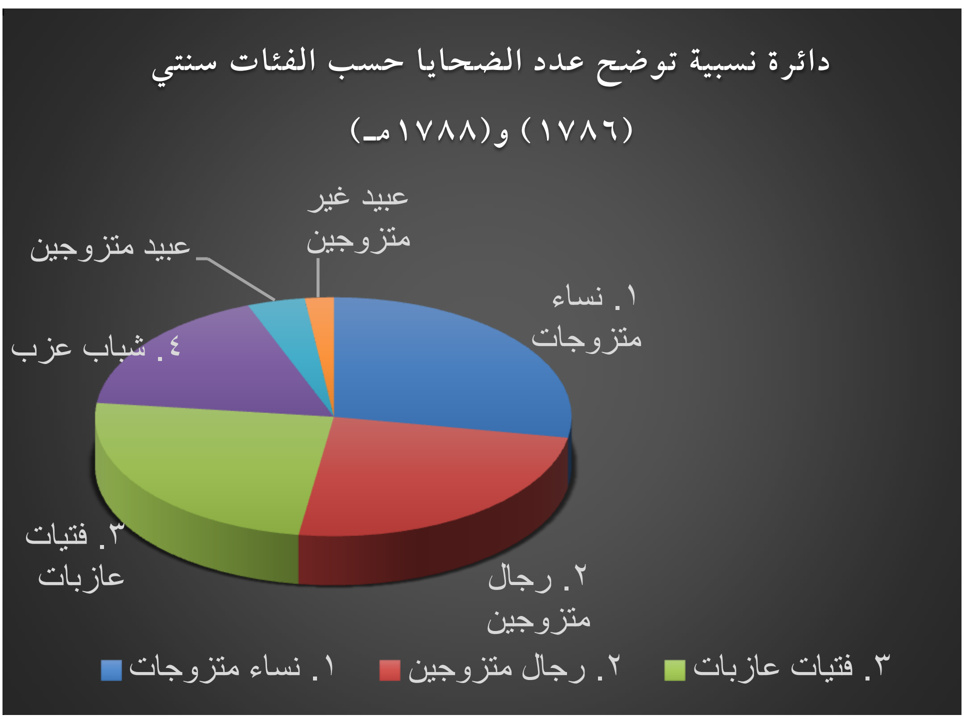
توزيع عدد الضحايا بين الفئات الإثنية في مدينة الجزائر خلال وباء (١٧٨٨-١٧٨٥مـ)



وعليه نجد أنَّ تأثير هذه الأعداد والأرقام لن يبقى حبيس هذه السَّنوات وإنَّما سينعكس حتما على العقود التَّالية، فنجد أنَّ هذا الأمر سيؤدي بشكل غير مباشر إلى قلَّة عدد الشباب أو البنات الصالحين للزواج وهو ما ينعكس بشكل آخر على

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P239.

عدد المواليد مقارنة مع عدد الوفيات التي حققها هذا الطَّاعون، هذا الاختلال سينعكس على مسار تطور المدن الكبرى، وقد بنيْنا موقفنا هذا على جملة مِن المعطيات الرقمية التي أوردها أساسا كل من الأب «فيشرا» و«كونر» نقلا عمَّا قال أنّه سجل قُيِّدت فيه عدد الجثث التي دفت فعلا خلال ثلاث سنوات تمتد ما بين (١٧٨٦-١٧٨٨مـ) إذ يورد في هذا الإحصاء معلومات عن عدد الجثث المدفونة حسب الجنس والعمر[1]، وقد حاولنا تبسيطه مِن خلال دائرة نسبية تشمل الفئات المعنية فتحصَّلنا على دائرة نسبية ممثلة في الشكل التالي:



---

(1) - Marthe Conor: op.cit., A.I.P.T, P239.

وممَّا يلاحظ على الشكل السابق ارتفاع نسبة المدفونين مِن الإناث والنِّساء المتزوجات، والتي يغلب أن تكون لهم مِن نسلهن أطفال، وعليه هم سببٌ رئيسٌ لازدياد الكثافة السُّكانية كما تحتل الفتيات القادرات على الإنجاب بدورهن المرتبة الثانية مِن حيث عدد الجثث المدفونة وعليه هي خسارة ثانية لتطوُّر الكثافة السكانية، أي أنّ هذه الفئة كانت بالإضافة إلى الأخطار الطبيعية التي تهدد حياتهم قد شدَّد الوباء خلال هاتين السَّنتين مِن استهدافها، وهو ما يمكنه تفسير التباطؤ في نمو الكثافة السُّكانية للجزائر خلال تلك المرحلة وإن كان لا يمكننا الجزم بذلك حاليا فيمكننا الحديث عن الوباء في هاتين السَّنتين على الأقل كأحد أسباب الحد من النُّمو السريع للكثافة السكانية على الأقل.

لكن ما سبق الحديث عنه لا يعني بأي حال بأنَّ المرض أو الوباء أو حتَّى المجاعة قد تنتقي، بل نجد أنَّ هذه الإحصاءات وإن كان فيها بعض الدلالات الديموغرافية لكن مستوى تأثيرها مِن ناحية تلقي المرض قد لا يختلف كثيرا بين النساء والرجال[1]، وإن افترضنا أنَّ الأوبئة تفتك بالرجال أكثر بسبب إنَّهم الأكبر عرضة للاحتكاك مع المصابين بالوباء خارج أسوار العائلة، فإن تأثير إصابة النساء خاصة منهم الأمهات يكون أصعب باعتبار إمكانية خسارة فرد قادر على المساهمة في النُّمو الديموغرافي المباشر.

---

(1) - Bourgin, Pierre: Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole, P47.

كما كان مِن نتائج القحط الذي ضرب منطقة وادي سوف سنة (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣مـ) أن عزّ الكلأ والمؤونة ما أدى بعد ذلك بأشهر إلى حدوث تنازع بين القبائل المحيطة بالوادي بل وبين أهل الوادي أنفسهم، فيمن يكون له الحقّ في استغلال الأراضي الخصبة التي آتت أكلها في المنطقة المشاعة بين الناس، ونشب اقتتال بين الناس؛ انتهى بنزوح عدد مِن العائلات الصحراوية البدوية إلى الحواضر هروبا مما قد يدركهم بسبب القحط والمواجهات المتجددة[١]، كما نزحت عائلات عدة باتِّجاه الصّحراء الشّرقية أي الحدود الجزائرية الليبية حاليا، والتقت مع أهالي «صحراء غدامس» الذين عجبوا لحال أهل الصحراء الجزائرية وما لحقهم من جوع وعراء بسبب القحط الذي أصاب الأرض والجدب الذي أدرك المنطقة[٢].

الأمر نفسه تتحدَّث عنه إحدى الوثائق القنصلية الفرنسية إذ تنقل رسالة القنصل الفرنسي في الجزائر أنَّ تأثير الوباء هذه المرَّة كان كبيرا جداً، وأنَّ استمراريته خلال أربع سنوات في إيالة الجزائر مُمتدَّة مِن (١٨١٧مـ) إلى (١٨٢٢مـ) قد أحدث خسائر كبيرة في الأرواح كان لها انعكاسها على التِّعداد العام للسَّاكنة[٣].

---

(١) – تاريخ الصحراء وسوف، ص٢٨٠.

(٢) – تاريخ الصحراء وسوف، ص ٢٨٠.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P179.

بل نجد أنَّ تكرار الهجمات الوبائية أدى كما جرت عليه العادة إلى خسائر فادحة تنعكس فعلا على تغيير التركيبة السكانية داخل المدن، فنقف على سبيل المثال بعد الوباء الذي ضرب مدينة عنابة سنة (١٨١٧مـ) على فقدان المدينة لنصف سكانها، بل أكثر من ذلك ما تورده بعض المصادر مِن أنّ عدد سكان المدينة أضحى لا يتجاوز الخمسة آلاف فرد (٥٠٠٠) فيما كان التِّعداد يُناهز اثني عشر ألفاً على أقل التّقديرات قُبيل هذا الوباء، أي أنَّ المدينة فقدت ما نسبته (٤٠٪) مِن سكانها خلال هذا الوباء فقط[1]، ويعضد هذا الرأي إحدى التقارير التي تقول بأنّ عدد سكان مدينة «عنابة» تراجع إلى النِّصف تقريبا بسبب تبعات الوباء الذي ضرب المدينة سنة (١٨١٧مـ) إذ كان عدد السكان يقدر بـ (١٢,٠٠٠) قبل هذا الوباء لكن نتيجة لفرار السكان من المدينة وما أحدثه من خسائر بينهم فقد أصبح عدد السكان لا يتجاوز الخمسة آلاف (٥٠٠٠) سنة (١٨٣٠مـ)[2]، وهو نفس ما نقف عليه عند «شارل فيرو» مِن خلال تأكيده بأنَّ الوباء الذي ضرب سنة (١٨١٦مـ) قد قضى على معظم سكان مدينة «القالة» والمناطق المحيطة بها حتَّى تركها خالية مِن السُّكان تقريبا وهو ما أتاح الفرصة لقبائل «أولاد عاشور» التي كانت تستوطن الحدود التونسية إلى التمركز بهذه الأحواز من جديد[3]. فيما تذهب التقارير العسكرية الفرنسية عن وضعية السكان

(1) -Perrot Aristide-Michel: op.cit., P 26.

(2) - Aristide Michel Perrot Alger, esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, Paris, 1830, P26.

(3) - Charles Féraud Laurent ; op.cit., P 396.

أثناء الدخول الفرنسي للجزائر إلى أنَّ عدد سكان مدينة القالة لم يكن يتجاوز ألفاً وخمسمائة نسمة (١,٥٠٠)(1) وهو رقم يُظهِر أنَّ المدينة أضحت خالية من السُّكان تماما نتيجة هذا الوباء.

وليس يُشك أنّ هذه الأرقام تصور حالة الاضطراب الديمغرافي الكبير غير إنَّه ينبغي لنا أن نسلم لها بهذه المعطيات العددية، فعلا يمكننا الحديث عن تراجع عدد السّكان والتأثيرات الكبيرة والفعلية السلبية للأوبئة والمجاعات على الواقع السكاني لمدينة «بونة» لكن مع ضرورة التحفظ على هذه الأرقام، إذ لا يخفى أنّ بعض هذه الأرقام كانت موجهة لتشجيع المُعمِّرين على القدوم والاستيطان في الجزائر، لذا لا يستبعد أن نجد فيها بعض المبالغات أو المغالطات، لكن هذا لا ينفي أنَّ الضربات المتكررة للأوبئة التي استهدفت مدينة القالة طيلة هذه المرحلة قد آثارت بشكل كبير في تعداد سكانها.

وقد كانت تقديرات الكثافة السكانية لمدينة الجزائر تختلف باختلاف المرحلة الزمنية، فإذا جئنا لتقديرات عدد سُكان مدينة الجزائر في الكتابات الغربية نجد مثلا أنّ (*Lucette Valensi*) يرى أنّ الحياة في الجزائر عموما كانت ريفية أكثر منها مدنية، ويتَّضح هذا الأمر تحديدا بتتبع عدد السُّكان، إذ يُقدَّر عدد سكان مدينة الجزائر غداة الاحتلال بما لا يتجاوز خمسين ألف (٥٠,٠٠٠) نسمة، وعدد سكان أهم مدينة في إقليم الشرق الجزائري لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف (٢٥,٠٠٠) نسمة وعدد سكان أكبر مدن الغرب الجزائري تلمسان لم يتعدَّ غالباً

(1) - Boutin Vincent-Yves: op.cit., P149.

سقف عشرينَ ألف نسمة(٢٠ , ٠٠٠)[1] بينما يتحدّث «ميشال بيروت» عن وصول عدد سكان قسنطينة سنة (١٨٣٠مـ) إلى الستين ألف فردا (٦٠ , ٠٠٠)[2].

هذه التأثيرات الديمغرافية لم تكن تقتصر على المدن الكبرى كما قد يُتوهم، بل تتحدّث بعض الدِّراسات عن كون الوباء الذي ضرب الجزائر سنة (١٨١٨مـ) وامتدَّ إلى الكثير مِن المدن فكان تأثيره كبيراً على الكثير مِن المدن مِن النّاحية الديمغرافية، فنجده قد أتى على خُمس سكان مدينة «بوسعادة"[3]، كما تحدَّث «غيون» عن سقوط ما يقارب مِن ستين (٦٠) ضحية من بين (٥٠٠) ساكن أي أكثر من (١٠٪) مِن سكان المدينة، وأكثر من ربع سكان إحدى قرى مدينة «جيجل» فقضى على ستين(٦٠) فرد من بين (٢٠٠) فرد كان يقطنها[4].

كما سقط بمدينة بسكرة ما بين (٤٥٠-٤٠٠) ضحية من بين عدد سكان لا يتجاوز (٣٠٠٠) ساكن أي تقريبا (١٥٪) من مجمل سكان المدينة، وفي مدينة طولغة القريبة منها سقط (١٥٠) من مجموع (٧٠٠)[5] أي (٢١ , ٤٢٪) وهي أرقام كبيرة لا محالة، خاصة ونحن نتحدّث عن عينات عشوائية لأوبئة متباعدة وغير تكرارية، فإن أتينا إلى دراسة الأوبئة التكرارية المتزاحمة مع كوارث أخرى طبيعية مثل الزلازل والجفاف أو بشرية مثل الحروب والاقتتال لحصّلنا نتائج أكبر مِن هذه بكثير،

---

(1)- Lucette Valensi: op.cit., P51.

(2) - Perrot Aristide-Michel: op.cit., P 23.

(3) - Jean Marchika:op.cit., P171.

(4) - Jean Marchika:op.cit., P169.

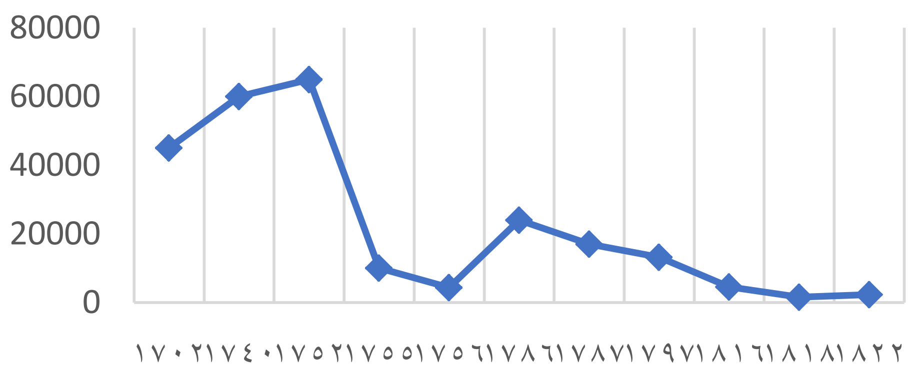
(5) - Jean Marchika:op.cit., P171.

بل إننا نقف بعد مقارنة بسيطة بين الأرقام المختلفة للوباء الذي ضرب إيالة الجزائر سنتي (١٨١٧مـ) و(١٨١٨مـ) على عدد ضخم مِن الضحايا، إذ نجد الرقم يناهز السبعة آلاف في سنة (١٨١٧مـ) ويقارب من ضعفه إذ قدّر بـ (١٤,٠٤٩) ضحية في السنة التالية (١٨١٨مـ)

وإذا كان هذا رقما مُتحقِّقاً فمن السَّهل الحديث عن الآثار الديمغرافي الكبير الذي أحدثته هاتان الأزمتان الصحيتان على الإيالة، ففقدان عُشر السُّكان خلال الوباء الواحد أو الوباءين يعد أمرا كبيرا وجللا، وإذ قد أتينا فيما مر بنا على ذكر أكثر من (١٨) مجاعة وحوالي (٢٥) وباء على الأقل ضربا الجزائر خلال المرحلة المدروسة (١٨٣٠-١٧٠٠مـ)، فإنَّ مجموع التأثيرات التي نجمت عن تسلّط المجاعات والأوبئة التِكرارية على النُّمو الديمغرافي للجزائر يفوق بكثير مجموع ضحايا الحروب والمناوشات الداخلية وحتى تلك الخارجية مع الدول الأوربية التي حدثت في جلّ أطوار تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ككل أي: (١٨٣٠-١٥١٥مـ).

وفيما يلي منحنى بياني يرصد أهم مراحل تطور أعداد ضحايا الأوبئة في الجزائر خلال مرحلة زمنية ممتدة ما بين(١٧٠٠-١٨٣٠مـ):

منحنى بياني يوضح مسار الأزمات الصحية في حصد الضحايا
في الجزائر (١٧٠٠-١٨٣٠ مـ)



كما أنَّ تأثير الاختلالات الديمغرافية جعل مِن أهمية المدن الجزائرية خلال العهد العثماني تتراجع بالتَّأكيد، فالكثافة السُّكانية كانت تعني بالضَّرورة حركية اقتصادية وتجارية، ما يعني حركة عبور مُستمرة للقوافل التِّجارية ما يؤثر بدون شك على الحركة الاجتماعية والثقافية والعلمية، بل نذهب إلى أكثر من ذلك عندما نتحدَّث عن تأثير الاختلالات الديمغرافية في تاريخ الإيالة ككل والذي تتجلى بعض مظاهره في الاحتلال الفرنسي للإيالة بعدما وجدت منهكة وتعاني في صمت.

مثل ما نقف على نقطة مهمة وهي تأثير الأوبئة والأزمات الغذائية على الهجرات القبلية، إذ نجد أن هذه الأزمات إضافة إلى أسبابها العامة من انعدام الأمن وغيره كثيرا ما أدت إلى حركات متتابعة لسكان المناطق المختلفة، فنجد أنه من نتائج الأزمة الغذائية التي ألمت ببيلك قسنطينة سنة (١٨٠٤مـ) وامتدت إلى ثلاث سنوات أخرى تغيرها في خارطة التمركز السكاني باتجاه عدد كبير من الناس

إلى مناطق غير تلك التي شهدت المجاعة من جهة وهروبا من أهوال الاضطراب الذي أحدثته ثورة «ابن الأحرش» في نفس السنة وفي هذا الشأن يقول «العنتري»: «...فحصلت للنَّاس شدَّة ومجاعةٌ قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك، خصوصا بعض نواحي القبلة فإنَّهم تشتتوا عن منازلهم وتفرَّقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشَّر والمصائب التي حلَّت بهم...»[1] ويكفي أن نذكر أنَّ استقراءنا للمصادر المختلفة ومحاولتنا رصد متوسط ضحايا الأوبئة والغذائية خلال المرحلة الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) قد أوصلنا إلى أعداد كبيرة للضحايا كما يوضحه الجدول التالي:

محطات الوباء	١٧٠٢	١٧٤٠	١٧٥٢	١٧٥٥	١٧٨٦	١٧٨٧	١٧٩٧	١٨١٦	١٨١٨	١٨٢٢	
أعداد الضحايا	٤٥٠٠٠	٦٠٠٠٠	٦٥٠٠٠	١٠٠٠٠	٢٤٨١٣	١٧٠٤٨	١٣٢٠٠	٤٥٠٠	١٥١٥	٢٢٦٢	٢٤٣,٣٣٨ ضحية تقريبا

ويتضح لنا بعد أن أخذنا بأقلَّ التَّقديرات، وباقتصارنا على أهم الأوبئة فقط التي ذُكرت خلال الدراسة فإننا نقف على رقم يقارب عدد ربع مليون نسمة مِن ساكنة الإيالة الجزائرية فقط خلال المرحلة الممتدة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠مـ)، وإن اعتمدنا على متوسط سكان الإيالة بين الإفراط في تقليل أعداد السكان من طرف الأوروبيين والمبالغة في رصد عدد سكان الإيالة من طرف الكتاب المحليين وقلنا إنّ عدد السكان كان لا يقل عن أربعة ملايين نسمة فإننا نقف على

(١) - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٣٣.

خسارة الإيالة خلال المرحلة محل الدراسة ما نسبته (٦,٠٧٥٪) من ساكنتها. والجدول التالي يوضح جزءا من الخسائر البشرية التي كانت خلال الأوبئة التي شهدتها الإيالة خلال القرنين الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وهذا جزء بسيط مِن أرقام كثيرة كانت قد مرّت بنا في الجزء المتعلق كرونولوجيا الأوبئة في الفصل الثالث، وهي تعكس الحالة المتأزمة والتي انعكست بشكل عام على تركيبة وعدد سكان الإيالة في القرن التاسع عشر تحديدا.

٣. التغيّرات والتأثيرات الاجتماعية للأوبئة:

لا يرمي هذا المبحث إلى وصف الأوبئة التي مرَّت بها الجزائر خلال المرحلة الممتدة (١٧٠٠-١٨٣٠) وتأثيراتها الآنية بل يسعى إلى تفكيك تأثيرات هذه الأزمات بتشبيكاتها وتعقيداتها وتستهدف الوصول إلى رسم ملامح عامة لمظاهر هذا التأثير والذي يفوق في مجمله أحيانا كثيرة تلك الآثار التي تخلِّفُها الحروب والنزاعات، وهذا الانعكاس والتَّجلي لم يقتصر على إيالة الجزائر والقاطنين بها فقط، بل نجده يتمظهر في الثقافة الإنسانية ككل خلال المرحلة المعنية بالدِّراسة، بل وتمتد جذوره إلى أعماق التَّاريخ فيتمظهر بأشكال عِدَّة ويبرز في قوالب مختلفة[1] لكننا سنقتصر على التأثيرات التي رأيناها هامة وتضيف للبحث العلمي

(1) - Moranu: Statistique l'été sanitaire de l'armée française: **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, Anne 36. N°23, 1891. P181.

معرفة جديدة وهي تطال أربعة مجالات كبرى هي: الحياة الاجتماعية، الحياة الفكرية، الحياة الدينية، والتصرفات اللاشعورية.

ولعلَّنا لن نحيد عن الصواب إن اعتبرنا أنَّ أبرز هذه التَّجليات نجدها تظهر في ثنايا الحياة الاجتماعية العامة فنجد بقايا آثارها في المصنفات والأشعار الملحونة التي كان ينظمها من عايش تلك الأزمات من النَّاس، فيزدرونها ويشتكون مآلات الأمور فيها، مثل ما نجدهم يغدقون في الحديث اللاشعوري عن ملامح الشَّقاء والبؤس الذَين خلَّفتهما وأنتجتهما الأوبئة والمجاعات.

لكن قبل أن نخوض فيما نروم إيضاحه والحديث عنه نرى أنَّه مِن الواجب أنَّ نفهم العقلية العامة التي كانت تحكم الذهنية الإسلامية ككل خلال الأوبئة، إذ أنّ فهم هذه العقلية سيتيح لنا تلمُّس بعض آلية العمل التي أُحدِثت لدى العامة مِن النَّاس أو غيرهم خلال القرن الثامن عشر وبداية التَّاسع عشر، إذ أنَّ ما سنقف عليه هو تراكم لتجارب وخبرات تاريخية أكثر منه إبداع فكري منقطع على المؤثرات التراثية العامة. وأوَّل المقدمات التي ننطلق منها لأجل هذا الغرض هو طبيعة المجتمع الجزائري الدينية خلال تلك المدة أو بالأصح الثقافة الفكرية والدينية للمجتمع الجزائري خلال تلك المرحلة، فالمجتمع الجزائري جزء بسيط ضمن نمط اجتماعي أكبر يحكمه هو النمط الإسلامي عامة والمتلبس باللباس الصوفي خاصة خلال العهد العثماني، وهذا النَّسق الصوفي كان يتحكَّم فيه مجموعة مِن شيوخ الزوايا والطرق الصوفية المختلفة في الجبال وفي المدن الكبرى.

تأثير الأوبئة على الجوانب الحياتية لساكنة الإيالة:

وعليه سيُطبع التَّحرك المجتمعي بهذا الطَّابع خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بحيث نجد أنَّ هذا النمط قد طبع التفكير العام في العالم الإسلامي لذا لا يجب أن نستغرب ممَّا تمَّ اعتماده مِن شيوخ الزوايا في إيالة الجزائر كان مُعتمداً أيضا لدى شيوخ التكايا في الأناضول، وهو نفس ما كان يطبِّقه علماء الإسلام في مختلف الأماكن، وقد كانت أولى ردات الفعل تبرز لدى المجتمع الديني الكبير أو الحلق الدينية والمذهبية الواحدة، فنجد مثلا أنَّ أوَّل ما تمضي إليه الآلية الاجتماعية هو الاتجاه إلى التَّبرك بقراءة أمهات الكتب أثناء الأزمات الغذائية والصِّحية، فتتجه النَّاس أيَّام الوباء لقراءات جماعية لكُتب بعينها وأوراد وأذكار بعينها، فمن ذلك أنّ: «...الشَّافعية يتبرَّكون بقراءة «التنبيه» في أيام الوباء وهو كتابٌ مباركٌ...والمالكية يتبرَّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة «الموطأ»... و«الحنابلة» يتبرَّكُون في أيام الطَّاعون بقراءة «الخرقي» لأبي القاسم عمر بن الحسين الخرقي، وجماعة مِن العلماء يتبركون في أيام الطَّاعون بقراءة «الشِّفا» للقاضي عياض...والصُّوفية يتبرَّكون بقراءة كتاب «قوت القلوب» لشيخ العارفين أبي طالب المكي...وجمهور العلماء في أيام الوباء والطَّاعون وغير ذلك مِن الآفات السماوية يتبرَّكون بقراءة كتاب «البخاري» فإنَّه الجِنَّة الواقية في آفات الشَّدائد...ومِن العلماء مَن يتبرَّكون بكتاب «مسلم» وهو كتاب جليل الشَّأن باهر البرهان...»[1] وإذا كان قد ظهر جواب ما جنح إليه أهل الملل والمذاهب مِن

(١) - عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (٢٦٩١) [و/ ١٩].

الرُّكون إلى قراءة الكتب فمن الواجب أن نقول أنَّ مثل هكذا ردات فعل وانسحاب إلى الجانب الثيولوجي كانت سائدة في كُلِّ المجتمعات الإسلامية، وهو ما انتشر بدوره في الجزائر خلال العهد العثماني. إذ نقف على الكثير من الشهادات والدلائل التي تتحدّث عن عودة أهل الجزائر في الشَّدائد إلى قراءة صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتاب موطأ الإمام مالك لما فيها مِن الاعتقاد بالإنابة بها إلى الله.

لذا نجد أنَّ المخيال الجمعي لدى ساكنة مدينة الجزائر والمدن الكبرى كثيرا ما كان يسارع إلى استدعاء أنواع مختلفة مِن الأدعية والمنامات كتلك التي أغدق البسطيمي في ذكرها[1]، بل نجد أنَّ بعض هذه المنامات والرُّؤى أصبحت أصيلة وملاذاً سديدا استغله بعض مَن ادعى العلم إضافة إلى رجال الحكم للتملُّص مِن واجباتهم اتجاه ما يحدث.

وكرد فعل على انتشار هذه الأفكار نجد أنَّ قسماً آخراً مِن علماء المسلمين حاول أن يتخلَّص مِن هذا الركون والاستسلام مِن خلال تبيين مهيَّة الطَّاعون والوباء وإنَّهما لا يُحلاَّن بالرؤى والمنامات بل بالتَّداوي والسعي في العلاج ونجد التَّصريح البيِّن في هذا ما نصَّ عليه «المنبجي» بقوله في مقدمة كتابه «الطَّاعون وأحكامه»: «...وسبب تأليف هذا الكتاب في الطَّاعون وأحواله وأحكامه لما رأيت ما أحدث النَّاس مِن البدع في طاعون سنة (٧٦٤هـ) ختمها الله بخير، بقي بعض النّاس يلقون منامات، ويذكرون فيها إنَّهم رأوا النَّبيﷺ، ويشكون إليه

(١) - راجع ما تحدَّثنا عنه في المبحث الأول مِن الفصل الأول ففيه تفصيل لهذا المخطوط وأهم ما أورده صاحبه فيه.

الطَّاعون، وادعوا إنَّه أرشدهم إلى أدعية يدعون بها لرفع الطَّاعون عنهم...»[١] لذا وباستعراضنا المقتضب لآلية التَّفاعل الإسلامي في مراحل مختلفة للمجتمعات العلمية معه يتَّضح لنا بأنَّ انعكاس هذه الثقافة قد وجد له ترسُّبات في الذِّهنية العامة للمجتمع الجزائر خلال العهد العثماني ككل.

وإذا تقرَّر ما سبق أمكننا أن نسلك مسلك من يرى إنَّه مِن الممكن إدراج هذه الانعكاسات والتصرفات ضمن ما سمينها سابقا بالبُنى الأساسية الكبرى للتاريخ، وهذه البنى كما مر إنما محلها تاريخ الأمد الطويل الذي يعتني بالتطورات البطيئة في التاريخ، وهذه البنى هي بالفعل المدارات التي سارت عليها ركبان الأوبئة والغذائية في العالم الإسلامي، وقد تجلَّى التَّأثير المباشر للأزمات على المجتمع في جانبه الدِّيني بمحاولة العودة إلى الدِّين والاستسلام للقضاء في مفهومه السِّلبي لذا لا نستغرب حديث أحد علماء الجزائر والمنطقة المغاربية خلال بدايات القرن التاسع عشر «العربي المشرفي» عن كون أنَّ أسباب الوباء والطَّاعون هو الابتعاد عن الدين وكثرة المعاصي بقوله: «..ونستغفرك من آثام ارتكبناها فجرت إلينا الطعن والطَّاعون، ومِن أجلها ارتفعت البركة في الأعمار والأمطار والأسعار...»[٢] وهذا أمر مثل ما قلنا ونكرِّره امتدادٌ لفكر عام موجود خلال المرحلة محلَّ الدِّراسة وفي غير الحيز الجغرافي الجزائري، فنجد مثلاً محمّد الضعيف يرى أنَّ

(١) - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: كتاب الطاعون وأحكامه، ص ٦٩.

(٢) – العربي المشرفي: المصدر السابق، ص١٧٥.

الوباء مردُّه: «... كثرة المناكر وما ظهر مِن الفُحشى مع قلة الأحكام فما أهون الخلق على خالقه إن خالفوا أمره ونهيه..»(١) وهو مما لا يُعترض عليه شرعاً، وإنَّما يُعترض على بعض مَن اتخذ مِن المنامات أساساً لعلاج المرض المادي.

صور من تأثير الأوبئة والغذائية على الإنتاج العلمي

وإذا تقرَّر آثار هذه الترسبات في الذهنية العامة لدى المسلم خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر فمن الواجب أن نفتتح الخوض فيما هو غرضنا من ذكر التأثيرات المختلفة للأزمات الصحية والغذائية على الحياة الدينية والفكرية داخل المجتمع، ونجد ملامح هذا التَّأثير ترتسم في جزء منها على المصنفات التي صنفت في شأن هذا الموضوع، فنجد أنفسنا أمام عدد مِن المصنفات كان للأزمات التي نتحدث عنها آثار في كتابتها أو سببٌ مُباشرٌ في وضعها فمن هذا ما صنَّفه «حمدان بن عثمان خوجة» من كتاب في شأن الاحتراز من الأوبئة سمَّاه «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء» وهو كتاب على صغر حجمه يوضح جزءاً مِن طريقة تعامل الأهالي مع الأوبئة التي كانت تلم بهم، كما أنّه يثير نقطة محورية بني عليها الكتاب هي إشكالية الأخذ عن الغرب في شأن تنظيماتهم المختلفة التي استحدثوها، لذا نجد «حمدان بن عثمان خوجة» يعتني بشكل تفصيلي بهذه النقطة، ويحشد لكتابه عدداً من التَّصديرات مِن علماء عصره حتى يكون المُطَّلع على الكتاب على بينة مِن مشروعية ما يقدمه «حمدان بن عثمان

(١) – محمد الأمين بزاز: المرجع السابق، ص٦٧.

خوجة» خاصة ونحن نعلم أنَّ الكتاب قد أُهدِي إلى السُّلطان محمود الثاني. وقد بث فيه «حمدان خوجة» تفاصيل ملاحظاته المختلفة عن الموضوع مِن خلال زياراته المتعددة إلى الدول الأوروبية.

كما نقف على مُصنَّفٍ آخر لعالم جزائري «العربي المشرفي» هو الآخر صنفه وهو خارج الجزائر بعد سقوطها في يد الاحتلال الفرنسي عنوانه « أقوال المطاعين في الطعن والطواعين» تناول فيه بدوره عدداً من المواضيع التي تثار في شأن الطَّاعون وأخباره، وتحدث عن تأثير الطاعون المباشر في تغير العديد من ساكنة بيلك الغرب الجزائري لأماكن وجودهم ومواطنهم بسبب الطَّواعين. مثل ما نقف على ذكر «بن سحنون» في كتابه «الأزهار الشقيقة» نظمه لقصيدة في الطَّاعون الذي تفشى في الجزائر سنة (١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧مـ) هذا الطاعون الذي أجبره على الانتقال مِن محل سكناه في معسكر إلى غيرها[١].

ومِن جانب آخر نجد تأثير المجاعات -أو الأزمات الغذائية- على قرائح المؤلفين يتجسَّد في صور متعددة منها: بعض القصائد المتناثرة في المجلاَّت الفرنسية المختلفة التي اعتنت بتاريخ الإيالة كالمجلة الإفريقية و«روكاي» و«المجلة الفرنسية»، لكننا سنبدأ بذكر الكِتاب الذي يكاد يكون وحيدا في هذا الشَّأن، وهو ذلك الآثار الذي خلَّفه «العنتري» بحيث أرَّخ فيه لأهم المجاعات التي ضربت بيلك قسنطينة في فترة مُتأخِّرة وقد كتبه بطلبٍ مِن الكوموندان «دولير»

---

(١) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج٢، ص ٤٢٣.

سنة (١٨٧٠مـ)[١]، كان الكتاب غريبا في عصره وجديدا في بابه[٢] إلاَّ أنَّ المرحلة الزمنية التي يتناولها الكتاب لا تُغطِّي المرحلة التي وضعناها محلَّ الدِّراسة ككل، وإنَّما تكتفي بجزء بسيط منها فقط، ممتد ما بين (١٨٠٨-١٨٣٠مـ) كان خلالها صاحب الكتاب شاهدا على أهم أحداث المجاعات، فيما يستمر جرد هذه الأزمات الغذائية إلى حدود سنة (١٨٧٠مـ).

كما نجد انعكاس الأزمات الغذائية على ناصية الشعر الاجتماعي الشعبي في إيالة الجزائر، فنقف على عدد ممَّا قيل في الأوبئة فمنها تلك التي قيلت في أيام المسغبة ومن ذلك ما نقف عليه في الشعر الشعبي مِن قول الشَّاعر:

القَمْــــحْ يَـــا بَـــاهِي اللُّـــون ـــــ مَـــــن شَـــــبَعْتَكْ لاَ زِيَـــــادَة

أَنْــــتَ قُــــوتْ كُــــلْ مَسْــــكِينْ ـــــ بِـــــكَ الصَّــــلاَة والْعْبَــــادَة

ويروي العنتري أنَّ بعض النَّاس نظم القصائد في القمح؛ حَّتى يستعطف النَّاس فيتصدَّقوا عليه بما يسد رمقه ويخفِّفُوا عليه ضَيْقَه، وآخر يصف حال النِّساء وكيف فرطن في الاهتمام بعملهن في الغزل والحياكة وانصرف جهدهم إلى الكلام عن تلذذ الأكل فقال واصفا هذه الحال:

خِيرْ الاغرازِ وَسْيَادِي راحَتْ الهمَّه طَيْشُوا ـــــ الخَيوطْ جَبْدُوا التَّنْكِيدَه علـى النَّعْمَـة

ويقول في موضع آخر يذكر أنَّ النِّسوة لم يعد لهنَّ أيُّ رغبةٍ في الاهتمام بجمالهن والتَّزيُّن لأزواجهن، فجلُّ هَمهنّ أضحى في التفكير في كيفية العَيش

(١) - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٠٧.

(٢) - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ١٠.

وماذا يأكلنَ؛ لهذا لم يبق لهن أي اهتمام بجمالهن وهو ما يتجلى في تركهن الاهتمام بمجالب التزين سواء مِن الحنة التي يستعملنها في أيديهن أو في صبغ شعرهنَّ وفي هذا المعنى ينقل العنتري قول الشاعر:

رِيتْ النَّسْوَانْ لاَ حبَّ القَرْمُزْ لاَ حَنَّه   أَجَبْدُوا الفِيسَانِ أجَبْـدُوا الفِيسَـانِ القَريـوا

وهذه المظاهر الاجتماعية الناجمة عن الأوبئة لم تكن تنحصر فقط على السَّواد من العوام، بل نجد نفس الآثار تنعكس على مختلف الإثنيات التي كانت تشكل الإيالة، فنقف على بعض ما خلفه اليهود من تراث شعري شعبي في شأن بعض السَّنوات العجاف، فنجد أنَّهم أضحوا يرون أنَّ العام يزداد طولا ولا يكاد ينقضي، والنَّاس في بؤس مِن العيش، فالنَّاظم يرى القِدْر غير إنَّه دائماً ما يكون خاوِيا؛ لذا نجد النَّاظم يسأل في آخر الأبيات مِن جبريل عليه السلام أنْ يقضي عليهم ويبيدهم بدل هذه المعيشة الضنكى فيقول:

شُـوفُوا هــذاَ العَـامَ الكَبِيــر   والعبـــــــاد منكَّــــــدِينْ

رِيـــتْ البَرمَــة والكَسْــكَاسْ   والبْرِيــــــــقْ مَسَــــــوْدِينْ

انغَــرْ عَلِينَــا هَــا يَــا جَبْرِيــلْ[1]

مثل ما نجد أنَّ آثار الأوبئة لم تقتصر فقط على صور من الحياة الاجتماعية العامة، بل تعدتها إلى العديد من الانعكاسات الثقافية الأخرى والتي من بينها ما سبق الحديث عنه، كالكتابات النثرية والشعرية، ومنها ما ظل خفيا مجهولا لا

---

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٤٤.

يُنتبه له إلاَّ في مرات نادرة، ونقصد به تحديدا تأثير الأزمات على التراث المكتبي المخطوط الذي كان موجودا حينها، فكثيرا ما ضُيعت الخزائن والكتب بسبب الأزمات، فإن كانت الحاجة الغذائية قد تدفع بصاحبها إلى بيع أغلى ممتلكاته سواء العينية أو العقارية فلا بد أنّ يكون بعض العلماء قد اضطر إلى هذا الأمر ليسد رمقه به، بل ونقف أن الأوبئة أيضا كانت سببا في فقدان الكثير من الكتابات ومن ذلك ما يذكره الورثيلاني من تشتُّت وضياع كُتب أحد أجداده مِن علماء القرن السَّادس عشر بسبب الوباء الذي ألَمَّ بهم في تلك الناحية فيقول: «..وكانت عنده خزانة عظيمة؛ بحيث لا توجد عند غيره، ولما سُلِّط عليهم الوباء ولم يبق إلاَّ ولدان صغيران ضاعت الكتب...»[1].

مثل ما نقف على تأثير الأوبئة على الكتاب الأوروبيين في الجزائر خلال المدَّة الزمنية محل الدِّراسة، فنجد مثلا أنَّ وباء سنة (١٧٤٠مـ) الذي وفد في سفينة فرنسية إلى الجزائر[2] قد ترك آثاراً بارزاً في الكتابات التي قيَّدها الرَّحالة الأوروبيون والقناصل وغيرهم، إذ كان الحديث عنه وكإنَّه تأليب لأحزان الماضي وتذكر لهزائم ضد الوباء واستجلاب للحزن، وهذا ما نقف عليه كثيرا في تقييدات الآباء الذي كانوا شهودا على هذا الوباء في الجزائر أو خلفوا بعض زملائهم الذي قضى عليهم هذا الوباء، فنجد مثلا الأب بوسو بعد اثنتي عشرة سنة يعود ليرسم ذكرى

---

(١) – الحسين بن محمد الورثيلاني: المصدر السابق، المجلد الأول، ص١٨٠.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/124. Cotes: F °264-265. 27 /05/1740.

هذا الوباء بصورته العنيفة التي تركها في مدينة الجزائر[1]، وتتجاوز التأثيرات على هؤلاء الأفراد فمنهم من خص الوباء بكتاب كما فعل الأب «فيشرا»[2] في تخصيصه إحدى أعماله للوباء الذي ألم بالإيالة (١٧٨٦-١٧٨٧م) وكان له آثار بالغ جدا على الإيالة كما سبق ذكره، ومنهم مَن جعل أهم ما قيَّده في كتاباته لمحات عن مسار الأوبئة بشكل عرضي وهو ما نجده كثيرا في كتب الرحالة كالأب «بوسو»[3] ومنهم من اكتفى بذكر آثاره وبعض ملامحه كما فعل الأب باتو في رحلته من الجزائر إلى الإيالة التونسية.

فإن فُرغ ممَّا سبق واستُوعِب ما أردنا قوله مِن الآثار الجلية والخفية لانعكاسات الأوبئة على الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية لمجتمع الإيالة، رأينا إنَّه مِن الضَّروري الآن الانتقال إلى الحديث عن جزئية مهمة ظلَّت في المخيال الجمعي اللاشعوري لمجتمع الإيالة خلال المرحلة المدروسة وبعدها أيضا وهو تأريخ السنوات بأسماء الأزمات.

التأريخ بأسماء الأزمات في العرف الاجتماعي للإيالة (١٧٠٠-١٨٣٠م)

لعلَّه مِن بين جميع الأمراض التي عرفتها الإنسانية خلال تلك المرحلة لا يوجد مَن كان له تأثير بعمق على المخيال العام وعلى الحياة العامة مثل تأثيرات

(1) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P229.

(2) - Jean Claude Vichert: op.cit.

(3) -Arnoult Bossu: op.cit., M.C.M, T3, P190.

الأوبئة ممثلةً في الطَّاعون والأوبئة[1] وبدرجة أقل المجاعات وسنوات القحط، ونتلمَّس هذا التَّأثير في عدد مِن التَّجليات انعكست بدراجات مختلفة على أفراد المجتمع كلّ وفق محيطه الخاص، بحيث لم يقتصر على فئة دون أخرى، وإنَّما كان الآثار موجوداً عند الفئات المختلفة بدرجات متباينة.

وإذا عرف هذا قلنا أنَّ مِن المظاهر التي انعكست عليها أيضا تأثيرات أزمات الغذاء والوباء تلك التَّسميات التي علقت في أذهان العامة من الناس دلالة على ما أصابهم تلك السنة، فمثل ما سمى العرب عام الفيل بسبب قدوم أبرهة إلى الكعبة وخلَّدُوا الحدث بهذه الطريقة، وهو ما نجد أهل الإيالة قد درجوا على فعله لا شعوريا فنجد السنوات تُؤرَّخ بما حدث فيها مِن أزمات القحط والجدب والوباء، وهذا الأمر يتجاوز المرحلة الزمنية المدروسة (١٧٠٠-١٨٣٠مـ) بل نجده يسري على كلِّ السنوات التي عرفت اضطرابات وأزمات صحية وغذائية كبيرة فنقف على سبيل المثال على تسمية سنة (١٦٢٠مـ) بعام «الحبحوبة»؛ ذلك أنَّ الوباء ضرب في هذه السنة الإيالة بشكل كبير، لكن هذه التَّسمية لم تكن مُوحَّدة بل نجدها خُلِّدت بأسماء مختلفة باختلاف الجهة التي ظهر فيها، فسمّيت مثلا السنة التي تلتها وكان فيها الوباء باسم «عام سيدي بلخريس»[2] في مواطن أخرى بسبب أنها قد أتت على هذا الرجل المعروف بصلاحه في المنطقة، وقد أضحى الأمر أقرب ما يكون إلى العرف في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.

---

(1) - Laumonier Jean: op.cit., P01.

(2) -J.-L.-G. Guyon: op.cit., P260.

ومما ذُكر مِن الأسماء لسنوات بعينها أوردتها المصادر المختلفة اعتنت بذكر بعض التسميات لسنوات الأزمات بطريقة غير مقصودة في الغالب الأعم ما نقف عليه من تسمية سنة (١٧٣٨مـ) «بعام الوبا»[1]، «عام النو الأحمر» كناية على الرمال والرياح التي صاحبت الهطول الشديد للأمطار في تلك السنوات وما أعقبها من قحط ومجاعة أو إنَّها تكون نتيجة احمرار أفق السماء بفعل الجدب[2]، ومِن التَّسميات أيضا ما نقف عليه سنة (١٧٧٩مـ) مِن تسمية هذه السَّنة باسم «عام قرامو» كناية عن الشهر الذي وقعت به هذه المجاعة، ووسمهم السَّنة التي أدركها القحط بعد ثورة «ابن الأحرش» بعام «الخمسطاش» أي «الخمسة عشر» كناية عن السعر الذي بلغه الصاع الواحد من القمح والذي قُدِّر بخمسة عشر ريالا[3]، مثل ما قد أرَّخ لسنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ) باسم «حبحوبة عثمان» وهو الاسم الذي أُطلق على الوباء الذي حلَّ بمنطقة الغرب الجزائري أيضا في تلك السنة، وسبب هذه التَّسمية أنَّ الوباء في هذه السنة أتى على عدد كبير من عائلة عثمان؛ فسمِّي بهذا الاسم[4]، كما نجد أنَّ وباء (١٧٩٦مـ) قد سُمي في بعض المناطق باسم «حبوبة المجاد» وذلك بسبب ما حصده مِن ضحايا في صفوف هذه العائلة، بل نقف -في بعض المصادر- على ما يُروى مِن أنّ هذا الوباء قد قضى تماما على أفراد عائلة

---

(1) - Jean Marchika:op.cit., P78.

(٢) - مزدور سمية: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (١١٩٢مـ - ١٥٢٠مـ)** رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٩.

(٣) - محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص، ص، ص ٤٠، ٤٥، ٤٨.

(4) - J.-L.-G. Guyon: op.cit., P357.

(المجاد)[١] لذا ارتسم في المخيال الجمعي لسكَّان المنطقة أنَّ هذه السنة هي «عام حبوبة المجاد» وظل هذا الاسم هو المعيار السائد لسنة أصيبت فيها المنطقة بالمجاعة ولحقها الوباء بعد ذلك فجعلها بحق سنة أزمات متعدِّدة. مثل ما ذكرت بعض المصادر أسماء أخرى للأزمات والسنوات التي شهدتها الأزمات منها الهيضة للكوليرا على سبيل المثال لا الحصر[٢].

ولم تتوقف تأثيرات الأوبئة على هذا الجوانب التي سبق ذكرها فقط، بل توجد لها علاوة على ما ذكرنا العديد مِن الآثار السلبية، منها ما يتعدَّى التأثيرات البيّنة التي تتجسد في الجانبين: الاقتصادي والديمغرافي. إذ كان التأثير بالإضافة إلى ما سبق ذكره نفسياً واجتماعياً، وهو ما يتجلَّى في الاضطرابات العارضة التي كانت تنتج داخل المجتمع، فنقف على تفكُّك عرى التعاون والصلح القائم سواء بين أفراد القبيلة الواحدة أو القبائل المختلفة بسبب أحد الأزمات الغذائية، فنجد مثلاً مِن نتائج القحط الذي ضرب منطقة «وادي سوف» سنة (١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣مـ) أنَّ قلة الكلأ والمؤونة أدت إلى حدوث تنازع بين القبائل المحيطة بالوادي بل وبين أهل الوادي أنفسهم[٣]، في مَنْ يكون له الحقّ في استغلال الأراضي الخصبة التي

(1) - Walsin Esterhazy: op.cit., P190.

(2) - Pharaon Florian et le docteur Bertherand: l'Histoire de la Médecine chez les Arabes. Vocabulaire français-arabe, Papiers et manuscrits ayant appartenu au docteur Leclerc, manuscrit, Bibliothèque nationale de France. Département des manuscrits. Arabe 6455. P68.

(٣) - إبراهيم محمد الساسي العوامر: المصدر السابق، ص ٢٨٠.

آتت أكلها في المنطقة المشاعة بين النَّاس، ونشب اقتتال بين سكان المنطقة؛ انتهى بنزوح عدد مِن العائلات الصَّحراوية البدوية إلى الحواضر هروبا مما قد يدركهم بسبب القحط والمواجهات المُتجدِّدة، كما نزحت عائلات عدّة باتِّجاه الصّحراء الشّرقية أي الحدود الجزائرية الليبية حاليا، والتقت مع أهالي صحراء «غدامس» الذين عجِبُوا لحال أهل الصحراء الجزائرية وما لحقهم مِن جوع وعراء بسبب القحط والجدب الذي أدرك المنطقة.

وما تمّ ذكره لم يكن الحالة الوحيدة بل نفس الأمر نقف عليه في بيلك الغرب الجزائري، إذ استغلت مجاعة بداية القرن التَّاسع عشر في زمن «مصطفى باي» مِن أجل تأليب العرب ضد الكراغلة أو الترك وهو ما جُسِّد فعلا في ثورة «ابن الشريف» في الغرب الجزائري[1]، فنجد النسيج الاجتماعي الواحد داخل المدينة قد بدأ يعاني التفتت والشتات والتكتل الإثني نتيجة هذه الأزمة الغذائية، وأدى إلى مواجهات داخل مدينة وهران والمدن الكبرى بين الفئات المختلفة، لاعتقاد كل فئة أن الطرف الأخر يحتكر المؤونة.

ونقف أيضا في بيلك الشرق الجزائري بعيد وأثناء ثورة «ابن الأحرش» سنة (١٢١٨هـ/ ١٨٠٢م) والتي امتدَّت سنوات في الشّرق الجزائري، نجم عنها حدوث المجاعة؛ بسبب قلَّة الحرث وانعدام الحبوب لغياب الأمن، فكان مِن نتائج ندرة ذلك أن دخلت أعراش بيلك قسنطينة في مواجهات بين بعضها البعض؛ لأجل تأمين القوت، كما نزح النَّاس مِن دورهم «...وتَشتَّتُوا عَن منازلهم بسبب

---

(1) - Walsin Esterhazy: op.cit., P206.

الهول الواقع في وطنهم مع الشَّرِ والمصائب التي حلَّت بهم مِن قِبَل يبس الزَّرع وعدم الحرث...»[١] وقد وصف العنتري حال هذه القبائل بعد المجاعة المذكورة وما لحقهم مِن سوء الأوضاع حتى أصبحوا:»...يَقتاتُون الدَّم والميتة وغير ذلك ممَّا لاَ يُبَاح اقتياته...»[٢]

وممّا ترتب أيضا على إحدى الأزمات الغذائية مثلا التي ألمت بمدينة الجزائر سنة (١٨٠٥مـ) أن أحدثت ثورة شعبية وُجِّهت في الأساس ضدّ فئة اليهود بحكم إنَّهم المتصرفون الحقيقيون في الشؤون التجارية للإيالة عموما والتَّموين خصوصا، مُستغلِّين في ذلك علاقاتهم القوية بالسُّلطة الحاكمة[٣]، يأتي احتكار فئة مِن اليهود لتصدير وتوريد المنتوجات الغذائية كالحبوب والقمح بدون قيود على رأس الأسباب غير المباشرة في إحداث أزمات الغذاء وفي بعض الأحيان وفي إدامتها لأطول مدة زمنية؛ فاحتكار فئة اليهود للتجارة الخارجية عامة، ومادتي القمح والحبوب والتحكم فيهما خاصة أنّ هذا الاحتكار كان بمباركة الكثير من الرِّجال النافذين في الحكم داخل إيالة الجزائر، وهذا بسبب ما كانوا ينالونه مِن هدايا وأموال من طرف فئة اليهود[٤]، وإذا عُرفَ هذا فمن الواجب أن نعود إلى مقصدنا من القول فنقول أنَّ الصُّور المختلفة لاحتكار اليهود للتِّجارة ستظهر كيف آثارت في حدوث وتطور المجاعات لاحقا، وقد لمَّح « الزَّهار» بهذا الأمر

(١) – محمد بن صالح العنتري: المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) – المصدر نفسه: ص ٣٤.

(3) - Not sur la Bibliothèque musée d’Algérie, Anne 1894, N°38. P247.

(4) -Ibid. P360.

عند حديثه عن طبيعة العلاقة القوية التي كانت تربط التُّجار اليهود مع كبار رجال الدولة مِن أمثال الخزناجي وبعض الأمراء[١].

ما سبق إضافة لما نقف عليه مِن معلومات عن مبالغ كانت تُدفع لليهود في مقابل ما يوردونه من سلع لصالح الحكومة الفرنسية كما هو الحال مثلا في المراسلة المؤرخة في (نوفمبر ١٧٥٧مـ/ ربيع الأول١١٧١هـ) والتي نصت على استلام داي الجزائر «علي باشا» ما قيمته (١٧,٠٠٠) ليرة أجرة القمح الذي ورَّده المواطن اليهودي بيشارا إلى فرنسا[٢]، بل أوضح مِن ذلك دَلالة ما نجده في المراسلات الأرشيفية بين دايات الجزائر وحكام فرنسا مُصرَّحاً به مِن أعلى فرد في الإيالة أي «الداي حسن» نفسه في رسالة مؤرخة (جويلية ١٧٩٥/ ذو الحجة ١٢٠٩هـ) نجده يرسل عدداً من التَّوصيات الدبلوماسية إلى حكومة الجمهورية الفرنسية ومقاطعاتها المختلفة كمرسيليا وتولون في شأن اليهودي كوهان بكري (*Michel Cohen Bacri*) مِن أجل تنمية أعماله التجارية باعتباره مُفاوضاً باسم الداي[٣]، بل لم تخل تلك المراسلات التي كانت بين «الداي مصطفى» وملك فرنسا «نابليون بونابرت» مِن حرص الحاكم الجزائري على الدفاع عن المصالح والمستحقات اليهودية التي يَدين بها الفرنسيون[٤].

---

(١) - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص١١٧.

(2) -Eugène Plantet: correspondance des deys d'Alger avec cour de France(1579-1833) T2, éditions Assala Culture, 1889, P238.

(3) -C. D. A. C. F: le 12 juillet 1795, P452.

(4) -C. D. A. C. F: le décembre 1795, P454-472.

والعلاقة بين التُّجار اليهود وحكام الجزائر خلال هذه المرحلة هي علاقة مبنية على منافع شخصية يستفيد منها رجال الحكم مقابل تسهيلات ومساعدات يقدمها هؤلاء لليهود.

هذا الأمر نجد له تفسيرين اثنين، أوَّلهما الزاوية التي ترى منها السُّلطة الحاكمة الأمر وتبرره من أجل تصدير المنتوجات الزّراعية مِن الجزائر باتجاه أوروبا عن طريق طائفة اليهود كوكيل حصري لهذا النشاط. ثانيهما: نظرة السكان لاستحواذ هذه الطائفة اليهودية داخل الإيالة على زمام التِّجارة الداخلية والخارجية وتسيرها وفق مصالحها الضيقة لا أكثر.

نأتي لتفاصيل هذه الرؤى المتباينة فنقول: أنّه من وجهة رأي الزمرة الحاكمة في الجزائر، فالأمر لا يعدو -بالنسبة للدَّاي وحاشيته- أن يكون نتيجةً استدعاها وضع طارئٌ تمثَّل في قلَّةِ مداخيلِ الدولة، ولهؤلاء التُّجار اليهود القدرة على ضمان مورد مالي دائم ومستمر لصالح خزينة الدولة، لا يقل عن ثلاثة ملاين فرنك سنويا، وهو عبارة عن ضرائب تدفعها الشركة اليهودية صاحبة الامتياز[1]، لكن الملاحظ أنّ هذه الضرائب تطورت لتكون عبارة عن احتكارات أصبح معها نفوذ الشّركات التجارية يهيمن على جلّ الأمور المالية للدولة، ولعلّه الأمر الذي دفع القنصل الأمريكي في الجزائر (*William Shaler*) إلى ذمّ هذا الاحتكار والحكم عليه بإنَّه أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت التِّجارة في الجزائر مثلها مثل الزَّراعة

---

(١) – حنفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص٥٢.

تعاني مِن التَّأخر والبدائية[١]، لكن مِن جهة أخرى هذا الاحتكار لم تمنحه الحكومة لهذه الطائفة عن طيب خاطر، ولكنه نتيجة حتمية اقتضتها الضرورة؛ بحكم أنّ الدّول الأوربية هي التي كانت لها أحقية منح جوازات السفر الخاصة بالتِّجارة مع موانئها وكانت تخشى من فتح المجال التجاري على مصرعيه مع الإيالات المغاربية، ما قد ينجم عنه تراجع مداخيل تُجَّارها[٢].

مِن أبرز صور الاحتكار الماضي ذكره أنْ وَصلَ الأمرُ ببوشناق اليهودي أنَّ يصرِّح أنَّ قيامَ الموتَى مِن مَقابِرهم أَهوَنُ مِن خُروجِ حبَّةِ قَمحٍ مِن السُّوقِ الجزائريةِ بدون علمه قائلا: «...يقومُ مَوتَى باب الواد قبل أن تخرج حبة واحدة مِن القمح...»[٣]. بل ونجد في إحدى المرات يقوم باي قسنطينة مثلا بمنح رخصة لأحد السُّفن الإنجليزية لأجل شحن القمح الجزائري، واستفادة أحد التَّاجر اليونانيين من امتياز تحميل السُّفن بالقمح بالكمية التي يريد[٤]، بل ونقف في مراسلة صادرة عن القنصلية الفرنسية في الجزائر إلى السُّلطات الفرنسية على إشارة واضحة إلى شحن الشَّركة الملكية الإفريقية لسفينتين فرنسيتين من ميناء مدينة «عنابة» مُحملة بأجود أنواع القمح وإرسالهما باتجاه ميناء «مرسيليا» في الوقت نفسه الذي تتكلم فيه وثائق أخرى عن تأزُّم الوضع في الإيالة سنة (١٧٣٤مـ)

---

(1) - William Shaler: op.cit P37.

(2) -Lucette Valensi: op.cit., pp 63/64.

(٣) - ينقلها حنفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص٥٢ ويعزوها إلى جمال قنان في كتابه العلاقات إلاَّ أننا لم نقف على موضعها في الكتاب المذكور.

(4) -C. D. A. C. F: le 4 juin 1734.

بسبب المجاعة[1]، وهو ما تؤكده أيضا وثيقة أخرى صادرة عن نفس الهيئة تتحدث عن تصريف منتجات القمح خارج الإيالة سنة (١٧٣٤مـ)[2] وهي السنة التي كانت تعرف أزمة غذائية شديدة، وقد فسَّر «وليام شالر» القنصل الأمريكي في الجزائر بطريقة منطقية بالنسبة للعالم الذي وفد منها لكنها لا تتلاءم مع الواقع الموجود في الإيالة في تلك القرون، إذ رأى أنَّ هذه السيطرة على التجارة الخارجية وانتشار الاحتكار في يد اليهود دون غيرهم؛ مرده خوف الأتراك مِن ازدهار الزراعة والتِّجارة؛ ما مِن شأنه أن يقوي الفكر الحضري في البلد ويُؤدي مع الوقت إلى ظهور برجوازية وكثافة سكانية قد تقود ثورة على الأتراك[3]، وهذا التفسير مردود لسبب بسيط هو أنَّ الثورات الشعبية كانت منتشرة في الجزائر خلال العهد العثماني وأنَّ السبب الرئيسي في تحريكها هو الجانب الروحي الممثل في الزوايا والطرق، وأن الفكر القومي لم يجد طريقه بعد في تلك المرحلة في الجزائر مثلها مثل جل أقطار العالم الإسلامي

التفسير الثاني للاحتكار نجده لدى سكان الجزائر، والذين ينظرون إلى هذا الاحتكار على إنَّه سبب أساسي في ظهور المجاعات؛ إذ أنَّ التُّجار اليهود كانوا يفضلون تصدير ما يجمعونه مِن السُّوق الدَّاخلية إلى الأسواق الأوروبية ولو على

---

(1) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/123. Cotes: F °158-161. 16 Fve.1734.

(2) -C.C.F.A [AF. é]: AE/B/I/123 Cotes: F °206-210. 16 juil 1734.

(3) - William Shaler: op.cit, P37.

حساب تجويع الساكنة في الإيالة[1]؛ لما تدرُّه عليهم مِن عائدات مالية كبيرة، بل تشير بعض التقارير إلى أنّ كلاً مِن بكري وبوشناق كانا يقومان بتصدير وتموين الجيش الفرنسي بكل احتياجاته من القمح[2] في سنوات مختلفة منها على السبيل المثال ما نقف عليه: سنة (١٧٩٤مـ) إذ في المرحلة التي كانت الإيالة تعاني نقصا فادحا في المؤن مثل ما تؤكده ملاحظات «مارشيكا» تدلنا وثائق ومراسلات أرشيفية، إذ تذكر إحدى المراسلات باسم بوشو (Buchot) موجهة إلى «حسن داي» حاكم الجزائر سنة (١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤مـ) يلتمس فيها صاحبها مِن ممثل الخارجية الفرنسية التَّوسط من أجله لدى داي الجزائر لمنحه نوعا من التَّسهيلات اللازمة لأجل شراء كميات كبيرة من القمح الجزائري، ومساعدته بعد ذلك في عملية شحنها إلى فرنسا[3]، وتشير مراسلة أخرى صادرة عن القنصل « فاليار » وموجهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بأنَّ الطَّلب المُقدَّم إلى الداي قد لقي فعلا ترحيبا كبيرا بالرغم من كل المحاولات الإنجليزية لثني «الدَّاي حسن» عن تقديم الدَّعم للجمهورية الفرنسية[4]، بل رد «الدَّاي حسن» على طلبات الشراء كان بأكثر مما كانت تنتظره حكومة الجمهورية في حد ذاته، إذ عبَّر الداي عن استعداد إيالة الجزائر لتقديم كل ما تحتاجه الجمهورية من حبوب أو أغذية أو أحصنة هي في

(1) -H - DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830) P360.

(2) -C. D. A. C. F: le 18 mai 1797. P462.

(3) -C. D. A. C. F: le 28 août 1794.

(4) -C. D. A. C. F: le 15 octobre 1794.

حاجة إليها[1]. نقف على نفس الأمر يحدث مرارا في سنوات أخرى مثل: سنة (١٧٩٦م/ ١٢١٠هـ) و(١٧٩٧م/ ١٢١١هـ) ففي نفس الحيز الزمني الذي كانت فيه مدينة الجزائر تعاني من آثار الجفاف والمجاعة الشديدة أو بلسان «مسلم بن عبد القادر» في خاتمة أنيس الغريب والمسافر:»...مسغبة عظيمة أُهلكت فيها أممٌ كثيرة حتى أكلوا الميتة والدم ولحوم بعضهم بعضا...» كانت السلطات في إيالة الجزائر تسمح بتصدير القمح إلى الموانئ الأوروبية.

ونحن إذا جئنا لتفسير هذه الظَّاهرة وربطها بموضوع بحثنا اعتماداً على رؤية اقتصادية محضة فإنَّه يمكننا تقسيم هذا الاحتكار أو التصرفات إلى قسمين باعتبار الزمن؛ فإن افترضنا أنّ هذا الاحتكار والتصدير كان يحدث فعليا في أوقات الرَّفاه ويضمن خلال هذه الفترات وغيرها الحدَّ المحترم مِن حاجيات السُّوق الدَّاخلية، وإذا ظهرت ندرة في هذه المواد وكانت للتُّجار اليهود أو غيرهم القدرة على توفيرها وتزويد السُّوق الداخلية بها دونما ابتزاز، فلا يعدو إلاَّ أن يكون تجارة مباحة لا تأثير لها في ظهور هذه المجاعات وبهذه الصورة لا يمكننا عدُّه احتكاراً أصلا.

أمَّا –وهو ما حدث أكثر من مرة– إن ترصَّد هؤلاء التُّجار اليهود السُّوق في حالة الرَّفاه باشتراء الحبوب بأموال بخسةٍ وإذا نقُصت المادة رفعوا سعرها أو فضلوا تصديرها للأسواق الأوروبية لما تُدّره عليهم مِن أرباحٍ خاصة وأن الأسواق الأوروبية بالأخص منها الإيطالية والفرنسية كانت تفضل القمح

(1) - C. D. A. C. F: le 16 octobre 1794.

الجزائري لنوعيته الرفيعة في بعض المنتجات[1]، متناسين حالة السُّوق واحتياجات السُّكان الغذائية، هنا يصبح لهذا الاحتكار سبباً مؤثراً في ظهور المجاعات.

هذا الاحتكار نتبين آثاره في بعض المجاعات التي مسَّت الجزائر خلال هذه المرحلة (١٧٠٠-١٨٣٠) فنرصده على سبيل المثال في المجاعة التي ألمّت بالجزائر سنة (١٨٠٥مـ)ـ حين كانت شركة «بكري وبوشناق» تصدِّر القمح الجزائري إلى لفورنا ومرسيليا بينما كانت السوق الجزائرية بأمس الحاجة إليه، مستغلا «بوشناق» في ذلك العلاقات القوية التي تربطه مع الداي مصطفى باشا[2]، وهو نفس العمل الذي كانت تقوم به الشركة الإفريقية في القالة التي كانت تحوز على عقد امتياز لصيد المرجان لكن صرفت همها إلى تصدير منتجات بيلك الشرق مِن القمح إلى الموانئ الأوروبية في كل من فرنسا وإيطاليا[3].

إضافة إلى الاحتكار يوجد تصدير فائض الإنتاج مِن أجل الحصول على الأموال أو التجهيزات إذ توجد عدد من الرسائل الأرشيفية[4]، بين حكام الجزائر وملوك فرنسا في ثناياها الحديث عن تصدير القمح الجزائري لفرنسا سنة (١٧١١مـ) لما له من جودة في فرنسا ورغبة ملوك الجزائر في الحصول على تجهيزات حربية في مقابل ذلك، وهذا إن أوحى بشيء فإنَّما يوحي بنوعية وكمية

(1) -William Shaler: op.cit, P12.

(2) -Berbrugger: l’Affaire Bakri d’après un document inédit. In R . A, N°13.1869.60-63.

(3) - Lucette Valensi: op.cit., p78.

(4) - C. D. A. C. F: PP 62-132.

القمح الذي كان يصدّر من جهة ويعكس من جهة ثانية حالة التشبّع خلال تلك السنوات، بما ينفي وجود أي نقص أو أزمة غذائية خلال تلك المرحلة هنا يصح الرَّبط الذي كان يعقده الأهالي في الإيالة الجزائرية بين المجاعة والاحتكار التجاري الذي يقوم به اليهود، بل وهو الأمر الذي دفعهم إلى الثورة سنة (١٨٠٥مـ) على سطوة اليهود ومحاولة التَّخلص من نفوذهم المالي والسياسي الكبير والمتنامي في الجزائر.

وهنا يمكننا القول أنَّ احتكار الشَّركات ورجال المال سواء منهم اليهود أو الشركات التجارية ذات الامتياز لتجارة القمح كان له الآثار السّلبي لا على ظهور مجاعة ما أو أكثر فقط، وإنَّما على الحياة الاقتصادية ككلّ؛ لأنّ هذا الأمر أتاح للشركات اليهودية تحصيل ثروات كبيرة[١] على حساب كدح البسطاء بالإضافة، إلى أنّه قضى على النشاط الزراعي ككل[٢]، إلاَّ أنّ هذا لا يحملنا بأية حال على جعله سببا مطردا وراء كلّ مجاعة، وإنّما هو سببٌ مُتغيّرٌ بتَغيُّرِ الزمان والحاجة الغذائية.

وهذه الثورة أحدثت رجّة عنيفة داخل مكونات المجتمع إذ بدأت بقتل أحد الجنود الإنكشاريين للتاجر اليهودي «نفطالي بوشناق»[٣] الرجل اليهودي الذي كانت شركته التجارية تعتني بتصدر القمح الجزائري إلى أوروبا، وكان يمثِّل في نفس الوقت رجل النفوذ السياسي الكبير ورئيس الجالية اليهودية بداية من

(1) -William Shaler: op.cit, P88.

(2) - Ibid. P100.

(3) -H.- DE Grammont: Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515-1830), P361.

(١٨٠٠م) كما يذكر ذلك إيزنباث، ولعلّه الأمر الذي حمل الجندي الذي اغتاله على القول: «تحية إليك يا ملك الجزائر» وقد خلَّفت هذه الانتفاضة مقتل عددٍ كبير مِن اليهود قدرته بعض الأبحاث بأكثر مِن خمسين شخصا[١]، وكان من نتائج هذه الانتفاضة ضد نفوذ اليهود أن أدت إلى هجرة عدد مِن العوائل اليهودية قدرت بأكثر مِن (٢٠٠) عائلة منها مَن سلكت مسلك لفورنا ومِنها مَن اتجهت إلى تونس[٢]. وعليه كان السبب الرئيس غير المباشر لهذه الثورة ولتلك الأحداث بين القبائل سواء في بيلك الشرق أو بيلك الغرب الجزائري أو حتى في الصحراء مستندا إلى قلة الغذاء ووجود الحاجة الماسة لتأمينه، ما جعل المجتمع القبلي وحتى الحضري يدخل في صراعات جهوية وإثنية فقد خلالها العديد من الساكنة كما فقد استقرار الحيز الجغرافي ما سيؤدي لاحقا إلى انعكاسات على المدى البعيد في علاقات القبائل المختلفة والعلاقات داخل المدينة بين الفئات والإثنيات المختلفة، وهو ما يبدو لنا واضحا في صورة علاقة اليهود مع الأهالي مثلا في مدينة الجزائر وفي مدينة قسنطينة بعد الاحتلال الفرنسي لهما، إذ استدعيت الأحداث التي كانت في الذاكرة اليهودية مع سكان الإيالة ما حملهم على محاولة الانتقام والتحالف مع المحتل الأجنبي، كأحد صور أخذ الثأر.

وهذا ما يُظهر لنا الآثار الكبيرة للأوبئة لا على حاضر المدن والأحواز المختلفة فقط، بل حتى على المستقبل الكامل للإيالة، وإن كان هذا الأمر لا يمكن

---

(1) -ibid. P361.

(٢) حنيفي هلايلي: العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة، ص ٦٠.

استجلاؤه إلاَّ بالتَّدقيق والدِّراسة المتأنية ومحاولة فهم البُنى والظروف المختلفة التي بنيت عليها الأحداث الظرفية.

❁❁❁

الخاتمة

الخاتمة:

لا يعني الحديث عن خاتمة أنها نهاية لبحث أو تجميع لشتات والقيام بعملية جرد عام لما تم الحديث عنه في الدراسة، بقدر ما يمكن عدُّها مُنطلقاً لمشروع بحثي أو مشاريع بحثية أخرى، ففي طول الدراسة حاولنا ألا نقطع تلك المحاكاة التي كانت بين البُنى التَّحتية والظروف الآنية في ظهور مجموعة مِن الأحداث على مجرى التَّاريخ كانت تأثيراتها مُتعدِّدة ومختلفة باختلاف الأدوات والوسائل المتوفر في تلك اللحظة الحديثة.

وممَّا تبين لنا بعد هذه الدراسة أنَّ الأوبئة كانت إحدى العوامل الأساسية المؤثرة في الحياة العامة في مجتمع إيالة الجزائر خلال المرحلة المنحصرة ما بين (١٧٠٠-١٨٣٠)، بل يمكننا الجزم أنه من غير الممكن فهم تراجع الدور المحوري للجزائر في المتوسط خلال العهد العثماني دون الحديث عن التأثيرات الكبيرة التي أحدثتها الأوبئة والطواعين على مجالات عدة، بل إن التأثيرات الديمغرافية الكبيرة للأوبئة كما مر كانت أحد العوامل التي سهلت السيطرة على الإيالة وإخضاعها للاستعمار الأجنبي.

كما أن الأوبئة كانت على صلة مباشرة مع المجتمع في الجزائر على اختلاف مستوياته، وتفاعلت الأوبئة بل كانت فاعلا في بعض الأحداث السياسية والاجتماعية، واختلف مستوى تأثيره مِن نواحي عدِّة فكان بعضها مباشرا يتمثَّل في الموت أو المرض أو هما معا، وظلت أغلب آثارها مُستترة إلى فترة متوسطة وفي بعض الأحيان بعيدة.

واستنادا إلى ما سبق كان جديرا بنا أنَّ نقول أنّ الأوبئة ما هي في الحقيقة إلَّا تجسيدٌ لشكل مِن أشكال البؤس الإنساني الذي تولَّد عن ظروف معيشية وحياتية قاسية، وبعد استعراضنا للمسار الذي سلكته هذه الأوبئة، والأسباب التي أسهمت في نموها وتطوُّرها يمكننا أن نصل إلى مجموعة مِن الاستنتاجات التي قد تكون أولية الآن ولعلَّها تحتاج إلى تعمُّق أكبر في المستقبل، مِن بينها:

معظم الأوبئة التي حلت بالجزائر خلال المرحلة محل الدراسة كانت أوبئة وافدة من خارج الحيز الجغرافي، ما يجعل فرضية اعتبار الجزائر محل توطن وبائي يعتريها النقص وتنقصها الحجة، ولعل سبب التباس هذا الأمر على عدد من الباحثين خاصة منهم الغربيين هو الجيوب الوبائية التي كانت تظل خامدة وتجدد من مرحلة لأخرى.

ظل المتوسط الزمني لفترة الوباء أثناء ظهوره في الإيالة يتراوح ما بين تسعة أشهر وثلاث سنوات مع وجود بعض الاستثناءات، واستطاعت أنواع معينة مِن الأوبئة أن تستمرَّ في حصد الضحايا والتَّجدُّد لمدَّة طولية ناهزت العشر سنوات كاملة في بعض الحالات.

قوَّة الأوبئة بقيت مرتبطة بشكل مباشر بعدة عوامل منها: ما يمكن عدُّه من عامل تقوية الأوبئة، ومنها ما هو من عوامل استمرار وتفشي هذه الأوبئة. فمن عوامل التقوية الأساسية: المناخ ودرجة الحرارة والرطوبة، ومِن العوامل الأساسية في الاستمرارية والتفشي عدم الاحتراز مِن الوباء وعدم وجود ثقافة طبية في هذا الشأن، إمَّا لدواعي عقدية مغلُوطة أو لدواعي غير واعية. كما أنّه يلاحظ بأن الأوبئة والأزمات الغذائية ظلتا في الكثير مِن الأحيان ملازمتين لبعضهما

البعض، وتتأثران ببعضهما البعض؛ بحيث أدى وجود المجاعة إلى تحضير أرضية صالحة لتفشي الأوبئة؛ بسبب ما تُحدثه المجاعة مِن نقص وسوء في التغذية وما يترتب عنه من فقدان القدرة المناعية للجسم في مواجهته للأمراض الوبائية.

ظلت معظم الأوبئة التي عرفتها الإيالة تظهر أو تبلغ ذروتها في المرحلة الممتدة مِن شهر (جانفي/ يناير) إلى نهاية شهر(ماي/ مايو) وهي مدة زمنية تستمر لستة شهور وفي بعض الأحيان يبقى النشاط الوبائي إلى ما بعد هذه الشهور لشهر أو شهرين على الأكثر، لذا فإنَّ التراجع وبداية الانحسار الوبائي في الإيالة غالبا ما ارتبط بدخول فصل الصيف، فكانت معظم الأوبئة تنحصر تماما في نهاية الشهر السادس أو السابع على أكثر تقدير، ولا يبقى منها إلا بعض الجيوب الوبائية التي يمكن السيطرة عليها ويكون تأثيرها غالبا بشكل بسيط على الإيالة.

لمدة زمنية طويلة ظل النشاط الوبائي متمركزا في المدن والحواضر الكبرى، خاصة منها تلك المدن الساحلية التي كانت على تواصل دائم مع المجال الخارجي، ومثل ما كانت في الماضي الموانئ محل انتقال الأوبئة يمكن أن تظل كذلك الآن، كما يمكن للمطارات أن تشكل أحد البؤر الأساسية لنقل الأوبئة داخل المجالات الجغرافية التي لا تشهد الأوبئة.

يمكننا القول أنَّ الكثافة السُّكانية كما رأينا كانت إحدى العوامل الأساسية التي تسهم في احتضان وتنمية الأوبئة، فإن أُضيفت لها بعض العوامل العارضة كالمناخ والرطوبة ودرجة الحرارة المعتدلة إضافة إلى عوامل بشرية أخرى كانعدام شروط النظافة وعدم توفر مجاري مائية لتصريف المياه انتقلت هذه الأوبئة وتفشت من مكان إلى آخر بمساعدة العامل البشري السكاني. كما أنّه مِن

الضَّروري أن نشير إلى أنّ المناخ وإن كانت له يد واضحة ومباشرة في الأزمات الغذائية والمجاعات فإن يده تصبح خفية لكنها لا تقل آثارا في تفشي الأمراض الوبائية؛ إذ أنَّ اعتدال حرارة الجو كان سبباً في نمو الطفيليات والأرومات خلال فصلي الخريف والربيع، وانخفاض درجة الحرارة أو ارتفاعها بشكل كبير كان يؤدي إلى انحسار النشاط الوبائي إلى حد ما.

فإن تحقّق ما سبق انتقلنا للحديث عن التأثير الكبير لهذه الأوبئة على مسار النمو الديموغرافي، فبناء على ما كانت تذكره المصادر والوثائق المختلفة فإن الخسائر البشرية المباشرة قد تصل إلى قرابة المليون نسمة، وهذا ما أثّر بدوره على مستقبل النمو السكاني والحضري في المدن الجزائرية خلال الربع الأوَّل مِن القرن التّاسع عشر.

وُجِدت في الإيالة نقاط محورية ومدن مركزية ظلت محافظة على عادتها في التفاعل مع الأوبئة، بحيث نجد أنَّ بداية ظهور أي وباء كان مرتبطا بهذه المدن، وبعد تتبعنا للنشاط الوبائي طيلة قرن وربع قرن مِن تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني يمكننا القول: أنَّ الأوبئة تعاملت مع المدن على ثلاثة مستويات مدن تمركزت بها الأوبئة بحيث نالت نصيبها مِن كل وباء ظهر في الإيالة تقريبا وهي مُدن: الجزائر، قسنطينة، وهران، تلمسان، البليدة، مستغانم وعنابة. فيما وُجِدت مُدن أخرى كانت تأتي في المستوى الثاني من حيث التَّأثر بالوباء، وكان يتفشى لها في الكثير مِن الأحيان وتتمثل في عدد من المدن أهمها: بسكرة وغرداية والشلف، ومدن أخرى ظلت في المستوى الثالث في منأى عن الأوبئة وتتمثل أساسا في مدن الداخل الصحراوي.

مثل ما أنَّ التوزيع الجغرافي لانتشار الأوبئة كان يختلف مِن منطقة جغرافية إلى أخرى فإنّ حدة الوباء بدورها كانت تختلف مِن منطقة إلى أخرى، ويمكننا القول: إنَّه كلَّما اتجهنا مِن الشَّرق إلى الغرب وكلما انتقلنا مِن المناطق الساحلية شمالاً إلى المناطق الداخلية جنوباً قلَّت حدَّة الأوبئة، حتَّى يكاد ينتهي آثاره فعليا في المناطق الصحراوية كما مرَّ.

تأتي مدينة بسكرة ضمن المستوى الثاني من المدن التي عانت من الأوبئة كما سبق، وهذا راجع بشكل أساسي إلى عدد كبير من البساكرة كان نشاطهم الأساسي يتمثل في العمل في ميناء مدينة الجزائر في شكل حمالين، ما يجعل هذه الفئة هي المجموعة الأكثر عرضة للأوبئة كما أن حركتها غير المقيدة وعودة عدد من العمال منها إلى مدينتهم الأساسية بسكرة بدون فرض السلطة لما يمنع ذلك جعل المدينة من بين أكثر المدن عرضة للأوبئة. وهو ما يمكن أن نسقطه في وقتنا الحاضر على عمال المطارات والمجال الجوي والموانئ في زمننا، ما يتوجب ضرورة عرضهم على الحجر الصحي في حالة انتشار أي وباء قبل السماح لهم بالعودة إلى مواطن استقرارهم، مما يساهم في الحد من تفشي الأوبئة في حالة ظهورها.

بقيت الأوبئة في المخيال الجماعي للسُّكان أحد الجنود الضارية التي لم يجد معها ساكنة الجزائر في العهد العثماني حلاً إلاَّ الاعتراف بقوتها والاستسلام لمشيئتها؛ بل وانصرف النَّاس إلى أشغالهم دون أي اهتمام بفكرة «الحجر الصحي» أو «الكرونتينة» وحتى إن وجدت فإنَّها لم تكن تُحترم بشكل عام، ما كان يترتب عنه دائما تفاقم الأوضاع وتفشي الأوبئة.

عدم وجود ثقافة صحية جعل التّحكم في انتشار الأوبئة شيئا مُستعصياً، إذ أن تعامل المجتمع عند انتشار الأوبئة ظل سلبيا ولم ينصرف للاهتمام بشروط الوقاية مِن الإصابة بالأوبئة. بل في بعض الأحيان كان سببا في استدعائها وتفشيها كلَّ مرَّة.

تطبيق فكرة «الحجر الصحي» كان نادرا جدا، ولعله أحد الأسباب التي حملت العديد من العلماء على الدخول في جدالات فقهية حول مشروعية هذا الأمر، لكن تطبيق الفكرة فعليا ظلت مرتبطة بشكل أساسي بقدرة الحاكم على استشراف خطر الوباء، ومع هذا فتطبيق «الكرنتينة» إن حدث في مرات قليلة فإنه لم يمنع دخول الوباء إلى إيالة الجزائر، وهذا بسبب عدد من العوامل أهمها: طول السّاحل الجزائري وعدم قدرة السلطة الحاكمة على السيطرة على دخول وخروج السفن بشكل عام.

بعد استعراضنا للطريقة التي كانت تنتشر بها الأوبئة يمكننا أن نتحدَّث عن تحمُّل السُّلطة الحاكمة خلال المرحلة محل الدراسة جزءا كبيراً مِن المسؤولية في تفشي الأوبئة، فكما فصّلنا الأمر في ثنايا الفصول والمباحث المختلفة، بقي تعاملها مع هذه الأزمات تعاملا ساذجاً لا يرقى لتفكير الجماعة الحاكمة فضلا عن الدول الحقيقية، بل إنّ معظم الإجراءات المُتَّخَذة مِن طرف السُّلطة الحاكمة ظلَّت إجراءات ظرفية تنم عن مستوى وطريقة التفكير.

مركزية التوجه والشعور الديني هي التي حكمت تصرفات المجتمع الجزائري خلال انتشار الأوبئة والأزمات الغذائية في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، وهو ما يفسّر سبب البذل الذي كان يقوم به الميسورون ماليا أثناء الأوبئة والأزمات الغذائية، ويُفسَّر أيضا بمحاولات بعض البايات والدايات إظهار

أنفسهم في صورة الرجال الكرام الذين يبذلون أموالهم في سبيل الله دون أن ينتظروا الجزاء. وهو ما يرفع تلقائيا في مستوى الولاء والاحترام لهذا الباذل وهو ما حدث مع «محمَّد باي الكبير» و«صالح باي» والحاج «أحمد باي» وغيرهم.

وفي الأخير لا يسعنا المقام إلاَّ لنذكِّر الباحثين بأهمية الخوض والبحث في تاريخ الأزمات سواء منها الصحية أو الغذائية وأنها لا تزال مجالاً خصباً للبحث خاصة في الجوانب المتعلقة بتأثيرات هذه الأزمات على تاريخ المجتمعات سواء منها التاريخ الطويل المتمثل في انعكاس هذه الأزمات في الذهنيات والتّصورات والأفكار، بل حتى تأثير هذه الأزمات في الحدث في حد ذاته. كما لابد ألا نُغفِل الأخطاء البسيطة التي كنا نقوم بها في الماضي والتي كان يترتب عنها نتائج كارثية على مستويات عدة، لذا يبقى أهم شيء في الوباء هو التعامل الوقائي الذي لابد منه في مرحلة متقدمة.

❁❁❁

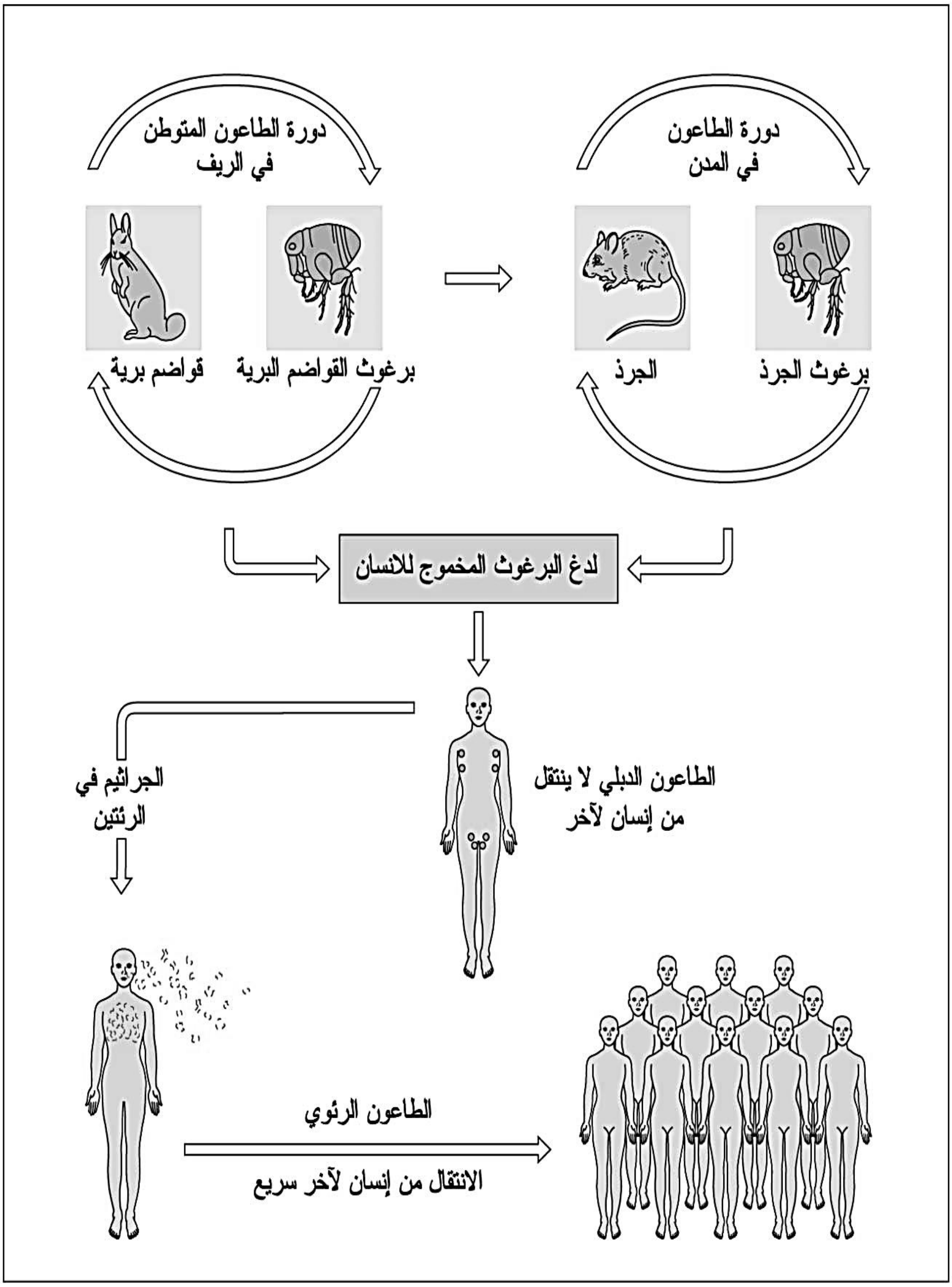
الملاحق

جريدة الملاحق المستخدمة في الدراسة

الملحق الأول: صورة توضح شكل الخرجات

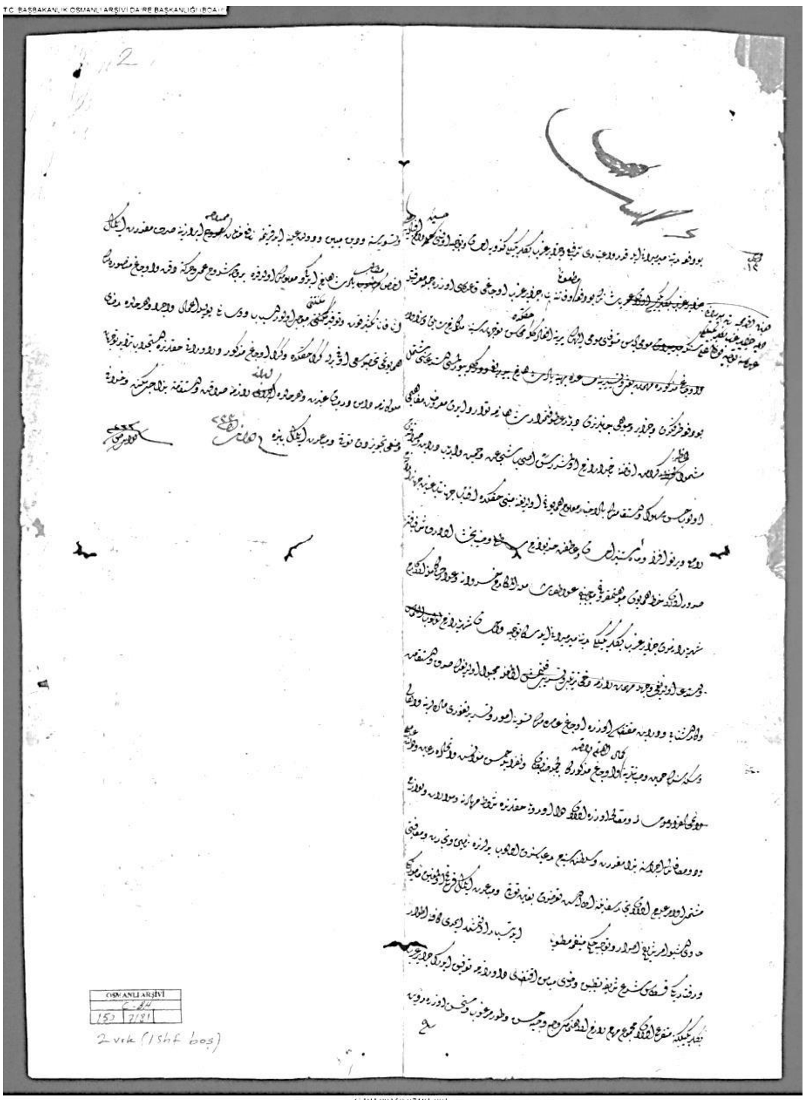


الملحق الثاني: دورة الطاعون



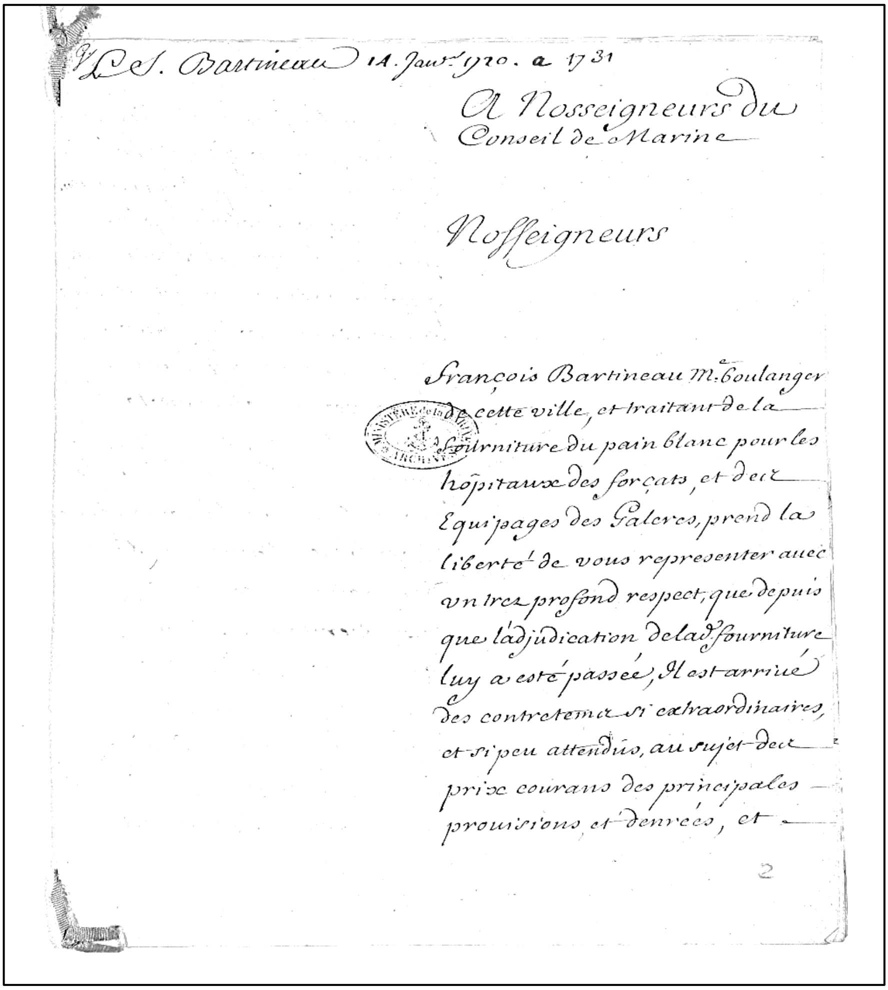
الملحق الثالث: وثيقة ضمن وثائق الأرشيف العثماني تتحدث عن وفاة الداي علي باشا بالطاعون سنة (١٨١٧م)

B.O.A: BH. Dosya N°150. Gömlek N°7181. Tarih 1233.C.29. Belg 01.



C.BH.00150.07181.001

الملحق الرابع: رسالة من القنصل الفرنسي في الجزائر إلى المجلس


V L S. Bartineau 14. Janv. 1720. a 1731

A Nosseigneurs du
Conseil de Marine

Nosseigneurs

François Bartineau M. boulanger de cette ville, et traitant de la fourniture du pain blanc pour les hôpitaux des forçats, et des Equipages des Galeres, prend la liberté de vous representer avec un tres profond respect, que depuis que l'adjudication de lad. fourniture luy a esté passée, Il est arrivé des contretemps si extraordinaires, et si peu attendus, au sujet des prix courans des principales provisions, et denrées, et

2

البحري في مدينة مرسيليا يعلمها بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع تسرب الوباء إلى فرنسا وذكر وجود سفينتين جزائريتان في المتوسط يشبه في إصابتهما بالوباء[1]

(1) - Fonds Marine dossiers individuels: F.M: Cotes: MAR/C/162/58, D 10579

الملحق الخامس: وثيقة شخصية نشرها الأستاذ محمد بوعبد الله

في صفحته على الفايس بوك على الرابط التالي:

https://www.facebook.com/mahammed.bouabdallah?epa=SEARH _BOXتتحدث

عن وباء سنة (١٧٩١مـ)



الملحق السادس: الورقة الأولى من مخطوط حسن النبأ في التحرز من الوباء

للشيخ بيرم الثاني الموجودة بالمكتبة التونسية وفيها ظهر العنوان الذي اختاره لها صاحبها


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

سبحان ذي القدرة الباهرة، والحكمة البالغة الباهرة الذي وضع الأسباب وأسس

ثبت المصادر والمراجع

الوثائق الأرشيفية

أولا: وثائق الأرشيف العثماني (رئاسة الوزراء سابقا) (أرشيف رئاسة الجمهورية حاليا) اسطنبول **B.O.A**:

1. AE. SABH.I. Dosya N°88.Gö N°6066. T 1199.Ca.07.
2. AE. SAMD.III.Dosya N°116.Gömlek N°11393. T:1142.M.02.
3. AE. SAMD.III.Dosya N°39.Gömlek N°3746. T:1129.R.13.
4. AE. SAMD.III.Dosya N°76.Gömlek N°5019. T: 1147.R.25.
5. AE. SMST.III.Dosya N°248.Gömlek N° 19797. T: 1176.M.16.
6. AE. SSLM.III.Dosya N°58.Gömlek N°3461. Tarih 1215.Ra.08.
7. AE.SMST.III. Do: N°162. Gömlek N°12704. T:1186.Z.01.
8. AE.SSLM.III. Do: N°136.Gömlek N°8256. Tarih 1206.B.12.
9. C.AS. Do: N° 870.Gömlek N°37292. T:1206.L.04.
10. C.AS. Do: N°170. Gömlek N°7439. T: 1206.Z.20.
11. C.AS. Do: N°268.Gömlek N°10993. Tarih 1231.Ş.09.
12. C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. T:1206.N.05.
13. C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1206.N.05.
14. C.AS. Do: N°30.Gömlek N°1371. Tarih 1210.N.17 .
15. C.AS. Do: N°483. Gömlek N°20145. T:1230.S.21.
16. C.AS. Do: N°951.Gömlek N°41311. T:1199.Ş.02.
17. C.DA. Do: N°35.Gömlek N°1722. T: 1205.N.29.
18. C.EV. Do: N°192. Gömlek N°9580. T: 1194.N.29.

19. C.HR. Do: N°147. Gömlek N°7308. Tarih 1188.Za.18. Belg 01.
20. C.ML. Do: N°406. Gömlek N°16652. T:1197.Z.04.
21. C.ML. Do: N°600. Gömlek N°24762. Tarih 1197.L.26. Belg 03.
22. C.ML. Do: N°724. Gömlek N°29635. T:1202 .L. 06.
23. C.ML. Do: N°87. Gömlek N°3972. Tarih 1231.Z.29. Belg 01.
24. C.ML. Do: N°94. Gömlek N°4218. Tarih 1207.Z.07.
25. C.SH. Do: N°06. Gömlek N°290. Tarih 1227.Za.29. Belg 01.
26. HAT. Do: N°12. Gömlek N°438B. Tarih 1197.L.23. Belg 01.
27. HAT. Do: N°1412. Gömlek N°57500. Tari 1205.Z.29. Belg 01.
28. HAT. Do: N°144. Gömlek N°6042. Tarih 1219.Za.24. Belg 01.
29. HAT. Do: N°1656. Gömlek N°102. Tarih 1222.Za.29. Belg 01.
30. HAT. Do: N°209. Gömlek N° 11213. Tarih 1206.Za.2٩. Belg 01.
31. HAT. Do: N°240. Gömlek N°13451. Tarih 1214.N.2٩. Belg 01.
32. HAT. Do: N°245. Gömlek N°13836. Tarih 1215.Ş.01. Belg 01.
33. HAT. Do: N°280. Gömlek N°16568. Tarih 1227.Z.29. Belg 01.
34. HAT. Do: N°29. Gömlek N°1361. Tarih 1198.Ş.13. Belg 01.
35. HAT. Dosya N°283. Gömlek N°16872. Tarih 1231.Z.29.

ثانيا: وثائق الأرشيف الفرنسي

Archives nationales (France)

Affaires étrangères. Correspondance reçue du consulat [C.C.F.A] d'Alger:

36. AE/B/I/124. Cotes: F °264-265.
37. AE/B/I/124. Cotes: F °266-271.
38. AE/B/I/118. Cotes: F °292-293.
39. AE/B/I/124. Cotes: F °294-297.
40. AE/B/I/121. Cotes: F °87-89.

41. AE/B/I/123. Cotes: F °158-161.
42. AE/B/I/123 Cotes: F °206-210.
43. AE/B/I/125. Cotes: F °37-38.
44. AE/B/I/135 Cotes: F °221-223.
45. AE/B/I/139 Cotes: F °135-136.
46. AE/B/I/118. Cotes: F °292-293.
47. AE/B/I/118. Cotes: F °257-262.
48. AE/B/I/129. Cotes: F °67-74.
49. AE/B/I/118. Cotes: F °294-297.
50. AE/B/I/124. Cotes: F °266-271.
51. AE/B/I/139. Cotes: F °130-133.
52. AE/B/I/129. Cotes: F °44-45.
53. AE/B/I/143. Cotes: F °29-30.
54. AE/B/I/124. Cotes: F °87-94.
55. AE/B/I/124. Cotes: F °264-265.
56. AE/B/I/124. Cotes: F °266-271.
57. AE/B/I/124. Cotes: F °264-265.
58. AE/B/I/124. Cotes: F °279-282.
59. AE/B/I/124. Cotes: F °285-286.
60. AE/B/I/128. Cotes: F °141-144.
61. AE/B/I/128. Cotes: F °145-146.
62. AE/B/I/128. Cotes: F °51-52.
63. AE/B/I/128. Cotes: F °87-94.
64. AE/B/I/128. Cotes: F °61-63.
65. AE/B/I/128. Cotes: F °123-129.
66. AE/B/I/128. Cotes: F °135.

67. AE/B/I/128. Cotes: F °141-144.
68. AE/B/I/129.Cotes: F°13-20.
69. AE/B/I/124. Cotes: F °292-293.
70. AE/B/I/129. Cotes: F °33-34.
71. AE/B/I/129. Cotes: F °67-74.
72. AE/B/I/135. Cotes: F °22-30.
73. AE/B/I/129. Cotes: F °63-64.
74. AE/B/I/142. Cotes: F °168-171.
75. AE/B/I/142. Cotes: F °178-179.
76. AE/B/I/143. Cotes: F °138-144.
77. AE/B/I/143. Cotes: F °160.
78. AE/B/I/143. Cotes: F °1-3.
79. AE/B/I/143. Cotes: F °19-20.
80. AE/B/I/143. Cotes: F °29-30.
81. AE/B/I/142. Cotes: F °168-141.
82. AE/B/I/143. Cotes: F °42.
83. AE/B/I/143. Cotes: F °22-23.
84. AE/B/I/143. Cotes: F °63-66.
85. AE/B/I/143. Cotes: F °80-86.
86. AE/B/I/174. Cotes: F° 183.
87. AE/B/I/124. Cotes: F °294-295.
88. AE/B/I/142. Cotes: F °168 -171.
89. AE/B/I/142. Cotes:F° 143.
90. MAR. Cotes: 7. F.N 18: D 10.
91. MAR. Cotes: 7. F.N 58: D 08.
92. MAR. Cotes: 7. F.N 58: D 81.

أولا: اللغة العربية

المصادر المخطوطة

١. أحمد بن القاسم البوني: مخطوط «**مبين المسارب للأكل والطب والمشرب**» مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم ٤٠٤٢.

٢. إدريس بن حسام الدين علي البدليسي: **رسالة الآباء عن مواقع الوباء**، مخطوط السليمانية مجموعة وهبي، رقم ٠١٣٧٩.

٣. عبد الرحمن بن محمد بن علي البسطيمي: **الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة**، مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية، القسم العربي، رقم (٢٦٩١).

٤. محمد بن علي الصنهاجي: **المنافع البينة وما ينفع في الأزمنة الأربعة**، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم ١٧٠.

٥. محمَّد بيرم الثاني: حسن النبأ في جاوز التحفظ من الوباء، **مخطوط المكتبة الوطنية التونسية**

٦. مؤلف مجهول: **بيان ملوك الجزائر** المكتبة الوطنية الجزائرية رقم (١٦٢٤)

٧. مؤلف مجهول: **نبذة يسيرة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران**، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية باريس رقم (٥٠٢٢)

المصادر والمراجع المطبوعة

٨. ابن حجر العسقلاني: **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة الرياض. د-س، د-ط.

٩. ابن منظور الإفريقي: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د-ط، د-س، ج١.

١٠. أحمد الشريف الزهار: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزَّهار**، دار البصائر، الجزائر، طبعة وزارة الثقافة، ٢٠٠٩.

١١. أحمد بن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من وزارة الثقافة، تنفيذ الدار العربية للكتاب ، ٢٠٠١، المجلد الثاني، ج٣.

١٢. أبو راس الناصري: **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**، دراسة وتحقيق بوكبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، ٢٠١١، ج٢.

١٣. أبو راس الناصر: **فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته**، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧.

١٤. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، د-ط، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

١٥. أحمد بن هطال: **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي ١٧٨٥**،حرّرها وقدّم لها محمد بن عبد الكريم د- ط، دار ارتياد الآفاق دون سنة نشر.

١٦. أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، ط الأولى، الجزائر، البصائر،٢٠٠٧.

١٧. أبي الحسن بن هبة الله البغدادي: **المغني في تدبير الأمراض ومعرفة العلل والأعراض**، تحقيق ودراسة وتعليق محمد ياسر زكور، راجعه عمر فاروق محمد غصن، دار المناهج، جدة، السعودية، ط الأولى، ٢٠١١مـ

١٨. إبراهيم محمد الساسي العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٧.

١٩. فلة موساوي: **الصحة والسكان في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(١٨٧١-١٥١٨)** أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر(منشورة)، إشراف ناصرالدين سعيدوني، جامعة الجزائر(أبو القاسم سعد الله)، السنة الجامعية ٢٠٠٤-٢٠٠٣.

٢٠. الأغا بن عودة المزاري: **طلوع سعد السعود**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، د طبعة، الجزائر، دار البصائر، ٢٠٠٧. ج١.

٢١. أف شونبيرغ: **الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال**، تر أبو العيد دودو، المجلد الأول، دار الأمة، طبعة خاصة، ٢٠٠٩

٢٢. أو. هابنسترايت: **رحلة العلامة الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس**: تر، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، سنة النشر ١٩٨٧.

٢٣. سيمون بفايفر: **مذكرات جزائرية عشية الاحتلال**، تر: أبو العيد دودو، المجلد الأول، طبعة خاصة وزارة المجاهدين، دار الأمة،٢٠٠٩.

٢٤. برنار روزنبرجي وحميد التركي: **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين ١٦ و١٧م**، عبد الرحيم حزل، دار الأمان، الرباط، ط الثانية، الرباط، ٢٠١٤.

٢٥. حسين بن رجب شاوش بن المفتي: **تقيدات بن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلماءها**، جمعها واعتنى بها، فارس كعوان، ط الأولى،٢٠٠٩، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة.

٢٦. الحسين بن محمد الورثيلاني: **نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار**، تحقيق محفوظ بوكراع وعمار بسطة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١١، المجلد الأول.

٢٧. حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري، منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، ٢٠٠٥.

٢٨. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي: **كتاب الطاعون وأحكامه**، تحقيق أحمد بن محمد بن غانم آل ثاني، روايا للدراسات والبحوث، دار ابن حزم، ط الأولى، ٢٠١٧.

٢٩. محمد بن صالح العنتري: **مجاعات قسنطينة**، تحقيق رابح بونار، د-ط، ذخائر المغرب العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤.
٣٠. العربي المشرفي: **أقوال المُطاعين في الطعن والطواعين**، تحقيق حسن الفرقان، الطبعة الأولى منشورات التوحيدي، الرباط، ٢٠١٤.
٣١. محمد أبو راس الجزائري: **فتح الإله ومنَّته في التَّحدث بفضل ربي ونعمته**، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، د-ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
٣٢. محمد الأمين بزاز: **المجاعات والأوبئة في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٢.
٣٣. محمد بن يوسف الزياني: **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، د-ط، الجزائر، (ش ون ت)، ١٩٧٩.
٣٤. ناصر الدين سعيدوني: **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، د-ط، بيروت ، لبنان، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٩، ج١.
٣٥. ناصر الدين سعيدوني: **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العثمانية**، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، ٢٠٠٠.
٣٦. عبد الله محمد الحبشي: **معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما ألف فيها**، الدار اليمينة للنشر والتوزيع، د-س، د-ط.

رسائل الماجيستير والدكتوراه (اللغة العربية):

٣٧. مزدور سمية: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(١١٩٢مـ - ١٥٢٠مـ)** رسالة ماجيستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٩.

المقالات والأبحاث:

٣٨. أمين محمد: **الطاعون في مدينة الجزائر آثاره على الديمغرافيا والأنشطة الاقتصادية خلال القرن ١٨م**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ١٧-١٨

٣٩. خير الدين سعيدي: **حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة ١٧٧٥م من خلال مخطوط «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة»** مع تحقيق الجزء المتعلق بالحملة من المخطوط. مجلة آفاق الثقافة والتراث. دبي، ذو الحجة ١٤٣٦هـ/ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٥م).

٤٠. شخوم سعدى: **قراءة في أوضاع الطب ومتعلقاته بالجزائر العثمانية**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد الأول، العدد الأول، جوان ٢٠١٥، يصدرها مخبر الجزائر والحوض الغربي للبحر المتوسط.

٤١. عائشة غطاس: **أوضاع الجزائر المعيشية والصحية أواخر العهد العثماني**، المجاعات والأوبئة ١٧٨٧-١٨٣٠ المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية.

٤٢. فلة القشاعي: **الوضعية الصحية والديموغرافية في الأرياف في قسنطينة**

خلال العهد العثماني١٧٧٧-١٨٣٧ المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، العدد ١٧-١٨ سنة ١٩٩٨

٤٣. فلة موساوي القشاعي: **وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله**، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى، ٢٠٠١.

٤٤. لغالم محمد: **ظاهرة الزلازل في الاسطوغرافيا الجزائرية التقليدية بين الذاكرة والتاريخ**، وهران مجلة الإنسانيات، مج ١، العدد ٣،١٩٩٧.

٤٥. ناصر الدين سعيدوني: **الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر خلال العهد العثماني**. المجلة التاريخية المغربية، العدد ٣٩-٤٠.

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

أولا: اللغة الفرنسية

المصادر المخطوطة باللغة الفرنسية:

46. Pharaon Florian et le docteur Bertherand: **l'Histoire de la Médecine chez les Arabes**. Vocabulaire français-arabe, Papiers et manuscrits ayant appartenu au docteur Leclerc, manuscrit, Bibliothèque nationale de France. Département des manuscrits. Arabe 6455.

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الفرنسية

47. Adrien Berbrugger: **Mémoire sur la peste en Algérie**, dans exploration scientifique de L'Algérie, sciences médicales, imprimerie Royale, Paris, T2.

48. Alphonse Rousseau: **Chroniques de la régence d'Alger**, Traduites d'un manuscrit arabe intitulé» el zohrat el nayerat", imprimerie du govroment, Alger, Anne 1841.

49. Auguste Millet: **Du choléra-morbus épidémique**, Éditeur Labé Paris, 1851.

50. Boucher Hubert: **La peste en Europe et en Asie**: empoisonnement de la race humaine par les vaccins et les sérums, éditeur Libraire général et Zoophile, Paris, 1910.

51. Boutin Vincent-Yves: <u>Dépôt de la guerre:</u> **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger à l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique**, 3 éditions, Ch. Picquet Paris, 1830.

52. Bulletin de l'Académie nationale de médecine: **Publié par soins de la commission de publication**, Tome XI, première partie, Bibliothèque académique royale de médecine, Paris, 1846.

53. Charles Aimé Dauban: **Paris en 1794 et en 1795: histoire de la rue, du club, de la famine**, composée d'après des documents inédits, particulièrement les rapports de police et les registres du Comité de salut public, Éditeur Plon, Paris, 1869.

54. Charles Féraud Laurent ; **Histoire des villes de la province de Constantine**. La Calle: et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique, imp. V. Aillaud et Cie, Alger, 1877.

55. Cherbonneau M-A: **Constantine et ses antiquités trait de nouvelles annales des voyages**, Février 1857, Imprime porthumot, Paris.

56. Chrestien André-Thérèse: **Étude du choléra-morbus à l'usage des gens du monde**, Éditeur L**.** Castel Montpellier, 1835.

57. Daniel Panzer**: Histoire économique et sociale de l’imper ottoman étude la Turquie** la responsabilité de. Vol 3. 1995.

58. De Grammont Henri Delmas: **Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVIIe siècle**, Alger, 1879.

59. De Grammont Henri Delmas: **Correspondance des consuls D’Alger** (1690-1742), Alger, Adolphe Jourdan, librairie éditeur 4, Place degouvernment,1890.

60. De Grammont Henri Delmas: **Histoire d’Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Ernest Leroux Éditeur, Paris, 1887.

61. Delvaille Camille: **L'épidémie de petite vérole et la revaccination**, imp. de Vve Lesseps, Bayonne, 869.

62. Émile Bertherand: **Médecine et hygiène des Arabes**: études sur l'exercice de la médecine et de la chirurgie chez les musulmans de l'Algérie, Éditeur G. Baillière, Paris, 1855.

63. Émile Julien Nicolas Barbier: **Le choléra épidémique et l'hydrologie médicale**: Vichy et ses eaux minérales comme médication préventive et effective, Éditeur Vichy, 1866.

64. Émile Legée: **Rapport sur l'épidémie de variole**, qui a régné en 1870-71 dans l'arrondissement d'Abbeville, Éditeur**:** imp. de Briez, Abbeville, 1872.

65. Ernest Mercier: **L’Algérie et les questions algérienne étude historique statistique et économique**, Challamel Ainé éditeur libraire algérienne et colonial, Paris, 1883.

66. Ernest Mercier: **Histoire de l’Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu’à la coquété française** (1830), Ernest Leroux, Paris, T3.

67. Eugène Plantet: **correspondance des deys d’Alger avec cour de France (1579-1833)** T2, éditions Assala Culture, 1889.

68. Fernand Braudel: **la méditerranée et le monde méditerranéen**, Éditeur: Armand Colin, Paris, 1966, Tome 1.

69. François-Joseph Ducoux :**Esquisse des maladies épidémiques du nord de l'Afrique examen des causes qui les ont occasionnées et entretenues**, Paris, aux librairies médicales et militaires, ١٨٣٧.

70. Fray Diego de Haedo: **Histoire des rois d'Alger**. Traduite et annotée par H.-D. de Grammont, Jourdan, Alger, 1881.

71. Gaffarel Paul et Duranty Marquis: **La peste de 1720 à Marseille et en France**: d'après des documents inédits, Éditeur Perrin, Paris.

72. Georges Daremberg: **Le choléra, ses causes, moyens de s'en préserver**, Éditeur Rueff, Paris, 1892.

73. Grandmaison de Bruno, Marie Emmanuel Gabriel dit Fernand: **La variole,** Éditeur Rueff, Paris, 1894.

74. Henri Jules Violle: **La Peste, les rats, les puces, le bacille de la peste**, le diagnostic de la peste chez le rat, Melun, 1921.

75. J.-L.-G. Guyon: **Histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique depuis les temps les plus reculés jusqu'à a nos jours**, Imprimerie du gouvernement Alger,1855.

76. Jean Alasia ; **Mémoire adressé par M. Alasia au Roi de Sardaigne** .Dans mémoires de la congrégation de la mission.

77. Jean Laumonier: **La peste histoire et traitement**, Éditeur H. Gautier, Paris, 1897.

78. Jean-André Peyssonnel (1694-1759) :**Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger**. Libraire de Gide, éditeur essaimages des voyages, 1838.

79. Jean-Armand Chabrand: **Les grandes épidémies dans le Briançonnais**, Grenoble imp. France, 1886.

80. Jean-Baptiste Baillière Georges: **Les Maladies évitables**, Éditeur, J.-B. Baillière, Paris, 1898.

81. Jean-Louis-Marie Poiret: **Voyage en Barbarie**, ou **Lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785 & 1786**, sur la religion, les coutumes & les moeurs des Maures & des Arabes-

Bédouins ; avec un essai sur l'histoire naturelle de ce pays. Lettre N°5, Éditeur chez J. B. F. Née de la Rochelle, 1789, Lettre N°27.

82. Jena Claude Vichert ; **Pestes de 1786 et 178** .Dans: Mémoires de la congrégation de la mission.

83. Joseph-Désiré Tholozan: **Les trois dernières épidémies de peste du Caucase**, auteur Éditeur: G. Masson, Paris, 1879.

84. Joseph-Désiré Tholozan: **Du Développement de la peste dans les pays montagneux et sur les hauts plateaux de l'Europe**, de l'Afrique et de l'Asie, Gauthier-Villars, Paris.

85. Kelsch Achille: **Considérations sur l'étiologie du typhus exanthématique**, Éditeur G. Masson Paris, 1872.

86. Léon Dubar: **Quelques notes et souvenirs personnels concernant le choléra**, Éditeur imprimerie E. Ramon, Armentières, 1909.

87. Léonard Arnaud: **Essai sur la peste de Benghazi d'Afrique**, imp. de F. Pichon, Paris, 1888.

88. Léon-Henri Thoinot et Brouardel Paul: **La fièvre typhoïde**, Éditeur J.-B. Baillière et fils, Paris, 1895.

89. Louis-Balthasar Caffe Paul-: **Considérations sur l'histoire médicale** et statistique du choléra-morbus de Paris, 1913.

90. M. D Armieux: **Gazette médical de Algérie** ،mémoire présenté à la société de climatologie algérienne dans sa séance du 1er juillet 1864, 10e Année N° 7, 25 juillet1865.

91. Maury Eugène: **L'hygiène et l'assistance publiques à Bar-sur-Aube (Aube) au XVIIIe siècle d'après les registres de délibérations (1572-1789)**, Éditeur**:** Impr. Nationale, Paris, 1903.

92. Michel Perrot Aristide: **esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, accompagnée d'une carte générale du royaume et d'un plan du port et de ses environs**, Éditeur: L'advocaat, Paris, 1830.

93. Mostefa Khiati: **la médecine en Algérie au cours de la période Ottoman (15-19 siècle)**, éditions Houma, 2013.

94. Paul Masson: **Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793)** (Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc), Hachette, Paris, 1903.

95. Pierre Bourgin: **Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole**, Éditeur Impér. nouvelle Lyon, 1885.

96. Pierre Bourgin: **Contribution à l'étude de l'albuminurie dans la variole,** Éditeur Impr. nouvelle Lyon, 1885.

97. Pierre Vignes: **Histoire du choléra-morbus**, qui a régné épidémiquement à Oran pendant les mois d'octobre1834 et de janvier 1835, Verronnais, Metz, 1836

98. Stanislas Crouzet: **Dissertation sur la peste**, Éditeur Camoin Dutertre, Marseille, 1822.

99. Vincent Martin Antoine et Collardot Victor: **Le choléra, d'après les neuf épidémies qui ont régné à Alger**, depuis 1835 jusqu'en 1865, Éditeur: V. Rozier, Paris, 1867.

100. Walsin Esterhazy Louis-Joseph-Ferdinand: **De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, éditeur, C. Gosselin, Paris, 1840.

101. William Shaler: **Esquisse de l'état d'Alger**, tr M.X Blanchi, librairie L'advocaat, Paris, 1830.

مذكرات الماجيستير ورسائل الدكتوراه (اللغة الفرنسية)

102. Antonin Bolio: **Grippe et typhoïde**, président de thèse professeur Brouardel, Faculté de médecine de Paris ; Éditeur C. Naud, Paris, 1904.

103. Jean Marchika: **la peste en Afrique septentrionale**, histoire de la peste en Algérie de (1363-1830) présentée le 20 Mai 1927, Université d'Alger, faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, Anne 1927, non publié.

104. Libert Marcel: **Étude des réflexes dans la fièvre typhoïde**, président de thèse professeur Raymond, Faculté de médecine de Nantes -Thèse Doctorat- Éditeur**:** A. Michalon, Paris, 1902.

105. Louis Berthet: **Vaccine et variole contribution à l'étude de leurs rapports**, président de thèse professeur Chauveau, laboratoire de médecine et comparé a la faculté de Lyon J.-B. Bacillifère, Paris, 1884.

106. Mohamed ben larbey seguir: **la médecine arabe en Algérie**, thèse pour le doctorat en médecine présente et soutenue le 16 juillet 1884, président M. Béclard, Faculté de médecine de Paris, Année 1884, N°291.

المقالات والأبحاث (اللغة الفرنسية)

107. Arnoult Bossu: **Rapport de M. Bossu sur l'Église d'Alger 1749** M.C.M, Mémoires de la Congrégation de la Mission, à la maison principale de la congrégation de la mission, 1867, Tome 3

108. Audet: les chott shebka lac santé d'Oran, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 24. N°٠2, 1879.

109. Auteur Inconnu: Note chronologiques pour l'histoire de Constantine, **Revue African.**, Anne 1895. N°39.

110. Bertherand: les quarantaines et le system de dresde a l'encontre du choléra, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 38. N°20, 1893.

111. Brosselard: les inscriptions arabes de Telimcen, **Revue African.**, Anne 1860, N°4.

112. Brosselard: **les inscriptions arabes de Telimcen**, Revue African., Anne 1860, N°4.

113. Dournon A: **kitab tarih Quosàntina**, par EL hadj Ahmad El mobàrke, in **Revue African**, Volume 57, 1913.

114. Dumas: **les sources naturelles du vaccin**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.

115. Edouard Robin: **Prophylaxie sur l'art de prévenir le choléra**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°24, 1883.

116. Fritsch dit long: ce que Valent les lazarets et les quarantaines, dans **Gazette Médical**, dixième Année, Directeur Dr E.L Bertherand, Alger 1865, N°7.

117. Gazette de France: 1787, N° 66.

118. Gazette de France: 1792, N° 08.

119. Gazette de France, 1671, N°1.

120. Gazette de France, 1762, N° 74.

121. Gazette de France, 1765, N° 420.

122. Gazette de France, 1783, N° 65.

123. Gazette de France, 1791, N° 90.

124. Gazette de France: 1783, N° 61.

125. Gazette de France: 1784, N°70.

126. Gazette de France: 1787, N° 61.

127. Gazette de France: 1787, N° 62.

128. Gazette de France: 1787, N° 66.

129. Gazette de France: 1787, N° 67.

130. Gazette de France :1787, N° 67.

131. **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°01, 1891.

132. **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°05, 1891.

133. Iben hamadush: kachef errmouz, dans **Gazette médicale de l'Algérie**, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 18.N°01, 1873.

134. Jean Claude Vichert: **Pestes de 1786 et 1787.** M.C.M, Mémoires de la Congrégation de la Mission, à la maison principale de la congrégation de la mission, 1867, Tome 5.

135. L.Valensi: **Calamités démographique en Tunisie et en Méditerrané orientale aux 18 et 19 siècles**. In **Annales E.S.C.** N°6.

136. Lucette Valensi: **le Maghreb avant la prise d'Alger (1790-1830)** p59/60. A.I.P.A: 1924- N°3.

137. Marthe Conor: **Une épidémie de peste en Afrique mineure (1784-1788)** dans (A.I.P.T)

138. Moranu: Statistique l'été sanitaire de l'armée française: **Gazette**

médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand, Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 36. N°23, 1891.

139. Onetti: **le choléra morbus asiatique**, dans Gazette médicale de l'Algérie, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 33. N°01, 1888.
140. Sistach: la variole à Bona, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879.
141. Vayssettes: **histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793-jusque-là chut de Hadj Ahmed**, Revue African, Anne 1862, N°6.
142. Venture de Paradis: **Alger aux XVIII siècle**, Revue Africaine, Anne 1895, N°39.
143. Vital: climat et météorologie, **Gazette médicale de l'Algérie**, Directeur Dr E.L Bertherand Éditeur J.B.Baillière, Paris, année 23. N°11, 1879.

التقارير والمؤتمرات (باللغة الفرنسية)

144. Académie nationale de médecine: **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 18٤٣.
145. Académie nationale de médecine: **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 18٤٧.
146. Académie nationale de médecine: **Bulletin de l'Académie nationale de médecine,** Éditeur J.-B. Baillière, Paris, 1899.
147. Clot, Antoine-Barthélémy: **Coup d'oeil sur la peste et les**

quarantaines, à l'occasion du Congrès sanitaire réuni à Paris au mois de juillet 1851, V. Masson (Paris), Congrès sanitaire (1851 ; Paris). Éditeur scientifique.

148. Du Mesnil, Octave: **Nécessité de la revaccination des ouvriers venant prendre du travail à Paris,** extrait de la société de médecine publique Éditeur imp. de E. Martinet, Paris, N°4, 15 Avril 1879.

149. **La famine en Algérie et les discours officiels**. Erreurs et contradictions. (12 Avril 1868), Éditeur Marle, Constantine, 1868.

150. Legée, Émile: **Rapport sur l'épidémie de variole, qui a régné en 1870-71** dans l'arrondissement d'Abbeville**,** Éditeur**:** imp. de Briez, Abbeville, 1872.

151. Levasseur Paul: **De la variole et de la vaccine,** rapport présenté à l'Académie, imp. de C.-F. Lapierre Rouen, France, 1876.

ثانيا: اللغة الإنجليزية

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة الإنجليزية

152. Hugh James Rose: **New general biographical dictionary**, Vol VIII, London, 1848.

153. Kenrad E. Nelson & Carolyn F. Williams: **Early history of infections discas**, Jones and Barbieri, England, 1976.

154. Miquel Porta: **A dictionary of epidemiology**, Edited for the International Epidemiological Association by Miquel Porta Associate Editors Sander Greenland Miguel Hernán Isabel dos Santos Silva John M. Last, Oxford University Press is a department of the University of Oxford, Sixth Edition, Printed in

the United States of America, 2001.

155. Paul Edwards: **Epidemics past, present and future** – what are the risks? Recent medical news, March 2017, Publishing Hannover Re 2.

156. Birsen Bulmuş; **Plague, Quarantines and Geopolitics in the Ottoman Empire,** Edinburgh: Edinburgh University Press, 2012**.**

المقالات والأبحاث (اللغة الإنجليزية)

157. World health organization Geneva: **Weekly epidemiological record**, 23 SEPTEMBER 2016, 91st YEAR, No 38, 2016.

ثالثا: اللغة التركية

المصادر والمراجع المطبوعة باللغة التركية:

158. Ali Rıza Paşa: **Mir 'at ül Cezayir el veda** Cezayir çevirmen: Ali Şevki, Günümüz Türkçesine uyarlayan Cahit Kayra, 1. Baskı, Tarihçi kitap evi, İstanbul, Haziran 2014.

159. Danıel Panzac: **Osmanlı İmparatorluğu'nda veba (1700-1850)** çeviren Serap Yılmaz, tarih vakıf yurt yayınları, baskı Numune Matbaacılık, 1997.

160. Şem'dani-zade fındıklılı Süleyman efendi: **Mürat T-Tevârih**, hazırlayın M.Münir Aktepe, Istanbul Edebiyat fakültesi matbaası, 1976, C 1.

161. Johann Wilhelm Zinkeisen: **Osmanlı İmparatorluğu Tarihi**,

Çeviri Nilüfer Epçeli , Cilt 5 ve 6 Yeditepe Yayınevi, ı. Baskı: Eylül 2011.

162. Mustafa Cezar Midhat Sertoğlu: **Mufassal Osmanlı Tarihi**, Turk Tarih Kurumu, Ankara, 2001, c. 5.

المقالات والأبحاث (اللغة التركية)

163. Nalan Turna: İstanbul'un Veba ile ımtıhanı 1811- 1812 Veba salgını bağlamında toplum ve ekonomi, C1, Sayı1, Ağustos 2011, studies of the ottoman domain.

المواقع على الشبكة العنكبوتية

164. World Health organization: Epidemiology, January 11.2019. http://www.who.int/topics/epidemiology/en

165. Department of Health: **Plague,** December 2016 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/plague/fact_sheet.htm

166. Department of Health: Plague, August 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/cholera/fact_sheet.htm

167. Department of Health: Typhoid Fever, September 2017 https://www.health.ny.gov/diseases/communicable/typhoid_fever/fact_sheet.htm

الملخصات:

أولا: ملخص اللغة العربية

يعد البحث في التاريخ الهامشي أحد السبل العلمية الجديدة الساعية إلى محاولة فهم تاريخ الإنسان في جزئياته الدقيقة، ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نسلك الطريق التي من شأنها أن تعرفنا على العديد من الجوانب التي ظلت خفية في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وقد اتخذنا من موضوع الأوبئة والأزمات الغذائية مدخل لاستكشاف المجال العام لعدد من الجوانب التي ظلت خفية في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني.

لذا كان الهدف الرئيسي منذ بداية الدراسة محاولة إعادة رسم الواقع الفعلي الذي كانت تعيشه الإيالة خلال الأزمات، لكننا لم نكتف في هذا العمل بسرد وتتبع شتات الأخبار الواردة حول هذا الموضوع في المصادر المحلية والأرشيفيات الوطنية والدولية فقط، بل حاولنا أيضا أن نستجلي بعض العادات وردود الأفعال التي كان يمارسها المجتمع في مواجهة المجاعات والأوبئة.

وتتبع الأزمات وردود الأفعال والمحاولات المختلفة لتفسير هذه الأزمات أوصلنا إلى عدد من النتائج التي أصبحت جزء من الثقافة الشعبية لسكان الإيالة.

ومن أجل الوصول بالدراسة لتكون مرجعا في بابها فقد اعتمدنا على عدد من المناهج في الدراسات التاريخية لعل من بينها ما يعرف في علم الأوبئة بـ (*Epidémiologie description*) وهو يتَّخذ مِن المكونات الوصفية للأنشطة الوبائية مُرتكزا أساسيا لإعادة هيكلة الصورة العامة وهنا تصبح مكونات مثل:

العوامل المؤدية للأزمات الصِّحية والمظاهر الناجمة عنها، أقوى بكثير مِن المكونات التحليلية.

مثل ما لم نستغن عن مناهج «التحليل والمقارنة» كأسلوب ضمن هذه الدراسة؛ وهذا لأجل أن نخرج مِن قوقعة التاريخ الوصفي إلى فضاءات أوسع تحيط بالتأثيرات للأزمات على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية خلال المرحلة الممتدة طوال القرن الثامن عشر والربع الأول مِن القرن التاسع عشر.

ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة فقد أعددنا خطة مكونة من مدخل وخمسة فصول، خصصنا المدخل للحديث عن الأمور مفاهيمية العامة تتعلَّق بموضوع الدراسة، أي تعاريف تخص الأوبئة وأنماطها وأنواعها واختلافاتها والعلاقة التي تربط بينها.

فإذا فرغنا من ذلك انقلنا للحديث في الفصل الأول عن معالم الحياة الصحية لساكنة الجزائر، منوهين بأهم ما كُتب في الأسطوروغرافيا الغربية عن موضوع الدراسة، ثمَّ اتبعناه بالحديث عن الخارطة الجغرافية لانتشار الأوبئة بالجزائر خلال العهد العثماني.

بعد الفراغ من الفصل الأول والذي كان بمثابة فصل تمهيدي نشرع في الفصل الثاني في صلب الدراسة، وهذا بتتبع الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي كانت تؤدي لظهور الأوبئة وبيئتها في الجزائر متعرضين لعدد من العوامل المختلفة كالمناخ والمياه وهجرة الأراضي وتأثيراتها في الأزمات الصحية التي عرفتها الإيالة الجزائرية في العهد العثماني. ثم انتقلنا في الفصل نفسه للحديث عن نمط

انتقال الأوبئة خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر.

ولما تحقق لنا المراد مِن الفصل الثاني انتقلنا في الفصل الثالث لتتبع كرونولوجيا ظهور الأوبئة في الجزائر خلال القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر، فوقفنا على أكثر مِن خمسة عشر مجاعة وأزيد مِن أربعة وعشرين وباءً ظهر في الجزائر خلال المرحلة محل الدِّراسة. ويظهر أن هذه الأوبئة والمجاعات كانت تختلف درجة تأثيرها مِن سنة إلى أخرى. لذا حاولنا تقسيم هذا الفصل إلى أحياز زمنية يضم كل حيز مرحلة محددة ومجموعة مخصصة من الأزمات.

ولمَّا تقرَّر ما سبق رأينا إنَّه يجب علينا في الفصل الرَّابع أن نتوجَّه إلى مُساءلة السُّلطة السياسية الحاكمة عن نمط تصرفها مع هذه الأزمات الصحية، لذا تحدَّثنا في هذا الفصل عن الإجراءات الوقائية المتبعة من طرف السلطة، مثل ما أفردنا جزء مهم للحديث عن تعامل المجتمع بطوائفه المختلفة مع هذه الأوبئة والغذائية الطَّارئة. ووقفنا على التباين الكبير في التعامل مع هذه الأزمات بين من فضل التحصن في الجبال ومن آثار إغلاق باب بيته وبين أولئك الذين سعوا للهجرة.

لنأتي في الفصل الخامس والأخير للحديث عن الانعكاسات التي كانت لهذه الأزمات على الحياة في جوانبها المختلفة، فتكلمنا عن الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة للأزمات الصحية على الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية، بل وحاولنا تتبع هذه الانعكاسات على الذهنية العامة داخل المجتمع، ووصلنا إلى أن بعض الذهنيات التي توجد في مجتمع الجزائر اليوم هي امتداد لردات الفعل الاجتماعية خلال المرحلة العثمانية.

لنختتم الدراسة بوضع حوصلة، قدمنها فيها النتائج التي استخلصناها من تتبع العوامل والمظاهر والأسباب والانعكاسات المختلفة لهذه الأزمات على جوانب خفية وجلية داخل المنظومة الاجتماعية، ثم أتبعنا الخاتمة بجريدة لمجموعة من الملاحق تخدم متن الدراسة بشكل مباشر، ثمَّ فصلنا في الجزء البيبلوغرافي المصادر المخطوطة والوثائق الأرشيفية المختلفة التي اعتمدناها مِن دور الأرشيف المختلفة، إضافة إلى جرد بأسماء المصادر والمراجع المختلفة باللغات الخمس المستخدم ضمن الوثائق والمصادر وهي باللغات: العربية، والعثمانية، والفرنسية، والإنجليزية والتركية.

Abstract

epidemics in Algeria during the Ottoman rule (1700-1830)

The research on the subordinate historical events is considered to be one of the new scientific methods used to comprehend human history in its fine details. Within the framework of this method, this study aims to highlight various hidden aspects of the Algerian history during the Ottoman rule. Therefrom the theme of health and food crises was taken as an introduction to exploring those hidden aspects of that specific period of time.

The initial aim of this study was an attempt to recall the daily life in Algeria during the crisis, however, that aim was not achievable by only reciting stories and facts that are related to the subject in local sources and international archives, thus, examining some of the habits and reactions the society had, while facing famines and epidemics was a must.

The tracking of these crises, feedbacks and the different efforts to understand them led to numerous consequences that later became an inseparable part of popular culture in Algeria.

Several methods in historical studies were implied in this study such as Epidémiologie description, a method that sees descriptive components of epidemiological activities as the essence to the reconstruction of the general picture, where it turns to be components again e.g. factors leading to health crises and their symptoms are much stronger than the analytical components.

Comparative analysis method was also implied to avoid descriptive research and dig into wider spaces surrounding the effects of crises on social, economic and cultural life during the eighteenth and first quarter of the nineteenth century.

This study consists of an introduction and five chapters. The introduction was dedicated to contextualise the general conceptual issues related to the subject of the study; definitions of famine, epidemics, various types, differences and the relationship between them.

The first chapter discusses divers writings on the topic of of health and food crises in both Arab and Western heritage studies. This chapter also discusses the marks of health and nutrition in Algeria during the sixteenth and the seventeenth century.

The core of this study starts coming into sight in second chapter, which examines the motives that led to the emergence of famine and epidemics in the eleventh and the beginning of the nineteenth century. furthermore, a map of crises was drawn within this chapter based on the data accumulated from different archives and correspondences between Algeria and Istanbul, and other Western countries.

The third chapter deals with the chronology of famine and epidemics where it is seen that more than 15 famines and 24 epidemics appeared in Algeria within the period of this study. These epidemics and famines appear to vary in terms of intensity and impact; therefore they were assorted through this chapter.

An examination of the preventive measures adopted responsible authorities takes place in the fourth chapter of the study, along with how society dealt with the different crises. Fifth and last chapter discusses the consequences of crises on the military, economic, political and cultural

level, it further examines how those consequences reflected on society's values and behaviors, outputs from this part led to the belief that some of the mindsets in today's Algeria are an extension of the social responses during the Ottoman period.

As a conclusion to study, all results of the crises on the social system were presented, along with set of annexes that served the study. The documents mentioned in the references part were mostly extracted from archives, in addition to to an inventory of various references five languages which are Arabic, Ottoman, French, English and Turkish.

Résumé

Les épidémies en Algérie durant la période ottomane (1700-1830)

Le fait de fouiller dans l'Histoire marginale est considéré comme l'un des nouveaux moyens scientifiques qui s'ingénie à comprendre l'Histoire de l'humanité dans ses moindres détails. Ainsi, dans cette étude, avons-nous tenté de suivre ce chemin qui est à même de nous renseigner sur des facettes encore obscures concernant l'Histoire de l'Algérie durant la période ottomane. Pour ce faire et afin de découvrir certains aspects de cette Histoire, le thème des crises sanitaire et alimentaire était notre outil.

Le principal but de cette étude est de redessiner la véritable réalité de ce qu'a été le Régence d'Alger durant cette époque. Néanmoins, nous ne sommes pas contentés dans notre thèse d'évoquer et de glaner d'ici de là les bribes relatives à ces crises et qui se trouvent dans des sources locales, dans les archives nationales et internationales, mais nous avons également essayé d'expliquer certaines traditions et réactions adoptées par la société pour faire face à ces famines et ces épidémies.

En analysant ces crises ainsi que les réactions et les tentatives de trouver leur explication, nous sommes parvenus à certains résultats qui font partie de la culture populaire des habitants de la Régence.

Afin de faire de cette étude une référence dans son domaine, nous avons adopté différentes méthodes historiques, entre autres ce que l'on appelle l'épidémiologie descriptive. Cette dernière se base sur les constituants descriptifs des activités épidémiques pour restructurer

l’image générale ; par conséquent, des constituants comme les facteurs entrainant les crises sanitaires et ses apparences deviennent largement plus puissants que les constituants analytiques.

Les méthodes analytique et comparative ont également été utilisées dans cette étude, et cela pour ne pas tomber dans le piège d’une étude descriptive et pour découvrir de nouveaux horizons entourant les influences des crises sur la vie sociale, économique, spirituelle et intellectuelle durant la période allant du XVIII jusqu’au début du XIX siècles.

Cette étude comporte une introduction et cinq chapitres. L’introduction est consacrée aux notions générales relatives au thème de notre recherche, c’est-à-dire les définitions des famines, des épidémies, leurs types, leurs différences et les relations qui les lient.

Le premier chapitre inventorie les écrits qui ont traité le sujet des crises sanitaire et alimentaire, des écrits que l’on peut trouver dans les anciennes études arabes et occidentales. La suite du chapitre est une description de l’état sanitaire et alimentaire général dans la Régence durant les XVI et XVII siècles et cela afin d’avoir une idée assez large de la situation.

Dans le deuxième chapitre, nous avons évoqué les causes directes et indirectes de l’apparition des famines et des épidémies dans la Régence du XVIII et XIX siècles. Nous avons cartographié les endroits des crises durant cette période en nous servant des informations trouvées dans les archives et les différentes correspondances entre Alger et la Grande Porte et entre Alger et les pays occidentaux.

Le troisième chapitre, nous l’avons consacré à la chronologie des famines et des épidémies en Algérie durant la période ottomane et nous

en avons recensé plus de quinze famines et plus de vingt-quatre épidémies. Leur degré d'intensité et d'influence variant d'une année à une autre, nous avons essayé de diviser ce chapitre en périodes dont chacune couvre une durée précise et un groupe distinct de crises.

Nous avons jugé de dédier le quatrième chapitre au questionnement du pouvoir politique gouvernant et de suivre sa manière de gérer les crises. Nous y avons parlé des procédures préventives adoptées et comment les différentes tranches de la société se comportaient vis-à-vis de ces crises sanitaire et alimentaire urgentes. Ainsi, trois attitudes ont été constatées: la fuite vers les montagnes, l'isolement à la maison et l'exil.

Le cinquième et dernier chapitre est consacré à l'impact de ces crises sur les différentes facettes de la vie. Nous y avons parlé des répercussions directe et indirecte de ces crises sur les aspects militaire, économique, politique et culturel. Nous avons également tenté de voir leurs effets sur la mentalité générale au sein de la société et cela nous a permis de conclure que certaines mentalités existant actuellement en Algérie sont la suite logique de réactions sociales remontant à la période ottomane.

Dans notre conclusion, nous avons présenté les résultats auxquels nous sommes parvenus suite à notre analyse des différents facteurs, manifestations et causes des crises et leurs impacts flagrants ou latents sur le système social. Notre conclusion est suivie par des annexes qui vont aider le lecteur à mieux saisir le contenu de notre recherche, une bibliographie des manuscrits utilisés et des références consultées (arabes, ottomanes, françaises, anglaises et turques).

فهرس المحتويات